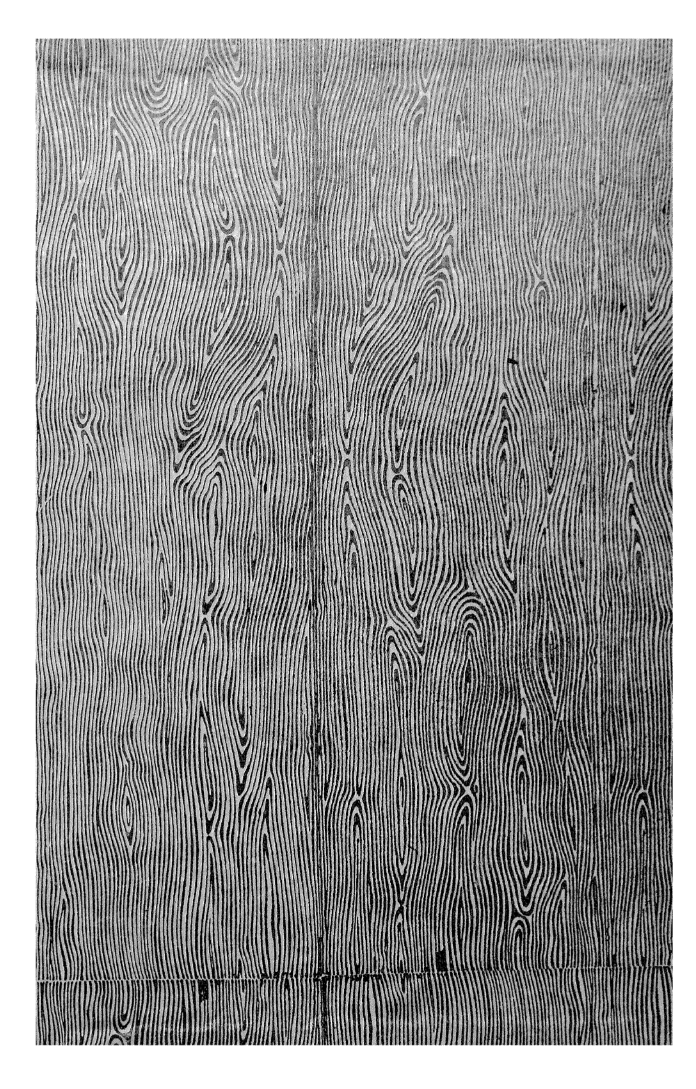
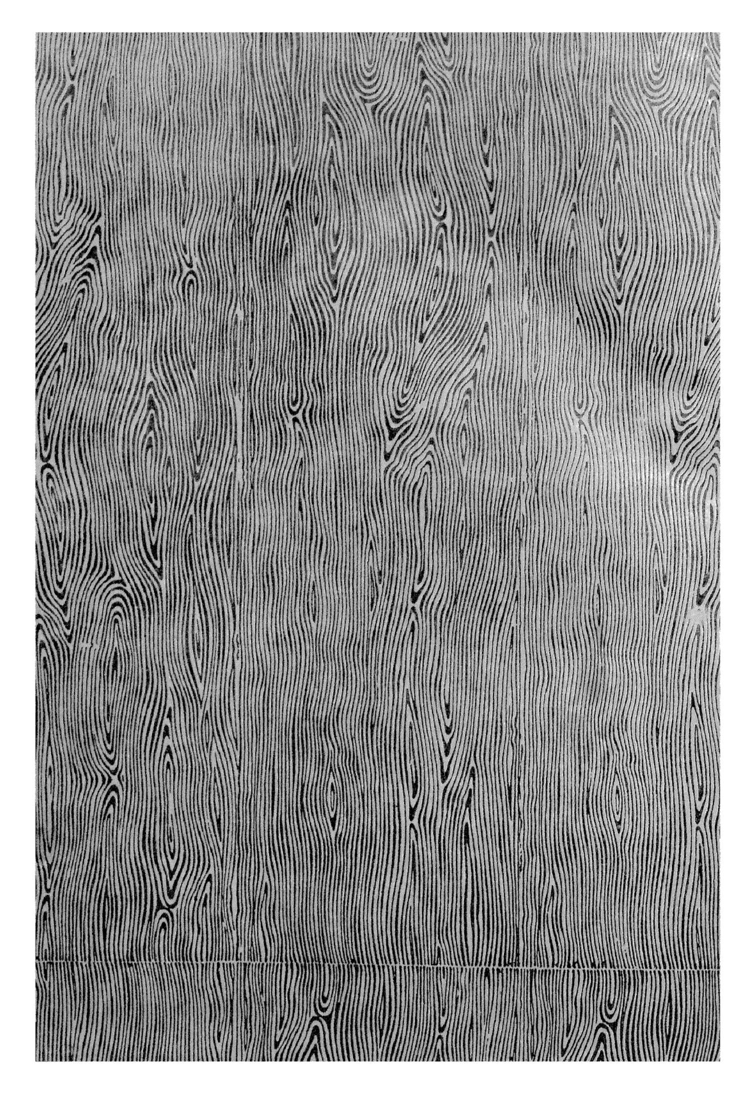
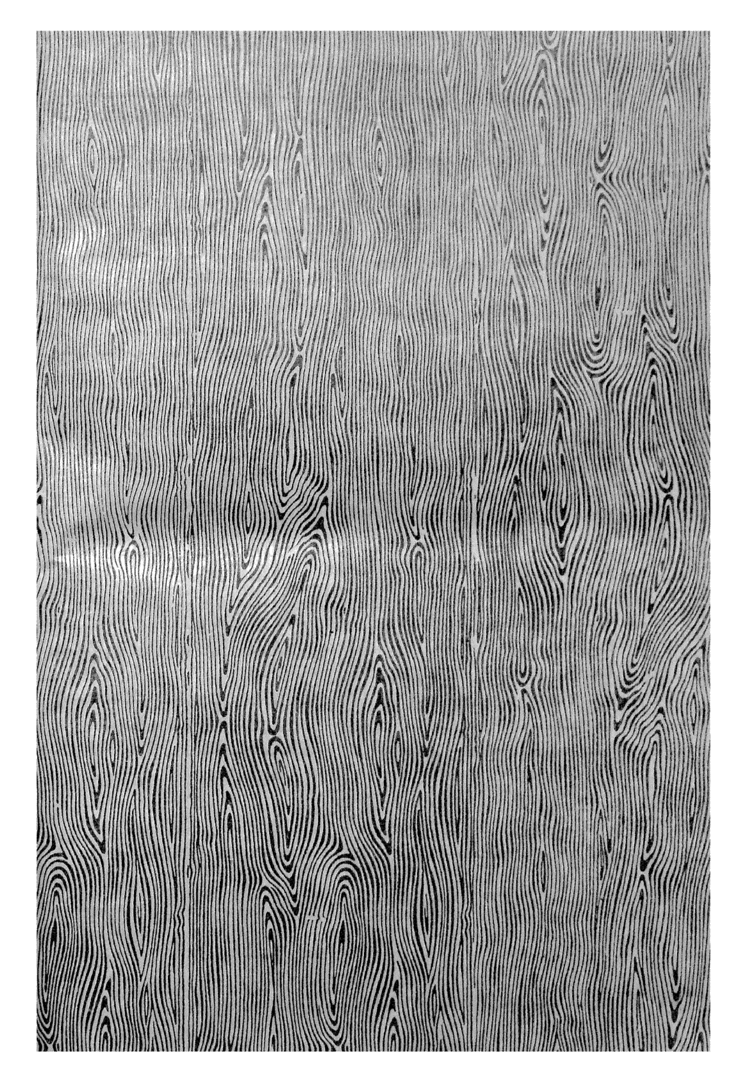








ملحق

إحياء علوم الدين

يشتمل هذا الملحق على

١ — تعريف الأحياء بفضائل الإحياء :

للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس

٢ — الإملاء عن إشكالات الإحياء :

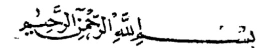
للإمام الغزالى : رد به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من كتابه « إحياء علوم الدين »

٣ — عوارف المعارف :

للعارف بالله تعالى : الإمام السهروردى

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص.ب ٥٧٨

كتاب تعريف الاحياء بفضائل الاحياء



الحمد لله الذى وفق لنشر المحاسن وطيها فى أحسن كتاب ، وجعل ذلك قرة لأعين الأحباب وذخيرة ليوم المآب والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أحياه بإحياء شريعته وطريقته قلوب ذوى الألباب، وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب ، ما أشرقت شمس الإحياء للقلوب وتوجهت ، همة روحانية مصنفه الولى الموهوب ، إلى إسعاف ملازمى مطالعته ومحبيه بالمطلوب .

وبعد : فإن الكتاب العظيم الشأن المسمى بإحياء علوم الدين ـ المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين وأهل طريق الله السالكين المشايخ العارفين ، المنسوب إلى الإمام الغزالى رضى الله عنه عالم العلماء وارث الأنبياء ، حجة الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتهجدين ، مقتدى الأئمة ، مبين الحل والحرمة، زين الملة والدين ، الذى باهى به سيد المرسلين ، ﷺ وعلى جميع الأنبياء ورضى عن الغزالى وعن سائر العلماء المجتهدين ـ لما كان عظيم الوقع ، كثير النفع ، جليل المقدار ، ليس له نظير فى بابه ولم ينسج على منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، مشتملا على الشريعة والطريقة كاشفا عن الغوامض الخفية مبيناً للأسرار الدقيقة : رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والدلالة على صبابة من فضله وشرفه ، ورشحة من فضل جامعه ومصنفه ورتبته على مقدمة ، ومقصد ، وخاتمة ، فالمقدمة فى عنوان الكتاب . والمقصد : فى فضائله وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه . والخاتمة فى ترجمة المصنف رضى الله عنه وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة .

المقدمة : فى عنوان الكتاب

اعلم أن علوم المعاملة التى يتقرب بها إلى الله تعالى تنقسم إلى ظاهرة وباطنة ، والظاهرة قسمان : معاملة بين العبد وبين الله تعالى، ومعاملة بين العبد وبين الخلق. والباطنة أيضاقسمان : مايجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة، وما يجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة . وقد بنى الإمام الغزالى رحمه الله كتابه « إحياء علوم الدين » على هذه الأربعة الأقسام فقال فى خطبته : ولقد أسسته على أربعة أرباع : ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب العلم كتاب قواعد العقائد . كتاب أسرار الطهارة . كتاب أسرار الصلاة . كتاب أسرار الزكاة . كتاب أسرار الصيام . كتاب أسرار الحج . كتاب تلاوة القرآن . كتاب الأذكار والدعوات . كتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات .

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب آداب الأكل . كتاب آداب النكاح. كتاب آداب الكسب. كتاب الحلال والحرام . كتاب آداب الصحبة . كتاب العزلة . كتاب اداب السفر . كتاب آداب السماع والوجد. كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . كتاب أخلاق النبوة .

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب . كتاب رياضة النفس . كتاب آفة الشهوتين : البطن والفرج . كتاب آفة اللسان . كتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، كتاب ذم الدنيا. كتاب ذم

المال والبخل . كتاب ذم الجاه والرياء . كتاب الكبر والعجب ، كتاب الغرور .

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة .كتاب الصبر والشكر . كتاب الخوف والرجاء . كتاب الفقر والزهد . كتاب التوحيد والتوكل . كتاب المحبة والشوق والرضا . كتاب النية والصدق والإخلاص . كتاب المراقبة والمحاسبة . كتاب التفكر . كتاب ذكر الموت.

ثم قال رحمه الله : فأما ربع العبادات فأذكر من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل اليها ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها ، وأكثر ذلك مما أهمل فى الفقهيات .

وأما ربع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ودقائق سننها ،وخفايا الورع فى مجاريها،وهى مما لا يستغنى المتدين عنها .

وأما ربع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكيةالنفس عنه وتطهيرالقلب منه،وأذكر فى كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذى منه يتولد ، ثم الآفات التى عليها يترتب ،ثم العلامات التى بها يتعرف ، ثم طرق المعالجة التى منها يتخلص ،كل ذلك مقرونا بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التى يتقرب بها العبد من رب العالمين ، وأذكر فى كل خصلة حدها وحقيقتها، وسببها الذى به تجتلب ، وثمرتها التى منها تستفاد ، وعلامتها التى بها تعرف ، وفضيلتها التى لأجلها فيها يرغب ، مع ماورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

المقصد : فى فضل الكتاب المشار إليه

وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه

اعلم أن فضائل الإحياء لاتحصى، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى ، جمع الناس مناقبه فقصروا وما قصروا، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، وعزمن أفرادها فماعلمت بتأليف ، وهى جديرة بالتصنيف ، غاص مؤلفه رضى الله عنه فى بحار الحقائق ، واستخرج جواهر المعانى ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال فى بساتين العلوم فاجتنى ثمارها بعد أن اقتطف من أزهارها، وسما إلى سماء المعانى فلم يصطف من كواكبها إلا السيارة،وجليت عليه عرائس أسرار المعانى فلم ترق فى عينه منهن إلا بادية النضارة ، جمع رضى الله عنه فأوعى ، وسعى فى إحياء علوم الدين فشكر الله له ذلك المسعى ؛ فلله دره من عالم محقق مجيد وإمام جامع لشتات الفضائل محرر فريد ، لقد أبدع فيما أودع كتابه من الفوائد الشوارد ، وقد أعرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيما أفاد فيه وأملى ، بيد أنه فى العلوم صاحب القدح المعلى إذ كان رضى الله عنه من أسرار العلوم بمحل لا يدرك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفضله فضله :

هيهات لا يأتى الزمان بمثله إن الزمان بمثله لشحيح

وما عسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ،ونظم أشتات الفضائل ، وأخذ برقاب المحامد ، واستولى على غايات المناقب ، فشجرته فى فوارة العلم والعلا والفهم والذكاء ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، مع كونه رضى الله عنه ذا الصدر الرحيب والقريحة الثاقبة والدراية الصائبة ، والنفس السامية والهمة العالية . ذكر الشيخ عبد الله ابن أسعد اليافعى رحمة الله عليه أن الفقيه العلامة قطب اليمن إسماعيل بن محمد الحضرمى ثم اليمنى سئل عن تصانيف الغزالى فقال من جملة جوابه : محمد بن عبد الله ﷺ سيد الأنبياء ومحمد بن إدريس الشافعى سيد الأئمة ومحمد بن محمد بن محمد الغزالى سيد المصنفين . وذكر اليافعى أيضاً أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن على بن حرزهم الفقيه المشهور المغربى كان بالغ الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين وكان مطاعاً مسموع الكلمة ، فأمر بجمع ماظفر به نسخ الإحياء وهم بإحراقها فى الجامع يوم الجمعة ، فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع فإذا هو بالنبى

صلى الله عليه وسلم فيه ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما والإمام الغزالى قائم بين يدى النبى ﷺ ؛ فلما أقبل ابن حرزهم قال الغزالى : هذا خصمى يارسول الله ، فإن كان الأمر كما زعم تبت إلى الله ، وإن كان شيئا حصل لى من بركاتك واتباع سنتك فخذ لى حقى من خصمى ، ثم ناول النبى ﷺ كتاب الإحياء ، فتصفحه النبى ﷺ ورقة ورقة من أوله إلى آخره ثم قال : والله إن هذا لشيء حسن ، ثم ناوله الصديق رضى الله عنه ، فنظر فيه فاستجازه . ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق إنه لشيء حسن ، ثم ناوله الفاروق عمر رضى الله عنه ، فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصديق ، فأمر النبى ﷺ بتجريد الفقيه على بن حرزهم عن القميص وأن يضرب ويحد حد المفترى ، فجرد وضرب ، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق رضى الله عنه وقال : يارسول الله لعله ظن فيه خلاف سنتك فأخطأ فى ظنه ، فرضى الإمام الغزالى وقبل شفاعة الصديق ، ثم استيقظ ابن حرزهم وأثر السياط فى ظهره ، وأعلم أصحابه وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالى واستغفر ، ولكنه بقى مدة طويلة متألما من أثر السياط وهو يتضرع إلى الله تعالى ويتشفع برسول الله ﷺ ، إلى أن رأى النبى ﷺ دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره فعوفى وشفى بإذن الله تعالى ، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ففتح الله عليه فيه ونال المعرفة بالله وصار من أكابر المشايخ أهل العلم الباطن والظاهر رحمه الله تعالى .

قال اليافعى: روينا ذلك بالأسانيد الصحيحة فأخبرنى بذلك ولى اللهعن ولى الله عن ولى الله عن ولى الله عن ولى الله الشيخ الكبير القطب شهاب الدين أحمد بن المليق الشاذلى عن شيخه الكبير العارف بالله ياقوت الشاذلى عن شيخه الكبير العارف بالله أبى العباس المرسى عن شيخه الشيخ الكبير شيخ الشيوخ أبى الحسن الشاذلى قدس الله أرواحهم وكان معاصراً لابن حرزهم قال : وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى : ولقد مات الشيخ أبو الحسن بن حرزهم رحمه الله يوم مات وأثر السياط ظاهر على ظهره . وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله وكان أدرك الإمام الغزالى واجتمع به قال : سمعت الإمام الفقيه الصوفى سعد بن على بن أبى هريرة الإسفراينى يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحد زين القراء جمال الحرم أبا الفتح الشاوى بمكة المشرفة يقول : دخلت المسجد الحرام يوما فطرأ على حال وأخذنى عن نفسى ، فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة مابى ، فوقعت على جنبى الأيمن تجاه الكعبة المعظمة وأنا على طهارة ، وكنت أطرد عن نفسى النوم ، فأخذتنى سنة بين النوم واليقظة، فرأيت النبى ﷺ فى أكمل صورة وأحسن زى من القميص والعمامة ، ورأيت الأئمة الشافعى ومالكا وأبا حنيفة وأحمد رحمهم الله يعرضون عليه مذاهبهم واحدا بعد واحد ، وهو ﷺ يقررهم عليها ، ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة فأمر النبى ﷺ بطرده وإهانته ، فتقدمت أنا وقلت : يارسول الله ، هذا الكتاب — أعنى إحياء علوم الدين — معتقدى ومعتقد أهل السنة والجماعة فلو أذنت لى حتى أقرأه عليك ، فأذن لى فقرأت عليه من « كتاب قواعد العقائد » :

بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول : الفصل الأول فى ترجمة عقيدة أهل السنة ، حتى انتهيت إلى قول الغزالى : وأنه تعالى بعث النبى الأمى القرشى محمدا ﷺ إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس ، فرأيت البشاشة فى وجهه ﷺ ، ثم التفت وقال : أين الغزالى ؟ وإذا بالغزالى واقف بين يديه فقال : هاأنا ذا يارسول الله ، وتقدم وسلم ، فرد عليه السلام ﷺ ، وناوله يده الكريمة فأكب عليها الغزالى يقبلها ويتبرك بها ، وما رأيت النبى ﷺ أشد سروراً بقراءة أحد عليه مثل ما كان بقراءتى عليه الإحياء ، ثم انتبهت والدمع يجرى من عينى من أثر تلك الأحوال والكرامات ، وكان تقريره ﷺ لمذاهب أئمة السنة ، واستبشاره بعقيدة الغزالى وتقريرها نعمة من الله عظيمة ، ومنة جسيمة ، نسأل الله تعالى أن يحيينا على سنته ويتوفانا على ملته آمين.

(فصل) أثنى على الإحياء غير عالم من علماء الإسلام ، وغير واحد من عارفى الأيام ، بل جمع أقطاب وأفراد ، فقال

فيه الحافظ الإمام الفقية أبو الفضل العراقى فى تخريجه : إنه من أجل كتب الإسلام فى معرفة الحلال والحرام . جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام . لم يقتصر فيه على مجرد الفروع «المسائل» ولم يتبحر فى اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه على الظاهر والباطن ، ومرج معانيها فى أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتديا بقول على كرم الله وجهه : خير هذه الامة النمط الاوسط يلحق بهم التالى ويرجع إليهم الغالى ، إلى آخر ماذكره مما الأولى بنا فى هذا المحل طله ، ثم الانتقال إلى نشر محاسن الإحياء ليظهر للمحب والمبغض رشده وغيه . وقال عبد الغافر الفارسى فى مثال الإحياء : إنه من تصانيفه المشهورة التى لم يسبق إليها . وقال فيه النووى : كاد الإحياء أن يكون قرآنا . وقال الشيخ أبو محمد الكازرونى : لو محت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء . وقال بعض علماء المالكية : الناس فى فضل علوم الغزالى أى والإحياء جامعها ، كما سيأتى أنه البحر المحيط . وكان السيد الجليل كبير الشأن تاج العارفين وقطب الاولياء الشيخ عبد الله العيدروس رضى الله عنه يكاد يحفظه نقلا وروى عنه أنه قال: مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء كل فصل وحرف منه وأعاوده وأتدبره فينظار لى منه فى كل يوم علوم وأسرار عظيمة ومفهومات غزيرة غير التى قبلها . ولم يسبقه أحد ولم يلحقه أحد أثنى على كتاب الإحياء بما أثنى عليه ، ودعا الناس بقوله وفعله إليه ، وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه . ومن كلامه رضى الله عنه : غليكم يا إخوانى بمتابعة الكتاب والسنة ، أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزالية ، خصوصا : كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس . ومن كلامه : عليكم بالكتاب والسنة أولا وآخراً وظاهراً وباطنا ، وفكرا واعتبارا واعتقادا ، وشرح الكتاب والسنة مستوفى فى كتاب إحياء علوم الدين للإمام حجة الإسلام الغزالى رحمه الله ونفعنا به . ومن كلامه : وبعد فليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين ، وبقية المجتهدين . حجة الإسلام الغزالى ، فى كتابه العظيم الشأن الملقب : أعجوبة الزمان « إحياء علوم الدين » الذى هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة . ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين فهو موضع نظر الله وموضع رضا الله ، فن أحبه وطالعه وعمل بما فيه فقد استوجب محبة الله ومحبة رسول الله ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة فى الدنيا والآخرة وصار عالما فى الملك والملكوت . ومن كلامه الوجيز العزيز : لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما فى الإحياء . ومن كلامه : اعلموا أن مطالعة الإحياء تحضر القلب الغافل فى لحظة كحضور سواد الحبر بوقوع الزاج فى العفص والماء ، وتأثير كتب الغزالى واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن . ومن كلامه : أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لاشىء أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالى ومحبة كتبه ، فإن كتب الإمام الغزالى لباب الكتاب والسنة ، ولباب المعقول ، والله وكيل على ما أقول . ومن كلامه . أنا أشهد سرا وعلانية أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين فهو من المهتدين . ومن كلامه : من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله أهل الظاهر والباطن فعليه بمطالعة كتب الغزالى خصوصاً « إحياء علوم الدين » فهو السحر المحيط . ومن كلامه : اشهدوا على أن من وقع على كتب الغزالى فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة . ومن كلامه : من اراد طريق الله ورسوله ورضاهما فعليه بمطالعة كتب الغزالى وخصوصاً البحر المحيط إحياء أعجوبة الزمان ، ومن كلامه : نطق معانى معنوى القرآن ، ولسان حال قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلوب الرسل والأنبياء ، وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الأتقياء ، بل جميع ارواح الملائكة ، بل جميع فرق الصوفية مثل العارفين والملامتية ، بل جميع سر حقائق الكائنات والمعقولات وما يناسب رضا الذات والصفات ، أجمع هؤلاء المذكورين أن لاشىء أرفع وأنفع وأبهى وأبهج وأتقى وأقرب رضا كتابعة الغزالى ومحبة كتبه ، وكتب الغزالى قلب الكتاب والسنة ، بل قلب المعقول والمنقول ، وأنفع يوم ينفخ إسرافيل فى الصور ، وفى يوم نقر الناقور ، والله وكيل على ما أقول ، وما الحياة إلا متاع الغرور . ومن كلامه : كتاب إحياء علوم الدين فيه جميع الأسرار ،

وكتاب بداية الهداية فيه التقوى ، وكتاب الأربعين الأصل فيه شرح المستقيم ، وكتاب منهاج العابدين فيه الطريق إلى الله ، وكتاب الخلاصة فى الفقه فيه النور . ومن كلامه : السر كله فى اتباع الكتاب والسنة : وهو اتباع الشريعة ، والشريعة مشروحة فى كتاب إحياء علوم الدين المسمى أعجوبة الزمان : ومن كلامه : بخ بخ بخ لمن طالع إحياء علوم الدين أوكتبه أوسمعه . وكلامه رضى الله عنه فى تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالى وكتبه ، والحث على العمل بها خصوصاً إحياء علوم الدين ، وقد كان سيدى ووالدى الشيخ العارف بالله تعالى شيخ ابن عبدالله العيدروس رضى الله عنه يقول : إن أمهل الزمان جمعت كلام الشيخ عبد الله فى الغزالى وسميته [الجوهر المتلالى ، ومن كلام الشيخ عبد الله فى الغزالى] فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوفقنى الله لذلك ، تحقيقاً لرجائه ورجاء أن يتناولنى دعاء الشيخ عبدالله رضى الله عنه ، فإنه قال غفر الله لمن يكتب كلامى فى الغزالى ، وناهيك ببشارة فى هذه العبارة التى برزت من ولى عارف وقطب مكاشف لا يجازف فى مقال ولا ينطق إلا عن حالى ، وفى هذا من الشرف للغزالى وكتبه مالا يحتاج معه إلى مزيد ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ فإن العظيم لا يعظم فى عينه إلا الأعظم ، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل ، وإذا تصدى العيدروس لتعريفه فقد أغنى تعريفه عن كل تعريف ووصف ، والشهادة منه خير من شهادة ألف ألف وحصل من الإحياء فى زمانه بسببه نسخ عديدة ، حتى إن بعض العوام حصلها لما رأى من ترغيبه فيه وألزم أخاه الشيخ عليا قراءته فقرأه عليه مدة حياته خمسا وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف ، ثم إن الشيخ عليا ألزم ولده عبد الرحمن قراءته عليه مدة حياته ، فختمه عليه أيضا خمسا وعشرين مرة ، وكان ولده سيدى الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن التزم بطريقة النذر على نفسه مطالعة شىء منه كل يوم ، وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول : لا أترك تحصيل الإحياء أبدا ماعشت ، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ : وكذلك كان سيدى الشيخ الوالد شيخ ابن عبدالله ابن شيخ ابن الشيخ عبد الله العيدروس رضى الله عنه مدمنا على مطالعته وحصل منه نسخا عديدة نحو السبع ، وأمر بقراءته عليه غير مرة ، وكان يعمل فى ختمه ضيافة عامة ، فلازمته ميراث عيدروسى وتوفيق قدوسى فمن وفقه الله لامتثاله والعمل بما فيه واستعماله بلغ الرتبة العليا وحاز شرف الآخرة والدنيا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير على أبى بكر ابن الشيخ عبد الرحمن السقاف : لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم ، ففيه سر خفى يجذب القلوب شبه المغناطيس . قلت : وهو صحيح ، فإنى مع خسيس قصدى وقساوة قلبى أجد عند مطالعتى له من انبعاث الهمة وعزوف النفس عن الدنيا مالا مزيد عليه ، ثم يفتر برجوعى إلى ما أنا فيه ومخالطة أهل الكثافات ، ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق ، وما ذاك إلا لشىء أودعه الله فيه وسر نفس مصنفه وحسن قصده ، والمراد بالكافر هنا فيما يظهر : الجاهل بعيوب النفس المحجوب عن إدراك الحق ، أى فبمجرد مطالعته الكتاب المذكور يشرح الله صدره وينور قلبه ، وذلك لأن الوعظ إذا صدر عن قلب متعظ كان حريا أن يتعظ به سامعه ، وكما أن الله تعالى جعل لعباده الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون رتبة فوق رتبة غيرهم ، كذلك جعل لما تبرز منهم ويؤخذ عنهم بركة زائدة على غيره ، لأن ألسنتهم كريمة وأنوار قلوبهم عظيمة ، وهممهم عليه وإشاراتهم سنية ، حتى يكون للقرآن أثر عظيم عند سماعه منهم ، وللأحاديث بهجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، وللمواعظ منهم تأثير فى قلوب ظاهر ، ولعلومهم وفقههم أنوار ونفع متظاهر ، حتى تجد الرجل له العلم القليل وبعد ذلك ينتفع به كثير لحسن نيته ووجود بركته وغيره له أكثر من ذلك العلم ولم ينتفع به مثله لأنه دونه فى منزلته ، ومن تأمل ذلك وجده أمراً ظاهرا معهودا ، وشيئا مجربا موجودا ، فانظر إلى نفع الناس بكتاب الخلاف فى مذهب مالك رحمه الله تعالى ، والتنبيه فى مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ، والجمل العربية والإرشاد فى علم الكلام وانتشارها ، مع أن ماحوت من العلم فى فنونها قليل . وقد جمع غير هؤلاء فى هذه الفنون فى مثل أجرام هذه الكتب أضعاف مافيها من تحقيق تحرير العبارة وتشقيق المعانى وتلخص الحدود ، وبعد هذا فالنفع بهذه أكثر وهى أظهر وأشهر ،

لأن العلم بمزيد التقوى وقوة سر الإيمان لا بكثرة الذكاء وفصاحة اللسان ، كما بين ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله : ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يضعه الله فى القلب ، قلت ومما أنشده الشيخ على بن أبى بكر رضى الله عنه لنفسه فيه قوله :

أخى انتبه والزم سلوك الطرائق ... وسارع إلى المولى بجد وسابق
أيا طالبا شرح الكتاب وسنة ... وقانون قلب القلب بحر الرقائق
وإيضاح منهج للحقيقه مشرق ... وشرب حميا صفو راح الحقائق
وإجلاء أذكار المعانى ضواحكا ... بباهج حسن جاذب للخلائق
عليك بإحياء العلوم ولبها ... وأسرارها كم قد حوى من دقائق
وكم من لطيفات لذى اللب منهل ... وكم من مليحات سبت لب حاذق
كتاب جليل لم يصنف قبله ... ولا بعده مثل له فى الطرائق
فكم من بديع اللفظ يجلى عرائسا ... وكم من شموس فى حماه شوارق
معانيه أضحت كالبدور سواطعا ... على در لفظ للمعانى مطابق
وكم من عزيزات زهت فى قبابها ... محجبة عن غير كفء مسابق
وكم من لطيف مع بديع وتحفة ... حلاوتها كالشهد تحلو لذائق
بساتين عرفان وروض لطائف ... وجنة أنواع العلوم الفوائق
رعى الله صبارا تعافى جنانها ... يروح ويغدو بين تلك الحقائق
ويقطف من ذاكى جناها فواكها ... بساحل بحر بالجواهر دافق
خضم طمى قد علا فوق من علا ... بشامخ مجد مشرق بالحقائق
فإن لم بهذا القول تؤمن فجربن ... وأقبل على تلك المعانى وعانق
وراجع طريقا فى بديع جمالها ... وطف فى حماها منشدا كل سابق
ترى فى بدور الحى أقمار قد بدت ... بعالى جمال مدهش لب عاشق
فكم أنهلت صبا وكم قشعت عمى ... وكم قد سمت فى غربها والمشارق
فيضحى براح الحب سكران مغرما ... أصم عن العذال غير موافق
ويمسى يناديها طريحاً ببابها ... منعم عيش فى الربوع الغوادق
صلاة على سر الوجود شفيعنا ... محمد المختار خير الخلائق
وأصحابه أهل المكارم والعلا ... وعترته وراث علم الحقائق

(فصل) وأما ما أنكر عليه فيه من مواضع مشكلة الظاهر ـ وفى التحقيق لا إشكال ـ أو أخبار وآثار تكلم فى سندها ؛ فأما من جهة تلك المواضع فمن أجاب عنها المصنف فى كتابه المسمى (بالأجوبة) وأسوق لك نبذة من ذلك هنا ، قال رحمه الله : سألت ـ يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها وقرب لك مقامات الأولياء تحل معاليها ـ عن بعض ما وقع فى الإملاء الملقب بالإحياء ، عما أشكل على من حجب وقصر فهمه ولم يفز بشىء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطغام ومثال الأنعام وأتباع العوام وسفهاء الأحلام وعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعته، وأفتوا بالهوى مجردا على غير بصيرة بإطراحه ومنابذته وسبوا عمليه إلى ضلال وإضلال ، ورموا قراءه ومنتحليه بزيغ عن الشريعة واختلال ، إلى أن قال : ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ... وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾ ثم ذكر آيات أخرى فى المعنى ، ثم وصف الدهر وأهله وذهاب العلم وفضله ثم ذكر عذر المعترضين بما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجهل وقلة الدين ، بل أفصح بذلك فى الآخر

حيث قال حجبوا عن الحقيقة بأربعة : الجهل والإصرار ، ومحبة الدنيا ، وإظهار الدعوى . ثم بين ما ورثوه عن الأربعة المذكورة . قال : فالجهل أورثهم السخف إلى آخر ماذكره وأما ما اعترض به من تضمينه أخبارا وآثارا موضوعة أو ضعيفة ، وإكثاره من الأخبار والآثار — يتحاشى منه المتورع لئلا يقع فى الموضوع .

وحاصل ما أجيب به الغزالى — ومن المخبين الحافظ العراقى — أن أكثر ماذكره الغزالى ليس بموضوع كما برهن عليه فى التخريج ، وغير الأكثر وهو فى غاية القلة رواه عن غيره أو تبع فيه غيره متبرئا منه بنحو صيغة «روى» وأما الاعتراض عليه أن فيما ذكره الضعف بكثرة ، فهو اعتراض ساقط ، لما تقرر أنه يعمل فى الفضائل ، وكتابه فى الرقائق فهو من قبيلها ، ولأن له أسوة بأئمة الأئمة الحفاظ فى اشتمال كتبهم على الضعيف بكثرة المنبه على ضعفه تارة والمسكوت عنه أخرى ، وهذه كتب الفقه للمتقدمين — وهى كتب الأحكام لا الفضائل — يوردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها ، حتى جاء النووى رحمه الله فى المتأخرين ونبه على ضعف الحديث وخلافه ، كما أشار إلى ذلك كله العراقى قال عبد الغافر الفارسى سبط القشيرى: ظهرت تصانيف الغزالى وفشت ولم يبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه ولا لمآثره ... إلى آخر ماذكره . ومما يدلك على جلالة كتب الغزالى ما نقل ابن السمعانى من رؤيا بعضهم فيما يرى النائم : كأن الشمس طلعت من مغربها مع تعبير ثقات المعبرين ببدعة تحدث ، فحدثت فى جميع المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه، ومن أنه لما دخلت مصنفاته إلى المغرب أمر سلطانه على بن يوسف بإحراقها لتوهمه اشتمالها على الفلسفة وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك ، فظهر بسبب أمره فى مملكته مناكير ووثب عليه الجند ، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد فى عكس ونكد ، بعد أن كان عادلا .

خاتمة فى الإشارة إلى ترجمة المصنف رضى الله عنه

وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضى الله عنهم

أما ترجمته رضى الله عنه فهو الإمام زين الدين حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى النيسابورى الفقيه الصوفى الشافعى الأشعرى ، الذى انتشر فضله فى الآفاق وفاق ، ورزق الحظ الأوفر فى حسن التصانيف وجودتها ، والنصيب الأكبر فى جزالة العبارة وسهولتها وحسن الإشارة وكشف المعضلات والتبحر فى أصناف العلوم فروعها وأصولها . ورسوخ القدم فى منقولها ومعقولها ، والتحكم والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها مع ماخصه الله به من الكرامة وحسن السيرة والاستقامة وزهد ، والعزوف عن زهرة الدنيا والإعراض عن الجهات الفانية وإطراح الحشمة والتكلف . قال الحافظ العلامة ابن عساكر والشيخ عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعى والفقيه جمال الدين عبد الرحيم الأسوى رحمهم الله تعالى : ولد الإمام الغزالى بطوس سنة خمسين وأربعمائة ، وابتدأ بها فى صباه بطرف من الفقه ، ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين ، وجد واجتهد حتى تخرج فى مدة قريبة وصار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة فى أيام إمامه وصنف، وكان الإمام يتبجح به ويعتد بمكانه منه، ثم خرج من نيسابور وحضر مجلس الوزير نظام الملك فأقبل عليه وحل منه محلا عظيما لعلو درجته وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محطا لرجال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء ، ووقع للإمام الغزالى فيها اتفاقات حسنة من مناظرة الفحول، فظهر اسمه وطار صيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار إليها وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، فصار إمام العراق بعد أن حاز إمامة خراسان ، وارتفعت درجته فى بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأمر من جهة أخرى فترك بغداد وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة مشتغلا بأسباب التقوى ، وأخذ فى التصانيف المشهورة التى لم يسبق إليها مثل « إحياء علوم الدين » وغيره ، التى من تأملها عرف محل مصنفها من العلم . قيل إن تصانيفه وزعت على أيام

عمره فأصاب كل يوم كراس ، ثم صار إلى القدس مقبلا على مجاهدة النفس وتبديل الأخلاق وتحسين الشمائل حتى مرن على ذلك ، ثم عاد إلى وطنه طوس لازما بيته مقبلا على العبادة ونصح العباد وإرشادهم ودعائهم إلى الله تعالى ، والاستعداد للدار الآخرة يرشد الضالين ويفيد الطالبين دون أن يرجع إلى ما انخلع عنه من الجاه والمباهاة . وكان معظم تدريسه فى التفسير والحديث والتصوف ، حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الأولى سنة خمس وخمسمائة - خصه الله تعالى بأنواع الكرامه فى أخراه كما خصه بها فى دنياه - قيل : وكانت مدة القطبية للغزالى ثلاثة أيام على ما حكى فى كرامات الشيخ سيد العمودى نفع الله به . وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى رحمه الله تعالى بإسناده الثابت إلى الشيخ الكبير القطب الربانى شهاب الدين أحمد الصياد اليمنى الزبيدى وكان معاصراً للغزالى نفع الله بهما قال : بينما أنا ذات يوم قاعد إذ نظرت إلى أبواب السماء مفتحة وإذا عصبة من الملائكة الكرام قد نزلوا ومعهم خلع خضر ومركوب نفيس ، فوقفوا على قبر من القبور وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع وأركبوه وصعدوا به من سماء إلى سماء إلى أن جاوزت السموات السبع وخرق بعدها ستين حجابا ولا أعلم اين بلغ انتهاؤه ، فسألت عنه فقيل لى : هذا الإمام الغزالى ، وكان ذلك عقيب موته رحمه الله تعالى ، ورأى فى النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه النبى صلى الله عليه وسلم وقد باهى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالى وقال : أفى أمتكما حبر كهذا ؟ قالا لا ، وكان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه يقول لأصحابه : من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتوسل بالغزالى . وقال جماعة من العلماء رضى الله عنهم منهم الشيخ الامام الحافظ ابن عساكر فى الحديث الوارد عن النبى صلى الله عليه وسلم : فى أن الله تعالى يحدث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة : أنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وعلى رأس المائة الثانية الامام الشافعى رضى الله عنه ، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام الحسن الأشعرى رضى الله عنه ، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلانى رضى الله عنه ، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالى رضى الله عنه . روى ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى الإمامين الأولين أعنى عمر بن عبد العزيز والشافعى ، ومناقبه رضى الله عنه أكثر من أن تحصر ، وفيما أوردناه مقنع وبلاغ . ومن مشهورات مصنفاته : البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، والخلاصة فى الفقه وإحياء علوم الدين : وهو أنفس الكتب وأجلها ، وله فى أصول الفقه : المستصفى ، والمنخول ، والمنتحل فى علم الجدل ، وتهافت الفلاسفة ، ومحك النظر ، ومعيار العلم ، والمقاصد ، والمضنون به على غير أهله ومشكاة الأنوار ، والمنقذ من الضلال ، وحقيقة القولين ، وكتاب «ياقوت التأويل فى تفسير التنزيل» أربعين مجلدا ، وكتاب أسرار علم الدين ، وكتاب منهاج العابدين ، والدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة ، وكتاب الأنيس فى الوحدة ، وكتاب القربة إلى الله عزوجل ، وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار ، وكتاب بداية الهداية ، وكتاب جواهر القرآن ، والأربعين فى أصول الدين ، وكتاب المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب ميزان العمل ، وكتاب القسطاس المستقيم ، وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ، وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة ، وكتاب المبادى والغايات ، وكتاب كيمياء السعادة ، وكتاب تلبيس إبليس ، وكتاب نصيحة الملوك ، وكتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ، وكتاب شفاء العليل فى القياس والتعليل ، وكتاب المقاصد ؛ وكتاب إلجام العوام عن علم الكلام ، وكتاب الانتصار وكتاب الرسالة اللدنية وكتاب الرسالة القدسية ، وكتاب إثبات النظر ، وكتاب المأخذ ، وكتاب القول الجميل فى الرد على من غير الإنجيل ، وكتاب المستظهرى ، وكتاب الأمالى ، وكتاب فى علم أعداد الوفق وحدوده ، وكتاب مقصد الخلاف ، وجزء فى الرد على المنكرين فى بعض ألفاظ إحياء علوم الدين ، وكتبه كثيرة وكلها نافعة .

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأقليشى والمحدث الصوفى صاحب كتاب النجم والكواكب :

أبا حامد أنت المخصص بالمجد ... وأنت الذى علمتنا سنن الرشد

وضعت لنا الاحياء تحيى نفوسنا ... وتنقذنا من طاعة النازغ المردى

فربع عباداته وعاداته التي يعاقبها كالدر نظم في العقد
وثالثها في المهلكات وأنه لمنج من الهلك المبرح والعبد
ورابعها في المنجيات وأنه ليسرح بالارواح في جنة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر ومنها صلاح للقلوب من الحقد

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحسانه لها فذكر رحمه الله في كتابه المنقذ من الضلال ماصورته :
أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ في الدين ان أبث لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية المذاهب واغوارها ، وأحكي لك ماقاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولا من علم الكلام وما احتويته من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تعليم الامام ، وماازدريته ثالثا من طرق أهل التفلسف ، وماارتضيته آخرا من طرق أهل التصوف ، وما انتحل لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل أهل الحق ، وماصرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعاني إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة ، فابتدرت لإجابته إلى طلبتك بعد الوقوف على صدق رغبتك ، فقلت مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه ومستوفقا منه وملتجئا إليه :

اعلموا — أحسن الله إرشادكم ، وألان إلى قبول الحق انقيادكم — أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق : بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ ولم أزل في عنفوان شبابي — مذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى أن أناف السن على الخمسين — أقتحم لجة البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور ، لاخوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأتكشف أسرار مذاهب كل طائفة ، لأميز بين كل محق ومبطل ومستن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا إلا واجب أن أطلع على باطنيته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولافلسفيا إلا واقصد الوقوف على فلسفته ، ولامتكلما إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولاصوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولامتعبدا إلا وأريد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولازنديقا معطلا إلا وتجسس وراءه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الامور دأبي وديدني من أول امري وريعان عمري ، غريزة من الله وفطرة وضعها الله في جبلتي ، لاباختياري وحيلتي انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عني العقائد المروية على قرب عهد مني بالصبا ، إذ رأيت صبيان النصارى لايكون لهم نشء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لايكون لهم نشء إلا على اليهود ، وصبيان الاسلام لايكون لهم نشء إلا على الاسلام ، وسمعت الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » فتحرك باطني إلى طلب الفطرة الاصلية ، وحقيقة العقائد بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتميز بين هذه التقليدات ، وأوائلها ، وفي تمييز الحق منها من الباطل اختلافات ، فقلت في نفسي أولا : إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور ، ولا بد من طلب حقيقة العلم ماهي ؟ فظهر لي أن العلم اليقين هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لايبقى معه ريب ، ولايقارنه إمكان الغلط كالوهم ، ولا يتسع العقل لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا للنقص مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا وإمكانا ، فإني إذا علمت ان العشرة أكثر من الواحد لوقال لي قائل : الواحد أكثر من العشرة بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها وشاهدت ذلك منه ، لم أشك في معرفتي لكذبه ، ولم يحصل معي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ، وأما الشك فيما علمته فلا . ثم علمت أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه من هذا النوع من اليقين فهو علم لاثقة به ، وكل علم لا أمان معه ليس بعلم يقيني ، ثم فتشت على علومي فوجدت نفسي عاطلا عن علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات ، فقلت الآن بعد حصول اليأس لامطمع في اقتباس

المستيقنات إلا من الجليات وهى الحسنات والضروريات ، فلابد من أحكامها أولا لأتبين أن يقيني بالمحسوسات وأماني من الغلط فى الضروريات من جنس أماني الذى كان من قبل فى التقليدات أو من جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات ، ومن أمان محقق لاتجوز فيه ولا غائلة له ، فأقبلت بجد أتأمل فى المحسوسات والضروريات ، أنظر هل يمكنني أشكك نفسي فيها ؟ فأنتهى بعد طول التشكك بي إلى أنه لم تسمح نفسي بتسليم الأمان فى المحسوسات ، وأخذ يتسع الشك فيها ، ثم أني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعلقته وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت ما أردت أن أصنفه ، فصادفته علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودي ، ولم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم عزمي على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم يوما . وأقدم فيه رجلا وأوخر فيه أخرى ، ولا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة إلا حمل عليها جند الشهوة جملة فيفيرها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسبب ميلها إلى المقام ومنادى الايمان ينادي : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل رياء وتخييل ، وإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطعها ؟ فعند ذلك تنبعث الرغبة وينجزم الأمر على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل العريض ، والشأن العظيم الخالى عن التكدير والتنغيص والأمر السالم الخيالى عن منازعة الخصوم ربما التفتت إليه نفسك ولا تتيسر لك المعاودة ، فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعي قريبا من ستة أشهر : أولها رجب من سنة ست وثمانين وأربعمائة . وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضرار ، إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحدا تطيبياً للقلوب المختلفة إلى فكان لاينطق لساني بكلمة ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطلت معه قوة الهضم ومريء الطعام والشراب ، وكان لاتنساغ لى شربة ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم فى العلاج وقالوا : هذا هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا أن يتروح السر عن الهم ، ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري التجأت الله التجاء المضطر الذى لاحيلة له فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعا ، وسهل على قلبي الإعراض عن المال والجاه والأهل والأولاد ، وأظهرت غرض الخروج إلى مكة وأنا أدبر فى نفسي سفر الشام ، حذرا من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على غرضي فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبدا ، واستهزأ بي أئمة العراق كافة ، إذ لم يكن فيه من يجوز أن يكون الاعراض عما كنت فيه سبباً دينيا ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، فكان ذلك هو مبلغهم من العلم . ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات . فظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة . وأما من قرب منهم فكان يشاهد لجاجهم فى التعلق بي والإنكار على وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلى قولهم . فيقولون هذا أمر سماوي ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة العلم . ففارقت بغداد وفارقت ما كان معى من مالى ولم أدخر من ذلك إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال . ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفا على المسلمين . ولم أر فى العالم ما يأخذ العالم لعياله أصلح منه . ثم دخلت الشام وأقمت فيه قريباً من سنتين لاشغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية ، وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي ، ثم تحرك بي داعية فريضة الحج والاستعداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة النبى صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، ثم صرت إلى الحجاز ، ثم جذبتني الهمم ودعوات الاطفال إلى الوطن ، وعادته بعد أن كنت أبعد الخلق عن أرجع إليه ، وآثرت العزلة حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعيشة تغير فى وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لى الحال إلا فى أوقات متفرقة ، لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى عنها فيدفعنى عنها العوائق

وأعود اليها ، ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذى ينبغى أن نذكره لينتفع به أنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ؛ فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ،وبالجملة ماذا يقول القائل فى طريقه أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحرم فى الصلاة استغراق القلب بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى ،وهو أقواها بالإضافة إلى ماتحت اختيار . انتهى .

قال العراقى : فلما نفذت كلمته وبعد صيته وعلت منزلته وشدت اليه الرحال وأذعنت له الرجال ، شرفت نفسه عن الدنيا واشتاقت إلى الأخرى ، فاطرحها وسعى فى طلب الباقية، وكذلك النفوس الزكية، كما قال عمر بن عبدالعزيز إن لى نفساً تواقة : لما نالت الدنيا تاقت إلى الآخرة قال بعض العلماء : رأيت الغزالى رضى الله عنه فى البرية وعليه مرقعة وبيده عكاز وركوة . فقلت له : ياإمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا؟ فنظر إلى شذراً وقال : لما بزغ بدر السعادة فى فلك الإرادة وظهرت شموس الوصل :

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتنى الأشواق مهلا فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل

{ انتهى كتاب تعريف الإحياء بفضائل الأحياء بعونه تعالى }

كتاب الإملاء فى اشكالات الاحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ماخصص وعمم ، وصلى الله على سيد جميع الأنبياء المبعوث إلى العرب والعجم ، وعلى آله وعترته وسلم كثيراً وكرم .

سألت — يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الولاية تحمل معالمها — عن بعض ماوقع فى الإملاء الملقب بالإحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ، ولم يفز بشىء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطغام وأمثال الأنعام ، وأجماع العوام وسفهاء الأحلام ودعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة باطراحه ومنابذته ، ونسبوا ممليه إلى ضلال وإضلال ، وتبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ فى الشريعة واختلال ؛ فإلى الله انصرافهم ومآبهم ، وعليه فى العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسئلون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولكن الظالمون فى شقاق بعيد ، ولا عجب فقد ثوى أدلاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، ولم يبق فى الغالب إلا أهل الزور والفسوق ، متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة ، متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، متعاطين لحجج غير صادقة ؛ كل ذلك لطلب الدنيا أو محبة ثناء أو مغالبة نظراء ، قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر ، وتألفوا جميعاً على المنكر ، وعدمت النصائح بينهم فى الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر ؛ إن نصحتهم العلماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ؛ أولئك الجهال فى علمهم ، الفقراء فى طولهم ، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم ، لايفلحون ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لاتظهر عليهم مواريث الصدق ، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولاتحقق لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية ، لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ، ومراتب النجباء ، وخصوصية البدلاء ، وكرامة الأوتاد وفوائد الأقطاب ، وفى هذه أسباب السعادة وتتمة الطهارة ، لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق وعلموا علة أهل الباطل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوة ، ولكن ليس هذا من بضائعهم ؛ حجبوا عن الحقيقة بأربع : بالجهل ، والإصرار ، ومحبة الدنيا ، وإظهار الدعوى . فالجهل أورثهم السخف ، والإصرار أورثهم التهاون ، ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة ، وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والإعجاب والرياء ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ ﴿ وهو على كل شىء شهيد ﴾ فلا يغرنك — أعاذنا الله وإياك من أحوالهم — شأنها ، ولا يذهلنك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردهم وطغيانهم ، ولا يغوينك بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم ، فكأن قد جمع الخلائق فى صعيد ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ وتلا ﴿ لقد كنت فى غفلة من هـذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ فياله من موقف قد أذهل ذوى العقول عن القال والقيل ، ومتابعة الأباطيل ، فأعرض عن الجاهلين ، ولا تطع كل أفاك أثيم ﴿ وإن كان كبر عليك

إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ ﴿ فاصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ ولقد أجبناك ـ بحول الله وقوته وبعد استخارته ـ عما سألت عنه وخاصة مازعمت فيه من تخصيص الكلام بالمثل الذى ذكر فيه الأقلام ، إذ قد اتفق أن يكون أشهر مافى الكتاب وأكثر تصرفا على ألسنة الصدور والأصحاب ، حتى لقد صار المثل المذكور فى المجالس تحية الداخل وحديث الجالس ، فساعدتنا أمنيتك ، ولولا العجلة والاشتغال لأضفنا إلى إملائنا هذا بيانا غيره مما عدوه مشكلا . وصار لعقولهم الضعيفة مخبلا ومضللا ، ونحن نستعيذ بالله من الشيطان . ونستعصم به من جراءة فقهاء الزمان ، ونتضرع إليه فى المزيد من الإحسان ، إنه الجواد المنان .

ذكر مراسم الأسئلة فى المثل

ذكرت ـ رزقك الله ذكره وجعلك تعقل نهيه وأمره ـ كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب ، ولفظة التوحيد تنافى التقسيم فى المشهود كما ينافى التكرير التعديد وإن صح انقسامه على وجه لا ينفع ، فهل نصح تلك القسمة فيما يوجد أو فيما يقدر ، ورغبت من مزيد البيان فى تحقيق كل مرتبة ، وانقسام طبقات أهلها فيها إن كان يقع بينهم التفاوت ، وماوجه تمثيلها بالجوز فى القشور واللبوب ؟ ولم كان الأول لا ينفع والآخر الذى هو الرابع لايحل إفشاؤه؟ وما معنى قول أهل هذا الشأن : إفشاء سر الربوبية كفر ؟ أين أصل ماقالوه فى الشرع ؟ إذ الإيمان والكفر والهداية والضلال والتقريب والتبعيد والصديقية وسائر مقامات الولاية ودركات المخالفة إنما هى مآخذ شرعية وأحكام نبوية وكيف يتصور مخاطبة العقلاء الجمادات؟ ومخاطبة الجمادات العقلاء ؟ وبماذا تسمع تلك المخاطبة ؟ أبحاسة الآذان أم يسمع القلب ؟ وما الفرق بين القلم المحسوس والقلم الإلهى ؟ وماحد عالم الملك وعالم الجبروت وحد عالم الملكوت؟ ومامعنى أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ وما الفرق بين الصورة الظاهرة التى يكون معتقدها منزها مجللا ؟ ومامعنى الطريق فى ﴿ فإنك بالوادى المقدس طوى ﴾ ولعله ببغداد أو أصفهان أو نيسابور أو طبرستان فى غير الوادى الذى سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى ، وما معنى فاستمع يسر قليل لما يوحى ؟ وهل يكون سماع القلب بغير سره ؟ وكيف يسمع لما يوحى من ليس بنبى ؟ أذلك على طريق التعميم أم على سبيل التخصيص ، ومن له بالتسليق إلى مثل ذلك المقام حتى يسمع أسرار الإله وإن كان على سبيل التخصيص ، والنبوة ليست محجورة على أحد الإعلى من قصر على سلوك تلك الطريق ، ومايسمع فى النداء إذا سمع هل أسمع موسى أو أسمع نفسه ؟ ومامعنى الأمر للسالك بالرجوع من عالم القدرة ونهيه عن أن يتخطى رقاب الصديقين ؟ وما الذى أوصله إلى مقامهم وهو فى المرتبة الثالثة وهى توحيد المقربين ؟ وما معنى انصراف السالك بعد وصوله إلى ذلك الرفيق ؟ وإلى أين وجهته فى الانصراف وكيف صفة انصرافه؟ وماالذى يمنعه من البقاء فى الموضع الذى وصل إليه وهو أرفع من الذى خلفه ! أين هذا من قول أبى سليمان الدارانى المذكور فى غير الإحياء : لو وصلوا ما رجعوا ،ما وصل من رجع ! وما معنى بأن ليس فى الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبا ولا أكمل صنعا ولو كان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخلا يناقض الجود وعجزا يناقض القدرة الإلهية ! وما حكم هذه العلوم المكنونة هل طلبها فرض أو مندوب إليه أو غير ذلك ؟ ولم كسبت المشكل من الألفاظ واللغز من العبارات ؟ وإن جاز ذلك للشارع فيما له أن يختبر به ويمتحن ، فما بال من ليس شارعا ؟ انتهى جملة مراسم الأسئلة فى المثل .

فأسأل الله تعالى أن يملى علينا ماهو الحق عنده فى ذلك ، وأن يجرى على ألسنتنا ما يستضاء به فى ظلمات المسالك وأن يعم بنفعه أهل المبادى والمدارك ، ثم لابد أن أمهد مقدمة ، وأؤكد قاعدة ، وأؤكد وصية .

أما المقدمة فالعرض بها تبيين عبارات انفردبها أرباب الطريق تغمض معانيها على أهل القصور فنذكر مايغمض منها

ونذكر المقصد بها عندهم ، قرب واقف على مايكون من كلامنا مختصا بهذا الفن فى هذا وغيره فيتوقف عليه فهم معناه من جهة اللفظ .

وأما القاعدة فنذكر فيها الاسم الذى يكون سلوكنا فى هذه العلوم عليه ، والسمت الذى تنوى بمقصدنا إليه ؛ ليكون ذلك أقرب على المتأمل وأسهل على الناظر المتفهم .

وأما الوصية ، فنقصد فيها تعريف ما على من نظر فى كلام الناس وآخذ نفسه بالاطلاع على أعراضهم فيما أقووه من تسانيفهم ، وكيف يكون نظره فيها واطلاعه عليها واقتباسه منها ، فذلك أوكد عليه أن يتعلمه من ظهورها فشردوا عنها وعلقت فى وجوههم الأبواب وأسدل دونهم الحجاب ، ولو اتوها من أبوابها بالترحيب وولجوا على الرضا بالحبيب لكشف لهم كثير من حجب العيوب ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

المقدمـــــة

اعلم أن الألفاظ المستعملة منها ما يستعمله الجماهير والعموم ، ومنها ما يستعمله أرباب الصنائع على ضربين : علمية ، وعملية ، فالعملية كالمهن والحرف ولأهل كل صناعة منهم ألفاظ يتفاهمون بها آلاتهم ، ويتعاطون أصول صناعتهم . والعلمية هى العلوم المحفوظة بالقوانين المعدلة بما تحرر من الموازين ، ولأهل كل علم أيضاً ألفاظ اختصوا بها لايشاركهم فيها غيرهم إلا أن يكون ذلك بالاتفاق من غير قصد ، وتكون المشاركة إذا اتفقت إما فى صورة اللفظ دون المعنى ، أو فى المعنى وصورة اللفظ جميعا . وهذا يعرفه من بحث عن مجارى الألفاظ عند الجمهور وأرباب الصنائع . وإنما سمينا من العلوم صنائع ما قصد فيها التصنع بالترتيب فى التقسيم واختيار لفظ دون غيره وحده بطرفين : مبدإ ، ونهاية ، وما لم يكن كذلك فلا نسميه صناعة كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضى الله عنهم ، فإنهم لم يكونوا فيم عندهم من العلم على طريق من بعدهم ، ولا كانت العلوم عندهم بالرسم الذى هو عند من خلفهم ، ومثل ذلك علوم العرب ولسانها لا تسميها عندهم صناعة ونسميها بذلك عند ضبطها بما أشهر من القوانين وتقرر من الحصر والترتيب . ولأرباب العلوم الروحانية وأهل الإشارات إلى الحقائق والمسمين بالسادة ، والملقبين بالصوفية والمتشبهين بالفقراء ، والمعروفين بالرقة ، والمعزى إليهم العلم والعمل : ألفاظ جرى رسمهم بالتخاطب بها فيما يتذاكرون أو يذكرونه ، ونحن إن شاء الله يذكر مايغمض منها ، إذقد يقع منا عندما يذكر شيئا من علومهم ونشير إلى عرض من أعراضهم ، فلم نر أن يكون ذلك بغير ماعرف من ألفاظهم وعبارتهم ، ولا حرج فى ذلك عقلا وشرعا ونحن بحكم مصرف التقدير وهو على كل شىء قدير .

فمن ذلك السفر ، والسالك ، والمسافر ، والحال ، والمقام . والمكان ، والشطح ، والطوالع ، والذهاب ، والنفس ، والسر ، والوصل ، والفصل ، والأدب ، والرياضة ، والتحلى ، والتخلى ، والتجلى ، والعلة ، والانزعاج ، والمشاهدة ، والمكاشفة ، واللوائح ، والتلوين ، والغيرة ، والحرية ، واللطيفة ، والفتوح ، والوسم ، الرسم ، والبسط ، والفيض ، والفناء ، والبقاء ، والجمع ، والتفرقة ، وعين التحلم والزوائد ، والإرادة ، والمريد ، والمراد ، والهمة ، والغربة ، والمكر ، والاستظلام ، والرغبة ، والرهبة ، والوجد ، والوجود ، والتواجد .

فنذكر شرح هذه على أوجز ما يمكن بمشيئة الله تعالى ، وإن كانت ألفاظهم المصرفة بينهم فى علومهم أكثر مما ذكرنا ؛ فإنما قصدنا أن نريك منها أنموذجا ودستورا تتعلم به إذا طرأ عليك مالم نذكره لك ههنا ، إذ لها مبحث وإليها سبيل ، فتطلبه بعد ذلك على وجهه .

فأما السفر والطريق ، فالمراد بها سفر القلب بآلة الفكر فى طريق المعقولات ، وعلى ذلك ابتنى لفظ المسالك والمسافر فى لغتهم ، ولم يرد بذلك سلوك الأقدام التى بها يقطع مسافات الأجسام ، فإن ذلك مما شاركة فيه البهائم والأنعام وأول مسالك السفر إلى الله تعالى عز وجل معرفة قواعد الشرع وخرق حجب الأمر والنهى ، وتعلق

الغرض فيها والمراد بها ومنها ، فإذا خلفوا نواجبها وقطعوا معاطبها ، أشرفوا على مفاوز أوسع ، وبرزت لهم مهامه أعرض وأطوله : من ذلك معرفة أركان المعارف النبوية : النفس والعدو والدنيا ، فاذا تخلصوا من أوعارها أشرفوا على غيرها أعظم منها فى الانتساب ، وأعرض بغير حساب : من ذلك سر القدر وكيف خفى بحكم فى الخلاف وقادهم بلطف فى عنف . وشدة فى لين ، وبقوة فى ضعف ، وباختيار فى جبر ، إلى ما هو فى مجاريه لايخرج المخلفون عنه طرفة عين ، ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه ، والاشراف على الملكوت الأعظم ورؤية عجائب ومشاهدة غرائب: مثل العلم الإلهى . واللوح المحفوظ ، واليمين الكاتبة وملائكة الله يطوفون حول العرش وبالبيت المعمور وهم يسبحونه ويقدسونه ، وفهم كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، ثم التخطى منها إلى معرفة الخالق للكل والمالك للجميع والقادر على كل شىء ، فتغشاهم الأنوار المحرقة ، ويتجلى لمرآة قلوبهم الحقائق المحتجبة ، فيعلمون الصفات ويشاهدون الموصوف ، ويحجبون حيث غاب أهل الدعوى، ويبصرون ما عمى عنه أولوا الأبصار الضعيفة بحجب الهوى والحال .

منزلة العبد فى الحين فيصفوله فى الوقت حاله ووقته . وقيل :

هو ما يتحول فيه العبد ويتغير مما يرد على قلبه ، فإذا صفا تارة وتغيرأخرى قيل له حال . وقال بعضهم : الحال لايزول ، فإذا زال لم يكن حالا .

والمقام : هو الذى يقوم به العبد فى الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات ، فمتى أقيم العبد بشىء منها على التمام والكمال فهو مقامه حتى ينقل منه إلى غيره .

والمكان : هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية . فإذا كمل العبد فى معانيه فقد تمكن من المكان وغير المقامات والاحوال ، فيكون صاحب مكان كما دل بعضهم .

مقامك من قلبى هو القلب كله   فليس لشىء فيه غيرك موضع

والشطح : كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوى ، إلا أن يكون صاحبه محفوظا .

والطوالع : أنواع التوحيد يطلع على قلوب أهل المعرفة شعاعها ونورها فيطمس سلطان نورها الألوان ، كما أن نور الشمس يمحو أنوار الكواكب .

والذهاب : هو أن يغيب القلب على حس كل محسوس بمشاهدة محبوبها .

والنفس : روح سلطه الله على نار القلب ليطفىء شرها .

والسر : ما خفى عن الخلق فلايعلم به إلا الحق . وسر السر : مالايحس به السر ، والسر ثلاثة : سر العلم، وسر الحال وسر الحقيقة ، فسر العلم حقيقة العالمين بالله عز وجل ، وسر الحال معرفة مراد الله فى الحال من الله ، وسر الحقيقة ما وقعت به الإشارة .

والوصل : إدراك الفائت . والفصل : فوت ماترجوه من محبوبك .

والأدب ثلاثة : أدب الشريعة وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة ، والثانى أدب الخدمه وهو للتشمر عن العلامات والتجرد عن الملاحظات ، والثالث أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة .

والرياضة اثنان : رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس : ورياضة الطلب وهو صحة المراد .

والتحلى : التشبه بأحوال الصادقين بالأحوال وإظهار الأعمال والتخلى :اختيار الخلوة والإعراض عن كل مايشغل عن الحق والتجلى : هو ماينكشف للقلوب من أنوار الغيوب .

والعلة تنبه عن الحق . والانزعاج انتباه القلب من سنة الغيلة والتحرك للانس والوحدة .

والمشاهدة ثلاثة مشاهدة بالحق وهى رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ومشاهدة للحق وهى رؤية الحق فى الأشياء ، ومشاهدة الحق وهى حقيقة اليقين بلا ارتياب .

والمكاشفة أتم من المشاهدة وهى ثلاثة : مكاشفة بالعلم وهى تحقق الإصابة بالفهم ،ومكاشفة بالحال وهى تحقيق رؤية زيادة الحال . ومكاشفة بالتوحيد وهى تحقيق صحة الإشارة .

واللوائح ما يلوح من الأسرار الظاهرة الصافية من السمو من حالة أتم منها ، والارتقاء من درجة إلى ماهو أعلى منها

والتلوين : تلوين العبد فى أحواله . وقالت طائفة : علامه الحقيقة رفع التلوين بظهور الاستقامة. وقال آخرون: علامة الحقيقة التلوين لأنه يظهر فيه القادر فيكسب منه العبد الغيرة .

والغيرة : غيرة فى الحق ، وغيرة على الحق ، وغيرة من الحق ؛فالغيرة فى الحق برؤية الفواحش والمناهى،وغيرة على الحق هى كتمان السرائر ، والغيرة من الحق ضنه على أوليائه .

والحرية : إقامة حقوق العبودية فتكون لله عبداً وعند غيره حرا.

واللطيفة : إشارة دقيقة المعنى تلوح فى الفهم ولا تسعها العبارة .

والفتوح ثلاثة: فتوح العبادة فى الظاهر وذلك سبب إخلاص القصد ، وفتوح الحلاوة فى الباطن وهو سبب جذب الحق بأعطافه ، وفتوح المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق .

والوسم : معنيان يجريان فى الأبد بما جريا فى الأزل .

والبسط : عبارة عن حال الرجاء . والقبض . عبارة عن حال الخوف .

والفناء : فناء المعاصى ، ويكون فناء رؤية العبد لفعله بقيام عز وجل على ذلك . والبقاء : بقاء الطاعات ويكون بقاء رؤية العبد قيام الله سبحانه على كل شىء.

والجمع : التسوية فى أصل الخلق .وعن آخرين : معناه إشارة من أشار إلى الحق بلا خلق ،والتفرقة : إشارة إلى اللون والخلق ، فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد البارى سبحانه، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقه فقد أنكر قدرة القادر ، فإذا جمع بينهما فقد وحد .

وعين التحكم : إظهار غاية الخصوصية بلسان الانبساط فى الدعاء .

والزوائد : زيادات الايمان بالغيب واليقين .

والارادات ثلاثة : إرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى وذلك موضع التمنى ، وإرادة الحظ منه وذلك موضع الطمع ، وإرادة الله سبحانه وذلك موضع الإخلاص، والمريد : هو الذى صح له الابتلاء ودخل فى جملة المنقطعين إلى الله عز وجل بالاسم . والمراد : هو العارف الذى لم يبق له ارادة وقد وصل إلى النهاية وغير الأحوال والمقامات

والهمة ثلاثة : همة منية وهى تحرك القلب للمنى،وهمة إرادة وهى أول صدق المريد، وهمة حقيقة القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل ، فإن الأمر إد والخطب جد ، والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة ، والأجل قريب والسفر بعيد . والزاد طفيف والخطر عظيم ، والطريق سد ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد ؛ فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شعر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفا فسار يرى المعروف منكرا والمنكر معروفا ، حتى ظل علم الدين مندرسا ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمسا ، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهارش الطغام ، أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا ماسوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام ؛ فأما علم طريق الآخرة : هو ما درج عليه السلف الصالح وهى جمع الهمم بصفاة الألهام .

والغربة ثلاثة : غربة عن الأوطان من أجل حقيقة القصد ، وغربة عن الأحوال من حقيقة التفرد بالأحوال

وغربة من الحق من حقيقة الدهش عن المعرفة . والاصطلام : نعت وله برد على القلوب بقوة سلطان فيستكنها .
المكر ثلاثة : مكر عموم وهو الظاهر فى بعض الأحوال ، ومكر خصوص وهو فى سائر الأحوال ، ومكر خفى فى إظهار الآيات والكرامات .

والرغبة ثلاثة : رغبة النفس فى الثواب ، ورغبة القلب فى الحقيقة ، ورغبة السر فى الحق .
والرهبة : رهبة الغيب لتحقيق أمر السبق .
والوجه : مصادقة القلب بصفاء ذكر كان قد فقده .
والوجود : تمام وجد الواجدين ، وهو أتم الوجد عندهم ، وسئل بعضهم عن الوجد والوجود فقال : الوجد ما تطلبه فتجده بكسبك واجتهادك والوجود ما تجده من الله الكريم ، والوجد عن غير تمكين ، والوجود مع التمكين
والتواجد : استدعاء الوجد والتشبه فى تكلفه بالصادقين من أهل الوجد .

القاعـــــدة

وأما القاعدة التى ينبنى عليها هذا الفن بأسره فذلك اجتذاب أرواح المعانى ، والإشارة إلى العبد فى القرب قصد الاستدلال بالأقوال والأعمال والأحوال على الله تعالى قصداً ذاتيا ، لا على ما سلكه أرباب علوم الظاهر ، ثم التصديق بالقوة والنظر إلى الملكوت من كوة ، ومعرفة العلوم فى الانصراف ، ومصاحبة القدر بالمساعدة وبالمعروف ، ومعاطاة الوجودات الخمس : الذاتى والحسى والخيالى والعقلى والشبهى حسبما فهم من الشرع وثبت معناه فى الحظوظ من الوحى ، وقلما أدرك شىء من العجز والعلم لا ينال براحة الجسم ، ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ذلك أمر الله أنزله اليكم ﴾ ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ .

والوصـــــية

أيها الطالب للعلوم والناظر فى التصانيف والمستشرف على كلام الناس وكتب الحكمة : ليكن نظرك فيما تنظر فيه بالله ولله وفى الله ، لأنه إن لم يكن نظرك به وكلك إلى نفسك أو إلى من جعلت نظرك به أيا كان غيره من فهم أو علم أو حفظ أو إمام متبع أو صحة مبز أو ماشاكل ذلك ، وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار علمك لغيره ونكصت على عقبيك وخسرت فى الدارين صفقتك ، وعاد كل هول عليك ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبت معه غيره ولا حظت بالحقيقة سواه ، ورؤية غيره دونه تعمى القلب وتهتك الستر وتحجب اللب : وإذا نظرت فى كلام أحد من الناس ممن قد شهر بعلم فلا تنظره بازدراء كمن يستغنى عنه فى الظاهر وله اليه كثير حاجة فى الباطن ، ولا تقف به حيث وقف به كلامه ؛ فالمعانى أوسع من العبارات والصدور أفسح من الكتب المؤلفات ، وكثير علم مما لم يعبر عنه . واطمح بنظر قلبك فى كلامه إلى غاية ما يحتمل فذلك يعرفك قدره ويفتح باب قصد ولا تقطع له بصحة ولا تحكم عليه بفساد ، وليكن تحسين النظر أغلب عليك فيه حتى يزول الإشكال عنك بما تتيقن من معانيه . وإذا رأيت له حسنة وسيئة فانشر الحسنة واطلب المعاذير للسيئة ولا تكن كالذبابة تنزل على أقذر ماتجده ، ولا تعجل على أحد بالتخطئة ولا تبادر بالتجهيل فربما عاد عليك ذلك وأنت لا تشعر ، فلكل عالم عورة وله فى بعض ما يأتى به احتجاج وناهيك ما جرى بين ولى الله تعالى الخضر وكليمه موسى على نبينا وعليهما السلام . وإذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن فى الظاهر بمحال أو اختلال فخذ ما ظهر لك عليه ودع ما اعتاص عليك فهمه وكل العلم فيه إلى الله عز وجل ، فهذه وصيتى لك فاحفظها وتذكيرى إياك فلا تذهل عنه :

اسمع وصيتى إن تحفظ حظيت بها وإن تخالف فقد يردى بك الخاف

وأزيدك زيادة تقتضى التعريف بأصناف العلماء لكى تعرف أهل الحقيقة من غيرهم ، فلك فى ذلك أكبر منفعة ولى

فى وصفهم أبلغ غرض . قال علماؤنا : العلماء ثلاثة : حجة ، وحجاج ، ومحجوج ؛ فالحجة : عالم بالله وبأمره وبآياته مهتما بالخشية لله سبحانه ، والورع فى الدين والزهد فى الدنيا والإيثار لله عز وجل المستقيم . والحجاج : مدفوع إلى إقامه الحجة وإطفاء نار البدعة قد أخرس المتكلمين وأفحم المتخرصين ، برهانه ساطع ، وبيانه قاطع ، وحفظه ماينازع شواهده بينة ونجومه نيرة ، قد حمى صراط الله المستقيم . والمحجوج : عالم بالله وبأمره وبآياته ، ولكنه فقد الخشية لله برؤيته لنفسه ، وحجبه عن الورع والزهد فى الدنيا والرغبة والحرص ، وبعده من بركات علمه محبة العلو والشرف ، وخوف السقوط والفقر ، فهو عبد لعبيد الدنيا ، خادم لخدمها ، مفتون بعد علمه ، مفتقر بعد معرفته ، مخذول بعد نصرته شأنه الاحتقار لنعم الله ، والازدراء لأوليائه ، والاستخلاف بالجهال من عباده ، وغره بلقاء أميره وصلة سلطانه ، وطاعة القاضى والوزير والحاجب له قد أهلك نفسه حين لم ينتفع بعلمه والاتباع له ومن يكون بعده قدوة به ومراده من الدنيا مثاله ، فى مثل هذا ضرب الله المثل حين قال ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ فويل لمن صحب مثل هذا فى دنياه ، وويل لمن تبعه فى دينه ، وهذا هو الذى أكل بدينه غير منصف لله سبحانه فى نفسه ولا ناصح له فى عباده ، تراه إن أعطى من الدنيا رضى بالمدحة لمن أعطاه ، وإن منع رش بالذم لمن منعه ، وقد نسى من قسم الأرزاق وقدر الأقدار وأجرى الأسباب وفرغ من الخلق كلهم ؛ فنعوذ بالله من الجور بعد الكور ، ومن الضلالة بعد الهدى . وإنما زدتك هذه الزيادة وإن ظهر لكثير أنها ليست من الغرض الذى نحن فيه ، فقصدى أن يعلم من ذهب من الناس ومن بقى ، ومن أبصر الحقائق ومن عمى ، ومن اهتدى على الصراط المستقيم ومن غوى ، فليعلم أن الصنفين الأولين من العلماء قد ذهبوا وإن كان بقى منهم أحد فهو غير محسوس للناس ولا مدرك بالملاحظة.

غاب الذين إذا ماحدثوا صدقوا وظنهم كيقين إن هموا حدسوا

وذلك لما سبق فى القضاء من ظهور الفساد وعدم أهل الصلاح والرشاد ، نعم وعدم الصنف الثالث على غربته وأعز شىء على وجه الأرض ، وفى الغالب مايقع عليه فى الحقيقة اسم عند شخص مشهور به ، وإنما الموجود اليوم أهل سخافة ودعوى وحماقة واجتراء وعجب بغير فضيلة ورياء يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . وهم أكثر من عمر الأرض وصيروا أنفسهم أوتاد البلاد وأرسان العوام ، وهم خلفاء إبليس وأعداء الحقائق ، وأخدان لعوائد السوء وعنهم يرد عتب الحكم الشائعة وانتقاص أهل الإرادة والدين :

مثل البهائم جهال بخالقهم لهم تصاوير لم يعرف لهن حجا

كل يروم على مقدار حيلته زوائر الأسد والنباحة اللهثا

فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون :

أولوا النفاق فإن قلت اصدقوا كذبوا من السفاه وإن قلت اكذبوا صدقوا

ولنأخذ فى جواب ماسألت عنه على نحو مارغبت فيه ، وأستوهب الله نفوذ البصيرة وحسن السريرة وغفران الجريرة ، وهو ربى ورب كل شىء وإليه المصير .

ابتداء الأجوبة عن مراسم الأسئلة

جرى الرسم فى الإحياء بتقسيم التوحيد على أربع مراتب ، تشبيها لموافقة الغرض فى التمثيل به ، وذكرت أن المعترض وسوس أو بالخواطر هجس بأن لفظ التوحيد ينافى فى التقسيم ، إذ لايخلو بأن يتعلق بوصف الواحد الذى ليس بزائد عليه فذلك لاينقسم لا بالجنس ولا بالفصل ولا بغير ذلك . وإما أن يتعلق بوصف المكلفين الذين توجب لهم حكمه إذا وجد فيهم ، فذلك أيضا لاينقسم من حيث انتسابهم إليه بالعقل ، وذلك لضيق المجال فيه ، ولهذا

لايتصور فيه مذاهب ، وإنما التوحيد مسلك حق بين مسلكين باطلين : أحدهما الشرك ، والثانى الإلباس ، وكلا الطرفين كفر ، والوسط إيمان محض ، وهو أحد من السيف وأضيق من خط الظل ، ولهذا قال أكثر المتكلمين بتماثل إيمان جميع المؤمنين والملائكة والنبيين والمرسلين وسائر عموم المرسلين ، وإنما تختلف طرق إيمانهم التى هى علومهم . ومذهبهم فى ذلك معروف ، ونحن لا نلم فى هذه الإجابة كلها بشىء من أنحاء الجدال ومقابلة الأقوام بالأقوال بل بقصد إزالة غير الاشكال ورد ما طعن به أهل الضلال والاضلال .

واعلم أن التقسيم على الاطلاق يستعمل على أنحاء يتوجه ههنا بشىء قدح به المعترض أو هجس به الخاطر ، وإنما المستعمل ههنا من أنحائه ما تتميز به بعض الأشخاص بما اختصت به من الأحوال ، وكل حالة منها تسمى توحيدا على جهة تنفرد بها لا يشاركها فيها غيرها ، فمن وجد التوحيد بلسانه تسمى لأجله موحدا مادام يظن أن قلبه موافق للسانه وان علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ما شرع فى الحكم ، ومن وجد بقلبه على طريق الركون إليه والميل إلى اعتقاده والسكون نحوه بلا علم يصحبه فيه ولا برهان يربط به سمى أيضا موحدا ، على معنى أنه يعتقد التوحيد كما يسمى من يعتقد مذهب الشافعى شافعيا والحنبلى حنبليا ، ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنده وسعى من أجله بشكوكه العارضة له فيسمى موحدا لأنه عارف به ، يقال جدلى ونحوى وفقيه ، ومعناه يعرف الجدل والفقه والنحو . وأما من استغرق علم التوحيد قلبه ، واستولى على جملته حتى لا يجد فيه فضلا لغيره إلا على طريق التبعية له ويكون شهود التوحيد لكل ماعداه سابقا له مع الذكر والفكر مصاحبا من غير أن يعتريه ذهول ولا نسيان له لأجل اشتغاله بغيره كالعادة فى سائر العلوم ، فهذا يسمى موحدا ويكون القصد بالتسمى من ذلك المبالغة فيه .

فأما الصنف الأول وهم أرباب النطق المنفرد فلا يضربون فى التوحيد بسهم ولا يفوزون منه بنصيب ولا يكون لهم شىء من أحكام أهله فى الحياة ، إلا مادام الظن بهم أن قلب أحدهم موافق للسانه ، كما نفرد القول عليه بعد هذا إن شاء الله عز وجل .

وأما الصنف الثانى وهم أرباب الاعتقاد الذين سمعوا النبى ﷺ أو الوارث أو المبلغ يخبر عن توحيد الله عز وجل أو يأمر به ويلزم البشر قول لا إله إلا الله المنبىء عنه ، فقبلوا ذلك واعتقدوه على الجملة من غير تفصيل ولا دليل ، فنسبوا إلى التوحيد وكانوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذى هو منهم ، وبمنزلة « من كثر سواد قوم فهو منهم » .

وأما الصنف الثالث والرابع فهم أرباب البصائر السليمة الذين نظروا بها إلى أنفسهم ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها فرأوا على كل منهم خطا منطبعا فيها ليس بعربى ولا سريانى ولا عبرانى ولا غير ذلك من أجناس الخطوط ، فبادر إلى قراءة من لم يستعجم عليه وتعلمه منهم من استعجم عليه . فإذا هو الخط الالهى المكتوب على صفحة كل مخلوق المنطبع فيه من مركب ومفرد وصفة وموصوف وحى وجماد وناطق وصامت ومتحرك ساكن ومظلم ونير ، وهو الذى يسمى تارة بعلامة وتارة بسمة وتارة بأثر القدرة وتارة بآية ، كما قال الشاعر ، ولا أدرى عن سماع أو رؤية قلب :

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

فلو قرءوا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك المكتوب عليه وشرحه أبدية مالكه والتصريف له بالقدرة على حكم الارادة بما سبق فى ثابت العلم من غير مزيد ولا تقصير ، فتركوا الكتابة والمكتوب وترقوا إلى معرفة الكاتب الذى أحدث الأشياء وكونها ولا يخرج عن ملكه شىء منها ، ولا استغنت بأنفسها عن حوله وقوته ، ولا انتقلت إلى الحرية عن رق استعباده ، فوجدوه كما وصف نفسه ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ فخلصت لهم التفرقة والجمع وعقلت نفس كل واحـــد منهم توحيد خالقها بإذنه وإيجاده عن غيره ، وعلقت توحيده فسبحان من يسرها لذلك وفتح عليها بما ليس فى وسعها أن تدركه إلا به وهو اللطيف الخبير . لكن الصنف الثالث لم يقصر كل منهم أن

يعرف نفسه موجدا لديه فيما لا يزال وهم المقربون ، والصنف الرابع لم يقصر كل واحد منهم أن عرف ربه موجدا لنفسه فيما لم يزل وهم الصديقون ، وبينهما تفاوت كثير .

وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم فلأن العقلاء بأسرهم لا يخلو كل واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الأنحاء المذكورة عنده ، فأما من عدمت عنده فهو كافر إن كان فى زمن الدعوة أو على قرب يمكن وصول علمها إليه أو فى فترة يتوجه عليه فيها التكليف ، وهذا صنف مبعد عن مقام هذا الكلام . وأما من يوجد عنده فلا يخلوا أن يكون مقلدا فى عقده أو عالما به ، والمقلدون هم العوام وهم أهل المرتبة الثانية فى الكتاب ؛ فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يخلو كل واحد أن يكون بلغ الغاية التى أعدت لنفسه دون النبوة ، أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ ، فالذى لم يبلغ وكان على قرب هم المقربون وهم أهل المرتبة الثالثة ، والذين بلغوا الغاية التى أعدت لهم وهم الصديقون أهل المرتبة الرابعة ، وهذا التقسيم ظاهر الصحة ، إذ هو دائر بين النفى والإثبات ، ومحصور بين المبادى والغايات ، ولم يدخل أهل المرتبة الأولى فى شىء من تصحيح هذا التقسيم ، إذ ليس هم من أهله إلا بانتساب كاذب ودعوى غير صافية ، ثم لابد من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث مزيد شرح وبسط بيان تعرف منه بإذن الله حقيقة كل مرتبة ومقام وانقسام أهله فيه بحسب الطاقة والإمكان بما يجرى به الواحد الحق على القلب واللسان .

بيان مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم

فأقول أرباب النطق المجرد أربعة أصناف : أحدهم نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول ﷺ ثم لم يعتقدوا معنى ما نطقوا به لما لم يعلموه لا يتصورون صحته ولا فساده ولا صدقه ولا كذبه ولا خطأه ولا صوابه ، إذ لم يبحثوا عليه ولا أرادوا فهمه إما لبعد همتهم وقلة اكتراثهم ، وإما لنفورهم من التعب وخوفهم أن يكلفوا البحث عما نطقوا به أو يبدوا لهم ما يلزمهم من الاعتقاد والعمل ، وما بعد ذلك ، فإن التزموها فارقوا راحات أيديهم العاجلة وفراغ أنفسهم ، وإن لم يلتزموا شيئا من ذلك وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منغصة وملاذهم مكدرة من خوف عقاب ترك ما علموا لزومها ، ومثل هؤلاء مثل من يريد قراءة الطب أو يعرض عليه ولكنه يمنعه عنه مخافة أن يتطلع منه على ما يغير عنه بعض ملاذه من الأطعمة والأشربة والأنكحة أو كثير منها فيحتاج إلى أن يتركها أو يرتكبها على رقبة ، وخوف أن يصيبه صورة ما يعلم ضرورة منها فيدع قراءة الطب رأسا . سئل هذا الصنف عن معنى ما نطقوا به وهل اعتقدوه فيقولون لا نعلم فيه ما يعتقد ، وما دعانا النطق إلا مساعدة الجماهير وانخراطها بإظهار القول فى الجم الغفير ولا نعرف هل ما قلناه بالحقيقة من قبل العرف والنكير ولا شك أن هذا الصنف الذى أخبر ﷺ عن حاله بمسألة الملكين أحدهم فى القبر ، إذ يقولون : من ربك ومن نبيك وما دينك ؟ فيقول لا أدرى سمعت الناس يقولون قولا فقلته فيقولان له لا دريت ولا تليت ، وسماه النبى ﷺ الشاك والمرتاب ، والصنف الثانى نطق كما نطق الذين من قبلهم ولكنهم أضافوا إلى قولهم ما لا يحصل معه الإيمان ولا ينتظم به معنى التوحيد ، وذلك مثل ما قالت السبابية ــ طائفة من الشيعة القدماء ــ أن عليا هو الإله وبلغ أمرهم عليا رضى الله عنه وكانوا فى زمنه ، فحرق منهم جماعة ، وأمثال من نطق بالشهادتين كثير ثم أصحاب نطقه مثل هذا النكير ويسمون الزنادقة ، وقد رأينا حديثا عنه ﷺ فى ذلك « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى الجنة إلا الزنادقة » والصنف الثالث نطقوا كما نطق الصنفان المذكوران قبلهم ولكنهم آثروا التكذيب واعتقدوا الرد ، واستنبطوا خلاف ما ظهر منهم من الإقرار ، وإذا رجعوا إلى أهل الإلحاد أعلنوا عندهم بكلمة الكفر ؛ فهؤلاء المنافقون الذين ذكرهم الله فى كتابه بقوله ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون * الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ . الصنف الرابع قوم لم يعرفوا التوحيد وما نشأوا عليه ، ولا عرفوا أهله ولا سكنوا بين أظهرهم ، ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أحدنا خوطبوا بالأمر المقتضى للنطق بالشهادتين والإقرار بهما ، فقالوا :

لا نعلم مقتضى هذا اللفظ ولا نعقل معنى المأمور به من النطق ، فأمروا أن يظهروا الرضا ويفهموا بلا مهلة ، فسكنوا إلى ما قيل لهم و نطقوا بالشهادتين ظاهرا وهم على الجهل بما يعتقدون فيها فاخترم أحدهم من حينه من قبل أن يأتى منه استفهام أو تصور يمكن أن يكون له معه معتقد فيرجى أن لا تضيق عنه سعة رحمة الله عز وجل ، والحكم عليه بالنار والخلود فيها مع الكفار تحكم على غيب الله سبحانه ، وربما كان من هذا الصنف فى الحكم عند الله عز وجل قوم رزقوا بعد الفهم وغيب الذهن وفرط البلادة أن يدعوا إلى النطق فيجيبوا مساعدة ومحاذاة ثم يدعو إلى تفهم المعنى بكل وجه فلا يتأتى منهم قبول لما يعرض عليهم تفهمه كأنما تخاطب بهيمة ، ومثل هذا أيضا فى الوجود كثير ولا أحكم على أحد مثله بخلود فى النار ، ولا بعد أن هذا الصنف بأسره أعنى المخترم قبل تحصيل العقد مع هذا البليد البعيد بعض ما ذكره النبى ﷺ فى حديث الشفاعة الذين أخرجهم الله عز وجل من النار بشفاعته حين يقول تعالى : فرغت شفاعة الملائكة والنبيين وبقيت شفاعتى وهو أرحم الراحمين ، فيخرج من النار أقواما لم يعملوا حسنة قط ويدخلون الجنة ويكون فى أعناقهم سمات ويسمون عتقاء الله عز وجل ، والحديث يطول وهو صحيح ، وإنما اختصرت منه قدر الحاجة على المعنى وحكم الصنف الأول والثانى والثالث أجمعين أن لا يجب لهم حرمة ولا يكون لهم عصمة ولا ينسبون إلى إيمان ولا إسلام ، بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة الهالكين فإن عثروا عليهم فى الدنيا قتلوا فيها بسيوف الموحدين ، وإن لم يعثر عليهم فهم صائرون إلى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون .

(فصل) ولما كان اللفظ المنبىء عن التوحيد إذا انفرد عن العقد وتجرد عنه لم يقع به فى حكم الشرع منفعة ولا لصاحبه بسببه نجاة إلى مدة حياته عن السيف أن يراق دمه ، اليدان تسلط على ماله إذا لم يعلم خفى حاله حسن فيه أن يشبه بقشر الجوز الأعلى فهو لا يحتمل ولا يرفع فى البيوت ولا يحضر فى المجالس أى مجالس الطعام ، ولا تشتهيه النفوس إلا ما دام منطويا على مطعمه صونا على لبه . فإذا أزيل عنه بكسرا أو علم منه أنه منطو على فراغ أو سوس أو طعمه فاسد لم يصلح لشىء ولم يبق فيه غرض لأحد ، وهذا لا خفاء فى صحته ، والغرض بالتمثيل تقريب ما غمض إلى نفس الطالب وتسهيل ما اعتاص على المتعلم والسامع فهمه ، وليس من شرط المثال أن يطابق الممثل به من كل وجه ، فكان يكون هو ولكن من شرطه أن يكون مطابقا للواحد المراد منه .

(فصل) فإن قلت فما الذى صد هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن النظر والبحث حتى تعلموا . أو عن الاعتقاد حتى تخلصوا من عذاب الله وهم فى الظاهر قادرون على ذلك ؟ وما المانع الخفى الذى منعهم وأبعدهم عنه وهم يعلمون أن ما عليهم كبير مؤنة ولا عظيم نفقة ؟ فاعلم أن هذا السؤال يفتح بابا عظيما ويهز قاعدة كبيرة يخاف من التوغل فيها أن يخرج من المقصد ، ولكن لا بد إذا وقع فى الأسماع ووعته قلوب الطالبين واشتاقت إلى سماع الجواب عنه أن نورد فى ذلك قدر ما يقع به الكفاية وتقنع به النفوس بحول الله وقوته ، نعم ما سبق فى العلم القديم لا تجرى بخلافه المقادير ، فهم من ذلك بإرادة الله عز وجل جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلابية والشيم الذئابية والطباع السبعية وغلبتها عليهم ، والملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، كذلك قال ﷺ : والقلوب بيوت تولى الله بناءها بيده وأعدها لأن تكون خزائن علمه ومشارق مكنوناته ومهبط ملائكته ومغاشى أنواره ومهاب نفحاته ومجال مكاشفاته ومجارى رحمته وهيأها لتحصيل المعرفة به فمتى كان فيها شىء من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ولم ينزل عليها شىء من الخير من قبله ، إذ هى الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه وهم الوفود منه بالخيرات والموصولون إليه وعنه بالباقيات الصالحات ، ولا تلك الأخلاق المذمومة التى حلت فيهم وهى التى ذم الكلاب لأجلها لما احترمت الملائكة يأذن الله عن حلولها فيها وهى لا تخلو من خير تنزل به ويكون معها فحيثما حلت حل الخير فى ذلك القلب بحلولها وإنما هى لها فحيثما وجدت قلبا خاليا ولو حينا من الدهر وزمنا نزلت عليه ودخلته وثبتت ما عندها من الخير عنده فإن لم يظهر على الملائكة مازجها عنه من تلك الأخلاق المذمومة بواسطة الشيطان الذين هم فى مقابلة الملائكة ثبتت عنده وسكنت فيه ولم تبرح عنه وعمرته فقدر سعة البيت وانشراحه من الخير ، فإن كان البيت كثير الاتساع

أكثرت فيه من متاعها واستعانت بغيرها حتى يمتلىء البيت من متاعها وجهازها وهو الإيمان بالله وضروب المعارف النافعة عند الله عز وجل ، فإذا طرق ذلك البيت طارق شيطان ليسرق من ذلك الخير الذى هو متاع الملك ويثبت فيه خلقا مذموما لا يوجد إلا فى الكلب وهو متاع الشيطان قاتله الله وطرده عن ذلك المحل ، فإن جاء للشيطان مدد من الهوى من قبل النفس ولم يجد الملك نصره وهو عزم اليقين من قبل الروح ، انهزم الملك وأخلى البيت ونهب المتاع وخرب البيت بعد عمارته واظلم بعد نوره وضاق بعد انشراحه ، وهكذا حال من آمن وكفر ، وأطاع وعصى ، وضل واهتدى .

فإن قلت : فميز لى أصناف هذه الأخلاق المذمومة التى صدت هؤلاء الأصناف المذكورين عن اعتقاد الإيمان ونفرت الملائكة عن النزول إلى قلوبهم بكشف معانى التوحيد ومنعهم من الحلول فيها حتى لم ينالوا شيئا من الخيرات الكائن معها . فاعلم أن الأخلاق التى لا يجتمع معها الملائكة فى قلب واحد كثيرة والتى فى قلوب هؤلاء منها معظمها وهى الطمع فى غير خطير والحرص على فإن حقير . أما الصنف الأول فإنهم رجعوا وخافوا أن تبدو لهم صحة ما يشغلهم عن لذاتهم وينغص عليه مارغبوا فيه من راحاتهم وتكدر لديهم منال شهواتهم ، فأبقوا أمرهم على ماهم عليه . وأما الصنف الثانى والثالث فصدهم أيضا خوف وجزع وحرص على ما ألفوه من تبجيل أحدهم أن يزول ومؤانسة أشياعهم أن تتغير وتذهب ومواساة إيلافهم أن تنقطع واستثقالا لما يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلتزموه ، وفرارا من شرائطه وما يصحبه من الأعمال والوظائف إذ يمتثلوه ، والكلب ماذم لصورته ، وإنما ذم بهذه الأخلاق التى هى الطمع فى الخسائس والجزع من الصبر على مايعده من الفضائل ، حتى احترمت الملائكة أن تدخل بيتا فيه كلب.

فإن قلت : فكيف آمن من كفر وأطاع من عصى واهتدى من ضل إذا كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر والعاصى والضال بما تثبتون من الأخلاق المذمومة التى هى كلاب نابحة وذئاب عادية وسباع ضارية ؟ وأصناف الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة وهى لا تدخل موضعا يحل فيه شىء مما ذكرناه، وإذا لم تدخل لم يصل إلى الخير الذى يكون معها ولم تصل اليه ، فعلى هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله ومن لم يخلق مؤمنا معصوما فلا سبيل له إلى الإيمان على هذا المفهوم * فاعلم أن هذا يستدعى أصنافا من علم القلوب ولا سبيل إلى ذلك فى مثل هذا المقام المعلوم ، والقول والمعنى فى جواب ماسألت عنه : أن للشيطان غفلات والأخلاق المذمومة عدمات، كما أن الملائكة لها عن القلوب غيبات ولتواتر الخير عليها فترات، فاذا وجد الملك كما أعلمتك قلبا خاليا ولو زمنا فر ودخل فيه وأراه ماعنده من الخير ، فان صادف منه قبولا ولما عرض عليه من الخير تشوقا ونزوعا أورد عليه ما يملأ ويستغرق لبه ، وإن صادف منه صحوا وسمع منه بجنود الشياطين استغاثة بالأخلاق الكلابية استغاثة ، رحل عنه وتركه ، ولهذا قيل: ماخلا لب عن لمة ملك أو نزغة شيطان .

فان قلت : فأى بيت فهم عن النبى ﷺ فى الخطاب، وأى كلب أذهل بيت القلب كلب الخلق أو بيت اللبن وكلب الحيوان * فاعلم أن الحديث خارج على سبب، ومعناه وجملته : أن المقصود بالإخبار وهو بيت اللبن ، وكلب الحيوان معلوم ولا بيتك فى ذلك ، ولكن يستقرأ منه ماقلناه ويستنبط من مفهومه ما نبهناك عليه ويتخطى منه إلى ما أشرنا لك نحوه ، ولا تنكر فى ذلك إذا دل عليه العلم وجملة الاستنباط ، ولم تمجه القلوب المستضاءة ، ولم تصادم به شيئا من أركان الشريعة ، فلا تكن جاحدا ولا تجزع من تشنيع جاهل ولا من نفور مقلد فكثيرا ما ورد شرع مقرون بسبب فرأى أهل الاعتبار وجه تعديه عن سببه إلى مافى معناه ومشابه له من الجهة التى تصلح أن يعديها اليه ، ولولا ذلك لما قال ﷺ « رب مبلغ أوعى من سامع وحامل فقه إلى من هو أفقه منه ».

فان قلت : فقد قال النبى ﷺ « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة » وعلم السبب الذى جاء هذا الحديث عليه وفيه ، فهل يعدى عن سببه ويترق منه إلى مثل ما ترق من الحديث الآخر ؟ فهذا كما قيل : الحديث عليه شجون وأتبعنا هذا الباب مايقرب منه ويبعد علينا التخلص عنه . نعم يترقى منه إلى قريب من ذلك وشبهه. ويكون

هذا الحديث منبها عليه . وهو أن الصورة المنحوتة قد اتخذت آلهة وعبدت من دون الله عز وجل . وقد نبه الله عز وجل قلوب المؤمنين على عيب فعل من رضى بذلك . ونقص إدراك من دان به حين قال مخبرا عن إبرهيم عليه السلام حيث قال ﴿ أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون ﴾ فكان امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ماعبد من دون الله سبحانه . أو ماحكى به ماهو على مثاله . ويترقى من ذلك المعنى إلى أن القلب الذى هو بيت بناه الله ليكون مهبطاً للملائكة ومحلا للذكر ومعرفة عبادته وحده دون غيره ؛ فاذا حل فيه معبود غير الله سبحانه وهو الهوى لم تقربه الملائكة أيضا . فان قيل : فظاهر الحديث يقتضى منافرة الملائكة لكل صورة عموما وما ذكرته تعليلا ينبغى أن لايقتضى إلا منافرة ما عبد أو ما نحت على مثاله ؟ قلنا تشابهت الصور المنحوتة كلها فى المعنى الذى قصد بها التصوير لأجله وهو مضارعة ذى الأرواح . وما نحت للعبادة إنما قصد به تشبيه ذى روح . فلما كان هذا المعنى الجامع لها وجب تحريم كل صورة منافرة للملائكة .

فان قيل : فما وجه الترخيص فيما رقم فى ثوب ؟ فذلك لأنها ليست مقصودة فى نفسها ، وإنما المقصود الثوب الذى رقمت فيه .

فإن قيل : فما بال الثياب رخص فى محاكاتها بالتصوير وذات أنواط فى العرب مشهورة معلومة ؟ فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت شجرة فى أيام العرب الجاهلية تعلق عليها يوما فى السنة فاخر ثيابهـا وحلى نسائها لأجل اجتماعها عندها وراحتها فى ذلك اليوم ، ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل المنحوتة والأصنام ، ولو كان ذلك ماسأل أصحاب رسول الله ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط حتى أنكر النبى ﷺ ذلك عليهم ، ولو عبدت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى كالملائكة والشمس والقمر وبعض النجوم والمسيح عليه السلام وعلى رضى الله عنه ، ولم يعبدوا مانحت على شكل النبات ، فلم تعبد من هذه إلا ذات روح فما أبعد عن دركها من حرمه الله عز وجل إياها ، فله الحمد وهو أهله .

بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرد

وأما أهـل الاعتقاد المجرد عن تحصينه بالعلم وتوثيقه بالأدلة وشده بالبراهين ، فقد انقسموا فى الوجود إلى ثلاثة أصناف :

أحدهم صنف اعتقدوا مضمون ماأقروا به وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب أسروه فى أنفسهم ، ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على ما اعتقدوا ، وذلك لفرط بعدهم وغلظ طباعهم واعتياص طرق ذلك عليهم ، ويقع عليهم اسم الموحدين ، وتحققنا وجود أمثالهم كثيراً على عهد سيد المرسلين ﷺ والسلف الصالحين رضى الله عنهم ، ثم لم يبلغنا أنه اعترض أحد إسلامهم ولا أوجب عليهم الخروج منه والمعروف عنه ، ولا كلفوا مع قصور فهمهم وبعدهم عن فهم ذلك بعلم الدلالة وقراءة ترك البراهين وترتيب الحجاج ، بل تركوا على ما هم عليـه ، وهؤلاء عندى معذورون بعدهم مقبولون بما تواقر عليـه من إقرارهم وعقدهم ، والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه ﴿ لايكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ لا يخرجون عن مقتضى هذه الآيات بحال ، وسنبدى لك طريقا من الاعتبار تعرف به صحة إسلامهم وسلامة توحيدهم إن شاء الله عز وجل .

والصنف الثانى : اعتقدوا الحق مع ماظهر منهم من النطق واعتقـدت مع ذلك أنواعا من المخاييل قام فى مخيلتها أنها أدلة وطأتها براهين وليست كذلك ، وقد وقع فى هذا كثير ممن يشار إليه فضلا عمن دونهم ، فإن وقع إلى هذا الصنف من يزعزع عليهم تلك المخاييل بالقدح ويبطلها عليهم بالمعارضة أو الاعتراض لم يلتفتوا إليه ولا أصغوا لما يأتى به ويترفعوا إلى أن يحاوبوه لما يحملهم عليه من سوء الفهم أو رداءة الاعتقاد وعندهم أن جميع تلك المخاييل فى باب الاستدلال أرسخ من شوامخ الجبال ، فمنهم من يعتقد دليله مذهب شيخه الرفيع القدر المطلع على العلوم ، ومنهم من

يكون دليله خبرا له ، ومنهم من يكون دليله بعض محتملات آية أو حديث صحيح ، ولعمرى إنهم ينبغى إذا صادفوا السنة باعتقادهم ولم يقعوا فى شىء من الضلال أن يتركوا على ماهم عليه ولا يحركوا بأمر آخر ، بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم لئلا يكون إذا تتبع الحال معهم ربما لقنوا شبهة أو ترسخ فى نفوسهم بدعة يعسر انحلالها أو يقعوا فى تكفير مسلم وتضليله ، بل هناك أسباب كثيرة .

واعلم أن اعتقاد الخلائق وعلمها من أغذية النفوس ، فمن رغب فى أكملها لم يقنع بدونها ، وإذا حصل له ذلك قوى به ، ومن قنع بأيسرها ولم تطمح همته إلى ماهو أعلى من ذلك ضعف ، ولكنه يعيش عيش الطفيف ، وإنما يهلك من لا يبلغه له ولا يجدها ، أو يجدها ولكنها تكون مشابة بمن جاء بمضرة بدعة وسموم كفر ، فلا نذهل عما يشارك إليه ، وإنما المرغوب تنبهك والله المستعان ، وقلما بين الصنف الثانى والأول كل التفاوت ، من حيث إن أولئك مقلدون فيما يعتقدونه دليلا ، غير إنهم أوثق رباطا من الأولين ، لأن أولئك إن وقع إليهم من شككهم ربما شكوا وانحل رباط عقدهم ، وهؤلاء فى الأغلب لاسبيل إلى انحلال عقودهم إذ لا يرون أنفسهم أنهم مقلدون ، وإنما يظنون أنهم مستدلون عارفون ، فلهذا كانوا أحسن حالا .

الصنف الثالث : أقروا واعتقدوا كما فعل الذين من قبلهم . وقدموا النظر أيضا ، ولكنهم لعدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ومعهم من الذكاء والفطنة والتيقظ مالو نظروا لعلموا ، ولو استدلوا لتحققوا ، ولو طلبوا لأدركوا سبيل المعارف ووصلوا ، ولكنهم آثروا الراحة ومالوا إلى الدعة ، واستبعدوا طريق العلم ، واستثقلوا الأعمال الموصلة إليه ، وقنعوا بالقعود فى حضيض الجهل ، فهؤلاء فيهم إشكال عند كثير من الناس فى البديهة ، ويتردد فى حالهم النظر وهل يسمون عصاة أو غير ذلك يحتاج إلى تمهيد آخر ليس هذا مقامه ، والالتفات إلى هذا الصنف أوجب خلاف المتكلمين فى العوام على الإطلاق من غير تفريق بين بليد ومتيقظ وفطن ، فمنهم من لم ير أنهم مؤمنون ، ولكن لم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم ، ولعلك تقول : إن مذهبهم المشهور أن المحل لا يخلو عن الصفات إلا إلى ضدها ، فمن لم يحكم له بالإيمان حكم عليه بالكفر ، كما أن من لم يحكم له بالحركة حكم عليه بالسكون ، وكذلك الحياة والموت ، والعلم والجهل ، وسائر ماله من الصفات . قلنا : فلئن صح ذلك فى الصفات التى هى أعراض فقد لا يصح فى الأوصاف التى هى أحكام الإيمان والكفر ، والهداية والضلال ، والبدعة والسنة ، ربما كانت ليست من قبيل الاعراض . وإنما ذكرت لك هذا فى معرض الشك فى شعوب ما نورد على ذلك ، ومنهم من أوجب لهم الإيمان ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم وعجزهم عن العبادة ووجوب العبادة فى الشرع جار على هذا النحو ، وهؤلاء لم يخالفوا المذكورين قبلهم ، لأن أولئك سلبوا الايمان عمن لم يصدر اعتقاده عن دليل ، وهؤلاء أوجبوا الايمان لمن أضافوا إليه المعرفة المشروطة فى صحة الايمان ، وإنما فروا عن الشناعة الظاهرة فشذوا عن الجمهور بهذا الاحتمال ، وزادوا على أنفسهم أنهم ألموا بقول من جعل المعارف كلها ضرورية ، ولم يشعروا بذلك حين قالوا : إنما عجزت العامة عن سرد الدليل وتعظم العبارة عنه ، وأنه لا تجب عليهم لانهم إذا نبهوا وعرض عليهم ماقرب من الالفاظ واعتادوا من المخاطبات دلائل الحدوث ووجوه الافتقار إلى المحدث بعد لاعتقدوا وعددوا من هذه المعارف كثيرا ووجدوا أنفسهم عارفين بذلك . واعلم أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية هكذا يقول انما افتقر الناس الى النسبية ولم يتمرنوا على النبارة على مواضع العلوم ، وإلا فهم إذا نبهوا عليها وتلطف بهم فى تفهيمها بالزوال إلى ما ألفوه من العبارات وجدوا أنفسهم غير منكرة لما نبهوا عليه وسارعوا إلى الفيئة ، ومثال هذا كمن نسى شيئاً كان معه أو إنسانا نصحه أو رآه فنسيه وغفل عنه لاجل غيبته ثم رآه بعد ذلك فذكر ، فإنه يقال بدا لانه كان عارفا بما غاب عنه ، ولولا عرفانه به وما وجد عدم الانكار وسرعه الألفة عنه ، وطائفة من المتكلمين أيضا أوجب لهم الايمان مع عدم المعرفة المشروطة عند أولئك ، وأى الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ليس من غرضنا فى هذا الموضع ، وإنما غرضنا تبعيد ما أشاعه فى الاحياء أهل الغلول والاغلال فلا يفتح مثل هذا الباب ، وقد أبدينا من وجه ذلك فى مراقى الزلف ما يغنى قبها بإذن الله عز وجل .

فصل فى بيان أصناف أهل الأعتقاد

تفصيل آخر من جهة أخرى هو من تتمة ماجرى ، فلتعلم أن ما منهم صنف إلا وله على التقريب ثلاثة أحوال لايستبد أحدهم من أحدها بحكم الاعتقاد الضرورى ، فأصفى الحالات لهم أن يعتقد أحدهم جميع أركان الايمان على مايكمل عليه فى الغالب ، لكنه على طريق التفات كما سبق ، الحالة الثانية : أن لا يعتقدوا الا بعض الاركان مما فيه خلاف اذا نفر ولم ننصف إليه فى اعتقاده سواء هل يكون مؤمنا أو مسلما أن يعتقد وجود الواحد فقط . أو يعتقد أنه موجود حى لا غير . وأمثال هذه التقديرات . ويخلو عن اعتقاد باقى الصفات خلوا كاملا لايخطر بباله ولا يعتقد فيها حقا ولا باطلا ولا صوابا ولا خطأ . ولكن التقدير الذى يعتقده من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لغيره . والحالة الثالثة : أن يعتقد الوجود كما قلنا والوحدانية والحياة . ويكون فيما يعتقد فى باقى الصفات على ما لا يوافق الحق ماهو عليه مما هو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح : فالذى يدل عليه العلم ويستنبط من ظواهر الشرع أن أرباب الحالة الاولى والله أعلم على سبيل نجاة ومسلك خلاص ووصف إيمان أو إسلام . وسواء فى ذلك الصنف الاول والثانى من أهل الاعتقاد ، ويبقى الصنف الثالث على محتملات النظر كما نبهناك عليه . وأما أهل الحالة الثانية وهى الاقتصار على الوجود المفرد أو الوجود ووصف آخر معه مع الخلو عن اعتقاد سائر الصفات التى للكمال والجلال واركانها فالمتقدمون من السلف لم تشتهر عنهم فى صورة المسألة مايخرج صاحب هذا العقد عن حكم الإيمان والإسلام . والمتأخرون مختلفون . فكثير خاف أن يخرج من اعتقد وجود الله عز وجل . واظهر الاقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم من الإسلام . ولا يبعد أن يكون كثير ممن أسلم من الاجلاف والرعيان وضعفاء النساء والأتباع على هذا بلا مزيد عليه لو سئلوا واستكشفوا عن الله عز وجل . هل له إرادة أو بقاء أو كلام أما ماشاكل ذلك ؟ وهل له صفات معنوية ليست هى هو ولا هى غيره ؟ ربما وجدوا يجهلون هذا ولا يفعلون وجه مايخاطبون به . وكيف يخرج من اعتقد وجود الله ووحدانيته مع الاقرار بالنبوة من حكم الاسلام والنبى صلى الله عليه وسلم قد رفع القتال وأوجب حكم الايمان أو الاسلام لمن قال لا إله الا الله واعتقد علها . وهذه الكلمات لاتقتضى أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة فى الظاهر وعلى البديهة من غير نظر . ثم سمعنا عمن قالها فى صدر الاسلام أنه لم يعلم بعدها إلا فرائض الوضوء والصلاة وهيئات الأعمال البدنية والكف عن أذى المسلم . ولم يبلغنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها . ولا هل الله تعالى عالم بعلم أو عالم بنفسه وهو باق ببقاء أو باق بنفسه وأشباه هذه المعارف . ولا يدفع ظهور هذا إلا معاند أو جاهل سيرة السلف وماجرى بينهم . ويدل على قوة هذا الجانب فى الشرع أن من استكف منه على هذه الحالة وتحققت منه وأبى أن يذعن لتعلم مازاد على ما عنده لم يفت أحد بقتله ولا استرقاقه والحكم عليه بالخلود فى النار عسر جدا أو خطر عظيم مع ثبوت الشرع بأن من قال لا إله الا الله دخل الجنة ، ولعلك تقول قد قال فى مواطن أخرى الابحقها ثم تقول اعتقاد باقى الصفات التى بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعز وكماله من حقها . نعم هى من حقها عند من بلغه أمرها وسمع بها أن يعتقدها . وأما من خلا من اعتقادها ولم يقوله أن يلقاها ولم يسمع بها ففيه مرمى النظر وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ وفى مثله يخاف أن يطلق عليه اسم الكفر . هذا وأنت تسمع عن الله عز وجل يقول فى الآخرة : أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . وذكر من المثقال الى الذرة والخردلة من الايمان ، الى أن خرج منها من لم يعمل حسنة قط فما يدريك أن يكونوا هؤلاء وأمثالهم المرادين . لأن التقدير وقع فى الاجماع لا فى الأعمال .

فإن قلت : فإن من الناس وأئمة العلماء من لم يوجب الايمان لمن اعتقد جميع الأركان اذا لم يصحبها معرفة ولم يقصدها دليل فكيف بمن فاته اعتقاد بعضها أو كلها ؟ فقلنا : قد أريناك وجه الاعتراض على هذا المذهب ونبهناك على بعد أهله عن وجه الحق فيه وأنهم أرباب تعسف . ولو استقصى مع كثير منهم القول فى ذلك لبدا له أنه تسبب الى مايظهر له من تصوره عن معرفة شرطها فى إيمان غيره . ولآثر من حسه الركون الى ماراأيناه أولى من رأيه وأحق بالصواب والعدل

عن مذهبه ، ثم بعد ذلك تراهم حين أخبروا عن سلب الإيمان عنهم لم يبقوا اسم الكفر عليهم ثم يعرضوا على الاستتابة إن كانت من مذهبه، ثم يحكم فيه بالقتل والاسترقاق ؛ فإذا تأملت هذا تأملت هذا لم يخف عليك عيب ما قالوه ونقص ما مالوا إليه فلنرجع إلى ما نحن بسبيله ونستعين بالله عز وجل . وأما أرباب الحالة الثالثة ـ وهى اعتقاد البدعة فى الصفات أو بعضها ـ فإن حكمنا بصحة إيمان أهل الحالة المذكورة قبل هذا وإسلامهم حققنا أمر هؤلاء فيما اعتقدوه ، إذ لم يقعوا فيه بوجه قصد يقطعهم عن إيصال العذر ؛ لأن هؤلاء قد حصل لهم فى العقد ماهو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك الدائم وأصيبوا فيما وراء ذلك ، فإن أمكن ردهم فى الدنيا وزجرهم عنه أن أظهروا المنع عن الإقلاع والرجوع بالعقوبة المؤلمة دون قتل كان ذلك ، وإن قالوا بالموت لم نقصرهم فى اعتقادنا عن أرباب الحالة الثانية المذكورة قبلهم ، والله أعلم بالناجى والهالك من خلقه ، والمطيع والعاصى من عباده ، هكذا ينبغى أن يكون مذهب من نظر فى خلق الله تعالى بعين الرأفة والرحمة ولم يدخل بين الله عز وجل وبين عباده فيما غاب عنه علمه وعدم فيه سبيل اليقين وفهم معنى قوله عز وجل ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان مسئولا ﴾ .

فإن قلت : وأين أنت من تكفير كثير من الناس لجميع أهل البدع عامة وخاصة ، وقول النبى ﷺ فى القدرية « إنهم مجوس هذه الأمة » وقوله ﷺ «ستفترق أمتى إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة» وقال عن قوم « يخرجون على حين فرقة من الناس يقولون بقول خير البرية ، أو من قول خير البرية يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » والأحاديث الواردة فيمن اعتقد شيئا من الأهواء والبدع كثيرة غير هذه مما توجب فى الظاهر تكفيرهم بالإطلاق ، فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء فقد أبقى عليهم دينهم وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم ، وكل فريق منهم فى مقابلة من خالفه فليقع التحاكم عند العالم الأكبر المؤيد بالعصمة سيد البشر إمام المتقين ﷺ ، فهو عليه الصلاة والسلام حين قال « مجوس هذه الأمة » أضافهم إلى الأمة ، حكم بأن لم يقل مجوس على الإطلاق وحين أخبر عن الفرق أنهم فى النار فما أخبر أنهم خالدون فيها ، وحين قال « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » فقد قال متصلا بهذا القول وتتمارى فى الفرق ، وما موضع هذا التمارى من المثل الذى ضربه فهم رسول الله ﷺ ، فمالى أراك تلاحظ جهة وتترك أخرى وتذكر شيئاً وتذهل عن غيره؟ عليك بالعدل تكن أهله واستعمل التفطن تشاهد العجائب المعجبة وتفهم قول الله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ .

(فصل) ولما كان الاعتقاد المجرد عن العلم بصحته ضعيفا وتفرده عن المعرفة قريبا ممن رآه أبقى عليه شبه القشر الثانى من الجوز ، لأن ذلك القشر يؤكل ماهو عليه صونا ، وإذا انفرد أمكن أن يكون طعاما للمحتاج وبلاغا للجائع وبالجملة فهو لمن شىء معه خير من فقده وكذلك اعتقاد التوحيد . وإن كان مجردا عن سبيل المعرفة وغير منوط بشىء من الأدلة ضعيفا ، فهو فى الدنيا والآخرة وعند لقاء الله عز وجل خير من التعطيل والكفر ، ومتى ركب أحد هذا فقد وقع فى أعظم الحرج والمنكر .

بيان أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد المقربين

والكلام فى هذا النوع من التوحيد له ثلاثة حدود (أحدها) أن يتكلم فى الأسباب التى توصل إليه والمسالك التى يعبر عليها نحوه والأحوال التى يتخذها بحصوله كما قدره العز بن العليمى ، واختار ذلك ورضاه وسماه الصراط المستقيم (والحد الثانى) أن يكون الكلام فى عين ذلك التوحيد ونفسه وحقيقته ، وكيف يتصور للسالك إليه والطالب له قبل وصوله إليه وانكشافه له بالمشاهدة (والحد الثالث) فى ثمرات ذلك التوحيد وما يلق أهله به ويطلعون عليه بسببه ويكرمون به من أجله ويتحققون من فوائد المزيد من جهته ، أما الحد الأول فالكلام عليه والبيان له والكشف لدقائقه للصغير وتذلله للصغير والكبير مأمور فى أمره متوعد بالنار على كتمه فيه بعث الأنبياء ومن أجله أرسل

الرسل وبيانه للناس كافة نزلت من عند الله عز وجل على أمناء وحيه الصحف والكتب وليقع التفقة فى القلوب بتحقيقه وتصديقه أيدت الرسل بالمعجزات والأولياء والأنبياء بالكرامات ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وعليه أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولايكتمونه ، وفيه أنزل الله ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ وإياه عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» وجميع ذلك محصور فى اثنتين : العلم بالعبرة ، والعمل بالسنة، وهما مبنيان على آيتين : الحرص الشديد والنية الخالصة . والسر فى تحصيلهما اثنان : نظافة الباطن ، وسلامة الجوارح : ويسمى جميع ذلك بعلم المعاملة . وأما الحد الثانى فالكلام فيه أكثر مايكون على طريقة ضرب الأمثال . تشبيها بالرمز تارة وبالتصريح أخرى . ولكن على الجملة بما يناسب علوم الظواهر ولكن يشرف بذلك اللبيب الحاذق على بعض المراد ويفهم منه كثيرا من المقصود وينكشف له جل مايشار إليه . إذا كان سالما من شرك التعصب بعيداً من هوة الهوى نظيفا من دنس التقليد . (وأما الحد الثالث) فلا سبيل إلى ذكر شىء منه إلا مع أهله بعد علمهم به على سبيل التذكار لا على التعليم إنما كانت أحكام هذه الحدود الثلاثة على ماوصفناه لأن الحد الأول فيه محض النصح للخلق واستنقاذهم من غمرة الجهل والتنكيب بهم من مهاوى العطب وقودهم إلى معرفة هذا المقام وما وراءه مما هو أعلى منه مما لهم فيه الملك الأكبر وفوز الأبد . وقد بين لهم غاية البيان وأقيم عليه واضح البرهان وهو يومئذ الطريق وأول سبيل السعادة . فمن عجز عن ذلك كان غيره أعجز . ومن سلكه على استقامة فالغالب عليه الوصول إن الله لايضيع أجر من أحسن عملا ومن وصل شاهد ومن شاهد علم . وذلك غاية المطلوب ونهاية المرغوب والمحبوب ومن قعد حرم الوصول وما بعده ﴿ فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ﴾ ومن غاب لم تنفعه الأخبار ولم يفده كثير من الأحاديث ، وأيضا فإن الأخبار بما وراء الحد الأول والثانى على وجهه لو كشف للخلق كافة وأمكن بما أعد من الكلام وجرى بين الناس من عرف التخاطب كان فيه زيادة محنة وسبب فيه إهلاك أكثرهم ممن ليس من أهل ذلك المقام . وذلك لغرابة العلم وكثرة غموضه ودقة معناه وعلوه فى منازل الرفعة وبعده بالجلة والتفصيل من جميع ماعهد فى عالم الملك والشهادة وخروجه عن تلك الحدود المألوفة ومباينته لكل مانشئوا عنه ولم يشاهدوا غيره من محسوسات ومعقولات وضروريات ونظريات . فلما كان لايدرك شىء من ذلك بقياس ولا يتصور بواسطة لفظ ولا يحمل عليه مثل كما قال عز وجل ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ وحكى عن ابن عباس رحمه الله أنه قال ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الأسماء . وأراد من لم ينكشف له شىء من علمها وحقائقها فى الدنيا . وأيضاً فلو جاز الإخبار بها لغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تصورها إلا على خلاف ماهى عليه بمجرد تقليد ويتطرق إليه من أهل الغفلة وذوى القصور جحود وتبعيد . فلهذا أمروا بالكتم إشفاقا على من حجب من العلم . ولهذا قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم «لاتحدثوا الناس بما لم تصله عقولهم . أتريدون أن يكذب الله ورسوله » وقال صلى الله عليه وسلم « ماحدث أحدكم قوما بحديث لم تصله عقولهم إلا كان عليهم فتنة » وعلى هذا يخرج قول المشايخ : وإفشاء سر الربوبية كفر ، رزقنا الله وإياكم قلوبا واعية الخير إنه ولى كل صالح . وإذا علمت أن الحد الأول قد تقرر علمه فى كتب الرواية والدراية وملئت منه الطروس وكثرت به فى المحافل الدروس . وهو غير محجوب عن طالب ولا ممنوع عن راغب . قد أمر الجهال به أن يتعلموه والعلماء أن يبذلوه ويعلموه . فلا نعيد فيه ههنا قولا . ولما كان حكم الحد الثانى الكتم تارة وتسكيت الكلام عنه مع غير أهله على كل حال. لم يكن لنا سبيل إلى تعد إلى محدودات الشرع . فلنثن العنان إلى الكلام بالذى يليق بهذا الحال والمقام فنقول : أرباب المقام الثالث فى التوحيد وهم المقربون على ثلاثة أصناف على الجملة فكلهم نظروا إلى المخلوقات فرأوا علامات الحدوث فيها لائحة . وعاينوا حالات الافتقار إلى الله تعالى عليهم واضحة وسمعوا جميعها تدل على توحيده وتفريده راشدة ناصحة . ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم وشاهدوه بغيب أرواحهم . ولاحظوا جلاله وجماله يخفى أسرارهم . وهم مع ذلك فى درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم فى

اليقين وصفاء القلب، وهؤلاء الأصناف الثلاثة إنما عرفوا الله سبحانه بمخلوقاته، وانقسامهم فى تلك المعرفة كانقسام حفاظ تلاوة القرآن مثلا ، فمن حافظ لبعضه ويكون ذلك البعض أكثر أو كثيرا منه دون كماله ، ومن حافظ لجميعه لكنه متلعثم فيه متوقف على الانهمار فى تلاوته غير متوقف فى شيء منه وكلهم ينسب إليه وبعد فى المشهد والمغيب أهله ، وكذلك أهل هذه المرتبة أيضا منهم متوصل إلى المعرفة من قراءة صفحات أكثر المخلوقات أو كثير منها وربما كان فيما يقرأ من الصفحات مايغم عليه ، ومن قارىء لجميعها متفهم لها لكن بنوع تعب ولزوم فكرة ومداومة عبرة ومن ماهر فى قراءتها مستخرج لرموزها ناقد البصيرة فى رؤية حقيقتها مفتوح السمع تناطقه الأشياء فى فراغه وشغله وبحسب ذلك اختلفت أحوالهم فى الخوف والرجاء والقبض والبسط والفناء والبقاء ، ولا مزيد على هذا المثال فى وأصلح لذوى الأفهام من شمس النهار وقت الزوال وعلمت لم سمى أهل هذه المرتبة مقربين فذلك لبعدهم عن ظلمات الجهل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم ، ولا أبعد من الجاهل ولا أقرب من العارف العالم ، والقرب والبعد ههنا عبارتان عن حالتين على سبيل التجوز فى لسان الجمهور ، وعلى الحقيقة عند المستعملين لها فى هـذا الفن ، أحد الحالتين عمـاء البصيرة وانطماس القلب والخلو عن معرفة الرب سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا بعدا : مأخوذ من البعد عن محل الراحة والمنزل الواجب وموضع العمارة والأنس والانقطاع فى مهامه العقر وأمكنه الخوف ومظان الانفراد والوحشة . والحالة الثانية : عبارة عن انقاذ الباطن واشتعال القلب وانفساح الصدر بنور اليقين والمعرفة والعقل ، وعمارة البيت بمشاهدة ماغاب عنه أهل الغفلة واللهو ، ولكنه يدل على أنه لم يصل ؛ ولعلك تقول : أرى بعض أئمة الكلام عن لحوق هذا المقام كأن لم يضربوا فيه بسهم ، ولم يفز قدحهم منه بحظ ولا سهم وأراهم عند الجمهور فى الظاهر وعند أنفسهم أنهم أهل الدلالة على الله تعالى وقادة الخلق إلى مراشدهم ومجاهدون أرباب النحل المردية والملل الضالة المهلكة ، وقد سبق فى الإحياء أنهم من العوام فى الاعتقاد سواء ، وإنما فارقوهم بإحسانهم حراسة عقودهم .

فاعلم أن مارأيت فى الإحياء صحيح ولكن بقى فى كشفه أمر لايخفى على المستبصرين ، ولا يغيب عن الشاذين إذا كانوا منصفين : وهو أن المتكلمين من حيث صناعه الكلام فقط لم يفارقوا عقود العوام وإنما فارقوهم بالجدل عن الانخرام ، والجدل علم لفظى وأكثره احتيال وهمى وهو عمل النفس وتخليق الفهم وليس بثمرة المشاهدة والكشف ولأجل هذا كان فيه السمين والغث ، وشاع فى حال النضال إيراد القطعى وماهو حكمه من غلبة الظن وإبداء الصحيح وإلزام مذهب الخصم ، والمقام المشار إليه بالذكر وشبهه إنما هو علم التوحيد وفهم الأحوال ومعرفته باليقين التام والعلم المضارع للضرورى بأن لا إله إلا الله ، إذ لا فاعل غيره ولا حاكم فى الدارين سواه ومشاهدة القلوب لما حجب من الغيوب ؛ ومن أين للناول طى المنازل ، وما لعلم الكلام مثل هذا المقام ، بل هو من خدام الشرع وحراس متبعيه من أهل الاختلاس والقطع ، وله مقام على قدره ويقطع به ولكن ليس عن مطالع الأنوار ومدارك الاستبصار ، والمدار فى أوقات الضرورات والاختيار وبين مايراد لوقت حاجته إن دعت ، وخصام صاحب بدعة ومناضلة ذى ضلالة بما ينغص على ذوى اليقين العيش ويشغل الذهن ويكدر النفس وما أهله الذين حفظ عنهم بدعة ووقع عليه فيما مضى من الزمان إليهم لانقول فى أكثرهم إنهم لايحسنون غيره ولا يختصون بالتوحيد بمقام سواه بما هو أعلى منه ، بل الظن بهم أنهم علماء مثل ماذكرنا ؛ فهم نصراء لكنهم لم يبدوا من العلم فى الظاهر إلا ما كانت الحاجة إليه أمس والمصلحة به لتوجه الضرورة أعم وأوكد ، ولما كان نجم فى وقتهم من البدع وظهر من الأهواء وشاع من تشتيت كلمة أهل الحق وتجرؤ العوام مع كل ناعق ، فرأوا الرد عليهم والمنازعة لهم والسعى فى اجتماع الكلمة على السنة بعد افتراقها ، وإهلاك ذوى الكيد فى احتيالهم ، وإخماد نارهم الذين هم أهل الأهواء والفتن ، وأولى بهم من الكلام بعلوم الإشارات وكشف أحوال أرباب المقامات ووصف فقه الأرواح والنفوس ، تفهم كل ناطق وجامد فإن هذه كلها وإن كانت أسنى وأعلى فإن ذلك من علم الخواص وهم مكفيون المؤنة ، والعامة أحق بالحفظ وعقائدهم أولى بالحراسة ، واستنقاذ من يخاف عليه الهلاك أولى من مؤانسة وحيد والتصدق على ذى بلغة من العيش ، فكيف

إن كان عن غناء ، وأيضا فان علم الكلام إنما يراد كما قلنا للجدال ، وهو يقمع من العلماء العارفين مع أهل الإلحاد والزيغ لقصورهم عن ملاحظة الحق موقع السيف للأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، بعد التبليغ مع أهل الفساد والتمادى على الغى وسبيل الفساد ، فكما لا يقال السيف أبلغ حجة النبى ﷺ ، كذلك لا يقال : علم الكلام والجدال أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء ، وكما لا يقال فى الصدر الأول فقهاء الأمصار ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم الغالب إلا علوم أخر كالفقه والحديث والتفسير ؛ لأن الخلق أحوج إلى علم ما حفظ عنهم وذلك لغلبة الجهل على أكثرهم ؛ فلولا أن حفظ الله تعالى تلك العلوم بمن ذكرنا لجهات العبارات وانقطع علم الشرع ؛ ونحن مع هذه الحالة نعلم أنهم عارفون بالتوحيد على جهة اليقين بغير طريق علم الكلام والجدل . يتحلون بالمقامات المذكورة وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتهار ما أخذه عنهم الخاص والعام . ومثل ذلك حالة الصحابة رضى الله عنهم بعد النبى ﷺ لما خافوا من دروس الإسلام وأن يضعف ويقل أهله ويرجع البلاد والعامة إلى الكفر كما كانوا أول مرة فقدمات صاحب المعجزة ﷺ والمبعوث لدعوة الحق عليهم الصلاة والسلام رأوا أن الجهاد والرباط فى ثغر العدو والغزو فى سبيل الله وضرب وجوه الكفر بالسيف وإدخال الناس فى دين الله أولى بهم من سائر الأعمال وأحق من تدريس العلوم كلها ظاهرا وباطنا . وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع على الأقل وهم فى حال ذلك الشغل والنظر إلى الخصوص لهم بأنفسهم عناء ولهم بمحالهم قيام ، والعموم إن لم يكن مشتغلا بهم وإذا بدا لهم عن هلكاتهم وسائقا بهم إلى مرشدهم وصلاحهم كان الهلاك إليهم أسرع ، ثم لا يكون من بعد ذلك إن فسد حال العموم للخصوص قدر . ولا يظهر لهم نور ولا يقدرون على شىء كامل من البر . فلا خاصة إلا بعامة . ولقد كانت رعاية النبى ﷺ بحال الجماهير أكثر . والخوف عليهم من الزيغ والضلال والهلاك أشد : واللطف بهم فى تخفيف الوظائف والأخذ بالرفق أبلغ . وكان أهل القوة وذوى البصائر فى الحقائق يأخذون أنفسهم بالمشقات ، وكان هو ﷺ يحب أن يعمل بالعمل من الطاعة فيمنعه منه ، أو من المداومة عليه إلا خوف أن يفرض على أمته حين علم من أكثرهم الضعف ولم يكره لهم . وفيه زيادة الأجر وكثرة الثواب والقرب من الله تعالى ولكن خاف عليهم أن يقعوا فى تضييع الفرض فيكون عليهم كفل من الوزر ألا ترى كيف نهى الخلق عن قيام الليل كله . وكان عثمان رضى الله عنه بقومه فلم ينهه ومنع السيف من كل من أراد أخذه بما شرط عليه فيه حتى جاء من علم منه القدرة على الوفاء بما شرط عليه فأعطاه إياه وقال لعائشة رضى الله عنها : لولا حدثان عهد قومك بالكفر لرددت البيت على قواعد ابراهيم . وقال للأنصار أما ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم ، ومع ذلك فالذى حفظ عنه ﷺ وعن الصحابة من بعده وفقهاء الأمصار وأعيان المتكلمين من الإرشادات لتلك العلوم كثيرة لا تحصى . وإنما القليل من حمله اليوم عنهم وتفقه مثلهم فاقصد تجد . وتصد لاقتباس المعارف تعلم . وطالع كتب الحديث والتواريخ ومصنفات العلوم وتوقن ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ .

بيان المرتبة الرابعة وهو توحيد الصديقين

وأما أهل المرتبة الرابعة فهم قوم رأوا الله سبحانه وتعالى وحده ثم رأوا الأشياء بعد ذلك به فلم يروا فى الدارين غيره ولا اطلعوا فى الوجود على سواه ، فقد كان بيان إشارات الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فيما خصوا من المعرفة فى هجيراهم . فكان هجير أبى بكر الصديق رضى الله عنه « لا إله إلا الله » وكان هجير عمر رضى الله عنه « الله أكبر » وكان هجير عثمان رضى الله عنه « سبحان الله » وكان هجير على رضى الله عنه « الحمد لله » فاستقرى السابقون من ذلك أن أبا بكر لم يشهد فى الدارين غير الله سبحانه وتعالى . فلذا كان الصديق . وسمى به كما علمت . وكان يقول « لا إله إلا الله » وكان عمر يرى ماذون الله صغيرا مع الله فى جنب عظمته فيقول « الله أكبر » وكان عثمان لا يرى فى التنزيه إلا الله تعالى إذ الكل قائم به غير معرى من النقصان والقائم بغيره معلوم فكان يقول « سبحان الله »

وعلى لا يرى نعمة فى الدفع والرفع والعطاء والمنع المكروه والمحبوب إلا من الله سبحانه فكان يقول « الحمد لله » وأهل هذه الرتبة على الجملة فى حال خصوصهم فيها صنفان : مريدون ، ومرادون ، فالمريدون فى الغالب لا بدلهم من أن يحلوا فى المرتبة الثالثة وهى توحيد المقربين ، ومنها ينتقلون ، وعليها يعبرون إلى المرتبة الرابعة ويتمكنون فيها : ومن أهل هذا المقام يكون القطب والأوتاد والبدلاء ، ومن أهل المرتبة الثالثة يكون النقباء والنجباء والشهداء والصالحون والله أعلم .

فإن قلت : أليس الوجود مشتركا بين الحادث والقديم والمألوه والإله ، ثم معلوم أن الإله واحد والحوادث كثيرة ، فكيف يرى صاحب هذه المرتبة الاشياء شيئا واحدا ؟ ذلك على طريق قلب الأعيان فتعود الحوادث قديمة ثم تتحدث بالواحد فترجع هى هو ، وفى هذا من الاستحالة والمروق عن مصدر العقل مايغنى عن إطالة القول فيه . وإن كان على طريق التخييل للولى لما لاحقيقة له ، فكيف يحتج به ؟ أو كيف يعد حالا لولى أو فضيلة لبشر ؟

الجواب عن ذلك : أن الحوادث لم تنقلب إلى التقدم ولم تتحد بالفعل ، ولا اعترى الولى تخييل مالا حقيقة له وإنما هو ولى مجتبى وصديق مرتضى. خصه الله تعالى بمعرفته على سبيل اليقين والكشف التام ، وكشف لقلبه ما لو رآه ببصره عيانا ما أزداد إلا يقينا ، وإن أنكرت أن يكون وهب الله المعرفة به على هذا السبيل أحداً من خلقه فما أطم مصيبتك وما أعظم العزاء فيك حين فتشت الخلق بمعيارك وكلتهم بمكيالك وفصلت نفسك على الجميع ، إذلا سبب لإنكارك إن صح إلا أنك تخيلت أنه يرزق أحد ما لم ترزق ، أو يخص من المعرفة ما لم تخص ، فإذا تقررت هذه القاعدة فصار ما كشف لقلبه لايخرج منه ، وما أطلع عليه لا يغيب عنه ، وما ذكره من ذلك لا ينساه ولا فى حال نومه كما لايفقده فى يقظته وفراغه ، ولهذا والله أعلم إذا رأى الولى المتمكن فى رتبة الصديقين مخلوقا كان حيا أو جمادا صغيرا أو كبيرا لم يره من حيث هو هو ، إنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدرة وميزه بالإرادة على سبق العلم القديم أدام القهر عليه فى الوجود ، ثم لما كانت الصفات المشهودة آثارها فى المخلوقات ليست لغير الموصوف الذى هو الله عز وجل له ، ألهت الولى عن غيره وصار لم ير سواه ، ومعنى ذلك أنه لايتميز بالذكر فى سر القلب وخبر المعرفة ، ولا بالإدراك فى ظاهر الحس دون ما كان موجودا به وصار عنه فانيا ، فيعد هذا على من أصحبه أن لايحتاج إليها مع هـــذا الوضوح ، ولا فهم إلا بالله ، ولا شرح إلا منه ، ولا نور إلا من عنده ، وله الحول والقوة وهو العلى العظيم .

(فصل) وأما معنى « إفشاء سر الربوبية كفر » فيخرج على وجهين ، أحدهما : أن يكون المراد به كفرا دون كفر ، ويسمى بذلك تعظيما لما أتى به المفشى وتعظيما لما ارتكبه ، ويعترض هذا بأن يقال : لا يصح أن يسمى هذا كفرا لأنه ضد الكفر ، إذ الكفر الذى سمى على معناه ساتر ، وهذا المفشى للسر ناشر ، وأين البشر والإظهار من التغطية ؟ والإعلان من الكتم ؟ واندفاع هذا هين بأن يقال : ليس الكفر الشرعى تابع الاشتقاق ، وإنما هو حكم المخالفة الأمر وارتكاب النهى ، فمن رد إحسان محسن أو جحد نعمة متفضل ، فيقال عليه كافر لجهتين : إحداهما من جهة الاشتقاق ويكون إذ ذاك اسما ينبىء عن وصف ، والثانية من جهة الشرع ويكون إذ ذاك حكما يوجب عقوبة ، والشرع قد ورد بشكر المنعم ، فافهم ولا تذهب مع الألفاظ ولا يغرنك العبارات ولا تحجبك التسميات ، وتفطن لخداعها واحترس من استدراجها ، فإذا من أظهر ما أمر بكتمه كان كمن كتم ما أمر بنشره ، وفى مخالفة الأمر فهما حكم واحد على هذا الاعتبار ، ويدل على ذلك من جهة الشرع قوله صلى الله عليه وسلم « لاتحدثوا الناس بما لم تصله عقولهم » وفى ارتكاب النهى عصيان ، ويسمى فى باب القيــاس على المذكور كفران البدن ، وقسمة أخرى : وذلك ان العلم إن حلل إلى ما علم من أجزائه بالاستقراء ، فرأس الإنسان تشابه سماء العالم من حيث إن كل ما علا فهو سماء ، وحواسه تشابه الكواكب والنجوم من حيث إن الكواكب أجسام مشفة تستمد من نور الشمس فتضىء بها ،

والحواس أجسام لطيفة مشفة تستمد من الروح فيضيء مسالك المدركات ، وروح الإنسان مشابهة للشمس ، فضياء العالم ونور نباته وحركة ضواريه وحياته فيها تظهر بتلك الشمس ، وكذلك روح الإنسان به حصل فى الظاهر نمو أجزاء بدنه ونبات شعره وحلول حياته وجعلت الشمس وسط العالم وهى تطلع بالنهار وتغيب بالليل ،وجعلت الروح وسط جسم الإنسان وهى تغيب بالنوم وتطلع باليقظه ، ونفس الانسان تشابه القمر من حيث إن القمر يستمد من الشمس ونفسه تستمد من الروح ، والقمر خالف الشمس والروح خالف النفس ، والقمر آية محوة والنفس مثلها ، ومحو القمر فى آن لا يكون ضياؤه منه ومحو النفس فى آن ليس عقلها منها ، ويعترى الشمس والقمر وسائر الكواكب كسوف ، وتعترى النفس والروح وسائر الحواس غيب وذهول ، وفى العالم نبات ومياه ورياح وجبال وحيوان ، وفى الإنسان نبات وهو الشعر ، ومياه وهو العرق والدموع والريق والدم ، وفيه جبال وهى العظام ، وحيوان وهى هوام الجسم ، فحصلت المشابهة على كل حال . ولما كانت أجزاء العالم كثيرة ومنها ما هى لنا غير معروف ولا معلومة كان فى استقصاء مقابلة جميعها تطويل ، وفيما ذكرناه ما يحصل به لذوى العقول تشبيه وتمثيل .

فإن قلت : أراك فرقت بين النفس والروح ، وجعلت كل واحد منهما غير الآخر ، وهـذا قلما تساعد عليه . إذ قد كثر الخلاف فى ذلك . فاعلم إنه إنما على الإنسان أن يبنى كلامه على ما يعلم لا على ما يجهل . وأنت لو علمت النفس والروح علمت أنهما اثنان * فإن قلت : فقد سبق فى الإحيـاء أنهما شيء واحد وقلت فى هـذه الإجابة إن النفس من أسماء الروح فالذى سبق فى الإحياء ورأيت فى هذه الاجابة وهو شيء واحـد لا يتناقض مع ما قلناه الآن . وذلك أن لها معنى يسمى بالروح تارة وبالنفس أخرى . وبغير ذلك ثم لا يبعد أن يكون لها معنى آخر ينفرد باسم النفس فقط ولا يسمى بروح ولا غير ذلك ، فهذا آخر الـكلام فى أحد وجهى الاضافة التى فى ضمير صورته والوجه الآخر : وهو أن من حمل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصيص به : فذلك لأن الله سبحانه نبأ بأنه حى قادر سميع بصير عالم مريد متـكلم فاعل وخلق آدم عليه السلام حيا قادرا عالمـا سميعا بصيرا مريدا متكلما فاعلا . وكانت لآدم عليه السلام صورة محسوسة مكنونة مخلوقة مقدرة بالفعل وهى لله تعالى مضافة باللفظ . وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم إلا فى الأسماء التى هى عبارة تلفظ فقط . ولا يفهم من ذلك نفى الصفات فليس هو مرادنا . وإنما مرادنا تباين ما بين الصورتين بأبعد وجوه الامكان ، حتى لم تجتمع من صفات الله تعالى إلا فى الاسماء الملفوظ بها لا غير . وفرارا أن تثبت صورة لله تعالى ويطلق عليها حالة الوجود : فافهم هذا فإنه من أدق ما يقرع صدرك ويلج قلبك ويظهر لعقلك ، ولهذا قيل لك : فإن كنت تعتقد الصورة الظاهرة ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الاخرى فى الوجود تـكن مشبها مطلقا ومعناه تيقن أنك من المشبهين لا من المنزهين وحكمت على نفسك بالتشبيه معتقدا ولا تنكر . كما قيل : كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة . أى تتلبس بدينهم وتريد أن لا تنسب إليهم أى تقرأ التوراة ولا تعمل بها . وإن كنت تعتقد الصورة الباطنة منزها مجللا ومقدسا مخلصا : أى ليس تعتقد من الاضافة فى الضمير إلى الله تعالى إلا الاسماء دون المعانى . فتلك المعانى المسماة لا يقع عليها اسم صورة على حال . وقد حفظ عن الشبلى رحمة الله عليه فى معنى ما ذكرنا من هذا الوجه قول بليغ مختصر . حين سئل عن معنى الحديث فقال : خلقه الله على الاسماء والصفات لا على الذات .

فإن قلت : فكذا قال ابن قتيبة فى كتابه المعروف بتناقض الحديث حين قال : وهو صورة لا كالصور . فلم أخذ عليه فى ذلك وأقيمت عليه الشناعة به ؟ وأطرح قوله ولم يرضه أكثر العلماء وأهل التحقيق ؟ فاعلم أن الذى ارتكبه ابن قتيبة عفا الله عنه نحن أشد إعراضا عنه وأبلغ فى الإنكار عليه وأبعد الناس عن تسويغ قوله . وليس هو الذى ألممنا نحن به وأفدناك بحول الله وقوته إياه . بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا . وذهلت عن تعقل مرادنا . ولم تفرق بين قولنا وبين ما قاله ابن قتيبة . ألم أخبرك أننا أثبتنا الصورة فى التسميات . وهو أثبتها حالة للذات : فأين من لب الجوز قشور تفرقع : والذى يغلب على الظن فى ابن قتيبة أنه لم يقرع سمعه هذه الدقائق التى أشرنا إليها وأخرجناها إلى حيز الوجود بتأييد الله تعالى بالعبارة

عنها ، وإنما ظهر له شيء لم يكن له به إلف ، وعلاه الدهش فتوقف بين ظاهر الحديث الذى هو موجب عند ذوى القصور تشبيها وبين التأويل الذى ينفيه ، فأثبت المعنى المرغوب عنه ، وأراد نفى ماخاف من الوقوع فيه ،فلم يتأت له اجتماع مارام ولا نظام فترف ، فما هو صورة لاكالصور ، ولكل ساقطة لا قطة ، فتبادر الناس إلى الأخذ عنه

(فصل) ومعنى قاطع الطريق ﴿ فإنك بالواد المقدس طوى ﴾ أى دم على ما أنت عليه من البحث والطلب ، فإنك على هداية ورشد . والوادى المقدس عبارة عن مقام الكليم موسى عليه السلام مع الله تعالى فى الوادى ،وإنما تقدس الوادى بما انزل فيه من الذكر ، وسمع كلام الله تعالى ،واقيم ذكر الوادى مقام ما حصل فيه فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه ؛ وإلا فالمقصود ما حذف لا ما أظهر بالقول ؛ إذ المواضع لا تأثير لها وإنما هى ظروف.

(فصل) ومعنى ﴿فاستمع﴾ أى سر بقلبك لما يوحى؛ فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودى به موسى ﴿ إنى أنا ربك ﴾ أى فرغ قلبك لما يرد عليك من فوائد المزيد وحوادث الصدق وثمار المعارف وارتياح سلوك الطريق وإشارات قرب الوصول ، وسر القلب كما يقول ادن الرأس ووسع الآذان « وما يوحى » أى مايرد من الله تعالى بواسطة ملك ، أو إلقاء فى روع ، أو مكاشفة تحقيقة ، أو ضرب مثل ، مع العلم بتأويله . ومعنى « لعلك » حرف ترويح ، ومعنى إن تدركك آفة تقطعك عن سماع الوحى من إعجاب بحال أو إضافة دعوى إلى النفس أو قنوع بما وصلت إليه واستبداد به عن غيره وسرادقات المجد : هى حجب الملكوت، وما نودى به موسى : هو علم التوحيد التى وسعت العبارة اللطفية عنه بقوله حين قال له ﴿ ياموسى إننى أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ والمنادى باسمه أزلا وأبدا هو اسم موسى لما سمى السالك الموجود فى كلام الله تعالى أزل الأزل قبل أن يخلق موسى ، لا إلى أول . وكلام الله تعالى صفة له لا يتغير كالا يتغير هو إذ ليست صفاته المعنوية لغيره ، وهو الذى لا يحول ولا يزول ، وقد زل قوم عظم اقتراحهم وهو أنهم حملوا صدور هذا القول على اعتقاد اكتساب النبوة، وعياذا بالله من أين يحتمل هذا القول ما حملوه من المذهب ؟ أليسوا وهم يعرفون أن كثيرا ممن يكون بحضرة ملك من ملوك الدنيا وهو يخاطب إنسانا آخر قلده ولاية كبيرة وفوض إليه عملا عظيما وحباه حباء خطيرا ، وهو ينادى باسمه أو يأمره بما يمتثل من أمره . ثم إن السامع الملك الحاضر معه غير المولى لم يشارك المولى المخلوع عليه والمفوض إليه فى شيء مما ولى وأعطى ، ولم تحجب له بسماعه ومشاهدته أكثر من حظوة القربة وشرف الحضور ومنزلة المكاشفة من غير وصول إلى درجة المخاطب بالولاية والمفوض اليه الأمر ، ولذلك هذا السالك المذكور إذا وصل فى طريقه ذلك بحيث يصل بالمكاشفة والمشاهدة واليقين التام الذى يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل المعلوم ؛فلا يمتنع أن يسمع ما يوحى لغيره من غير أن يقصد هو بذلك ، إذ هو محل سماع الوحى على الدوام وموضع الملائكة ، وكفى بها أنها الحضرة الربوبية ، وموسى عليه السلام ما استحق الرسالة والنبوة ، ولا استوجب التكليم وسماع الوحى مقصودا بذلك بحلوله فى هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة فقط ، بل هو قد استحق ذلك بفضل الله تعالى حين خصه بمعنى آخر ترقى إلى ذلك المقام أضعافا لجاوز المرتبة الرابعة ، لأن آخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء، وموسى عليه السلام نبى مرسل ،فمقامه أعلى بكثير مما نحن آخذون فى أطرافه : لأن هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثه ليست من غايات مقامات الولايه بل هو إلى مباديها أقرب منه إلى غايتها : فمن لم يفهم درجات المقام وخصائص النبوة وأحوال الولايات كيف يتعرض للكلام فيها والطعن على أهلها ، هذا لا يصلح إلا لمن لا يعرف أنه مؤاخذ بكلامه ، محاسب بظنه ويقينه، مكتوب عليه خطراته، محفوظ عليه لحظاته ، محاصا منه يقظاته وغفلاته . فما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد .

فإن قلت : أراك قد أوجبت له نداء الله تعالى و نداء كلامه . والله تعالى يقول ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله رفع بعضهم درجات ﴾ فقد نبه أن تكليم الله تعالى لمن كلمة من الرسل ، إنما هو على سبيل المبالغة فى التفصيل . هذا لا يصلح أن يكون لغيره ممن ليس بنبى ولا رسول . وإذا بان السبب وقصد بادر الشك العارض فى مسالك الحقائق فنقول : ليس فى الآية مايرد ماقلنا ولا يكسره لانا ما أوجبنا أنه كلمه قصدا ولا نوخاه

بالخطاب عمداً . وإنما قلنا : يجوز أن يسمع ما يخاطب الله تعالى به غيره مما هو أعلى منه ، أليس من يسمع كلام إنسان مثلا مما يتكلم به غير السامع فيقال فيه إنه كليمه ؟ وقد حكى أن طائفة من بنى إسرائيل سمعوا كلام الله الذى خاطب به موسى حين كلمه ، ثم إذا ثبت ذلك لم يجب لهم به درجة موسى عليه السلام ولا المشاركة فى نبوته ورسالته، على أنا نقول نفس وورود الخطاب إلى السامعين من الله تعالى يمكن الاختلاف فيه ، فيكون النبى المرسل يسمع كلام الله تعالى الذاتى القديم بلا حجاب فى السمع ولا واسطة بينه وبين القلب، ومن دونه يسمعه على غير تلك الصورة بما يلقى فى روعه وبما ينادى به فى سمعه أو سره وأشباه ذلك ، كما ذكر أن قوم موسى عليه السلام حين سمعوا كلام الله سبحانه مع موسى أنهم سمعوا صوتا كالشبور — وهو القرآن — فإذا صح ذلك فبتباين المقامات اختلف ورود الخطاب فموسى سمع كلام الله بالحقيقة الذى هو صفة له بلا كيف ولا صورة نظم الحروف ولا أصوات ، والذين كانوا معه أيضا سمعوا صوتا مخلوقا جعل لهم علامة ودلالة على صحة التكليم ، وخلق الله سبحانه لهم بذلك العلم الضرورى ،وسمى ذلك الذى سمعوه كلامه ، إذ كان دلالة عليه . كما تسمى التلاوة وهى الحروف المتلو بها القرآن كلام الله تعالى ، إذ هى دلالة عليه .

فإن قلت : فما بقى على السامع إذا سمع كلام الله تعالى الذى يستفيد معرفة وحدانيته وفقه أمره ونهيه وفهم مراده وحكمه يلحقه العلم الضرورى فيما أرى بأنه الشيء المرسل إلا بأن يشتغل بإصلاح الخلق دونه ولو كان عوضا منه أخر عنه ومقامه مقامه ؟* فاعلم أن الذى أوجب عثورك ودوام زللك واعتراضك على العلوم بالجهل وعلى الحقائق بالمخايل أنك بعيد عن غور المطالب ،فعيد فى شرك المعاطب ، فعيد صوب الصوت عتيد صحب السحاب ، إن الذى استحق به الناظر السالك الواصل المرتبة الثالثة سماع نداء الله تعالى معنى ومقام وحال وخاصة أعلى من تلك الأولى وأجل وأكبر وبينهما ما بين من استحق المواجهة بالخطاب والقصد به،وبين من لا يستحق أكثر من سماعه من يخاطب به غيره فهذا من الإشارة باختلاف ورود الخطاب إليهما ما يوجب نفورا وتباين ما بينهما . فإن فهمت الآن وإلا فقد عنى لا ندرى بحيال .

فإن قيل : ألم يقل الله تعالى ﴿فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول﴾ وسماع كلام الله تعالى بحجاب أو بغير حجاب وعلم ما فى الملكوت ومشاهدة الملائكة وما غاب عن المشاهدة والحس من أجل الغيوب ؟ فكيف يطلع عليها من ليس برسول ؟ قلنا الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق والمشاهدة الصورية ، وهو أن يكون معناه : إلا من ارتضى من رسول ومن اتبع الرسول بالإخلاص والاستقامة ، أو عمل بما جاء به النبى ؛ لأن النبى ﷺ قال « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » وهل يبقى إلا ما غاب عنه أن ينكشف إليه وقال « إن يكن منكم محدثون فعمر » أو كما قال « المؤمن ينظر بنور الله » وفى القرآن العزيز ﴿قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ فعلم ما غاب عن غيره من إمكان بيان ما وعد به ، وأراد أنه قدر عليه ولم يكن نبيا ولا رسولا . وقد أنبأ الله سبحانه وتعالى عن ذى القرنين من إخباره عن العلوم الغيبية وصدقه فيه حين قال ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقا ﴾ وإن كان وقع الاختلاف فى نبوة ذى القرنين فالإجماع على أنه ليس برسول ، وهو خلاف المسطور فى الآية وإن رام أحد المدافعة بالاحتيال لما أخبر به ذو القرنين ، وما ظهر على يدى الذى كان عنده علم من الكتاب ، وأراد أن يجوز على عمر التشبه بالحقائق ، فما يصنع فيما جرى للخضر وما أنبأ الله سبحانه وأظهر عليه العلوم الغيبية وهو بعد أن يكون نبيا فليس برسول على الوفاق من الجميع ، والله تعالى يقول ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ قول على أن فى الآية حذف مضاف معناه ما تقدم وانظر إلى ما ظهر من كلام سعد رضى الله عنه أنه يرى الملائكة وهو غيب الله وأعلم أبو بكر بما فى البطن وهى من غيب الله . وشواهد الشرع كثيرة جدا يعجز المتأول ويلهو المعاند . هذا والقول بتخصيص العموم أظهر من الجراءة وأشهر مما نقل الكافة ، ويحتمل أن يكون المراد فى الآية بالرسول المذكور فيها : ملك الوحى الذى بواسطته تنجلى

العلوم وتنكشف الغيوب ، فمتى لم يرسل الله ملكا بإعلام غيب ، أو يخاطب مشافهة ، أو إلقاء معنى فى روع أو ضرب مثل فى يقظه أو منام ، لم يكن إلى علم ذلك الغيب سبيل ، ويكون تقدير الآية : فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده فى يقظة أو منام . فانه يطلع على ذلك أيضا : ويكون فائدة الأخبار بهذا فى الآية الامتنان على من رزقه الله تعالى علم شىء من مكنوناته ، وإعلامه أنه لا تصل اليها نفسه ولا مخلوق سواه إلا بالله تعالى حين أرسل اليه الملك بذلك وبعثه الله . حتى يتبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ، ويرجع إلى الله وحده ، ويتحقق أنه لا يرد عليه شىء من علم أو معرفة أو غير ذلك إلا بارادته ومشيئته ويحتمل وجه آخر : وهو أن يكون معناه والله أعلم : فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى يريد من سائر خلقه وأصناف عباده ، ويكون معنى «من رسول» أى عن يد رسول من الملائكة .

(فصل) ومعنى: ولا يتخطى رقاب الصديقين *إن قلت: ما الذى أوصله إلى مقامهم أو جاوز به ذلك — وهو فى المرتبة الثالثة حال المقربين ماوصل حيث ظننت — فكيف يجاوزه . وإنما خاصية من هو فى رتبة الصديقين عدم السؤال الكثرة التحقق بالأحوال . وخاصية من هو فى رتبة القرب كثرة السؤال طمعا فى بلوغ الآمال . ومثالهما فيما أشير إليه مثال إنسانين دخلا فى بستان . أحدهما يعرف جميع أنواع نبات البستان ويتحقق أنواع تلك الثمار ويعلم أسماءها ومنافعها ؛ فهو لا يسأل عن شىء مما يراه ولا يحتاج إلى أن يخبر به . والثانى لا يعرف مما رأى شيئا او يعرف بعضا ويجهل أكثر مما يعرف ؛ فهو يسأل ليصل إلى علم الباقى . وذلك من تكلمنا عليه حين أكثر السؤال عما يبعد عنه حاله ويتخلف عن مقامه إلى ماهو أعلى منه . وكان غير مراد لذلك إما فى ذلك الوقت أو الأبد . وتلك العلوم متى كانت لا تنال بالكسب وإنما تنال بالمنح . فقيل له: لا تتخط رقاب الصديقين بالسؤال . فذلك مما لا يخطر به وليس هو من الطرق الموصلة إلى مقامهم . فارجع إلى الصديق الأكبر فاقتد به فى حاله وسيرته فمساك ترزق مقامه : فان لم يكن فتبقى على حالة القرب وهى تتلو الصديقية فهذا معناه .

(فصل) ومعنى انصراف المالك الناظر بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى : إما انه لما وصل اليه بالسؤال صرف اليه مالاق به من الأحوال ليحكم ما بقى عليه من الأعمال كما قال المصطفى ﷺ للذى سأله ان يعلمه غرائب العلم : اذهب فأحكم ماهناك ، وبعد ذلك أعلمك غرائب العلم . واما صفة انصرافه فانه نهض بالبحث ورجع بالتذكر : وفوائد المزيد ووجه ان من لم يستطع المقام فى ذلك الموضع بعد وصوله اليه . فذلك لتعلق خبر المعرفة بالبدن ومسكنه عالم الملك ولم يفارقه بعد الموت وطول الغيب عنه لا يمكن فى العادة . ولو امكن لهلك الجسم وتفرقت الأوصال والله تعالى اراد عمارة الدنيا وقد سبق فى علمه ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ومعنى قول أبى سليمان الدارانى: ولو وصلوا مارجعوا . مارجع الى حالة الانتقاض من وصل الى حالة الإخلاص . والذى طمع الناظر فى الحصول فيه سؤاله وتماديه الى حال القرب منه : اذ لم يصلح لذلك ولم يصف ولم يخلص أعماله .

(فصل) ومعنى بأن ليس فى الإمكان ابدع من صورة هذا العالم ولا احسن ترتيبا ولا أكمل صنعا . ولو كان وادخره مع القدرة كان ذلك بخلا يناقض الكرم الإلهى . وان لم يكن قادرا عليه كان ذلك عجزا يناقض القدرة الإلهية . فكيف يقتضى عليه بالعجز فيما لم يخلقه اختيارا وكان ذلك ولم ينسب اليه ذلك قبل خلق العالم . ويقال: ادخار اخراج العالم من العدم الى الوجود عجز مثل ماقيل فيما ذكرناه . وما الفرق بينهما ؟ وذلك لأن تأخيره بالعالم قبل خلقه عن ان يخرجه من العدم الى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن . من حيث ان الفاعل المختار له أن يفعل فاذا فعل فليس فى الإمكان ان يفعل إلا نهاية ماتقتضيه الحكمة التى عرفنا انها حكمة . ولم تعرفنا بذلك الا لنعلم مجارى افعاله ومصادر اموره . وان نتحقق ان كل ما اقتضاه ويقضيه من خلقه بعلمه وارادته وقدرته ان ذلك على غاية الحكمة ونهاية الإتقان ومبلغ جودة الصنع . ليجعل كمال ماخلق دليلا قاطعا وبرهانا على كماله فى صفات جلاله الموجبة لإجلاله . فلو كان ماخلق ناقصا بالإضافة الى غيره ماقدر على خلقه ولو لم يخلق لكان يظهر النقصان المدعى على هذا الوجود متى خلقه

كما يظهر على ماخلقه على غيرذلك ، ويكون الجمع من باب الاستدلال على ماصنع من النقصان قطعا ، وما يحمل عليه من القدرة على أكمل منه ظنا ؛ إذ خلق للخلق عقولا وجعل لهم فهوما وعرفهم ما أكن وكشف لهم ما حجب وأجن ، فيكون من حيث عرفهم بكماله دلهم على نقصه . ومن حيث أعلمهم بقدرته بصرهم بعجزه ، فتعالى الله رب العالمين الملك الحق المبين ، وأيضا فلا يعترض هنا ويترز به إلا من لا يعرف مخلوقاته و لم يصرف الكلام الصحيح فى مشابه ذلك أصلا فى العلم ؛ أو كان نسخاله ومعنى نقيس عليه غيره ؛ وأما انكشافه بخبر ممن رزق علم ذلك كان بطلان العلم فى حق المخبر ، إذ أفشاه لغير أهله وأهداه لمن لا يستحقه ، كما روى عن عيسى على نبينا عليه السلام : لا تعلقوا الدر فى أعناق الخنازير . وإنما أراد قطع العلم عن غير أهله . وقد جاء : لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ، ولا تضعوها عند غير أهلها فتظلموها . وأما سر العلم الذى يوجب كشفه بطلان الأحكام ، فإن كان كشفه من الله سبحانه لقلوب ضعيفة ؛ بطلت الأحكام فى حقها لمن يطلع عليه فى ذلك السر من معرفة مآل الأشياء وعواقب الخلق وكشف أسرار العبادة وما يظن من مقدور ؛ فمن عرف نفسه مثلا أنه من أهل الجنة لم يصل ولم يصم ولم يتعب نفسه فى خير . وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار كمل انهماكه فلا يحتاج إلى تعب زائد ولا تصيبه مكابدة . فلو عرف كل واحد عاقبته ومآله بطلت الأحكام الجارية عليه . وإن كان كشفها من خبر استروح الضعيف ما يسمع من ذلك فيتعطل وينخرم حاله وينحل قيده . وبعد هذا فلا يحمل كلام سهل إلا على ما يقدر لا على ما يوجد ، وذلك جمله مقرونا بحرف «لو» الدال على امتناع الشيء لامتناع غيره . كما يقال : لو كان للانسان جناحان لطار ، ولو كان للسماء درج لصعد عليها . ولو كان البشر ملكا لفقد الشهوات . فعلى هذا يخرج كلام سهل فى ظاهر العلم .

(فصل) وأما خطاب العقلاء للجمادات فغير مستنكر . فقديما ندب الناس الديار وسألوا الأطلال واستخبروا الآثار . وقد جاء فى أشعار العرب وكلامها من ذلك كثيرا ، وفى حديث النبى ﷺ « أسكن أحد . فانما عليك نبى وصديق وشهدان » وقال بعضهم : اسأل الأرض تخبرك عمن شق أنهارها وفجر بحارها وفتق أهواءها ورتق أحواءها وأرسى جبالها ، إن لم تجبك أجابتك اعتبارا : وإنما الذى يتوقف على الأذهان ويتحير فى قوله السامعون وتتعجب منه العقول : هو كيفية كلام الجمادات والحيوانات الصامتات : فى هذا وقع الانكار واضطرب النظار ، وكذب فى تصحيح وجوده ذو السمع من الاعتبار : ولكن لتعلم أن تلقى الكلام للعقلاء ممن لم يعقل عنه فى المشهود يكون على جهات : من ذلك سماع الكلام الذاتى كما تلقى من أهل النطق إذا قصدوا إلى نظم اللفظ ، وذلك أكثر ما يكون الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم فى بعض الأوقات ، كحنين الجذع للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكان حجر يسلم عليه فى طريقه قبل مبعثه . ومنها تلقى الكلام فى حس السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس ، ويعترى هذا سائر الحواس . كمثل ما يسمع النائم فى منامه من مثال شخص من غير مثال ، والمثال المرئى للنائم ليس له وجود فى سمعه وأما ما يجده غير النائم فى اليقظة فنها خاصة وعامة ، فقد ورد أن الحجر فى زمن عيسى ينادى المسلم : يامسلم ، خلفى يهودى فاقتله . وإن لم يخلق الله تعالى للحجر حياة ونطقا ويذهب عنه معنى الحرية أو يوكل بالحجر من يتكلم عنه ممن يستتر عن الأبصار فى العادة من الملائكة والجن أو يكون كلام يخلقه الله عز وجل فى أذن السامع ليفيده العلم باختفاء اليهودى حتى يقتله ، وكما يقال فى العرض الأكبر يوم القيامة إذا نودى فيه باسم كل واحد على الخصوص وفى الخلائق مثلا اسم المنادى به كثير . وقد قالت العلماء : إنه لا يسمع النداء فى ذلك الجمع إلا من نودى فيحتمل أن يكون ذلك النداء يخلق للمنادى فى حاسة أذنه ليتحرك إلى الحساب وحده دون من يشاركه فى اسمه ولا يكون نداء من خارج . والأمثلة كثيرة فى الشرع . وفيما سمعت غنية ومقنع . ومنها تلقى الكلام فى العقل وهو المستفاد بالمعرفة المسموع بالقلب . المفهوم بالتقدير على اللفظ : المسمى بلسان الحال كما قال قيس :

وأجهشت للتوباذ حين رأيته ... وكبر للرحمن حين رآنى
فقلت له أين الذين عهدتهم ... حواليك فى عيش وخفض زمن
فقال مضوا واستودعونى بلادهم ... ومن الذى يبقى على الحدثان

وفى أمثال العوام : قال الحائط للوتد : لم تشقنى ؟ فقال الوتد للحائط : سل من يدقنى فلو كانت العبارة تتأتى منها ما عبرت إلا بمـا قد استعير لها . وعلى هذا المعنى حمل كثير من العلماء قوله تعالى إخبارا عن السماء والأرض حين قالتا . ﴿ أتينا طائعين ﴾ وفى قوله تعالى﴿ انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ ومنها تلقى الكلام من الجبال مثل قوله ﷺ « كأنى أنظر الى يونس ابن متى عليه السلام عليه عباءتان قطونيتان يلبى وتجيبه الجبال. والله يقول : لبيك يايونس » فقوله « كأنى » يدل على أنه تخيل حالة سبقت لم يكن لها فى الحال وجودذاتى . لأن يونس بن متى عليه السلام قد مات وتلك الحالة منه سلفت وفى هذا الحديث إخبار عن الوجود الخيالى فى البصر . والوجود الخيالى فى السمع . ومنها تلقى الكلام بالشبه : وهو أن يسمع السامع كلاما أو صوتا من شخص حاضر فيلقى عليه شبه غيره مما غاب عنه . كقوله عليه السلام فى صوت أبى موسى الأشعرى اذ سمعه يترنم بالقرآن « لقد أعطى مزمارا من مزامير آل داود »ومزامير آل داود قد عدمت وذهبت ، وإنما شبه صوته بها وكما إذا سمع المريد صوت مزمار أو عود فجأة على غير قصد يتخيل صرير أبواب الجنة وشبهها بما فجأ صوته من ذلك ، فهذه مراتب الوجود فأنت إذا أحسنت التصرف بين أساليبها ولم يعترك غلط فى بعضها ببعض ، ولا اشتبهت عليك ، وسمعت عمن نظر بمشكاة نور الله تعالى إلى كاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر فقال له ما بال وجهك وقد كان أبيض أشقر مونقا والآن قد ظهر فيه السواد ، فلم سودت وجهك ؟ فقال: سل الحبر فإنه كان مجموعا فى المحبرة التى هى مستقره وطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا ، فقال : صدقت. ثم أنت إذا سمعت أمثال هذه المراجعات أعمال الفكر وحدد النظر وحل الكلام إلى أجزائه التى ينتظم منها جملة مابلغت ، فسأل عن معنى الناظر ، ومعنى المشكاة ، ومعنى نور الله سبحانه ، وما سبب أنه لم يعرف الناظر الكتابة والمكتوب ؟ وبأى لسان خاطب الكاغد ، وكيف مخاطبة الكاغد وهو ليس من أهل النطق ؟ وفيما صدق الناطق الكاغد ؟ولم صدقه بمجرد قوله دون دليل ولا شاهد ؟ فيبدو لك ههنا من الناظر هو ناظر القلب فيما أورده عليه الحس، والمشكاة استعارة من من مشكاة الزجاجة التى أعمرت بسراج النار ، إلى خبر المعرفة الملقب بسر القلب شبها بها، لأنها مسرجة الرب سبحانه وتعالى أشعلها بنوره ، ونوره المذكور ههنا عبارة عن صفاء الباطن واشتعال السر بطلوع نيران كواكب المعارف الذاهبة باذن الله تعالى بظلم جهالات القلوب ، ووجه إضافته إلى الله تعالى على سبيل الإشارة بالذكر لأجل التخصص بالشرف ، والكاغد والحبر كناية عن أنفسهما لا عن غيرهما، وجعلهما مبدأ طريقه وأول سلوكه إذ هما فى عالم الملك والشهادة الذى محل جولة الناظر فى حال نظره .

وأما سبب أنه لم يعرف الكتابة والمكتوب ، فلأجل أنه كان أميا لا يقرأ الكتاب الصناعى ، وإنما يروم معرفة قراءة الخط الإلهى الذى هو أبين وأدل على الفهم منه وأما مخاطبة الناظر الكاغد وهو : جماد فسبق الكلام على مثله ومراجعة الكاغد له فعلى قدر حال الناظر إن كان مرادا ، فيلقى الكلام فى الحس بما ينبئه عن المطلوب من الحق ، وهو من باب الإلقاء فى الروع فيودعه الحس المشترك المحفوظ فيه على الإنسان صور الأشياء المحسوسة ، وإن كان مريدا فيتلقاه بلسان الحال المسموع بسمع القلب بواسطة المعرفة والعقل ، وتصديق الناظر للكاغد فى عذره وإحالته على الحبر لم يكن لمجرد قوله ، بل بشهادة أولى الرضا والعدل وهو البحث والتجربة لم تسكن وشهادة النفس ، وهذا يسلك إلى القدرة وهو آخرها سئل عن أجزاء عالم . وأما ماسمعته فى حد عالم الجبروت فذلك من القدرة المحدثة إلى العقل والعلم الموجودين فى الإنسان المستقرة فى القوة الوهمية المدركة جميع ما لا يستدعى وجوده جسما ، ولكن قد يعرض له انه فى جسم ، كما تدرك السخلة عداوة الذئب وعطف أمها فتتبع العطف وتنفر من العداوة . وأما ماسمعته فى حد عالم الملكوت وذلك من العلم الإلهى إلى ماوراء ذلك بما هو داخل فيه ومعدود منه ، فسر القلب الذى يأخذ به عن الملائكة ويسمع به ما بعد مكانه ورق معناه وعزب عن القلوب من جهة الفكر بصوره، فاما أى شىء حقائق هذه المذكورات وما كنه كل واحد منها على نحو معرفتك لأجزاء عالم الملك والشهادة، فذلك علم لا ينتفع

بسماعه مع عدم المشاهدة، والله قد عرفك بأسمائها، فان كنت مؤمنا فصدق بوجودها على الجملة لعلمك أنك لا تخبر بتسميات ليس لها مسميات إلى أن يلحقك الله بأولى المشاهدة وتحصل خالص الكرامات. ومن كفر فان الله غنى حميد.

(فصل) والفرق بين العلم المحسوس فى عالم الملك وبين العلم الإلهى فى عالم الملكوت : أن العلم قد اعتقدته مجسما بطىء الحركة بالفعل، سريع الانتقال بالهلاك مخلفا عن مثله فى الظاهر، مجمولا تحت قهر سلطان الآدمى الضعيف الجاهل فى أكثر أوقاته، متصرف بين أحوال متنافية كالعلم والجهل والعدل والظلم والشك والصدق والإفك، فالعلم الإلهى عبارة عن خلق الله فى عالم الملكوت، مختص بخلاف خصائص الجواهر الحسية الكائنة فى عالم الملك، يرى من أوصاف ماسمى به القلم المحسوس كليا مصرفا بتميز الخالق بحكم إرادته على ماسبق به علمه فى أزل الأزل، وإنما سمى بهذا الاسم لأجل شبهه بعمل ماسمى به، غير أنه لا يكتب إلا حقائق الحق، والفرق بين يمين الآدمى ويمين الله عز وجل أن يمين الآدمى كما علمت مركبة من عصب استعصى بقاؤها، وعضل تعضل أدواؤها، وعظام يعظم بلاؤها ولحم ممتد وجلد غير جلد موصولة، كلها فى الضعف والانفعال الملقبة باليد وهى عاجزة على كل حال، ويمين الله تعالى هى عند بعض أهل التأويل عبارة عن قدرته، وعند بعضهم صفة لله غير قدرته وليست بجارحة ولا جسم، وعند آخرين: أنها عبارة عن خلق لله هى واسطة بين القلم الإلهى الناقش للعلوم المحدثة وغيرها، وبين قدرته التى هى صفة له صرف بها اليمين الكاتبة بالقلم المذكور بالخط الإلهى المثبت على صفحات المخلوقات الذى ليس بعربى ولا عجمى، يقرؤه الأميون إذا شرحت صدورهم، وتستعجم على القارئين إذا كانوا عبيد شهواتهم. ولم يشارك يمين الآدمى إلا فى بعض الأسماء لأجل الشبه اللطيف الذى بينهما بالفعل، وتقريبا إلى كل ناقص الفهم، عساه يعقل ما أنزل على رسل الله تعالى من الذكر.

(فصل) وحد عالم الملك: ماظهر للحواس ويكون بقدرة الله بعضه من بعض وصحة التعبير. وحد عالم الملكوت: ماأوجده سبحانه بالأمر الأزلى بلا تدريج ويبقى على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه. وحد عالم الجبروت: هو ما بين العالمين مما يشبه أن يكون فى الظاهر من عالم الملك فجيز بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت:

(فصل) ومعنى أن الله خلق آدم على صورته : فذلك على ماجاء فى الحديث عن النبى ﷺ، وللعلماء فيه وجهان : فمنهم من يرى للحديث سببا : وهو أن رجلا ضرب غلامه فرآه النبى ﷺ فنهاه وقال : إن الله عز وجل خلق آدم على صورته، وتأولوا عود الضمير على المضروب، وعلى هذا يكون للحديث مدخل فى هذا الموضع لم يرده مورد آخر فى غير هذا الموطن، ويكون الإيمان به إلى غير هذا المعنى المذكور فى السبب الحادث وإثباته فى غير موطن ذلك السبب المنقول مما يعز ويعسر، فليبق المسبب على حاله، ولينظر فى وجه الحديث غير مما يحتمل، ويحسن الاحتجاج به فى هذا الموطن، والوجه الآخر : أن يكون الضمير الذى فى « صورته » عائدا إلى الله سبحانه، ويكون معنى الحديث : أن الله خلق آدم على صورة هى إلى الله سبحانه، وهذا العبد المضروب على صورة آدم، فاذاً هذا العبد المضروب على الصورة المضافة الى الله تعالى، ثم ينحصر بيان معنى الحديث ويتوقف على بيان معنى هذه الإضافة وعلى أى جهة يحمل فى الاعتقاد العلمى على الله سبحانه، ففيها وجهان : أحدهما أن إضافته إضافة ملك إلى الله كما يضاف إليه العبد والبيت والناقة واليمين على أحد الأوجه، والوجه الآخر: أن تكون إضافة تخصيص به تعالى، فمن حملها على إضافة الملك له رأى أن المراد بصورته هو العالم الأكبر بجملته، وآدم مخلوق على مضاهاة صورة العالم الأكبر لكنه مختصر صغير، فان العالم إذا فصلت أجزاؤه بالعلم، وفصلت أجزاء آدم عليه السلام بمثله، وجدت أجزاء آدم عليه السلام مشابهة للعالم الأكبر، وإذا شابهت أجزاء جملة أجزاء جملة فالجملتان بلا شك متشابهتان، فالذى نظر فى تحليل صورة العالم الأكبر فقسمه على أنحاء من القسمة وقسم آدم عليه السلام كذلك، فوجد كل نحوين منهما شبيهين فمن ذلك أن العالم ينقسم إلى قسمين : أحد القسمين ظاهر محسوس كعالم الملك. والثانى : باطن معقول كعالم الملكوت. والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس كالعظم واللحم والدم وسائر أنواع الجواهر المحسوسة. وإلى

باطن كالروح والعقل والعلم والإرادة والقدرة وأشباه ذلك . وقسم آخر : وذلك أن العالم قد انقسم بالعوالم إلى عالم الملك وهو الظاهر للحواس ، وإلى عالم الملكوت وهو الباطن فى العقول ، وإلى عالم الجبروت وهو المتوسط الذى أخذ بطرف من كل عالم منهما ، والانسان كذلك انقسم إلى ماشابه هذه القسمة ؛ فالمشابه لعالم الملك . الأجزاء المحسوسة وقد علمتها ، والمشابهة لعالم الملكوت فمثل الروح والعقل والقدرة والارادة وأشباه ذلك ، والمشابهة لعالم الجبروت فكالإدراكات الموجودة بالحواس والقوى الموجودة بأجزائه . والوجه الثانى : أن يكون معناه كفراً للسامع لا للمخبر بخلاف الوجه الأول ، ويكون هذا مطابقا لحديث النبى ﷺ « لاتحدثوا الناس بمالم تصله عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله » فمن حدث أحداً بما لم يصله عقله ربما سارع إلى التكذيب وهو الأكثر ، ومن كذب بقدرة الله تعالى وبما أوجدتها فقد كفر ولولم يقصد الكفر ، فإن أكثر اليهود والنصارى وسائر الكفار ماقصدت الكفر ولا تظنه بأنفسها وهى كفار بلا ريب ؛ وهذا وجه واضح قريب ، ولا تلتفت إلى ما مال إليه بعض من لا يعرف وجوه التأويل ولا يعقل كلام أولى الحكمة والراسخين فى العلم حين ظن أن قائل ذلك أراد الكفر الذى هو نقيض الإيمان والاسلام بتعلق بخبره وتلحق قائله ، وهذا لايخرج إلا على مذاهب أهل الأهواء الذين يكفرون بالمعاصى ، وأهل السنن لا يرضون بذلك . وكيف يقال لمن آمن بالله واليوم الآخر وعبد الله بالقول الذى ينزه به والعمل الذى يقصد به المتعبد لوجهه الذى يستزيد به إيمانا ومعرفة له سبحانه ، ثم يكرمه الله تعالى على ذلك بفوائد المزيد وينيله ماشرف من المنح ويريه أعلام الرضا ، ثم يكفره أحد بغير شرع ولا قياس عليه ، والايمان لايخرج عنه إلا بنبذه واطراحه وتركه واعتقاد مالا يتم الايمان معه ولا يحصل بمقارنته ، وليس فى إفشاء سر الولى ما به من تناقض الايمان اللهم إلا أن يريد بإفشائه وقوع الكفر من السامع له فهذا عات متمرد وليس بولى ، ومن أراد بأحد من خلق الله أن يكفر بالله ، فهو لامحالة كافر . وعلى هذا يخرج قوله تعالى ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴾ ثم إنه من سب أحدا منهم على معنى مايجده له من العداوة والبغضاء ، قيل له أخطأت وأثمت من غير تكفير وأنه أيما فعل ذلك وسب رسول الله ﷺ فهو كافر بالاجماع .

(سؤال) فإن قيل فما معنى قول سهل رحمه الله تعالى ونسب إليه : للإلهية سر لو انكشف لبطلت النبوات ، وللنبوات سر لو انكشف لبطل العلم ، وللعلم سر لو انكشف بطلت الأحكام . وجاء فى الاحياء على أثر هذا القول وقائل هذا القول إن لم يرد به إبطال النبوة فى حق الضعفاء فما قالوا ليس بحق ، فان الصحيح لايتناقض والكامل من لايطفىء نور معرفته ونور ورعه ، وهذا وإن لم يكن من الأسئلة المرسومة فهو متعلق منها بما فرع من الكلام فيها آنفا وناظرا إليه ، إذا ماأدى إفشاؤه إلى أبطال النبوة والأحكام والعلم كفر . فالجواب : أن الذى قاله رحمه الله وإن كان مستعجما فى الظاهر فهو قريب المسلك ، باد للمتأمل الذى يعرف مصادر أغراضهم ومسالك أقوالهم الإلهية. ومن وصل إليه اليقين لولاه لم يكن نبيا لا يخلو أن يكون انكشافه من الله بما يطلع على القلوب من أنوار الشمس التى هى غائبة عنها بأن كانت القلوب ضعيفة طرأ عليها من الدهش والاصطلام والحيرة والتيه مايبهر العقول ويفقد الحس ويقطع عن الدنيا ومافيها وذلك لضعفه . ومن انتهى إلى هذه الحالة فتبطل النبوة فى حقه أن يعرفها أو يعقل ماجاء من قبلها ، إذ قد شغله عنها ماهو أعظم لديه منها ، وربما كان سبب موته لعجزه عن حمل ما يطرأ عليه ، كما حكى أن شابا من سالكى طريق الآخرة عرض عليه أبو يزيد ولم يره من قبل فلما رآه انكشف له ذلك وكان فى مقام الضعفاء من المريدين فلم يطق حمله فمات به ، وإما أن يكون انكشافه من عالم به على وجه الخبر عنه ، فتبطل النبوة فى حق المخبر حين نهى أن لا يفشى فأفشى أو أمر أن لايتحدث فلم يفعل . فخرج بهذه المعصية عن طاعة النبى ﷺ فيها ، فلهذا قيل فى ذلك بطلت النبوة فى حقه .

فإن قيل : فلم لاتكفروه على هذا الوجه إذ بطلت النبوة فى حقه باخباره ؟ قلنا : ما بطلت فى حقه جميعا ، وإنما بطل فى حقه منها ماخالف الأمر الثابت من قبلها ، ويعد هذا الكلام على تغليظ حق الإفشاء وقدسبق الكلام عليه فى

سر الربوبية كفر : وأماسر النبوة الذى أوجب العلم لمن رزقها أو رزق معرفتها على الجملة إذ النبوة لا يعرفها بالحقيقة إلى نبى . فان انكشف ذلك لقلب أحد بطل العلم فى حقه بارتفاع المحنة له بالأمر المتوجه عليه بطلبه والبحث عنه.

فيكون كالنبى إذا سئل عن شيء لو وقعت له واقعة لم يحتج إلى النظر فيها ولا إلى البحث عنها . بل ينتظر ماعود من كشف الحقائق باخبار ملك أو ضرب مثل يفهم عنه أو اطلاع على اللوح المحفوظ أو إلقاء فى روع فيعود مخترعاته ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيب الآخرة عليها . ولا عرف خواصها ولا تنزه فى عجائبها ولا لاحظ الملكوت ببصر قلبه . ولا جاوز التخوم إلى أسفل من ذلك بسره ولبه . ولا فهم أن الجنة أعلى النعيم وأن النار أقصى العذاب الأليم وأن النظر اليه منتهى الكرامات . وأن رضاه وسخطه غاية الدرجات والدركات . وأن منع المعارف والعلوم أسنى الهبات . ويرى أن العالم بأسره أخرجه من العدم الذى هو نفى محض إلى الذى هو إثبات صحيح وقدره منازل وجعله الميقات . فمن حى وميت . ومتحرك وساكن. وعالم وجاهل . وشقى وسعيد وقريب وبعيد وصغير وكبير . وجليل وحقير . وغنى وفقير . ومأمور وأمير . ومؤمن وكافر . وجاحد وشاكر . وذكر وأنثى . وأرض وسماء . ودنيا وأخرى . وغير ذلك مما لا يحصى . والكل قائم به موجود بقدرته . وباق بعلمه ومنته إلى أجله . ومصرف بمشيئته ، وذلك على بالغ حكمته . فما أكل جهل من لا يجـــد به إلا قدماه . ولا من يصرفه إلا استبداده ولا ملكه . فيعود الحدث قديما والمربوب ربا والملوك مالكا فيعود الخلق من خلق الله كهو . تعالى الله عن جهل الجاهلين وتخييل المتوهمين وزيغ الزائغين .

(فصل) وأما حكم هذه العلوم المكتوبة فى الطلب وسلوك هذه المقامات ورقى هذه الدرجات واستفهام هـذه الخاطبات . أهى من قبيل الواجبات والمندوبات أو المباحات . فاعلم أن المسؤل عنه على ضربين أحدهما : ماهو فى حكم المبادى والثانى فى حكم الغايات . فأما الذى هو فى حكم المبادى فطلبه فرض على كل أحد بقدر بذل المجهود وإفراغ الوسع وجميع مايقدر عليه من العبادة وذلك ما تضمنه أصول علم المعاملة . مثل : إخلاص التوحيد والصدق فى العمل وعدم الإجحاف بالخوف والرجاء والتزين بالصبر والشكر لأن هذه كلها وما يتعلق بها من علم الأمر والنهى واجبة . قال الله تعالى ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وقد سبق التنبيه عليه .

أما الذى هو فى حكم الغايات مثل انقلاب الهيئات والنظر بالتوفيق بحكم الموافقة والرضا بالاثبات والتوكل بالتجريد وحقيقة علم معانى التوحيد وسير معانى التقرير وأوصاف أهل أبيات اليقين. فهو درجات ومقامات ومنازل ومراتب ومنح يخص الله تعالى بها من شاء عباده من غـــير أن ينال بطلب ولا بحث ولا تعليم ، ولو كان ذلك لما قيل للناظر السالك حين أراد الارتقاء الى درجة أعلى من درجته بلسان السؤال ارجع لا تتخط رقاب الصديقين لكنها مواهب أكرم الله تعالى بها أهل صفوته وولايته . وهى مراتب الصدق فى العلم وبركات الاخلاص فى العمل فمن لم يرث من علمه وعمله المفترض عليه فطلبه والعمل به شتان من هذه المعانى فليس فى شيء من الحقيقة وإن كان حقا . غير أن حاله معلول . إما مفتون بدنياه أو محجوب بهواه وربك على كل شيء قدير .

(فصل) وأما لأى شيء ذكرت هذه العلوم بالاشارات دون العبارات، وبالرموز دون التصريحات وبالمتشابه من الألفاظ دون المحكمات . وإن كان قد سبق هذا من الشارع فيما له أن يمتحن به من كلف ويتلو من بعيد ولكن للعلم رجال مخصوصون فما بال من لم يجعل شارعا ولم يبعث لغير أن يسلك ذلك .

والجواب عنه أن العالم هو وارث النبى ﷺ .وإنما ورث العلم ليتجمل بعمله ويحل فيه كمحله والنبى ﷺ لا ينطق عن الهوى ﴿ إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ﴾ وحكم الوارث فيما ورث حكم الموروث فيما ورث عنه فما عرف فيه الحكم من فعل الموروث عنه امتثله ومالم يصل إليه فيه شيء كان له اجتهاده فان أخطأ كان له أجر وإن أصاب كان له أجران ثم إن الوارث رأى النبى ﷺ يصرح بعلوم المعاملات وأشار مما وراءها بمـــا لا يفهمه إلا أرباب التخصيص كما قال الله عز وجل ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ فلم

يمكن للوارث تعد عن حكم الموروث ، كما حكى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إنى رويت عن رسول الله ﷺ وعاءين أحدهما هو الذى بثثته فيكم ، وأما الثانى فلو بثثته لحز تم السكين على هذا البلعوم وأشار إلى حلقه . و بعد كل شىء : ففى القدوة بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه النجاة ، وفى اتباعه الفوز بحب الله و يد الله مع الجماعة ، وفوق كل ذى علم عليم . وقد أفدناك من طرائف ما عندنا و أهدينا إليك من غرائب ما لدينا ، وإلى الله يرد العلم ما دق وجل وكثر وقل وعظم وصغر وظهر واستتر ، وإنما ينطق الانسان بما أنطقه الله تعالى وهو مستعمل بما استعمله فيه ، إذ كل ميسر لما خلق له ، فاستنزل ما عند ربك وخالقك من خير ، واستجاب ما تؤمله منه من هدايته وبر بقراءة السبع المثانى والقرآن العظيم التى أمرت بقراءتها فى كل صلاة وكذا عليك أن تعيدها فى كل ركعة ، وأخبرك الصادق والمصدق ﷺ أن ليس فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الفرقان مثلها وفى هذا تنبيه بل تصريح بأن يكثر منها بما ضمنت من الفوائد وخصت به من الذخائر والعوائد ، بما لو سطر لكان فيه أوقار الجمال ، فافهم وانتبه واعقل ما خلقت له ، واعرف ما أعدلك ، والله تعالى سبحانه حسيب من أراده ، وهادى من جاهد فى سبيله ، وكاف من توكل عليه ، وهو الغنى الكريم .

انتهى الجواب عما سألت عنه وفرغنا منه بحسب الوسع من الكلام . ونسأل الله تعالى المباعدة بين حيلات قلوب البشر ، وأن يصرف عنا حجب الكدرات والأهواء ومراتب الغبن ، فبيده مجارى المقدورات وهو إله من ظهر وغبر وإليه يرجع من آمن وكفر ، ومجازى الخلائق بنعيم أو سقر ، والصلاة على سيدنا محمد سيد البشر وكافى الضرر . وعلى آله السادات الغرر ، وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين .

تم كتاب الإملاء فى إشكالات الإحياء

كتاب عوارف المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله العظيم شأنه القوى سلطانه ، الظاهر إحسانه الباهر حجته وبرهانه ، المحتجب بالجلال والمنفرد بالكمال ، المتردى بالعظمة فى الآباد والآزال ، لايصوره وهم وخيال ، ولا يحصره حد ومثال ، ذى العز الدائم السرمدى ، والملك القائم الديمومى ، والقدرة الممتنع إدراك كنهها ، والسطوة المستوعر طريق استيفاء وصفها ، نطقت الكائنات بأنه الصانع المبدع . ولاح من صفحات ذرات الوجود بأنه الخالق المخترع ، وسم عقل الإنسان بالعجز والنقصان ، وألزم فصيحات الألسن وصف الحصر فى حلبة البيان . وأحرقت سبحات وجهه الكريم أجنحة طائر الفهم . وسدت تعززا وجلالا مسالك الوهم . وأطرق طامح البصيرة تعظيما وإجلالا . ولم يجد من فرط الهيبة فى فضاء الجبروت مجالا فعاد البصر كليلا والعقل عليلا . ولم ينتهج إلى كنه الكبرياء سبيلا . فسبحان من عزت معرفته لولا تعريفه . وتعذر على العقول تحديده وتكييفه . ثم ألبس قلوب الصفوة من عباده ملابس العرفان . وخصهم من بين عباده بخصائص الاحسان . فصارت ضمائرهم من مواهب الأنس مملوءة : ومرائى قلوبهم بنور القدس مجلوة . فتهيأت لقبول الأمداد القدسية . واستعدت لورود الأنوار العلوية ، واتخذت من الأنفاس العطرية بالأذكار جلاسا ، وأقامت على الظاهر والباطن من التقوى حراسا . وأشعلت فى ظلم البشرية من اليقين نبراسا . واستحقرت فوائد الدنيا ولذاتها . وأنكرت مصايد الهوى وتبعاتها . وامتطت غوارب الرغبوت والرهبوت . واستفرشت بعلو همتها بساط الملكوت وامتدت إلى المعالى أعناقها . وطمحت إلى اللامع العلوى أحداقها . واتخذت من الملإ الأعلى مسامرا ومحاورا . ومن النور الأعز الأقصى مزاورا ومجاورا . أجساد أرضية بقلوب سماوية . وأشباح فرشية بأرواح عرشية : نفوسهم فى منازل الخدمة سيارة . وأرواحهم فى فضاء القرب طيارة ، مذاهبهم فى العبودية مشهورة : وأعلامهم فى أقطار الأرض منشورة ، يقول الجاهل بهم : فقدوا . ومافقدوا . ولكن سمت أحوالهم فلم يدركوا ؛ وعلا مقامهم فلم يملكوا . كائنين بالجثمان بائنين بقلوبهم عن أوطان الحدثان ؛ لأرواحهم حول العرش تطواف ، ولقلوبهم من خزائن البر إسعاف ، يتنعمون بالخدمة فى الدياجر ، ويتلذذون من وهيج الطلب بظمأ الهواجر ؛ تسلوا بالصلوات عن الشهوات : وتعوضوا بحلاوة التلاوة عن اللذات ، يلوح من صفحات وجوههم بشر الوجدان . وينم على مكنون سرائرهم نضارة العرفان ، لايزال فى كل عصر منهم علماء بالحق . داعون للخلق . منحوا بحسن المتابعة رتبة الدعوة ، وجعلوا للمتقين قدوة ، فلا يزال تظهر فى الخلق آثارهم ، وتزهر فى الآفاق أنوارهم . من اقتدى بهم اهتدى . ومن أنكرهم ضل واعتدى . فلله الحمد على ماهيأ للعباد من بركة خواص حضرته من أهل الوداد ، والصلاة على نبيه ورسوله محمد وآله وأصحابه الأكرمين الأمجاد .

ثم إن إيثارى لهدى هؤلاء القوم ومحبتى لهم . علما بشرف حالهم وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة المتحقق بهما من الله الكريم الفضل والمنة . حدانى أن أذهب عن هذه العصابة . بهذه الصبابة . وأؤلف أبوابا فى الحقائق

والآداب معربة عن وجه الصواب فيما اعتمدوه ، مشعرة بشهادة صريح العلم لهم فيما اعتقدوه ، حيث كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم ، وتستر بزيهم المتسترون وفسدت أعمالهم ، وسبق إلى قلب من لايعرف أصول سلفهم سوء ظن ، وكاد لايسلم من وقيعة فيهم وطعن ، ظنا منه أن حاصلهم راجع إلى مجرد رسم ، وتخصصهم عائد إلى مطلق اسم .

ومما حضرني فيه من النية : أن أكثر سواد القوم بالاعتزاء إلى طريقهم الإشارة إلى أحوالهم ، وقد ورد « من كثر سواد قوم فهو منهم » وأرجوا من الله الكريم صحة النية فيه وتخليصها من شوائب النفس ، وكل ما فتح الله تعالى على فيه منح من الله الكريم وعوارف ، وأجل المنح عوارف المعارف .

والكتاب يشتمل على نيف وستين بابا والله المعين (الباب الأول) في منشأ علوم الصوفية (الباب الثاني) في تخصيص الصوفية بحسن الاستماع . (الباب الثالث) في بيان فضيلة علم الصوفية والإشارة إلى أنموذج منها (الباب الرابع) في شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم فيها (الباب الخامس) في ذكر ماهية التصوف (الباب السادس) في ذكر تسميتهم بهذا الاسم . (الباب السابع) في ذكر المتصوف والمتشبه (الباب الثامن) في ذكر الملامتي وشرح حاله (الباب التاسع) في ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم (الباب العاشر) في شرح رتبة المشيخة (الباب الحادي عشر) في شرح حال الخادم ومن يتشبه به (الباب الثاني عشر) في شرح خرقة المشايخ (الباب الثالث عشر) في فضيلة سكان الربط (الباب الرابع عشر) في مشابهة أهل الربط بأهل الصفة (الباب الخامس عشر) في خصائص أهل الربط فيما يتعاهدونه بينهم (الباب السادس عشر) في اختلاف أحوال المشايخ بالسفر والمقام (الباب السابع عشر) فيما يحتاج المسافر إليه من الفرائض والنوافل والفضائل (الباب الثامن عشر) في القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه (الباب التاسع عشر) في حال الصوفي المتسبب (الباب العشرون) في حال من يأكل من الفتوح (الباب الحادي والعشرون) في شرح حال المتجرد من الصوفية والمتأهل (الباب الثاني والعشرون) في القول والسماع قبولا وإيثارا (الباب الثالث والعشرون) في القول في السماع ردا وانكاراً (الباب الرابع والعشرون) في القول في السماع ترفعا واستغناء (الباب الخامس والعشرون) في السماع تأدبا واعتناء (الباب السادس والعشرون) في خاصية الأربعينية التي يتعاهدها الصوفية (الباب السابع والعشرون) في ذكر فتوح الأربعينية (الباب الثامن والعشرون) في كيفية الدخول في الأربعينية (الباب التاسع والعشرون) في ذكر أخلاق الصوفية وشرح الخلق (الباب الثلاثون) في ذكر تفاصيل الأخلاق (الباب الحادي والثلاثون) في الأدب ومكانه من التصوف (الباب الثاني والثلاثون) في آداب الحضرة لأهل القرب (في الباب الثالث والثلاثون) في آداب الطهارة ومقدماتها (الباب الرابع والثلاثون) في آداب الوضوء وأسراره (الباب الخامس والثلاثون) في آداب أهل الخصوص والصوفية فيه (الباب السادس والثلاثون) في فضيلة الصلاة وكبر شأنها (الباب السابع والثلاثون) في وصف صلاة أهل القرب (الباب الثامن والثلاثون) في ذكر آداب الصلاة وأسرارها الباب التاسع والثلاثون) في فضل الصوم وحسن أثره (الباب الأربعون) في أحوال الصوفية في الصوم والإفطار (الباب الحادي والأربعون) في آداب الصوم ومهامه . (الباب الثاني والأربعون) في ذكر الطعام ومافيه من المصلحة والمفسدة . (الباب الثالث والأربعون) في آداب الأكل . (الباب الرابع والأربعون) في ذكر آدابهم في اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه . (الباب الخامس والأربعون) في ذكر فضل قيام الليل . (الباب السادس والأربعون) في الأسباب المعينة على قيام الليل . (الباب السابع والأربعون) في آداب الانتباه من اليوم والعمل بالليل . (الباب الثامن والأربعون) في تقسيم قيام الليل (الباب التاسع والأربعون) في استقبال النهار والأدب فيه (الباب الخمسون) في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات (الباب الحادي والخمسون) في آداب المريد مع الشيخ (الباب الثاني والخمسون) فيما يعتمده الشيخ مع الأصحاب والتلامذة . (الباب الثالث والخمسون) في حقيقة الصحبة ومافيها من الخير والشر . (الباب الرابع والخمسون) في أداء حقائق الصحبة والأخوة في الله تعالى . (الباب الخامس والخمسون) في آداب

الصحبة والأخوة (الباب السادس والخمسون) فى معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك . (الباب السابع والخمسون) فى معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها . (الباب الثامن والخمسون) فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما (الباب التاسع والخمسون) فى الإشارة إلى المقامات على الاختصار والايجاز . (الباب الستون) فى ذكر إشارات المشايخ فى المقامات على الترتيب . (الباب الحادى والستون) فى ذكر الأحوال وشرحها (الباب الثانى والستون) فى شرح كلمات من اصطلاح الصوفية مشيرة إلى الأحوال (الباب الثالث والستون) فى ذكر شىء من البدايات والنهايات وصحتها .

فهذه الأبواب تحررت بعون الله تعالى مشتملة على بعض علوم الصوفية وأحوالهم ، ومقاماتهم وآدابهم ، وأخلاقهم وغرائب مواجيدهم ، وحقائق معرفتهم وتوحيدهم ، ودقيق إشارتهم ولطف اصلاحاتهم ، فعلومهم كلها إنباء عن وجدان ، واعتزاء إلى عرفان ، وذوق تحقق بصدق الحال . ولم يف باستيفاء كنهه صريح المقال ، لأنها مواهب ربانية ، ومنائح حقانية ، استنزلها صفاء السرائر ، وخلوص الضمائر ، فاستعصت بكنهها على الاشارة ، وطفحت على العبارة . وتهادتها الأرواح بدلالة التشام والائتلاف ، وكرعت حقائقها من بحر الألطاف وقد اندرس كثير من دقيق علومهم كما انطمس كثير من حقائق رسومهم . وقد قال الجنيد رحمه الله : علمنا هذا قد طوى بساطه منذ كذا سنة ، ونحن نتكلم فى حواشيه . بدا هذا القول منه فى وقته مع قرب العهد بعلماء السلف وصالحى التابعين : فكيف بنا مع بعد العهد وقلة العلماء الزاهدين ، والعارفين بحقائق علوم الدين ، والله المأمول أن يقابل جهد المقل بحسن القبول . والحمد لله رب العالمين .

الباب الأول : فى ذكر منشأ علوم الصوفية

حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السهروردى إملاء من لفظه فى شوال سنة ستين وخمسمائة . قال : أنبأنا الشريف نور الهدى أبو طالب الحسين بن محمد الزينبى . قال : أخبرتنا كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية المجاورة بمكة حرسها الله تعالى . قالت : أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكى الكشميهنى . قال أنبأنا أبو عبد الله محمد ابن يوسف الفربرى ، قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى . قال حدثنا أبو كريب : قال : حدثنا أبو أسامة ، عن بريد ، عن أبى بردة ، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال «إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوما فقال : ياقومى ، إنى رأيت الجيش بعينى . وإنى أنا النذير العريان ؛ فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ؛ وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ؛ فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ؛ ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق » . معنى اجتاحهم : استأصلهم . ومن ذلك الجائحة التى تفسد الثمار . وقال ﷺ «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا : فكانت طائفة منها قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها طائفة أخاذات أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس . فشربوا وسقوا وزرعوا . وكانت منها طائفة أخرى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ؛ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ؛ ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

قال الشيخ : أعد الله تعالى لقبول ما جاء به رسول الله ﷺ أصفى القلوب وأزكى النفوس ؛ فظهر تفاوت الصفاء واختلاف التزكية فى تفاوت الفائدة والنفع ؛ فمن القلوب ما هو بمثابة الأرض الطيبة التى أنبتت الكلأ والعشب الكثير وهذا مثل من انتفع بالعلم فى نفسه واهتدى . ونفعه علمه وهداه إلى الطريق القويم من متابعة رسول الله ﷺ . ومن القلوب ما هو بمثابة الأخاذات ــ أى الغدران : جمع أخاذة ، وهو المصنع والغدير الذى يجتمع فيه الماء ــ فنفوس العلماء الزاهدين من الصوفية والشيوخ زكت وقلوبهم صفت . فاختصت بمزيد الفائدة فصاروا أخاذات . قال مسروق صحبت أصحاب رسول الله ﷺ فوجدتهم كأخاذات ، لأن قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم .

أخبرنا الشيخ الإمام رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة ، قال أنبأنا أبو سعيد محمد الخليلى وقال أنبأنا القاضى أبو سعيد محمد الفرخزاذى ، قال أنبأنا أبو اسحق أحمد بن محمد الثعالبى ، قال أنبأنا ابن فنجويه ، قال حدثنا ابن حسان ، قال حدثنا إسحق بن محمد ، قال حدثنا أبى ، قال حدثنا إبراهيم بن عيسى ، قال حدثنا على بن على ، قال حدثنا أبو حمزة الثمالى ، قال حدثنى عبدالله بن الحسن ، قال : حين نزلت هذه الآية ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ قال رسول الله ﷺ لعلى : سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك ياعلى، قال على: فما نسيت شيئا بعد، وما كان لى أن أنسى. قال أبو بكر الواسطى : آذان وعت عن الله تعالى أسراره .

وقال أيضا : واعية فى معادنها ليس فيها غير ماشهدته شىء فهى الخالية عما سواه ، فما اضطراب الطبائع إلا ضرب من الجهل ، فقلوب الصوفية واعية ، لأنهم زهدوا فى الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى ، فبالتقوى زكت نفوسهم ، وبالزهد صفت قلوبهم ، فلما عدموا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد ، تفتحت مسام بواطنهم ، وسمعت آذان قلوبهم ، وأعانهم على ذلك زهدهم فى الدنيا ، فعلماء التفسير وأئمة الحديث وفقهاء الإسلام أحاطوا علما بالكتاب والسنة واستنبطوا منهما الأحكام ، وردوا الحوادث المتجددة إلى أصول من النصوص ، وحمى الله بهم الدين ، وعرف علماء التفسير وجه التفسير وعلم التأويل ، ومذاهب العرب فى اللغة وغرائب النحو والتصريف وأصول القصص ، واختلاف وجوه القراءة وصنفوا فى ذلك الكتب ، فاتسع بطريقتهم علوم القرآن على الأمة ، وأئمة الحديث ميزوا بين الصحاح والحسان ، وتفردوا بمعرفة الرواة وأسامى الرجال ، وحكموا بالجرح والتعديل ليتبين الصحيح من السقيم ويتميز المعوج من المستقيم ، فيتحفظ بطريقهم طريق الرواية والسند حفظا للسنة ، وانتدب الفقهاء لاستنباط الأحكام والتفريع فى المسائل ، ومعرفة التعليل ورد الفروع إلى الأصول بالعلل الجوامع ، واستيعاب الحوادث بحكم النصوص وتفرع من علم الفقه والأحكام علم أصول الفقه وعلم الخلاف ، وتفرع من علم الخلاف علم الجدل ، وأحوج علم أصول الفقه إلى شىء من علم أصول الدين ، وكان من علمهم علم الفرائض ، ولزم منه علم الحساب والجبر والمقابلة إلى غير ذلك . فتمهدت الشريعه وتأيدت . واستقام الدين الحنفى وتفرع . وتأصل الهدى النبوى المصطفوى . فأنبتت أراضى قلوب العلماء الكلأ والعشب بما قبلت من مياه الحياة من الهدى والعلم . قال الله تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : الماء العلم . والأودية القلوب . قال أبو بكر الواسطى رضى الله عنه : خلق الله تعالى ذرة صافية فلاحظها بعين الجلال . فذابت حياء منه فسالت. فقال ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليها وقال ابن عطاء ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى للعبد ، وذلك إذا سال السيل فى الأودية لا يبقى فى الأودية نجاسة إلا كنسها وذهب بها كذلك إذا سال النور الذى قسمه الله تعالى للعبد فى نفسه لا تبقى فيه غفلة ولا ظلمة ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ يعنى قسمة النور ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ يعنى فى القلوب الأنوار على ماقسم الله تعالى لها فى الأزل ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ فتصير القلوب منورة لاتبقى فيها جفوة ﴿ وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ تذهب البواطل وتبقى الحقائق . وقال بعضهم ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ أنواع الكرامات ، فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه ، فسالت أودية قلوب علماء التفسير والحديث والفقه بقدرها ، وسالت أودية قلوب الصوفية من العلماء الزاهدين فى الدنيا المتمسكين بحقائق التقوى بقدرها . فمن كان فى باطنه لوث محبة الدنيا من فضول المال والجاه وطلب المناصب والرفعة سال وادى قلبه بقدره . فأخذ من العلم طرفا صالحا ولم يحظ بحقائق العلوم ومن زهد فى الدنيا اتسع وادى قلبه فسالت فيه مياه العلوم واجتمعت وصارت أخاذات

قيل للحسن البصرى : هكذا قال الفقهاء ، فقال : وهل رأيت فقيها قط إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا فالصوفية أخذوا حظا من علم الدراسة فأفادهم علم الدراسة العمل بالعلم ، فلما عملوا بما علموا أفادهم العمل علم الوراثة فهم مع سائر العلماء فى علومهم وتميزوا عنهم بعلوم زائدة هى علوم الوراثة . وعلم الوراثة هو الفقه فى الدين . قال تعالى ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ فصار الإنذار مستفادا من

الفقه . والإنذار : إحياء المنذر بماء العلم ، والإحياء بالعلم رتبه الفقيه فى الدين ، فصار الفقه فى الدين من أكمل المراتب وأعلاها ، وهو العالم الزاهد فى الدنيا المتق الذى يبلغ رتبة الإنذار بعلمه ، فورد العلم والهدى رسول ﷺ أولا ، وهو عليه الهدى والعلم من الله تعالى فارتوى بذلك ظاهرا وباطنا ، فظهر من ارتواء ظاهره الدين ، والدين هو الانقياد والخضوع ، مشتق من الدون ، فكل شىء اتضع فهو دون ، فالدين : أن يضع الانسان نفسه لربه . قال الله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ فبالتفريق فى الدين يستولى الذبول على الجوارح وتذهب عنها نضارة العلم، والنضارة فى الظاهر بتزيين الجوارح بالانقياد فى النفس والمال ، مستفاد من ارتواء القلب ، والقلب فى ارتوائه بالعلم بمثابة البحر فصار قلب رسول الله ﷺ بالعلم والهدى بحرا مواجا ، ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس ، فظهر على نفسه الشريفة نضارة العلم وريه ، فتدلت نعوت النفس وأخلاقها . ثم وصل إلى الجوارح جدول فصارت ريانة ناضرة ، فلما استتم نضارة وامتلأ ريا بعثه الله تعالى إلى الخلق فأقبل على الأمة بقلب مواج بمياه العلوم، واستقبل جداول الفهوم ، وجرى من بحره فى كل جدول قسط ونصيب ، وذلك القسط الواصل الفهوم هو الفقه فى الدين . روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال «ماعبد الله عزوجل بشىء أفضل من فقه فى الدين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد . ولكل شىء عماد . وعماد هذا الدين الفقه » .

حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب إملاء قال حدثنا أبو طالب الزينبى . قال أخبرتنا كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية ، قال أخبرنا أبو الهيثم ، قال أخبرنا الفربرى ، قال أخبرنا البخارى ، قال حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن قال : سمعت معاوية خطيباً يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى » قال الشيخ : إذا وصل العلم إلى القلب انفتح بصر القلب فأبصر الحق والباطل وتبين له الرشد من الغى . ولما قرأ رسول الله ﷺ على الأعرابى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ قال الأعرابى حسبى حسبى ! فقال رسول الله ﷺ «فقه الرجل» وروى عبد الله بن عباس : أفضل العبادة الفقه فى الدين ، سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب فقال ﴿ لهم قلوب لايفقهون بها ﴾ فلما فقهوا علموا ولما علموا عملوا ولما عملوا عرفوا ولما عرفوا اهتدوا فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة وأكثر انقياداً ولمعالم الدين وأوفر حظا من نور اليقين، فالعلم جملة موهوبة من الله للقلوب ، والمعرفة تميز تلك الجملة ، والهدى وجدان القلوب ذلك فالنبى ﷺ لما قال « مثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم » أخبر أنه وجد القلب النبوى العلم وكان هاديا مهديا ، وعلمه صلوات الله عليه منهما وراثة معجونة فيه من آدم أبى البشر صلى الله عليه وسلم حيث علم الأسماء كلها ، والأسماء سمة الأشياء فكرمه الله تعالى بالعلم وقال تعالى ﴿ علم الانسان مالم يعلم ﴾ فآدم لما ركب فيه من العلم والحكمة صار ذا الفهم والفطنة والمعرفة والرأفة واللطف والحب والبغض والفرح والغم والرضا والغضب والكياسه ، ثم اقتضاه استعمال كل ذلك وجعل لقلبه بصيرة واهتداء إلى الله تعالى بالنور الذى وهب له ، فالنبى ﷺ بعث إلى الأمة بالنور الموروث والموهوب له خاصة ، وقيل : لما خاطب الله السموات والأرض بقوله ﴿ ائتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين ﴾ نطق من الأرض وأجاب موضع الكعبة ، ومن السماء مايحاذيها ، وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : أصل طينة رسول الله ﷺ من سرة الأرض بمكة ، فقال بعض العلماء : هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض ذرة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن موضع الكعبة دحيت الارض ، فصار رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الاصل فى التكوين ، والكائنات تبع له . وإلى هذا إشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » وفى رواية « بين الروح والجسد » وقيل لذلك سمى أميا ، لان مكة أم القرى وذرته أم الخليقة ، وتربة الشخص مدفنه ، فكان يقتضى أن يكون مدفنه بمكة حيث كانت تربته منها ، ولكن قيل : إن الماء لما

تموج رى الزبد إلى النواحى ، فوقعت جوهرة النبى ﷺ إلى ما يحاذى تربته بالمدينة ، وكان رسول الله ﷺ مكيا مدنيا حنينه إلى مكة وتربته بالمدينة ، والإشارة فيما ذكرناه من ذرة رسول الله ﷺ : وهو ما قال الله تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وورد فى الحديث « إن الله مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كهيئة الذر » استخرج الذر من مسام شعر آدم ، فخرج الذر كخروج العرق .
وقيل : كان المسح من بعض الملائكة فأضاف الفعل إلى المسبب . وقيل معنى القول بأنه مسح أى أحصى كما تحصى بالمساحة ، وكان ذلك ببطن نعمان واد بجنب عرفة بين مكة والطائف ، فلما خاطب الذر أجابوا ببلى كتب العهد فى رق أبيض وأشهد عليه الملائكة وألقم الحجر الأسود ؛ فكانت ذرة رسول الله ﷺ هى المجيبة فى الأرض ، والعلم والهدى فيه معجونان ، فبعث بالعلم والهدى موروثا له ومرهوبا . وقيل : لما بعث الله جبريل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فأبت ، حتى بعث الله عزرائيل فقبض قبضة من الأرض ، وكان إبليس قد وطىء الأرض بقدميه فصار بعض الأرض بين قدميه وبعض الأرض بين موضع أقدامه ، فخلقت النفس مما مس قدم إبليس فصارت مأوى الشر وبعضها لم يصل اليه قدم إبليس ، فمن تلك التربة أصل الأنبياء والأولياء ، وكانت ذرة رسول الله ﷺ موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل لم يمسها قدم ابليس ، فلم يصبه حظ الجهل ، بل صار منزوع الجهل موفراً حظه من العلم ، فبعثه الله تعالى بالهدى والعلم ، وانتقل من قلبه إلى القلوب ، ومن نفسه إلى النفوس ، فوقعت المناسبة فى أصل طهارة الطينة ، ووقع التأليف بالتعارف الأول ؟ فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة كان أوفر حظا من قبول ما جاء به ، فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة فأخذت من العلم حظا وافرا وصارت بواطنهم أخاذات ؛ فعلموا وعلموا ، كالأخاذ الذى يسقى منه ويزرع منه ، وجمعوا بين فائدة علم الدراسة وعلم الوراثة بإحكام أساس التقوى ، ولما تزكت النفوس انجلت مرايا قلوبهم بما صقلها من التقوى ، فانجلى فيها صور الأشياء على هيئتها وماهيتها ، فبانت الدنيا بقبحها فرفضوها ، وظهرت الآخرة بحسنها فطلبوها ، فلما زهدوا فى الدنيا انصبت الى بواطنهم أقسام العلوم انصبابا ، وانضاف الى علم الدراسة علم الوراثة .

واعلم أن كل حال شريف تعزوه إلى الصوفية فى هذا الكتاب هو حال المقرب ، والصوفى هو المقرب ، وليس فى القرآن اسم الصوفى ، واسم الصوفى ترك ووضع للمقرب على ما سنشرح ذلك فى بابه . ولا يعرف فى طرفى بلاد الاسلام شرقا وغربا هذا الاسم لأهل القرب . وإنما يعرف للمترسمين . وكم من الرجال المقربين فى بلاد المغرب وبلاد تركستان وماوراء النهر ولا يسمون صوفية . لأنهم لايتزيون بزى الصوفية . ولامشاحة فى الألفاظ فيعلم أنا نعنى بالصوفية المقربين . فشايخ الصوفية الذين أسماؤهم فى الطبقات وغير ذلك من الكتب كلهم كانوا فى طريق المقربين . وعلومهم علوم أحوال المقربين . ومن تطلع إلى مقام المقربين من جملة الأبرار فهو متصوف مالم يتحقق بحالهم . فإذا تحقق بحالهم صار صوفيا ، ومن عداهما ممن تميز بزى ونسب إليهم فهو متشبه ﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾ .

الباب الثانى : فى تخصيص الصوفية بحسن الاستماع

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى إملاء . قال أخبرنا أبو منصور المقرى : قال أخبرنا الإمام الحافظ أبو بكر الخطيب قال أخبرنا أبو عمرو الهاشمى قال أخبرنا أبو على اللؤلؤى قال أخبرنا أبو داود السجستانى . قال حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى عن شعبة . قال حدثنى عمر بن سليمان من ولد عمر ابن الخطاب . عن عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زيد بن ثابت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره . فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه وليس بفقيه » أساس كل خير حسن الاستماع قال الله تعالى ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ﴾ يقول بعضهم : علامة الخير فى السماع أن يسمع العبد بفناء أوصافه ونعوته . ويسمعه بحق من حق . وقال بعضهم : لو علمهم أهلا للسماع لفتح آذانهم للاستماع . فمن تملكته الوساوس وغلب على باطنه

حديث النفس لايقدر على حسن الأسماع . فالصوفية وأهل القرب لما علموا أن كلام الله تعالى ورسائله إلى عباده ومخاطباته إياهم رأوا كل آية من كلامه تعالى بحرا من أبحر العلم بما تتضمن من ظاهر العلم وباطنه وجليه وخفيه . بابا من أبواب الجنة باعتبار ماتنبه أوتدعو إليه من العمل .

ورأوا كلام رسول الله ﷺ — الذى لا ينطق به عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى — من عند الله تعالى يتعين الاستماع اليه . فكان من أهم ما عندهم الاستعداد للاستماع . ورأوا أن حسن الاستماع قرع باب الملكوت واستنزال بركة الرغبوت والرهبوت ورأوا أن الوسواس أدخنة ثائرة من نار النفس الأمارة بالسوء . وقتام يتراكم من نفث الشيطان . وأن الحظوظ العاجلة والأقسام الدنيوية التى هى مناط الهوى ومثار الردى بمثابة الحطب الذى تزداد النار به تأججا ويزداد القلب به تحرجا . فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها . فلما انقطعت عن نار النفس أحطابها وفترت نيرانها وقل دخانها . شهدت بواطنهم وقلوبهم مصادر العلوم . فهيئوا مواردها بصفاء الفهوم . فلما شهدوا سمعوا . قال الله تعالى ﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ قال الشبلى رحمه الله : موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله لايغفل عنه طرفة عين . قال يحيى بن معاذ الرازى : القلب قلبان . قلب قد احتشى بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر صاحبه ما يصنع من شغل قلبه الدنيا . وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر صاحبه مايصنع لذهاب قلبه فى الآخرة فانظركم بين بركة تلك الأفهام الثابتة وشؤم هذه الأشغال الفانية التى أقعدتك عن الطاعة ؟! قال بعضهم : لمن كان له قلب سليم من الأغراض والأمراض . قال الحسين بن منصور : لمن كان له قلب لايخطر فيه إلا شهود الرب . وأنشد :

أنعى إليك قلوبا طالما هطلت سحائب الوحى فيها أبحر الحكم

وقال ابن عطاء : قلب لاحظ الحق بعين التعظيم . فذاب له وانقطع إليه عما سواه . قال الواسطى : أى لذكرى لقوم مخصوصين لا لسائر الناس ، لمن كان له قلب : أى فى الأزل وهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿أومن كان ميتا فأحييناه﴾ وقال أيضا : المشاهدة تذهل . والحجبة تفهم . لأن الله تعالى إذا تجلى لشىء خضع له وخشع . وهذا الذى قاله الواسطى صحيح فى حق أقوام . وهذه الآية تحكم بخلاف هذا لأقوام آخرين وهم أرباب التمكين يجمع لهم بين المشاهدة والفهم فوضع الفهم محل المحادثة والمكالمة . وهو سمع القلب . وموضع المشاهدة بصر القلب ، وللسمع حكمة وفائدة . وللبصر حكمة وفائدة ، فمن هو فى سكر الحال يغيب سمعه فى بصره . ومن هو فى حال الصحو والتمكين لايغيب سمعه فى بصره لتملكه ناصية الحال ويفهم بالوعاء الوجودى المستعد لفهم المقال . لأن الفهم مورد الالهام . والسماع والالهام يستدعيان وعاء وجوديا وهذا الوجود موهوب منشأة إنشاء ثانيا للتمكن فى مقام الصحو وهو غير الوجود الذى يتلاشى عند لمعان نور المشاهدة لمن جاز على عمر الفناء إلى مقار البقاء .

وقال ابن سمعون ﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ يعرف آداب الخدمة وآداب القلب ، وهى ثلاثة أشياء؟ فالقلب إذا ذاق طعم العبادة عتق من رق الشهوة . فمن وقف على شهوته وجد ثلث الأدب . ومن افتقر إلى مالم يجد من الأدب بعد الاشتغال بما وجد فقد وجد ثلثى الأدب . والثالث : امتلاء القلب . فالذى بدأ بالفضل عند الوفاء تفضلا فقد وجد كل الادب .

قال محمد بن على الباقر : موت القلب من شهوات النفس . فكلما رفض شهوات نال من الحياة بقسطها . فالسماع للأحياء لا للأموات . قال الله تعالى ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ .

قال سهل بن عبدالله : القلب رقيق تؤثر فيه الخطرات المذمومة . وأثر القليل عليه كثير . قال الله تعالى ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ فالقلب عمال لايفتر . والنفس يقظانة لا ترقد . فإن كان العبد مستمعا إلى الله تعالى وإلا فهو مستمع إلى الشيطان والنفس . فكل شىء سد باب الاستماع فمن حركة النفس . وفى حركتها يطرق الشيطان . وقد ورد «لولا أن الشياطين يحومون على بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات»

وقال الحسين : بصائر المبصرين ، ومعارف العارفين ، و نور العلماء الربانيين، وطرق السابقين الناجين والأزل والأبد وما بينهما من الحدث لمن كان له قلب أو ألقى السمع .

وقال ابن عطاء : هو القلب الذى يلاحظ الحق ويشاهده ولا يغيب عنه خطرة ولا فترة ، فيسمع به بل يسمع منه ، ويشهد به بل يشهده ؛ فإذا لاحظ القلب الحق بعين الجلال فزع وارتعد ، وإذا طالعه بعين الجمال هدأ واستقر.

وقال بعضهم : لمن كان له قلب بصير يقوى على التجريد مع الله تعالى والتفريد له حتى يخرج من الدنيا والخلق والنفس فلا يشتغل بغيره ولا يركن إلى سواه ، فقلب الصوفى مجرد عن الأكوان ألقى سمعه وشهد بصره ، فسمع المسموعات وأبصر المبصرات وشاهد المشهودات ، لتخلصه إلى الله تعالى واجتماعه بين يدى الله والأشياء كلها عند الله وهو عنده، فسمع وشاهد فأبصر وسمع جملها ولم يسمع ويشاهد تفصيلها ، لأن الجمل تدرك لسعة عين الشهود، والتفاصيل لا تدرك لضيق وعاء الوجود ، والله تعالى هو العالم بالجمل والتفاصيل .

وقد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس فى الاستماع وقال : إن الباذر خرج ببذره فملأ منه كفه فوقع منه شىء على ظهر الطريق ، فلم يلبث أن انحط عليه الطير فاختطفه ، ووقع منه شىء على الصفوان ـ وهو الحجر الأملس ـ عليه تراب يسير وندى قليل فنبت ، حتى إذا وصلت عروقه إلى الصفوة لم تجد مساغا تنفذ فيه، فيبس ووقع منه شىء فى أرض طيبة فيها شوك ثابت فنبت ، فلما ارتفع خنقه الشوك فأفسده واختلط به ، ووقع منه شىء على أرض طيبة ليست على ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا فيها شوك فنبت ونما وصلح ، فمثل الباذر مثل الحكيم ، ومثل البذر كمثل صواب الكلام ، ومثل ما وقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه فما يلبث الشيطان أو يختطفه من قلبه فينساه ، ومثل الذى وقع على الصفوان مثل الرجل يستمع الكلام فيستحسنه ثم تفضى الكلمة إلى قلب ليس فيه عزم على العمل فينسخ من قلبه ، ومثل الذى وقع فى أرض طيبة فيها شوك مثل الرجل يسمع الكلام وهو ينوى أن يعمل به فإذا اعترضت له الشهوات قيدته عن النهوض بالعمل فيترك ما نوى عمله لغلبة الشهوة كالزرع يختنق بالشوك. ومثل الذى وقع فى أرض طيبة مثل المستمع الذى ينوى عمله فيفهمه ويعمل به ويجانب هواه ، وهذا الذى جانب الهوى وانتهج سبيل الهدى هو الصوفى ؛ لأن للهوى حلاوة ، والنفس إذا تشربت حلاوة الهوى فهى تركن إليه وتستلذه ، واستلذاذ الهوى هو الذى يخنق النبت كالشوك ، وقلب الصوفى نازلة حلاوة الحب الصافى ، والحب الصافى تعلق الروح بالحضرة الإلهية ، ومن قوة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحب تستتبع القلب والنفس ، وحلاوة الحب للحضرة الإلهية تغلب حلاوة الهوى لأن حلاوة الهوى كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار لكونها لا ترتقى عن حد النفس ، وحلاوة الحب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء لأنها متأصلة فى الروح فرعها عند الله تعالى وعروقها ضاربة فى أرض النفس ، فإذا سمع الكلمة من القرآن أو من كلام رسول الله ﷺ يتشربها بالروح والقلب والنفس ويفديها بكليته ويقول :

أشم منك نسيما لست أعرفه   أظن لمياء جرت فيك أردانا

فتعمه الكلمة وتشمله وتصير كل شعرة منه سمعا وكل ذرة منه بصرا ، فيسمع الكل بالكل ، ويبصر الكل بالكل ويقول :

إن تأملتكم فكلى عيون   أو تذكرتكم فكلى قلوب

قال الله تعالى ﴿ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ .

قال بعضهم : اللب والعقل مائة جزء : تسعة وتسعون فى النبى صلى الله عليه وسلم ، وجزء فى سائر المؤمنين، والجزء الذى فى سائر المؤمنين أحد وعشرون سهما ، فسهم يتساوى المؤمنون كلهم فيه وهو : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وعشرون جزءا يتفاضلون فيها على مقادير حقائق إيمانهم . قيل فى هذه الآية إظهار فضيلة رسول الله

ﷺ ، أى : الأحسن ما يأتى به ، لأنه لما وقعت له صحبة التمكين ومقارنة الاستقرار قبل خلق الكون ظهرت عليه الأنوار فى الأحوال كلها ، وكان معه أحسن الخطاب ، وله السبق فى جميع المقامات ، ألا تراه ﷺ يقول «نحن الآخرون السابقون» يعنى الآخرون وجودا السابقون فى الخطاب الأول فى الفضل فى محل القدس . وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ قال الجنيد : تنسموا روح ما دعاهم إليه فأسرعوا إلى محو العلائق المشغلة ، وهجموا بالنفوس على معانقة الحذر ، وتجرعوا مرارة المكابدة ، وصدقوا الله فى المعاملة وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه ، وهانت عليهم المصائب ، وعرفوا قدر ما يطلبون ، وسجنوا هممهم عن التلفت إلى مذكور سوى وليهم ، فحيوا حياة الأبد بالحى الذى لم يزل ولا يزال .

وقال الواسطى رحمه الله تعالى : حياتها تصفيتها عن كل معلول لفظا وفعلا .

وقال بعضهم : استجيبوا الله بسرائركم . وللرسول بظواهركم ، فحياة النفوس بمتابعة الرسول ﷺ ، وحياة القلوب بمشاهدة الغيوب ، وهو الحياء من الله تعالى برؤية التقصير .

وقال ابن عطاء : فى هذه الآية الاستجابة على أربعة أوجه (أولها) إجابة التوحيد . (والثانى) إجابة التحقيق (والثالث) إجابة التسليم . (والرابع) إجابة التقريب ، فالاستجابة على قدر السماع ، والسماع من حيث الفهم ، والفهم على قدر المعرفة بقدر الكلام ، والمعرفة بالكلام على قدر المعرفة والعلم بالمتكلم . ووجوه الفهم لا تنحصر . لأن وجوه الكلام لا تنحصر . قال الله تعالى ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ﴾ فلله تعالى فى كل كلمة من القرآن كلماته التى ينفد البحر دون نفادها ، فكل الكلام كلمة نظرا إلى ذات التوحيد ، وكل كلمة كلمات نظرا لسعة العلم الأزلى .

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى ، قال : أنبأنا الرئيس أبو على بن نبهان قال : أخبرنا الحسن بن شاذان قال : أخبرنا دعلج بن أحمد قال أخبرنا أبو الحسن بن عبد العزيز البغوى قال أخبرنا أبو عبيد بن القاسم بن سلام قال حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن الحسن يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع » قال فقلت يا أبا سعيد ، ما المطلع ؟ قال : يطلع قوم يعملون به . قال أبو عبيد : أحسب أن قول الحسن هذا إنما ذهب الى قول عبد الله بن مسعود ، قال أبو عبيد : حدثنى حجاج عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال : ما من حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم ، أولها قوم سيعملون بها ، فالمطلع : المصعد يصعد إليه من معرفة علمه ، فيكون المطلع : الفهم بفتح الله تعالى عن كل قلب بما يرزق من النور . واختلف الناس فى معنى الظهر والبطن . قال قوم : الظهر لفظ القرآن ، والبطن تأويله . وقيل الظهر : صورة القصة مما أخبر الله تعالى عن غضبه على قوم وعقابه إياهم ، فظاهر ذلك إخبار عنهم وباطنه عظة وتنبيه لمن يقرأ ويسمع من الأمة . وقيل ظاهره : تنزيله الذى يجب الإيمان به وباطنه وجوب العمل به وقيل ظهره : تلاوته كما أنزل . قال الله تعالى ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ وبطنه التدبر والتفكر فيه . قال الله تعالى ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ وقيل قوله : لكل حرف حد ، أى فى التلاوة لا يجاوز المصحف الذى هو الإمام ، وفى التفسير لا يجاوز المسموع المنقول ، وفرق بين التفسير والتأويل ، فالتفسير علم نزول الآية وشأنها وقصتها والأسباب الذى نزلت فيها . وهذا محظور على الناس كافة القول فيه إلا بالسماع والأثر . وأما التأويل : فصرف الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذى يراه يوافق الكتاب والسنة : فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول على ما ذكرناه من صفاء الفهم ورتبة المعرفة ومنصب القرب من الله تعالى . قال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة . فما أعجب قول عبد الله بن مسعود : ما من آية إلا ولها قوم سيعملون بها وهذا الكلام محرض لكل طالب صاحب همة أن يصفى موارد الكلام ويفهم دقيق معانيه وغامض أسراره من قلبه فللصوفى بكمال الزهد فى الدنيا وتجريد القلب عما سوى الله تعالى مطلع من كل آية : وله بكل مرة فى التلاوة مطلع جديد وفهم عتيد وله بكل

فهم عمل جديد ، ففهمهم يدعو إلى العمل ، وعملهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر فى معانى الخطاب ، فمن الفهم علم ، ومن العلم عمل ، والعلم والعمل يتناوبان فيه ، وهذا العمل آنفا إنما هو عمل القلوب ، وعمل القلوب غير عمل القالب ، وأعمال القلوب للطفها وصفائها مشاكلة للعلوم ، لأنها نيات وطويات وتعلقات روحية وتأدبات قلبية ومسامرات سرية ، وكلما أتوا بعمل من هذه الأعمال رفع لهم علم من العلم ، وطلعوا على مطلع من فهم الآية جديد ويخالج سرى أن يكون المطلع ليس بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السر فى الآية ، ولكن المطلع أن يطلع عند كل آية على شهود المتكلم بها ، لأنها مستودع وصف من أوصافه ونعت من نعوته ، فتتجدد له التجليات بتلاوة الآيات وسماعها ، ويصير له مراء منبئة عن عظيم الجلال .

ولقد نقل عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : لقد تجلى الله تعالى لعباده فى كلامه ولكن لايبصرون ، فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه ، فالحد : حد الكلام ، والمطلع : الترقى عن حد الكلام إلى شهود المتكلم .

وقد نقل عن جعفر الصادق أيضاً أنه خر مغشيا عليه وهو فى الصلاة ، فسئل عن ذلك فقال : مازلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها فالصوفى لما لاح له نور ناصية التوحيد ، وألقى سمعه عند سماع الوعد والوعيد ، وقلبه بالتخلص عما سوى الله تعالى صار بين يدى الله حاضرا شهيدا ، يرى لسانه أو لسان غيره فى التلاوة ، كشجرة موسى عليه السلام حيث أسمعه الله منها خطابه إياه بأنى أنا الله ، فإذا كان سماعه من الله تعالى واستماعه إلى الله . صار سمعه بصره وبصره سمعه وعلمه عمله وعمله علمه ، وعاد آخره أوله وأوله آخره . ومعنى ذلك : أن الله تعالى خاطب الذر بقوله ﴿ألست بربكم﴾ فسمعت النداء على غاية الصفاء ، ثم لم تزل الذرات تتقلب فى الأصلاب وتنتقل إلى الأرحام قال الله تعالى ﴿الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين﴾ يعنى تقلب ذرتك فى أصلاب أهل السجود من آبائك الأنبياء فما زالت تنتقل فى الذرات حتى برزت بين أجسادها ، فاحتجبت بالحكمة عن القدرة ، وبعالم الشهادة عن عالم الغيب وتراكم ظلمتها بالتقلب فى الأطوار ، فإذا أراد الله تعالى بالعبد حسن الاستماع بأن يصيره صوفيا لايزال يرقيه فى رتب التزكية والتحلية حتى يخلص من مضيق عالم الحكمة إلى قضاء القدرة ، ولا يزال عن بصيرته النافذة سجف الحكمة فصير سماعه ﴿ألست بربكم﴾ كشفا وعيانا ، وتوحيده وعرفانه تبيانا . وتندرج له ظلم الأطوار فى لوامع الأنوار

قال بعضهم : أنا أذكر خطاب ﴿ألست بربكم﴾ إشارة منه إلى هذا الحال ، فإذا تحقق الصوفى بهذا الوصف صار وقته سرمداً وشهوده مؤبد وسماعه متواليا متجددا ، يسمع كلام الله تعالى وكلام رسوله حق السماع .

قال سفيان بن عيينة : أول العلم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر .

وقال بعضهم : تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام .

وقيل : من حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضى حديثه ، وقلة التلفت إلى الجوانب ، والإقبال بالوجه ، والنظر إلى المتكلم . والوعى . قال الله تعالى لنبيه عليه السلام ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾ وقال ﴿لاتحرك به لسانك لتعجل به﴾ هذا تعليم من الله تعالى لرسوله عليه السلام حسن الاستماع . قيل : معناه لاتمله على الصحابة حتى تتدبر معانيه حتى تكون أنت أول من يخلص بغرائبه وعجائبه . وقيل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل وأوحى إليه لايفتر من قراءة القرآن مخافة الانفلات والنسيان ، فنهاه الله تعالى عن ذلك . أى لاتعجل بقراءته قبل أن يفرغ جبرائيل من إلقائه إليك . وقد تكون مطالعة العلوم وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى السماع . ويحتاج المطالع للعلوم والأخبار وسير أهل الصلاح وحكاياتهم وأنواع الحكم والأمثال التى فيها نجاة من عذاب الآخرة : أن يكون فى ذلك كله متأدبا بآداب حسن الاستماع بالزهادة والتقوى حتى أخذ من كل ماسمعه أحسنه . فيكون آخذا بالمطالعة من كل شىء أحسنه . ومن الأدب فى المطالعة : أن العبد إذا أراد أن يطلع شيئاً من الحديث والعلم . يعلم أنه قد تكون مطالعة ذلك بداعية النفس وقلة صبرها عن الذكر والتلاوة والعمل فتستريح بالمطالعة كما تتروح بمجالسة الناس ومكالمتهم . فليتفقد المتفطن نفسه فى ذلك ، ولا يستحلى مطالعة الكتب إلى حد يأخذ

ذلك من وقته ويراعى الإفراط فيه ، فإذا أراد مطالعة كتاب أو شيء من العلم لايبادر إليه إلا بعد التثبت والإنابة والرجوع إلى الله تعالى وطلب التأييد من رحمة الله تعالى فيه ، فإنه قد يرزق بالمطالعة ما يكون من مزيد حاله ، ولو قدم الاستخارة لذلك كان حسنا ، فإن الله تعالى نفتح عليه باب الفهم والتفهيم موهبة من الله زيادة على مايتبين من صورة العلم ، فللعلم صورة ظاهرة وسر باطن وهو الفهم ، والله تعالى نبه على شرف الفهم بقوله ﴿ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ أشار إلى الفهم بمزيد اختصاص وتميز عن الحكم والعلم . قال الله تعالى ﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ فإذا كان المسمع هو الله تعالى ، يسمع تارة بواسطة اللسان وتارة بما يرزق بمطالعة الكتب من التبيان ، فصار مايفتح الله تعالى بمطالعة الكتب على معنى مايرزق من المسموع ببركة حسن الاستماع ، لتفقد العبد حاله فى ذلك ويتعلم علمه وأدبه ، فإنه باب كبير من أبواب الخير ، وعمل صالح من أعمال المشايخ والصوفية والعلماء الزاهدين المتبتلين لاستفتاح أبواب الرحمة والمزيد من كل شيء ينفع سلوك الآخرة .

الباب الثالث : فى بيان فضيلة علوم الصوفية ، والإشارة إلى أنموذج منها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله ، قال أنبأنا أبو عبدالرحمن الصوفى ، قال أخبرنا عبد الرحمن بن محمد قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسى ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندى ، قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، قال حدثنا نعيم بن حماد ، قال حدثنا بقية عن الأحوص بن حكيم عن أبيه قال : سأل رجل النبى عليه السلام عن الشر فقال «لاتسألونى عن الشر وسلونى عن الخير يقولها ثلاثا ، ثم قال : إن شر الشر شرار العلماء . وإن خير الخير خيار العلماء» فالعلماء أدلاء الأمة ، وعمد الدين ، وسرج ظلمات الجهالات الجبلية ، ونقباء ديوان الإسلام ، ومعادن حكم الكتاب والسنة ، وأمناء الله تعالى فى خلقه . وأطباء العباد وجهابذة الملة الحنفية ، وحملة عظيم الأمانة ، فهم أحق الخلق بحقائق التقوى ، وأحوج العباد إلى الزهد فى الدنيا ، لأنهم يحتاجون إليها لنفسهم ولغيرهم ، ففسادهم فساد متعد ، وصلاحهم صلاح متعد .

قال سفيان بن عيينة : أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم . وأعلم الناس من عمل بما يعلم . وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى ، وهذا قول صحيح يحكم بأن العالم إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم ، فلا يغرك تشدقه واستطالته وحذاقته وقوته فى المناظرة والمجادلة ، فإنه جاهل وليس بعالم ، إلا أن يتوب الله عليه ببركة العلم ، فإن العلم فى سبيل الإسلام لايضيع أهله ويرجى عود العالم ببركة العلم ، والعلم فريضة وفضيلة : فالفريضة : مالا بد للإنسان من معرفته ليقوم بواجب حق الدين : والفضيلة مازاد على قدر حاجته مما يكسبه فضيلة فى النفس موافقة للكتاب والسنة ، وكل علم لايوافق الكتاب والسنة وما هو مستفاد منهما أو معين على فهمهما أو مستند إليهما كائنا كائنا ما كان ، فهو رذيلة وليس بفضيلة يزداد الإنسان به هوانا ورذيله فى الدنيا والآخرة ، فالعلم الذى هو فريضة لايسع الإنسان جهله ، على ماحدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم المستملى قال أخبرنا الشيخ العالم أبو القاسم عبد الكريم ابن هوازن القشيرى قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصفهانى قال أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابى قال حدثنا جعفر بن عامر العسكرى قال حدثنا الحسن بن عطية قال حدثنا أبو عاتكة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالصين ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم» . واختلف العلماء فى العلم الذى هو فريضة . قال بعضهم : هو طلب علم الإخلاص ومعرفة آفات النفوس وما يفسد الأعمال ، لأن الإخلاص مأمور به كما أن العمل مأمور به . قال الله تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين ﴾ فالإخلاص مأمور به ، وخدع النفس وغرورها ودسائسها وشهواتها الخفية تخرب مبانى الإخلاص المأمور به ، فصار علم ذلك فرضا حيث كان الإخلاص فرضا ، وما لايصل العبد إلى الفرض إلا به صار فرضا . وقال بعضهم : معرفة الخواطر وتفصيلها فريضة لأن الخواطر هى أصل الفعل ومبدؤه ومنشؤه ، وبذلك يعلم الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان . فلا يصح الفعل إلا بصحتها فصار

علم ذلك فرضا حتى يصح الفعل من العبد لله . وقال بعضهم : هو طلب علم الوقت . وقال سهل بن عبد الله : هو طلب علم الحال يعنى حكم حاله الذى بينه وبين الله تعالى فى دنياه وآخرته . وقيل : هو طلب علم الباطن وهو مايزداد به العبد يقينا ، وهذا العلم هو الذى يكتسب بالصحبة ومجالسة الصالحين من العلماء الموقنين والزهاد المقربين الذين جعلهم الله تعالى من جنوده يسوق الطالبين إليهم ويقويهم بطريقهم ويرشدهم بهم ، فهم وراث علم النبى عليه السلام ومنهم من يتعلم علم اليقين . وقال بعضهم : هو علم البيع والشراء والنكاح والطلاق ، إذا أراد الدخول فى شىء من ذلك يجب عليه طلب علمه . وقال بعضهم : هو أن يكون العبد يريد عملا يجهل مالله عليه فى ذلك ، فلا يجوز أن يعمل برأيه ، إذ هو جاهل فيا له وعليه فى ذلك ، فيراجع عالما يسأله عنه ليجيبه على بصيرة ولا يعمل برأيه ، وهذا علم يجب طلبه حيث جهل . وقال بعضهم: طلب علم التوحيد فرض ، فمن قائل يقول : إن طريقه النظر والاستدلال ، ومن قائل يقول : إن طريقه النقل . وقال بعضهم : إذا كان العبد على سلامة الباطن وحسن الاستسلام والانقياد فى الإسلام ولا يحيك فى صدره شىء فهو سالم فإن حاك فى صدره شىء أو توسوس بشىء يقدح فى العقدة أو ابتلى بشبهة لاتؤمن غائلتها أن تجره إلى بدعة أو ضلالة ، فيجب عليه أن يستكشف عن الاشتباه ويراجع أهل العلم ومن يفهمه طريق الصواب . وقال الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله : هو علم الفرائض الخمس التى بنى عليها الإسلام ، لأنها افترضت على المسلمين . وإذا كان عملها فرضا صار علم العمل بها فرضا ، وذكر أن علم التوحيد داخل فى ذلك ، لأن أولها الشهادتان والإخلاص داخل فى ذلك ، لأن ذلك من ضرورة الإسلام ، وعلم الاخلاص داخل فى صحة الاسلام ، وحيث أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فريضة على كل مسلم يقتضى أن لايسع مسلما جهله ، وكل ما تقدم من الأقاويل أكثرها ما يسع المسلم جهله ، لأنه قد لايعلم الخواطر وعلم الحال وعلم الحلال بجميع وجوهه وعلم اليقين المستفاد من علماء الآخرة كما ترى ، وأكثر المسلمين على الجهل بهذه الأشياء ، ولو كانت هذه الأشياء فرضت عليهم لعجز عنها أكثر الخلق إلا ما شاء الله ، وميلى فى هذه الأقاويل إلى قول الشيخ أبى طالب أكثر ، وإلى قول من قال : يجب عليه علم البيع والشراء والنكاح والطلاق إذا أراد الدخول فيه . وهذا لعمرى فرض على المسلم علم وهذا الذى قاله الشيخ وأبو طالب عندى فى ذلك حد جامع لطلب العلم المفترض والله أعلم .

فأقول : العلم الذى طلبه فريضة على كل مسلم علم الأمر والنهى ، والمأمور : مايثاب على فعله ويعاقب على تركه ، والمنهى : ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه ، والمأمورات والمنهيات منها ماهو مستمر لازم للعبد بحكم الاسلام ، ومنها ما يتوجه الأمر فيه والنهى عنه عند وجود الحادثة ، فما هو لازم مستمر لزومه متوجه بحكم الاسلام علمه به واجب من ضرورة الاسلام ، وما يتجدد بالحوادث ويتوجه الأمر والنهى فيه فعلمه عند تجدده فرض لايسع مسلما على الاطلاق أن يجهله ، وهذا الحد أعم من الوجوه التى سبقت والله أعلم . ثم إن المشايخ من الصوفية وعلماء الآخرة الزاهدين فى الدنيا شمروا عن ساق الجد فى طلب العلم المفترض حتى عرفوه وأقاموا الأمر والنهى وخرجوا من عهدة ذلك بحسن توفيق الله تعالى . فلما استقاموا فى ذلك متا بعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أمره الله تعالى بالاستقامة فقال تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ فتح الله عليهم أبواب العلوم التى سبق ذكرها . قال بعضهم : من يطيق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أيد من المشاهدات القوية والأنوار البينة والآثار الصادقة بالتثبيت ببرهان عظيم كما قال تعالى ﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ ثم حفظ فى وقت المشاهدة ومشافهة الخطاب وهو المزين بمقام القرب المخاطب على نشاط الأنس محمد صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك خوطب بقوله ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ ولولا هذه المقامات ماأطاق الاستقامة التى أمر بها . قيل لأبى حفص : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الاستقامة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول « استقيموا ولن تحصوا » وقال جعفر الصادق فى قوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ أى افتقر إلى الله بصحة العزم . ورأى بعض الصالحين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، قال قلت « يارسول الله روى عنك أنك قلت شيبتنى سورة هود وأخواتها فقال : نعم » قال فقلت : ما الذى شيبك منها قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ فقال : لا ، ولكن قوله

﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ » فكما أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد مقدمات المشاهدات خوطب بهذا الخطاب وطولب بحقائق الاستقامة فكذلك علماء الآخرة الزاهدون ومشايخ الصوفية المقربون منحهم الله تعالى من ذلك بقسط ونصيب ثم الهمهم طلب النهوض بواجب حق الاستقامة ورأوا الاستقامة أفضل مطلوب وأشرف مأمور .

قال أبو على الجورجانى : كن طالب الاستقامة لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة ، وهذا الذى ذكره أصل كبير فى الباب وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلب . وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا بسير الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات فأبدا نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شىء من ذلك ويحبون أن يرزقوا شيئا من ذلك ، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهما لنفسه فى صحة عمله حيث لم يكشف بشىء من ذلك ، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الامر فيه فيعلم أن الله سبحانه وتعالى قد يفتح على بعض المجتهدين الصادقين من ذلك بابا ، والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقينا فيقوى عزمه على الزهد فى الدنيا ، والخروج من دواعى الهوى ، وقد يكون بعض عباده يكاشف بصرف اليقين ويرفع عن قلبه الحجاب ، ومن كوشف بصرف اليقين استغنى بذلك عن رؤية خوارق العادات لان المراد منها كان حصول اليقين وقد حصل اليقين ، فلو كوشف هــذا المرزوق صرف اليقين بشىء من ذلك ما ازداد يقينا فلا تقتضى الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع لاستغنائه ، وتقتضى الحكمة كشف ذلك للآخر لموضع حاجته فكان هذا الثانى يكون أتم استعدادا وأهلية من الاول حيث رزق حاصل ذلك وهو صرف اليقين بغير واسطة من رؤيه قدرة فإن فيه آفة وهو العجب فأغنى عن رؤية شىء من ذلك . فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهى كل الكرامة . ثم إذا وقع فى طريقه شىء من ذلك حاز وحسن ، وإن لم يقع فلا يبالى ولا ينقص بذلك ، وإنما ينقص بالاخلال بواجب حق الاستقامة فليعلم هذا لانه أصل كبير للطالبين . فالعلماء الزاهدون ومشايخ الصوفية والمقربون حيث أكرموا بالقيام بواجب حق الاستقامة رزقوا سائر العلوم التى أشار إليها المتقدمون كما ذكرنا وزعموا أنها فرض . فمن ذلك علم الحال وعلم القيام وعلم الخواطر . وسنشرح علم الخواطر وتفصيلها فى باب إن شاء الله تعالى . وعلم اليقين وعلم الاخلاص وعلم النفس ومعرفتها ومعرفة أخلاقها ، وعلم النفس ومعرفتها من أعز علوم القوم . وأقوم الناس بطريق المقربين والصوفية أقومهم بمعرفة النفس ، وعلم معرفة أقسام الدنيا ووجود دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وشرها وشرها ، وعلم الضرورة ومطالبة النفس بالوقوف على الضرورة ـ قولا وفعلا ولبسا وخلعا وأكلا ونوما ـ ومعرفة حقائق التوبة ، وعلم خفى الذنوب ومعرفة سيئات هى حسنات الابرار ومطالبة النفس بترك مالا يعنى . ومطالبة الباطن بحصر خواطر المعصية ثم بحصر خواطر الفضول . ثم علم المراقبة . وعلم ما يقدح فى المراقبة ، وعلم المحاسبه والرعاية وعلم حقائق التوكل وذنوب المتوكل فى توكيله وما يقدح فى التوكل وما لا يقدح والفرق بين التوكل الواجب بحكم الايمان وبين التوكل الخاص المختص بأهل العرفان . وعلم الرضا وذنوب مقام الرضا وعلم الزهد وتحديده بما يلزم من ضرورته . وما لا يقدح فى حقيقته ومعرفة الزهد فى الزاهد ومعرفة زهد ثالث بعد الزهد فى الزهد . وعلم الانابة والالتجاء ومعرفة أوقات الدعاء ومعرفه وقت السكوت عن الدعاء . وعلم المحبه والفرق بين المحبه العامة المفسرة بامتثال الامر والمحبة الخاصة : وقد أنكر طائفة من علماء الدنيا دعوى علماء الآخرة المحبة الخاصة كما أنكروا الرضا وقالوا : ليس إلا الصبر . وانقسام المحبة الخاصة إلى محبة الذات وإلى محبه الصفات والفرق بين محبة القلب ومحبه الروح ومحبة العقل ومحبة النفس . والفرق بين مقام المحب والمحبوب . والمريد والمراد . ثم علوم المشاهدات كعلم الهيبة والانس والقبض والبسط . والفرق بين القبض والهمم والبسط والنشاط . وعلم الفناء والبقاء وتفاوت أحوال الفناء والاستتار والتجلى والجمع والفرق واللوامع والطوالع والبوادى والصحو والسكر إلى غير ذلك لو اتسع الوقت ذكرناها وشرحناها فى مجلدات . ولكن العمر قصير . والوقت عزيز . ولولا سهم الغفلة لضاق الوقت عن هذا القدر أيضا . وهذا المختصر المؤلف يحتوى من علوم القوم على طرف صالح نرجو من الله الكريم أن ينفع به ويجعله

حجة لنا لا حجة علينا ـ وهذه كلها علوم من ورائها علوم عمل بمقتضاها وظفر بها علماء الآخرة الزاهدون ، وحرم ذلك علماء الدنيا الراغبون وهي علوم ذوقية لا يكاد النظر يصل إليها إلا بذوق ووجدان، كالعلم بكيفية حلاوة السكر لا يحصل بالوصف فمن ذاقه عرفه . وينبئك عن شرف علم الصوفية وزهاد العلماء أن العلوم كلها لا يتعذر تحصيلها مع محبة الدنيا والإخلال بحقائق التقوى ، وربما كان محبة الدنيا عونا على اكتسابها لأن الاشتغال بها شاق على النفوس لجبلت النفوس على محبة الجاه والرفعة حتى إذا استشعرت حصول ذلك بحصول العلم أجابت إلى تحمل الكلف وسهر الليل والصبر على الغربة والأسفار وتعذر الملاذ والشهوات . وعلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى ، ولا تدرس إلا في مدرسة التقوى قال الله تعالى ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ جعل العلم ميراث التقوى وغير علوم هؤلاء القوم متيسر من غير ذلك بلا شك . فعلم فضل علماء الآخرة حيث لم يكشف النقاب إلا لأولى الألباب ، وأولو الألباب حقيقة هم الزاهدون في الدنيا .

قال بعض الفقهاء : إذا أوصى رجل بماله لأعقل الناس يصرف إلى الزهاد لأنهم أعقل الخلق. قال سهل بن عبد الله التستري : للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا . حدثنا الشيخ الصالح أبو الفتح محمد ابن عبد الباقي قال : خبرنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال : أخبرنا الحافظ أبو نعيم الاصفهاني قال : حدثنا محمد بن أحمد ابن محمد قال : حدثنا العباس بن أحمد الشاشي قال حدثنا أبو عقيل الوصافي قال : أخبرنا عبد الله الخواص وكان من أصحاب حاتم قال : دخلت مع أبي عبد الرحمن حاتم الأصم الري، ومعه ثلثمائة وعشرون رجلا يريدون الحج وعليهم الصوف والزرمانقات ليس معهم جراب ولا طعام ، فدخلنا الري على رجل من التجار متنسك يحب المتقشفين فاضفنا تلك الليلة، فلما كان من الغد قال لحاتم : يا أبا عبد الرحمن ألك حاجة ؟ فإني أريد أن أعود فقيها لنا هو عليل فقال حاتم : إن كان لكم فقيه عليل فعيادة الفقيه لها فضل والنظر إلى الفقيه عبادة فأنا أيضا أجيء معك ـ وكان العليل محمد بن مقاتل قاضي الري ـ فقال: سر بنا يا أبا عبد الرحمن فجاءوا إلى الباب ، فإذا باب مشرف حسن فبقي حاتم متفكرا يقول: باب عالم على هذا الحال ، ثم أذن لهم فدخلوا فاذا دار قوراء وإذا بزة ومنعة وستور وجمع، فبقي حاتم متفكرا ، ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه فاذا بفرش وطيئة وإذا هو راقد عليها وعند رأسه غلام وبيده مدبة : فقعد الرازي يسائله وحاتم قائم ، فأومأ إليه ابن مقاتل أن اقعد فقال :لا أقعد ، فقال له ابن مقاتل : لعل لك حاجة ؟ قال : نعم ،قال وماهي؟ قال: مسألة أسألك عنها قال : سلني قال : فقم فاستو جالسا حتى أسألكها ، فأمر غلمانه فاسندوه ، فقال له حاتم : علمك هذا من أين جئت به ؟ قال الثقات حدثوني به قال : عمن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله ﷺ ، قال وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ورسول الله من أين جاء به؟ قال : عن جبرائيل ؟ قال حاتم : ففيما أداه جبرائيل عن الله وأداه رسول الله إلى أصحابه وأداه أصحابه إلى الثقات وأداه الثقات إليك هل سمعت في العلم من في داره أمير أو منعته أكثر كانت له المنزلة عند الله اكثر ؟ قال : لا ، قال : فكيف سمعت ؟ قال : من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة واحب المساكين وقدم لآخرته ، كان له عند الله المنزلة اكثر ، قال حاتم : فأنت بمن اقتديت بالنبي وأصحابه والصالحين ام بفرعون ونمروذ اول من بنى بالجص والآجر ؟ ياعلماء السوء مثلكم يراه الجاهل الطالب للدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحال لا اكون انا شرا منه ، وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضا ، فبلغ اهل الري ماجرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له: يا ابا عبد الرحمن، بقزوين عالم اكبر شأنا من هذا . واشاروا به إلى الطنافسي ـ قال فسار إليه متعمدا فدخل عليه فقال : رحمك الله انا رجل اعجمي احب ان تعلمني او مبتدإ ديني ومفتاح صلاتي كيف اتوضأ للصلاة ! قال : نعم وكرامة ياغلام هات إناء فيه ماء . فأتى بإناء فيه ماء فقعد الطنافسي فتوضأ ثلاثا ثلاثا ، ثم قال : هكذا فتوضأ فقعد فتوضأ حاتم ثلاثا ثلاثا حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل اربعا فقال له الطنافسي : ياهذا اسرفت ، فقال له حاتم : فيماذا ؟ قال : غسلت ذراعيك اربعا ، قال حاتم : ياسبحان الله انا في كف ماء أسرفت وأنت في هذا الجمع كله لم تسرف ، فعلم الطنافسي انه اراده بذلك ولم يردمنه

التعليم ، فدخل البيت ولم يخرج إلى النـاس أربعين يوما ، وكتب تجـار الري وقزوين ماجرى بينه وبين ابن مقاتل والطنافسي ، فلما دخل بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقـالوا له : ياأبا عبد الرحمن أنت رجل الكن اعجمي ليس يكلمك أحد إلا وقطعته ، قال : معي ثلاث خصال بهن أظهر على خصمي ، قالوا : أي شيء هي ؟ قال .أفرح إذا أصاب خصمي ، وأحزن إذا أخطأ ، واحفظ نفسي أن لا أجهل عليه ، فبلغ ذلك أحمد بن حنبل فجاء إليه وقال : سبحان الله ما أعقله ؟ فلما دخل عليه قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، ما السلامة من الدنيا ؟ قال حاتم : يا أبا عبد الله ، لاتسلم من الدنيا حتى يكون معك اربع خصال . قال : أي شيء هي يا أبا عبد الرحمن ؟ قال تغفر للقوم جهلهم ، وتمنع جهلك عنهم ، وتبذل لهم شيئك ، وتـكون من شيئهم آيسا ، فإذا كان هذا سلمت ، ثم سار إلى المدينة .

قال الله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ذكر بكلمة « إنما » فيلتقى العلم عمن لايخشى الله ، كما إذا قال إنمـا يدخل الدار بغدادي ، ينتفي دخول غير البغدادي الدار : فلاح لعلمـاء الآخرة أن الطريق مسدود إلى أنصبة المعارف ومقامات القرب إلا بالزهد والتقوى . قال أبو يزيد رحمه الله لأصحابه : بقيت البارحة إلى الصباح أجهد أن أقول لا إله إلا الله ما قدرت عليه . قيل : ولم ذلك ؟ قال ذكرت كلمة قلتها في صباي ، فجاءتني وحشة تلك الـكلمة فمنعتني عن ذلك ، وأعجب ممن يذكر الله تعالى وهو متصف بشيء من صفاته ، فبصفاء التقوى وكال الزهادة يصير العبد راسخا في العلم ، قال الواسطي : الراسخون في العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم في عيب الغيب في سر السر فعرفهم ماعرفهم ، وخاضوا في بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات فانـكشف لهم من مدخور الخزائن ماتحت كل حرف من الـكلام من الفهم وعجائب الخطاب فنطقوا بالحكم . وقال بعضهم : الراسخ من أطلع على محل المراد من الخطاب . وقال الخراز : هم الذين كلوا في جميع العلوم وعرفوها ، واطلعو على همم الخلائق كلهم أجمعين ، وهذا القول من أبي سعيد لايعني به الراسخ في العلم ينبغي أن يقف على جزئيات العلوم ويكمل فيها ، فإن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان من الراسخين في العلم ووقف في معنى قوله تعـالى ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ وقال : ما الأب ؟ ثم قال : إن هـذا إلا تـكلف . ونقل أن هذا الوقوف في معنى الأب كان من أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، وإنمـا عنى بذلك أبو سعيد ما يفسر أول كلامه بآخره ، وهو قوله : أطلعوا على همم الخلائق كلهم : لان المتقي حق التقوى والزاهد حق الزهادة في الدنيا صفا باطنه وانجلت مرآة قلبه ووقعت له محاذة بشيء من اللوح المحفوظ ، فأدرك بصفاء الباطن أمهات العلوم وأصولها ، فيعلم منتهى أقدام العلماء في علومهم ، وفائدة كل علم ، والعلوم الجزئية متجزئه في النفوس بالتعليم والممارسة فلايغنيه علمه الـكلي أن يراجع في الجزئي أهله الذين هم أوعيته ، فنفوس هؤلاء امتلات من الجزئي واشتغلت به ، وانقطعت بالجزئي عن الـكلي ، ونفوس العلماء الزاهدين بعد الأخذ ممالا بد لهم منه في أصل الدين وأساسه من الشرع أقبلوا على الله وانقطعوا إليه وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب منه ، فأفاضت أرواحهم على قلوبهم أنوارا تهيأت بها قلوبهم لإدراك العلوم ، فأرواحهم ارتفعت عن حد إدراك العلوم بعكوفها على العالم الأزلي ، وتجردت عن وجود يصلح أن يكون وعاء للعلم ، وقلوبهم بنسبة وجهها الذي يلي النفوس صارت أوعية وجودية تناسب وجود العلم بالنسبة الوجودية ، فتألفت العلوم وتألفتها العلوم بمناسبة انفصال العلوم باتصالها باللوح المحفوظ ، والمعنى بالانفصال انتقاشها في اللوح لا غير ، وانفصال القلوب عن مقام الأرواح لوجود انجذابها إلى النفوس ، فصار بين المنفصلين نسبة اشتراك موجب للتألف ، فحصلت العلوم لذلك وصار العالم الرباني راسخا في العلم .

أوحى الله تعالى في بعض الـكتب المنزله (يا بني إسرائيل ، لاتقولوا العلم في السماء من ينزل به ، ولا في تخوم الأرض من يصعد به ، ولامن وراء البحار من يعبر فيأتي به . العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين وتخلقوا الى بأخلاق الصديقين ، أظهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم أو يغمركم) فالتأدب بآداب الروحانيين حصر النفوس عن تقاضي جبلاتها ، وقمعها بصريح العلم في كل قول وفعل . ولايصح ذلك إلا لمن علم وقرب وتطرق إلى الحضور بين يدي الله تعالى . فيحتفظ بالحق للحق .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب عبد القاهر السهروردي إجازة . قال أخبرنا أبو منصور بن حبرون إجازة ، قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال : أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس قال : حدثنا محمد أبو محمد يحى ابن صاعد قال : حدثنا الحسين بن الحسن المرزوى قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك قال : أخبرنا الأوزعى عن حسان ابن عطية ، بلغنى أن شداد بن أوس رضى الله عنه نزل منزلا فقال: أئتونا بالسفرة نعبث بها فأنكرمنه ذلك فقال : ما تكلمت بكلمه منذ أسلمت إلا وأنا أحطمها ثم أزمها غير هذه فلا تحفظوها على فمثل هذا يكون التأدب بآداب الروحانيين .

مكتوب فى الإنجيل : لا تطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما قد علمتم . وقد ورد فى خبر عن رسول الله ﷺ « إن الشيطان ربما يسوقكم بالعلم » فقلنا : يارسول الله كيف يسوقنا بالعلم ؟ قال « يقول اطلب العلم ولا تعلم فلا يزال العبد فى العلم قائلا وللعمل مسوفا حتى يموت وماعمل » وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم الخشية . وقال الحسن : إن الله تعالى لا يعبأ بذى علم ورواية إنما يعبأ بذى فهم ودراية . فعلوم الوراثة مستخرجة من علم الدراسة . ومثال علوم الدراسة كاللبن السائغ للشاربين ومثال علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه ؛ فلو لم يكن لبن لم يكن زبد ، ولكن الزبد هو الدهنية المطلوبة من اللبن ، والمائية فى اللبن جسم قام به روح الدهنية ، والمائية بها القوام . قال الله تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى ﴾ وقال تعالى ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ﴾ أى كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإسلام؛ فالإحياء بالإسلام هو القوام الأول والأصل الأول ، والإسلام علوم وهى مراتب كعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، فقد تقال للتوحيد والمعرفة والمشاهدة . وللايمان فى كل فرع من فروعه علوم فعلوم الإسلام علوم اللسان ، وعلوم الإيمان علوم القلوب ، ثم علوم القلوب لها وصف خاص ووصف عام ، فالوصف العام علم اليقين وقد يتوصل إليه بالنظر والاستدلال ويشترك فيه علماء الدنيا مع علماء الآخرة ، وله وصف خاص يختص به علماء الآخرة وهى السكينة التى أنزلت فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ؛ فعلى هذا جميع الرتب يشملها اسم الايمان بوصفه الخاص ولا يشملها بوصفه العام ، فبالنظر إلى الوصف الخاص اليقين ومراتبه من الايمان ، وإلى وصفه العام اليقين زيادة على الايمان . والمشاهدة وصف خاص فى اليقين وهو عين اليقين ، وفى عين اليقين وصف خاص وهو حق اليقين فحق اليقين إذن فوق المشاهدة . وحق اليقين موطنه ومستقره فى الآخرة وفى الدنيا منه لمح يسير لأهله ، وهو من أعز مايوجد من أقسام العلم بالله لأنه وجدان ، فصار علم الصوفية وزهاد العلماء نسبته إلى علم علماء الدنيا ظفروا باليقين بطريق النظر والاستدلال كنسبة ماذكرناه من علم الوراثة والدراسة ، علمهم بمثابة اللبن لأنه اليقين والايمان الذى هو الأساس ، وعلم الصوفية بالله تعالى من أنصبة المشاهدة ، وعين اليقين وحق اليقين كالزبد المستخرج من اللبن ففضيلة الايمان بفضيلة العلم ، ووراثة الأعمال على قدر الحظ من العلم . وقد ورد فى الخبر « فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى » والاشارة فى هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعتاق ، وإنما الاشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين وقد يكون العبد عالما بالله تعالى ذا يقين كامل وليس عنده علم من فروض الكفايات ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم الفتوى والأحكام من بعضهم . روى أن عبد الله بن عمر كان إذا سئل عن شىء يقول : سلوا سعيد بن المسيب. وكان عبد الله بن عباس يقول : سلو جابر بن عبد الله لو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم : وكان أنس بن مالك يقول . سلوا مولانا الحسن ، فإنه قد حفظ ونسينا ، فكانو يردون الناس إليهم فى علم الفتوى والأحكام ، ويعلمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة وذلك لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين ؛ صادفتهم طراوة الوحى المنزل وغمرهم غزير العلم المجمل والمفصل ، فتلقى منهم طائفة مجملة ومفصلة ، وطائفة مفصلة دون مجملة ، والمجمل أصل العلم ، ومفصله المكتسب بطهارة القلوب وقوة الغريزة ، وكمال الاستعداد ، وهو خاص بالخواص ،

قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ وقال تعالى ﴿ قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة ﴾ فلهذه السبيل سابلة ، ولهذه الدعوات قلوب قابلة ، فمنها نفوس مستعصية جامدة باقية على خشونة طبيعتها وجبلتها ، فليتها بنار الإنذار والموعظة والحذار ، ومنها نفوس زكية من تربة طيبة موافقة للقلوب قريبة منها ، فمن كانت نفسه ظاهرة على قلبه دعاه بالموعظة ، ومن كان قلبه ظاهرا على نفسه دعاه بالحكمه فالدعوة بالموعظة أجاب بها الأبرار ، وهى الدعوة بذكر الجنة والنار ، والدعوة بالحكمة أجاب بها المقربون وهى الدعوة بتلويح منح القرب وصفو المعرفة وإشارة التوحيد ، فلما وجدوا التلويحات الحقانيه والتعريفات الربانية أجابوا بأرواحهم وقلوبهم ونفوسهم فصارت متابعة الأقوال إجابتهم نفسا ، ومتابعة الأعمال إجابتهم قلبا ، والتحقق بالأحوال إجابتهم روحا فإجابة الصوفية بالكل ، وإجابة غيرهم بالبعض . قال عمر رضى الله عنه : رحم الله تعالى صهيبا لو لم يخف الله لم يعصه ، يعنى لو كتب له كتاب الأمان من النار لحمله صرف المعرفه بعظيم أمر الله على القيام بواجب حق العبودية ، أداء لما عرف من حق العظمة ، فإجابة الصوفية إلى الدعوة إجابة المحب للمحبوب على اللذاذة وذهاب العسر وإجابة غيرهم على المكايدة والمجاهدة . وهذه الإجابه يظهر مع الساعات آثرها فى القيام بحقائق الاستقامه والعبودية قال الله تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ قال بعضهم أعطى للدارين ولم يرشيئا واتقى اللغو والسيئات وصدق بالحسنى أقام على طلب الزلفى ، والآية قيل نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ويلوح فى الآية وجه آخر ﴿ أعطى ﴾ بالمواظبة على الأعمال ﴿ واتقى ﴾ الوساوس والهواجس ، ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ لازم الباطن بتصفية موارد الشهود عن مزاحمه لوث الوجود ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ نفتح عليه باب السهولة فى العمل والعيش والأنس ﴿ وأما من بخل ﴾ بالأعمال ﴿ واستغنى ﴾ امتلأ بالأحوال ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ لم يكن فى الملكوت بنفوذ بصيرته بالجوال ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ نسد عليه باب اليسر فى الأعمال قال بعضهم : إذا أراد الله بعبد سوءاً سد عليه باب العمل وفتح عليه باب الكسل ، فلما أجابت نفوس الصوفية وقلوبهم وأرواحهم الدعوة ظاهراً وباطنا ، كان حظهم من العلم أوفر ونصيبهم من المعرفة أكمل فكانت أعمالهم أزكى وأفضل .

جاء رجل إلى معاذ قال : أخبرنى عن رجلين أحدهما مجتهد فى العبادة كثير العمل قليل الذنوب إلا أنه ضعيف اليقين يعتوره الشك . قال معاذ ليحبطن شكه عمله ، قال : فأخبرنى عن رجل قليل العمل إلا أنه قوى اليقين وهو فى ذلك كثير الذنوب ، فسكت معاذ ، فقال الرجل : والله لئن أحبط شك الأول أعمال بره ، ليحبطن يقين هذا ذنوبه كلها . قال : فأخذ معاذ بيده وقال : ما رأيت الذى هو أفقه من هذا .

وفى وصية لقمان لابنه : يابنى ، لايستطاع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ولا يقصر عامل حتى يقصر يقينه ، فكان اليقين أفضل العلم لأنه أدعى إلى العمل ، وما كان أدعى إلى العمل كان أدعى إلى العبودية ، وما كان أدعى إلى العبودية كان أدعى إلى القيام بحق الربوبية . وكمال الحظ اليقين والعلم بالله للصوفية والعلماء الزاهدين ، فبان بذلك فضلهم وفضل علمهم .

ثم إنى أصور مسألة يستبين بها المعتبر فضل العالم الزاهد العارف بصفات نفسه على غيره : عالم دخل مجلسا وقعد ومين لنفسه مجلسا يجلس فيه كما فى نفسه من اعتقاده فى نفسه لمحله وعلمه ، فدخل داخل من أبناء جنسه وقعد فوقه ، فانعصر العالم وأظلمت عليه الدنيا ولو أمكنه لبطش بالداخل ، فهذا عارض عرض له ومرض اعتراه وهو لا يفطن أن هذه علة غامضة ومرض يحتاج إلى المداواة ، ولا يتفكر فى منشأ هذا المرض ، ولو علم أن هذه نفس ثارت وظهرت بجهلها وجهلها لوجود كبرها ، وكبرها برؤية نفسها خيرا من غيرها ، فعلم الإنسان أنه أكبر من غيره كبر وإظهاره ذلك إلى الفعل تكبر ، فحيث القصر صار فعلا به تكبر الزاهد لا يميز نفسه بشىء دون المسلمين ، ولا يرى نفسه فى مقام تمييز يميزها بمجلس ، فالصوفى العالم مخصوص بمميز . ولو قدر له أن يبتلى بمثل هذه الواقعة وينعصر من تقدم غيره عليه وترفعه يرى النفس وظهورها ، ويرى أن هذا داء وأنه إن استرسل فيه بالإصغاء إلى النفس وانعصارها صار ذلك ذنب حاله

فيرفع فى الحال داء الله تعالى ، ويشكو إليه ظهور نفسه ويحسن الإنابة ، ويقطع دابر ظهور النفس ويرفع القلب إلى الله تعالى مستغيثا من النفس ، فيشغله اشتغاله برؤية داء النفس فى طلب دوائها من الفكر فيمن قعد فوقه ، وربما قبل على من قعد فوقه بمزيد التواضع والانكسار ، تكفيرا للذنب الموجود ، وتداويا لدائه الحاصل فتبين بهذا الفرق بين الرجلين.

فاذا اعتبر المتعبر وتفقد حال نفسه فى هذا المقام يرى نفسه كنفوس عوام الخلق وطالبى المناصب الدنيوية ، فأى فرق بينه وبين غيره ممن لاعلم له .

ولو أكثرنا تصوير المسائل لنبرهن فضيلة الزاهدين ونقصان الراغبين ، لأورث الملال ، وهذه من أوائل علوم الصوفية ، فما ظنك بنفائس علومهم وشرائف أحوالهم ، والله الموفق للصواب .

الباب الرابع فى شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن على ، قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبى القاسم الهروى، قال أخبرنا أبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياهم قال أخبرنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحى، قال أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى، قال أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى، قال حدثنا مسلمة بن حاتم الأنصارى، قال: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى عن أبيه عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: قال أنس بن مالك رضى الله عنه : قال لى رسول الله ﷺ « يا بنى إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل » ثم قال « يا بنى وذلك من سنتى ومن أحيا سنتى فقد أحيانى ومن أحيانى كان معى فى الجنة » وهذا أتم شرف وأكمل فضل أخبر به الرسول ﷺ فى حق من أحيا سنته ، فالصوفية هم الذين أحيوا هذه السنة ، وطهارة الصدور من الغل والغش عماد أمرهم ، وبذلك ظهر جوهرهم وبان فضلهم، وإنما قدروا على إحياء هذه السنة ونهضوا بواجب حقها لزهدهم فى الدنيا وتركها لأربابها وطلابها ؛ لأن مثار الغل والغش محبة الدنيا ومحبة الرفعة والمنزلة عند الناس، والصوفية زهدوا فى ذلك كله ، كما قال بعضهم . طريقنا هذا لا يصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل، فلما سقط عن قلوبهم محبة الدنيا وحب الرفعة أصبحوا وأمسوا وليس فى قلوبهم غش لأحد ، فقول القائل : كنست بأرواحهم المزابل ، إشارة منه إلى غاية التواضع ، وأن لا يرى نفسه تتميز عن أحد من المسلمين، لحقارته عند نفسه ، وعند هذا ينسد باب الغش والغل، وجرت هذه الحكاية فقال بعض الفقراء من أصحابنا : وقع لى أن معنى كنست بأرواحهم المزابل أن الإشارة بالمزابل إلى النفوس ، لأنها مأوى كل رجس ونجس كالمزبلة ، وكنسها : بنور الروح الواصل اليها ، لأن الصوفية أرواحهم فى محال القرب ونورها يسرى إلى النفوس، وبوصول نور الروح إلى النفس تطهر النفس ويذهب عنها المذموم من الغل والغش والحقد والحسد ، فكأنها تكنس بنور الروح ، وهذا المعنى صحيح وإن لم يرد القائل بقوله ذلك .

قال الله تعالى فى وصف أهل الجنة ﴿ ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾ قال أبو حفص: كيف يبقى الغل فى قلوب ائتلفت بالله واتفقت على محبته ، واجتمعت على مودته وأنست بذكره ، إن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع ، بل كحلت بنور التوفيق فصارت إخوانا ، فالخلق حجابهم عن القيام بإحياء سنة رسول الله ﷺ ، قولا وفعلا وحالا صفات نفوسهم ، فاذا تبدلت نعوت النفس ارتفع الحجاب وصحت المتابعة ووقعت الموافقة فى كل شىء مع رسول الله ﷺ ووجبت المحبة من الله تعالى عند ذلك قال الله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ جعل متابعة الرسول ﷺ آية محبة العبد ، وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله إياه ، فأوفر الناس حظا من متابعة الرسول أوفرهم حظا من محبة الله تعالى ، والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة ، لأنهم اتبعوا أقواله فقاموا بما أمرهم ووقفوا عما نهاهم . قال الله تعالى

بما أمرهم ووقفوا عما نهاهم . قال الله تعالى ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ، ثم اتبعوه فى أعمالهم من الجد والاجتهاد فى العبادة والتهجد والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك ، ورزقوا ببركة المتابعة فى الأقوال والأفعال التخلق بأخلاقه : من الحياء والحلم والصفح والعفو والرأفة والشفقة والمداراة والنصيحة والتواضع ، ورزقوا قسطا من أحواله من الخشية والسكينة والهيبة والتعظيم والرضا والصبر والزهد والتوكل ؛ فاستوفوا جميع أقسام المتابعات وأحيوا سنته بأقصى الغايات . قيل لعبد الواحد بن زيد : من الصوفية عندك ؟ قال القائمون بعقولهم على فهم السنة ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفية . وهذا وصف تام وصفهم به ، فكان رسول الله ﷺ دائم الافتقار إلى مولاه حتى يقول « لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، أكلأنى كلاءة الوليد » ومن أشرف ماظفر به الصوفى من متابعة رسول الله ﷺ هذا الوصف : وهو دوام الافتقار ودوام الالتجاء ، ولا يتحقق بهذا الوصف من صدق الافتقار إلا عبد كوشف باطنه بصفاء المعرفة وأشرق صدره بنور اليقين ، وخلص قلبه إلى بساط القرب ، وخلاسره بلذاذة المسامرة ، فبقيت نفسه بين هذه الأشياء كلها أسيرة مأمورة ومع ذلك كله يراها مأوى كل شر وهى بمثابة النار لو بقيت منها شرارة أحرقت عالما ، وهى وشيكة الرجوع سريعة الانقلاب ؛ فالله تعالى بكمال لطفه عرفها إلى الصوفى وكشفها له على شىء من معنى ما كشفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهو دائم الاستغاثة إلى مولاه من شرها ، وكأنها جعلت سوطا للعبد تسوقه لمعرفته بشرها مع اللحظات، إلى جناب الالتجاء وصدق الافتقار والدعاء ، فلا يخلو الصوفى عن مطالعتها أدنى ساعة ، كما لا يخلو عن ربه أدنى ساعة ، وربط معرفة الله تعالى فيما ورد « من عرف نفسه فقد عرف ربه » كربط معرفة الليل بمعرفة النهار ومن الذى يقوم بإحياء هذه السنة من سنن رسول الله ﷺ غير الصوفى العالم بالله الزاهد فى الدنيا المستمسك من التقوى بأوثق العرى ؛ ومن الذى يهتدى إلى فائدة هذا الحال غير الصوفى . فدوام افتقاره إلى ربه تمسك بجناب الحق ولياذ به . وفى هذا اللياذ استغراق الروح واستتباع القلب إلى محل الدعاء وفى انجذاب القلب إلى محل الدعاء بلسان الحال والسكون فيه : نبو النفس عن مستقرها من الأقسام العاجلة ونزولها اليها فى مدارج العلم محفوفة بحراسة الله تعالى ورعايته . والنفس المدبرة بهذا التدبير من حسن تدبير الله تعالى مأمونة من الغل والغش والحقد والحسد وسائر المذمومات : فهذا حال الصوفى . ويجمع جمل حال الصوفية شيئان : هما وصف الصوفية . وإليهما الاشارة بقوله تعالى ﴿ الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾ فقوم من الصوفية خصوا بالاجتباء الصرف . وقوم منهم خصوا بالهداية بشرط مقدمة الانابة . بالاجتباء المحض غير معلل بكسب العبد . وهذا حال المحبوب المراد يبادئه الحق بمنحه ومواهبه من غير سابقة كسب منه يسبق كشوفه اجتهاده : وفى هذا أخذ بطائفة من الصوفية رفعت الحجب عن قلوبهم وبادرهم سطوع نور اليقين فأثار نازل الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال . فأقبلوا على الأعمال باللذاذة والعيش فيها قرة أعينهم . فسهل الكشف عليهم الاجتهاد . كما سهل على سحرة فرعون لذاذة النازل بهم من صفو العرفان : تحمل وعيد فرعون فقالوا ﴿ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ قال جعفر الصادق رضى الله عنه وجدوا أرباح العناية القديمة بهم فالتجأوا إلى السجود شكرا وقالوا ﴿ آمنا برب العالمين ﴾ .

أخبرنا أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة ، قال أخبرنا عبد الرحمن السلمى . قال : سمعت منصورا يقال : سمعت أبا موسى الزقاق يقول : سمعت أبا سعيد الخراز يقول : أهل الخالصة الذين هم المرادون اجتباهم مولاهم وأكمل لهم النعمة وهيأ لهم الكرامة . فأسقط عنهم حركات الطلب . فصارت حركاتهم فى العمل والخدمة على الألفة والذكر والتنعم بمناجاته والانفراد بقربه . وبهذا الاسناد إلى أبى عبد الرحمن السلمى قال : سمعت على بن سعيد يقول : سمعت أحمد بن الحسن الحصى يقول : سمعت فاطمة المعروفة بجويرية تلميذة أبى سعيد تقول : سمعت الخراز يقول : المراد محمول فى حال ممان على حركاته وسعيه فى الخدمة . مكنى مصون عن الشواهد والنواظر : وهذا الذى قاله الشيخ أبو سعيد هو الذى اشتبه حقيقته على طائفة من الصوفية ولم يقولوا بالاكثار من النوافل . وقد

رأوا جماً من المشايخ قلت نوافلهم فظنوا أن ذلك حال مستمر على الإطلاق ، ولم يعلموا أن الذين تركوا النوافل واقتصروا على الفرائض كانت بداياتهم بدايات المريدين، فلما وصلوا إلى روح الحال وأدركتهم الكشوف بعد الاجتهاد امتلأوا بالحال فطرحوا نوافل الأعمال ، فأما المرادون فتبقى عليهم الأعمال والنوافل وفيها قرة أعينهم ، وهذا أتم وأكمل من الأول ، فهذا الذى أوضحناه أحد طريقى الصوفية ، فأما الطريق الآخر طريق المريدين وهم الذين شرطوا لهم الإنابة ، فقال الله تعالى ﴿ ويهدى إليه من ينيب ﴾ فطولبوا بالاجتهاد أولا قبل الكشوف .

قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ يدرجهم الله تعالى فى مدارج الكسب بأنواع الرياضات والمجاهدات وسهر الدياجر وظمأ الهواجر ، وتتأجج فيهم نيران الطلب وتحتجب دونهم لوامع الأرب ، يتقلبون فى رمضاء الإرادة ، ويتخلعون عن كل مألوف وعادة ، وهى الإنابة التى شرطها الحق سبحانه وتعالى لهم وجعل الهداية مقرونة بها ، وهذه الهداية آنفا هداية خاصة لأنها هداية إليه ، غير الهداية العامة التى هى الهدى إلى أمره ونهيه بمقتضى المعرفة الأولى ، وهذا حال السالك المحب المريد ، فكانت الإنابة غير الهداية العامة فأثمرت هداية خاصة ، واهتدوا اليه بعد أن اهتدوا له بالمكابدات ، فخلصوا من مضيق العسر إلى فضاء اليسر ، وبرزوا من وهج الاجتهاد إلى روح الأحوال ، فسبق اجتهادهم كشوفهم ، والمرادون سبق كشوفهم اجتهادهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى قال أخبرنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى ، قال حدثنا محمد بن الحسين بن موسى قال : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت أبا محمد الحريرى يقول سمعت الجنيد رحمة الله عليه يقول : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .

وقال محمد بن خفيف : الإرادة سمو القلب لطلب المراد وحقيقة الإرادة استدامة الجد وترك الراحة .

وقال أبو عثمان : المريد الذى مات قلبه عن كل شىء دون الله تعالى ، فيريد الله وحده ويريد قربه ويشتاق اليه ، حتى تذهب شهوات الدنيا عن قلبه لشدة شوقه إلى ربه . وقال أيضا : عقوبة قلب المريدين أن يحجبوا عن حقيقة المعاملات والمقامات الى أضدادها ، فهذان الطريقان يجمعان أحوال الصوفية ودونهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقق بالتصوف : (أحدهما) مجذوب أبقى على جذبته مارد الى الاجتهاد بعد الكشف ، (والثانى) مجتهد متعبد ماخلص إلى الكشف بعد الاجتهاد . وللصوفية فى طريقهما باب مزيدهم وصحة طريقهم بحسن المتابعة ، ومن ظن أن يبلغ غرضا أو يظفر بمراد لا من طريق المتابعة فهو مخذول مغرور .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال أخبرنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفار قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال سمعت نصر بن أبى نصر يقول : سمعت قسما غلام الزقاق يقول : سمعت أبا سعيد الشكرى يقول : سمعت أبا سعيد الخراز يقول : كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل ، وكان يقول الجنيد رحمه الله : علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله ﷺ . وقال بعضهم : من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة .

حكى أن أبا يزيد البسطامى رحمه الله قال ذات يوم لبعض أصحابه : قم بنا حتى ننظر الى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية — وكان الرجل فى ناحيته مقصودا ومشهورا بالزهد والعبادة — فمضينا اليه ، فلما خرج من بيته يقصد المسجد رمى بزاقة نحو القبلة ، فقال أبو يزيد : انصرفوا ، فانصرف ولم يسلم عليه وقال : هذا رجل ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين .

وسئل خادم الشبلى رحمه الله : ماذا رأيت منه موته ؟ فقال : لما أمسك لسانه وعرق جبينه أشار إلى أن وضئنى للصلاة ، فوضأته فنسيت تخليل لحيته ، فقبض على يدى وأدخل أصابعى فى لحيته يخللها .

وقال سهل بن عبد الله : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل : هذا حال الصوفية وطريقهم ، وكل من يدعى حالا على غير هذا الوجه فمدع مفتون كذاب .

الباب الخامس فى : ماهية التصوف

أخبرنا الشيخ أبوزرعة طاهر بن أبى الفضل فى كتابه قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف الشيرازى إجازة، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال أخبرنا إبراهيم بن أحمد بن محمد بن رجاء . قال حدثنا عبد الله بن أحمد البغدادى . قال حدثنا عثمان بن سعيد قال حدثنا عمر بن أسد عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ « لكل شىء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصبر ، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة» فالفقر كائن فى ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه .

قال رويم : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار .

وقال الجنيد — وقد سئل عن التصوف فقال — : أن تكون مع الله بلا علاقة .

وقال معروف الكرخى : التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق ، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف .

وسئل الشبلى عن حقيقة الفقر فقال : ألا يستغنى بشىء دون الحق .

وقال أبو الحسين النورى : نعت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود .

وقال بعضهم : إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى حذر أن يدخل عليه الغنى فيفسد فقره ، كما أن الغنى يحترز من الفقر حذر أن يدخل عليه الفقر فيفسد عليه غناه .

وبالإسناد الذى سبق إلى أبى عبد الرحمن قال : سمعت أبا عبد الرحمن الرازى يقول : سمعت مظفرا القرميسينى يقول : الفقير الذى لايكون له إلى الله حاجة . قال وسمعته يقول : سألت أبا بكر المصرى عن الفقير فقال : الذى لا يملك ولا يملك . قوله « لايكون له حاجة » معناه أنه مشغول بوظائف عبوديته تام الثقة بربه ، عالم بحسن كلاءته به لا يحوجه إلى رفع الحاجة لعلمه بعلم الله بحاله ، فيرى السؤال فى البين زيادة ، وأقوال المشايخ تتنوع معانيها . لأنهم أشاروا فيها إلى أحوال فى أوقات دون أوقات ، وتحتاج فى تفضيل بعضها عن البعض إلى الضوابط ، فقد تذكر أشياء فى معنى التصوف ذكر مثلها فى معنى الفقر وتذكر أشياء فى معنى الفقر ذكر مثلها فى معنى التصوف ، وحيث وقع الاشتباه فلا بد من بيان فاصل ، فقد تشتبه الإشارات فى الفقر بمعانى الزهد تارة وبمعانى التصوف تارة ، ولا يتبين للمسترشد بعضها من البعض ، فيقول التصوف غير الفقر ، والزهد غير الفقر ، والتصوف غير الزهد ، فالتصوف اسم جامع لمعانى الفقر ومعانى الزهد مع مزيد أوصاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا وإن كان زاهدا وفقيرا .

قال أبو حفص : التصوف كله آداب ، لكل وقت أدب ، ولكل حالة أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول. وقال أيضا : حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن ؛ لأن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » .

أخبرنا الشيخ رضى الدين أحمد بن إسمعيل إجازة قال أخبرنا الشيخ أبو المظفر عبد المنعم ، قال أخبرنى والدى أبو القاسم القشيرى ، قال سمعت محمد بن أحمد بن يحيى الصوفى يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سئل أبو محمد الحريرى عن التصوف فقال : الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج عن كل خلق دنى ، فإذا عرف هذا المعنى فى التصوف من حصول الأخلاق وتبديلها واعتبر حقيقته ، يعلم أن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر . وقيل : نهاية الفقر مع شرفه هو بداية التصوف . وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر ، يقولون : قال الله تعالى ﴿ للفقراء الذين

أحصروا فى سبيل الله ﴾ هذا وصف الصوفية، والله تعالى سماهم فقراء ، وسأوضح معنى يفترق الحال به بين التصوف والفقر، نقول: الفقير فى فقره متمسك به متحقق بفضله يؤثره على الغنى ، متطلع إلى ما تحقق من العوض عند الله حيث يقول رسول الله ﷺ «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم: وهو خمسمائة عام» فكلما لاحظ العوض الباقى أمسك عن الحاصل الفانى وعانق الفقر والقلة وخشى زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض وهذا عين الاعتلال فى طريق الصوفية، لأنه تطلع إلى الأعواض وترك لأجلها ، والصوفى يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة بل للاحوال الموجودة فإنه ابن وقته . وأيضاً ترك الفقير الحظ العاجل واغتنامه الفقر اختيار منه وإرادة، والاختيار والإرادة علة فى حال الصوفى ، لأن الصوفى صار قائماً فى الأشياء بإرادة الله تعالى لا بإرادة نفسه ، فلا يرى فضيلة فى صورة فقر ولا فى صورة غنى ، وإنما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق فيه ويدخله عليه ويعلم الإذن من الله تعالى فى الدخول فى الشيء ، وقد يدخل فى صورة سباينة للفقر بإذن الله تعالى ، ويرى الفضيلة حينئذ فى السعة لمكان الإذن من الله فيه ، ولا يفسح فى السعة والدخول فيها للصادقين إلا بعد إحكامهم علم الإذن ، وفى هذا مزلة للاقدام وباب دعوى للدعين. وما من حال يتحقق به صاحب الحال إلا وقد يحكيه راكب المحال ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة﴾ فإذا اتضح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوف ، وعلم أن الفقر أساس التصوف وبه قوامه على معنى أن الوصول إلى رتب التصوف طريقه الفقر لا على معنى أنه يلزم من وجود التصوف وجود الفقر .

قال الجنيد رحمة الله عليه : التصوف هو أن يميتك الحق عنه ويحييك به ، وهذا المعنى هو الذى ذكرناه من كونه قائماً فى الأشياء لا بنفسه ، والفقير والزاهد مكونان فى الأشياء بنفسهما واقفان مع إرادتهما مجتهدان مبالغ عليهما ، والصوفى متهم لنفسه مستقل لعلمه ، غير راكن إلى معلومه ، قائم بمراد ربه لا بمراد نفسه .

قال ذى النون المصرى رحمه الله : الصوفى من لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب. وقال أيضاً : الصوفية آثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء ، فكان من إيثارهم أن آثروا علم الله على علم نفوسهم ، وإرادة الله على إرادة نفوسهم .

قيل لبعضهم : من أصحب من الطوائف ؟ قال : الصوفية ، فإن للقبيح عندهم وجها من المعاذير، وليس للكبير من العمل عندهم وقع ، يرفعونك به فتعجبك نفسك ، وهذا علم لا يوجد عند الفقير والزاهد ، لأن الزاهد يستعظم الترك ويستقبح الأخذ وهكذا الفقير، وذلك لضيق وعائهم ووقوفهم على حد علمهم .

وقال بعضهم : الصوفى من إذا استقبله حالان حسنان أو خلقان حسنان يكون مع الأحسن ، والفقير والزاهد لا يميزان كل التمييز بين الخلقين الحسنين، بل يختاران من الأخلاق أيضاً ما هو أدعى إلى الترك والخروج عن شواغل الدنيا ، حاكمان فى ذلك بعلمهما ، والصوفى : هو المستبين الأحسن من عند الله بصدق التجائه وحسن إنابته وحظ قربه ولطيف ولوجه وخروجه إلى تعالى لعلمه بربه وحظه من محادثته ومكالمته .

قال رويم: التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد .

وقال عمرو بن عثمان المكى: التصوف أن يكون العبد فى كل وقت مشغولا بما هو أولى فى الوقت .

قال بعضهم : التصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله تعالى: وقيل : التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع وعمل مع اتباع . وقيل التصوف ترك التكلف وبذل الروح.

قال سهل بن عبد الله : الصوفى من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر. واستوى عنده الذهب والمدر .

وسئل بعضهم عن التصوف فقال : تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد صفات البشرية ومجانبة الدواعى النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة واتباع الرسول فى الشريعة.

قال ذو النون المصرى: رأيت ببعض سواحل الشام امرأة فقلت: من أين أقبلت؟ قالت من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع : فقلت: وأين تريدين؟ قالت : إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله : فقلت: صفيهم لى فأنشأت:

قوم همومهم بالله قد علقت ... فما لهم هم تسمو إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... يا حسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف ... من المطاعم واللذات والولد
ولا للبس ثياب فائق أنق ... ولا لروح سرور حل فى بلد
إلا مسارعة فى إثر منزلة ... قد قارب الخطو فيها باعد الأبد
فهم رهائن غدران وأودية ... وفى الشوامخ تلقاهم مع العدد

وقال الجنيد : الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح . وقال أيضا : هو كالأرض يطؤها البر والفاجر . وكالسحاب يظل كل شىء وكالقطر يسقى كل شىء .

وأقوال المشايخ فى ماهية التصوف تزيد على ألف قول. ويطول نقلها ونذكر ضابطا يجمع جمل معانيها فإن الألفاظ وإن اختلفت متقاربة المعانى . فنقول: الصوفى هو الذى يكون دائم التصفية لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس. ويعينه على كل هذه التصفيه دوام افتقاره إلى مولاه . فبدوام الافتقار ينقى من الكدر وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة وفر منها إلى ربه . فبدوام تصفيته جمعيته . وبحركة نفسه تفرقته وكدره ، فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه . قال الله تعالى ﴿ كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ﴾ وهذه القوامية لله على النفس هو التحقق بالتصوف ، قال بعضهم التصوف كله اضطراب ، فإذا وقع السكون فلا تصوف ، والسر فيه أن الروح يجذو به إلى الحضرة الإلهية يعنى أن روح الصوفى متطلعة منجذبة إلى مواطن القرب وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وانقلاب على عقبها ولا بد للصوفى من دوام الحركة بدوام الافتقار ودوام الفرار وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس ومن وقف على هذا المعنى يجد فى معنى الصوفى جميع المتفرق فى الإشارات .

الباب السادس : فى ذكر تسميتهم بهذا الاسم

أخبرنا الشيخ أبو ذرعة طاهر بن محمد بن طاهر . قال أخبرنى والدى . قال أخبرنا أبو على الشافعى بمكة حرسها الله ، قال أخبرنا أحمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا أبو عبد الله المخزومى قال حدثنا سفيان عن مسلم عن أنس بن مالك ، قال : كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف ، فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة ، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام .

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبيا حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام » وقيل: إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى .

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه : لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف، ووصفهم أبو هريرة وفضالة ابن عبيد فقالا : كانوا يخرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين . وكان لباسهم الصوف حتى أن بعضهم كان يعرق فى ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث . وقال بعضهم : إنه ليؤذينى ريح هؤلاء . أما يؤذيك ريحهم؟ يخاطب رسول الله ﷺ بذلك . فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا . وقناعتهم بسد الجوعة وستر العورة . واستغراقهم فى أمر الآخرة . فلم يتفرغوا لملاذ النفوس وراحاتها . لشدة شغلهم بخدمة مولاهم وانصراف هممهم إلى أمر الآخرة . وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق . لأنه يقال « تصوف » إذا لبس الصوف كما يقال « تقمص » إذا القميص .

ولما كان حالهم بين سير وطير لتقلبهم فى الأحوال وارتقائهم من عال إلى أعلى منه ، لايقيدهم وصف ولايحبسهم نعت ، وأبواب المزيد عليا وحالا عليهم مفتوحة . وبواطنهم معدن الحقائق ومجمع العلوم ، فلما تعذر تقييدهم بحال تقيدهم لتنوع وجدانهم وتجنس مزيدهم ، نسبوا إلى ظاهر اللبسة ، وكان ذلك أبين فى الإشارة إليهم . وأدعى إلى حضر وصفهم ؛ لأن لبس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلفهم ، وايضاً لأن حالهم حال المقربين كما سبق ذكره .ولما كان الاعتزاء إلى القرب — وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صعب يعز كشفه والإشارة إليه — وقعت الإشارة إلى زيهم سترا لحالهم وغيرة على عزيز مقامهم أن تكثر الإشارة إليه وتتداوله الألسنة ، فكان هذا أقرب إلى الأدب والأدب فى الظاهر والباطن والقول والفعل عماد أهل الصوفية ، وفيه معنى آخر : وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تنبىء عن تقللهم من الدنيا وزهدهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى عن الملبوس الناعم ، حتى إن المبتدىء المريد الذى يؤثر طريقهم ويحب الدخول فى أمرهم يوطن نفسه على التقشف والتقلل ، ويعلم أن المأكول أيضاً من جنس الملبوس فيدخل فى طريقهم على بصيرة ، وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدىء ، والإشارة إلى شىء من حالهم فى تسميتهم بهذا انفع وأولى ، وأيضاً غير هذا المعنى مما يقال إنهم سموا صوفية لذلك يتضمن دعوى وإذا قيل سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى ، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم ، وأيضا لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم ، ونسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن ، والحكم بالظاهر أوفق وأولى ، فالقول بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع ، ويقرب أن يقال : لما آثروا الذبول والخمول والتواضع والانكسار والتخفى والتوارى ، كانوا كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية التى لايرغب فيها ولا يلتفت إليها ، فيقال « صوفى » نسبة إلى إلى الصوفة ، كما يقال « كوفى » نسبة إلى الكوفة ، وهذا ما ذكره بعض أهل العلم ، والمعنى المقصود به قريب ويلائم الاشتقاق ، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتقشفين والعباد .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه ، قال أخبرنا عبد الرزاق بن عبد الكريم ، قال أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد، قال حدثنا أبو على إسماعيل بن محمد ، قال حدثنا الحسن بن عرفة ، قال حدثنا خلف بن خليفة عن حميد بن الأعرج عن عبد الله بن الحرث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكمه من صوف ونعلاه من جلد حمار غير مذكى .

وقيل : سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه . وقيل : كان هذا الاسم فى الأصل صفوى ، فاستثقل ذلك وجعل صوفيا . وقيل: سموا صوفية نسبة إلى الصفة التى كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض ﴾ الآية ، وهذا وإن كان لايستقيم من حيث الاشتقاق اللغوى ولكنه صحيح من حيث المعنى ، لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك لكونهم مجتمعين متآلفين متصاحبين لله وفى الله . كأصحاب الصفة ، وكانوا نحوا من أربعمائة رجل لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر، جمعوا أنفسهم فى المسجد كاجتماع الصوفية قديما وحديثا فى الزوايا والربط، وكانوا لايرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة ، كانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار ، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواسيهم ويحث الناس على مواساتهم ويجلس معهم ويأكل معهم ، وفيهم نزل قوله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ وقوله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾ ونزل فى ابن أم مكتوم قوله تعالى ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ وكان من أهل الصفة ، فعوتب النبى صلى الله عليه وسلم لأجله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صافحهم لا ينزع يده من أيديهم ، وكان يفرقهم على أهل الجدة والسعة يبعث مع كل واحد ثلاثة ومع الآخر أربعة ، وكان سعد بن معاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون فى ثوب واحد ، منهم من لايبلغ ركبتيه ، فإذا ركع أحدهما قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته . وقال بعض أهل الصفة : جئنا جماعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلنا : يارسول الله ، أحرق بطوننا التمر فسمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد المنبر ثم قال: ما بال أقوام يقولون أحرق بطوننا التمر ، أما علمتم أن هذا التمر هو طعام أهل المدينة وقد واسونا به وواسيناكم مما واسونا به ، والذى نفس محمد بيده إنه منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دخان للخبز ، وليس لهم إلا الأسودان الماء والتمر .

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقى فى كتابه ، قال أخبرنا الشيخ أبو بكر بن زكريا الطريثيثى قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال حدثنا محمد بن محمد بن سعيد الأنماطى ، قال حدثنا الحسن بن يحيى بن سلام ، قال حدثنا محمد بن على الترمذى ، قال حدثنى سعيد بن حاتم البلخى ، قال حدثنا سهل بن أسلم عن خلاد بن محمد عن أبى عبد الرحمن السكرى عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال : وقف رسول الله ﷺ يوما على أهل الصفة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال « أبشروا ياأصحاب الصفة فمن بقى منكم على النعت الذى أنتم عليه اليوم راضيا بما هو فيه فإنه من رفقائى يوم القيامة » .

وقيل : كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات ولا يسكنون القرى والمدن ، يسمونهم فى خراسان شكفتيه ، لأن «شكفت» اسم الغار ، ينسبونهم إلى المأوى والمستقر . وأهل الشام يسمونهم جوعية ، والله تعالى ذكر فى القرآن طوائف الخير والصلاح فسمى قوما أبرارا وآخرين مقربين ، ومنهم الصابرون والصادقون ، والذاكرون والمحبون . واسم الصوفى مشتمل على جميع المتفرق فى هذه الأسماء المذكورة ، وهذا الاسم لم يكن فى زمن رسول الله ﷺ . وقيل : كان فى زمن التابعين . ونقل عن الحسن البصرى رحمة الله عليه أنه قال : رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذ وقال : معى أربع دوانيق يكفينى ما معى . ويشيد هذا ماروى عن سفيان أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفى ماعرفت دقيق الرياء . وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديما . وقيل : لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية ، لأن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمون الرجل صحابيا لشرف صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة ، وبعد انقراض عهد رسول الله ﷺ من أخذ منهم العلم سمى تابعيا ، ثم لما تقادم زمان الرسالة ، وبعد عهد النبوة وانقطع الوحى السماوى ، وتوارى النور المصطفوى ، واختلفت الآراء وتنوعت الأنحاء ، وتفرد كل ذى رأى برأيه ، وكدر شرب العلوم شوب الأهوية ، وتزعزعت أبنية المتقين ، واضطربت عزائم الزاهدين ، وغلبت الجهالات وكثف حجابها ، وكثرت العادات وتملكت أربابها ، وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها ــ تفرد طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية ، وصدق فى العزيمة وقوة فى الدين ، وزهدوا فى الدنيا ومحبتها ، واغتنموا العزلة والوحدة ، واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى ، أسوة بأهل الصفة ، تاركين للأسباب متبتلين إلى رب الأرباب ، فأثمر لهم صالح الأعمال سنى الأحوال ، وتهيأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم ، وصار لهم بعد اللسان لسان ، وبعد العرفان عرفان ، وبعد الإيمان إيمان ، كما قال حارثة : أصبحت مؤمنا حقا ، حيث كوشف برتبة فى الإيمان غير ما يتعاهدها ، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها وإشارات يتعاهدونها ، فحرروا لنفوسهم اصلاحات تشير إلى معان يعرفونها وتعرب عن أحوال يجدونها ، فأخذ ذلك الخلف عن السلف ، حتى صار ذلك رسما مستمرا وخبرا مستقرا فى كل عصر وزمان ، فظهر هذا الاسم بينهم وتسموا به وسموا به ، فالاسم سمتهم ، والعلم بالله صفتهم ، والعبادة حليهم ، والتقوى شعارهم وحقائق الحقيقة أسرارهم ، نزاع القبائل وأصحاب الفضائل ، سكان قباب الغيرة وقطان ديار الحيرة ، لهم مع الساعات من إمداد فضل الله مزيد ، ولهيب شوقهم يتأجج ويقول هل من مزيد . اللهم أحشرنا فى زمرتهم وارزقنا حالاتهم . والله أعلم .

الباب السابع : فى ذكر المتصوف والمتشبه به

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى إجازة ، قال اخبرنا الشيخ أبو منصور بن خيرون ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة ، قال أخبرنا محمد بن العباس بن زكريا ، قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد الأصفهانى ، قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى ، قال أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا المعتمر بن سليمان ، قال أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى النبى عليه الصلاة والسلام فقال: يارسول الله متى قيام الساعة ؟ فقام رسول الله ﷺ إلى الصلاة ، فلما قضى الصلاة قال « أين السائل عن الساعة؟» فقال الرجل : أنا يارسول الله ، قال « ما أعددت لها » ؟ قال ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام — أو قال ما أعددت لها كبير عمل — إلا أنى احب الله ورسوله ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام « المرء مع من أحب أو أنت مع من أحببت » قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بهذا ، فالمتشبه بالصوفية ما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف إلا لمحبته إياهم ، وهو مع تقصيره عن القيام بما هم فيه يكون معهم لوضع إرادته ومحبته ، وقد ورد بلفظ آخر أوضح من الخبر الذى رويناه فى المعنى : روى عبادة بين الصامت عن أبى ذر الغفارى قال : قلت يارسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم ! قال « أنت ياأباذر مع من أحببت» قال: قلت فإنى أحب الله ورسوله ، قال « فإنك مع من أحببت » قال : فأعادها أبوذر ، فأعادها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . فمحبة المتشبه إياهم لا تكون إلا لتنبه روحه لما تنبهت له أرواح الصوفية ، لأن محبة أمر الله وما يقرب إليه ومن يقرب منه ، وتكون بجاذب الروح ، غير أن المتشبه تعوق بظلمة النفس ، والصوفى تخلص من ذلك ، المتصوف متطلع إلى حال الصوفى . وهو مشارك ببقاء شىء من صفات نفسه عليه للمتشبه ، وطريق الصوفية أوله إيمان ثم علم ثم ذوق ، فالمتشبه صاحب إيمان . والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير . قال الجنيد رحمة الله عليه: الإيمان بطريقنا هذا ولاية ، ووجه ذلك أن الصوفية تميزوا بأحوال عزيزة وآثار مستغربة عند أكثر الخلق ، لأنهم مكاشفون بالقدر وغرائب العلوم وإشاراتهم إلى عظيم أمر الله والقرب منه ، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة . وقد أنكر قوم من أهل الملة كرامات الأولياء . والإيمان بذلك إيمان بالقدرة ، ولهم علوم من هذا القبيل فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله تعالى بمزيد عنايته ، فالمتشبه صاحب إيمان والمتصوف صاحب علم ، لأنه بعد الإيمان اكتسب مزيد علم بطريقهم وصار له من ذلك مواجيد يستدل بها على سائرها ، والصوفى صاحب ذوق ، فللمتصوف الصادق نصيب من حال الصوفى ، وللمتشبه نصيب من حال المتصوف ، وهكذا سنة الله تعالى جارية أن كل صاحب حال له ذوق فيه لابد أن يكشف له علم بحال أعلى مما هو فيه ، فيكون فى الحال الأول صاحب ذوق ، وفى الحال الذى كوشف به صاحب علم ، وبحال فوق ذلك صاحب إيمان ، حتى لا يزال طريق الطلب مسلوكا ، فيكون فى حال الذوق صاحب قدم ، وفى حال العلم صاحب نظر ، وفى حال فوق ذلك صاحب إيمان . قال الله تعالى ﴿ إن الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون ﴾ وصف الأبرار ووصف شرابهم ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون ﴾ فكان لشراب الأبرار مزج من شراب المقربين ، وللمقربين ذلك صرفا ، فللصوفى شراب صرف ، وللمتصوف من ذلك مزج فى شرابه ، وللمتشبه مزج من شراب المتصوف . فالصوفى سبق إلى مقار الروح من بساط القرب . والمتصوف بالنسبة إلى الصوفى كالمتزهد بالنسبة إلى الزاهد . لأنه تفعل وتعمل وتسبب . إشارة إلى ما بقى عليه من وصفه . فهو مجتهد فى طريقه سائر إلى ربه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سيروا ، سبق المفردون» قيل : من المفردون يارسول الله ؟ قال « المستترون بذكر الله وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا » فالصوفى فى مقام المفردين . والمتصوف فى مقام السائرين واصل فى سيره إلى مقار القلب من ذكر الله عز وجل ومراقبته بقلبه وتلذذه بنظره إلى نظر الله إليه : فالصوفى فى مقار الروح صاحب مشاهدة . والمتصوف فى مقار القلب

صاحب مراقبة ، والمتشبه فى مقاومة النفس صاحب مجاهدة وصاحب محاسبة ؛ فتلوين الصوفى بوجود قلبه . وتلوين المتصوف بوجود نفسه ، والمتشبه لا تلوين له لأن التلوين لأرباب الأحوال ، والمتشبه مجتهد سالك لم يصل بعد إلى الأحوال، والكل تجمعهم دائرة الاصطفا .. قال الله تعالى ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ قال بعضهم : الظالم الزاهد ، والمقتصد العارف ، والسابق المحب .

وقال بعضهم : الظالم الذى يجزع من البلاء ، والمقتصد الذى يصبر عندالبلاء ، والسابق بعد على الهبة والمنة . قال بعضهم : الظالم يعبد على الغفلة والعادة ، والمقتصد يعبد على الرغبة والرهبة . والسابق الذى يتلذذ بالبلاء . وقال بعضهم : الظالم يذكر الله بلسانه ، والمقتصد بقلبه ، والسابق لاينسى ربه . وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى رحمه الله : الظالم : صاحب الأقوال ، والمقتصد : صاحب الأفعال ، والسابق : صاحب الأحوال . وكل هذه الأقوال قريبة التناسب من حال الصوفى المتصوف والمتشبه ، وكلهم من أهل الفلاح والنجاح ، تجمعهم دائرة الاصطفاء ، وتؤلف بينهم نسبة التخصص بالمنح والعطاء .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أبو الخير أحمد بن اسمعيل القزوينى إجازة ، قال : أخبرنا أبو سعد محمد بن أبى العباس، قال أخبرنا القاضى محمد بن سعيد، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن إبراهيم ، قال أخبرنى الحسين بن محمد ابن فنجويه ، قال حدثنا أحمد بن محمد رزمة ، قال ، حدثنا يوسف بن عاصم الرازى ، قال حدثنا أبو أيوب سليمان بن داود ، قال حدثنا حصين بن نمير عن أبى ليلى عن أخيه عن أسامة بن زيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال فى قوله تعالى ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ « كلهم فى الجنة » .

قال ابن عطاء : الظالم : الذى يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذى يحب الله من أجل العقبى ، والسابق : هو الذى أسقط مراده بمراد الله فيه ، وهذا هو حال الصوفى ؛ فالمتشبه يعرض لشىء من أمر القوم ، يوجب له ذلك القرب منهم ، والقرب منهم مقدمة كل خير .

سمعت شيخنا يقول : جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد الغزالى ونحن بأصبهان يريد منه الخرقة ، فقال له الشيخ : اذهب إلى فلان يشير إلى حتى يكلمك فى معنى الخرقة ، ثم احضر حتى ألبسك الخرقة . قال : فجاء إلى فذكرت له حقوق الخرقة وما يجب من رعاية حقها وآداب من يلبسها ومن يؤهل للبسها ، فاستعظم الرجل حقوق الخرقة وجبن أن يلبسها . فأخبر الشيخ بما تجدد عند الطالب من قولى له ، فاستحضرنى وعاتبنى على قولى له ذلك وقال : بعثته إليك حتى تكلمه بما يزيد رغبته فى الخرقة . فكلمته بما فترت عزيمته ! ثم الذى ذكرته كله صحيح . وهو الذى يجب من حقوق الخرقة . ولكن إذا ألزمنا المبتدى بذلك نفر وعجز عن القيام به . فنحن نلبسه الخرقة حتى يتشبه بالقوم ويتزيى بزيهم فيقربه ذلك من مجالسهم ومحافلهم ، وببركة مخالطته معهم ونظره إلى أحوال القوم وسيرهم يجب أن يسلك مسلكهم ويصل بذلك إلى شىء من أحوالهم .

ويوافق هذا القول من الشيخ أحمد الغزالى ما أخبرنا شيخنا رحمه الله قال أخبرنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفار قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف قال أخبرنا الشيخ عبد الرحمن السلمى قال : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفرا يقول : سمعت أبا القاسم الجنيد يقول : إذا لقيت الفقير فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق ، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه . وبرفق الصوفية بالمتشبهين بهم ينتفع المبتدى الطالب . وكل من كان منهم أكمل حالا وأوفر علما كان أكثر رفقا بالمبتدى الطالب .

حكى عن بعضهم أنه صحبه طالب فكان يأخذ نفسه بكثرة المعاملات والمجاهدات ولم يقصد بذلك إلا نظر المبتدى إليه والتأدب بأدبه والاقتداء به فى عمله وهذا هو الرفق الذى مادخل فى شىء إلا زانه . فالمتشبه الحقيقى له إيمان بطريق القوم وعمل بمقتضاه وسلوك واجتهاد . على ماذكرناه أنه صاحب مجاهدة ومحاسبة . ثم يصير متصوفا صاحب مراقبة ثم يصير صوفيا صاحب مشاهدة . فأما من لم يتطلع إلى حال التصوف والصوفى بالتشبه ولا يقصد أوائل

مقاصدهم بل هو مجرد تشبه ظاهر من ظاهر اللبسة والمشاركة فى الزى والصورة دون السيرة والصفة . فليس بمتشبه بالصوفية . لأنه غير محاك لهم بالدخول فى بداياتهم ، فإذن هو متشبه يعتزى إلى القوم بمجرد لبسه ومع ذلك هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، وقد ورد « من تشبه بقوم فهو منهم » . أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى ، قال أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر ، قال حدثنا عمر بن أحمد بن أبى عاصم قال حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعى ، قال حدثنا على بن أحمد ، قال حدثنا على بن على المقدسى ، قال حدثنا محمد بن عبد الله بن عامر ، قال حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، قال حدثنا فضيل بن عياض عن سليمان الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن لله ملائكة فضلا عن كتاب الناس يطوفون فى الطرق ويتتبعون مجالس الذكر ، فإذا رأوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجاتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى عنان السماء ، فيقول الله وهو أعلم : مايقول عبادى ؟ قالوا يحمدونك ويسبحونك ويمدحونك ، فيقول : وهل رأونى ؟ فيقولون : لا ، فيقول : كيف لو رأونى ؟ قالوا : لو رأوك كانوا أشد تسبيحا وتحميدا وتمجيدا ، فيقول : مايسألونى ؟ قالوا : يسألونك الجنة ، فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ قالوا : لو رأوها كانوا أشد لها طلبا وعليها أكثر حرصا ، قالوا : ويتعوذون من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، فيقول كيف لو رأوها ؟ قالوا : كانوا أشد منها تعوذا وأشد فرارا ، فيقول أشهدكم أنى قد غفرت لهم ، فيقول الملك : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة ، فيقول تبارك وتعالى : هم الجلساء لا يشقى جليسهم » فلا يشقى جليس الصوفية والمتشبه بهم والمحب لهم.

الباب الثامن : فى ذكر الملامتى وشرح حاله

قال بعضهم : الملامتى هو الذى لا يظهر خيرا . ولا يضمر شرا ، وشرح هذا هو أن الملامتى تشربت عروقه طعم الإخلاص ، وتحقق بالصدق ، فلا يحب أن يطلع أحد على حاله وأعماله .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل المقدسى إجازة قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف الشيرازى إجازة قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال سمعت على بن سعيد وسألته عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سمعت على بن إبراهيم وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سمعت محمد بن جعفر الخصاف وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أبا يعقوب الشروطى عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أحمد بن على الجهمى عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت الحسن عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت حذيفة عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت رسول الله ﷺ عن الإخلاص ماهو ؟ قال « سألت جبرائيل عن الاخلاص ماهو ؟ قال . سألت رب العزة عن الإخلاص ماهو ؟ قال : هو سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى » .

فالملامتية لهم مزيد اختصاص بالتمسك بالإخلاص يرون كتم الأحوال والأعمال ويتلذذون بكتمها حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك كما يستوحش العاصى من ظهور معصيته فالملامتى عظم وقع الإخلاص وموضعه وتمسك به معتدا به والصوفى غاب فى إخلاصه عن إخلاصه قال أبو يعقوب السوسى : متى شهدوا فى إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى اخلاص . وقال ذو النون ثلاث من علامات الاخلاص استواء الذم والمدح من العامة ، ونسيان رؤية الأعمال فى الأعمال ، وترك اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا عثمان المغربى يقول : الإخلاص مالا يكون للنفس فيه حظ بحال ، وهذا إخلاص العوام ، وإخلاص الخواص ما يجرى عليهم لا بهم ، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد ، فذلك إخلاص ، وهذا الذى فصله الشيخ أبو عثمان المغربى يفرق بين الصوفى والملامتى ، لأن الملامتى أخرج الخلق من عمله وحاله ولكن أثبت

نفسه فهو مخلص ، والصوفى أخرج نفسه من عمله وحاله كما أخرج غيره فهو مخاص ، وشتان ما بين المخلص الخالص والمخلص.

قال أبو بكر الزقاق : نقصان كل مخلص فى إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون مخلصا لا مخلصا قال أبو سعيد الخراز : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين ومعنى قوله أن إخلاص المريدين معلول برؤية الإخلاص ، والعارف منزه عن الرياء الذى يبطل العمل ، ولكن لعله يظهر شيئا من حاله وعمله بعلم كامل عنده فيه لجذب مريد أو معاناة خلق من أخلاق النفس فى إظهار الحال والعمل والعارفين فى ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم ، فيرى ذلك ناقص العلم صورة رياء وليس برياء ، إنما هو صريح العلم لله بالله من غير حضور نفس ووجود آفة فيه .

قال رويم : الإخلاص أن لا يرضى صاحبه عليه عوضا فى الدارين ، ولا حظا من الملكين .

وقال بعضهم : صدق الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق ، والملامتى يرى الخلق فيخفى عمله وحاله وكل ما ذكرناه من قبل وصف إخلاص الصوفى ، ولهذا قال الزقاق : لا بد لكل مخلص من رؤية إخلاصه ، وهو نقصان عن كمال الإخلاص ، والإخلاص هو الذى يتولى الله حفظ صاحبه حتى يأتى به على التمام .

قال جعفر الخلدى : سألت أبا القاسم الجنيد رحمه الله ، قلت : أبين الاخلاص والصدق فرق؟ قال : نعم، الصدق أصل وهو الأول ، والإخلاص فرع وهو تابع ، وقال : بينهما فرق لأن الاخلاص لا يكون إلا بعد الدخول فى العمل ثم قال : إنما هو إخلاص ، ومخالصة الإخلاص ، وخالصة كائنة فى المخالصة ، فعلى هذا الإخلاص حال الملامتى ومخالصة الاخلاص حال الصوفى . والخالصة الكائنة من المخالصة ثمرة مخالصة الاخلاص وهو فناء العبد عن رسومه برؤية قيامه بقيومه ، بل غيبته عن رؤية قيامه وهو الاستغراق فى العين عن الآثار والتخلص عن لوث الاستتار وهو فقد حال الصوفى . والملامتى مقسم فى أوطان إخلاصه غير متطلع إلى حقيقة خلاصه ، وهذا فرق واضح بين الملامتى والصوفى ولم يزل فى خراسان منهم طائفة ولهم مشايخ يهدون أساسهم ويعرفونهم شروط حالهم. وقد رأينا فى العراق من يسلك هذا المسلك ولكن لم يشتهر بهذا الاسم ، وقلما يتداول ألسنة أهل العراق هذا الاسم .

حكى أن بعض الملامتية استدعى إلى سماع فامتنع ، فقيل له فى ذلك فقال : لأنى إن حضرت يظهر على وجد ولا أوثر أن يعلم أحد حالى .

وقيل : إن أحمد بن أبى الحوارى قال لأبى سليمان الدارانى : إنى إذا كنت فى الخلوة أجد لمعاملتى لذة لا أجدها بين الناس ، فقال له : إنك إذا لضعيف ، فالملامتى وإن كان متمسكا بعروة الاخلاص مستفرشا بساط الصدق ولكن بقى عليه بقية رؤية الخلق ، وما أحسنها من بقية تحقق الاخلاص والصدق ، والصوفى صفا من هذه البقية فى طرفى العمل والترك للخلق وعزلهم بالكلية ، ورآهم بعين الفناء والزوال ، ولاح له ناصية التوحيد ، وعاين سر قوله ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾ كما قال بعضهم فى بعض غلباته : ليس فى الدارين غير الله ، وقد يكون إخفاء الملامتى الحال على وجهين : أحد الوجهين لتحقيق الاخلاص والصدق ، والوجه الآخر وهو الأتم لستر الحال عن غيره بنوع غيرة ، فإن من خلا بمحبوبه يكره اطلاع الغير عليه ، بل يبلغ فى صدق المحبة أن يكره اطلاع أحد على حبه لمحبوبه ، وهذا وإن علا فى طريق الصوفى علة ونقص . فعلى هذا يتقدم الملامتى على المتصوف ويتأخر عن الصوفى .

وقيل : إن من أصول الملامتية أن الذكر على أربعة أقسام : ذكر باللسان . وذكر بالقلب . وذكر بالسر وذكر بالروح . فإذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر . وذلك ذكر المشاهدة . وإذا صح ذكر السر سكت القلب واللسان عن الذكر . وذلك الهيبة . وإذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر . وذلك ذكر الآلاء والنعماء . وإذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر وذلك ذكر العادة . ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة : فآفة ذكر الروح اطلاع السر عليه . وآفة ذكر السر اطلاع القلب عليه . وآفة ذكر القلب اطلاع النفس عليه . وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه . أو طلب ثوابه . أو ظن أنه يصل إلى شىء من المقامات

وأقل الناس قيمة عندهم من يريد إظهاره وإقبال الخلق عليه بذلك ، وسر هذا الأصل الذى بنوا عليه ان ذكر الروح ذكر الذات ، وذكر السر وذكر الصفات بزعمهم ، وذكر القلب من الآلاء والنعماء ذكر أثر الصفات، وذكر النفس متعرض للعلات ، فمعنى قولهم «اطلاع السر على الروح» يشيرون إلى التحقق بالفناء عند ذكر الذات وذكر الهيبة فى ذلك الوقت ذكر الصفات مشعر بنصيب الهيبة ، وهو وجود الهيبة ، ووجود الهيبة يستدعى وجودا وبقية ، وذلك يناقض حال الفناء ، وهكذا ذكر السر وجود هيبة وهو ذكر الصفات مشعر بنصيب القرب . وذكر القلب الذى هو ذكر الآلاء والنعماء مشعر ببعدما . لأنه اشتغال بذكر النعمة وذهول عن المنعم . والاشتغال برؤية العطاء عن رؤية المعطى ضرب من بعد المنزلة واطلاع النفس . نظرا إلى الأعواض اعتداد بوجود العمل . وذلك عين الاعتدال حقيقة وهذه أقسام هذه الطائفة : وبعضها أعلى من بعض . والله أعلم .

الباب التاسع : فى ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم

فمن أولئك قوم يسمون نفوسهم قلندرية تارة وملامتية أخرى . وقد ذكرنا حال الملامتى . وأنه حال شريف ومقام عزيز . وتمسك بالسنن والآثار . وتحقق بالاخلاص والصدق ، وليس مما يزعم المفتونون بشىء .

فأما القلندرية فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات ، وطرحوا التقييد بآداب المجالسات والمخالطات ، وساحوا فى ميادين طيبة قلوبهم ، فقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شىء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحا برخصة الشرع ، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة ولم يطلبوا حقائق العزيمة ، ومع ذلك هم متمسكون بترك الادخار ، وترك الجمع والاستكثار ، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين ، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلوب ، والفرق بين الملامتى والقلندرى : أن الملامتى يعمل فى كتم العبادات ، والقلندرى يعمل فى تخريب العادات ، والملامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه ولكن يخفى الأعمال والأحوال ويوقف نفسه موقف العوام فى هيئته وملبوسه وحركاته وأموره ، سترا للحال لئلا يفطن له ، وهو مع ذلك متطلع إلى طلب المزيد باذل مجهوده فى كل ما يتقرب به العبيد . والقلندرى لا يتقيد بهيئة ولا يبالى بما يعرف من حاله وما لا يعرف ولا ينعطف إلا على طيبة القلوب وهو رأس ماله ، والصوفى يضع الأشياء مواضعها ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم يقيم الخلق مقامه ويقيم أمر الحق مقامهم ، ويستر ما ينبغى أن يستر ويظهر ما ينبغى أن يظهر ، ويأتى بالأمور فى موضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق وإخلاص ، فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية وما هم من الصوفية بشىء ، بل هم فى غرور وغلط ، يتسترون بلبسة الصوفية توقيتا تارة ودعوى أخرى ، وينتهجون مناهج أهل الإباحة ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى ، ويقولون : هذا هو الظفر بالمراد ، والارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام والقاصرين الأفهام المنحصرين فى مضيق الاقتداء تقليدا ، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والابعاد ، فكل حقيقة ردتها الشريعة فهى زندقة ، وجهل هؤلاء المغرورون أن الشريعة حق العبودية ، والحقيقة هى حقيقة العبودية ، ومن صار من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية وصار مطالبا بأمور وزيادت لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك ، لا أنه يخلع عن عنقه ربقة التكاليف ويخامر باطنه الزيغ والتحريف .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو محمد الخطيب ، حدثنا أبو بكر بن محمد بن عمر، قال حدثنا أبو بكر بن أبى داود ، قال حدثنا أحمد بن صالح ، قال حدثنا عنبسة قال حدثنا يونس بن يزيد ، قال قال محمد يعنى الزهرى ، أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن عبدالله بن عتبة بن مسعود حدثه قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيرا أمناه وقربناه ، وليس إلينا من سريرته شىء ، الله تعالى يحاسبه فى

سريرته . ومن أظهر لنا سوى ذلك لم نأمنه وإن قال سريرتى حسنة وعنه أيضا رضى الله عنه قال : من عرض نفسه للتهم فلو يلومن من أساء به الظن ، فإذا رأينا متهاونا بحدود الشرع مهملا للصلوات المفروضات لا يعتد بحلاوة التلاوة والصوم والصلاة ويدخل فى المداخل المكروهة المحرمة ، نرده ولا نقبله ولا نقبل دعواه أن له سريرة صالحة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة عن عمر بن أحمد عن أبى خلف عن السلمى ، قال : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقول : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة ، فقال الرجل أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى،فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهذه عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا . وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه يرجعون فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من اعمال البر ذرة : إلا أن يحال بى دونها: وإنها لآكد فى معرفتى وأقوى لحالى . ومن جملة أولئك قوم يقولون بالحلول ويزعمون أن الله تعالى يحل فيهم ويحل فى أجسام يصطفيها ، ويسبق لأفهامهم معنى قول النصارى فى اللاهوت والناسوت . ومنهم من يستبيح النظر إلى المستحسنات إشارة إلى هذا الوهم ، ويتخايل له أن من قال كلمات فى بعض غلباته كان مضمر لشىء مما زعموه ، مثل قول الحلاج : أنا الحق . وما يحكى عن أبى يزيد من قوله : سبحانى ، حاشا أن يعتقد فى أبى يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى ، وهكذا ينبغى أن يعتقد فى قول الحلاج ذلك ، ولو علمنا أنه ذكر ذلك القول مضمر الشىء من الحلول رددناه كما يردهم . وقد أتانا رسول الله ﷺ بشريعة بيضاء نقية يستقيم بها كل معوج، وقد دلتنا عقولنا على ما يجوز وصف الله تعالى به وما لا يجوز ، والله تعالى منزه أن يحل به شىء أو يحل بشىء ، حتى لعل بعض المفتونين يكون عنده ذكاء وفطنة غريزية ، ويكون قد سمع كلمات تعلقت بباطنه فيتألف له فى فكرة كلمات ينسبها إلى الله تعالى وأنها مكالمة الله تعالى إياه ، مثل أن يقول : قال لى وقلت له ، وهذا رجل إما جاهل بنفسه وحديثها جاهل بربه وبكيفية المكالمة والمحاربة : وإما عالم ببطلان ما يقول . يحمله هواه على الدعوى بذلك ليوهم أنه ظفر بشىء ، وكل هذا ضلال ، ويكون سبب تجرئه على هذا ما سمع من كلام بعض المحققين مخاطبات وردت عليهم بعد طول معاملات لهم ظاهرة وباطنة ، وبمسكهم بأصول القوم من صدق التقوى وكمال الزهد فى الدنيا ، فلما صفت أسرارهم تشكلت فى سرائرهم مخاطبات موافقة للكتاب والسنة ، فنزلت بهم تلك المخاطبات عند استغراق السرائر ، ولا يكون ذلك كلاما يسمعونه بل كحديث فى النفس يجدونه برؤية موافقا للكتاب والسنة ، مفهوما عند أهله موافقا للعلم ، ويكون ذلك مناجاة لسرائرهم ومناجاة سرائرهم إياهم : فيثبتون لنفوسهم مقام العبودية ولمولاهم الربوبية ، فيضيفون ما يجدونه إلى نفوسهم وإلى مولاهم ، وهم مع ذلك عالمون بأن ذلك ليس كلام الله وإنما هو علم حادث أحدثه الله فى بواطنهم ، فطريق الأصحاء فى ذلك القرار إلى الله تعالى من كل ما تحدث نفوسهم به ، حتى إذا برئت ساحتهم من الهوى ألهموا فى بواطنهم شيئا ينسبونه إلى الله تعالى نسبة الحادث إلى المحدث لا نسبة الكلام إلى المتكلم لينصانوا عن الزيغ والتحريف . ومن أولئك قوم يزعمون أنهم يغرقون فى بحار التوحيد ولا يثبتون ويسقطون لنفوسهم حركة وفعلا يزعمون أنهم مجبورون على الأشياء وأن لا فعل لهم مع فعل الله ، ويسترسلون فى المعاصى وكل ما تدعو النفس إليه ، ويركنون إلى البطالة ودوام الغفلة والاغترار بالله والخروج من الملة وترك الحدود والأحكام والحلال والحرام .

وقد سئل سهل عن رجل يقول : أنا كالباب لا أتحرك إلا إذا حركت ، قال : هذا لا يقوله إلا أحد رجلين : إما صديق أو زنديق ، لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع إحكام الأصول ورعاية حدود العبودية ، والزنديق يقول ذلك إحالة للاشياء على الله وإسقاطا للائمة عن نفسه وانخلاعا عن الدين ورسمه فأما من كان معتقدا للحلال والحرام والحدود والأحكام ، معترفا بالمعصية إذا صدرت منه معتقد وجوب التوبة منها فهو

سليم صحيح ، وإن كان تحت القصور بما يركن إليه من البطالة ويتروح بهوى النفس إلى الأسفار والتردد فى البلاد ، متوصلا إلى تناول اللذائذ والشهوات ، غير مستمسك بشيخ يؤدبه ويبصره بعيب ماهو فيه ، والله الموفق .

الباب العاشر : فى شرح رتبة المشيخة

ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ «والذى نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم ، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده ، ويحببون عباد الله ، ويمشون على الأرض بالنصيحة» وهذا الذى ذكره رسول الله ﷺ هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى ، لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة ، ويحبب عباد الله إلى الله، ورتبة المشيخة من أعلى الرتب فى طريق الصوفية ونيابة النبوة فى الدعاء إلى الله . فأما وجه كون الشيخ يحبب إلى عباده ، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ ، ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى ؛ قال الله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ ووجه كونه يحبب عباد الله تعالى إليه : أنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب ، وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ، ولاح فيه جمال التوحيد ، وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم ورؤية الكمال الأزلى ، فأحب العبد ربه لامحالة ، وذلك ميراث التزكية . قال الله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ وفلاحها بالظفر بمعرفة الله تعالى ، وأيضا مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها ، ولاحت الآخرة ونفائسها بكنهها وغايتها ، فتنكشف للبصيرة حقيقة الدارين وحاصل المنزلين ، فيحب العبد الباقى ويزهد فى الفانى ، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة والتربية ، فالشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المريدين ويهدى به الطالبين .

اخبرنا أبوزوعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو الفضل عبد الواحد بن على بهمذان ، قال أخبرنا أبو بكر محمد ابن على بن أحمد الطوسى ، قال حدثنا أبو العباس محمد يعقوب ، قال حدثنا أبو عتبة ، قال حدثنا بقية ، قال حدثنا صفوان بن عمرو ، قال حدثنى الأزهر بن عبد الله ، قال قد سمعت عبد الله بن بشر صاحب رسول الله ﷺ قال : كان يقال إذا اجتمع عشرون رجلا أو أكثر ، فإن لم يكن فيهم من يهاب لله عزوجل ، فقد خطر الأمر ، فعلى المشايخ وقار الله ربهم يتأدب المريدون ظاهرا وباطنا ، قال الله تعالى ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ فالمشايخ لما اهتدوا أهلوا للاقتداء بهم وجعلوا أئمة المتقين ، قال رسول الله ﷺ حاكيا عن ربه : « إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى جعلت همته ولذته فى ذكرى ، فإذا جعلت همته ولذته فى ذكرى عشقنى وعشقته ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه ، لايسهوا إذا سها الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، وأولئك الأبطال حقا ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أوعذابا ذكرتهم فيها فصرفته بهم عنهم ، والسر فى وصول السالك إلى رتبة المشيخة أن السالك مأمور بسياسة مبتلى بصفاتها ، لايزال يسلك بصدق المعاملة حتى تطمئن نفسه ، وبطمأنيتها ينتزع عنها البرودة واليبوسه التى استصحبتها من أصل خلقتها وبها تستعصى على الطاعة والانقياد والعبودية ، فإذا زالت اليبوسة عنها ولانت بحرارة الروح الواصلة إليها ـ وهذا اللين هو الذى ذكره الله تعالى فى قوله ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ تعالى ـ تجيب إلى العبادة وتلين للطاعة عند ذلك ، وقلب العبد متوسط بين الروح والنفس ذو وجهين : أحد وجهيه إلى النفس والوجه الآخر إلى الروح ، يستمد من الروح بوجهه الذى يليه ، ويمد النفس بوجهه الذى يليها حتى تطمئن النفس ، فإذا اطمأنت نفس السالك وفرغ من سياستها انتهى سلوكه وتمكن من سياسه النفس ، وانقادت نفسه وقامت إلى أمر الله ، ثم القلب يشرئب إلى السياسة لما فيه من التوجه إلى النفس ، فتقوم نفوس المريدين الطالبين والصادقين عنده مقام نفسه ، لوجود الجنسية فى عين النفسية من وجه ، ولوجود التآلف بين الشيخ والمريد عن وجه التآلف الإلهى ، قال الله تعالى ﴿ لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ فيسوس نفوس المريدين كما كان يسوس نفسه من قبل ، ويكون فى الشيخ حينئذ معنى التخلق بأخلاق الله تعالى من معنى قول الله تعالى :

« ألا طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وإنى إلى لقائهم لأشدشوقا » ويماهياً الله تعالى من حسن التأليف بين الصاحب والمصحوب يصير المريد جزء الشيخ ، كاأن الولد جزء الوالد فى الولادة الطبيعية ، وتصير هذه الولادة آنفا ولادة معنوية كما ورد عن عيسى صلوات الله عليه « لن يلج ملكوت السماء من لم يولد مرتين » .

فبالولادة الاولى يصير له ارتباط بعالم الملك ، وبهذه الولادة يصير و ارتباط بالملكوت. قال الله تعالى ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ﴾ وصرف اليقين على الكمال يحصل فى هذه الولادة وبهذه الولادة يستحق ميراث الأنبياء ، ومن لم يصله ميراث الأنبياء ماولد وإن كان على كال من الفطنة والذكاء ، لأن الفطنة والذكاء نتيجة العقل ، والعقل إذا كان يابسا من نور الشرع لايدخل الملكوت ولا يزال مترددا فى الملك ، ولهذا وقف على برهان من العلوم الرياضة لأنه تصرف فى الملك ولم يرتق إلى الملكوت ، والملك : ظاهر الكون ، والملكوت : باطن الكون ، والعقل : لسان الروح ، والبصيرة التى منها تنبعث أشعة الهداية : قلب الروح ، واللسان: ترجمان القلب ، وكل ما ينطق به الترجمان معلوم عند من يترجم عنه ، وليس كل ماعند من يترجم عنه يبرز إلى الترجمان ، فلهذا المعنى حرم الواقفون مع مجرد العقول المعرية عن نور الهداية ـ الذى هو موهبة الله تعالى عند الانبياء وأتباعهم ـ الصواب ، وأسبل دونهم الحجاب لوقوفهم مع الترجمان وحرمانهم غاية التبيان ، وكما أن فى الولادة الطبيعية ذرات الاولاد فى صلب الاب مودعة ، تنتقل إلى أصلاب الاولاد بعد كل ولد ذرة وهى الذرات التى خاطبها الله تعالى يوم الميثاق بـ ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ حيث مسح ظهر آدم وهو ملقى ببطن نعمان بين مكة والطائف ، فسالت الذرات من مسام جسده كما يسيل العرق بعدد كل ولد من ولد آدم ذرة ، ثم لما خوطبت وأجابت ردت إلى ظهر آدم ، فمن الآباء من تنفذ الذرات فى صلبه ، ومنهم من لم يودع فى صلبه شىء فينقطع نسله ، وهكذا المشايخ : فمنهم من تكثر أولاده ويأخذون منه العلوم والأحوال ويودعونها غيرهم كما وصلت إليهم عن النبى صلى الله عليه وسلم بواسطة الصحبة ومنهم من تقل أولاده ، ومنهم من ينقطع نسله ، وهذا النسل هو الذى رد الله على الكفار حيث قالوا : محمد أبتر لا نسل له ، قال الله تعالى ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ وإلا فنسل رسول الله ﷺ باق إلى أن تقوم الساعة . وبالنسبة المعنوية يصل ميراث العلم إلى أهل العلم .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن المالينى قال : أخبرنا أبو الحسن الداودى ، قال أخبرنا محمد الحموى ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندى قال أخبرنا أبو محمد الدارمى قال أخبرنا نصر بن على قال حدثنا عبد الله بن داود عن عاصم عن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس قال كنت جالسا مع أبى الدرداء فى مسجد دمشق ، فأتاه رجل فقال : ياأبا الدرداء إنى أتيتك من المدينة مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغنى عنك أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ . قال : فماجاء بك تجارة ؟ قال : لا : ولاجاء بك غيره ؟ قال : لا ؛ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من سلك طريقا يلتمس به علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له من فى السماء والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما أورثوا العلم . فمن أخذ به أخذ بحظه أو بحظ وافر » فأول ماأودعت الحكمة والعلم عند آدم أبى البشر عليه السلام ، ثم انتقل منه كما انتقل منه النسيان والعصيان وماتدعو إليه النفس والشيطان ، كما ورد « إن الله تعالى أمر جبرائيل حتى أخذ قبضة من أجزاء الارض ، والله تعالى نظر إلى الاجزاء الارضية التى كونها من الجوهرة التى خلقها أولا فصار من موانع نظر الله إليها فيها خاصية السماع من الله تعالى والجواب . حيث خاطب السموات والارضين بقوله ﴿ ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ فحملت أجزاء الارض بهذا الخطاب خاصية ؛ ثم انتزعت هذه الخاصية منها بأخذ أجزائها لتركيب صورة آدم فركب جسد آدم من أجزاء أرضية محتوية على هذه الخاصية فمن حيث نسبة أجزاء الارض تركب فيه الهوى . حتى مد يده إلى شجرة الفناء

وهي شجرة الحنطة في أكثر الأقاويل. فتطرق لقالب الفناء، وبإكرام الله إياه بنفخ الروح الذي أخبر عنه بقوله ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ قال: العلم والحكمة، فبالتسوية صار ذا نفس منفوسة وبنفخ الروح صار ذا روح روحاني، وشرح هذا يطول، فصار قلبه معدن الحكمة، وقالبه معدن الهوى، فانتقل منه العلم والهوى وصار ميراثه في ولده؛ فصار من طريق الولادة أبا بواسطة الطبائع التي هي محتد الهوى، ومن طريق الولادة المعنوية أبا بواسطة العلم فالولادة الظاهرة تطرق إليها الفناء، والولادة المعنوية محمية من الفناء، لأنها وجدت من شجرة الخلد، وهي شجرة العلم لا شجرة الحنطة التي سماها إبليس شجرة الخلد: فإبليس يرى الشيء بضده فتبين أن الشيخ هو الاب معنى: وكثيراً كان شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله يقول: ولدى من سلك طريقي واهتدى بهديي! فالشيخ الذي يكتسب بطريقة الاحوال قد يكون مأخوذا في طريق في ابتدائه في طريق المحبين، وقد يكون مأخوذا في طريق المحبوبين، وذلك أن أمر الصالحين والسالكين ينقسم أربعة أقسام: سالك مجرد! ومجذوب مجرد! وسالك متدارك بالجذبة، ومجذوب متدارك بالسلوك. فالسالك المجرد لا يؤهل للشيخة ولا يبلغها لبقاء صفات نفسه عليه فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام المعاملة والرياضة ولا يرتقي إلى حال يروح بها عن وهج المكابدة. والمجذوب المجرد من غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين ويرفع عن قلبه شيئاً من الحجاب ولا يؤخذ في طريق المعاملة والمعاملة أثر تام سوف نشرحه في موضعه إن شاء الله تعالى وهذا أيضا لا يؤهل المشيخة ويقف عند حظه من الله مروحا بحاله، غير مأخوذ في طريق أعماله ماعدا الفريضة. والسالك الذي تدورك بالجذبة هو الذي كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشروط ثم أخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال، فوجد العسل بعد العلقم. وتروح بنسمات الفضل. وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهلة. وأونس بنفحات القرب. وفتح له باب من المشاهدة فوجد دواءه وفاض وعاؤه. وصدرت منه كلمات الحكمة ومالت إليه القلوب. وتوالى عليه فتوح الغيب وصار ظاهره مسددا وباطنه مشاهداً. وصلح للخلوة وصار له في جلوته خلوة. فيغلب ولا يغلب. ويفترس. ولا يفترس. يؤهل مثل هذا للمشيخة. لأنه أخذ في طريق المحبين. ومنح حالا من أحوال المقربين. بعدما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين. ويكون له أتباع ينتقل منه إليهم علوم. ويظهر بطريقه بركة. ولكن قد يكون محبوسا في حاله محكما حاله فيه لا يطلق من وثاق الحال. ولا يبلغ كمال النوال. يقف عند حظه وهو حظ وافر سني. والذين أوتو العلم درجات. ولكن المقام الأكمل في المشيخة القسم الرابع — وهو المجذوب المتدارك بالسلوك يبادئه الحق بالكشوف وأنوار اليقين. ويرفع عن قلبه الحجب. ويستنير بأنوار المشاهدة، وينشرح وينفسخ قلبه ويتجافى عن دار الغرور وينيب إلى دار الخلود. ويرتوي من بحر الحال، ويتخلص من الأغلال والأعلال. ويقول معلنا: لا أعبد ربا لم أره. ثم يفيض من باطنه على ظاهره. وتجري عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء. بل بلذاذة وهناء. ويصير قالبه بصفة قلبه: لامتلاء قلبه بحب ربه. ويلين جلده كما لان قلبه. وعلامة لين جلده إجابة قالبه للعمل كإجابة قلبه. فيزيده الله تعالى إرادة خاصة. ويرزقه محبة خاصة من محبة المحبوبين المرادين: ينقطع فيواصل ويعرض عنه فيراسل. يذهب عنه جمود النفس: ويصطلي بحرارة الروح. وتنكمش عن قلبه عروق النفس. قال الله تعالى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ أخبر أن الجلود تلين كما أن القلوب تلين. ولا يكون هذا إلا حال المحبوب المراد. وقد ورد في الخبر: أن إبليس سأل السبيل إلى القلب. فقيل له: يحرم عليك ولكن السبيل لك في مجاري العروق المشتبكة بالنفس إلى حد القلب. وإذا دخلت العروق عرقت فيها من ضيق مجاريها. وامتزج عرقك بماء الرحمة المترشح من جانب القلب في مجرى واحد. ويصل بذلك سلطانك إلى القلب. ومن جملته نبيا أو ولياً قلعت تلك العروق من باطن قلبه فيصير القلب سليما. فإذا دخلت العروق لم تصل إلى المشتبكة بالقلب فلا يصل إلى القلب سلطانك: فالمحبوب المراد الذي أهل للمشيخة سلم قلبه وانشرح صدره ولان جلده فصار قلبه بطبع الروح ونفسه بطبع القلب. ولانت النفس بعد أن كانت أمارة

بالسوء مستعصية ولان الجلد للين النفس ورد إلى صورة الاعمال بعدوجدان الحال . ولا يزال روحه ينجذب إلى الحضرة الهية فيستتبع الروح القلب وتستتبع القلب النفس ويستتبع النفس القالب : فامتزجت الاعمال القلبية والقالبية، وانخرق الظاهر إلى الباطن والباطن إلى الظاهر ، والقدرة إلى الحكمة والحكمة إلى القدرة ،والدنيا الى الآخرة والآخرة إلى الدنيا : ويصح له أن يقول : لو كشف الغطاء ماازددت يقينا ، فعند ذلك يطلق من وثاق الحال ويكون مسيطراً على الحال لاالحال مسيطراعليه ! ويصير حرا من كل وجه ، والشيخ الاول الذى أخذ طريق المحبين حر من رق النفس ، ولكن ربما كان باقيا فى رق القلب، وهذا الشيخ فى طريق المحبوبين حر من رق القلب كما هو حرمن رق النفس . وذلك أن النفس حجاب ظلمانى أرضى أعتق منه الاول والقلب حجاب نورانى سماوى أعتق منه الآخر فصار لربه لالقلبه ولوقته لالوقته ! فعبد الله حقا وآمن به صدقا ويسجد لله سواده وخياله ، ويؤمن به فؤاده ويقر به بلسانه ، كما قال رسول الله ﷺ فى بعض سجوده ، ولا يتخلف عن العبودية منه شعرة، وتصير عبادته مشاكلة لعبادة الملائكة ﴿ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ .

فالقوالب هى ظلال الساجدة ، ظلال الارواح المقربة فى عالم الشهادة : الاصل كشف والظل لطيف ، وفى عالم الغيب : الاصل لطيف والظل كشف ، فيسجد لطيف العبد وكثيفه ، وليس هذا لمن أخذ فى طريق المحبين لانه يستتبع صور الاعمال ويبلى بما أنيل من وجدان الحال ، وذلك قصور فى العلم وقلة فى الحظ ، ولو كثر العلم رأى ارتباط الاعمال بالاحوال كارتباط الروح بالجسد ، ورأى أن لاغنى عن الأعمال كما لاغنى فى عالم الشهادة من القوالب فما دامت القوالب باقية فالعمل باق ، ومن صح فى المقام الذى وصفناه هو الشيخ المطلق والعارف المحقق والمحبوب المعتق ، نظره دواء وكلامه شفاء ، بالله ينطق وبالله يسكت . كما ورد « ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا ، بى ينطق وبى يبصر» الحديث ، فالشيخ يعطى بالله ويمنع بالله، فلا رغبة له فى عطاء ومنع لعينه ، بل هو مع مراد الحق والحق يعرفه مراده ، فيكون فى الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد نفسه ، فإن علم أن الله تعالى يريد منه الدخول فى صورة محمودة دخل فيها لمراد الله تعالى لا لكون الصورة محمودة ، بخلاف الخادم القائم بواجب خدمة عبادة الله تعالى .

الباب الحادى عشر : فى شرح حال الخادم ومن يتشبه به

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام وقال : ياداود إذا رأيت لى طالبا فكن له خادما ، الخادم يدخل فى الخدمة راغبا فى الثواب وفيما أعدالله تعالى للعباد ، ويتصدى لإيصال الراحة ويفرغ خاطر المقبلين على الله تعالى عن مهام معاشهم ويفعل مايفعله لله تعالى بنية صالحة ، فالشيخ واقف مع مراد الله تعالى ، والخادم واقف مع نيته ، فالخادم يفعل الشىء لله تعالى ، والشيخ يفعل الشىء بالله فالشيخ فى مقام المقربين ، والخادم فى مقام الأبرار ! فيختار الخادم البذل والإيثار والارتفاق من الأغيار للأغيار ، ووظيفة تصديه لخدمة عباد الله وفيه يعرف الفضل ويرجحه على نوافله وأعماله ، وقديقيم من لايعرف الخادم من الشيخ الخادم مقام الشيخ ، وربما جهل الخادم أيضا حال نفسه فيحسب نفسه شيخا لقلة العلم واندراس علوم القوم فى هذا الزمان ، وقناعة كثير من الفقراء من المشايخ باللقمة دون العلم والحال ، فكل من كان أكثر إطعاما هو عندهم أحق بالمشيخة ولا يعلمون أنه خادم وليس بشيخ ، والخادم فى مقام حسن وحظ صالح من الله تعالى ، وقدورد مايدل على فضل الخادم فيما أخبرنا الشيخ أبوزرعة بن الحافظ أبى الفضل محمد بن طاهر المقدسى عن أبيه ، قال أخبرنا أبو محمد بن عبد الله المقرى ، قال حدثنا أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوى . قال حدثنا أبو حامد الحافظ ، قال حدثنا العباس بن محمد الدورى وأبوالأزهر، قالا حدثنا أبو داود ، قال حدثنا سفيان عن الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بطعام وهو بمر الظهران فقال لأبى بكر وعمر : كلا ، فقالا : إنا صائمان ! فقال : ارحلا لصاحبيكما اعملا لصبيكما

ادنو فكلا يعنى أنكما صمتما بالصوم عن الخدمة فاحتجتما إلى من يخدمكما فكلا واخدما أنفسكما فالخادم يحرص على حيازة الفضل ، فيتوصل بالكسب تارة ، وبالاسترقاق تارة أخرى ، وباستجلاب الوقف إلى نفسه تارة ، لعلمه أنه قيم بذلك . صالح لايصاله إلى الموقوف عليهم ولا يبالى أن يدخل فى كل مدخل لا يذمه الشرع لحيازة الفضل بالخدمة ويرى الشيخ بنفوذ البصيرة وقوة العلم أن الانفاق يحتاج إلى علم تام ومعاناة تخليص النية عن شوائب النفس والشهوة الخفية ؛ ولو خلصت نيته مارغب فى ذلك ، لوجود مراده فيه ، وحاله ترك المراد وإقامة مراد الحق .

أخبرنا أبو زرعة إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت محمد بن الحسين بن الخشاب يقول سمعت جعفر بن محمد يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى يقول : أعرف طريقا مختصر قصدا إلى الجنة ، فقلت له : ماهو ، قال : لاتسأل من أحد شيئا ولا تأخذ من أحد شيئا ولا يكن معك شىء تعطى منه أحدا شيئا . والخادم يرى أن من طريق الجنة الخدمة والبذل والايثار فيقدم الخدمة على النوافل ويرى فضلها ، وللخدمة فضل على النافلة التى يأتى بها العبد طالبا بها الثواب غير النافلة التى يتوخى بها صحة حاله مع الله تعالى لوجود نقد قبل وعد .

ومما يدل على فضل الخدمة على النافلة ما أخبرنا أبو زرعة قال أخبرنى والدى الحافظ المقدسى ، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد السمسار بأصفهان ، قال أخبرنا إبراهيم بن عبدالله بن خرشيد ، قال حدثنا الحسين بن اسماعيل المحاملى قال حدثنا أبو السائب ، قال حدثنا أبو معاوية ، قال حدثنا عاصم عن مورق عن أنس قال : كنا مع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ومنا المفطر ، فنزلنا منزلا فى يوم حار شديد الحر ، فمنا من يتقى الشمس بيده ، وأكثرنا ظلا صاحب الكساء يستظل به فنام الصائمون ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال ﷺ « ذهب المفطرون اليوم بالأجر » وهذا حديث يدل على فضل الخدمة على النافلة والخادم له مقام عزيز يرغب فيه ، فأما من لم يعرف تخليص النية من شوائب النفس ويتشبه بالخادم ويتصدى لخدمة الفقراء ويدخل فى مداخل الخدام بحسن الارادة بطلب التأسى بالخدام ، فتكون خدمته مشوبة ، منها مايصيب فيها لموضع إيمانه وحسن إرادته فى خدمة القوم ، ومنها مالا يصيب فيها لما فيه من مزج الهوى فيضع الشىء فى غير موضعه ، وقد يخدم بهواه فى بعض تصاريفه ، ويخدم من لايستحق الخدمة فى بعض أوقاته ، ويحب المحمدة والثناء من الخلق مع ما يحب من الثواب ورضا الله تعالى ، وربما خدم للثناء وربما امتنع من الخدمة لوجود هوى يخامره فى حق من يلقاه بمكروه ، ولا يراعى واجب الخدمة فى طرفى الرضا والغضب لانحراف مزاج قلبه بوجود الهوى ، والخادم لايتبع الهوى فى الخدمة فى الرضا والغضب ، ولا يأخذه الله لومة لائم ويضع الشىء موضعه ، فإذا الشخص الذى وصفناه آنفا متخادم وليس بخادم ، ولا يميز بين الخادم والمتخادم إلا من له علم بصحة النيات وتخليصها من شوائب الهوى والمتخادم النجيب يبلغ ثواب الخادم فى كثير من تصاريفه ولا يبلغ رتبته لتخلفه عن حاله بوجود مزج هواه ، وأما من أقيم لخدمة الفقراء بتسليم وقف إليه أو توفير رفق عليه وهو يخدم لمنال يصيبه أو حظ عاجل يدركه ، فهو فى الخدمة لنفسه لا لغيره فلو انقطع رفقه ماخدم . وربما استخدم من يخدم ، فهو مع حظ نفسه يخدم من يخدمه ، ويحتاج إليه فى المحافل يتكثر به ويقيم به جاه نفسه بكثرة الأتباع والأشياع ، فهو وطالب دنياه ، يحرص نهاره وليله فى تحصيل مايقيم به جاهه ويرضى نفسه وأهله وولده ، فيتسع فى الدنيا بغير ذى الخدام والفقراء وتنتشر نفسه بطلب الحظوظ ويستولى عليه حب الرياسة ، وكلما كثر رفقه كثرت مواد هواه واستطال على الفقراء إلى التملق المفرط له تطلبا لرضاه وتوقيا لضيمه وميله عليهم بالقطع ما ينو بهم من الوقف ، فهذا أحسن حاله أن يسمى مستخدما ، فليس بخادم ولا متخادم ، ومع ذلك كله ربما نال بركتهم باختياره خدمتهم على خدمة غيرهم وبانتمائه اليهم ، وقد أوردنا الخبر المسند الذى فى سياقه « هم القوم لايشقى بهم جليسهم » والله الموفق والمعين .

الباب الثانى عشر : فى شرح خدمة المشايخ الصوفية

لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد ، وتحكيم من المريد للشيخ فى نفسه والتحكيم سائغ فى الشرع لمصالح دنيوية فماذا ينكر المنكر للبس الخرقة على طالب صادق فى طلبه يتقصد شيخا بحسن ظن ، وعقيد يحكمه فى نفسه لمصالح دينه يرشده ويهديه ويعرفه طريق المواجيد ويبصره بآفات النفوس وفساد الأعمال ومداخل العدو ، فيسلم نفسه إليه ويستسلم لرأيه واستصوابه فى جميع تصاريفه ، فيلبسه الخرقة إظهارا للتصرف فيه ؛ فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم ودخوله فى حكم الله وحكم رسوله وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله ﷺ .

أخبرنا أبو زرعة قال أخبرنى والدى الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد البزار ، قال أخبرنا أحمد بن محمد أخى ميمى ، قال حدثنا يحى بن محمد بن صاعد قال حدثنا عمرو بن على بن حفظة ، قال سمعت عبد الوهاب الثقفى يقول سمعت يحى بن سعيد يقول : حدثنى عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال أخبرنى أبى عن أبيه قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع فى العسر واليسر والمنشط والمكروه ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق حيث كنا ولا نخاف فى الله لومة لائم . ففى الخرقة معنى المبايعة ، والخرقة عتبة الدخول فى الصحبة والمقصود الكلى هو الصحبة ، وبالصحبة يرجى للمريد كل خير .

وروى عن أبى يزيد أنه قال : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .

وحكى الأستاذ أبو القاسم القشيرى عن شيخه أبى على الدقاق أنه قال : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولا تثمر ، وهو كما قال ، ويجوز أنها تثمر كالأشجار التى فى الأودية والجبال . ولكن لا يكون لفاكهتها طعم فاكهة البساتين . والغرس إذا نقل من موضع إلى موضع آخر ، يكون أحسن حالا وأكثر ثمرة لدخول التصرف فيه ، وقد اعتبر الشرع وجود التعليم فى الكلب المعلم ، وأحل ما يقتله بخلاف غير المعلم

وسمعت كثيرا من المشايخ يقولون : من لم ير مفلحا لا يفلح ، ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، وأصحاب رسول الله ﷺ تلقوا العلوم والآداب من رسول الله ﷺ ، كما روى عن بعض الصحابة : علمنا رسول الله ﷺ كل شىء حتى الخراءة ، فالمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتأدب بآدابه ، يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج ، وكلام الشيخ يلقح باطن المريد ويكون مقال الشيخ مستودع نفائس الحال ، وينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال ، ولا يكون هذا إلا لمريد حصر نفسه مع الشيخ وانسلخ من إرادة نفسه وفنى فى الشيخ بترك اختيار نفسه ، فبالتآلف الإلهى يصير بين الصاحب والمصحوب امتزاج وارتباط بالنسبة الروحية والطهارة الفطرية ، ثم لا يزال المريد مع الشيخ كذلك متأدبا بترك الاختيار ، حتى يرتقى من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله تعالى ، ويفهم من الله كما كان يفهم من الشيخ ، ومبدأ هذا الخير كله الصحبة والملازمة للشيوخ ، والخرقة مقدمة ذلك ، ووجه لبس الخرقة من السنة ما أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ أبى الفضل المقدسى ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الأديب النيسابورى ، قال أخبرنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ ، قال أخبرنا محمد بن إسحق ، قال أخبرنا أبو مسلم إبراهيم ابن عبد الله المصرى ، قال حدثنا أبو الوليد ، قال حدثنا إسحق بن سعيد ، قال حدثنا أبى ، قال حدثتنى أم خالد بنت خالد قالت : أتى النبى ﷺ بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة فقال : من ترون أكسو هذه ؟ فسكت القوم . فقال رسول الله ﷺ : ائتونى بأم خالد ، قالت : فأتى فألبسنها بيده فقال : أبلى وأخلقى ، يقولها مرتين ، وجعل ينظر إلى علم فى الخميصة أصفر وأحمر ويقول : ياأم خالد هذا سناه ـ والسناه هو الحسن بلسان الحبشة ـ ولا خفاء أن لبس الخرقة على الهيئة التى تعتمدها الشيوخ فى هذا الزمان لم يكن فى زمن رسول الله ﷺ ، وهذه الهيئة

والاجتماع والاعتداد بها من استحسان الشيوخ : وأصله من الحديث ماورويناه ، والشاهد لذلك أيضا التحكيم الذى ذكرناه : وأى اقتداء برسول الله ﷺ أتم وآكد من الاقتداء به فى دعاء الخلق إلى الحق . وقد ذكر الله تعالى فى كلامه القديم تحكيم الأمة رسول الله ﷺ وتحكيم المريد شيخه إحياء سنة ذلك التحكيم . قال الله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ وسبب نزول هذه الآية : أن الزبير بن العوام رضى الله عنه اختصم هو وآخر إلى رسول الله ﷺ فى شراج من الحرة ـ والشراج مسيل الماء كانا يسقيان به النخل : فقال النبى عليه الصلاة والسلام للزبير : اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك ، فغضب الرجل وقال : قضى رسول الله لابن عمته . فأنزل الله تعالى هذه الآية يعسم فيها الأدب مع رسول الله ﷺ ، وشرط عليهم فى الآية التسليم وهو الانقياد ظاهراً ونفس الحرج وهو الانقياد باطنا ، وهذا شرط المريد مع الشيخ بعد التحكيم : فلبس الخرقة يزيل اتهام الشيخ عن باطنه فى جميع تصاريفه ويحذر الاعتراض على الشيوخ فإنه السم القاتل للمريدين . وقل أن يكون المريد يعترض على الشيخ بباطنه فيفلح، ويذكر المريد فى كل ما أشكل عليه من تصاريف الشيخ قصة موسى مع الخضر عليه السلام كيف كان يصدر من الخضر تصاريف ينكرها موسى . ثم لما كشف له عن معناها بان لموسى وجه الصواب فى ذلك: فهكذا ينبغى للمريد أن يعلم أن كل تصرف أشكل عليه صحته من الشيخ عند الشيخ فيه بيان وبرهان للصحة . ويد الشيخ فى لبس الخرقة تنوب عن يد رسول الله ﷺ . وتسليم المريد له تسليم لله ورسوله . قال الله تعالى ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ ويأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقة ويعرفه حقوق الخرقة فالشيخ للمريد صورة يستشف المريد من وراء هذه الصورة المطالبات الإلهية والمراضى النبوية . ويعتقد المريد أن الشيخ باب فتحه الله تعالى إلى جناب كرمه . منه يدخل . وإليه يرجع . وينزل بالشيخ سوانحه ومهامه الدينية والدنيوية ويعتقد أن الشيخ ينزل بالله الكريم ماينزل المريد به . ويرجع فى ذلك إلى الله المريد كما يرجع المريد إليه. والشيخ باب مفتوح من المكالمة والمحادثة فى النوم واليقظة فلا يتصرف الشيخ فى المريد بهواه فهو أمانة الله عنده. ويستغيث إلى الله بحوائج المريد كما يستغيث بحوائج نفسه ومهام دينه ودنياه . قال الله تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ﴾ فإرسال الرسول يختص بالأنبياء والوحى كذلك . والكلام من وراء حجاب بالإلهام والهواتف والمنام وغير ذلك للشيوخ والراسخين فى العلم .

واعلم أن للمريدين مع الشيوخ أوان ارتضاع وأوان فطام . وقد سبق شرح الولادة المعنوية . فأوان الارتضاع أوان لزوم الصحبة والشيخ يعلم وقت ذلك : فلا ينبغى للمريد أن يفارق الشيخ إلا بإذنه . قال الله تعالى تأديبا للأمة ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ وأى أمر جامع أعظم من أمر الدين ، فلا يأذن الشيخ لمريد فى المفارقة إلا بعد علمه بأن آن له أوان الفطام ، وأنه يقدر أن يستقل بنفسه ، واستقلاله بنفسه أن يفتح له باب الفهم من الله تعالى ، فإذا بلغ المريد رتبة إنزال الحوائج والمهام بالله والفهم من الله تعالى بتعريفاته وتنبيهاته سبحانه وتعالى لعبده السائل المحتاج فقد بلغ أوان فطامه ، ومتى فارق قبل أوان الفطام يناله من الإعلال فى الطريق بالرجوع إلى الدنيا ومتابعة الهوى ماينال المفطوم لغير أوانه فى الولادة الطبيعية ، وهذا التلازم بصحة المشايخ للمريد الحقيقى ، والمريد الحقيقى يلبس خرقة الإرادة .

واعلم أن الخرقة خرقتان : خرقة الارادة ، وخرقة التبرك : والأصل الذى قصده المشايخ للمريدين خرقة الإرادة وخرقة التبرك تشبه خرقة الإرادة ، فخرقة الإرادة للمريد الحقيقى ، وخرقة التبرك للمتشبه ، ومن تشبه بقوم فهو منهم وسر الخرقة أن للطالب الصادق إذا دخل فى صحبة الشيخ وسلم بنفسه وصار كالولد الصغير مع الوالد يربيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى بصدق الافتقار وحسن الاستقامة ، ويكون للشيخ بنفوذ بصيرته الإشراف على البواطن ، فقد

يكون المريد يلبس الخشن كثياب المتقشفين المتزهدين وله فى تلك الهيئة من الملبوس هوى كامن فى نفسه ليرى بعين الزهادة ، فأشد ماعليه لبس الناعم وللنفس هوى واختيار فى هيئة مخصوصة من الملبوس فى قصر الكم والذيل وطوله وخشونته ونعومته على قدر حسبانها وهواها ، فليس الشيخ مثل هذا الراكن لتلك الهيئة ثوبا يكسر بذلك على نفسه هواها وغرضها ، وقد يكون على المريد ملبوس ناعم أوهيئة فى الملبوس تشرئب النفس إلى تلك الهيئة بالعبادة ، فيلبسه الشيخ ما يخرج النفس من عادتها وهواها ، فتصرف الشيخ فى الملبوس كتصرفه فى المطعوم ، وكتصرفه فى صوم المريد وإفطاره وكتصرفه فى أمر دينه ، إلى ما يرى له من المصلحة من دوام الذكر ودوام التنفل فى الصلاة ودوام التلاوة ودوام الخدمة ، وكتصرفه فيه برده إلى الكسب أو الفتوح أو غير ذلك : فللشيخ إشراف على البواطن وتنوع الاستعدادات ، فيأمر كل مريد من أمره معاشه ومعاده بما يصلح له ، ولتنوع الاستعدادات تنوعت مراتب الدعوة . قال الله تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ فالحكمة رتبة فى الدعوة، والموعظة كذلك ، والمجادلة كذلك ، فمن يدعى بالحكمة لايدعى بالموعظة لاتصلح دعوته بالحكمة ، فهكذا الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار ، ومن هو على وضع المقربين ، ومن يصلح لدوام الذكر ومن يصلح لدوام الصلاة ، ومن له هوى فى التخشن أو فى التنعم ، فيخلع المريد من عادته ويخرجه من مضيق هوى نفسه ، ويطعمه باختياره، ويلبسه باختياره ثوبا يصلح له وهيئة تصلح له ، ويداوى بالخرقة المخصوصه والهيئة المخصوصة داء هواه ، ويتوخى بذلك تقريبه إلى رضا مولاه ، فالمريد الصادق الملهب باطنه بنار الإرادة فى بدء أمره وحدة إرادته كالملسوع الحريص على من يرقيه ويداويه ، فإذا صادف شيخا انبعث من باطن الشيخ صدق العناية به لاطلاعه عليه ، وينبعث من باطن المريد صدق المحبة بتألف القلوب وتشاور الأرواح وظهور سر السابقة فهما باجتماعهما لله وفى الله وبالله ، فيكون القميص الذى يلبس المريد خرقة تبشر المريد بحسن عناية الشيخ به فيعمل عند المريد عمل قميص يوسف عند يعقوب عليهما السلام :

وقد نقل أن ابراهيم الخليل عليه السلام حين ألقى فى النار جرد من ثيابه وقذف فى النار عريانا ، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه ، وكان ذلك عند إبراهيم عليه السلام ، فلما مات ورثه إسحق ، فلما مات ورثه يعقوب فجعل يضرب عليه السلام ذلك القميص فى تعويذ ، وجعله فى عنق يوسف فكان لا يفارقه لما ألقى فى البئر عريانا جاءه جبريل وكان عليه التعويذ فأخرج القميص منه وألبسه إياه .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن إسمعيل القزوينى إجازة ، قال أبو سعد محمد بن أبى العباس ، قال أخبرنا القاضى محمد بن سعيد ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد . قال أخبرنى ابن فنجويه الحسين بن محمد قال حدثنا مخلد بن جعفر قال حدثنا الحسن بن علويه . قال حدثنا إسمعيل بن عيسى ، قال حدثنا إسحق بن بشر عن ابن السدى عن أبيه عن مجاهد قال : كان يوسف عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن لا يعلم أن قميصه لايرد على يعقوب بصره ، ولكن ذلك كان قميص إبراهيم ، وذكر ماذكرناه . قال : فأمره جبرائيل أن أرسل بقميصك فإن فيه ريح الجنة لايقع على مبتلى أو سقيم إلا صح وعوفى . فتكون الخرقة عند المريد الصادق متحملة اليه عرف الجنة . لما عنده من الاعتداد بالصحبة لله . ويرى لبس الخرقة من عناية الله به وفضل من الله فأما خرقة التبرك فيطلبها من مقصوده التبرك بزى القوم . ومثل هذا لايطالب بشرائط الصحبة بل يوصى بلزوم حدود الشرع ومخالطة هذه الطائفة . لتعود عليه بركتهم ويتأدب بآدابهم . فسوف يرقيه ذلك إلى الأهلية لخرقة الإرادة ، فعلى هذا خرقة التبرك مبذولة لكل طالب وخرقة الإرادة ممنوعة إلا من الصادق الراغب . ولبس الأزرق من استحسان الشيوخ فى الخرقة . فإن رأى شيخ أن يلبس مريدا غير الأزرق فليس لأحد أن يعترض عليه . لأن المشايخ آراؤهم فيما يفعلون بحكم الوقت وكان شيخنا يقول : كان الفقير يلبس قصير الأكمام ليكون أعون على الخدمة ويجوز للشيخ أن يلبس المريد خرقا فى دفعات على قدر مايتلمح من المصلحة للمريد فى ذلك على ماأسلفناه من تداوى هواه فى الملبوس والملون ، فيختار الأزرق

لأنه أرفق للفقير لكونه يحمل الوسخ ولا يحوج إلى زيادة الغسل لهذا المعنى فحسب ، وما عدا هذا من الوجوه التى يذكرها بعض المتصوفة فى ذلك كلام إقناعى من كلام المتصنعين ليس من الدين والحقيقة بشىء .

سمعت الشيخ سديد الدين أبا الفخر الهمدانى رحمه الله قال : كنت ببغداد عند أبى بكر الشروطى ، فخرج الينا فقير من زاويته عليه ثوب وسخ، فقال له بعض الفقراء :لم لاتغسل ثوبك؟فقال يا أخى ما أتفرغ . فقال الشيخ أبو الفخر لاأزل أتذكر حلاوة قول الفقير: ما أتفرغ؛ لأنه كان صادقا فى ذلك ،فأجد لذة لقوله وبركة بتذكارى ذلك،فاختاروا الملون لهذا المعنى ، لأنهم من رعاية وقتهم فى شغل شاغل وإلا فأى ثوب ألبس الشيخ المريد من أبيض وغير ذلك فللشيخ ولاية ذلك بحسن مقصده ووفور علمه . وقد رأينا من المشايخ من لايلبس الخرقة ، ويسلك بأقوام من غير لبس الخرقة ، ويؤخذ منه العلوم والآداب ، وقد كان طبقة من السلف الصالحين لا يعرفون الخرقة ، ولا يلبسونها المريدين ، فمن يلبسها فله مقصد صحيح وأصل من السنة وشاهد من الشرع ، ومن لايلبسها فله رأيه وله فى ذلك مقصد صحيح . وكل تصاريف المشايخ محمولة على السداد والصواب ولا تخلو عن نية صالحة فيه ، والله تعالى ينفع بهم وبآثارهم إن شاء الله تعالى .

الباب الثالث عشر : فى فضيلة سكان الرباط

قال الله تعالى ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه الوجوه والأبصار ﴾ قيل : إن هذه البيوت هى المساجد ،وقيل : بيوت المدينة .وقيل : بيوت النبى ﷺ .وقيل:لما نزلت هذه الآية قام أبو بكر رضى الله عنه وقال: يارسول الله، هذه البيوت منها بيت على وفاطمة ؟ قال: نعم أفضلها .

وقال الحسن : بقاع الأرض كلها جعلت مسجدا لرسول الله ﷺ فعلى هذا الاعتبار بالرجال الذاكرين لا بصور البقاع ،وأى بقعة حوت رجالا بهذا الوصف هى البيوت التى أذن الله أن ترفع .

روى أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال « مامن صباح ولا رواح إلا وبقاع الأرض ينادى بعضها بعضا،هل مر بك اليوم أحد صلى عليك أو ذكر الله عليك ؟فمن قائلة نعم ،ومن قائلة لا ، فإذا قالت نعم علمت أن لها عليها بذلك فضلا ،وما من عبد ذكر الله تعالى على بقعة من الأرض أو صلى لله عليها إلا شهدت له بذلك عند ربه وبكت عليه يوم يموت » وقيل فى قوله تعالى ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ تنبيه على فضيلة أهل الله تعالى من أهل طاعته . لأن الأرض تبكى عليهم ولا تبكى على من ركن إلى الدنيا واتبع الهوى . فكان الرباط هم الرجال ، لأنهم ربطوا نفوسهم على طاعة الله وانقطعوا إلى الله فأقام الله لهم الدنيا خادمة .

وروى عمران بن الحصين قال : قال رسول الله ﷺ «من انقطع إلى الله كفاه مؤنته ورزقه من حيث لايحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله اليها » وأصل الرباط : مايربط فيه الخيول ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط ، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه ، والمقيم فى الرباط : على طاعة الله يدفع به وبدعائه البلاء العباد والبلاد .أخبرنا الشيخ العالم وصى الدين أبو الخير أحمد بن اسمعيل القزوينى إجازة قال: أخبرنا أبو سعيد محمد ابن أبى العباس الخليلى قال : أخبرنا القاضى محمد بن سعيد الفرخزادى قال : أخبرنا أبو اسحق احمد بن محمد قال: أخبرنا الحسين بن محمد قال : حدثنا أبو بكر بن خرجة قال :حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل قال حدثنى أبو حميد الحمصى قال حدثنا يحيى بن سعيد القطار[1] ؛ قال حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبد الرحمن عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة من اهل بيته ومن جيرانه البلاء »

(١) قوله « القصار » هكذا بنسخه ، وفى أخرى « العطار » ولعله « القطان » بالنون وليحرر

وروى عنه ﷺ أنه قال «لولا عباد الله ركع وصبية رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا ثم يرض رضا»
وروى جابر بن عبدالله قال: قال النبي ﷺ «إن الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده أهل دويرته ودويرات حوله، ولا يزالون فى حفظ الله مادام فيهم».

وروى داود بن صالح قال: قال لى أبو سلمة بن عبد الرحمن: ياابن أخى، هل تدرى فى أى شىء نزلت هذه الآية ﴿اصبروا وصابروا ورابطوا﴾؟ قلت: لا، قال: ياابن أخى، لم يكن فى زمن رسول الله ﷺ غزو يربط فيه الخيل، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فالرباط لجهاد النفس والمقيم فى الرباط مرابط مجاهد نفسه. قال الله تعالى ﴿وجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده﴾ قال عبدالله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى وذلك حق الجهاد، وهو الجهاد الأكبر على ماروى فى الخبر أن رسول الله ﷺ قال حين رجع من بعض غزواته: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وقيل: إن بعض الصالحين كتب إلى أخ له يستدعيه إلى الغزو فكتب إليه: ياأخى كل الثغور مجتمعة لى فى بيت واحد والباب على مردود، فكتب إليه أخوه: لو كان الناس كلهم لزموا مالزمته اختلت أمور المسلمين وغلب الكفار، فلابد من الغزو والجهاد، فكتب إليه: ياأخى، لو لزم الناس ماأنا عليه وقالوا فى زواياهم على سجاداتهم: الله أكبر، انهدم سور قسطنطينية وقال بعض الحكماء: ارتفاع الأصوات فى بيوت العبادات بحسن النيات وصفاء الطويات يحل ماعقدته الأفلاك الدائرات، فاجتماع أهل الروابط أصح على الوجه الموضوع له الربط، ويحقق أهل الرباط بحسن المعاملة ورعاية الأوقات وتوقى ما يفسد الأعمال واعتماد مايصحح الأحوال عادت البركة على البلاد والعباد.

وقال سرى السقطى فى قوله تعالى ﴿اصبروا وصابروا ورابطوا﴾ اصبروا عن الدنيا رجاء السلامة، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة، ورابطوا أهواء النفس اللوامة، واتقوا مايعقب لكم الندامة، لعلكم تفلحون غدا على بساط الكرامة. وقيل: اصبروا على بلائى، وصابروا على نعمائى، ورابطوا فى دار أعدائى واتقوا محبة من سوائى، لعلكم تفلحون غدا بلقائى. وهذه شرائط ساكن الرباط قطع المعاملة مع الخلق، وفتح المعاملة مع الحق وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات وعانق ليله ونهاره العبادة متعوضا بها عن كل عادة، شغله حفظ الأوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات، ليكون بذلك مرابطا مجاهدا.

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى، قال أخبرنا ابن نبهان محمد الكاتب، قال أخبرنا الحسن بن شاذان، قال أخبرنا دعلج قال أخبرنا البغوى عن أبى عبيد القاسم بن سلام، قال حدثنا صفوان عن الحرث عن سعيد بن المسيب عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إسباغ الوضوء فى المكاره، وإعمال الأقدام إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة: يغسل الخطايا غسلا» وفى رواية «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا وترفع به الدرجات» قالوا: بلى يارسول الله، قال «إسباغ الوضوء فى المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط».

الباب الرابع عشر: فى مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة

قال تعالى ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين﴾ هذا وصف أصحاب رسول الله ﷺ قيل لهم: ماذا كنتم تصنعون حتى أثنى الله عليكم بهذا الثناء؟ قالوا كنا نتبع الماء الحجر، وهذا وأشباه هذا من الآداب وظيفة صوفية الربط يلازمونه ويتعاهدونه والرباط بيتهم ومضربهم، ولكل قوم دار والرباط دارهم، وقد شابهوا أهل الصفة فى ذلك على ما أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال: أخبرنا أحمد بن محمد البزازى، قال أخبرنا عيسى بن على بن الوزير، قال حدثنا عبد الله البغوى،

قال حدثنا وهبان بن بقية ، قال حدثنا خالد بن عبدالله عن داود بن أبي هند عن أبي الحرث حرب بن أبي الأسود عن طلحة رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة ، وكان له بها عريف ينزل على عريفه فإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة وكنت فيمن نزل الصفة ، فالقوم في الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد وأحوال متناسبة ، ووضع الربط لهذا المعنى أن يكون سكانها بوصف ماقال الله تعالى ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾ والمقابلة باستواء السر والعلانية . ومن أضمر لأخاه غلا فليس بمقابله وإن كان وجهه إليه فأهل الصفة هكذا كانوا . لأن مثار الغل والحقد وجود الدنيا . وحب الدنيا رأس كل خطيئة . فأهل الصفة رفضوا الدنيا وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا ضرع فزالت الأحقاد والغل عن بواطنهم . وهكذا أهل الربط متقابلون بظواهرهم وبواطنهم مجتمعون على الألفة والمودة يجتمعون للكلام ويجتمعون للطعام ويتعرفون بركة الاجتماع .

روى وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أنهم قالوا : يارسول الله إنا نأكل ولا نشبع! قال : «لعلكم تفترقون على طعامكم . اجتمعوا واذكروا الله تعالى يبارك لكم فيه» . وروى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق ، فقيل : فعلى أي شيء كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر .

فالعباد والزهاد طلبوا الانفراد لدخول الآفات عليهم بالاجتماع . وكون نفوسهم تفتاق الأهوية والخوض فيما لا يعني فرأوا السلامة في الوحدة . والصوفية لقوة علمهم وصحة حالهم نزع عنهم ذلك فرأوا الاجتماع في بيوت الجماعة على السجادة . فسجادة كل واحد زاويته . وهم كل واحد همه . ولعل الواحد منهم لا يتخطى همه سجادته . ولهم في اتخاذ السجادة وجه من السنة : روى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أجعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصيرا من الليف . يصلي عليه من الليل وروت ميمونة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسط له الخمرة في المسجد حتى يصلي عليها . والرباط يحتوي على شبان وشيوخ وأصحاب خدمة وأرباب خلوة ، فالمشايخ بالزوايا أليق نظرا إلى ما تدعوا إليه النفس من النوم والراحة والاستبداد بالحركات والسكنات ، فللنفس شوق إلى التفرد والاسترسال في وجوه الرفق . والشباب بضيق عليه مجال النفس بالقعود في بيت الجماعة والانكشاف لنظر الأغيار فتكثر العيوب عليه ويتأدب ، ولا يكون هذا إلا إذا كان جمع الرباط في بيت الجماعة مهتمين بحفظ الأوقات وضبط الأنفاس وحراسة الحواس كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ كان عندهم من هم الآخرة ما يشغلهم عن اشتغال البعض بالبعض . وهكذا ينبغي لأهل الصدق والصوفية أن يكون اجتماعهم غير مضر بوقتهم ، فإذا تخلل أوقات الشبان اللغو والغلط فالأولى أن يلزم الشاب الطالب الوحدة والعزلة ويؤثر الشيخ الشاب بزاويته وموضع خلوته ليحبس الشاب نفسه عن دواعي الهوى والخوض فيما لا يعني ، ويكون الشيخ في بيت الجماعة لقوة حاله وصبره على مداراة الناس وتخلصه من تبعات المخالطة وحضور وقاره بين الجمع فينضبط به الغير ولا يتكدر هو وأما الخدمة فشأن من دخل الرباط مبتدئا ولم يذق طعم العلم ولم يتنبه لنفائس الأحوال :أن يؤمر بالخدمة لتكون عبادته خدمة ويجذب بحسن الخدمة قلوب أهل الله إليه فتشمله بركة ذلك ويعين الإخوان المشتغلين بالعبادة قال رسول الله ﷺ « المؤمنون إخوة يطلب بعضهم إلى بعض الحوائج فيقضي بعضهم إلى بعض الحوائج يقضي الله لهم حاجاتهم يوم القيامة» فيحتفظ بالخدمة عن البطالة التي تميت القلب والخدمة عند القوم من جملة العمل الصالح وهي طريق من طرق المواجيد تكسبهم الاوصاف الجميلة والاحوال الحسنة ولا يرون استخدام من ليس من جنسهم ولا متطلعا إلى الاهتداء بهديهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح قال أخبرنا أبو الفضل حميد بن أحمد قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم قال حدثنا سليمان بن أحمد قال حدثنا علي بن عبد العزيز قال حدثنا أبو عبيد قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن شريك عن أبي أحمد الطائي عن وثيق بن الرومي قال : كنت مملوكا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان يقول لي : أسلم

فإنك إن أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين ، فإنه لاينبغى أن أستعين على أمانتهم بمن ليس منهم ، قال فأبيت ، فقال عمر ﴿لا إكراه فى الدين﴾ فلما حضرته الوفاة أعتقنى فقال : اذهب حيث شئت . فالقوم يكرهون خدمة الأغيار ويأبون مخالطتهم أيضا ؛ فإن من لايحب طريقهم ربما استضر بالنظر إليهم أكثر مما ينتفع ؛ فانهم بشر وتبدو منهم أمور بمقتضى طبع البشر . وينكرها الغير لقلة علمه بمقاصدهم ، فيكون إباؤهم لموضع الشفقة على الخلق لامن طريق التعزز والترفع على أحد من المسلمين ، والشاب الطالب إذا خدم أهل الله المشغولين بطاعته يشاركهم فى الثواب وحيث لم يؤهل لأحوالهم السنية يخدم من أهل لها ، فخدمته لأهل القرب علامة حب الله تعالى .

أخبرنا : الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا أبو الفضل حميد بن أحمد ، وقال أخبرنا الحافظ أبو نعيم، قال حدثنا أبو بكر بن خلاد ، قال حدثنا الحرث بن أبى أسامة ، قال حدثنا معاوية بن عمرو ، قال حدثنا أبو إسحق عن حميد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك قال حين دنا من المدينة « إن بالمدينة أقواما ماسرتم من مسير ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم » قالوا : وهم فى المدينة ؟ ! قال « نعم ، حبسهم العذر »

فالقائم بخدمة القوم تعوق عن بلوغ درجتهم تعذر القصور وعدم الأهلية ، فحام حول الحمى باذلا مجهوده فى الخدمة، يتعلل بالأثر حيث منع النظر ، فجزاه الله على ذلك أحسن الجزاء وأناله من جزيل العطاء ، وهكذا كان أهل الصفة يتعاونون على البر والتقوى ويجتمعون على المصالح الدينية ومواساة الإخوان بالمال والبدن .

الباب الخامس عشر : فى خصائص أهل الربط والصوفية فيما يتعاهدونه ويختصون به

أعلم أن تأسيس هذه الربط من زينة هذه الملة الهادية المهدية ؛ ولسكان الربط أحوال تميزوا بها عن غيرهم من الطوائف ، وهم على هدى من ربهم . قال الله تعالى ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ ومايرى من التقصير فى حق البعض من أهل زماننا والتخلف عن طريق سلفهم لايقدح فى أصل أمرهم وصحة طريقهم ، وهذا القدر الباقى من الأثر واجتماع المتصوفة فى الربط وماهيأ الله تعالى لهم من الرفق : بركة جمعية بواطن المشايخ الماضين ، وأثر من آثار منح الحق فى حقهم ، وصورة الاجتماع فى الربط الآن على طاعة الله والترسم بظاهر الآداب : عكس نور الجمعية من بواطن الماضين وسلوك الخلف فى مناهج السلف ، فهم فى الربط كجسد واحد بقلوب متفقة وعزائم متحدة ، ولايوجد هذا فى غيرهم من الطوائف . قال الله تعالى فى وصف المؤمنين ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ وبعكس ذلك وصف الأعداء فقال : ﴿تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى﴾ وروى النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إنما المؤمنون كجسد رجل واحد إذا اشتكى عضو من أعضائه اشتكى جسده أجمع ، وإذا اشتكى مؤمن اشتكى المؤمنون » .

فالصوفية وظيفتهم اللازمة من حفظ اجتماع البواطن ، وإزالة التفرقة بإزالة شعث البواطن، لأنهم بنسبة الأرواح اجتمعوا ، وبرابطة التأليف الإلهى اتفقوا ، وبمشاهدة القلوب تواطئوا ، ولتهذيب النفوس وتصفية القلوب فى الرباط رابطوا ، فلابد لهم من التألف والتودد والنصح : روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال «المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لايألف ولا يؤلف » .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبى الفضل المقدسى عن أبيه ، قال حدثنا أبو القاسم الفضل بن أبى حرب قال أخبرنا أحمد بن الحسين الحيرى ، قال أخبرنا أبو سهل بن زياد القطان . قال حدثنا الحسين بن مكرم ، قال حدثنا يزيد ابن هرون الواسطى ، قال حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فهم باجتماعهم تجتمع بواطنهم وتتقيد نفوسهم ، لأن بعضهم عين على البعض . على ماورد « المؤمن مرآة المؤمن » فأى وقت ظهر من أحدهم أثر التفرقة نافروه . لأن التفرقة تظهر بظهور النفس . وظهر النفس من تضييع حق حق الوقت . فأى وقت ظهرت نفس الفقير علوا منه خروجه عن دائرة الجمعية وحكموا عليه بتضييع حكم الوقت وإهمال السياسة وحسن الرعاية . فيقاد بالمنافرة إلى دائرة الجمعية

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر السهروردي إجازة . قال أخبرنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار أن : قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي . قال سمعت محمد بن عبد الله يقول سمعت رويما يقول : لايزال الصوفية بخير ماتنافروا . فإذا اصطلحوا هلكوا . وهذه إشارة من رويم إلى حسن تفقد بعضهم أحوال بعض إشفاقا من ظهور النفوس . يقول : إذا اصطلحوا أو رفعوا المنافرة من بينهم يخاف أن يخامر البواطن المساهلة والمراءاة ومسامحة البعض البعض فى إهمال دقيق آدابهم . وبذلك تظهر النفوس وتستولى .

وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : رحم الله إمرأ أهدى إلى عيوبى . وأخبرنا أبو ذرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الهروى ، قال أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شريح قال أخبرنا أبو القاسم البغوى . قال حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيدى . قال حدثنى إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب أن محمد نعمان أخبر بأن عمر قال فى مجلس فيه المهاجرون والأنصار ، أرأيتم لو ترخصت فى بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين ؟ قال : فسكتنا . قال : فقال ذلك مرتين أو ثلاثا أرأيتم لو ترخصت فى بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين ؟ قال بشر بن سعد : لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح ، فقال عمر : أنتم إذن أنتم .

وإذا ظهرت نفس الصوفى بغضب وخصومة مع بعض الإخوان فشرط أخيه أن يقابل نفسه بالقلب ، فإن النفس إذا قوبلت بالقلب انحسمت مادة الشر ، وإذا قوبلت النفس بالنفس ثارت الفتنة وذهبت العصمة . قال الله تعالى ﴿ ادفع بالتى هى أحسن . فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ .

ثم الشيخ أو الخادم إذا شكا إليه فقير من أخيه فله أن يعاتب أيهماشاء ، فيقول للمعتوى : لم تعديت ؟ وللمعتدى عليه : ما الذى أذنبت حتى تعدى عليك وسلط عليك ؟ وهلا قابلت نفسه بالقلب رفقا بأخيك ، وإعطاء للفتوة والصحبة حقها ؟ فكل منهما جان وخارج عن دائرة الجمعية فيرد إلى الدائرة بالنقار ، فيعود إلى الاستغفار ولا يسلك طريق الاصرار .

روت عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقول « اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا » فيكون الاستغفار ظاهرا مع الإخوان ، وباطنا مع الله تعالى ، ويرون الله فى استغفارهم فلهذا المعنى يقفون فى صف النعال على أقدامهم تواضعا وانكسارا .

وسمعت شيخنا يقول للفقير إذا جرى بينه وبين بعض إخوانه وحشة : قم واستغفر ، فيقول الفقير : ما أرى باطنى صافيا ، ولا أوثر القيام للاستغفار ظاهرا من غير صفاء الباطن ، فيقول : أنت قم فببركة سعيك وقيامك ترزق الصفاء ، فيكان يجد ذلك ويرى أثره عند الفقير ويرزق القلوب وترتفع الوحشة .

وهذا من خاصية هذه الطائفة لايبيتون والبواطن منطوية على وحشة ، ولا يجتمعون للطعام والبواطن تضمر وحشة ، ولا يرون الاجتماع ظاهرا فى شيء من أمورهم إلا بعد الاجتماع بالبواطن وذهاب التفرقة والشعث ، فإذا قام الفقير للاستغفار لايجوز رد استغفاره بحال .

روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال « ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم » .

وللصوفية فى تقبيل يد الشيخ بعد الاستغفار أصل من السنة : روى عبد الله بن عمر قال : كنت فى سرية من سرايا رسول ﷺ ، فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فتبنا فيها ! ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كان لنا توبة وإلا ذهبنا ! فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال « من القوم ؟ » قلنا : نحن الفرارون ، قال « لا ، بل أنتم العكارون ، أنا فئتكم أنا فئة المسلمين » يقال : عكر الرجل ، إذ تولى ثم كر راجعا . والعكار العطاف

والرجاع . قال فأتيناه حتى قبلنا يده وروى أن أبا عبيدة بن الجراح قبل يد عمر عند قدومه. وروى عن أبي مرثد الغنوى أنه قال : أتينا رسول الله ﷺ فنزلت إليه وقبلت يده . فهذا رخصة فى جواز تقبيل اليد ، ولكن أدب الصوفى أنه متى رأى نفسه تتعزز بذلك أو تظهر بوصفها أن يمتنع من ذلك ، فان سلم من ذلك فلا باس بتقبيل اليد ومعانقتهم للاخوان عقب الاستغفار ، لرجوعهم إلى الألفة بعد الوحشة ، وقدومهم من سفر الهجرة بالتفرقة إلى أوطان الجمعية ، فبظهور النفس تغربوا وبعدوا ، وبغيبة النفس والاستغفار قدموا ورجعوا . ومن استغفر إلى أخيه ولم يقبله فقد أخطأ ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ فى ذلك وعيد : روى عنه ﷺ أنه قال «من اعتذر إليه أخوه معذرة فلم يقبلها كان عليه خطيئة صاحب المكوس » وروى جابر أيضا عن رسول الله ﷺ « من تنصل إليه فلم يقبل لم يرد على الحوض » .

ومن السنة أن يقدم للاخوان شيئا من الاستغفار ، روى أن كعب بن مالك قال للنبى ﷺ : إن من توبتي أن أنخلع من مالى كله وأهجر دار قومى التى فيها أتيت الذنب . فقال له النبى ﷺ « يجزيك من ذلك الثلث » فصارت سنة الصوفية المطالبة بالغرامة بعد الاستغفار والمناقرة ، وكل قصدهم رعاية التألف حتى تكون بواطنهم على الاجتماع كما أن ظواهرهم على الاجتماع ، وهذا أمر تفردوا به من بين طوائف الإسلام

ثم شرط الفقير الصادق إذا سكن الرباط وأراد أن يأكل من وقفه أو مايطلب لسكانه بالدروزة : أن يكون عنده من الشغل بالله مالايسعه الكسب ، وإلا - إذ كان للبطالة والخوض فيما لايعنى عنده مجال ولا يقوم بشروط أهل الإرادة من الجد والاجتهاد - فلا ينبغى له أن يأكل من مال رباط بل يكتسب ويأكل من كسبه ، لأن طعام الرباط لأقوام كل شغلهم بالله ، فخدمتهم الدنيا لشغلهم بخدمة مولاهم ، إلا أن يكون تحت سياسة شيخ عالم بالطريق ينتفع بصحبته ويهتدى بهديه ، فيرى الشيخ أن يطعمه من مال الرباط ، فلا يكون تصرف الشيخ إلا بصحة بصيرة ، ومن جملة مايكون للشيخ فى ذلك من النية : أن يشغله بخدمة الفقراء ، فيكون مايأكله فى مقابلة خدمته

روى عن أبى عمرو الزجاجى قال : أقمت عند الجنيد مدة ، فما رآنى قط إلا وأنا مشتغل بنوع العبادة ، فما كلمنى حتى كان يوم من الأيام خلا الموضع من الجماعة ، فقمت ونزعت ثيابى وكنست الموضع ونظفته ورششته وغسلت موضع الطهارة ، فرجع الشيخ ورأى على أثر الغبار ، فدعا لى ورحب بى وقال أحسنت عليك بها ثلاث مرات

ولا يزال مشايخ الصوفية يندبون الشباب إلى الخدمة حفظالهم عن البطالة ، وكل واحد يكون له حظ من المعاملة وحظ من الخدمة

روى أبو محذورة قال جعل رسول الله ﷺ لنا الأذان ، والسقاية لبنى هاشم ، والحجابة لبنى عبد الدار وبهذا يقتدى مشايخ الصوفية فى تفريق الخدم على الفقراء ، ولا يعذر فى ترك نوع من الخدمة إلا كامل الشغل بوقته ولا نعنى بكامل الشغل شغل الجوارح ، ولكن نعنى به دوام الرعاية والمحاسبة والشغل بالقلب والقالب وقتا وبالقلب دون القالب وقتا وتفقد الزيادة من النقصان ، فإن قيام الفقير بحقوق الوقت شغل تام . وبذلك يؤدى شكر نعمة الفراغ ونعمة الكفاية ، وفى البطالة كفران نعمة الفراغ والكفاية

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر إجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد بن منصور ، قال أخبرنا أحمد بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين ، قال سمعت أبا الفضل بن حمدون يقول . سمعت على بن عبد الحميد الغضائرى يقول ; سمعت السرى يقول :من لايعرف قدر النعم سلبها من حيث لايعلم ، وقد يعذر الشيخ العاجز عن الكسب فى تناول طعام الرباط لايعذر الشاب هذا فى شرط طريق القوم على الإطلاق فأما من حيث فتوى الشرع : فإن كان شرط الوقف على المتصوفة وعلى من تزيا بزى المتصوفة ولبس خرقتهم فيجوز أكل ذلك لهم على الإطلاق فتوى وفى ذلك القناعة بالرخصة دون العزيمة التى هى شغل أهل الإرادة وإن كان شرط الوقف على من يسلك طريق الصوفية عملا وحالا فيجوز أكله لأهل البطالات والراكنين إلى تضييع الأوقات وطرق أهل الإرادة عند

مشايخ الصوفية مشهورة .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح . قال أخبرنا أبو الفضل حميد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم، قال حدثنا أبو العباس أحمد ابن محمد بن يوسف ، قال حدثنا جعفر الفريابى ، قال حدثنا محمد بن الحسين البلخى بسمرقند ، قال حدثنا عبد الله ابن المبارك ، قال حدثنا سعيد بن أبى أيوب الخزاعى ، قال حدثنا عبدالله بن الوليد عن أبى سليمان الليثى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال « مثل المؤمن كمثل الفرس فى آخيته يجول ويرجع إلى آخيته ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع الإيمان ، فأطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين » .

الباب السادس عشر : فى ذكر اختلاف أحوال مشايخهم فى السفر والمقام

اختلفت أحوال مشايخ الصوفية ، فمنهم من سافر فى بدايته وأقام فى نهايته ، ومنهم من أقام فى بدايته وسافر فى نهايته ومنهم من أقام ولم يسافر ومنهم من استدام السفر ولم يؤثر الإقامة .

ونشرح حال كل واحد منهم ومقصده فيما رام : فأما الذى سافر فى بدايته وأقام فى نهايته فقصده بالسفر لمعان منها: تعلم شىء من العلم . قال رسول الله ﷺ «اطلبوا العلم ولو بالصين» وقال بعضهم : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن فى كلمة تدل على هدى ما كان سفره ضائعا . ونقل أن جابر بن عبدالله رحل من المدينة إلى مصر فى شهر لحديث بلغه أن أنسا يحدث به عن رسول الله ﷺ ، وقد قال عليه الصلاة والسلام «من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع» وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ السائحون ﴾ أنهم طلاب العلم .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك الهروى قال أخبرنا أبو نصر الترياقى قال أخبرنا الجراحى قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا وكيع قال حدثنا أبو داود عن سفيان عن أبى هرون قال : كنا نأتى أبا سعيد فيقول : مرحبا بوصية رسول الله ﷺ إن النبى عليه السلام قال «إن الناس لكم تبع وإن الرجال يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين فاذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا» وقال عليه السلام «طلب العلم فريضة كل مسلم» وروت عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله تعالى أوحى إلى من سلك مسلكا فى طلب العلم سهلت له طريقا إلى الجنة » .

ومن جملة مقاصدهم فى البداية لقاء المشايخ والإخوان الصادقين فللمريد بلقاء كل صادق مزيد وقد ينفعه لحظ الرجال كما ينفعه لفظ الرجال . وقد قيل : من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه . وهذا القول فيه وجهان : (أحدهما) أن الرجل الصديق يكلم الصادقين بلسان فعله أكثر مايكلمهم بلسان قوله فاذا نظر الصادق إلى تصاريفه فى مورده ومصدره وخلوته وجلوته وكلامه وسكوته ينتفع بالنظر إليه ، فهو نفع اللحظ . ومن لا يكون حاله وأفعاله هكذا فلفظه أيضا لا ينفع لأنه يتكلم بهواه ونورانية القول على قدر نورانية القلب . ونورانية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها . (والوجه الثانى) أن نظر العلماء الراسخين فى العلم والرجال البالغين ترياق نافع ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستكشف بنور بصيرته حسن استعداد الصادق واستئهاله لمواهب الله تعالى الخاصة فيقع فى قلبه محبة الصادق من المريدين وينظر إليه نظر محبة عن بصيرة وهم من جنود الله تعالى فيكسبون بنظرهم أحوالا سنية ويهبون آثارا مرضية وماذا ينكر المنكر من قدرة الله ؟ إن الله سبحانه وتعالى كما جعل فى بعض الأفاعى من الخاصية أنه إذا نظر إلى إنسان يهلكه بنظره : أن يجعل فى نظر بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يكسبه حالا وحياة وقد كان شيخنا رحمه الله يطوف فى مسجد الخيف بمنى ويتصفح وجوه الناس فقيل له فى ذلك فقال: لله عباد إذا نظروا إلى شخص أكسبوه سعادة فأنا أتطلب ذلك .

ومن جملة المقاصد فى السفر ابتداء قطع المألوفات والانسلاخ من ركون النفس إلى معهود ومعلوم . والتحامل على النفس بتجرع مرارة فرقة الآلاف والخلاف والأهل والأوطان فمن صبر على تلك المألوفات محتسبا عند الله أجرا

فقد حاز فضلا عظيما . أخبرنا أبو زرعة بن أبي الفضل الحافظ المقدسي عن أبيه قال أخبرنا القاضي أبو منصور محمد ابن أحمد الفقيه الأصفهاني ، قال أخبرنا أبو إسحق إبرهيم بن عبد الله بن خرشيد قوله ، قال حدثنا أبو بكر عبدالله ابن محمد بن زياد النيسابوري ، قال حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال حدثنا ابن وهب ، قال حدثني يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : مات رجل بالمدينة ممن ولد بها ، فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم قال « ليته مات بغير مولده » قالوا : ولم ذلك يارسول الله ؟ قال : « إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره من الجنة » .

ومن جملة المقاصد في السفر استكشاف دقائق النفوس واستخراج رعوناتها ودعاويها لأنها لا تكاد تتبين حقائق ذلك بغير السفر وسمي السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق ، وإذا وقف على دائه يتشمر لدوائه ، وقد يكون أثر السفر في نفس المبتدي كأثر النوافل من الصلاة والصوم والتهجد وغير ذلك ، وذلك أن المتنفل سائح سائر إلى الله تعالى من أوطان الغفلات إلى محل القربات ، والمسافر يقطع المسافات ويتقلب في المفاوز والفلوات بحسن النية لله تعالى سائر إلى الله تعالى بمراغمة الهوى ومهاجرة ملاذ الدنيا .

أخبرنا شيخنا إجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد قال أخبرنا أحمد بن محمد بن خلف ، وقال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت عبدالواحد بن بكر يقول : سمعت علي بن عبد الرحيم يقول : سمعت النوري يقول : التصوف ترك كل حظ النفس فإذا سافر المبتدي تاركا حظ النفس تطمئن النفس وتلين كما تلين بدوام النافلة ، ويكون لها بالسفر دباغ يذهب عنها الخشونة واليبوسة الجبلية والعفونة الطبيعية ، كالجلد يعود من هيئة الجلود إلى هيئة الثياب ، فتعود النفس من طبيعة الطغيان إلى طبيعة الإيمان .

ومن جملة المقاصد في السفر : رؤية الآثار والعبر ، وتسريح النظر في مسارح الفكر ، ومطالعة أجزاء الأرض والجبال ومواطىء أقدام الرجال ، واستماع التسبيح من ذوات الجمادات ، والفهم من لسان حال القطع المتجاورات فقد تتجدد اليقظة بتجدد مستودع العبر والآيات ، وتتوفر بمطالعة المشاهد والمواقف الشواهد والدلالات قال الله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وقد كان السري يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء ودخل أدار وأورقت الأشجار طاب الانتشار .

ومن جملة المقاصد بالسفر : إيثار الخمول واطراح حظ القبول فصدق الصادق ينم على أحسن الحال ويرزق قبول الخلق حسن الإقبال وقلما يكون صادق متمسك بعروة الإخلاص ذو قلب عامر إلا ويرزق إقبال الخلق حتى سمعت بعض المشايخ يحكي عن بعضهم أنه قال أريد إقبال الخلق علي لا أني أبلغ نفسي حظها من الهوى ، فإني لا أبالي أقبلوا أو أدبروا ولكن لكون إقبال الخلق علامة تدل على صحة الحال ؛ فإذا ابتلي المريد بذلك لا يأمن نفسه أن تدخل عليه بطريق الركون إلى الخلق وربما يفتح عليه باب من الرفق وتدخل النفس عليه من طريق السير والدخول في الأسباب المحمودة وتريه فيه وجه المصلحة والفضيلة في حومة عباد الله وبذل الموجود ولا تزال النفس به والشيطان حتى يجراه إلى السكون إلى الأسباب واستجلاء قبول الخلق ، وربما قويا عليه فجراه إلى التصنع والتعمل ويتسع الخرق على الراقع .

وسمعت أن بعض الصالحين قال لمريد له أنت الآن وصلت إلى مقام لا يدخل عليك الشيطان من طريق الشر ، ولكن يدخل عليك من طريق الخير ، وهذا مزلة عظيمة للاقدام ، فالله تعالى يدرك الصادق إذا ابتلي بشيء من ذلك ويزعجه بالعناية السابقة والمعونة اللاحقة إلى السفر فيفارق المعارف والموضع الذي فتح عليه هذا الباب فيه ويتجرد لله تعالى بالخروج إلى السفر ، وهذا من أحسن المقاصد في الأسفار للصادقين ؛ فهذه جمل المقاصد المطلوبة للمشايخ في بداياتهم ماعدا الحج والغزو وزيارة بيت المقدس ، وقد نقل أن عمر خرج من المدينة قاصدا إلى بيت المقدس وصلى فيه الصلوات الخمس ثم أسرع راجعا إلى المدينة من الغد . ثم إذا من الله على الصادق باحكام أمور بدايته ، قلبه في

الأسفار ، ومنحه الحظ من الاعتبار ، وأخذ نصيبه من العلم قدر حاجته ، واستفاد من مجاورة الصالحين ، وانتقش فى قلبه فوائد النظر إلى حال المتقين ، وتعطر باطنه باستنشاق عرف معارف المقربين ، وتحصن بحماية نظر أهل الله وخاصته وسير أحوال النفس ، وأسفر السفر عن دفائن أخلاقها وشهواتها الخفية ، وسقط عن باطنه نظر الخلق ، وصار يغلب ولا يغلب ، كما قال الله تعالى إخبارا عن موسى ﴿ ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين ﴾ فعند ذلك يرده الحق إلى مقامه ، ويمده بجزيل إنعامه ، ويجعله إماما للمتقين به يقتدى ، وعلما للمؤمنين به يهتدى .

وأما الذى أقام فى بدايته وسافر فى نهايته : يكون ذلك شخصا يسر الله له فى بداية أمره صحبة صحيحة وقيض له شيخا عالما يسلك به الطريق ، ويدرجه إلى منازل التحقيق ، فيلازم موضع إرادته ويلتزم بصحبة من يرده عن عادته وقد كان الشبلى يقول للحصرى فى ابتداء أمره : إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله فحرام عليك أن تحضرنى فمن رزق مثل هذه الصحبة يحرم عليه السفر ، فالصحبة خير له من كل سفر وفضيلة يقصدها .

أخبرنا رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسمعيل القزوينى إجازة قال : أخبرنا أبو المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم ابن هوازن القشيرى عن والده الأستاذ أبى القاسم قال : سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت عياش بن أبى الصحر يقول . سمعت أبا بكر الزقاق يقول : لا يكون المريد مريدا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا عشرين سنة فمن رزق صحبة من يندبه إلى مثل هذه الأحوال السنية والعزائم القوية يحرم عليه المفارقة واختيار السفر ، ثم إذا أحكم أمره فى الابتداء بلزوم الصحبة وحسن الاقتداء ، وارتوى من الأحوال ، وبلغ مبالغ الرجال ، وانبجس من قلبه عيون ماء الحياة ، وصارت نفسه مكسبة للسعادات ، يستنشق نفس الرحمن من صدور الصادقين من الإخوان فى أقطار الأرض وشاسع البلدان ، يشرئب إلى التلاق وينبعث إلى الطواف فى الآفاق ، يسيره الله تعالى فى البلاد لفائدة العباد ، ويستخرج بمغناطيس حاله خبء أهل الصدق والمتطلعين إلى من يخبرعن الحق ، ويبذر فى أراضى القلوب بذر الفلاح ، ويكثر ببركة نفسه وصحبته أهل الصلاح ، وهذا مثل هذه الأمة الهادية فى الإنجيل ﴿ كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ﴾ تعود بركة البعض إلى البعض ، ويكون طريق الوراثة معمورا ، وعلم الإفادة منشورا .

أخبرنا شيخنا قال : أخبرنا الإمام عبد الجبار البيهقى فى كتابه ، قال : أخبرنا أبو بكر البيهقى ، قال : أخبرنا أبو على الروذبارى قال . حدثنا أبو بكر بن واسته ، قال : حدثنا أبو داود قال : أخبرنا يحيى بن أيوب قال : حدثنا اسماعيل بن جعفر ، قال أخبرنى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » فأما من أقام ولم يسافر يكون ذلك شخصا رباه الحق سبحانه وتعالى وتولاه وفتح عليه أبواب الخير وجذبه بعنايته . وقد ورد جذبة من جذبات الحق توازى عمل الثقلين . ثم لما علم منه الصدق ورأى حاجته إلى من ينتفع به ساق إليه بعض الصديقين . حتى أيده بلطفه ولفظه ، وتداركه بلحظة ، ولفحه بقوة حاله ، وكفاه يسير الصحبة لكمال الأهلية فى الصاحب والمصحوب ، وإجراء سنة الله تعالى فى إعطاء الأسباب حقها الإقامة ، رسم الحكمة يحوج إلى يسير الصحبة ، فيتنبه بالقليل للكثير ، ويغنيه اليسير من الصحبة عن اللحظ الكثير ، ويكتفى بوافر حظ الاستبصار عن الأسفار ، ويتعوض بأشعة الأنوار عن مطالعة الغير والآثار ، كما قال بعضهم : الناس يقولون افتحوا أعينكم وأبصروا ، وأنا أقول : غمضوا أعينكم وأبصروا . وسمعت بعض الصالحين يقول : لله عباد طور سيناهم ركبهم : تكون رءوسهم على ركبهم وهم فى محال القرب ، فمن نبع له معين الحياة فى ظلمة خلوته فماذا يصنع بدخول الظلمات ومن اندرجت له اطباق السموات فى طى شهوده . ماذا يصنع بتقلب طرفه فى السموات ؟ ومن جمعت احداق بصيرته متفرقات الكائنات . ماذا يستفيد من طى الفلوات . ومن خلص بخاصية فطرته إلى مجمع الارواح ماذا تفيده زيارة الاشباح ؟

قيل : ارسل ذو النون المصرى إلى ابى يزيد رجلا وقال له إلى متى هذا النوم والراحة وقد سارت القافلة .

فقال للرسول : قل لأخى : الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح فى المنزل قبل القافلة ؛ فقال ذو النون : هنيئا له . هذا كلام لاتبلغه أحوالنا .

وكان بشر يقول : يامعشر القراء سيحوا تطيبوا . فإن الماء إذا كثر مكثه فى موضع تغير ، وقيل قال بعضهم عند هذا الكلام : صر بحراً حتى لاتتغير ؛ فإذا أدام المريد سير الباطن يقطع مسافة النفس الأمارة بالسوء ، حتى قطع منازل آفاتها وبدل أخلاقها المذمومة بالمحمودة ، وعانق الإقبال على الله تعالى بالصدق والإخلاص ، اجتمع له المتفرقات ، واستفاد فى حضره أكثر من سفره ، لكون السفر لايخلو من متاعب وكلف ومشوشات وطوارق ونوازل يتجدد الضعف عن سياستها بالعلم للضعفاء ، ولا يقدر على تسليط العلم على متجددات السفر وطوارقه إلا الأقوياء . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للذى زكى عنده رجلا : هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا ! قال : ماأراك تعرفه ؛ فإذا حفظ الله عبده فى بداية أمره من تشويش السفر ، ومتعه بجمع الهم وحسن الإقبال فى الحضر ، وساق إليه من الرجال من اكتسب به صلاح الحال ، فقد أحسن إليه .

قيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ﴾ هو الرجل المنقطع إلى الله يشكل عليه شيء من أمر الدين فيبعث الله إليه من يحل إشكاله . فإذا ثبت قدمه على شروط البداية رزق وهو فى المقام من غير سفر ثمرات النهاية ، فيستقر فى الحضر انتهاء وابتداء وأقيم فى هذا المقام جمع من الصالحين . وأما الذى أدام السفر فرأى صلاح قلبه وصحة حاله فى ذلك . يقول بعضهم : اجتهد أن تكون كل ليلة ضيف مسجد ، ولا تموت إلا بين منزلين . وكان من هذه الطبقة إبراهيم الخواص ماكان يقيم فى بلد أكثر من أربعين يوما . وكان يرى إن أقام أكثر من أربعين يوما يفسد عليه توكله . فكان علم الناس ومعرفتهم إياه سببا ومعلوما .

وحكى عنه أنه قال : مكثت فى البادية أحد عشر يوما لم آكل من وتطلعت أن آكل من حشيش البر ، فرأيت الخضر مقبلا نحوى فهربت منه . ثم التفت فإذاهو رجع عنى . فقيل : لم هربت منه ؟ قال : تشوفت نفسى أن يغيثنى . فهؤلاء الفرارون بدينهم . أخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبى الفضل المقدسى عن أبيه قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن على قال أخبرنا أبو عبد الله بن يوسف بن نامويه قال حدثنا أبو محمد الزهرى القاضى قال : حدثنا محمد بن عبدالله بن أسباط قال حدثنا أبو نعيم قال حدثنا محمود - يعنى ابن مسلم - عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن سليمان بن هرمز عن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال « أحب شيء إلى الغرباء . قيل ومن الغرباء ؟ قال الفرارون بدينهم يجتمعون إلى عيسى ابن مريم يوم القيامة » وهذه كلها أحوال اختلفت واتبع أربابها الصحة وحسن النية مع الله . وحسن النية يقتضى الصدق . والصدق لعينه محمود كيف تقلبت الأحوال . فمن سافر ينبغى أن يعتقد حاله ويصحح نيته . ولا يقدر على تخليص النية من شوائب النفس إلا كثير العلم تام التقوى ، وافر الحظ من الزهد فى الدنيا . ومن انطوى على هوى كامل ولم يستقص فى الزهد لايقدر على تصحيح النية . فقد يدعوه إلى السفر نشاط جبلى نفسانى وهو يظن أن ذلك داعية الحق ولا يميز بين داعية الحق وداعية النفس ويحتاج الشخص فى علم صحة النية إلى العلم بمعرفة الخواطر ، وشرح الخواطر وعلمها يحتاج إلى باب مفرد لنفسه . ونومى الآن إلى ذلك برمز يدركه من نازله شيء من ذلك . فأكثر الفقراء من علم ذلك ومعرفته على بعد .

اعلم أن ماذكرناه من نشاط النفس واقع للفقير فى كثير من الأمور . فقد يجد الفقير الروح بالخروج إلى بعض الصحارى والبساتين . ويكون ذلك الروح مضرا به فى ثانى الحال وإن كان يترائى له طيبة القلب فى الوقت . وسبب طيبة قلبه فى الوقت أن النفس تنفسح وتتسع ببلوغ غرضها وتيسير يسير هواها بالخروج إلى الصحراء والتنزه . وإذا انسحب بعدت عن القلب وتنحت عنه متشوقة إلى متعلق هواها ، فيتروح القلب لا بالصحراء بل ببعد النفس منه . كشخص تباعد عنه قرين يستثقله . ثم إذا عاد الفقير إلى زاويته واستفتح ديوان معاملته وميز دستور حاله ؛ يجد النفس مقارنة للقلب بمزيد ثقل موجب لتبرمه بها ؛ وكلما ازداد ثقلها تكدر القلب ، وسبب زيادة ثقلها استرسالها فى

تناول هواها ، فيصير الخروج إلى الصحراء عين الداء ويظن الفقير أنه ترويح ودواء ، فلو صبر على الوحدة والخلوة ازدادت النفس ذوبانا وخفت ولطفت وصارت قرينا صالحا للقلب لا يستثقلها وعلى هذا يقاس التروح بالأسفار فللنفس وثبات إلى توهم التروحات فمن قطع لهذه الدقيقة لا يغتر بالتروحات المستعارة التى لا تحمد عاقبتها ولا تؤمن غائلتها ويتثبت عند ظهور خاطر السفر ولا يكترث بالخاطر بل يطرحه بعدم الالتفات مسيئا ظنه بالنفس وتسويلاتها ومن هذا القبيل ـ والله اعلم ـ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشمس تطلع من بين قرنى الشيطان » فيكون للنفس عند طلوع الشمس وثبات تستند تلك الوثبات والنهضات من النفس إلى المزاج والطبائع ويطول شرح ذلك ويعمق ومن ذلك القبيل خفة مرض المريض غدوة بخلاف العشيات فيتشكل اهتزاز النفس بنهضات القلب ؛ ويدخل على الفقير من هذا القبيل آفات كثيرة : يدخل فى مداخل باهتزاز نفسه ظنا منه أن ذلك حكم نهوض قلبه وربما يتراءى له أنه بالله يصول وبالله يقول وبالله يتحرك فقد ابتلى بنهضة النفس ووثوبها . ولا يقع هذا الاشتباه إلا لأرباب القلوب وأرباب الأحوال وغير أرباب القلب والحال عن هذا بمعزل وهذه مزلة قدم مختصة بالخواص دون العوام ؛ فاعلم ذلك فإنه عزيز علمه وأقل مراتب الفقراء فى مبادى الحركة للسفر للتصحيح وجه الحركة أن يقدموا صلاة الاستخارة وصلاة الاستخارة لا تهمل وإن تبين للفقير صحة خاطره أو تبين له وجه المصلحة فى السفر ببيان أوضح من الخاطر فللقوم مراتب فى التبيان من العلم بصحة الخاطر وبما فوق ذلك ففى ذلك كله لا تهمل صلاة الاستخارة اتباعا للسنة ففى ذلك البركة وهو من تعليم رسول الله ﷺ على ما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء قال : أخبرنا أبو القاسم بن عبد الرحمن فى كتابه أن أبا سعيد الكنجرودى أخبرهم قال أخبرنا أبو عمر بن حمدان قال حدثنا أحمد بن الحسين الصوفى قال حدثنا منصور بن أبى مزاحم قال حدثنا عبد الرحمن أبى الموالى عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن قال : « إذا هم أحدكم بالامر ـ أو أراد الأمر فليصل ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هـذا الأمر ـ ويسميه بعينه ـ خير لى فى دينى ومعاشى ومعادى وعاقبة أمرى ـ أو قال عاجل أمرى وآجله ـ فاقدره لى ثم بارك لى فيه وإن كنت تعلمه شرا لى ـ مثل ذلك ـ فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان »

الباب السابع عشر : فيما يحتاج إليه الصوفى فى سفره من الفرائض والفضائل

فأما من الفقه ـ وإن كان هذا يذكر فى كتب الفقه وهـذا الكتاب غير موضوع لذلك ولكن نقول على سبيل الإيجاز تيمنا بذكر الأحكام الشرعية التى هى الاساس الذى يبنى عليه ـ لابد للصوفى المسافر من علم التيمم والمسح على الخفين والقصر والجمع فى الصلاة أما التيمم فجائز للمريض والمسافر فى الجنابة والحدث عند عدم الماء أو الخوف من استعماله تلفا فى النفس أو المال أو زيادة فى المرض على القول الصحيح من المذهب أو عند حاجته إلى المـاء الموجود لعطشه أو عطش دابته أو رفيقه ، ففى الأحوال كلها يصلى بالتيمم ولا إعادة عليه والخائف من البرد يصلى بالتيمم ويعيد الصلاة على الاصح ولا يجوز التيمم إلا بشرط الطلب للماء فى مواضع الطلب ومواضع الطلب مواضع تردد المسافر فى منزله للاحتطاب والاحتشاش ويكون الطلب بعد دخول الوقت ؛ والسفر القصير فى ذلك كالطويل وإن صلى بالتيمم مع تيقن الماء فى آخر الوقت جاز على الاصح ولا يعيد مهما صلى بالتيمم وإن كان الوقت باقيا ومهما توهم وجود الماء بطل تيممه كما إذا طلع ركب أو غير ذلك وإن رأى المـاء فى أثناء الصلاة لا تبطل صلاته ولا تلزمه الإعادة ويستحب له الخروج منها واستئناء بالوضوء على الاصح ولا يتيمم للفرض قبل دخول الوقت ويتيمم لكل فريضة ويصلى مهما شاء من النوافل بتيمم واحد ولا يجوز أداء الفرض بتيمم

النافلة . ومن لم يجد ماء ولا ترابا يصلي ويعيد عند وجود أحدهما . ولكن إن كان محدثا لا يمس المصحف . لا إن كان جنبا لا يقرأ القرآن في الصلاة بل يذكر الله تعالى عوض القراءة . ولا يتيمم إلا بتراب طاهر غير مخالط للرمل والجص ويجوز بالغبار على ظهر الحيوان والثوب . ويسمى الله تعالى عند التيمم ، وينوى استباحة الصلاة قبل ضرب اليد على التراب ، ويضم أصابعه لضربة الوجه ويمسح جميع الوجه ، فلو بقي شيء من محل الفرض غير ممسوح لا يصير التيمم . ويضرب ضربة لليدين مبسوط الأصابع ويعم بالتراب محل الفرض وإن لم يقدر إلا بضربتين فصاعدا كيف أمكنه لا بد أن يعم التراب محل الفرض . ويمسح إذا فرغ إحدى الراحتين بالأخرى حتى تصيرا ممسوحتين ، ويمر اليد على ما نزل من اللحية من غير إيصال التراب إلى المنابت .

وأما المسح : فيمسح على الخف ثلاثة أيام ولياليهن في السفر . والمقيم يوما وليلة . وابتداء المدة من حين الحدث بعد لبس الخف ، لا من حين لبس الخف . ولا حاجة إلى النية عند لبس الخف ، بل يحتاج إلى كمال الطهارة ، حتى لو لبس أحد الخفين قبل غسل الرجل الأخرى لا يصح أن يمسح على الخف . ويشترط في الخف إمكان متابعة المشي عليه وستر محل الفرض . ويكفي مسح يسير من أعلى الخف ، والأولى مسح أعلاه وأسفله من غير تكرار ومتى ارتفع حكم المسح ـ بانقضاء المدة أو ظهور شيء من محل الفرض وإن كان عليه لفافة وهو على الطهارة ـ يغسل القدمين دون استئناف الوضوء على الأصح . والماسح في السفر إذا أقام يمسح كالمقيم ، وهكذا المقيم إذا سافر يمسح كالمسافر . واللبد وإذا ركب جوربا ونعل يجوز على المسح عليه ويجوز على المشرج إذا ستر محل الفرض ، ولا يجوز على المنسوخ وجهه الذي يستر بعض القدم به والباقي باللفافة .

فأما القصر والجمع فيجمع بين الظهر والعصر في وقت إحداهما . ويتيمم لكل واحدة ولا يفصل بينهما بكلام وغيره وهكذا الجمع بين المغرب والعشاء . ولا قصر في المغرب والصبح بل يصليهما كهيئتهما من غير قصر وجمع . والسنن الرواتب يصليها بالجمع بين السنتين قبل الفريضتين للظهر والعصر . وبعد الفراغ من الفريضتين يصلي ما يصلي بعد الفريضه من الظهر ركعتين أو أربعا ، وبعد الفراغ من المغرب والعشاء يؤدي السنن الراتبة لهما ويوتر بعدهما ، ولا يجوز أداء الفرض على الدابة بحال إلا عند التحام القتال للغازي . ويجوز ذلك في السنن الرواتب والنوافل ، وتكفيه الصلاة على ظهر الدابة ، وفي الركوع والسجود الإيماء ، ويكون إيماء السجود أخفض من الركوع ، إلا أن يكون قادرا على التمكن مثل أن يكون في محاورة وغير ذلك ، ويقوم توجهه إلى الطريق مقام استقبال القبلة ، ولا يوجهها إلى غير الطريق إلا للقبلة حتى لو حرف دابته عن الصوب المتوجه إليه لا إلى نحو القبلة بطلت صلاته . والماشي يتنفل في السفر ويقنعه استقبال القبلة عند الإحرام ، ولا يجزئه في الإحرام إلا الاستقبال، ويقنعه الإيماء للركوع والسجود وراكب الدابة لا يحتاج إلى استقبال القبلة للاحرام أيضا . وإذا أصبح المسافر مقيما ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم في الصوم ، وهكذ إن أصبح مسافرا ثم أقام ، والصوم في السفر أفضل من الفطر ، وفي الصلاة القصر أفضل من الإتمام ، فهذا القدر كاف للصوفي أن يعلمه من حكم الشرع في مهام سفره .

فأما المندوب والمستحب فينبغي أن يطلب لنفسه رفيقا في الطريق تعينه على أمر الدين ، وقد قيل : الرفيق ثم الطريق ، ونهى رسول الله ﷺ أن يسافر وحده إلى أن يكون صوفيا عالما بآفة نفسه يختار الوحدة على بصيرة من أمره فلا بأس بالوحدة ، وإذا كانوا جماعة ينبغي أن يكون فيهم متقدم أمير . قال رسول الله ﷺ « إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا أحدكم » والذي يسميه الصوفية « ببشر » وهو الأمير وينبغي أن يكون الأمير أزهد الجماعة في الدنيا ، وأوفرهم حظا من التقوى ، وأتمهم مروءة وسخاوة ، وأكثرهم شفقة وروى عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه » نقل عن عبد الله المروزي : أن أبا علي الرباطي صحبه فقال : على أن أكون أنا الأمير أو أنت ؟ فقال : بل أنت ، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي علي على ظهره ، وأمطرت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه يظله بكسائه من

المطر ، وكلما قال لا تفعل يقول ألست الأمير وعليك الانقياد والطاعة . فأما إن كان الأمير يصحب الفقراء لمحبة الاستتباع وطلب الرياسة والتعزز ليتسلط على الخدام فى الربط ويبلغ نفسه هواها ؛ فهذا طريق أرباب الهوى الجهال المباينين لطريق الصوفية ، وهو سبيل من يريد جمع الدنيا ، فليتخذ لنفسه رفقاء مائلين إلى الدنيا يجتمعون لتحصيل أغراض النفس والدخول على أبناء الدنيا والظلمة للتوصل إلى تحصيل مآرب النفس ، ولا يخلو اجتماعهم هذا عن الخوض فى الغيبة والدخول فى المداخل المكروهة والتنقل فى الربط والاستمتاع والنزهة . وكلما كثر المعلوم فى الرباط أطالوا المقام وإن تعذرت أسباب الدين ، وكلما قل المعلوم رحلوا وان تيسرت أسباب الدين ، وليس هذا طريق الصوفية .

ومن المستجيب أن يودع إخوانه إذا أراد السفر ، ويدعو لهم بدعاء رسول الله ﷺ ، قال بعضهم : صحبت عبد الله بن عمر من مكة إلى المدينة ، فلما أردت مفارقته شيعنى وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال لقمان لابنه : يا بنى إن الله تعالى إذا استودع شيئا حفظه ، وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك » . وروى زيد ابن أرقم عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا أراد أحدكم سفرا فليودع اخوانه ، فإن الله تعالى جاعل له فى دعائهم البركة » . وروى عنه عليه السلام أيضا أنه كان إذا ودع رجلا قال : « زودك الله التقوى ، وغفر ذنبك ، ووجهك للخير حيثما توجهت » وينبغى أن يعتقد إخوانه إذا دعا لهم واستودعهم الله أن الله يستجيب دعاءه ؛ فقد روى أن عمر رضى الله عنه كان يعطى الناس عطاياهم ، إذ جاء رجل معه ابن له فقال له عمر : ما رأيت أحدا أشبه بأحد من هذا بك ؟ فقال الرجل : أحدثك عنه يا أمير المؤمنين ، إنى أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به فقالت : تخرج وتدعنى على هذه الحالة ؟ فقلت : أستودع الله ما فى بطنك ، فخرجت ثم قدمت فإذا هى قد ماتت ؛ فجلسنا نتحدث فإذا نار تلوح على قبرها ، فقلت للقوم : ماهذه النار ؟ فقالوا : هذه من قبر فلانة نراها كل ليلة ، فقلت : والله إنها كانت صوامة قوامة ، فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا وإذا سراج وإذا هذا الغلام يدب ، فقيل : إن هذا وديعتك ولو كنت استودعتنا امه لوجدتها ، فقال عمر : هو أشبه بك من الغراب بالغراب ، وينبغى أن يودع كل منزل يرحل عنه بركعتين ويقول اللهم زودنى التقوى واغفر لى ذنوبى ووجهنى للخير أينما توجهت ، وروى أنس بن مالك قال : كان رسول الله عليه الصلاة والسلام لا ينزل منزلا إلا ودعه بركعتين ، فينبغى أن يودع كل منزل ورباط يرحل عنه بركعتين ، وإذا ركب الدابة فليقل : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين بسم الله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور . والسنة أن يرحل من المنازل بكرة ويبتدىء بيوم الخميس ، روى كعب بن مالك قال : قلما كان رسول الله ﷺ يخرج إلى السفر إلا يوم الخميس ، وكان إذا أراد أن يبعث سرية بعثها أول النهار ويستحب كلما أشرف على منزل أن يقول : اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وماذرين ، ورب البحار وما جرين : أسألك خير هذا المنزل وخير أهله ، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر أهله . وإذا نزل فليصل ركعتين ، ومما ينبغى للمسافر أن يصحبه آلة الطهارة قيل : كان ابراهيم الخواص لا يفارقه أربعة أشياء فى الحضر والسفر : الركوة ، الحبل ، والإبرة وخيوطها ، والمقراض . وروت عائشة رضى الله عنها : أن رسول ﷺ كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء : المرآة والمكحلة ، والمدرى ، والسواك ، والمشط وفى رواية . المقراض ، والصوفية لا تفارقهم العصى ، وهى أيضاً من السنة .

روى معاذ بن جبل قال رسول الله ﷺ « إن أتخذ منبراً فقد اتخذه ابراهيم ، وإن اتخذ العصا فقد اتخذها إبراهيم وموسى » وروى عن عبد الله بن عباس عنهما أنه قال : التوكؤ على العصا من أخلاق الأنبياء ، كان لرسول الله ﷺ عصا يتوكأ عليها ويأمر بالتوكؤ على العصا ، وأخذ الركوة أيضا من السنة . وروى جابر عن عبد الله قال : بينما رسول الله ﷺ يتوضأ من ركوة إذ جهش الناس نحوه : أى أسرعوا نحوه ، والأصل فيه البكاء ، كالصبى يتلازم بالأم ويسرع إليها عند البكاء ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « مالكم ؟ قالوا :

يارسول الله ما نجد ماء نشرب ولا نتوضأ به إلا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فنظرت وهو يفور من بين أصابعه مثل العيون ، قال : فتوضأ القوم منه . قلت : كم كنتم ؟ قال : وكنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة فى غزوة الحديبية .

ومن السنة الصوفية شد الوسط وهو من السنة : روى أبو سعيد قال : حج رسول الله ﷺ وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة وقال « اربطوا على أوساطكم بأزركم » فربطنا ومشينا خلفه الهرولة .

ومن ظاهر آداب الصوفية عند خروجهم من الربط أن يصلى ركعتين فى أول النهار يوم السفر بكرة كما ذكرنا يودع البقعة بالركعتين ، ويقدم الخف وينفضه ، ويشمر الكم اليمنى ثم اليسرى ، ثم يأخذ الميانيد الذى يشد به وسطه ويأخذ خريطة المداس وينفضها ، ويأتى الموضع الذى يريد أن يلبس الخف فيفرش السجادة طاقين ويحك نعل أحد المداسين بالآخر ، ويأخذ المداس باليسار والخريطه باليمن ، ويضع المداس فى الخريطة أعقابه إلى أسفل ويشد رأس الخريطة ، ويدخل المداس بيده اليسرى من كمه الأيسر ويضعه خلف ظهره . ثم يقعد على السجادة ويقدم الخف بيساره وينفضه ، ويبتدىء باليمنى فيلبس ، ولا يدع شيئا من الران أو المنطقة يقع على الأرض ثم يغسل يديه ويجعل وجهه إلى الموضع الذى يخرج منه ويودع الحاضرين . فإن أخذ بعض الإخوان راويته إلى خارج الرباط لا يمنعه وهكذا العصا والإبريق ويودع من شيعه ثم يشد الراوية يرفع يده اليمنى ويخرج اليسرى من تحت إبطه الأيمن ويشد الراويه على الجانب الأيسر ويكون كتفه الأيمن خاليا وعقدة الراوية على الجانب الأيمن فاذا وصل فى طريقه إلى موضع شريف أو استقبله جمع من الاخوان أو شيخ من الطائفة يحل الراوية ويحطها ويستقبلهم ويسلم عليهم ثم إذا جاوزوه يشد الراوية وإذا دنا من منزل — رباطا كان أو غيره — يحل الراوية ويحملها تحت إبطه الأيسر وهكذا العصا والإبريق يمسكه بيساره وهذه الرسوم استحسنها فقراء خراسان والجبل ولا يتعهدها أكثر فقراء العراق والشام والمغرب ، ويجرى بين الفقراء مشاحنه فى رعايتها فمن لا يتعهدها يقول : هذه رسوم لا تلزم والالتزام بها وقوف مع الصور وغفلة عن الحقائق . ومن يتعهدها يقول : هذه آداب وضعها المتقدمون وإذا رأوا من يخل بها أو بشىء منها ينظرون إليه نظر الازدراء والحقارة ويقال : هذا ليس بصوفى وكلا الطائفتين فى الانكار يتعدون الواجب . والصحيح فى ذلك أن من يتعاهدها لا ينكر عليه . فليس بمنكر فى الشرع وهو أدب حسن . ومن لم يلتزم بذلك فلا ينكر عليه فليس بواجب فى الشرع ولا مندوب إليه . وكثير من فقراء خراسان والجبل يبالغ فى رعاية هذه الرسوم إلى حد يخرج إلى الإفراط وكثيراً ما يخل بها فقراء العراق والشام والمغاربة إلى حد يخرج إلى التفريط والأليق أن ما ينكره الشرع ينكر وما لا ينكره لا ينكر ويجعل لتصاريف الإخوان أعذاراً ما لم يكن فيها منكر أو إخلال بمندوب إليه والله الموفق

الباب الثامن عشر : فى القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه

ينبغى للفقير إذا رجع من السفر أن يستعيذ بالله تعالى من آفات المقام كما يستعيذ به من وعثاء السفر . ومن الدعاء المأثور : « اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء النظر فى الأهل والمال والولد » ، وإذا أشرف على بلد يريد المقام بها يشير بالسلام على من بها من الأحياء والأموات ويقرأ من القرآن ما تيسر ويجعله هديه الأحياء والأموات ويكبر . فقد روى أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من غزو أو حج يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث مرات ويقول « لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » ويقول إذا رأى البلد : اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا ولو اغتسل كان حسنا اقتداء برسول الله ﷺ حيث اغتسل لدخول مكة . وروى « أن رسول الله ﷺ لما رجع من طلب الأحزاب ونزل المدينة نزع لأمته واغتسل واستحم ، وإلا فليجدد الوضوء ويتنظف ويتطيب ويستعد للقاء الإخوان بذلك ، وينوى التبرك بمن هنالك من الاحياء والأموات ويزورهم » .

روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خرج رجل يزور أخا له فى الله فأرصد الله بمدرجته ملكا وقال . أين تريد ؟ قال . أزور فلانا ، قال لقرابة ؟ قال : لا ، قال : لنعمة له عندك تشكرها ؟ قال . لا ، قال فيم تزوره ؟ قال : إنى أحبه فى الله : قال فإنى رسول الله إليك بأنه يحبك بحبك إياه » .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا دعا الرجل أخاه أو زاره فى الله قال الله له: طبت وطاب ممشاك ، وتبوأ من الجنة منزلا » وروى أن رسول الله ﷺ قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة » فيحصل للفقير فائدة الأحياء والأموات بذلك . فإذا دخل البلد يبتدىء بمسجد من المساجد يصلى فيه ركعتين ، فإن قصد الجامع كان أكمل وأفضل . وقد كان رسول الله ﷺ إذا قدم دخل المسجد أولا وصلى ركعتين ثم دخل البيت . والرباط للفقير بمنزله البيت ، ثم يقصد الرباط فقصده الرباط من السنة ، على ماروينا عن طلحة رضى الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه ، وإن كان لم يكن له بها عريف نزل الصفة ، فكنت ممن أنزل الصفة . فإذا دخل الرباط يمضى إلى الموضع الذى يريد نوع الخف فيه ، فيحمل وسطه وهو قائم ، ثم يخرج الخريطة بيساره من كمه اليسار ويحل رأس الخريطة باليمين ويخرج المداس باليسار ، ثم يضع المداس على الأرض ويأخذ المياثيد ويلقيها فى وسط الخريطة ، ثم ينزع خفه اليسار ، فإن كان على الوضوء يغسل قدميه بعد نزع الخف من تراب الطريق والعرق ، وإذا قدم على السجادة يطوى السجادة من جانب اليسار ، ويمسح قدميه بما انطوى ثم يستقبل القبلة ويصلى ركعتين ، ثم يسلم ويحفظ القدم أن يطأ بها موضع السجود من السجادة ، وهذه الرسوم الظاهرة التى استحسنها بعض الصوفية لاتنكر على من يتقيد بها لأنه من استحسان الشيوخ . ونيتهم الظاهرة فى ذلك : تقييد المريد فى كل شىء بهيئة مخصوصة ، ليكون أبدا متفقدا لحركاته غير قادم على حركة بغير قصد وعزيمة وأدب ومن أخل من الفقراء بشىء من ذلك لا ينكر عليه مالم يخل بواجب أو مندوب ؛ لأن أصحاب رسول الله ﷺ ما تقيدوا بكثير من رسوم المتصوفة ، وكون الشبان يطالبون الوارد عليهم بهذه الرسوم من غير نظر لهم إلى النية فى الأشياء غلط ، فلعل الفقير يدخل الرباط غير مشمر أكمامه ، وقد كان فى السفر لم يشمر الأكمام فينبغى أن لايتعاطى ذلك لنظر الخلق حيث لم يخل بمندوب إليه شرعا وكون الآخر يشمر الأكمام يقيس ذلك على شد الوسط وشد الوسط من السنة كما ذكرنا من شد أصحاب رسول الله ﷺ أوساطهم فى سفرهم بين المدينة ومكة ، فتشمر الأكمام فى معناه من الخفة والارتفاق به فى المشى ، فمن كان مشدود الوسط مشمرا يدخل الرباط كذلك ومن لم يكن فى السفر مشدود الوسط أو كان راكبا لم يشد وسطه فمن الصدق أن يدخل كذلك ولا يتعمد شد الوسط وتشمير الأكمام لنظر الخلق فإنه تكلف ونظر إلى الخلق ومبنى التصوف على الصدق وسقوط نظر الخلق ومما ينكر على المتصوف أنهم إذا دخلوا الرباط لايبتدئون بالسلام ويقول المنكر : هذا الخلاف المندوب ولاينبغى للمنكر أن يبادر إلى الإنكار دون أن يعلم مقاصدهم فيما اعتمدوه وتركهم السلام يحتمل وجوها ، أحدها : أن السلام اسم من أسماء الله تعالى وقد روى عبد الله بن عمر قال : مر رجل على النبى ﷺ وهو يبول فسلم عليه فلم يرد عليه حتى كاد الرجل أن يتوارى ، فضرب يده على الحائط ومسح بها وجهه ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ثم رد على الرجل السلام وقال : « إنه لم يمنعنى أن أرد عليه السلام إلا أنى لم أكن على طهر » .

وروى أنه لم يرد عليه حتى توضأ ثم اعتذر إليه وقال : « إنى كرهت أن أذكر الله تعالى إلا على طهر » وقد يكون جمع من الفقراء مصطحبين فى السفر وقد يتفق لأحدهم حدث ، فلو سلم المتوضىء وأمسك المحدث ظهر حاله ، فيترك السلام حتى يتوضأ من يتوضأ ويغسل قدمه من يغسل سترا للحال على من أحدث ، حتى يكون سلامهم على الطهارة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد يكون بعض المقيمين أيضا على غير طهارة فيستعد لجواب السلام أيضا بالطهارة ، لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى ، وهذا من أحسن ما يذكر من الوجوه

فى ذلك . ومنها أنه إذا قدم يعانقه الإخوان وقد يكون معه من آثار السفر والطريق ما يكره فيستعد بالوضوء والنظافة ثم يسلم ويعانقهم . ومنها أن جمع الرباط أرباب مراقبة وأحوال ، فلو هجم عليهم بالسلام قد ينزعج منه مراقب ويتشوش محافظ ، والسلام يتقدمه استئناس بدخوله واشتغاله بغسل القدم والوضوء وصلاة ركعتين ، فيتأهب الجمع له كما يتاهب لهم بعد مسابقة الاستئناس . وقال الله تعالى ﴿ حتى تستأنسوا ﴾ واستئناس كل قوم على ما يليق بحالهم ومنها أنه لم يدخل على غير بيته ولا هو بغريب منهم ، بل هم إخوانه والألفة بالنسبة المعنوية الجامعة لهم فى طريق واحد والمنزل منزله والموضع موضعه فيرى البركة فى استفتاح المنزل بمعاملة الله قبل معاملة الخلق ، كما يمهد عذرهم فى ترك السلام ينبغى لهم أن لا ينكروا على من يدخل ويبتدىء بالسلام فكما أن من ترك السلام له نية فالذى ابتدأ به له أيضاً نية .

وللقوم آداب ورد بها الشرع ومنها آداب استحسنها شيوخهم ، فمما ورد به الشرع : ما ذكرنا من شد الوسط والعصا والركوة والابتداء باليمين فى لبس الخف وفى نزعه باليسار : روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إذا انتعلتم فابدءوا باليمين ، وإذا خلعتم فابدءوا باليسار أو اخلعهما جميعا أو انعلهما جميعا» روى جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يخلع اليسرى قبل اليمنى ويلبس اليمنى قبل اليسرى .

وبسط السجادة وردت به السنة وقد ذكرناه . وكون أحدهم لا يقعد على سجادة الآخر مشروع ومسنون .وقد ورد فى حديث طويل « لا يؤم الرجل فى سلطانه ولا فى أهله ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه » .

وإذا سلم على الإخوان يعانقهم ويعانقونه ، فقد روى جابر بن عبد الله قال : « لما قدم جعفر من أرض الحبشة عانقه النبى ﷺ . وإن قبلهم فلا بأس بذلك روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم جعفر قبل ما بين عينيه وقال : « ما أنا بفتح خيبر أسر منى بقدوم جعفر » ويصافح إخوانه فقد قال عليه السلام « قبلة المسلم أخاه المصافحة» وروى أنس بن مالك قال : قيل يارسول الله ، الرجل يلقى صديقه وأخاه ينحنى له ؟ قال : لا . قيل : يلزمه ويقبله؟ قال : لا . قيل : فيصافحه ؟ قال : نعم .

يستحب للفقراء المقيمين فى الرباط أن يتلقوا الفقراء بالترحيب : روى عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جئته « مرحبا بالراكب المهاجر » مرتين . وإن قاموا إليه فلا بأس وهو مسنون : روى عنه عليه السلام أنه قام لجعفر يوم قدومه .

ويستحب للخادم أن يقدم له الطعام : روى لقيط بن صبره قال : وفدنا على رسول الله ﷺ فلم نصادفه فى منزله وصادفنا عائشة رضى الله عنها ، فأمرت لنا بالحريرة فصنعت لنا ، وأتينا بقناع فيه تمر ــ والقناع الطبق ــ فأكلنا ثم جاء رسول الله ﷺ فقال : « أصبتم شيئا ! » قلنا : نعم يارسول الله .

ويستحب للقادم أن يقدم للفقراء شيئا لحق القدوم : ورد ان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة نحر جزورا .

وكراهيتهم لقدوم القادم بعد العصر وجهه من السنة منع النبى ﷺ عن طروق الليل .

والصوفية بعد العصر يستعدون لاستقبال الليل بالطهارة والانكباب على الأذكار والاستغفار : روى جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قدم احدكم من سفر فلا يطرقن اهله ليلا » وروى كعب بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدم من السفر إلا نهاراً فى الضحى . فيستحبون القدوم فى اول النهار. فإن فات من اول النهار فقد يتفق تعويق من ضعف بعضهم فى المشى او غير ذلك فيعذر الفقير بقية النهار إلى العصر لاحتمال التعويق فإذا صار العصر ينسب إلى تقصيره فى الاهتمام بالسنة وقدوم اول النهار فإنهم يكرهون الدخول بعد العصر والله اعلم فاذا صار العصر يؤخر القدوم إلى الغد ليكون عاملا بالسنة للقدوم ضحوة وايضا فيه معنى آخر : وهو ان الصلاة بعد العصر مكروهة .

ومن الأدب : ان يصلى القادم ركعتين فلذلك يكرهون القدوم بعد صلاة العصر وقد يكون من الفقراء القادمين

من يكون قليل الدراية بدخول الرباط ويناله دهشة ، فمن السنة التقرب إليه والتودد وطلاقة الوجه حتى ينبسط وتذهب عنه الدهشة ، فني ذلك فضل كثير .

روى أبو رفاعة قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو يخطب فقلت: يارسول الله ، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لايدرى مادينه ؟قال : فأقبل النبي ﷺ على وترك خطبته ، ثم أتى بكرسى قوائمه من حديد فقعد رسول الله ثم جعل يعلمنى مما علمه الله ، ثم أتى خطبته وأتم آخرها . فأحسن أخلاق الفقراء الرفق بالمسلمين واحتمال المكروه من المسموع والمرئى وقد يدخل فقير بعض الربط ويخل بشيء من مراسم المتصوفة فينهر ويخرج ، وهذا خطأ كبير فقد يكون خلق من الصالحين والأولياء لايعرفون هذا الترسم الظاهر ويقصدون الرباط بنية صالحة ؛ فإذا استقبلوا بالمكروه يخشى أن تتشوش بواطنهم من الأذى ويدخل على المنكر عليه ضرر فى دينه ودنياه فليحذر ذلك وينظر إلى أخلاق النبي ﷺ وما كان يعتمده مع الخلق من المداراة والرفق . وقد صح: أن أعرابيا دخل المسجد وبال ، فأمر النبي ﷺ حتى أتى بذنوب فصب على ذلك ولم ينهر الأعرابى ، بل رفق به وعرفه الواجب بالرفق واللين . والفظاظة والتغليظ والتسلط على المسلمين بالقول والفعل من النفوس الخبيثة وهوضد حال المتصوفة ومن دخل الرباط ممن لا يصلح للمقام به رأسا يصرف من الموضع على الطف وجه بعد أن يقدم له طعام ويحسن له الكلام فهذا الذى يليق بسكان الرباط وما يعتمده الفقراء من تغميز القادم فخلق حسن ومعاملة صالحة وردت به السنة. روى عمر رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله ﷺ وغلام له حبشى يغمز ظهره فقلت : يارسول الله ماشأنك ؟ فقال : « إن الناقة اقتحمت بى» فقد يحسن الرضا بذلك ممن يغمز فى وقت تعبه وقدومه من السفر فأما من يتخذ ذلك عادة ويحب التغميز ويستجلب به النوم ويساكنه حتى لا يفوته فلا يليق بحال الفقراء ـ وإن كان فى الشرع جائزـ وكان بعض الفقراء إذا استرسل فى الغمز واستلذه واستدعاه يحتلم فيرى ذلك الاحتلام عقوبة استرساله فى التغميز ولأرباب العزائم أمور لايسعهم فيها الركون إلى الرخص .

ومن آداب الفقير إذا استقر وقعد بعد قدومه أن لايبتدىء بالكلام دون أن يسئل ويستحب أن يمكث ثلاثة أيام لايقصد زيارة أو مشهد أو غير ذلك مما هو مقصوده من المدينة حتى يذهب عنه وعثاء السفر ويعود باطنه إلى هيئته فقد يكون بالسفر وعوارضه تغير باطنه وتكدر حتى تجتمع فى الثلاثة أيام همته وينصلح باطنه ويستعد للقاء المشايخ والزيارات بتنوير الباطن فإن باطنه إذا كان منوراً يستوفى حظه من الخير من كل شيخ وأخ يزوره وقد كنت أسمع شيخنا يوصى الأصحاب ويقول : لا تكلموا أهل هذا الطريق إلا فى أصفى أوقاتكم وهذا فيه فائدة كبيرة فإن نور الكلام على قدر نور القلب ونور السمع على قدر نور القلب فإذا دخل على شيخ أوأخ وزاره ينبغى أن يستأذنه إذا أراد الانصراف فقد روى عبد الله بن عمر قال : قال النبي ﷺ « إذا زار أحدكم أخاه فجلس فلا يقومن حتى يستأذنه » وإن نوى أن يقيم أياما وفى وقته سعة ولنفسه إلى البطالة وترك العمل تشوف يطلب خدمة يقوم بها وإن كان دائم العمل لربه فكفى بالعبادة شغلا لأن الخدمة لأهل العبادة تقوم مقام العبادة ولا يخرج من الرباط إلا بإذن المقدم فيه ولا يفعل شيئا دون أن يأخذ رأيه فيه .

فهذه جمل أعمال يعتمدها الصوفية وأرباب الربط والله تعالى بفضله يزيدهم توفيقا وتأديبا .

الباب التاسع عشر : فى حال الصوفى المتسبب

اختلف أحوال الصوفية فى الوقوف مع الأسباب والإعراض عن الأسباب فمنهم من كان على الفتوح لا يركن إلى معلوم ولا يتسبب بكسب ولا سؤال ومنهم من كان يكتسب ومنهم من كان يسأل فى وقت فاقته ولهم فى كل ذلك أدب وحد يراعونه ولا يتعدونه وإذا كان الفقير يسوس نفسه بالعلم يأتيه الفهم من الله تعالى فى الذى يدخل فيه من سبب أو ترك سبب . فلا ينبغى للفقير أن يسأل مهما أمكن . فقد حث النبي ﷺ على ترك السؤال بالترغيب

والترهيب . فأما الترغيب فما روى ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ « من يضمن لى واحدة أتكفل له بالجنة » . قال ثوبان : قلت أنا قال « لاتسأل الناس شيئا » فكان ثوبان تسقط علاقة سوطه فلا يأمر أحدا يناوله وينزل هو ويأخذها . وروى أبو هريرة رضى عنه قال . قال رسول الله ﷺ « لأن يأخذ أحدكم حبلا فيحتطب على ظهره فيأكل ويتصدق فى خير له من أن يأتى رجلا فيسأله أعطاه أومنعه . فإن اليد العليا خير من اليد السفلى » . أخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعه طاهر بن أبى الفضل الحافظ المقدسى قال : أخبرنى والدى قال أخبرنا أبو محمد الصيرفى ببغداد قال أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد قال حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا على بن الجعد قال حدثنا شعبة عن أبى حمزة قال سمعت هلال بن حسين قال « أتيت المدينة فنزلت دار أبى سعيد فضمنى وإياه المجلس فحدث أنه أصبح ذات يوم وليس عندهم طعام فأصبح وقد عصب على بطنه حجرا من الجوع ، فقالت لى امرأتى ، ائت رسول الله ﷺ فقد أتاه فلان فأعطاه وأتاه فلان فأعطاه قال : فأتيته وقات ألتمس شيئا فذهبت أطلب فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب ويقول « من يستعف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله . ومن سألنا شيئا فوجدناه أعطيناه وواسيناه . ومن استعف عنه واستغنى فهو أحب إلينا ممن سألنا » قال فرجعت وماسألته فرزقنى الله تعالى حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منه .

وأما من حيث الترهيب والتحذير : فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله . وليس فى وجهه مزعة لحم » وروى عن أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ليس المسكين الذى ترده الأكلة والأكلتان والتمرة والتمرتان . ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس ولا يفطن بمكانه فيعطى » هذا هو حال الفقير الصادق ، والمتصوف المحقق لايسأل الناس شيئا ومنهم من يلزم الأدب حتى يؤديه إلى حال يستحى من الله تعالى أن يسأله شيئا من أمر الدنيا حتى إذا همت النفس بالسؤال ترده الهيبة ويرى الاقدام على السؤال جراءة فيعطه الله تعالى عند ذلك من غير سؤال : كما نقل عن إبراهيم الخليل عليه السلام : أنه جاءه جبريل وهو فى الهواء . قبل أن يصل إلى النار فقال : هل لك من حاجة ؟ أما إليك فلا . فقال له : فسل ربك ، فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالى . وقد يضعف عن مثل هذا فيسأل الله عبودية ولا يرى سؤال المخلوقين ، فيسوق الله تعالى إليه القسم من غير سؤال مخلوق .

بلغنا عن بعض الصالحين أنه كان يقول : إذا وجد الفقير نفسه مطالبة بشىء لاتخلو تلك المطالبة : إما أن تكون لرزق يريد الله أن يسوقه إليه . فتنتبه النفس له . فقد تنطلع نفوس بعض الفقراء إلى ما سوف يحدث وكأنها تخبر بما يكون . وإما أن يكون ذلك عقوبة لذنب وجدمنه . فإذا وجد الفقير ذلك . وألحت النفس بالمطالبة فليقم وليسبغ الوضوء ويصل ركعتين ويقول : يارب إن كانت هذه المطالبة عقوبة ذنب فأستغفرك وأتوب إليك . وإن كانت لرزق قدرته لى فعجل وصوله إلى . فإن الله تعالى يسوقه إليه إن كان رزقه وإلا فتذهب المطالبة عن باطنه . فشأن الفقير أن ينزل حوائجه بالحق . فإما أن يرزقه الشىء أو الصبر أو يذهب ذلك عن قلبه ، الله سبحانه وتعالى أبواب من طريق الحكمة وأبواب من طريق القدرة . فإن فتح بابا من طريق الحكمة وإلا فيفتح بابا من طريق القدرة ويأتيه الشىء بخرق العادة . كما كان يأتى مريم عليها السلام ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله﴾ .

حكى عن بعض الفقراء قال : جعت ذات يوم وكان حالى أن لا أسأل . فدخلت بعض المحال ببغداد مجتازا متعرضا لعل الله تعالى يفتح لى على يد عباده شيئا فلم يقدر . فنمت جائعا فأتى آت فى منامى فقال لى : اذهب إلى موضع كذا — وعين الموضع — فثم خرقة زرقاء فيها قطيعات أخرجها فى مصالحك . فمن تجرد عن المخلوق وتفرد بالله فقد تفرد بغنى قادر لا يعجزه عن شىء يفتح عليه من أبواب الحكمة والقدرة كيف شاء . وأولى من سأل نفسه يسألها الصبر الجميل فإن الصادق تجيبه نفسه .

وحكى شيخنا رحمه الله تعالى أن ولده جاء إليه ذات يوم وقال له : أريد حبة ،قال : فقلت له، ماتفعل بالحبة ؟ فذكر شهوة يشتريها بالحبة، ثم قال : عن إذنك اذهب واستقرض الحبة ،قال : قلت نعم استقرضها من نفسك فهي أولى من أقرض.وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال :

إذا شئت أن تستقرض المال منفقا على شهوات النفس فى زمن العسر
فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها عليك وإرفاقا إلى زمن اليسر
فإن فعلت كنت الغنى وإن أبت فكل منوع بعدها واسع العذر

فإذا استنفد الفقير الجهد من نفسه وأشرف على الضعف وتحققت الضرورة وسأل مولاه ولم يقدر له بشيء ووقته يضيق عن الكسب من شغله بحاله ،فعند ذلك يقرع باب السبب ويسأل ، فقد كان الصالحون يفعلون ذلك عند فاقتهم.

نقل عن أبى سعيد الخراز أنه كان يمد يده عند الفاقة ويقول : ثم شيء لله .

ونقل عن أبى جعفر الحداد وكان أستاذا للجنيد أنه كان يخرج بين العشاءين ويسأل من باب أو بابين . ويكون ذلك معلومه على قدر الحاجة بعد يوم أو يومين .

ونقل عن إبراهيم بن أدهم أنه كان معتكفا بجامع البصرة مدة وكان يفطر فى كل ثلاث ليال ليلة ، وليلة إفطاره يطلب من الأبواب .

ونقل عن سفيان الثورى أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن ويسأل فى الطريق وقال : كنت أذكر لهم حديثا فى الضيافة فيقدم لى الطعام فأتناول حاجتى وأترك مايبقى وقد ورد « من جاع ولم يسأل فمات دخل النار » ومن عنده علم وله مع الله حال لا يبالى بمثل هذا بل يسأل بالعلم ويمسك عن السؤال بالعلم.

وحكى بعض مشايخنا عن شخص كان مصرا على المعاصى ، ثم انتبه وتاب وحسنت توبته وصار له حال مع الله قال : عزمت أن أحج مع القافلة ونويت أن لا أسأل أحدا شيئا واكتفى بعلم الله بحالى ،قال : فبقيت أياما فى الطريق ففتح الله على بالماء والزاد فى وقت الحاجة ، ثم وقف الأمر ولم يفتح الله على بشيء ، فجعت وعطشت حتى لم يبق لى طاقة ،فضعفت عن المشى وبقيت أتأخر عن القافلة قليلا قليلا حتى مرت القافلة ،فقلت فى نفسى : هذا الآن منى إلقاء النفس إلى التهلكة ،وقد منع الله من ذلك ،وهذه مسألة الاضطرار أسأل ، فلما هممت بالسؤال انبعث من باطنى إنكار لهذه الحال وقلت : عزيمة عقدتها مع الله لا أنقضها وهان على الموت دون نقض عزيمتى ، فقصدت شجرة وقعدت فى ظلها وطرحت رأسى استطراحا للموت وذهبت القافلة ، فبينا أنا كذلك إذ جاءنى شاب متقلد بسيف وحركنى ، فقمت وفى يده إداوة فيها ماء فقال لى اشرب فشربت ثم قدم لى طعاما وقال : كل ، فأكلت ، ثم قال لى : أتريد القافلة ؟ فقلت : من لى بالقافلة وقد عبرت ! فقال لى : قم وأخذ بيدى ومشى معى خطوات ثم قال اجلس فالقافلة إليك تجيء فجلست ساعة فإذا أنا بالقافلة ورائى متوجهة إلى . هذا شأن من يعامل مولاه بالصدق.

وذكر الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله : أن بعض الصوفية أول قول رسول الله ﷺ « أحل ما أكل من كسب يده » بأنه المسألة عند الفاقة ، وأنكر الشيخ أبو طالب هذا التأويل من هذا الصوفى ، وذكر أن جعفر الخلدى كان يحكى هذا التأويل عن شيخ من شيوخ الصوفية ، ووقع لى والله أعلم أن الشيخ الصوفى لم يرد بكسب اليد ما أنكر الشيخ أبو طالب منه ، وإنما أراد بكسب اليد رفعها إلى الله تعالى عند الحاجة فهو من أجل ما يأكله إذا أجاب الله إليه سؤاله وساق الله رزقه . وقال الله تعالى حكاية موسى عليه السلام ﴿ رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾ قال عبد الله بن عباس رضى عنهما : قال ذلك وإن خضرة البقل تتراءى فى بطنه من الهزال ، وقال محمد الباقر رحمه الله : وإنه محتاج إلى شق تمرة ، وروى عن أنه قال : أما والله لو كان عند نبى الله شيء ما اتبع المرأة ولكن حمله على ذلك الجهد ، وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى عن النصراباذى أنه قال فى قول ﴿ إنى لما أنزلت إلى من خير فقير لم يسأل الكليم الخلق وإنما كان سؤاله من الحق ، ولم يسأل

غذاء النفس إنما أراد سكون القلب

وقال أبو سعيد الخراز : الخلق مترددون بين مالهم وبين ماإليهم ، من نظر إلى ماله تكلم بلسان الفقر ، ومن شاهد ما إليه تكلم بلسان الخيلاء والفخر ؛ ألا ترى حال الكليم عليه السلام لما شاهد خواص ما خاطبه به الحق كيف قال : أرنى أنظر إليك ؟ ولما نظر إلى نفسه كيف أظهر الفقر وقال : إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ؟ وقال ابن عطاء : نظر من العبودية إلى الربوبية فخشع وخضع ، وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من الأنوار ، افتقار العبد إلى مولاه فى جميع أحواله ، لا افتقار سؤال وطلب : وقال الحسين : فقير لما خصصتنى من علم اليقين أن ترقينى إلى عين اليقين وحقه ، ووقع والله أعلم فى قوله ﴿ لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾ أن الإنزال مشعر ببعد رتبته عن حقيقة القرب فيكون الإنزال عين الفقر فما قنع بالمنزل وأراد قرب المنزل ،ومن صح فقره ففقره فى أمر آخرته كفقره فى أمر دنياه ، ورجوعه إليه فى الدارين وإياه يسأل حوائج المنزلين ، وتتساوى عنده الحاجتان فماله مع غير الله شغل فى الدارين .

الباب العشرون : فى ذكر من يأكل من الفتوح

إذا كمل شغل الصوفى بالله وكمل زهده لكمال تقواه بحكم الوقت عليه يترك التسبب وينكشف له صريح التوحيد وصحة الكفالة من الله الكريم ، فيزول عن باطنه الاهتمام بالأقسام ويكون مقدمة هذا أن يفتح الله له بابا من التعريف بطريق المقابلة على كل فعل يصدر منه حتى لو جرى عليه يسير من ذنب بحسب حاله أو الذنب مطلقا مما هو منهى عنه فى الشرع يجد غب ذلك فى وقته أو يومه كان يقول بعضهم : إنى لأعرف ذنبى فى سوء خلق غلامى ،وقيل إن بعض الصوفية قرض الفار خفه فلما رآه تألم وقال :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إشارة منه إلى أن الداخل عليه مقابلة له على شىء استوجب به ذلك ، فلا تزال به المقابلات متضمنة للتعريفات الإلهية حتى يتحصن بصدق المحاسبة وصفاء المراقبة عن تضييع حقوق العبودية ومخالفة حكم الوقت،ويتجرد له حكم فعل الله وتتمحى عنده أفعال غير الله فيرى المعطى والمانع هو الله سبحانه ذوقا وحالا لا علما وإيمانا،ثم يتداركه الحق تعالى بالمعونة ويوفقه على صريح التوحيد وتجريد فعل الله تعالى ، كما حكى عن بعضهم : أنه خطر له خاطر الاهتمام بالرزق فخرج إلى بعض الصحارى فرأى قنبرة عمياء عرجاء ضعيفة فوقف متعجبا منها متفكرا فيما تأكل مع عجزها عن الطيران والمشى والرؤية؛فبينما هو كذلك إذ انشقت الأرض وخرجت سكرجتان فى إحداهما سمسم نقى وفى الأخرى ماء صاف فأكلت من السمسم وشربت من الماء ثم انشقت الأرض وغابت السكرجتان، قال: فلما رأيت ذلك سقط عن قلبى الاهتمام بالرزق فإذا أوقف الحق عبده فى هذا المقام يزيل عن باطنه الاهتمام بالأقسام ويرى الدخول فى التسبب والتكسب بالسؤال وغيره رتبة العوام ويصير مسلوب الاختيار غير متطلع إلى الأغيار ناظرا إلى فعل الله منتظرا لأمر الله فتساق اليه الأقسام ويفتح عليه باب الإنعام ،ويكون بدوام ملاحظته لفعل الله وترصده مايحدث من أمر الله مكاشفا له تجليات من الله تعالى بطريق الأفعال، والتجلى بطريق الأفعال رتبة من القرب ومنه يترقى إلى التجلى بطريق الصفات، ومن ذلك يترقى إلى تجلى الذات والإشارة فى هذه التجليات إلى رتب فى اليقين ومقامات فى التوحيد شىء فوق شىء وشىء أصفى من شىء ، فالتجلى بطريق الأفعال يحدث صفو الرضا والتسليم ،والتجلى بطريق الصفات يكسب الهيبة والأنس ،والتجلى بالذات يكسب الفناء ومبقاء ،وقد يسمى ترك الاختيار والوقوف مع فعل الله فناء يعنون به فناء الإرادة والهوى ، والإرادة ألطف أقسام الهوى ، وهذا الفناء هو الفناء الظاهر فأما الفناء الباطن وهو محو آثار الوجود عند لمعان نور الشهود يكون فى تجلى الذات وهو أكمل أقسام اليقين فى الدنيا فأما تجلى حكم الذات فلا يكون إلا فى الآخرة وهو المقام الذى حظى به رسول الله ﷺ ليلة المعراج ومنع عنه موسى

بلن ترانى ، فليعلم أن قولنا فى التجلى إشارة الى رتب الحظ من اليقين ورؤية البصيرة فإذا وصل العبد الى مبادى أقسام التجلى وهو مطالعة الفعل الإلهى مجرداً عن فعل سواه يكون تناوله الأقسام من الفتوح وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال « من وجه إليه شيء من هذا الرزق من غير مسئلة ولا إشراف فلنأخذه وليوسع به فى رزقه فإن كان عنده غنى فليدفعه الى من هو أحوج منه » وفى هذا دلالة ظاهرة على أن العبد يجوز أن يأخذ زيادة على حاجته بنية صرفه الى غيره ، وكيف لا يأخذ وهو يرى فعل الله تعالى ؟ ثم إذا أخذ فمنهم من يخرجه إلى المحتاج ومنهم من يقف فى الإخراج أيضا حتى يرد عليه من الله علم خاص ليكون أخذه بالحق وإخراجه بالحق .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر قال : أخبرنا والدى الحافظ أبو الفضل المقدسى قال : أخبرنا أبو اسحق ابراهيم بن سعيد الحبال قال : أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن سعيد قال : أخبرنا أبو طاهر أحمد بن محمد بن عمرو قال : أخبرنا يوسف ابن عبد الأعلى قال حدثنا ابن وهب قال : حدثنا عمرو بن الحرث عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد عن حويطب ابن عبد العزى عن عبيد الله السعدى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعطينى العطاء فأقول له أعطيه يا رسول الله من هو أفقر منى فقال رسول الله ﷺ « خذه فتموله أو تصدق به وما جاءك من هذا المال وأنت غير متشرف ولا سائل فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك » قال سالم : فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيئا ولا يرد شيئا أعطيه . درج رسول الله ﷺ الأصحاب بأوامره إلى رؤية فعل الله تعالى والخروج من تدبير النفس إلى حسن تدبير الله تعالى .

سئل سهل بن عبد الله التسترى عن علم الحال قال : هو ترك التدبير ولو كان هذا فى واحد لكان من أوتاد الأرض.

وروى زيد بن خالد قال : قال رسول الله ﷺ « من جاءه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله فإنما هو شيء من رزق الله تعالى ساقه الله إليه » .

وهذا العبد الواقف مع الله تعالى فى قبول ما ساق الحق آمن ما يخشى عليه . إنما يخشى على من يرد ، لأن من رد لا يأمن من دخول النفس عليه أن يرى بعين الزهد . ففى أخذه إسقاط نظر الخلق تحققا بالصدق والإخلاص ، وفى إخراجه إلى الغير إثبات حقيقته ، فلا يزال فى كلا الحالين زاهدا يراه الغير بعين الرغبة لقلة العلم بحاله ، وفى هذا المقام يتحقق الزهد فى الزهد . ومن أهل الفتوح من يعلم دخول الفتوح عليه ، ومنهم من لا يعلم دخول الفتوح عليه . فمنهم من لا يتناول من الفتوح إلا إذا تقدمه علم بتعريف من الله إياه . ومنهم من يأخذ غير متطلع إلى تقدم العلم حيث تجرد له الفعل ، ومن لا ينتظر تقدمة العلم فوق من ينتظر تقدمة العلم لتمام صحته مع الله وانسلاخه من إرادته وعلم حاله فى ترك الاختيار . ومنهم من يدخل الفتوح عليه لا يتقدمه العلم ولا رؤية تجرد الفعل من الله ، ولكن يرزق شربا من المحبة بطريق رؤية النعمة ، وقد يتكدر شرب هذا بتغير معهود النعمة ، وهذا حاو ضعيف بالإضافة إلى الحالين الأولين لأنه علة فى المحبة ووليجة فى الصدق عند الصديقين . وقد ينتظر صاحب الفتوح العلم فى الإخراج أيضا كما ينتظر فى الأخذ لأن النفس تظهر فى الإخراج كما تظهر فى الأخذ . وأتم من هذا من يكون فى إخراجه مختاراً وفى أخذه مختاراً بعد تحققه بصحة التصرف فإن انتظار العلم إنما كان لموضع اتهام النفس وهو ببقية هوى موجود فإذا زال الاتهام بوجود صريح العلم يأخذ غير محتاج الى علم متجدد ويخرج كذلك ، وهذه حال من تحقق بقول رسول الله ﷺ حاكيا عن ربه « فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ، فبى يسمع وبى يبصر ، وبى ينطق » الحديث فلما صح تصرفه صح تصرفه . وهذا أعز فى الأحوال من الكبريت الأحمر ، وكان شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله يحكى عن الشيخ حماد أنه كان يقول : أنا لا آكل إلا من طعام الفضل فكان يرى الشخص فى المنام أن يحمل إليه شيئا وقد كان يعين للرائى فى المنام أن احمل إلى حماد كذا وكذا وقيل إنه يبقى زمانا يرى هو فى واقعته أو منامه إنك أحلت على فلان بكذا وكذا وحكى عنه أنه كان يقول : كل جسم تربى بطعام الفضل لا يتسلط عليه البلاء ويعنى بطعام الفضل ما شهد له صحة الحال من فتوح الحق ومن كانت هذه حالته فهو غنى بالله

قال الواسطى : الافتقار إلى الله أعلى درجة المريدين والاستغناء بالله أعلى درجة الصديقين وقال أبو سعيد الخراز : العارف تدبيره فنى فى تدبير الحق فالواقف مع الفتوح واقف مع الله ناظر إلى الله وأحسن ما حكى فى هــذا : أن بعضهم رأى النورى يمد يده ويسأل الناس ، قال : فاستعظمت ذلك منه واستقبحته له فأتيت الجنيد وأخبرته فقال لى : لا يعظم هذا عليك فإن النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم سؤلهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضره ، وقول الجنيد ليعطيهم كقول بعضهم اليد العليا يد الآخذ لأنه يعطى الثواب ، قال : ثم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال احملها اليه فقلت فى نفسى انما يزن ليعرف مقدارها فكيف خلط المجهول بالموزون وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرة الى النورى فقال : هات الميزان فوزن مائة درهم وقال : ردها وقل له أنا لا أقبل منك شيئا وأخذ ما زاد على المائة قال : فزاد تعجبى فسألته على ذلك ، فقال : الجنيد رجل حكيم يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه وزن المائة لنفسه طلبا للثواب وطرح عليها قبضة بلا وزن لله فأخذت ما كان لله ورددت ما جعله لنفسه قال : فرددتها على الجنيد فبكى وقال : أخذ ماله ورد مالنا . ومن لطائف ما سمعت من أصحاب شيخنا أنه قال ذات يوم لأصحابه : نحن محتاجون الى شىء من المعلوم فارجعوا الى خلواتكم واسألوا الله تعالى وما يفتح الله تعالى لكم ائتونى به ففعلوا ثم جاء من بينهم شخص يعرف باسمعيل البطائحى ومعه كاغد عليه ثلاثون دائرة وقال هذا الذى فتح الله لى فى واقعتى فأخذ الشيخ الكاغد فلم يكن إلا ساعة فإذا بشخص دخل ومعه ذهب فقدمه بين يدى الشيخ ففتح القرطاس واذا هو ثلاثون صحيحة فترك كل صحيح على دائرة وقال : هــذا فتوح الشيخ اسماعيل أو كلاما هذا معناه وسمعت الشيخ عبد القادر رحمه الله بعث الى شخص وقال : لفلان طعام وذهب اثنى من ذلك بكذا ذهبا وكذا طعاما فقال الرجل : كيف أنصرف فى وديعة عندى ولو استفتيك ما أفتيتنى بالتصرف ؟ فألزمه الشيخ بذلك فأحسن الظن بالشيخ وجاء اليه بالذى طلب فلما وقع التصرف منه جاءه مكتوب من صاحب الوديعة وهو غائب فى بعض نواحى العراق أن أحمل إلى الشيخ عبد القادر كذا وكذا وهو القدر الذى عينه الشيخ عبد القادر ، فعاتبه الشيخ بعد ذلك على توقفه وقال : ظننت بالفقراء أن إشاراتهم تكون على غير صحة وعلم . فالعبد إذا صح مع الله تعالى وأفنى هواه متطلبا رضا الله تعالى يرفع الله عن باطنه هموم الدنيا ويجعل الغنى فى قلبه ويفتح عليه أبواب الرفق ، وكل الهموم المتسلطة على بعض الفقراء لكون قلوبهم ما استكملت الشغل بالله والاهتمام برعاية حقائق العبودية ، فعلى قدر ما خلت لهم بالله ابتليت بهم الدنيا ولو امتلأت من هم الله ما عذبت بهموم الدنيا وقنعت وارتفقت ، روى أن عوف بن عبد الله المسعودى كان له ثلثمائة وستون صديقا وكان يكون عند كل واحد يوما ، وآخر كان له ثلاثون صديقا يكون عند كل واحد يوما ، وآخر كان له سبعة إخوان يكون كل يوم من الأسبوع عند واحد ، فكان إخوانهم معلومهم والمعلوم إذا أقامه الحق للناظر إلى الله الكامل توحيده يكون نعمة هنيئة . جاء رجل الى الشيخ أبى السعود رحمه الله ـ وكان من أرباب الاحوال السنية والواقفين فى الاشياء مع فعل الله تعالى متمكنا من حاله تاركا لاختياره ، ولعله سبق كثيرا من المتقدمين فى تحقيق ترك الاختيار ، رأيناه منه وشاهدنا أحوالا صحيحة عن قوة وتمكين ـ فقال له الرجل : أريد أن أعين لك شيئا كل يوم من الخبز أحمله إليك ولكنى قلت : الصوفية يقولون المعلوم شؤم قال الشيخ : نحن ما تقول المعلوم شؤم فإن الحق يصفى لنا وفعله نرى فكل ما يقسم لنا نراه مباركا ولا نراه شؤما . أخبرنا أبو زرعة اجازة قال : أنبأنا أبو بكر بن أحمد بن خلف الشيرازى اجازة قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت أبا بكر بن شاذان قال سمعت أبا بكر الكتانى قال : كنت أنا وعمرو المكى وعياش بن المهدى نصطحب ثلاثين سنة نصلى الغداة على طهر العصر وكنا قعودا بمكة على التجريد ما لنا على الارض ما يساوى فلسا وربما كان يصحبنا الجوع يوما ويومين وثلاثة اوأربعة وخمسة ولا يسأل أحدا فإن ظهر لنا شىء وعرفنا وجهة من غير سؤال ولا تعريض قبلناه وأكلناه والا طوينا ؛ فإذا اشتد بنا الامر وخفنا على أنفسنا النقصان فى الفرائض قصدنا أبا سعيد الخراز فيتخذ لنا ألوانا من الطعام ولا يقصد غيره ولا نتبسط الا اليه لما نعرف من تقواه

وروعه ، وقيل لأبي يزيد : ماتراك تشتغل بكسب فمن أين معاشك ؟ فقال : مولاى يرزق الكلب والخنزير تراه لا يرزق أبا يزيد ؟ قال السلمى : سمعت أباعبدالله الرازى يقول سمعت مظفرا القوميسى يقول : الفقير الذى لا يكون له إلى الله حاجة ، وقيل لبعضهم ماالفقر ؟ قال : وقوف الحاجة على القلب ومحوها من كل أحد سوى الرب .

وقال بعضهم : أخذ الفقير الصدقة ممن يعطيه لا ممن تصل إليه على يده ، ومن قبل من الوسائط فهو المترسم بالفقر مع دناءة همته ، أنبأنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى قال : أخبرنا عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت أن أبا سليمان الدارانى كان يقول : آخر أقدام الزاهدين أول أقدام المتوكلين روى أن بعض العارفين زهد فبلغ من زهده أن فارق الناس وخرج من الأمصار وقال : لا أسأل أحدا شيئا حتى يأتيني رزقى فأخذ يسيح فأقام فى سفح جبل سبعاً لم يأته شىء حتى كاد أن يتلف فقال : يارب إن أحييتنى فأتنى برزقى الذى قسمت لى وإلا فاقبضنى إليك فألهمه الله تعالى فى قلبه وعزتى وجلالى لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقيم بين الناس ؛ فدخل المدينة وأقام بين ظهرانى الناس فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب فأكل وشرب فأوجس فى نفسه فى نفسه من ذلك فسمع هاتفا يقول: أردت أن تبطل حكمته بزهدك فى الدنيا، أما علمت أن يرزق العباد بأيدى العباد أحب إليه من أن يرزقهم بأيدى القدرة فالواقف مع الفتوح استوى عنده ايدى الآدميين وأيدى الملائكة واستوى عنده القدرة والحكمة وطلب القفار والتوصل إلى قطع الأسباب من الارتهان برؤية الأسباب وإذا صح التوحيد تلاشت الأسباب فى عين الإنسان. أخبرنا شيخنا قال أخبرنا أبو حفص عمر قال أخبرنا أحمد بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال أخبرنا محمد بن أحمد بن حمدان العكبرى قال سمعت أحمد بن محمود بن اليسرى يقول سمعت محمدا الإسكاف يقول سمعت يحيى بن معاذ الرازى يقول : من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار وكل إلى المخلوقين ، قال بعض المنقطعين كنت ذا صنعة جليلة فأريد منى تركها فخالج فى صدرى من أين المعاش؟ فهتف بى هاتف لا أراه : تنقطع إلى وتتهمنى فى رزقك على أن أخدمك وليا من أوليائى أو أسخر لك منافقا من أعدائى ، فلما صح حال الصوفى وانقطعت أطماعه وسكنت عن كل تشوف وتطلع خدمته الدنيا ، وصلحت له الدنيا خادمة وما رضيها مخدومة ، فصاحب الفتوح يرى حركة النفس بالتشوف جناية وذنبا .

روى أن أحمد بن حنبل خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقا ولم يكن فى ذلك الموضع من يحمله فوافى أيوب الحمال فحمله ودفع إليه أحمد أجرته فلما دخل الدار بعد إذنه له اتفق أن أهل الدار قد خبزوا ماكان عندهم من الدقيق وتركوا الخبز على السرير ينشف فرآه أيوب وكان يصوم الدهر ، فقال أحمد لابنه صالح : ادفع إلى أيوب من الخبز فدفع له رغيفين فردهما ، قال أحمد ضعهما ثم صبر قليلا ثم قال خذهما فالحقه بهما فلحقه فأخذهما فرجع صالح متعجبا فقال له أحمد :عجبت من رده وأخذه ؟قال: نعم ، قال :هذا رجل صالح ؛ فرأى الخبز فاستشرفت نفسه إليه فلما أعطيناه مع الاستشراف رده ثم أيس فرددناه إليه بعد الإياس فقبل : هذا حال ارباب الصدق إن سألوا سألوا بعلم وإن أمسكوا عن السؤال أمسكوا بحال ، وإن قبلوا قبلوا بعلم فمن لم يرزق حال الفتوح فله حال السؤال والكسب بشرط العلم فأما السائل مستكثرا فوق الحاجة لا فى وقت الضرورة فليس من الصوفية بشىء سمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل فقال لمن عنده : ألم أقل لك عش السائل ؟ فقال : قد عشيته ؛ فنظر عمر فإذا تحت إبطه مخلاة مملوءة خبزا ؛ فقال عمر : ألك عيال ؟ فقال : لا ، فقال عمر : لست بسائل ولكنك تاجر . ثم نثر مخلاته بين يدى أهل الصدقة وضربه بالدرة وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال إن الله تعالى فى خلقه مثوبات فقر وعقوبات فقر ، فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن خلقه ويطيع ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علامة الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء خلقه ويعصى ربه ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء ، فحال الصوفية حسن الأدب فى السؤال ، والفتوح والصدق مع الله على كل حال كيف تقلب .

الباب الحادى والعشرون

فى شرح حال المتجرد والمتأهل من الصوفية وصحة مقاصدهم

الصوفى يتزوج لله كما يتجرد لله فلتجرده مقصد وأوان ولتأهله مقصد وأوان والصادق يعلم أوان التجرد والتأهل لأن الطبع الجموح للصوفى ملجم بلجام العلم مهما يصلح له التجرد لا يستعجله الطبع إلى التزوج ولا يقدم على التزوج إلا إذا انصلحت النفس واستحقت إدخال الرفق عليها وذلك إذا صارت منقادة مطواعة مجيبة إلى ما يراد منها بمثابة الطفل الذى يتعاهد بما يروق له ويمنع عما يضره . فإذا صارت النفس محكومة مطواعة فقد فاءت إلى أمر الله وتنصلت عن مشاحة القلب فيصلح بينهما بالعدل وينظر فى أمرهما بالقسط ومن صبر من الصوفية على العزوبة هذا الصبر إلى حين بلوغ الكتاب أجله ينتخب له الزوجة انتخابا ويهيء الله له أعوانا وأسبابا وينعم برفيق يدخل عليه ورهق يساق إليه ومتى استعجل المريد واستفزه الطبع وخامره الجهل بثوران دخان الشهوة المطفئة لشعاع العلم انحط من أوج العزيمة الذى هو قضية حاله وموجب إرادته وشريطة صدق طلبه إلى حضيض الرخصة التى هى رحمة من الله تعالى لعامة خلقه يحكم عليه بالنقصان ويعهد له بالخسران ومثل هذا الاستعجال هو حضيض الرجال قال سهل بن عبدالله التسترى إذا كان للمريد مال يتوقع به زيادة فدخل عليه الابتلاء فرجوعه فى الابتلاء إلى حال دون ذلك نقصان وحدث وسمعت بعض الفقراء . وقد قيل له: لم لا تتزوج ؟ فقال: المرأة لا تصلح إلا للرجال وأنا ما بلغت مبلغ الرجال فكيف أتزوج؟ فالصادقون لهم أوان بلوغ عنوه يتزوجون .

وقد تعارضت الأخبار وتماثلت الآثار فى فضيلة التجريد والتزويج وتنوع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك لتنوع الأحوال فمنهم من فضيلته فى التجريد ، ومنهم من فضيلته فى التأهل وكل هذا التعارض فى حق من نار توقانه برد وسلام لكمال تقواه وقهره هواه ، وإلا ففى غير هذا الرجل الذى تجب عليه الفتنة يجب النكاح فى حال التوقان المفرط ويكون الخلاف بين الأئمة فى غير التائق فالصوفى إذا صار متأهلا يتعين على الإخوان معاونته بالإيثار ومساهحته فى الاستكثار إذا رؤى ضعيف الحال قاصرا عن رتبة الرجال كما وصفنا من صبر حتى ظفر لما بلغ الكتاب أجله حدثنا أبو زرعة عن والده أبى الفضل المقدسى الحافظ قال : حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد الخطيب قال حدثنا أبو الحسين محمد بن عبيدالله بن أخى ميمى قال حدثنا أبو القاسم عبيدالله بن محمد بن عبد العزيز ، قال : حدثنا محمد بن هرون قال : أنبأنا المغيرة قال حدثنا صفوان بن عمرو قال حدثنا عبد الرحمن بن جبير عن أبيه عن عوف بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه فىء قسمه فى يومه فأعطى المتأهل حظين والعزب حظا واحد ، فدعينا وكنت ادعى قبل عمار بن ياسر فأعطانى حظين ، وأعطاه حظا واحد فسخط حتى عرف ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه ومن حضره ، فبقيت معه سلسلة من ذهب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعها بطرف عصاه وتسقط وهو يقول « كيف أنتم يوم يكثر لكم من هذا ؟ » فلم يجبه أحد ، فقال عمار وددنا يارسول الله لوقد أكثر لنا من هذا فالتجرد عن الازواج والأولاد اعون على الوقت للفقير وأجمع لهمه وألذ لعيشه ويصلح للفقير فى ابتداء أمره قطع العلائق ومحو العوائق والتنقل فى الأسفار وركوب الأخطار والتجرد عن الأسباب والخروج عن كل ما يكون حجابا والتزوج انحطاط من العزيمة إلى الرخص ورجوع من التروح إلى النغص وتقيد بالأولاد والأزواج ودوران حول مظان الاعوجاج والتفات إلى الدنيا بعد الزهادة وانعطاف على الهوى بمقتضى الطبيعة والعادة قال أبو سليمان الدارانى : ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا ، من طلب معاشا أو تزوج امرأة أو كتب الحديث وقال : ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته حدثنا الشيخ طاهر قال حدثنا والدى أبو الفضل قال حدثنا محمد بن اسمعيل المقرى قال حدثنا أحمد بن الحسن قال حدثنا حاجب الطوسى قال حدثنا عبدالرحيم قال حدثنا الفزارى عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم « ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » وروى رجاء بن حيوة عن معاذ بن جبل « قال ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر وإن اخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسورن بالذهب ولبسن ريط الشام وعصب اليمن وأتعبن الغنى وكلفن الفقير ما لا يجد » وقال بعض الحكماء معالجة العزوبة خير من معالجة النساء. وسئل سهل بن عبد الله عن النساء فقال : الصبر عنهن خير من الصبر عليهن ، والصبر عليهن خير من الصبر على النار ، وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ خلق الإنسان ضعيفا ﴾ لأنه لا يصبر عن النساء ، وقيل فى قوله تعالى ﴿ ربنا ولاتحملنا ما لاطاقة لنا به ﴾ الغلمة.

فإن قدر الفقير على مقاومة النفس ورزق العلم الوافر بحسن المعاملة فى معالجة النفس وصبر عنهن فقد حاز الفضل واستعمل العقل ، واهتدى إلى الأمر السهل ، قال رسول الله ﷺ « خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ ، قيل يارسول الله وما خفيف الحاذ ؟ قال : الذى لا أهل له ولا ولد » وقال بعض الفقراء — لما قيل له تزوج — أنا إلى أن أطلق نفسى أحوج منى إلى التزوج . وقيل لبشر بن الحرث : إن الناس يتكلمون فيك فقال : ما يقولون ؟ قيل يقولون إنه تارك السنة — يعنى النكاح — فقال : قولوا لهم أنا مشغول بالفرض عن السنة . وكان يقول : لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلادا على الجسر .

والصوفى مبتلى بالنفس ومطالبتها وهو فى شغل شاغل عن نفسه ، فإذا أنضاف إلى مطالبات نفسه مطالبات زوجته يضعف طلبه وتكل إرادته وتفتر عزيمته . والنفس إذا أطمعت طمعت ، وإذا أقنعت قنعت ، فيستعين الشاب الطالب على حسم مواد خاطر النكاح بإدامة الصوم ، فان للصوم أثرا ظاهرا فى قمع النفس وقهرها ، وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بجماعة من الشبان وهم يرفعون الحجارة فقال « يامعشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فليصم فان الصوم له وجاء » أصل الوجاء رض الخصيتين ، كانت العرب تجأ الفحل من الغنم لتذهب فحولته ويسمن ، ومنه الحديث : ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين موجوءين ، وقد قيل هى النفس إن لم تشغلها شغلتك . فاذا أدام الشاب المريد العمل وأذاب نفسه فى العبادة تقل عليه خواطر النفس ، وأيضاً شغله بالعبادة يثمر له حلاوة المعاملة ، ومحبة الإكثار منه ، ويفتح عليه باب السهولة والعيش فى العمل فيغار على حاله ووقته أن يتكدر بهم الزوجة .

ومن حسن أدب المريد فى عزوبته أن لا يمكن خواطر النساء من باطنه وكلما خطر له خاطر النساء والشهوة يفر إلى الله تعالى بحسن الانابة فيتداركه الله تعالى حينئذ بقوة العزيمة ويؤيده بمراغمة النفس ، بل ينعكس على نفسه نور قلبه ثوابا لحسن إنابته فتسكن النفس عن المطالبة . ثم يعرض على نفسه ما يدخل عليه بالنكاح من الدخول فى المدخل المذموم المؤدية إلى الذل والهوان وأخذ الشىء من غير وجهه وما يتوقع من القواطع بسبب التفات الخاطر إلى ضبط المرأة وحراستها والكلف التى لا تنحصر . وقد سئل عبدالله بن عمر عن جهد البلاء فقال: كثرة العيال وقلة المال وقد قيل كثرة العيال أحد الفقرين وقلة العيال أحد اليسارين . وكان إبراهيم بن أدهم يقول : من تعود أفخاذ النساء لا يفلح ولا شك أن المرأة تدعو إلى الرفاهية والدعة وتمنع عن كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار ويتسلط على الباطن خوف الفقر ومحبة الإدخار وكل هذا بعيد عن المتجرد . وقد ورد « إذا كان بعد المائتين أبيحت العزوبة لأمتى » فان توالت على الفقير خواطر النكاح وزاحمت باطنه سيما فى الصلاة والأذكار والتلاوة فليستعن بالله أولا ثم بالمشايخ والإخوان ويشرح الحال لهم ويسألهم مسألة الله له فى حسن الاختيار ويطوف على الأحياء والأموات والمساجد والمشاهد ويستعظم الامر ولا يدخل فيه بقلة الاكتراث فانه باب فتنة كبيرة وخطر عظيم . وقد قال الله تعالى ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ ويكثر الضراعة إلى الله تعالى ويكثر البكاء بين يديه فى الخلوات ويكرر الاستخارة . وإن رزق القوة والصبر حتى يستبين له من فضل الله الخيرة فى ذلك فهو الكمال والتمام . فقد يكشف الله تعالى للصادق ذلك منعا أو إطلاقا فى منامه أو يقظته . أو على لسان من يثق إلى دينه . وحاله أنه إذا

أشار لايشير إلا على بصيرة ، وإذا حكم لايحكم إلا بحق فعند ذلك يكون تزوجه مدبرا معانا فيه . وسمعنا أن الشيخ عبد القادر الجيلي قال له بعض الصالحين : لم تزوجت ؟ فقال : ماتزوجت حتى قال لى رسول الله ﷺ : تزوج فقال له ذلك الرجل : الرسول ﷺ يأمر بالرخص وطريق القوم التلزم بالعزيمة. فلا أعلم ماقال الشيخ فى جوابه ولكنى أقول رسول الله ﷺ يأمر بالرخصة وأمره على لسان الشرع ، فأما من التجأ إلى الله تعالى وافتقر إليه واستخاره فيكاشفه الله بتنبيه إياه فى منامه ، وأمره هذا لا يكون أمر رخصة بل هو أمر يتبعه أرباب العزيمة لأنه من علم الحال لامن علم الحكم ، ويدل على صحة ماوقع لى ـ مانقل عنه ـ أنه قال : كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أجترىء على التزوج خوفا من تكدير الوقت فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله لى أربع زوجات مافيهن إلا من تنفق على إرادة ورغبة ، فهذه ثمرة الصبر الجميل الكامل فإذا صبر الفقير وطلب الفرج من الله يأتيه الفرج والمخرج ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ﴾ فإذا تزوج الفقير بعد الاستقصاء والإكثار من الضراعة والدعاء وورد عليه وارد من الله تعالى يأذن فيه فهو الغاية والنهاية . وإن عجز عن الصبر إلى ورود الإذن واستنفد جهده فى الدعاء والضراعة فقد يكون ذلك حظه من الله تعالى ، ويعان عليه لحسن نيته وصدق مقصده ، وحسن رجائه واعتماده على ربه ، وقد نقل عن عبد الله بن عباس أنه قال : لايتم نسك الشاب حتى يتزوج . ونقل عن شيخ من مشايخ بخراسان أنه كان يكثر التزوج حتى لم يكن يخلو عن زوجتين أو ثلاث فعوتب فى ذلك فقال : يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدى الله تعالى جلسة أو وقف وقفة فى معاملته فخطر على قلبه خاطر شهوة ؟ فقالوا : قد يصيبنا ذلك ، فقال رضيت فى عمرى كله بمثل حالكم فى وقت واحد ماتزوجت قط ، ولكنى ماخطر على قلبى خاطر شهوة قط شغلنى عن حالى إلا نفذته لأستريح منه وأرجع إلى شغلى ، ثم قال منذ أربعين سنة ماخطر على قلبى خاطر معصية ، فالصادقون مادخلوا فى النكاح إلا على بصيرة وقصدوا حسم مواد النفس وقد يكون للاقوياء والعلماء الراسخين فى العلم أحوال فى دخولهم فى النكاح تختص بهم وذلك أنهم بعد طول المجاهدات والمراقبات والرياضات تطمئن نفوسهم وتقبل قلوبهم ، وللقلوب إقبال وإدبار .

يقول بعضهم : إن للقلوب إقبالا وإدبارا ، فإذا أدبرت روحت بالإرفاق ، وإذا أقبلت ردت إلى الميثاق فتبقى قلوبهم دائمة الإقبال إلا اليسير . ولا يدوم إقبالها إلا لطمأنينة النفوس وكفها عن المنازعة ، وترك التشبث فى القلوب فإذا اطمأنت النفوس واستقرت عن طيشها ونفورها وشراستها توفرت عليها حقوقها ، وربما يصير من حقوقها حظوظها . لأن فى أداء الحق إقناعا ، وفى أخذ الحظ اتساعا ، وهذا من دقيق علم الصوفية ، فإنهم يتسعون بالنكاح المباح إيصالا إلى النفس حظوظها لأنها ما زالت تخالف هواها حتى صار داؤها دواءها . وصارت الشهوات المباحة واللذات المسروعة لاتضرها ولا تفتر عليها عزائمها . بل كلما وصلت النفوس الزكية إلى حظوظها ازداد القلب انشراحا وانفساحا ، ويصير بين القلب والنفس موافقة يعطف أحدهما على الآخر ويزداد كل واحد منهما بما يدخل على الآخر من الحظ ، كلما أخذ القلب حظه من الله خلع على النفس خلع الطمأنينة فيكون مزيد السكينة للقلب مزيد الطمأنينة للنفس وينشد :

إن السماء إذا اكتست كست الثرى حللا يدبجها الغمام الراهم

وكلما أخذ النفس حظها تروح القلب تروح الجار المشفق براحة الجار . سمعت بعض الفقراء يقول النفس تقول للقلب كن معى فى الطعام أكن معك فى الصلاة ، وهذا من الأحوال العزيزة لاتصلح إلا لعالم ربانى ، وكم من مدع يهلك بتوهمه هذا فى نفسه ، ومثل هذا العبد يزداد بالنكاح ولا ينقص ، والعبد إذا كمل علمه يأخذ من الأشياء ولا تأخذ الأشياء منه ، وقد كان الجنيد يقول : أنا أحتاج إلى الزوجة كما أحتاج إلى الطعام .

وسمع بعض العلماء بعض الناس يطعن فى الصوفية فقال: ياهذا ما الذى ينتقصهم عندك ؟ فقال : يأكلون كثيرا

فقال : وأنت أيضا لو جعت كما يجوعون أكلت كما يأكلون . ثم قال : ويتزوجون كثيراً . قال : وأنت أيضا لوحفظت فرجك كما يحفظون تزوجت كما يتزوجون قال : وأى شىء أيضا ؟ قال يسمعون القول قال وأنت أيضا لو نظرت كما ينظرون سمعت كما يسمعون .

وكان سفيان بن عيينة يقول : كثرة النساء ليست من الدنيا لان عليا رضى الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول : خير هـذه الامة اكثرها نساء . وقد ذكر فى أخبار الانبياء أن عابدا تبتل للعبادة حتى فاق أهل زمانه فذكر لنبى ذلك الزمان فقال : نعم الرجل لولا أنه تارك لشىء من السنة . فنمى ذلك إلى العابد فأهمه فقال : ما تنفعنى عبادتى وأنا تارك السنة فجاء إلى النبى عليه السلام فسأله فقال: نعم إنك تارك التزوج فقال ما تركته لانى أحرمه ومامنعنى منه إلا أنى فقير لاشىء لى وأنا عيال على الناس يطعمنى هذا مرة وهذه مرة فأكره أن أتزوج بأمرأة أعضلها او أرهقها جهدا . فقال له النبى عليه الصلاة والسلام وما يمنعك إلا هذا ؟ قال : نعم فقال : أنا أزوجك ابنتى فزوجه النبى عليه السلام ابنته وكان عبدالله بن مسعود يقول لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام أحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عزبا وماذكر الله تعالى فى القرآن من الانبياء إلا المتأهلين . وقيل إن يحيى بن زكريا عليهما السلام تزوج لاجل السنة ولم يكن يقربها وقيل إن عيسى عليه السلام سينكح إذا نزل إلى الارض ويولد له . وقيل إن ركعة من متأهل خير من سبعين ركعة من عزب أخبرنا الشيخ طاهر بن أبى الفضل قال أخبرنا أبو منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الهيثم القوى القزوينى قال أخبرنا أبو طلحة القاسم ابن أبى البدر الخطيب قال حدثنا أبو الحسن على بن إبراهيم بن سلمة القطان قال حدثنا أبو عبد الله بن محمد يزيد بن ماجه قال حدثنا أحمد بن الازهر قال حدثنا آدم قال حدثنا عيسى بن ميمون عن القاسم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النكاح سنتى فمن لم يعمل بسنتى فليس منى فتزوجوا فانى مكاثر بكم الامم . ومن كان ذا طول فلينكح ومن لم يجد فعليه بالصيام . فان الصوم له وجاء » ومما ينبغى للمتأهل أن يحذر من الإفراط فى المخالطة والمعاشرة مع الزوجة إلى حد ينقطع عن أوراده وسياسة أوقاته . فان الإفراط فى ذلك يقوى النفس وجنودها ويفتر ناهض الهمة . وللمتأهل بسبب الزوجة فتنتان لعموم حاله وفتنة لخصوص حاله ففتنة عموم حاله الإفراط فى الاهتمام بأسباب المعيشة كان الحسن يقول : والله ما أصبح اليوم رجل يطيع أمرأته فيما تهوى إلا أكبه الله وجهه فى النار . وفى الخبر « يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعيرونه بالفقر ويكلفونه مالا يطيق فيدخل فى المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك » . وروى أن قوما دخلوا على يونس عليه السلام فأضافهم . وكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت . فعجبوا من ذلك وهو بوه أن يسألوه فقال لا تعجبوا من هذا فانى سألت الله فقلت يارب ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا فقال إن عقوبتك بنت فلان تزوج بها فتزوجت بها ، وأنا صابر على ما ترون ؟ فإذا أفرط الفقير فى المدارة ربما تعدى حد الاعتدال فى وجوه المعيشة متطلبا رضا الزوجة فهذا فتنة عموم حاله . وفتنة خصوص حاله الإفراط فى المجالسة والمخالطة فتنطلق النفس عن قيد الاعتدال وتسترق الغرض بطول الاسترسال فيستولى على القلب بسبب ذلك السهو والغفلة ، ويستجلس مقار المهلة فيقل الوارد لقلة الأوراد ويتكدر الحال لإهمال شروط الأعمال . وألطف من هذين الفتنتين فتنة أخرى تختص بأهل القرب والحضور وذلك أن للنفوس امتزاجا وبرابطة الامتزاج تعتضد وتشتد وتنطوى طبيعتها الجامدة وتلتهب نارها الخامدة . فدواء هذه الفتنة أن يكون للمتأهل عند المجالسة عينان باطنان ينظر بهما إلى مولاه وعينان ظاهران يستعملهما فى طريق هواه . وقد قالت رابعة فى معنى هذا نظما :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وألطف من هذا فتنة أخرى يخشاها المتأهل ، وهو أن يصير للروح استرواح إلى لطف الجمال ، ويكون ذلك

الاسترواح موقوفا على الروح ، ويصير ذلك وليجة فى حب الروح المخصوص بالتعلق بالحضرة الإلهية فتتبلد الروح ويفسد باب المزيد المفتوح ، وهذه البلادة فى الروح ، يعز الشعور بها فلتحذر . ومن هذا القبيل : دخلت الفتنة على طائفة قالوا بالمشاهدة ، وإذا كان فى باب الحلال وليجة فى الحب يتولد منها بلادة الروح فى القيام بوظائف حب الحضرة الإلهية ، فما ظنك فيمن يدعى ذلك فى باب غير مشروع يغره سكون النفس فيظن أنه لوكان من قبيل الهوى ما سكنت النفس ؟ والنفس لاتسكن فى ذلك دائما بل تسلب من الروح ذلك الوصف وتأخذه إليها ، على أنى استبحث عما يبتلى به المفتونون بالمشاهدة ، فوجدت المحمى من ذلك من صورة الفسق عنده رغوة شراب الشهوة . إذ لو ذهب علة الشراب ما بقيت الرغوة . فليحذر ذلك جدا ولا يسمع ممن يدعى فيه حالا وصحة فانه كذاب مدع ، ولهذا المعنى قال الأطباء : الجماع يسكن هيجان العشق — وإن كان من غير المعشوق — فليعلم أن مستنده الشهوة ، ويكذب من يدعى فيه حالا ، وهذه فتن المتأهل .

وفتنة العزب مرور النساء بخاطره وتصورهن فى متخيله ، ومن أعطى الطهارة فى باطنه لايدنس باطنه بخواطر الشهوة ، وإذا سنح الخاطر يمحوه بحسن الإنابة والالياذ بالهرب ، ومتى سامر الفكر كشف الخاطر وخرج من القلب إلى الصدر وعند ذلك يحذر حساس العضو بالخاطر فيصير ذلك عملا خفيا ، وما أقبح مثل هذا بالصادق المتطلع إلى الحضور واليقظة ، فيكون ذلك فاحشة الحال . وقد قيل مرور الفاحشة بقلب العارفين كفعل الفاعلين لها والله أعلم.

الباب الثانى والعشرون : فى القول فى السماع قبولا وإيثارا

قال الله تعالى ﴿ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ قيل أحسنه : أى أهداه وأرشده ، وقال عزوجل ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ هذا السماع الحق هو السماع الحق - الذى لايختلف فيه اثنان من أهل الإيمان - محكوم لصاحبه بالهداية واللب ، وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين فتفيض العين بالدمع ؛ لأنه تارة يثير حزنا والحزن حار ، وتارة يثير شوقا والشوق حار ، وتارة يثير ندما والندم حار، فإذا أثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين أبكى وأدمع، لأن الحرارة والبرودة إذا اصطدما عصرا ماء ، فاذا ألم السماع بالقلب تارة يخف إلمامه فيظهر أثره فى الجسد ويقشعر منه الجلد ، قال الله تعالى ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ وتارة يعظم وقعه ويصوب أثره إلى فوق نحو الدماغ كالمخبر للعقل فيعظم وقع المتجدد الحادث فتندفق منه العين بالدمع ، وتارة يتصوب أثره إلى الروح فتموج منه الروح موجا يكاد يضيق عنه نطاق القالب فيكون من ذلك الصياح والاضطراب ، وهذه كلها أحوال يجدها أربابها من أصحاب الحال وقد يحكيها بدلائل هوى النفس أرباب المحال .

روى أن عمر رضى الله عنه كان ربما مر بآية فى ورده فتخنقه العبرة ويسقط ، ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضا ؛ فالسماع يستجلب الرحمة من الله الكريم .

روى زيد بن أسلم قال : قرأ أبى بن كعب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إغتنموا الدعاء عند الرقة فانها رحمة من الله تعالى » وروت أم كلثوم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه الذنوب كما تحات عن الشجرة اليابسة ورقها » وورد أيضا « إذا اقشعر الجلد من خشية الله حرمه الله تعالى على النار » .

وهذه جملة لا تنكر ولا اختلاف فيها ، إنما الاختلاف فى استماع الأشعار بالألحان ، وقد كثرت الأقوال فى ذلك وتباينت الأحوال ، فمن منكر يلحقه بالفسق ، ومن مولع به يشهد بأنه واضح الحق ويتجاذبان فى طرفى الإفراط والتفريط . قيل لأبى الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسرى السقطى وذو النون يسمعون ؟ فقال كيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير منى ؟ فقد كان جعفر الطيار يسمع ، وإنما المنكر اللهو واللعب

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل عن أبيه الحافظ المقدسي قال : أخبرنا أبو القاسم الحسين بن محمد بن الحسن الخوافي قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف قال حدثنا أبو بكر بن وثاب وقال حدثنا عمرو بن الحرث قال حدثنا الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها : أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان وتضربان بدفين ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه وقال « دعهما ياأبا بكر فإنها أيام عيد » وقالت عائشة رضي الله عنها : رأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا التي أسأم . وقد ذكر الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله مايدل على تجويزه، ونقل عن كثير من السلف صحابي وتابعي وغيرهم . وقول الشيخ أبي طالب المكي يعتبر لوفور علمه وكمال حاله وعلمه بأحوال السلف ومكان ورعه وتقواه وتجربة ، الأصوب والأدل . وقال في السماع حرام وحلال وشبهة ، فمن سمعه بنفس مشاهدة شهوة وهوى فهو حرام ، ومن سمعه بمعقوله على صفة مباح من جارية أو زوجة كان شبهة لدخول اللهو فيه . ومن سمعه بقلب يشاهد معاني تدله على الدليل ، ويشهده طرقات الجليل فهو مباح ، وهذا قول الشيخ أبي طالب المكي وهو الصحيح ، فإذن لايطلق القول بمنعه وتحريمه والإنكار على من يسمع كفعل القراء المتزهدين المبالغين في الإنكار ، ولا يفسح فيه على الإطلاق كفعل بعض المشتهرين به المهملين شروطه وآدابه المقيمين على الإصرار .

ونفصل الأمر تفصيلا . ونوضح الماهية فيه تحريما وتحليلا . فأما الدف والشبابة وإن كان نيهما في مذهب الشافعي فسحة ، فالأولى تركهما والأخذ بالأحوط والخروج من الخلاف .

وأما غير ذلك فإن كان من القصائد في ذكر الجنة والنار والتشويق إلى دار القرار ووصف نعم الملك الجبار ، وذكر العبادات والترغيب في الخيرات فلاسبيل إلى الإنكار . ومن ذلك القبيل قصائد الغزاة والحجاج في وصف الغزو والحج ، مما يثير كامن العزم من الغازي وساكن الشوق من الحاج .

وأما ما كان من ذكر القدود والخدود ووصف النساء فلا يليق بأهل الديانات الاجتماع لمثل ذلك .

وأما ما كان من ذكر الهجر والوصل والقطيعة والصد مما يقرب حمله على أمور الحق سبحانه وتعالى من تلون أحوال المريدين ودخول الآفات على الطالبين ، فمن سمع ذلك وحدث عنده ندم على مافات أو تجدد عنده عزم لما هو آت فكيف يكون سماعه ؟ وقد قيل إن بعض الواجدين يقتات بالسماع ويتقوى به على الطى والوصال ، ويثير عنده من الشوق مايذهب عنه لهب الجوع ، فإذا استمع العبد إلى بيت من الشعر وقلبه حاضر فيه كأن يسمع الحادى يقول مثلا :

أتوب إليك يارحمن إني ... أسأت وقد تضاعفت الذنوب

فأما من هوى ليلى وحبي ... زيارتها فإني لا أتوب

فطاب قلبه لما يجده من قوة عزمه على الثبات في أمر الحق إلى الممات ـ يكون في سماعه هذه ذكر الله تعالى

قال بعض أصحابنا كنا نعرف مواجيد أصحابنا في ثلاثه أشياء : عند المسائل وعند الغضب وعند السماع وقال الجنيد تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع : عند الأكل لأنهم يأكلون عن فاقة وعند المذاكرة لأنهم يتحاورون في مقامات الصديقين وأحوال النبيين وعند السماع يسمعون بوجد ويشهدون حقا

وسئل رويم عن وجد الصوفية عند السماع فقال : يتنبهون للمعاني التي تعزب عن غيرهم فيشير إليهم إلى فيتنعمون بذلك من الفرح ، ويقع الحجاب للوقت فيعود ذلك بكاء ، فمنهم من يمزق ثيابه ومنهم من يبكي ومنهم من يصيح

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلمي قال : سمعت أبا سهل محمد بن سليمان يقول : المستمع بين استتار وتجل فالاستتار يورث التلهب والتجلي يورث المزيد فالاستتار يتولد منه حركات المريدين وهو محل الضعف

والعجز والتجلى يتولد منه السكون للواصلين وهو محل الاستقامة والتمكين . وكذلك محل الحضرة ليس فيه إلا الذبول تحت موارد الهيبة قال الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى يقول سمعت جدى يقول : المستمع ينبغى أن يستمع بقلب ونفس ميتة ومن كان قلبه ميتا ونفسه حية لايحل له السماع

وقيل فى قوله تعالى ﴿يزيد فى الخلق مايشاء﴾ الصوت الحسن وقال ﷺ «لله أشد أذنا بالرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب قينة إلى قينته» نقل عن الجنيد قال . رأيت إبليس فى النوم فقلت له : هل تظفر من أصحابنا بشىء أو تنال منهم شيئا ؟ فقال إنه يعسر على شأنهم ويعظم على أن أصيب منهم شيئا إلا فى وقتين قلت : أى وقت قال وقت السماع وعند النظر فإنى أسترق منهم فيه وأدخل عليهم به قال فحكيت رؤياى لبعض المشايخ فقال لو رأيته قلت له يا أحمق من سمع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر أتربح أنت عليه شيئا أو تظفر بشىء منه ؟ فقلت صدقت وروت عائشة رضى الله عنها قالت : كانت عندى جارية تسمعنى فدخل النبى ﷺ وهى على حالها ثم دخل عمر ففرت فضحك النبى ﷺ فقال عمر : ما يضحكك يارسول الله؟ فحدثه حديث الجارية فقال : لاأبرح حتى أسمع ماسمع النبى ﷺ فأمرها النبى ﷺ فأسمعته وذكر الشيخ أبو طالب المكى قال : كان لعطاء جاريتان تلحنان وكان اخوانه يجتمعون اليهما وقال : أدركنا أبا مروان القاضى وله جوار يسمعن التلحين أعدهن للصوفية وهذا القول نقلته من قول الشيخ أبى طالب فقال :وعندى اجتناب ذلك هو الصواب وهو لايسلم إلا بشرط طهارة القلب وغض البصر والوفاء بشرط قوله تعالى ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ وما هذا القول من الشيخ أبى المكى إلا مستغرب عجيب والتنزه عن مثل ذلك هو الصحيح

وفى الحديث : فى مدح داود عليه السلام أنه كان حسن الصوت بالنياحة على نفسه وبتلاوة الزبور حتى كان يجتمع الإنس والجن والطير لسماع صوته وكان يحمل من مجالسه آلاف من الجنائز ، وقال ﷺ فى مدح أبى موسى الأشعرى « لقد أعطى مزمارا من مزامير آل داود » وروى عنه عليه السلام أنه قال « إن من الشعر لحكمة » ودخل رجل على النبى ﷺ وعنده قوم يقرءون قرآن وقوم ينشدون الشعر فقال : يارسول الله قرآن وشعر ؟ فقال « من هذا مرة ومن هذا مرة »

وأنشد النابغة عند النبى ﷺ أبياته التى فيها :

ولا خيرا فى حلم إذا لم يكون له ... نودار تحمى صفوه أن يكدرا
ولاخير فى أمر إذا لم يكن له ... حكيم إذا ماأورد الأمر أصدرا

فقال له النبى ﷺ « أحسنت يا أبا ليلى لايفضض الله فاك» فعاش أكثر من مائةسنة وكان أحسن الناس ثغرا وكان النبى ﷺ يضع لحسان منبرا فى المسجد ، فيقوم على المنبر قائما يهجو الذين كانوا يهجون النبى ﷺ ويقول النبى ﷺ « ان روح القدس مع حسان مادام ينافح عن النبى ﷺ ورأى بعض الصالحين أبا العباس الخضر قال : فقلت له ماتقول فى السماع الذى يختلف فيه أصحابنا ؟ فقال هو الصفا الزلال لايثبت عليه إلا أقدام العلماء ونقل عن ممشاد الدينورى قال: رأيت رسول ﷺ »فى المنام فقلت يارسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئا ؟ فقال ما أنكره لكن قل يفتتحون قبله بقراءة القرآن ويختمون بعده بالقرآن، فقلت يارسول الله إنهم يؤذوننى وينبسطون فقال احتملهم ياأبا على هم أصحابك . فكان ممشاد يفتخر ويقول كنانى النبى ﷺ

وأما وجه الإنكار فيه فهو أن يرى جماعة من المريدين دخلوا فى مبادىء الإرادة ونفوسهم ماتمرنت على صدق المجاهدة حتى يحدث عندهم علم بظهور صفات النفس وأحوال القلب حتى تنضبط حركاتهم بقانون العلم ويعلمون مالهم وعليهم مشتغلين به .

حكى أن ذا النون لما دخل بغداد دخل عليه جماعة ومعهم قوال ، فاستأذنوه أن يقول شيئا فأذن له فأنشد القول :

صغير هواك عذبنى * فكيف به إذا احتنكا وأنت جمعت من قلبى * هوى قد كان مشتركا

أما ترثى لمكتئب * إذا ضحك الخلى بكى فطاب قلبه ،وقام وتواجد وسقط على جبهته والدم يقطر من

جبهته ولا يقع على الأرض . ثم قام واحد منهم فنظر إليه ذو النون فقال: اتق الذى يراك حين تقوم ؛ فجلس الرجل، وكان جلوسه لموضع صدقه وعلمه أنه غير كامل الحال غير صالح للقيام متواجد، فيقوم أحدهم من غير تدبر وعلم فى قيامه وذلك إذا سمع إيقاعا موزونا يسمع يؤدى ماسمعه إلى طبع موزون،فيتحرك بالطبع الموزون للصوت الموزون والإيقاع الموزون ، وينسبل حجاب نفسه المنبسط بانبساط الطبع على وجه القلب ، ويستفزه النشاط المنبعث من الطبع فيقوم برقص موزونا ممزوجا بتصنع وهو محرم عند أهل الحق ، ويحسب ذلك طيبة للقلب ، وما رأى وجه القلب وطيبته لله تعالى . ولعمرى هو طيبة القلب ولكن قلب ملون بلون النفس ميال إلى الهوى موافق للردى لايهتدى إلى حسن النية فى الحركات ولا يعرف شروط صحة الإرادات، ولمثل هذا الراقص قيل : الرقص نقص؛لأنه رقص مصدره الطبع غير مقترن بنية صالحة لاسيما إذا انضاف إلى ذلك شوب حركاته بصريح النفاق بالتودد والتقرب إلى بعض الحاضرين من غير نية ، بل بدلالة نشاط النفس من المعانقة وتقبيل اليد والقدم ، وغير ذلك من الحركات التى لايعتمدها من المتصوفة إلا من ليس له من التصوف إلا مجرد زى وصورة، أو يكون القوال أمرد تنجذب النفوس إلى النظر إليه وتستلذ ذلك وتضمر خواطر السوء،أو يكون للنساء إشراف على الجمع وتراسل البواطن المملوءة من الهوى بسفارة الحركات والرقص وإظهار التواجد فيكون ذلك عين الفسق المجمع على تحريمه فأهل المواخير حينئذ أرجى حالا ممن يكون هذا ضميره وحركاته ، لأنهم يرون فسقهم وهذا لايراه ويريه عباده لمن لايعلم ذلك ، أفترى أحدا من أهل الديانات يرضى بهذا ولا ينكره ؟ فمن هذا الوجه توجه للمنكر الإنكار وكان حقيقا بالاعتذار فكم من حركات موجبة للمقت ، وكم من نهضات تذهب رونق الوقت ، فيكون إنكار المنكر على المريد مطالب بمنعه عن مثل هذه الحركات ويحذره من مثل هذه المجالس وهذا إنكار صحيح . وقد يرقص بعض الصادقين إيقاع ووزن من غير إظهار وجد وحال ووجه نيته فى ذلك أنه ربما يوافق بعض الفقراء فى الحركة فيتحرك بحركة موزونة غير مدع بها حالا ووجدا يجعل حركته فى طرف الباطل لأنها وإن لم تكن محرمة فى حكم الشرع ولكنها غير محللة بحكم الحال لما فيها من اللهو فتصير حركاته ورقصه من قبيل المباحات التى تجرى عليه من الضحك والمداعبة وعلاعبة الأهل والولد . ويدخل ذلك فى باب الترويح للقلب. وربما صار ذلك عبادة بحسن النية إذا نوى به استجمام النفس. كما نقل عن أبى الدرداء أنه قال: إنى لأستجم نفسى بشىء من الباطل ليكون ذلك عونا لى على الحق . ولموضع الترويح كرهت الصلاة فى أوقات ليستريح عمال الله وترتفق النفوس ببعض مآربها من ترك العمل وتستطيب أوطان المهل .والآدمى بتركيبه المختلف وترتيب خلقه المتنوع بتنوع أصول خلقته ــ وقد سبق شرحه فى غير هذا الباب ــ لاتفى قواه بالصبر على الحق الصرف فيكون التفسح فى أمثال ما ذكرناه من المباح الذى ينزع إلى لهو ما باطلا يستعان به على الحق،فإن المباح وإن لم يكن باطلا فى حقيقة الشرع ؛ لأن حد المباح ما استوى طرفاه واعتدل جانباه ولكنه باطل بالنسبة إلى الأحوال.ورأيت فى بعض كلام سهل بن عبد الله يقول فى وصفه للصادق : الصادق يكون جهله مزيداً لعلمه وباطله مزيداً لحقه ودنياه مزيداً لآخرته ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء ليكون ذلك حظ نفسه الشريفة الموهوب لها حظوظها الموفر عليها حقوقها لموضع طهارتها وقدسها فيكون ماهو نصيب الباطل الصرف فى حق الغير من المباحات المقبولة برخصة الشرع المردودة بعزيمة الحال فى حقه صلى الله عليه وسلم متسما بسمة العبادات . وقد ورد فى فضيلة النكاح مايدل على أنه عبادة ومن ذلك من طريق القياس اشتماله على المصالح الدينية والدنيوية على ما أطنب فى شرحه الفقهاء فى مسئلة التخلى لنوافل العبادات ، فإذاً يخرج هذا الراقص بهذه النية المتبرىء من دعوى الحال فى ذلك من إنكار المنكر فيكون رقصه لاعليه ولا له وربما كان بحسن النية فى الترويح يصير عبادة سيما ان أضمر فى نفسه حقار

بربه ونظر إلى شمول رحمته وعطفه ولكن لايليق الرقص بالشيوخ ، ومن يقتدى به لما فيه من مشابهة اللهو واللهو لايليق بمنصبهم ويباين حال التمكن مثل ذلك .

وأما وجه منع الإنكار فى السماع فهو أن المنكر للسماع على الإطلاق منغير تفصيل لايخلو من أحد أمور ثلاثة: إما جاهل بالسنن والآثار ، وإما مغتر بما أتيح له من أعمال الأخيار ، وإما جامد الطبع لا ذوق له فيصر على الإنكار ، وكل واحد من هؤلاء الثلاثة يقابل بما سوف يقبل . أما الجاهل بالسنن والآثار فيعرف بما أسلفناه من حديث عائشة رضى الله عنها وبالأخبار والآثار الواردة فىذلك ، وفى حركة بعض المتحركين تعرف رخصة رسول الله ﷺ للحبشة فى الرقص ونظر عائشة رضى اللهعنها إليهم معرسول الله ﷺ ، هذا إذا سلمت الحركة من المكاره التى ذكرناها .وقد روى أنرسول الله ﷺ قال لعلى رضى اللهعنه « أنت منى وأنا منك» فحجل. وقال لجعفر «أشبهت خلقى وخلقى » فحجل ،وقال لزيد «أنت أخونا ومولانا » فحجل ، وكان حجل جعفر فى قصة ابنه حمزة لما احتصم فيها على وجعفر وزيد .وأما المنكر المغرور بما أتيح له من أعمال الأخيار فيقال : تقربك إلى الله بالعبادة لشغل جوارحك بها،ولولا نية قلبك ما كان لعمل جوارحك قدر ، فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى ، والنيه لنظرك إلىربك خوفا أو رجاء، فالسامع من الشعر بيتا يأخذمنه معنى يذكره ربه إمافرحا أو انكسارا أو افتقارا كيف يقلب فيه قلبه فى أنواع ذلك ذاكرا لربه ، ولوسمع صوت طائر طاب له ذلك الصوت وتفكر فى قدرة الله تعالى وتسويته حنجرة الطائرة وتسخيره خلقه ومنشأ الصوت وتأديته إلى الأسماع كان فى جميع ذلك الفكر مقدسا ، فإذا سمع صوت آدمى وحضره مثل ذلك الفكر وامتلأ باطنه ذكرا وفكر كيف ينكر ذلك .

حكى بعض الصالحين قال : كنت معتكفا فى جامع جدة على البحر فرأيت يوما طائفة يقولون فى جانبمنه شيئا؛ فأنكرت ذلك بقلبى وقلت : فى بيت من بيوت الله تعالى يقولونالشعر ، فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام تلكالليلة وهو جالس فى تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر ، وإذا أبو بكر يقول شيئا من القول والنبى ﷺ يستمع إليه ويضع يده علىصدره كالواجد بذلك ،فقلت فى نفسى : ما كان ينبغى لى أن أنكر على أولئك الذين يسمعون وهذا رسول الله ﷺ يسمع وأبو بكر إلى جنبه يقول ،فالتفت رسول الله ﷺ وهو يقول هذا حق بحق أو حق من حق ،بلى إذ كان ذلك الصوت من أمرد يخشى بالنظر اليه الفتنة ،أو من امرأة غير محرم ، وإن وجد من الأذكار والأفكار ماذكرنا ؛ يحرم سماعه لخوف الفتنه لالمجرد الصوت ، ولكن يجعله سماع الصوت حريم الفتنة ، ولكل حرام حريم ينسحب عليه حكم المنع لوجه المصلحة كالقبلة للشاب الصائم ؛ حيث جعلت حريم حرام الوقاع ، وكالخلوة بالأجنبية وغير ذلك.فعلى هذا قد تقتضى المصلحة المنع من السماع اذا علم حال السامع وما يؤديه اليه سماعه فيجعل المنع حريم الحرام هكذا ، وقد ينكر السماع جامد الطبع عديم الذوق فيقال له : العنين لايعلم لذة الوقاع ، والمكفوف ليس له بالجمال البارع استمتاع ، وغير المصاب لايتكلم بالاسترجاع ، فاذا ينكره من محب ربى باطنه بالشوق والمحبة ؟ ويرى انحباس روحه الطيارة فىمضيق النفس الأمارة يمر بروحه نسيم أنس الأوطان وتلوح له طوالع جنود العرفان، وهو بوجود النفس فى دار الغربة يتجرع كأس الهجران،ويئن تحت أعباء المجاهدة ولا تحمل عنه سوانح المشاهدة ،وكلما قطع منازل النفس بكثرة الأعمال لايقرب من كعبة الوصول ولا يكشف له المسبل من الحجابفيتروح بنفس الصعداء ويرتاح باللائح منشدة البرحاء،ويقول مخاطباللنفس والشيطان وهما المانعان:

أيا جبلى نعمان بالله خليا ‏ نسيم الصبا يخلص الى نسيمها
فإن الصبا ريح اذا ما تنسمت ‏ على قلب محزون تجلت همومها
أجد بردها أو تشف منى حرارة ‏ على كبد لم يبق الا صميمها
ألا ان أدوائى بليلى قديمة ‏ وأقتل داء العاشقين قديمها

ولعل المنكر يقول هل المحبة إلا امتثال الأمر ؟ وهل يعرف غير هذا وهل هناك إلا الخوف من الله ؟ وينكر المحبة الخاصة التى تختص بالعلماء الراسخين والأبدال المقربين . ولما تقرر فى فهمه القاصر أن تستدعى مثالا وخيالا وأجناسا وأشكالا أنكر محبة القوم ولم يعلم أن القوم بلغوا فى رتب الإيمان إلى أتم من المحسوس وجادوا من فرط الكشف والعيان بالارواح والنفوس روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ « أنه ذكر غلاما كان فى بنى إسرائيل على جبل فقال لأمه: من خلق السماء ؟ قالت :الله .قال: من خلق الارض؟ قالت : الله ،قال :من خلق الجبال ؟ قالت : الله قال من خلق الغيم ؟ قالت الله فقال : إنى أسمع لله شأنا ورمى بنفسه من الجبل فتقطع » فالجمال الازلى الإلهى منكشف الأرواح غير مكيف للعقل ولا مفسر للفهم لان الفعل موكل بعالم الشهادة لا يهتدى من الله سبحانه إلا إلى مجرد الوجود ولا يتطرق الى حريم الشهود المتجلى فى طى الغيب المنكشف الأرواح بلا ريب، وهذه رتبة من مطالعة الجمال رتبة خاصة ، وأعم منها من رتب المحبة الخاصة دون العامة مطالعة جمال الكمال من الكبرياء والجلال والاستقلال بالمنح والنوال والصفات المنقسمة إلى ماظهر منها فى الآباد ولازم الذات فى الآزل ،فالكمال جمال لا يدرك بالحواس ون يستنبط بالقياس . وفى مطالعة ذلك الجمال أخذ طائفة من المحبين خصوا بتجلى الصفات ولهم بحسب ذلك ذوق وشوق ووجد وسماع . والاولون منحوا قسطا من تجلى الذات فكان وجدهم على قدر الوجود وسماعهم على حد الشهود .

وحكى بعض المشايخ قال : رأينا جماعة ممن يمشى على الماء والهواء يسمعون السماع ويجدون به ويتولهون عنده. وقال بعضهم كنا على الساحل فسمع بعض إخواننا فجعل يتقلب على الماء يمر ويجىء حتى رجع الى مكانه.

ونقل أن بعضهم كان يتقلب على النار عند السماع ولا يحس بها .ونقل أن بعض الصوفية ظهر منه وجد عند السماع وأخذ شمعة فجعلها فى عينه ،عن الناقل : قربت من عينه أنظر ، فرأيت ناراً أو نورا يخرج من عينيه يرد نار الشمعة وحكى عن بعضهم أنه كان إذا وجد عند السماع ارتفع من الارض فى الهواء أذرعا يمر ويجىء فيه .

وقال الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله فى كتابه إن أنكرنا السماع مجملا مطلقا غير مقيد مفصل يكون انكارا على سبعين صديقا وان كنا نعلم أن الإنكار أقرب إلى قلوب القراء والمتعبدين وإلا أنا لا نفعل ذلك لأنا نعلم مالا يعلمون وسمعنا عن السلف من الاصحاب والتابعين مالا يسمعون وهذا قول الشيخ عن علمه الوافر بالسنن والآثار مع اجتهاده وتحريه عن الصواب ولكن نبسط لاهل الإنكار لسان الاعتذار ونوضح لهم الفرق بين سماع يؤثر وبين سماع ينكر وسمع الشبلى قائلا يقول : أسائل عن سلمى فهل من مخبر يكون له علم بها أين تنزل

فزعق الشبلى وقال لا والله مافى الدارين عنه مخبر .

وقيل الوجد سر صفات الباطن كما أن الطاعة سر صفات الظاهر . وصفات الظاهر الحركة والسكون وصفات الباطن الأحوال والأخلاق . وقال أبو نصر السراج أهل السماع على ثلاث طبقات : فقوم يرجعون فى سماعهم إلى مخاطبات الحق لهم فيما يسمعون ، وقوم يرجعون فيما يسمعون إلى مخاطبات أحوالهم ومقاماتهم وأوقاتهم فهم مرتبطون بالعلم ومطالبون بالصدق فيما يشيرون لله من ذلك ، وقوم هم الفقراء المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع فهم يسمعون لطيبة قلوبهم . ويليق بهم السماع فهم أقرب الناس إلى السلامة وأسلمهم من الفتنة .وكل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف .

وسئل بعضهم عن التكلف فى السماع فقال : هو على ضربين : تكلف فى المستمع لطلب جاه أو منفعة دنيوية وذلك تلبيس وخيانة ، وتكلف فيه لطلب الحقيقة كمن يطلب الوجد بالتواجد وهو بمنزلة التباكى المندوب إليه . وقول القائل لن هذه الهيئة من الاجتماع بدعة يقال له : إنما البدعة المحذورة الممنوع منها ، بدعة تزاحم سنة مأمورا بها ومالم يكن هكذا فلا بأس به . وهذا كالقيام للداخل : لم يكن ، فكان فى عادة العرب ترك ذلك ، حتى نقل : أن رسول ﷺ كان يدخل ولا يقام له ، وفى البلاد التى فيها هذا القيام لهم عادة إذا اعتمد ذلك لتطييب القلوب والمداراة لا بأس به،

لأن تركه يوحش القلوب ويوغر الصدور ، فيكون ذلك من قبيل العشرة وحسن الصحبة ، ويكون بدعة لا بأس بها لأنها لم تزاحم منه مأثورة .

الباب الثالث والعشرون : في القول في السماع ردا وإنكارا

قد ذكرنا وجه صحة السماع وما يليق منه بأهل الصدق وحيث كثرت الفتنة بطريقه وزالت العصمة فيه ، وتصدى للحرص عليه أقوام قلت أعمالهم ، وفسدت أحوالهم وأكثروا الاجتماع للسماع ، وربما يتخذ للاجتماع طعام تطلب النفوس الاجتماع لذلك لا رغبة للقلوب في السماع كما كان من سير الصادقين ، فيصير السماع معلولا تركن إليه النفوس للشهوات واستجلاء لمواطن اللهو والغفلات ، ويقطع ذلك على المريد طلب المزيد ، ويكون بطريقه تضييع الأوقات وقلة الحظ من العبادات ، وتكون الرغبة في الاجتماع طلبا لتناول الشهوة واستراوحا لأولى الطرب واللهو والعشرة ولا يخفى أن هذا الاجتماع مردود عند أهل الصدق ، وكان يقال لا يصح السماع إلا لعارف مكين ، ولا يباح لمريد مبتدىء .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إذا رأيت المريد يطلب السماع فاعلم أن فيه بقية البطالة . وقيل إن الجنيد ترك السماع فقيل له : كنت تسمع ؟ فقال : مع من ؟ قيل له : تسمع لنفسك ؟ فقال : ممن لأنهم كانوا لا يسمعون إلا من أهل مع أهل فلما فقد الإخوان ترك . فما اختاروا السماع حيث اختاروه إلا بشروط وقيود وآداب ، يذكرون به الآخرة يرغبون في الجنة ، ويحذرون من النار ، ويزداد به طلبهم ، وتحسن به أحوالهم ، ويتفق لهم ذلك اتفاقا في بعض الأحايين لا أن يجعلوه دأبا وديدنا حتى يتركوا لأجله الأوراد .

وقد نقل عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال في كتاب القضاء : الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ، وقال : من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته . واتفق أصحاب الشافعي أن المرأة غير المحرم لا يجوز الاستماع إليها سواء كانت حرة أو مملوكة أو مكشوفة الوجه أو من وراء حجاب . ونقل عن الشافعي رضي الله عنه ، أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول : وضعه الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن ، وقال : لا بأس بالقراءة بالألحان وتحسين الصوت بها بأي وجه كان . وعند مالك رضي الله عنه : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله أن يردها بهذا العيب ، وهو مذهب سائر أهل المدينة ، وهكذا مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه .

وسماع الغناء من الذنوب وما أباحه إلا نفر قليل من الفقهاء . ومن أباحه من الفقهاء لم ير إعلانه في المساجد والبقاع الشريفة ، وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : هو الغناء والاستماع إليه ، وقيل في قوله تعالى ﴿ وأنتم سامدون ﴾ أي مغنون ، رواه عكرمة عن عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما وهو الغناء بلغة حمير ، يقول أهل اليمن : سمد فلان ، إذا غنى . وقوله تعالى ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال مجاهد : الغناء والمزامير .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال « كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى » وروى عبد الرحمن ابن عوف رضي عنه : أن النبي ﷺ قال « إنما نهيت عن صوتين فاجرين : صوت عند نغمة ، وصوت عند مصيبة » وقد روى عن عثمان رضي الله عنه أنه قال : ما غنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ . وروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : الغناء ينبت النفاق في القلب ، وروى أن ابن عمر رضي الله عنه مر على قوم وهم محرمون وفيهم رجل يغني فقال : ألا لا سمع الله لكم . ألا لا سمع الله لكم ، وروى أن إنسانا . سأل القاسم بن محمد عن الغناء فقال : أنهاك عنه وأكرهه لك ، قال أحرام هو ؟ قال : انظر يا ابن أخي إذا ميز الله الحق والباطل في أيهما يجعل الغناء ؟ وقال الفضيل بن عياض : الغناء رقية الزنا . وعن الضحاك : الغناء مفسد للقلب مسخطة للرب . وقال بعضهم : إياكم والغناء فإنه يزيد الشهوة ويهدم المروءة وأنه لينوب

عن الخمر ويفعل مايفعل السكر ، وهذا الذى ذكره هذا القائل صحيح لأن الطبع الموزون يفق بالغناء والأوزان ، ويستحسن صاحب الطبع عند السماع مالم يكن يستحسنه من الفرقعة بالأصابع والتصفيق والرقص وتصدر منه أفعال تدل على سخافة العقل ، وروى عن الحسن أنه قال : ليس الدف من سنة المسلمين ، والذى نقل عن رسول الله ﷺ أنه سمع الشعر ، لايدل على إباحة الغناء فإن الشعر كلام منظوم وغيره كلام منثور فحسنه حسن وقبيحه قبيح ، وإنما يصير غناء بالألحان وإن أنصف المصنف وتفكر فى اجتماع أهل الزمان وقعود المغنى بدفه والمشبب بشبابته وتصور فى نفسه هل وقع مثل هذا الجلوس والهيئة بحضرة رسول الله ﷺ ، وهل استحضروا قوالا وقعدوا مجتمعين لاستماعه لاشك بأنه ينكر ذلك من حال رسول الله ﷺ وأصحابه ؟ ولو كان فى ذلك فضيلة تطلب ما أهملوها ؟ فمن يشير بأنه فضيلة تطلب ويجتمع لها لم يحظ بذوق معرفة أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين ، واستروح إلى استحسان بعض المتأخرين ذلك . وكثيرا مايغلط الناس فى هذا . وكلما احتج عليهم بالسلف الماضين يحتجون بالمتأخرين . وكان السلف أقرب إلى عهد رسول الله ﷺ ، وهديهم أشبه بهدى رسول الله ﷺ ، وكثير من الفقراء يتسمح عند قراء القرآن بأشياء من غير غلبة . قال عبد الله بن عروة بن الزبير : قلت لجدتى أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت : كانوا كما وصفهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم قال : قلت إن ناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه ، قالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وروى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما مر برجل من أهل العراق يتساقط قال : ما لهذا ؟ قالوا : انه اذا قرىء عليه القرآن وسمع ذكر الله تعالى سقط ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : إنا لنخشى الله وما نسقط ان الشيطان يدخل فى جوف أحدهم ، ماهكذا كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ ؟ وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون اذا قرىء القرآن فقال : بيننا وبينهم أن يقعد واحد منهم على ظهر بيت باسطا رجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله الى آخره ، فإن رمى بنفسه فهو صادق . وليس هــذا القول منهم انكاراً على الإطلاق اذ يتفق ذلك لبعض الصادقين ، ولكن للصنع المتوهم فى حق الأكثرين فقد يكون ذلك من البعض تصنعا ورياء . ويكون من البعض لقصور علم وغامرة جهل ممزوج بهوى يلم بأحدهم يسير من الوجد فيتبعه بزيادات يجهل أن ذلك يضر بدينه ، وقد لايجهل أن ذلك من النفس ولكن النفس تسترق السمع استراقا خفيا فتخرج الوجد عن الحد الذى ينبغى أن يقف عليه وهذا يباين الصدق

نقل أن موسى عليه السلام وعظ قومه فشق رجل منهم قميصه ، فقيل لموسى عليه السلام : قل لصاحب القميص لايشق قميصه ويصرح قلبه .

أما اذا انضاف الى السماع أن يسمع من أمرد فقد توجهت الفتنه وتعين على أهل الديانات انكار ذلك . قال بقية بن الوليد : كانوا يكرهون النظر الى الغلام الأمرد الجميل . وقال عطاء : كل نظرة يهواها القلب فلاخير فيها ، وقال بعض التابعين : ما أنا أخوف على الشاب التائب من السبع الضارى خوفى عليه من الغلام الأمرد يقعد اليه ، وقال بعض التابعين أيضا : اللوطية على ثلاث أصناف : صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، وصنف يعملون ذلك العمل . فقد تعين على طائفة الصوفية اجتناب مثل الجماعات واتقاء مواضع التهم فإن التصوف صدق كله وجد كله يقول بعضهم : التصوف كله جد فلا تخلطوه بشىء من الهزل ، فهذه الآثار دلت على اجتناب السماع وأخذ الحذر منه .

والباب الأول بما فيه دل على جوازه بشروطه وتنزيهه عن المكاره التى ذكرناها وقد فصلنا القول وفرقنا بين القصائد والغناء وغير ذلك ، وكان جماعة من الصالحين لايسمعون ومع ذلك لا ينكرون على من يسمع بنية حسنة ويراعى الأدب فيه .

الباب الرابع والعشرون : فى القول فى السماع ترفعا واستغناء

اعلم أن الوجد يشعر بسابقه فقد فمن يفقد لم يجد ، انما كان الفقد لمزاحمة وجوه العبد بوجود صفاته وبقاياه فلو

تمحض عبد التمحض حرا ومن تمحض حرا أفلت من شرك الوجد ، فشرك الوجد يصطاد البقايا ووجود البقايا شىء من العطايا

قال الحصرى رحمه الله : ما أدون حال من يحتاج إلى مزعج يزعجه ، فالوجد بالسماع فى حق المحقق كالوجد بالسماع فى حق المبطل : من حيث النظر انزعاجه . وتأثير الباطن به ، وظهوره أثر على الظاهر ، وتغييره للعبد من حال إلى حال . وإنما يختلف الحال بين المحق والمبطل : أن المبطل يجد لوجود هوى النفس . والمحق يجد لوجود إرادة القلب ولهذا قيل : السماع لا يحدث فى القلب شيئا ، وإنما يحرك ما فى القلب ، فمن يتعلق باطنه بغير الله يحركه السماع فيجد بالهوى ، ومن يتعلق باطنه بمحبة الله يجد بالإرادة إرادة القلب ؛ فالمبطل محجوب بحجاب النفس ، والمحق محجوب بحجاب القلب وحجاب النفس حجاب أرضى ظلمانى ، وحجاب القلب حجاب سماوى نورانى . ومن لم يفقد بدوام التحقق لشهود ولا يتعثر بأذيال الوجود فلا يسمع ولا يجد . ومن هذه المطالعة قال بعضهم : الوجد نار دم كلى لا ينفذ فى قول .

ومر ممشاد الدينوى رحمه الله بقوم فيهم قوال ، فلما رأوه أمسكوا . فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه . فوالله لو جمعت ملاهى الدنيا فى أذنى ما شغل همى ولا شفى بعض ما بى . فالوجد صراخ الروح المبتلى بالنفس تارة فى حق المبطل وبالقلب تارة فى حق المحق . فثار الوجد الروح الروحانى فى حق المحقق والمبطل . ويكون الوجد تارة من فهم المعانى يظهر . وتارة من مجرد النغمات والألحان . فما كان من قبيل المعانى تشارك النفس الروح فى السماع فى حق المبطل ويشارك القلب فى حق المحق . وما كان من قبيل مجرد النغمات تتجرد الروح للسماع ، ولكن فى حق المبطل تسترق النفس السمع ، لاف حق المحق القلب السمع . ووجه استلذاذ الروح النغمات : أن العالم الروحانى مجمع الحسن والجمال ووجود التناسب فى الأكوان مستحسن قولا وفعلا . ووجود الجنسية فى الهياكل والصور ميراث الروحانية فمتى سمع الروح النغمات اللذيذة والألحان المتناسبة تأثر به لوجود الجنسية ثم يتقيد ذلك بالشرع بمصالح عالم الحكمة ورعاية الحدود للعبد عين المصلحة عاجلا وآجلا ووجه آخر : إنما يستلذ الروح النغمات لأن النغمات بها نطق النفس مع الروح بالإيماء الخفى إشارة ورمزا بين المتعاشقين وبين النفوس والأرواح تعاشق أصلى ينزع ذلك إلى أنوثة النفس وذكورة الروح والميل والتعاشق بين الذكر والأنثى بالطبيعة واقع . قال الله تعالى ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ وفى قوله سبحانه ﴿ منها ﴾ إشعار بتلازم وتلاصق موجب للائتلاف والتعاشق . والنغمات يستلذها الروح لأنها مناغاة بين المتعاشقين . وكما أن فى عالم الحكمة كونت حواء من آدم ففى عالم القدرة كونت النفس من الروح الروحانى . فهذا التآلف من هذا الأصل : وذلك أن النفس روح حيوانى تجنس بالقرب من الروح الروحانى وتجنسها بأن امتازت من أرواح جنس الحيوان بشرف القلب من الروح الروحانى فصارت نفسا فإذا تكون النفس من الروح الروحانى فى عالم القدرة . كتكون حواء من آدم فى عالم الحكمة فهذا التآلف والتعاشق ونسبة الأنوثه والذكورة من ههنا ظهر . وبهذا الطريق استطابت الروح النغمات . لأنها مراسلات بين المتعاشقين ومكالمة بينهما ، وقد قال القائل :

تكلم منا فى الوجود عيوننا فنحن سكوت والهوى يتكلم

فإذا استلذ الروح النغمة وجدت النفس المغلولة بالهوى وتحركت بما فيها لحدوث العارض . ووجد القلب المعلوم بالإرادة وتحرك بما فيه لوجود العارض فى الروح :

شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة وللأرض من كأس الكرام نصيب

فنفس المبطل أرض لسماء قلبه وقلب المحق أرض لسماء روحه فالبالغ مبلغ الرجال والمتجوهر المتجرد من أعراض الأحوال خلع نعلى النفس والقلب بالوادى المقدس وفى مقعد صدق عند مليك مقتدر استقر وعرس . وأحرق بنور العيان أجرام الألحان ولم تصغ روحه إلى مناغاة عاشقه لشغله بمطالعة آثار محبوبه فالهائم المشتاق لا يسعه كشف ظلامة العشاق ومن هذا حاله لا يحركه السماع رأسا وإذا كانت الألحان لا تلحم هذا الروح مع لطافة مناجاتها

وخفي لطف مناغاتها ، كيف يلحقه السماع بطريق فهم المعاني وهو أكثف ، ومن يضعف عن حمل لطيف الإشارات كيف يتحمل ثقل أعباء العبارات ، وأقرب من هذا عبارة تقرب إلى الأفهام : الوجد وارد يرد من الحق سبحانه وتعالى ، ومن يريد الله لا يقنع بما من عند الله ، ومن صار في محل القرب متحققا به لا يلهيه ولا يحركه ما ورد من عند الله ، فالوارد من عند الله مشعر ببعد والقريب واجد فما يصنع بالوارد والوجد نار والقلب للواحد ربه نور، والنور ألطف من النار ، والكثيف غير مسيطر على اللطيف. فما دام الرجل البالغ مستمرا على جادة استقامته غير منحرف عن وجه معهوده بنوازع وجوده لا يدركه الوجد بالسماع ، فإن دخل عليه فتور أو عاقه قصور بدخول الابتلاء عليه من المبتلي المحسن يتألف المحن من تفاريق صور الابتلاء : أي يدخل عليه وجود يدركه الواجد لعود العبد عند الابتلاء إلى حجاب القلب ، فمن هو مع الحق إذا زل وقع على القلب ، ومن هو مع القلب إذا زل وقع على النفس .

سمعت بعض مشايخنا يحكى عن بعضهم أنه وجد من السماع ، فقيل له : أين حالك من هذا ؟ فقال : دخل على داخل أوردني هذا المورد.

قال بعض أصحاب سهل : صحبت سهلا سنين ما رأيته تغير عند شيء كان يسمعه من الذكر والقرآن : فلما كان في آخر عمره قرىء عنده ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾ فارتعد وكان يسقط : فسألته عن ذلك؟ قال: نعم لحقني ضعف وسمع مرة ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ فاضطرب ، فسأله ابن سالم وكان صاحبه قال : قد ضعفت ،فقيل له : إن كان هذا من الضعف فما القوة ؟ قال . القوة أن الكامل لا يرد عليه وارد إلا يبتلعه بقوة حاله فلا يغيره الوارد . ومن هذا القبيل قول أبي بكر رضي الله عنه : هكذا كنا حتى قست القلوب ، لما رأى الباكي يبكي عند قراءة القرآن . وقوله « قست » أي تصلبت وأدمنت سماع القرآن وألفت أنواره فما استغربته حتى تغير والواجد كالمستغرب ولهذا قال بعضهم حالي قبل الصلاة كحالي في الصلاة إشارة منه إلى استمرار حال الشهود فهكذا في السماع كقبل السماع. وقد قال الجنيد : لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم ،وفضل العلم أتم من فضل الوجد ، وبلغنا عن الشيخ حماد رحمه الله أنه كان يقول: البكاء من بقية الوجود . وكل هذا يقرب البعض من بعض في المعنى لمن عرف الإشارة فيه ، وفهم وهو عزيز الفهم ، عزيز الوجود ، واعلم أن للباكين عند السماع مواجيد مختلفة فمنهم من يبكي خوفا ، ومنهم من يبكي شوقا،ومنهم من يبكي فرحا ، كما قال القائل :

طفح السرور على حتى إنني من عظم ما قد سرني أبكاني

قال الشيخ أبو بكر الكتاني رحمه الله : سماع العوام على متابعة الطبع ، وسماع المريدين رغبة ورهبة ، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء ، وسماع العارفين على المشاهدة ،وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام : وقال أيضا : الموارد ترد فتصادف شكلا أو موافقا فأي وارد صادف شكلا مازجه؟ وأي وارد صادف موافقا ساكنه ؟ وهذه كلها مواجيد أهل السماع . وما ذكرناه حال من ارتقع عن السماع . وهذا الاختلاف منزل على اختلاف أقسام البكاء التي ذكرناها من الخوف والشوق والفرح ، وأعلاها بكاء الفرح بمثابة قادم يقدم على أهله بعد طول غربته فعند رؤية الأهل يبكي من قوة الفرح وكثرته .

وفي البكاء رتبة أخرى أعز من هذه يعز ذكرها ويكبر نشرها لقصور الأفهام عن إدراكها : فربما يقابل ذكرها بالإنكار ويحي بالاستكبار، ولكن يعرفها من وجدها قدما ووصولا أو فهمها نظرا كثيرا ومثولا ، وهو بكاء الوجدان غير بكاء الفرح ، وحدوث ذلك في بعض مواطن حق اليقين،ومن حق اليقين في الدنيا إلمامات يسيرة فيوجد البكاء في بعض مواطنه لوجود تغاير وتباين بين المحدث والقديم.فيكون البكاء رشحا هو من وصف الحدثان لوهج سطوة عظمة الرحمن . ويعرب من ذلك مثلا في الشاهد قطر الغمام بتلاقي مختلف الأجرام : وهذا وإن عز مشعر ببقية تقدح في صرف الفناء . نعم قد يحقق العبد في الفناء متجردا عن الآثار منغمسا في الأنوار ، ثم يرتقي منه مقام البقاء ، ويرد إليه الوجود مطهرا ، فتعود إليه أقسام البكاء خوفا وشوقا وفرحا ووجدانا بمشاكلة صورها ومباينة حقائقها

بفرق لطيف يدركه أربابه . وعند ذلك يعود عليه من السماع أيضا قسم ، وذلك القسم مقدور له مقهور معه يأخذه إذا أراده ويرده إذا أراد ، ويكون هذا السماع من المتمكن بنفس اطمأنت واستنارت وباينت طبيعتها واكتسبت طمأنينتها وأكسبها الروح معنى منه فيكون سماعه نوع تمتع للنفس كتمتعها بمباحات اللذات والشهوات لأن يأخذ السماع منه أو يزيد به أو يظهر عليه منه أثر ، فتكون النفس في ذلك بمثابة الطفل في حجر الوالد يفرحه في بعض الأوقات ببعض مأربه

ومن هذا القبيل ما نقل أن أبا محمد الراشي كان يشغل أصحابه بالسماع وينعزل عنهم ناحية يصلي ، فقد تطرق هذه النغمات مثل هذا المصلي فتندلي إليها النفس متنعمة بذلك ، فيزداد مورد الروح من الأنس صفاء عند ذلك لبعد النفس عن الروح في تمتعها ، فإنها مع طمأنينتها بوصف من الأجنبية بوضعها وجبلتها ، وفي بعدها توفر أقسام الروح من الفتوح ، ويكون طروق الألحان سمعه في الصلاة غير محيل بينه وبين حقيقة المناجاة ، وفهم تنزيل الكلمات ، وتصل الأقسام إلى محالها غير مزاحمة ، ولا مزاحمة وذلك كله لسعة شرح الصدر بالإيمان والله المحسن المنان . ولهذا قيل السماع لقوم كالدواء ، ولقوم كالغذاء ، ولقوم كالمروحة ، ومن عود أقسام البكاء ما روى أن رسول الله ﷺ قال لأبي « اقرأ ، فقال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ أحب أن أسمعه من غيري . فافتتح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ فإذا عيناه تهملان » .
وروى أن رسول الله ﷺ استقبل الحجر واستلمه ثم وضع شفتيه عليه طويلا يبكى ، وقال : يا عمر ههنا تسكب العبرات ، والمتمكن تعود إليه أقسام البكاء ، وفي ذلك فضيلة سألها النبي ﷺ فقال « اللهم ارزقني عينين هطالتين » ويكون البكاء في الله ، فيكون لله ويكون بالله هو الأتم لعوده إليه بوجود مستأنف موهوب له من الكريم المنان في مقام البقاء .

الباب الخامس والعشرون في القول في السماع تأدبا واعتناء

ويتضمن هذا الباب آداب السماع ، وحكم التخريق وإشارات المشايخ في ذلك ، وما في ذلك من المأثور والمحذور

مبنى التصوف على الصدق في سائر الأحوال وهو جد كله ، لاينبغي لصادق أن يتعمد الحضور في مجمع يكون فيه سماع إلا بعد أن يخلص النية لله تعالى ويتوقع به مزيدا في إرادته وطلبه ، ويحذر من ميل النفس لشيء من هواها ثم يقدم الاستخارة للحضور ويسأل الله تعالى إذا عزم البركة فيه . وإذا حضر يلزم الصدق والوقار بسكون الأطراف قال أبو بكر الكتاني رحمه الله : المستمع يجب أن يكون في سماعه غير مستروح إليه يهيج منه السماع وجداً أو شوقاً أو غلبة أو وارد ، والوارد عليه يغنيه عن كل حركة وسكون ، فيتقي الصادق استدعاء الوجد ويجتنب الحركة فيه مهما أمكن سيما بحضرة الشيوخ .

حكى أن شابا كان يصحب الجنيد رحمه الله وكلما سمع شيئا زعق وتغير ، فقال له يوما : إن ظهر منك شيء بعد هذا فلا تصحبني ، فكان بعد ذلك يضبط نفسه ، وربما كان من كل شعرة منه تقطر قطرة عرق ، فلما كان يوما من الأيام زعق زعقة فخرج روحه . فليس من الصدق إظهار الوجد من غير وجد نازل ، أو ادعاء الحال من غير حال حاصل وذلك عين النفاق

قيل كان النصراباذي رحمه الله كثير الولع بالسماع فعوتب في ذلك فقال : نعم هو خير من أن نقعد ونغتاب فقال له أبو عمرو بن نجيد وغيره من إخوانه : هيهات يا أبا القسم زلة في السماع شر من كذا وكذا سنة نغتاب الناس وذلك أن زلة السماع إشارة إلى الله تعالى وترويج للحال بصريح المحال . وفي ذلك ذنوب متعددة منها : أنه يكذب على الله تعالى أنه وهب له شيئا وما وهب له . والكذب على الله من أقبح الزلات ومنها : أن يغر بعض الحاضرين فيحسن به الظن والإغرار خيانة قال عليه السلام « من غشنا فليس منا » ومنها أنه إذا كان مبطلا ويرى بعين الصلاح فسوف يظهر منه بعد ذلك ما يفسد عقيدة المعتقد فيه فيفسد عقيدته في غيره ممن يظن به الخير من أمثاله

فيكون سببا إلى فساد العقيدة فى أهل الصلاح ، ويدخل بذلك ضرر على الرجل الحسن الظن مع فساد عقيدته ، فينقطع عنه مدد الصالحين . ويتشعب من هذا آفات كثيرة يعثر عليها من يبحث عنها ومن أنه يحوج الحاضرين إلى موافقته فى قيامه وقعوده فيكون متكلفا للناس بباطله ، ويكون فى الجمع من يرى بنور الفراسة أنه مبطل ويحمل على نفسه الموافقه للجميع مداريا ويكثر شرح الذنوب فى ذلك فليتق الله فى ربه ولا يتحرك إلا إذا صارت حركته حركة المرتعش الذى لا يجد سبيلا إلى الإمساك ، وكالعاطس الذى لا يقدر أن يرد العطسة ، وتكون حركته بمثابة النفس الذى يدعوه إليه داعية الطبع قهراً .

قال السرى : شرط الواجد فى زعقته أن يبلغ إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر فيه بوجع ، وقد يقع هذا لبعض الواجدين نادرا ، وقد لا يبلغ الواجد هذه الرتبة من الغيبة ، ولكن زعقته تخرج كالتنفس بنوع إرادة ممزوجة بالاضطرار ، فهذا الضبط من رعاية الحركات ورد الزعقات وهو فى تمزيق الثياب آكد ، فإن ذلك يكون إتلاف المال وإنفاق المحال ، وهكذا رمى الخرقة الى الحادى لا ينبغى أن يفعل الا اذا حضرته نية يجتنب فيها التكاليف والمراءاة وإذا أحسنت النية فلا بأس بإلقاء الخرقة الى الحادى ، فقد روى عن كعب بن زهير أنه دخل على النبى ﷺ المسجد وأنشده أبياته التى أولها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول . . . .

حتى انتهى الى قوله فيها :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فقال له النبى ﷺ «من أنت ؟» فقال : أشهد أن لا إله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله ، أنا كعب بن زهير فرمى النبى ﷺ إليه بردة كانت عليه ، فلما كان زمن معاوية بعث إلى كعب بن زهير : بعنا بردة النبى ﷺ بعشرة آلاف ، فوجه اليه ما كنت لأوثر بثوب النبى ﷺ أحدا . فلما مات كعب بعث معاوية الى أولاده بعشرين ألفا وأخذ البردة . وهى الباقية عند الإمام الناصر لدين الله اليوم عادت بركتها على أيامه الزاهرة

وللمتصوفة آداب يتعاهدونها ، ورعايتها حسن الأدب فى الصحبة والمعاشرة ، وكثير من السلف لم يكونوا يعتمدون ذلك ، ولكن كل شىء استحسنوه وتواطئوا عليه ولا ينكره الشرع لا وجه للانكار فيه فمن ذلك أن أحدهم اذا تحرك السماع فوقعت منه خرقة أو نار له وجد ورمى عمامته الى الحادى ، فالمستحسن عندهم موافقة الحاضرين له فى كشف الرأس اذا كان ذلك من متقـــدم وشيخ ، وان كان ذلك من الشبان فى حضرة الشيوخ فليس على الشيوخ موافقة الشبان فى ذلك ، وينسحب حكم الشيوخ على بقية الحاضرين فى ترك الموافقة للشباب ، فإذا سكتوا عن السماع يرد الواجد الخرقته ويوافقه الحاضرون برفع العمائم ثم ردها على الرءوس فى الحال للموافقة ، والخرقة اذا رميت الى الحادى هى للحادى اذا قصد اعطاءها للحادى ، وان لم يقصد اعطاءها للحادى فقيل للحادى لأن المحرك هو ومنه صدر الموجب لرمى الخرقة وقال بعضهم : هى للجميع والحادى واحد منهم لأن المحرك قول الحادى مع بركة الجمع فى احداث الوجد ، واحداث الوجد لا يقاصر عن قول القائل فيكون الحادى واحد منهما فى ذلك .

روى أن النبى ﷺ قال يوم بدر « من وقف بمكان كذا فله كذا ، ومن قتل فله كذا ومن أسر فله كذا » فتسارع الشبان وأقام الشيوخ والوجوه عند الرايات ، فلما فتح الله على المسلمين طلب الشبان أن يجعل ذلك لهم ، فقال الشيوخ : كنا ظهر لكم ورداءا فلا تذهبوا بالغنائم دوننا ، فأنزل الله تعالى ﴿ يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ فقسم النبى ﷺ بينهم بالتسوية .

وقيل . إذا كان القوال من القوم يجعل كواحد منهم ، واذا لم يكن من القوم فما كان له قيمة يؤثر به ، وما كان من خرق الفقراء يقسم بينهم وقيل اذا كان القوال أجيرا فليس له منها شىء ، وان كان متبرعا يؤثر بذلك وكل هذا

إذا لم يكن هناك شيخ يحكم ، فأما إذا كان هناك شيخ يهاب ويتمثل أمره فالشيخ يحكم فى ذلك بما يرى فقد تختلف الأحوال فى ذلك وللشيخ اجتهاد فيفعل ما يرى فلا اعتراض لأحد عليه ، وإن فداها بعض المحبين أو بعض الحاضرين فرضى القوال والقسوم بما رضوا به وعاد كل واحد منهم إلى خرقته فلا بأس بذلك ، وإذا أصر واحد على الإيثار بما خرج منه لنية له فى ذلك يؤثر بخرقته الحادى ، وأما تمزيق الخرقة المجروحة التى مزقها واجد صادق عن غلبة سلبت اختياره كغلبة النفس ، فمن يتعمد إمساكه فنيتهم فى تفرقتها وتمزيقها التبرك بالخرقة لأن الوجد أثر من آثار فضل الحق وتمزيق الخرقة أثر من آثار الوجد فصارت الخرقة متأثرة بأثر ربانى من حقها أن تفدى بالنفوس وتترك على الرءوس إكراما واعزازا :

تضوع أرواح نجد من ثيابهم يوم القدوم لقرب العهد بالدار

كان رسول الله ﷺ يستقبل الغيث ويتبرك به ويقول « حديث عهد بربه » فالخرقة الممزقة حديثة العهد ، فحكم المجروحة أن تفرق على الحاضرين ، وحكم ما يتبعها من الخرق الصحاح أن يحكم فيها الشيخ ، إن خصص بشيء منها بعض الفقراء فله ذلك ، وإن خرقها خرقا فله ذلك ، ولا يقال هذا تفريط وسرف فإن الخرقة الصغيرة ينتفع بها فى موضعها عند الحاجات كالكبيرة .

وروى عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : أهدى لرسول الله ﷺ حلة حرير فأرسل بها إلى فخرجت فيها فقال « لى ما كنت لأكره لنفسى شيئا أرضاه لك فشققها بين النساء خمرا » وفى رواية أتيته فقلت : ما أصنع ألبسها قال لا ولكن اجعلها خمرا بين الفواطم ، أراد فاطمة بنت أسد وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وفاطمة بنت حمزة ، وفى هذه الرواية أن الهدية كانت حلة مكفوفة بحرير ، وهذا وجه السنة لتمزيق الثوب وجعلها خرقا .

حكى أن الفقهاء والصوفية بنيسابور اجتمعوا فى دعوة فوقعت الخرقة ، وكان شيخ الفقهاء الشيخ أبا محمد الجوينى وشيخ الصوفيين الشيخ أبا القاسم القشيرى ؛ فقسمت الخرقة على عادتهم ، فالتفت الشيخ أبو محمد إلى بعض الفقهاء وقال سرا ، هذا سرف وإضاعة للمال وسمع أبو القاسم القشيرى ولم يقل حتى فرغت القسمة ، ثم استدعى الخادم وقال : انظر فى الجمع من معه سجادة خرق ائتنى بها ، فجاءه بسجادة ثم أحضر رجلا من أهل الخبرة ، فقال هذه السجادة بكم تشترى فى المراد ؟ قال : بدينار ، قال : ولو كانت قطعة واحدة كم تساوى ؟ قال نصف دينار ثم التفت إلى الشيخ أبى محمد وقال : هذا لا يسمى إضاعة المال . والخرقة الممزقة تقسم على جميع الحاضرين من كان من الجنس أو من غير الجنس إذا كان حسن الظن بالقوم معتقدا للتبرك بالخرقة .

روى طارق بن شهاب أن أهل البصرة غزوا نهاوند ، وأمدهم أهل الكوفة وعلى أهل الكوفة عمار بن ياسر ، فظهروا وأراد أهل البصرة أن لا يقسموا لأهل الكوفة من الغنيمة شيئا ، فقال رجل من بنى تميم لعمار : أيها الأجدع تريد أن تشاركنا فى غنائمنا ، فكتب إلى عمر بذلك ، فكتب عمر رضى الله عنه : إن الغنيمة لمن شهد الوقعة ، وذهب بعضهم إلى أن المجروح من الخرق يقسم على الجمع وما كان من ذلك صحيحا يعطى للقوال واستدل بما روى عن أبى قتادة قال لما وضعت الحرب أوزارها يوم حنين وفرغنا من القوم قال النبى ﷺ « من قتل قتيلا فله سلبه » وهذا الوجه فى الخرقة الصحيحة . فأما المجروحة فحكمها إسهام الحاضرين والقسمة لهم ، ولو دخل على الجمع وقت القسمة من لم يكن حاضرا قسم له روى أبو موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه قال : لما قدمنا على رسول الله ﷺ بعد خيبر بثلاث ؛ فأسهم لنا ولم يسهم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا ، ويكره للقوم حضور غير الجنس عندهم فى السماع كمتزهد لا ذوق له من ذلك فينكر مالا ينكر ، أو صاحب دنيا يحوج إلى المداراة والتكليف ، أو متكلف للوجد يشوش الوقت على الحاضرين بتواجيده .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن والده أبى الفضل الحافظ المقدسى عن أبى منصور محمد بن عبد الملك المظفرى

بسرخس قال أخبرنا أبو على الفضل بن منصور بن نصر الكاغدى السمرقندى إجازة ، قال حدثنا الهيثم بن كليب قال أخبرنا أبو بكر عمار بن اسحق قال حدثنا سعيد بن عامر عن شعبة عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال : كنا عند رسول الله ﷺ إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال : يارسول الله إن فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ؛ ففرح رسول الله ﷺ فقال : هل فيكم من ينشدها ؟ فقال بدوى : نعم يارسول الله فقال هات فأنشد الأعرابى :

قد لسعت حية الهوى كبدى فلا طبيب لها ولا راقى
إلا الحبيب الذى شغفت به فعنده رقيتى وترياقى

فتواجد رسول الله ﷺ وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبه ، فلما فرغوا أوى كل واحد منهم إلى مكانه ، قال معاوية بن أبى سفيان ما أحسن لعبكم يارسول الله ، فقال« مه يامعاوية ليس بكريم من لم يهتز عند سماع ذكر الحبيب » ثم قسم رداءه رسول الله ﷺ على من حاضرهم بأربعمائة قطعة . فهذا الحديث أوردناه مسندا كما سمعناه ووجدناه ، وقد تكلم فى صحته أصحاب الحديث . وما وجدنا شيئا نقل عن رسول الله ﷺ يشاكل وجد أهل الزمان وسماعهم واجتماعهم وهيئتهم إلا هذا ، وما أحسنه من حجة للصوفية وأهل الزمان فى سماعهم وتمزيقهم الخرق وقسمتها أن لو صح والله أعلم .

ويخالج سرى أنه غير صحيح ،ولم أجد فيه ذوق اجتماع النبى ﷺ مع أصحابهوما كانوا يعتمدونه على مابلغنا فى هذا الحديث ويأبى القلب قبوله، والله أعلم بذلك .

الباب السادس والعشرين : فى خاصية الأربعينية التى يتعاهدها الصوفية

ليس مطلوب القوم من «الأربعين» شيئا مخصوصا لايطلبونهفى غيرها ؟ ولكن لما طرقتهم مخالفات حكم الأوقات أحبوا تقييد الوقت بالأربعين رجاء أن ينسحب حكم الأربعين على جميع زمانهم ،فيكونوا فى جميع أوقاتهم كهيئتهم فى الاربعين .على أن الاربعين خصت بالذكر فى قول رسول الله ﷺ « من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»وقد خص الله تعالى الأربعين بالذكرفى قصة موسى عليه السلام وأمره بتخصيص الأربعين بمزيد تبتل قال الله تعالى ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾وذلك أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهم بمصر أن الله تعالى إذا أهلك عدوهم واستنقذهم من أيديهم يأتيهم بكتاب من عند الله تعالى فيه تبيان الحلال والحرام والحدود والأحكام. فلما فعل الله ذلك وأهلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين يوما ـ وهو ذوالقعدة ـ فلما تمت الثلاثون ليلة أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب،فقالت له الملائكة :كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك ،فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة وقال له أما علمت أنخلوففم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ؟ولم يكن صومموسى عليهالسلام ترك الطعام بالنهار وأكله بالليل ، بل طوى الأربعين من غير أكل. فدل على أن خلو المعدة من الطعام أصل كبير فى الباب حتى احتاج موسى إلى ذلك لمكالمة الله تعالى .

والعلوم اللدنية فى قلوب المنقطعين إلى الله تعالى ضرب من المكالمة .ومن انقطع إلىالله أربعين يوماخلصا متعاهدا نفسه بخفه المعدة يفتح اللهعليه العلوم اللدنية كما أخبر رسولالله ﷺ بذلك. غير أن تعين الأربعين من المدة فى قول رسول الله ﷺ وفى أمر الله تعالى موسى عليه السلام بذلك والتحديد والتقييد بالاربعين لحكمة فيه . ولا يطلع أحد على حقيقة ذلك إلا الأنبياء. إذا عرفهم الحق ذلك أو من يخصه الله تعالى بتعريف ذلك منغير الأنبياء ،ويلوح فى سر ذلك معنى والله أعلم .

وذلك أن الله تعالى لما أراد بتكوين آدم من تراب قدر التخمير بهذا القدر من العدد . كما ورد « خمر طينة آدم

بيده أربعين صباحا » فكان آدم لما كان مستصلحا لعمارة الدارين وأراد الله تعالى منه عمارة الدنيا كما أراد منه عمارة الجنة كونه من التراب تركيبا تناسب عالم الحكمة والشهادة ، وهذه الدار الدنيا ، وما كانت عمارة الدنيا تأتى منه وهو غير مخلوق من أجزاء أرضية سفلية بحسب قانون الحكمة فمن التراب كونه ، وأربعين صباحا خمر طينته ، ليبعد بالتخمير أربعين صباحا بأربعين حجابا من الحضرة الآلهية كل حجاب هو معنى مودع فيه يصلح به لعمارة الدنيا ويتعوق به عن الحضرة الإلهية ومواطن القرب ، إذ لو لم يتعوق بهذا الحجاب ما عمرت الدنيا . فتأصل البعد عن مقام القرب فيه لعمارة عالم الحكمة وخلافة الله تعالى فى الأرض فالتبتل لطاعة الله تعالى والإقبال عليه والانتزاع عن التوجه إلى أمر المعاش بكل يوم يخرج عن حجاب هو معنى فيه مودع ، وعلى قدر زوال كل حجاب يتجذب ويتخذ منزلا فى القرب من الحضرة الإلهية التى هى مجمع العلوم ومصدرها فاذا تمت الأربعون زالت الحجب وانصبت إليه العلوم والمعارف انصبابا ثم العلوم والمعارف هى أعيان انقلبت أنوارا باتصال إكسير نون العظمة الإلهية بها ، فانقلبت أعيان حديث النفس علوما إلهامية وتصدت أجرام حديث النفس لقبول أنوار العظمة ، فلولا وجد النفس وحديثها ما ظهرت العلوم الإلهية لأن حديث النفس وعاء وجودى لقبول الأنوار وما للقلب فى ذاته لقبول العلم شىء ، وقول رسول الله ﷺ « ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » أشار إلى القلب باعتبار أن للقلب وجها إلى النفس باعتبار توجهه إلى عالم الشهادة وله وجه إلى الروح باعتبار توجهه إلى عالم الغيب ، فيستمد القلب العلوم المكونة فى النفس ويخرجها إلى اللسان الذى هو ترجمانه ، فظهور العلوم من القلب لانها متأصلة فيه . فللقلب والروح مراتب من قرب الملهم سبحانه وتعالى فوق رتب الإلهام ، فالعبد بانقطاعه إلى الله تعالى واعتزال الناس بقطع مسافات وجوده ويستنبط من معدن نفسه جواهر العلوم

وقد ورد فى الخبر « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » ففى كل يوم بإخلاصه فى العمل لله يكشف طبقة من الطباق الترابية الجبلية المبعدة عن الله تعالى إلى أن يكشف باستكمال الأربعين أربعين طبقة ، فى كل يوم طبقا من أطباق حجابه ، وآية صحة هذا العبد وعلامة تأثره بالأربعين ووفائه بشروط الإخلاص أن يزهد بعد الأربعين فى الدينا ويتجافى عن دار الغرور وينيب إلى دار الخلود . لأن الزهد فى الدنيا من ضرورة ظهور الحكمة ، ومن لم يخلص لله ما عبد الله ، لأن الله تعالى أمرنا بالإخلاص كما أمرنا بالعمل فقال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ .

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبى الفضل اجازة قال أبو بكر احمد بن خلف اجازة عن أبو عبد الرحمن السلمى عن أبو منصور الضبعى عن محمد بن أشرس عن حفص بن عبد الله عن ابراهيم بن طهمان عن عاصم عن زر عن صفوان ابن عسال رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إذا كان يوم القيامة يجىء الإخلاص والشرك يجثوان بين يدى الرب عز وجل ، فيقول الرب للإخلاص : انطلق أنت وأهلك الى الجنة . ويقول للشرك : انطلق أنت وأهلك الى النار » وبهذا الإسناد قال المسلمى سمعت على بن سعيد وسألته عن الإخلاص ما هو ؟ قال سمعت ابراهيم الشقيق وسالته عن الإخلاص ما هو قال سمعت محمد بن جعفر الخصاف وسألته عن الاخلاص ما هو قال سألت احمد بن بشار عن الاخلاص ماهو قال سألت أبا يعقوب الشروطى عن الاخلاص ما هو قال سألت احمد بن عثمان عن الاخلاص ما هو قال سألت احمد بن على الهجيمى عن الاخلاص ماهو قال سألت عبد الواحد بن يزيد عن الاخلاص ما هو قال سألت الحسن عن الاخلاص ماهو قال سألت حذيفة عن الاخلاص ماهو قال سألت النبى ﷺ عن الاخلاص ماهو قال : سألت جبريل عليه السلام عن الاخلاص ماهو ؟ قال : سألت رب العزة عن الأخلاص ما هو ؟ قال : هو سر من سرى أودعته قلب من أحببت من عبادى .

فمن الناس من يدخل الخلوة على مراغمة النفس ، اذ النفس بطبعها كارهة للخلوة ميالة الى مخالطة الخلق ، فإذا أزعجها من مقار عادتها وحبسها على طاعة الله تعالى يعقب كل مرارة تدخل عليها حلاوة فى قلب .

قال ذو النون رحمة الله : لم أر شيئا أبعث على الإخلاص من الخلوة ، ومن أحب الخلوة . فقد استمسك بعمود الإخلاص وظفر بركن من أركان الصدق . وقال الشبلي رحمه الله لرجل استوصاه : الزم الوحدة وامح اسمك عن القوم واستقبل الجدار حتى تموت وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : الوحدة منية الصديقين .

ومن الناس من ينبعث من باطنه داعية الخلوة وتنجذب النفس إلى ذلك وهذا أتم وأكمل وأدل على كمال الاستعداد وقد روى من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدل على ذلك فيما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم إسمعيل بن أحمد المقرى قال أخبرنا جعفر بن الحكاك المكى قال أخبرنا عبد الله الصنعانى قال أخبرنا أبو عبد الله البغوى قال أخبرنا إسحق الديرى قال أخبرنا عبد الرزاق عن معمر قال : أخبرنى الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى : الرؤيا الصادقه فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ذات العدد ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ . فقال رسول الله ﷺ : ما أنا بقارىء ؟ فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال . اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء ؟ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء ! فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ﴾ حتى بلغ ﴿ ما لم يعلم ﴾ فرجع بها إلى رسول الله ﷺ يرجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : زملونى زملونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة . مالى ـ وأخبرها الخبر ـ فقال : قد خشيت على عقلى . فقالت : كلا أبشر فوالله مايخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ثم انطلقت به خديجة رضى الله عنها حتى أتت به ورقة بن نوفل وكان امرأ تنصر فى الجاهلية . وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب . وكان شيخا كبيرا قد عمى . فقالت له خديجة : ياعم اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى . فأخبرنا الخبر رسول الله ﷺ . فقال لرسول الله ﷺ هذا هو الناموس الذى أنزل على موسى . ياليتنى فيها جذعا . ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجى هم ؟ قال ورقة : نعم إنه لم يأت أحد قط بما جئت به إلا عودى وأوذى . وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا » .

وحدث جابر بن عبد الله رضى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه « فبينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والارض فجئثت منه رعبا فرجعت فقلت : زملونى زملونى ! فدثرونى فأنزل الله تعالى ﴿ ياأيها المدثر قم فأنذر ﴾ إلى ﴿ والرجز فاهجر ﴾ .

وقد نقل أن رسول الله ﷺ ذهب مرارا كى يردى نفسه من شواهق الجبال . فكلما وافى ذروة جبل لكى يلقى نفسه منه تبدى له جبرائيل عليه السلام فقال : يامحمد إنك لرسول الله حقا فيسكن لذلك جأشه ، وإذا طالت عليه عليه فترة الوحى عاد لمثل ذلك فيتبدى له جبريل فيقول له مثل ذلك . فهذه الاخبار المنبئة عن بدء أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم هى الاصل فى إيثار المشايخ الخلوة للمريدين والطالبين . فإنهم إذا أخلصوا لله تعالى فى خلواتهم يفتح الله عليهم ما يؤنسهم فى خلوتهم تعريضا من الله إياهم عما تركوا لاجله . ثم خلوة القوم مستمرة . وإنما الاربعون واستكمالها له أثر ظاهر فى ظهور مبادى بشائر الحق سبحانه وتعالى وسنوح مواهبه السنية .

الباب السابع والعشرون : فى ذكر فتوح الأربعينية

وقد غلط فى طريق الخلوة والاربعينية قوم وحرفوا الكلم عن مواضعه ودخل عليهم الشيطان وفتح عليهم بابا

من الغرور ودخلوا الخلوة على غير أصل مستقيم من تأدية حق الخلوة بالإخلوص ، وسمعوا أن المشايخ والصوفية كانت لهم خلوات وظهرت لهم وقائع وكوشفوا بغرائب وعجائب فدخلوا الخلوة لطلب ذلك ، وهذا عين اعتلال ومحض الضلال وإنما القوم اختاروا الخلوة والوحدة لسلامة الدين وتفقد أحوال النفس وإخلاص العمل لله تعالى .

نقل عن أبي عمرو الأنماطي أنه قال : لن يصفو للعاقل فهم الآخير إلا بإحكامه ما يجب عليه من إصلاح الحال الأول ، والمواطن التي ينبغي أن يعرف منها أمزداد هو أم منتقص ؟ فعليه أن يطلب مواضع الخلوة لكي لا يعارضه شاغل فيفسد عليه ما يريده .

أنبأنا طاهر بن أبي الفضل إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة قال : أنبأنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا تميم المغربي يقول من اختار الخلوة على الصحبة فينبغي أن يكون خاليا من جميع الأفكار إلا ذكر ربه عز وجل ، وخاليا من جميع المرادات إلا مراد به ، وخاليا من مطالبة النفس من جميع الأسباب فان لم يكن بهذه الصفة فان خلوته توقعه في فتنة أو بلية .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أخبرنا أبو بكر إجازة قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول : سمعت محمد بن حامد يقول : جاء رجل إلى زيادة أبي بكر الوراق وقال له : أوصني ، فقال : وجدت خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلة ووجدت شرهما في الكثرة والاختلاط .

فمن دخل الخلوة معتلا في دخوله دخل عليه الشيطان وسول أنواع الطغيان ، وامتلأ من الغرور والمحال فظن أنه على حسن الحال ، فقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجموا نفوسهم بالعزلة عن الخلوة ، ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين والبراهمة والفلاسفة ، والوحدة في جمع الهم تأثير في صفاء الباطن مطلقا ، فما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنتج تنوير القلب والزهد في الدنيا وحلاوة الذكر ، والمعاملة لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك ، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتج صفاء في النفس يستعان به على اكتساب علو الرياضة مما يعتني به الفلاسفة والدهريون ـ خذلهم الله تعالى ـ وكلما أكثر من ذلك بعد عن الله . ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياطية أو بما قد يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه الركون التام ويظن أنه فاز بالمقصود ، ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة . وليس هو المقصود من الخلوة يقول بعضهم إن الحق يريد منك الاستقامة وانت تطلب الكرامة ، وقد يفتح على الصادقين شيء من خوارق العادات . وصدق الفرسة ، ويتبين ما سيحدث في المستقبل ، وقد لا يفتح عليهم ذلك . ولا يقدح في حالهم عدم ذلك ، وإنما يقدح في حالهم الانحراف عن حد الاستقامة . فما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سببا لمزيد إيقانهم والداعي لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد في الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بعده وغروره وحماقته واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق ، ولا يزال به حتى يخلع ربقة الاسلام عن عنقه وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام ، ويظن أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى ويترك متابعة الرسول ﷺ ، ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد وتزندق نعوذ بالله من الضلال . وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع ويشبهونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك ، فمن أراد تحقيق ذلك فليعلم أن العبد إذا أخلص لله وأحسن نيته وقعد في الخلوة أربعين يوما أو أكثر فمنهم من يباشر باطنه صفو اليقين ويرفع الحجاب عن قلبه ويصير كما قال قائلهم : رأى قلبي ربي ، وقد يصل إلى هذا المقام تارة بإحياء الأوقات بالصالحات وكف الجوارح وتوزيع الأوراد من الصلاة والتلاوة والذكر على الأوقات ، وتارة يبادئه الحق لموضع صدقه وقوة استعداده مبادأة من غير عمل وجد منه ، وتارة يجد ذلك بملازمة ذكر واحد من الأذكار لأنه لا يزال يردد ذلك الذكر ويقوله ، وتكون عبادته الصلوات الخمس بسننها الراتبة فحسب ، وسائر أوقاته مشغولة بالذكر الواحد لا يتخللها فتور ، ولا يوجد منه قصور ، ولا يزال يردد ذلك الذكر ملتزما به حتى في طريق الوضوء وساعة الأكل لا يفتر عنه .

واختار جماعة من المشايخ من الذكر كلمة « لا إله إلا الله » وهذه الكلمة لها خاصية فى تنوير الباطن وجمع الهم إذا داوم عليها صادق مخلص ، وهى من مواهب الحق لهذه الأمة ، وفيها خاصية لهذه الأمة ، فما حدثنا شيخنا ضياء الدين إملاء . حدثنا أبو القاسم الدمشقى الحافظ قال حدثنا عبد الكريم بن الحسين قال حدثنا عبد الوهاب الدمشقى قال حدثنا محمد بن خريم قال حدثنا هشام بن عمار قال حدثنا الوليد بن مسلم قال حدثنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه . أن عيسى بن مريم عليه السلام قال : رب أنبئنى عن هذه الأمة المرحومة ؟ قال : أمة محمد عليه الصلاة والسلام علماء أخفياء أتقياء حلماء أصفياء حكماء كأنهم أنبياء يرضون منى بالقليل من العطاء وأرضى منهم باليسير من العمل وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله . ياعيسى هم أكثر سكان الجنة لأنها لم تذل ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم ، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت رقابهم .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : إن هذه الآية مكتوبة فى التوراة ؛ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للمؤمنين وكنزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن أقبضه حتى تقام به الملة المعوجة بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتحوا أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا » فلا يزال العبد فى خلوته يردد هذه الكلمة على لسانه مع مواطأة القلب حتى تصير الكلمة متأصلة فى القلب مزيلة لحديث النفس ينوب معناها فى القلب عن حديث النفس ؛ فإذا استولت الكلمة وسهلت على اللسان يشربها القلب ، فلو سكت اللسان لم يسكت القلب ، ثم تتجوهر فى القلب وبتجوهرها يستكن نور اليقين فى القلب ، حتى إذا ذهبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لا يزال نورها متجوهرا ويتخذ الذكر مع رؤية عظمة المذكور سبحانه وتعالى ، ويصير الذكر حينئذ ذكر الذات ، وهذا الذكر هو المشاهدة والمكاشفة والمعاينة ـ أعنى ذكر الذات بتجوهر نور الذكر ـ وهذا هو المقصد الأقصى من الخلوة . وقد يحصل هذا من الخلوة لا بذكر الكلمة بل بتلاوة القرآن إذا أكثر من التلاوة واجتهد فى مواطأة القلب مع اللسان ، حتى تجرى التلاوة على اللسان ، ويقوم معنى الكلام مقام حديث النفس ، فيدخل على العبد سهولة فى التلاوة والصلاة ويتنور الباطن بتلك السهولة فى التلاوة والصلاة ويتجوهر نور الكلام فى القلب ويكون منه أيضا ذكر الذات ويجتمع نور الكلام فى القلب مع مطالعة عظم المتكلم سبحانه وتعالى ودون هذه الموهبة ما يفتح على العبد من العلوم الإلهامية اللدنية ، وإلى حين بلوغ العبد هذا المبلغ من حقيقة الذكر والتلاوة إذا صفا باطنه قد يغيب فى الذكر من كمال أنسه وحلاوة ذكره حتى يلتحق فى غيبته فى الذكر بالنائم ، وقد تتجلى له الحقائق فى لبسة الخيال أولا كما تنكشف الحقائق للنائم فى لبسة الخيال ، كمن رأى فى المنام أنه قتل حية فيقول له المعبر : تظفر بالعدو فظفره بالعدو هو كشف كاشفه الحق تعالى به ، وهذا الظفر روح مجرد صاغ مثل الرؤيا له جسدا لهذه الروح من خيال الحية ، فالروح الذى هو كشف الظفر أخبار الحق ، ولبسة الخيال الذى هو بمثابة الجسد مثال انبعث من نفس الرائى فى المنام من استصحاب القوة الوهمية والخيالية من اليقظة فيتألف روح كشف الظفر مع جسد مثال الحية فافتقر إلى التعبير ، إذ لو كشف بالحقيقة التى هى روح الظفر من غير هذا المثال الذى هو بمثابة الجسد ما احتاج إلى التعبير ، فكان يرى الظفر ويصح الظفر ، وقد يتجرد الخيال باستصحاب الخيال والوهم من اليقظة فى المنام من غير حقيقة فيكون المنام أضغاث أحلام لا يعبر وقد يتجرد لصاحب الخلوة الخيال المنبعث من ذاته من غير أن يكون وعاء لحقيقة فلا يبنى على ذلك ولا يلتفت إليه ، فليس ذلك واقعة وإنما هو خيال ، فأما إذا غاب الصادق فيه ذكر الله تعالى حتى يغيب عن المحسوس بحيث لو دخل عليه داخل من الناس لا يعلم به لغيبته فى الذكر ، فعند ذلك قد ينبعث فى الابتداء من نفسه مثال وخيال ينفخ فيه روح الكشف فإذا عاد من غيبته فإما يأتيه تفسيره من باطنه موهبة من الله تعالى وإما يفسره له شيخه ، كما يعبر المعبر المنام ويكون ذلك واقعة لأنه كشف حقيقة فى لبسة مثال ، وشرط صحة الواقعة الإخلاص فى الذكر أولا ثم الاستغراق فى الذكر ثانيا

وعلامة ذلك الزهد فى الدنيا وملازمة التقوى لأن الله جعله بما يكاشف به فى واقعة مورد الحكمة ، والحكمة تحكم بالزهد والتقوى ، وقد يتجرد للذاكر الحقائق من غير لبسة المثال فيكون ذلك كشفا وإخبارا من الله تعالى إياه ، ويكون ذلك تارة بالرؤية وتارة بالسماع ، وقد يسمع فى باطنه وقد يطرق ذلك من الهواء لامن باطنه كالهواتف يعلم بذلك أمرا يريد الله إحداثه له أو لغيره فيكون إخبار الله إياه بذلك مزيدا ليقينه ، أو يرى فى المنام حقيقة الشىء .

نقل عن بعضهم أنه أتى بشراب فى قدح فوضعه من يده وقال : حدث فى العالم حدث ، ولا أشرب هذا دون أن أعلم ماهو ؛ فانكشف له أن قوما دخلوا مكة وقتلو فيها .

وحكى عن أبى سليمان الخواص قال : كنت راكبا حماراً لى يوما ، وكان يؤذيه الذباب فيطأطىء رأسه ؛ فكنت أضرب رأسه بخشبة كانت فى يدى ؛ فرفع الحمار رأسه إلى وقال : اضرب فإنك على رأسك تضرب ، وقيل له ياأباسليمان وقع لك ذلك أو سمعته ، قال : سمعته يقول كما سمعتنى . وحكى عن أحمد بن عطاء الروذبارى قال : كان لى مذهب فى أمر الطهارة فكنت ليلة من الليالى أستنجى إلى أن مضى ثلث الليل ولم يطب قلبى فتضجرت ، فبكيت وقلت : يارب العفو : فسمعت صوتا ولم أر أحدا يقول يا أبا عبد الله العفو العلم .

وقد يكاشف الله تعالى عبده بآيات وكرامات تربية للعبد وتقوية ليقينه وإيمانه . قيل كان عند جعفر الخلدى رحمه الله فص له قيمة ، وكان يوما من الأيام راكبا فى السمارية فى دجلة ، فهم أن يعطى الملاح قطعة وحل الخرقة فوقع الفص فى الدجلة ، وكان عنده دعاء للضالة مجرب ، وكان يدعو به فوجد الفص فى وسط أوراق كان يتصفحها والدعاء هو أن يقول : ياجامع الناس ليوم لاريب فيه أجمع على ضالتى وسمعت شيخنا بهمذان حكى له شخص أنه كوشف فى بعض خلواته بولد له فى جيحون كاد يسقط فى الماء من السفينة قال : فزجرته فلم يسقط وكان هذا الشخص بنواحى همذان وولده بجيحون فلما قدم الولد أخبر أنه كاد يسقط فى الماء فسمع صوت والده فلم يسقط .

وقال عمر رضى الله عنه : ياسارية الجبل ـ على المنبر بالمدينة وسارية بنهاوند ـ فأخذ سارية نحو الجبل وظفر بالعدو فقيل لسارية كيف علمت ذلك ؟ فقال سمعت صوت عمر وهو يقول : ياسارية الجبل .

سئل ابن سالم وكان قد قال : للإيمان أربعة أركان : ركن منه الإيمان بالقدرة ، وركن منه الإيمان بالحكمة وركن منه التبرى من الحول والقوة ، وركن منه الاستعانة بالله عز وجل فى جميع الأشياء قيل له : مامعنى قولك الإيمان بالقدرة ؟ فقال هو أن تؤمن ولا تنكر أن يكون لله عبد بالمشرق ـ قائما ـ على يمينه ـ ويكون من كرامة الله له أن يعطيه من القوة ماينقلب من يمينه على يساره ، فيكون بالمغرب تؤمن بجواز ذلك وكونه .

وحكى لى فقير أنه كان بمكة وأرجف على شخص ببغداد أنه قد مات فكاشفه الله بالرجل وهو راكب يمشى فى سوق بغداد فأخبر إخوانه أن الشخص لم يمت ، وكان كذلك حتى ذكر لى هذا الشخص أنه فى تلك الحالة التى كوشف بالشخص راكبا قال : رأيته فى السوق وأنا أسمع بأذنى صوت المطرقة من الحداد فى سوق بغداد وكل هذه مواهب الله تعالى وقد يكاشف بها قوم وتعطى وقد يكون فوق هؤلاء من لايكون له شىء من هذا لأن هذه كلها تقوية اليقين ومن منح صرف اليقين لاحاجة له إلى شىء من هذا ، فكل هذه الكرامات دون ماذكرناه من تجوهر الذكر فى القلب ووجوده ذكر الذات فإن تلك الحكمة فيها تقوية للمريدين وتربية للسالكين ليزدادوا بها يقينا يجتذبون به إلى مراغمة النفوس والسلو عن ملاذ الدنيا ويستنهض منهم بذلك ساكن عزمهم لعمارتهم الأوقات بالقربات فيتروحون بذلك ويرقون لطريقة من كوشف بصرف اليقين من ذلك لكان أن نفسه أسرع إجابة وأسهل انقيادا وأتم استعداداً والأولون استلين بذلك منهم ما استوعر واستكشف منهم مااستتر .

وقد لايمنع صور ذلك الرهابين والبراهمة مما هو غير منتهج سبل الهدى وراكب طريق الردى ليكون فى ذلك حقوقهم مكرا واستدراجا ؛ ليستحسنوا حالهم ويستقروا فى مقار الطرد والبعد إبقاء لهم فيما أراد الله منهم من العمى والضلال والردى والوبال حتى لايغتر السالك تيسير شىء بفتح له ويعلم أنه لو مشى على الماء والهواء لاينفعه ذلك حتى يؤدى

حق التقوى والزهد ، فأما من تعوق بخيال أو قنع بمحال ولم يحكم أساس خلوته بالإخلاص يدخل الخلوة بالزور ويخرج بالغرور ، فيرفض العبادات ويستحقرها ويسلبه الله لذة المعاملة وتذهب عن قلبه هيبة الشريعة ويفتضح فى الدنيا والآخرة فليعلم الصادق أن المقصود من الخلوة التقرب إلى الله تعالى بعمارة الأوقات وكف الجوارح عن المكروهات، فيصلح لقوم من أرباب الخلوة إدامة الأوراد وتوزيعها على الأوقات، ويصلح لقوم ملازمة ذكر واحد ويصلح لقوم دوام المراقبة ، ويصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأوراد ، ولقوم الانتقال من الأوراد إلى الذكر ، ومعرفة مقادير ذلك يعلمه المصحوب للشيخ المطلع على اختلاف الأوضاع وتنوعها مع نصحه للأمة وشفقته على الكافة ، يريد المريد لله لا لنفسه ، غير مبتلى بهوى نفسه، محبا للاستتباع، ومن كان محبا للاستتباع فما يفسده مثل هذا أكثر مما يصلحه .

الباب الثامن والعشرون : فى كيفية الدخول فى الأربعينية

روى أن داود عليه السلام لما ابتلى بالخطيئة خر لله ساجدا أربعين يوما وليلة حتى أتاه الغفران من ربه .

وقد تقرر أن الوحدة والعزلة ملاك الأمر ومتمسك أرباب الصدق، فمن استمرت أوقاته على ذلك لجميع عمره خلوة وهو الأسلم لدينه ، فإن لم يتيسر له ذلك وكان مبتلى بنفسه أو لائم بالأهل والأولاد ثانيا فليجعل لنفسه من ذلك نصيبا

نقل عن سفيان الثورى فيما روى أحمد بن حرب عن خالد بن زيد عنه أنه قال : كان يقول ما أخلص عبد لله أربعين صباحا الا أنبت الله سبحانه الحكمة فى قلبه وزهده الله فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره داء الدنيا ودواؤها فيتعاهد العبد نفسه فى كل سنة مرة. وأما المريد الطالب إذا أراد أن يدخل الخلوة فأكمل الأمر فى ذلك أن يتجرد من الدنيا ويخرج كل ما يملكه ويغتسل غسلا كاملا - بعد الاحتياط للثوب والمصلى بالنظافة والطهارة - ويصلى ركعتين ويتوب إلى الله تعالى من ذنوبه ببكاء وتضرع واستكانة وتخشع ، ويسوى بين السريرة والعلانيـــة ولا ينطوى على غل وغش وحقد وحسد وخيانة ، ثم يقعد فى موضع خلوته ولا يخرج الا لصلاة الجمعة وصلاة الجماعة ، فترك المحافظة على صلاة الجماعة غلط وخطأ ، فإن وجد تفرقة فى خروجه يكون له شخص يصلى معه جماعة فى خلوته ، ولا ينبغى أن يرضى بالصلاة منفردا البتة فيترك الجماعة يخشى عليه آفات ، وقد رأينا من يتشوش عقله فى خلوته ولعل ذلك بشؤم إصراره على ترك صلاة الجماعة ، غير أنه ينبغى أن يخرج من خلوته لصلاة الجماعة وهو ذكر لا يفتر عن الذكر، ولا يكثر إرسال الطرف إلى ما يرى ، ولا يصغى إلى ما يسمع لان القوة الخاطفة والمتخيلة كلوح ينتقش بكل مرئى ومسموع ، فيكثر بذلك الوسواس وحديث النفس والخيال، ويجتهد أن يحضر الجماعة بحيث يدرك مع الإمام تكبيرة الإحرام ، فإذا سلم الإمام وانصرف ينصرف إلى خلوته ، ويتقى فى خروجه استجلاء نظر الخلق إليه وعلمهم بجلوسه فى خلوته ، فقد قيل : لا تطمع فى المنزلة عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس ، وهذا أصل ينفسد به كثير من الاعمال إذا أهمل وينصلح به كثير من الاحوال إذا اعتبر ، ويكون فى خلوته جاعلا وقته شيئا واحدا موهوبا لله بإدامة فعل الرضا إما تلاوة أو ذكراً أو صلاة أو مراقبة، وأى وقت فتر عن هذه الاقسام ينام فإن أراد تعيين أعداد من الركعات ومن التلاوة والذكر أتى بذلك شيئا فشيئا ، وإن أراد أن يكون بحكم الوقت يعتمد أخف ما على قلبه من هذه الاقسام ، فإذا فتر عن ذلك ينام، وإن أراد أن يبقى فى سجود واحد أو ركوع واحد أو ركعة واحدة أو ركعتين ساعة أو ساعتين فعل ، ويلازم فى خلوته إدامة الوضوء ولا ينام إلا عن غلبة بعد أن يدفع النوم عن نفسه مرات . فيكون هذا شغله ليله ونهاره وإذا كان ذاكرا لكلمة . لا إله إلا الله، وسئمت النفس الذكر باللسان يقولها بقلبه من غير حركة اللسان وقد قال سهل بن عبدالله إذا قلت : لا إله إلا الله . مد الكلمة وانظر إلى قدم الحق فأثبته وأبطل ماسواه ، وليعلم أن الامر كالسلسلة يتداعى حلقة حلقة فليكن دائم التلازم بفعل الرضا .

وأما قوت من فى الاربعينية والخلوة فالاولى أن يقتنع بالخبز والملح ويتناول كل ليلة رطلا واحدا بالبغدادى

يتناوله بعد العشاء الآخرة ، وإن قسمه نصفين يأكل أول الليل نصف رطل وآخر الليل نصف رطل فيكون ذلك أخف للمعدة وأعون على قيام الليل وإحيائه بالذكر والصلاة ، وإن أراد تأخير فطوره إلى السحر فليفعل ، وإن لم يصبر على ترك الإدام يتناول الإدام ، وإن كان الإدام شيئا يقوم مقام الخبز ينقص من الخبز بقدر ذلك . وإن أراد التقلل من هذا القدر أيضا ينقص كل ليلة دون اللقمة بحيث ينتهى تقلله فى العشر الأخير من الأربعين إلى نصف رطل وإن قوى قنع النفس بنصف رطل من أول الأربعين وتنقص يسيرا كل ليلة بالتدريج حتى يعود فطوره إلى ربع رطل فى العشر الأخير .

وقد اتفق مشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء : قلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام والاعتزال عن الناس ، وقد جعل للجوع وقتان ، أحدهما : آخر الأربع والعشرين ساعة فيكون من الرطل لكل ساعتين أوقية بأكلة واحدة يجعلها بعد العشاء الآخرة أو يقسمها أكلتين كما ذكرنا ، والوقت الآخر : على رأس اثنتين وسبعين ساعة ، فيكون الطى ليلتين والإفطار فى الليلة الثالثة . ويكون لكل يوم وليلة ثلث رطل ، وبين هذين الوقتين وقت وهو أن يفطر من كل ليلتين ليلة . ويكون لكل يوم وليلة نصف رطل وهذا ينبغى أن يفعله إذا لم ينتج عليه سآمة وضجرا وقلة انشراح فى الذكر والمعاملة فإذا وجد شيئا من ذلك فليفطر كل ليلة ويأكل الرطل فى الوقتين أو الوقت الواحد ، فالنفس إذا أخذت بالإفطار من كل ليلتين ليلة، ثم ردت إلى الإفطار كل ليلة تقنع ، وإن سومحت بالإفطار كل ليلة لا تقنع بالرطل وتطلب الإدام والشهوات . وقس على هذا ، فهى إن أطعمت طمعت وإن أقنعت قنعت ، وقد كان بعضهم ينقص كل ليلة حتى يرد النفس إلى أقل قوتها ، ومن الصالحين من كان يعير القوت بنوى التمر وينقص كل ليلة نواة ، ومنهم من كان يعير بعود رطب وينقص كل ليلة بقدر نشاف العود ، ومنهم من كان ينقص كل ليلة ربع سبع الرغيف حتى يفنى الرغيف فى شهر ومنهم من كان يؤخر الأكل ولا يعمل فى تقليل القوت ولكن يعمل فى تأخيره بالتدريج حتى تندرج ليلة فى ليلة ، وقد فعل ذلك طائفة انتهى طيهم إلى سبعة أيام وعشرة أيام وخمسة عشر إلى الأربعين .

وقد قيل لسهل بن عبد الله :-هذا الذى يأكل فى كل أربعين وأكثر أكلة أين يذهب لهب الجوع منه ؟ قال يطفئه النور ، وقد سألت بعض الصالحين عن ذلك فذكر لى كلاما بعبارة دلت على أنه يجد فرحا بربه ينطفىء معه لهب الجوع ، وهذا فى الخلق واقع أن الشخص يطرقه فرح وقد كان جائعا فيذهب عنه الجوع ، وهكذا فى طرق الخوف يقع ذلك ، ومن فعل ذلك ودرج نفسه فى شىء من هذا الأقسام التى ذكرناها لا يؤثر ذلك فى نقصان عقله واضطراب جسمه إذا كان فى حماية الصدق والإخلاص وإنما يخشى فى ذلك وفى دوام الذكر على من لا يخلص لله تعالى

وقد قيل حد الجوع أن لا يميز بين الخبز وغيره مما يؤكل، ومتى عينت النفس الخبز فليس بجائع وهذا المعنى يوجد فى آخر الحدين بعد ثلاثة أيام .وهذا جوع الصديقين ، وطلب الغذاء عند ذلك يكون ضرورة لقوام الجسد والقيام بفرائض العبودية ، ويكون هذا حد الضرورة لمن لا يجتهد فى التقليل بالتدريج فأما من درج نفسه فى ذلك فقد يصبر على أكثر من ذلك إلى الأربعين ـ كما ذكرنا ـ وقد قال بعضهم : حد الجوع أن يبزق فإذا لم يقع الذباب على بزاقه يدل على خلو المعدة من الدسومة ، وصفاء البزاق كالماء الذى لا يقصده الذباب.

روى أن سفيان الثورى وابراهيم بن أدهم رضى الله عنهما كانا يطويان ثلاثا ثلاثا وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستا . وكان عبدالله بن الزبير رضى الله عنه يطوى سبعة أيام . واشهر حال جدنا محمد بن عبد الله ـ المعروف بعمويه رحمه الله : وكان صاحب احمد الأسود الدينورى ـ أنه كان يطوى أربعين يوما ؛ وأقصى ما بلغ فى هذا المعنى من الطى : رجل أدركنا زمانه وما رأيته ـ كان فى أبهر يقال له الزاهد خليفة كان يأكل فى كل شهر لوزة ، ولم نسمع أنه بلغ فى هذه الأمة أحد بالطى والتدريج إلى هذا الحد ،وكان فى أول أمره على ما حكى ينقص القوت بنشاف العود ثم طوى حتى انتهى إلى اللوزة فى الأربعين ، ثم إنه قد يسلك هذا الطريق جمع من الصادقين وقد يسلك غير الصادق ،

هذا لوجود هوى مستكن فى باطنه يهون عليه الأكل إذا كان له استجلاء لنظر الخلق وهذا عين النفاق نعوذ بالله من ذلك ، والصادق ربما يقدر على الطى إذا لم يعلم بحاله أحد ، وربما تضعف عزيمته فى ذلك إذا علم بأنه يطوى ، فإن صدقه فى الطى ونظره إلى من يطوى لأجله يهون عليه الطى ، فإذا علم به أحد تضعف عزيمته فى ذلك ، وهذا علامة الصادق فمهما أحس فى نفسه أنه يحب أن يرى بعين التقلل فليتهم نفسه فإن فيه شائبة النفاق ، ومن يطوى لله يعوضه الله تعالى فرحا فى باطنه ينسيه الطعام ، وقد لا ينسى الطعام ولكن امتلاء قلبه بالأنوار يقوى جاذب الروح الروحانى فيجذبه إلى مركزه ومستقره من العالم الروحانى وينفر بذلك عن أرض الشهوة النفسانية ، وأما أثر جاذب الروح إذا تخلف عنه جاذب النفس عند كمال طمأنينتها وانعكاس أنوار الروح عليها بواسطة القلب المستنير فأجل من جذب المغناطيس للحديد ؛ إذ المغناطيس يجذب الحديد لروح فى الحديد مشاكل للمغناطيس فيجذبه بنسبة الجنسية الخاصة ، فإذا تجنست النفس بعكس نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير فى النفس روح استمدها القلب من الروح وأداها إلى النفس فتجذب الروح بجنسية الروح الحادثة فيها فيزدرى الأطعمة الدنيوية والشهوات الحيوانية ، ويتحقق عنده قول رسول الله ﷺ « أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » ولا يقدر على ما وصفناه إلا عبد تصير أعماله وأقواله وسائر أحواله ضرورة فيتناول من الطعام أيضا ضرورة ، ولو تكلم مثلا بكلمة من غير ضرورة التهب فيه نار الجوع التهاب الحلفاء بالنار ، لأن النفس الراقدة تستيقظ بكل ما يوقظها وإذا استيقظت نزعت إلى هواها ، فالعبد المراد بهذا إذا فطن لسياسة النفس ورزق العلم سهل عليه الطى وتداركته المعونة من الله تعالى لاسيما إن كوشف بشىء من المنح الإلهية

وقد حكى لى فقير أنه اشتد به الجوع وكان لا يطلب ولا يتسبب قال : فلما انتهى جوعى إلى الغاية بعد أيام فتح الله على بتفاحة قال : فتناولت التفاحة وقصدت أكلها فلما كسرتها كوشفت بحوراء نظرت إليها عقيب كسرها فحدث عندى من الفرح بذلك ما استغنيت عن الطعام أياما ، وذكر لى أن الحوراء خرجت من وسط التفاحة ، والإيمان بالقدرة ركن من أركان الإيمان فسلم ولا تنكر . وقال سهل بن عبد الله رحمه الله : من طوى أربعين يوما ظهرت له القدرة من الملكوت . وكان يقال : لا يزهد العبد حقيقة الزهد الذى لا مشوبة فيه إلا بمشاهدة قدرة الملكوت . وقال الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله : عرفنا من طوى أربعين يوما برياضة النفس فى تأخير القوت : وكان يؤخر فطره كل ليلة إلى نصف سبع الليل ، حتى يطوى ليلة فى نصف شهر ، فيطوى الأربعين فى سنة وأربعة أشهر ، فتندرج الأيام والليالى حتى يكون الأربعين بمنزلة يوم واحد ، وذكر لى أن الذى فعل ذلك ظهرت له آيات الملكوت وكوشف بمعانى قدرة من الجبروت تجلى الله بها له كيف شاء .

واعلم أن هذا المعنى من الطى والتقلل لو أنه عين الفضيلة ما فات أحدا من الأنبياء ، ولكان رسول الله ﷺ يبلغ من ذلك إلى أقصى غاياته ، ولا شك أن لذلك فضيلة لا تنكر ، ولكن لا تنحصر مواهب الحق تعالى فى ذلك ، فقد يكون من يأكل كل يوم أفضل ممن يطوى أربعين يوما . وقد يكون من لا يكاشف بشىء من معانى القدرة أفضل ممن يكاشف بها كاشفه الله بصرف المعرفة ، فالقدرة أثر من القادر ومن أهل القرب القادر لا يستغرب ولا يستنكر شيئا من القدرة ، ويرى القدرة تتجلى له من سجف أجزاء علم الحكمة ، فإذا أخلص العبد لله تعالى أربعين يوما واجتهد فى ضبط أحواله بشىء من الأنواع التى ذكرنا من العمل والذكر والقوت وغير ذلك ، تعود بركة تلك الأربعين على جميع أوقاته وساعاته . وهو طريق حسن اعتمده طائفة من الصالحين .

وكان جماعة من الصالحين يختارون للأربعين ذا القعدة وعشر ذى الحجة ، وهى أربعون موسى عليه السلام .

عن شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة عن أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون إجازة عن أبو محمد الحسن ابن الجوهرى إجازة عن أبو عمر بن محمد بن العباس قال عن أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى عن عبد الله بن المبارك عن أبو معاوية الضرير حدثنا الحجاج عن مكحول قال : قال رسول الله ﷺ « من أخلص لله تعالى العبادة أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » .

الباب التاسع والعشرون : فى أخلاق الصوفية وسرح الخلق

الصوفية أوفر الناس حظا فى الاقتداء برسول الله ﷺ وأحقهم بإحياء سنته والتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ ومن حسن الاقتداء وإحياء سنته ، على ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين شيخ الإسلام أبو أحمد عبد الوهاب بن على قال عن أبو الفتح عبد الملك بن أبى القاسم الهروى قال عن أبو نصر عبدالعزيز بن أحمد الترياقى عن الجبار بن محمد الجراحى عن أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى عن أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى عن مسلم بن حاتم الأنصارى البصرى عن عبدالله الأنصارى عن أبيه عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضى الله عنه . قال رسول الله ﷺ « يا بنى إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل » ثم قال « يا بنى وذلك من سنتى ، ومن أحيا سنتى فقد أحيانى ومن أحيانى كان معى فى الجنة » فالصوفية أحيوا رسول الله ﷺ لأنهم وقفوا بداياتهم لرعاية أقواله ، وفى وسط حالهم اقتدوا بأعماله فأثمر لهم ذلك أن تحققوا فى نهاياتهم بأخلاقه ، وتحسين الأخلاق لا يأتى إلا بعد تزكية النفس ، وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع ، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفسا كان أحسنهم خلقا ، قال مجاهد ﴿ على خلق عظيم ﴾ أى على دين عظيم والدين مجموع الأعمال الصالحة والأخلاق الجنة .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن . قال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله تعالى وينتهى عما نهى الله عنه ، وفى قول عائشة : كان خلقه القرآن ، سر كبير وعلم غامض . ما نطقت بذلك إلا بما خصها الله تعالى به من بركة الوحى السماوى وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيصه إياها بكلمة « خذوا شطر دينكم من هذه الحميراء » وذلك أن النفوس مجبولة على غرائز وطبائع هى من لوازمها وضروراتها ، خلقت من تراب ولها بحسب ذلك طبع ، وخلقت من ماء ولها بحسب ذلك طبع ، وهكذا من حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار ، وبحسب تلك الأصول التى هى مبادى تكونها استفادت صفات من البهيمية والسبعية والشيطانية . وإلى صفة الشيطنة فى الإنسان إشارة بقوله تعالى ﴿ من صلصال كالفخار ﴾ لدخول النار فى الفخار . وقد قال الله تعالى ﴿ خلق الجان من مارج من نار ﴾ والله تعالى بخفى لطفه وعظيم عنايته نزع نصيب الشيطان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما ورد فى حديث حليمة ابنة الحرث أنها قالت فى حديث طويل : فبينا نحن خلف بيوتنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخ له من الرضاعة فى بهم لنا ، جاءنا أخوه يشتد فقال : ذاك أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعاه فشقا بطنه ، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائما منتقعا لونه فاعتنقه أبوه ، وقال : أى بنى ما شأنك ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعانى فشقا بطنى ، ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه ، ثم رداه كما كان ، فرجعنا به ، فقال أبوه يا حليمة : لقد خشيت أن يكون ابنى هذا قد أصيب انطلقى بنا فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف قالت : فاحتملناه فلم ترع أمه إلا وقد قدمنا به عليها ، قالت : ما ردكما قد كنتما عليه حريصين . قلنا : لا والله لا ضير إلا أن الله عز وجل قد أدى عنا وقضينا الذى كان علينا ، وقد نخشى الأتلاف والأحداث فقلنا نرده إلى أهله . فقالت ما ذاك بكما فأصدقانى شأنكما ؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره ، فقالت خشيتما عليه الشيطان كلا والله ما للشيطان عليه سبيل وإنه لكائن لابنى هذا شأن ألا أخبركما بخبره ؟ قلنا : بلى ، قالت : حملت به فما حملت حملا قط أخف منه ، قالت . فرأيت فى النوم حين حملت به كأنه خرج منى نور قد ضاءت به قصور الشام ثم وقع حين ولدته وقوعا لم يقعه مولود معتمدا على يديه رافعا رأسه إلى فدعاه عنكما .

بعد أن طهر الله رسوله من نصيب الشيطان بقيت النفس الزكية النبوية على حد نفوس البشر ، لما ظهور بصفات

وأخلاق مبقاة على رسول الله ﷺ رحمة للخلق لوجود أمهات تلك الصفات فى نفوس الأمة بمزيد من الظلمة لتفاوت حال رسول الله ﷺ وحال الأمة ، فاستمدت تلك الصفات المبقاة بظهورها فى رسول الله ﷺ بتنزيل الآيات المحكمات بإزائها لقمعها ، تأديبا من الله لنبيه رحمة خاصة له وعامة للامة ، موزعة بنزول الآيات آناء والأوقات عند ظهور الصفات قال الله تعالى ﴿وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾ وتثبيت الفؤاد بعد اضطرابه بحركة النفس بظهور الصفات لارتباط بين القلب والنفس ، وعند كل ذلك اضطراب آية متضمنة لخلق صالح سنى إما تصريحا أو تعريضا ، كما تحركت النفس الشريفة النبوية لما كسرت رباعيته وصار الدم يسيل على الوجه ورسول الله ﷺ يمسحه ويقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم » ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ فاكتسى القلب النبوى لباس الاصطبار وفاء بعد الاضطراب إلى القرار فلما توزعت الآيات على ظهور الصفات فى مختلف الأوقات صفت الأخلاق النبوية بالقرآن ليكون خلقه القرآن ، ويكون فى إبقاء تلك الصفات فى نفس رسول الله ﷺ معنى قوله عليه السلام : « إنما أنسى لأسن » فظهور صفات نفسه الشريفة وقت استنزال الآيات لتأديب نفوس الأمة وتهذيبها رحمة فى حقهم حتى تتزكى نفوسهم وتتشرف أخلاقهم قال رسول الله ﷺ « الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أراد الله تعالى بعبد خيرا منحه منها خلقا » وقال ﷺ « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وروى عنه ﷺ « إن لله تعالى مائة وبضعة عشر خلقا من آتاه واحدا منها دخل الجنة » فتقديرها وتحديدها لا يكون إلا بوحى سماوى لمرسل ونبى والله تعالى أبرز إلى الخلق أسماءه منبئة عن صفاته سبحانه وتعالى وما أظهرها لهم إلا ليدعوهم إليها ، ولولا أن الله تعالى أودع فى القوى البشرية التخلق بهذه الأخلاق ما أبرزها لهم دعوة لهم إليها يختص برحمته من يشاء .

ولا يبعد - والله أعلم - أن قول عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن ، فيه رمز غامض وإيماء خفى إلى الأخلاق الربانية فاحتشمت من الحضرة الإلهية أن تقول : متخلقا بأخلاق الله تعالى ، فعبرت عن المعنى بقولها كان خلقه القرآن استحياء من سبحات الجلال وسترا للحال بلطف المقال ، وهذا من وفور علمها وكمال أدبها وبين قوله تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ﴾ وبين قوله ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ مناسبة مشعرة بقول عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن .

قال الجنيد رحمه الله : كان خلقه عظيما لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى ، وقال الواسطى رحمه الله : لأنه جاد بالكونين عوضا عن الحق ، وقيل : لأنه عليه السلام عاشر الخلق بخلقه وباينهم بقلبه ؛ وهذا ماقاله بعضهم فى معنى التصوف : التصوف الخلق مع الخلق والصدق مع الحق . وقيل : عظم خلقه حيث صغرت الأكوان فى عينه بمشاهدة مكونها . وقيل سمى خلقه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه .

وقد ندب رسول الله ﷺ أمته إلى حسن الخلق فى حديث أخبرنا به الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على عن الفتح الهروى عن أبو نصر الترياقى عن أبو محمد الجراحى عن أبو العباس المحبوبى عن أبو عيسى الحافظ الترمذى عن أحمد بن الحسين بن خراش عن حبان بن هلال عن مبارك بن فضالة عن عبد الله بن سعيد عن ابن المنكدر عن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون قالوا : يارسول الله علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال « المتكبرون » والثرثار هو المكثار من الحديث والمتشدق المتطاول على الناس فى الكلام .

قال الواسطى رحمه الله : الخلق العظيم أن لايخاصم ولا يخاصم ، وقال أيضا ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ لوجدانك حلاوة المطالعة على سرك ، وقال أيضا : لأنك قبلت فنون ما أسديت إليك من نعمى أحسن مما قبله غيرك من الأنبياء

والرسل وقال الحسين : لأنه لم يؤثر فيه جفاء الخلق مع مطالعة الحق . وقيل : الخلق العظيم لباس التقوى والتخلق بأخلاق الله تعالى إذ لم يبق للاعواض عنده خطر .

وقال بعضهم : قوله تعالى ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ﴾ أتم لأنه حيث قال ﴿ وإنك ﴾ أحضره وإذا أحضره أغفله وحجبه وقوله ﴿ لأخذنا ﴾ أتم لأن فيه فناء فى قول هذا القائل نظر فهلا قال : إن كان فى ذلك فناء ففى قوله ﴿ وإنك ﴾ بقاء وهو بقاء بعد فناء والبقاء أتم من الفناء ،وهذا أليق بمنصب الرسالة لأن الفناء إنما عز لمزاحمة وجود مذموم فاذا نزع المذموم من الوجود وتبدلت النعوت فأى عزة تبق فى الفناء ؟ فيكون حضوره بالله لا بنفسه فأى حسبة تبق هنالك ؟

وقيل من أوتى الخلق العظيم فقد أوتى أعظم المقامات لأن للمقامات ارتباطا عاما والخلق ارتباط بالنعوت والصفات

وقال الجنيد : اجتمع فيه أربعة أشياء السخاء والألفة والنصيحة والشفقة . وقال بن عطاء : الخلق العظيم أن لايكون له اختيار ويكون تحت الحكم مع فناء النفس وفناء المألوف ، وقال أبو سعيد القرشى : العظيم هو الله ومن أخلاقه الجود والكرم والصفح والعفو والإحسان ألا ترى إلى قوله عليه السلام « إن لله مائة وبضعة عشر خلقا من أتى بواحد منها دخل الجنة » فلما تخلق بأخلاق الله تعالى وجد الثناء عليه بقوله ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقيل عظم خلقك لأنك لم ترض بالأخلاق وسرت ولم تسكن إلى النعوت حتى وصلت إلى الذات ، وقيل لما بعث محمد عليه الصلاة والسلام إلى الحجاز حجزه بها عن اللذات والشهوات وألقاه فى الغربة والجفوة فلما صفا بذلك عن دنس الأخلاق قال له ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وعن الشيخ الصالح أبو زرعة بن الحافظ أبى الفضل محمد بن طاهر المقدسى عن أبيه ، عن أبو عمر المليحى عن أبو محمد عبد الله بن يوسف عن أبو سعيد بن الأعرابى عن جعفر بن الحجاج الرقى عن أيوب بن محمد الوازن . عن الوليد عن ثابت عن يزيد عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت كان نبى الله ﷺ يقول «مكارم الأخلاق عشرة تكون فى الرجل ولا تكون فى ابنه وتكون فى الابن ولا تكون فى أبيه وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة : صدق الحديث وصدق البأس وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان وإعطاء السائل والمكافأة بالصنائع وحفظ الأمانة وصلة الرحم والتذمم للصاحب وإقراء الضيف ورأسهن الحياء » وسئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال « تقوى الله وحسن الخلق » وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال « الغم والفرح » يكون هذا الغم غم فوات الحظوظ العاجلة ، لأن ذلك يتضمن التسخط والتضجر ، وفيه الاعتراض على الله تعالى وعدم الرضا بالقضاء ، ويكون الفرح المشار إليه الفرح بالحظوظ العاجلة الممنوع منه بقوله تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ وهو الفرح الذى قال الله تعالى ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لايحب الفرحين ﴾ لما رأى مفاتحه تنوء بالعصبة أولى القوة فأما الفرح بالأقسام الأخروية فمحمود ينافس فيه قال الله تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ وفسر عبدالله بن المبارك حسن الخلق فقال هو بسط الوجه ، وبذل المعروف وكف الأذى .

فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق . وكم من نفس تجيب إلى الأعمال ولا تجيب إلى الأخلاق فنفوس العباد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق ونفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها .

عن الشيخ أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف إجازة عن السلمى قال : سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول سمعت أبا بكر الكتانى يقول التصوف خلق فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك بالتصوف فالعباد أجابت نفوسهم إلى الأعمال لأنهم يسلكون بنور الإسلام ، والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم سلكوا بنور الإيمان،

والصوفية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان ، فلما باشر بواطن أهل القرب والصوفية نور اليقين وتأصل فى بواطنهم ذلك انصلح القلب بكل أرجائه وجوانبه . لأن القلب يبيض بعضه بنور الإسلام ، وبعضه بنور الإيمان ، وكله بنور الإحسان والإيقان . فإذا ابيض القلب وتنور انعكس نوره على النفس ، وللقلب وجه إلى النفس ووجه إلى الروح، وللنفس وجه إلى القلب ، ووجه إلى الطبع والغريزة . والقلب إذ لم يبيض كله لم يتوجه إلى الروح بكله ، ويكون ذا وجهين ، وجه إلى الروح ، ووجه إلى النفس ، فإذا ابيض كله يوجه إلى الروح بكله ، فيتداركه مدد الروح ، ويزداد إشراقا وتنورا . وكلما انجذب القلب إلى الروح انجذبت النفس إلى القلب ، وكلما انجذبت توجهت إلى القلب توجهها الذى يليه ، وتنور النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذى يلى القلب . وعلامة تنورها طمأنينتها قال الله تعالى ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ وتنور وجهها الذى يلى القلب بمثابة نورانية أحد وجهى الصدف لاكتساب النورانية من اللؤلؤ . وبقاء شىء من الظلمة على النفس لنسبة وجهها الذى يلى الغريزة والطبع ، كبقاء ظاهر الصدف على ضرب من الكدر والنقصان مخالفا لنورانية باطنه . وإذا تنور أحد وجهى النفس لجأت إلى تحسين الأخلاق وتبديل النعوت ؛ ولذلك سمى الأبدال أبدالا . والسر الأكبر فى ذلك أن قلب الصوفى بدوام الإقبال على الله ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقى إلى ذكر الذات ، ويصير حينئذ بمثابة العرش . فالعرش قلب الكائنات فى عالم الخلق ، والحكمة والقلب عرش فى عالم الأمر والقدرة ، قال سهل بن عبد الله التسترى : القلب كالعرش والصدر كالكرسى . وقد ورد عن الله تعالى « لايسعنى أرضى ولا سمائى ويسعنى قلب عبدى المؤمن » .

فإذا اكتحل القلب بنور ذكر الذات وصار بحرا مواجا من نسمات القرب جرى فى جداول أخلاق النفس صفاء النعوت والصفات وتحقق التخلق بأخلاق الله تعالى . حكى من الشيخ أبى على الفارمزى أنه حكى عن شيخه أبى القاسم الكركانى أنه قال : إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافا للعبد السالك وهو بعد فى السلوك غير واصل ، ويكون الشيخ عنى بهذا أن العبد يأخذ من كل اسم وصفا يلائم ضعف حال البشر وقصوره . مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى « الرحيم » معنى من الرحمة على قدر قصور البشر ، وكل إشارات المشايخ فى الأسماء والصفات التى هى أعز علومهم على هذا المعنى والتفسير ، وكل من توهم بذلك شيئا من الحلول تزندق وألحد .

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا بوصية جامعة لمحاسن الأخلاق فقال له « يامعاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة . وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الامل ولزوم الايمان والتفقه فى القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح، وإياك أن تسب حليما أو تكذب صادقا أو تطمع آثما أو تعصى إماما عادلا أو تفسد أرضا ، أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة ؛ السر بالسر ، والعلانية بالعلانية ، بذلك أدب الله عباده ودعاهم إلى مكارم الاخلاق ومحاسن الآداب » وروى معاذ أيضا عن رسول الله ﷺ قال « حف الاسلام بمكارم الاخلاق ومحاسن الآداب » .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على باسناده المتقدم إلى الترمذى رحمه الله قال : أخبرنا أبو كريب قال حدثنا قبيصة بن الليث عن مطرف عن عطاء عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال : سمعت النبى عليه السلام يقول « ما من شىء يوضع فى الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة » وقد كان من أخلاق رسول الله ﷺ أنه كان أسخى الناس لا يثبت عنده دينار ولا درهم ، وإن فضل ولم يجد من يعطيه ويأتيه الليل لا يأوى إلى منزله حتى يبرأ منه ، ولا ينال من الدنيا ، وأكثر قوت عامه من أيسر ما يجد من التمر والشعير ، ويضع ما عدا ذلك فى سبيل الله ، لا يسئل شيئا إلا يعطى ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام ، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم فى مهنة أهله ويقطع اللحم معهن ، وكان أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعا فصلوات الرحمن عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

الباب الثلاثون فى تفصيل أخلاق الصوفية

من أحسن أخلاق الصوفية التواضع ، ولا يلبس العبد لبسة أفضل من التواضع ، ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كل أحد مقداراً يعلم أنه يقيمه ، ويقيم كل أحد على ماعنده من نفسه ؛ ومن رزق هذا فقد استراح وأراح ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾.

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى ، قال أخبرنا عثمان بن عبد الله ، قال اخبرنا عبدالرحمن بن إبراهيم، قال حدثنا عبد الرحمن بن حمدان ، قال حدثنا أبو حاتم الرازى ، قال حدثنا النصر بن عبد الجبار ، قال أخبرنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن سنان بن سعد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا ولا يبغى بعضكم على بعض »

وقال عليه السلام فى قوله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى ﴾ قال : « على البر والتقوى والرهبة وذلة النفس ».

وكان من تواضع رسول الله ﷺ أن يجيب دعوة الحر والعبد ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها ويأكلها ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين .

وأخبرنا أبو زرعه إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلمى ، قال أخبرنا أحمد بن على المقرى ، قال أخبرنا محمد بن المنهال ، قال حدثنى أبى عن محمد بن جابر اليمانى عن سليمان بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال. قال رسول الله ﷺ « إن من رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت ، وترد على من سلم عليك ، وأن ترضى بالدون من المجلس ، وأن لا تحب المدحة والتزكية والبر » .

وورد أيضا عنه عليه السلام « طوبى لمن تواضع من غير منقصة ، وذل فى نفسه من غير مسكنة » .

سئل الجنيد عن التواضع ؟ فقال : خفض الجناح ولين الجانب . وسئل الفضيل عن التواضع . فقال : تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله وتسمع منه . وقال أيضا : من رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب .

وقال وهب بن منبه : مكتوب فى كتب الله : أنى أخرجت الذى من صلب آدم فلم أجد قلبا أشد تواضعا إلىمن قلب موسى عليه السلام ، فلذلك اصطفيته وكلمته .

وقيل : من عرف كوامن نفسه لم يطمع فى العلو والشرف ويسلك سبيل التواضع ؛ فلا يخاصم من يذمه ، ويشكر الله لمن يحمده .

قال أبو حفص : أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليلتزم بحرمتهم فمن شدة تواضعهم فى أنفسهم يقتدى بهم ولا يتكبر .

وقال لقمان عليه السلام : لكل شىء مطية ، ومطية العمل التواضع .

وقال النورى: خمسة أنفس أعز الخلق فى الدنيا :عالم زاهد، وفقيه صوفى ، وغنى متواضع، وفقير شاكر وشريف سنى .

وقال الجلاء : لولا شرف التواضع كنا إذا مشينا نخطر . وقال يوسف بن أسباط ـ وقد سئل : ماغاية التواضع ؟ قال : أن تخرج من بيتك فلا تلق أحدا إلا رأيته خيرا منك .

ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب ـ وكنت معه فى سفره إلى الشام وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاما على رءوس الأسارى من الأفرنج وهم فى قيودهم ـ فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأوانى حتى تفرغ قال للخادم أحضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء ،فجاء بهم وأقعدهم على السفرة صفا واحدا ، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد بينهم كالواحد منهم ، فأكلوا ، وظهر لنا على وجهه ما نازل باطنه من التواضع لله والانكسار فى نفسه وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله .

أخبرنا أبو زرعة ، إجازة عن أبى بكر بن خلف ، إجازة عن السلمى قال : سمعت أبا الحسين الفارسى يقول :

سمعت الحريرى يقول : صح عند أهل المعرفة أن للدين رأسمال : خمسة فى الظاهر ، وخمسة فى الباطن ، فأما اللواتى فى الظاهر : فصدق فى اللسان ، وسخاوة فى الملك ، وتواضع فى الأبدان . وكف الأذى ، واحتماله بلا إباء . وأما اللواتى فى الباطن : فحب وجود سيده ، وخوف الفراق من سيده ، ورجاء الوصول إلى سيده ، والندم على فعله ، والحياء من ربه .

وقال يحيى بن معاذ : التواضع فى الخلق حسن ، ولكن فى الأغنياء أحسن . والتكبر سمج فى الخلق ، ولكن فى الفقر أسمج .

وقال ذو النون : ثلاثة من علامات التواضع : تصغير النفس معرفة بالعيب ، وتعظيم الناس حرمة للتوحيد ، وقبول الحق والنصيحة من كل واحد .

وقيل لأبى يزيد : متى يكون الرجل متواضعا ؟ قال : إذا لم ير لنفسه حقاما ولا حالا من عله بشرها وازدرائها ، ولا يرى أن فى الخلق شرا منه .

قال بعض الحكماء : وجدنا التواضع مع الجهل والبخل ، أحمد من الكبر مع الأدب والسخاء .

وقيل لبعض الحكماء : هل تعرف نعمة لا يحسد عليها ، وبلاء لا يرحم صاحبه عليه ؟ قال : نعم ، أما النعمة فالتواضع ، وأما البلاء فالكبر .

والكشف عن حقيقة التواضع : أن التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضعة ؛ فالكبر رفع الإنسان نفسه فوق قدره ، والضعة وضع الإنسان نفسه مكانا يزرى به ويفضى إلى تضييع حقه ، وقد انفهم من كثير من إشارات المشايخ فى شرح التواضع أشياء إلى حد أقاموا التواضع فيه مقام الضعة ، ويلوح فيه الهوى من أوج الإفراط إلى حضيض التفريط ، ويوهم انحرافا عن حد الاعتدال ، ويكون قصدهم فى ذلك المبالغة فى قمع نفوس المريدين خوفا عليهم من العجب والكبر ، فقل أن ينفك مريد فى مبادىء ظهور سلطان الحال من العجب ، حتى لقد نقل عن جمع من الكبار كلمات مؤذنة بالإعجاب ، وكل ما نقل من ذلك القبيل من المشايخ لبقايا السكر عندهم وانحصارهم فى مضيق سكر الحال وعدم الخروج إلى فضاء الصحو فى ابتداء أمرهم ، وذلك إذا حدق صاحب البصيرة نظره يعلم أنه من استراق النفس السمع عند نزول الوارد على القلب ، والنفس إذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفتها على وجه لا يحفو على الوقت وصلافة الحال فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب ، كقول بعضهم : من تحت خضراء السماء مثلى ؟ وقول بعضهم : قدمى على رقبة جميع الأولياء ، وكقول بعضهم : أسرجت وألجمت وطفت فى أقطار الأرض وقلت هل من مبارز فلم يخرج إلى أحد ، إشارة منه فى ذلك إلى تفرده فى وقته ، ومن أشكل عليه ذلك ولم يعلم أنه من استراق النفس السمع فليزن ذلك بميزان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضعهم واجتنابهم أمثال هذه الكلمات واستبعادهم أن يجوز للعبد التظاهر بشىء من ذلك ، ولكن يحمل لكلام الصادقين وجه فى الصحة ، ويقال : إن ذلك طفح عليهم فى سكر الحال وكلام السكارى يحمل ، فالمشايخ أرباب التمكين لما علموا فى النفوس هذا الداء الدفين بالغوا فى شرح التواضع إلى حد الحقوه بالضعة تداويا للمريدين ، والاعتدال فى التواضع : أن يرضى الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه ، ولو أمن الشخص جموح النفس لأوقفها على حد يستحقه من غير زيادة ولا نقصان ، ولكن لما كان الجموح فى جبلة النفس — لكونها مخلوقة من صلصال كالفخار فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها إلى مركز النار — احتاجت للتداوى بالتواضع وإيقافها دون ما تستحقه لئلا يتطرق إليها الكبر . فالكبر ظن الإنسان أنه أكبر من غيره ، والتكبر إظهاره ذلك ، وهذه صفة لا يستحقها إلا الله تعالى ، ومن ادعاها من المخلوقين يكون كاذبا ، والكبر ، يتولد من الإعجاب ، والاعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل الانسلاخ من الانسانية حقيقة ، وقد عظم الله تعالى شأن الكبر بقوله تعالى ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ وقال تعالى ﴿ أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ وقد ورد « يقول الله تعالى : الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منهما قصمته » وفى رواية « قذفته فى نار جهنم » وقال

عز وجل رد الانسان فى طغيانه إلى حده: ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ وقال تعالى: ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق ﴾ وأبلغ من هذا قوله تعالى ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ﴾ وقد قال بعضهم لبعض المتكبرين: أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك حامل العذرة: وقد نظم الشاعر هذا المعنى:

كيف يزهو من رجيعه أبد الدهر ضجيعه

وإذا ارتحل التواضع من القلب وسكن الكبر انتشر أثره فى بعض الجوارح وترشح الإناء بما فيه؛ فتارة يظهر أثره فى العنق بالتمايل، وتارة فى الخد بالتصعير. قال الله تعالى ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ وتارة يظهر فى الرأس عند استعصاء النفس. قال عز وجل ﴿ لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾.

وكما أن الكبر له انقسام على الجوارح والأعضاء تتشعب منه شعب، فكذلك بعضها أكشف من البعض. كالتيه والزهو والعزة وغيره ذلك، إلا أن العزة تشتبه بالكبر من حيث الصورة، وتختلف من حيث الحقيقة، كاشتباه التواضع بالضعة، والتواضع محمود والضعة مذمومة، والكبر مذموم والعزة محمودة. قال عز وجل ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ والعزة غير الكبر، ولا يحل لمؤمن أن يذل نفسه؛ فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه. وإكرامها. أن لا يضعها لأغراض عاجلة دنيوية، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلها. قال بعضهم للحسن: ما أعظمك فى نفسك! قال: لست بعظيم ولكنى عزيز. ولما كانت العزة غير مذمومة وفيها مشاكلة بالكبر قال الله تعالى ﴿ لاتستكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ فيه إشارة خفية لاثبات العزة بالحق، فالوقوف على حد التواضع من غير انحرف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن نار الكبر، ولا يؤيد فى ذلك ولا يثبت عليه إلا أقدام العلماء الراسخين والسادة المقربين ورؤساء الأبدال والصديقين. قال بعضهم: من تكبر فقد أخبر عن نذالة نفسه، ومن تواضع فقد أظهر كرم طبعه.

وقال الترمذى: التواضع على ضربين: الأول أن يتواضع العبد لأمر الله ونهيه، فإن النفس لطلب الراحة تتلهى عن أمره، والشهوة التى فيها تهوى فى نهيه، فإذا وضع نفسه لأمره ونهيه فهو تواضع. والثانى: أن يضع نفسه لعظمة الله فإن اشتهت نفسه شيئاً مما أطلق له من كل نوع من الأنواع منعها ذلك. وجملة ذلك: أن يترك مشيئته لمشيئة الله تعالى.

واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه؛ فعند ذلك تذوب النفس، وفى ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب، فتلين وتطيع للحق والخلق لمحو آثارها وسكون وهجها وغبارها، وكان الحظ الأوفر من التواضع لنبينا عليه السلام فى أوطان القرب، كما روى عن عائشة رضى الله عنها فى الحديث الطويل قالت: فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة فأخذنى ما يأخذ النساء من الغيرة ظنا منى أنه عند بعض أزواجه، فطلبته فى حجر نسائه فلم أجده، فوجدته فى المسجد ساجداً كالثوب الخلق وهو يقول فى سجوده «سجد لك سوادى وخيالى، وآمن بك فؤادى وأقر بك لسانى، وها أنا ذا بين يديك، ياعظيم ياغافر الذنب العظيم» وقوله عليه السلام «سجد لك سوادى وخيالى» استقصاء فى التواضع بمحو آثار الوجود حيث لم تتخلف ذرة منه عن السجود ظاهراً وباطنا، ومتى لم يكن للصوفى حظ من التواضع الخاص على بساط القرب لا يتوفر حظه فى التواضع للخلق، وهذا سعادات إن أقبلت جاءت بكليتها. والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية.

ومن أخلاق الصوفية: المداراة واحتمال الأذى من الخلق، وبلغ من مداراة رسول ﷺ: أنه وجد قتيلا من أصحابه بين اليهود، فلم يحف عليهم ولم يزد على مر الحق، بل وداه بمائة ناقة من قبله وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به.

وكان من حسن مداراته أن لا يذم طعاما ولا ينهر خادما. أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على

عن أبو الفتح الكرخى ،عن أبو نصر الترياقى ، عن الجراحى ، عن أبو العباس المحبوبى ، عن أبو عيسى الترمذى ، عن قتيبة ، عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أف قط وما قال لشىء صنعته لم صنعته ولا لشىء تركته لم تركته ، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا ، وما مسست خزا قط ولا حريراً ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ .

فالمداراة مع كل أحد من الأهل والأولاد والجيران والأصحاب والخلق كافة من أخلاق الصوفية و باحتمال الأذى يظهر جوهر النفس. وقد قيل لكل شىء جوهر وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه الحافظ المقدسى عن أبو محمد الصريفينى، عن أبو القاسم عبيد الله ابن حبابة، عن أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز ، عن على بن الجعد، عن شعبة ، عن الأعمش عن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ ، قلت من هو ؟ قال ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال « المؤمن الذى يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالطهم ،ولا يصبر على أذاهم » وفى الخبر « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم» قيل : ماذا كان يصنع أبو ضمضم ؟ قال « كان إذا أصبح قال : اللهم إنى تصدقت اليوم بعرضى على من ظلمنى ، فمن ضربنى لا أضربه ، ومن شتمنى لا أشتمه، ومن ظلمنى لا أظلمه » .

وعن ضياء الدين عبد الوهاب عن أبو الفتح الهروى ، عن الترياقى ، عن الجراحى ، قال أخبرنا المحبوبى ، عن أبو عيسى الترمذى ،عن ابن أبى عمر ، عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال : بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة ، ثم أذن له فألان له القول فلما خرج قلت : يارسول الله قلت له ما قلت ثم ألنت له القول قال : « ياعائشة إن من شر الناس من يتركه الناس أو يدعه الناس اتقاء فحشه » وروى أبو ذر عن رسول الله ﷺ أنه قال « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » فما شىء يستدل به على قوة عقل الشخص ووفور علمه وحلمه كحسن المداراة ، والنفس لا تزال تشمئز ممن يعكس مرادها ، ويستفزها الغيظ والغضب ، بالمداراة قطع حمة النفس ورد طيشها نفورها . وقد ورد « من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء » وروى جابر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « ألا أخبركم على من تحرم النار ؟ على كل هين لين سهل قريب » . وروى أبو مسعود الأنصارى رضى الله عنه قال: أتى النبى ﷺ برجل فكلمه فأرعد فقال «هون عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

وعن بعضهم فى معنى لين جانب الصوفية :

هينون لينون أيسار بنو يسر	سواس مكرمة أبناء أيسار
لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا	ولا يمارون إن ماروا بإكثار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم	مثل النجوم التى يسرى بها السارى

وروى أبو الدرداء عن النبى ﷺ قال « من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير » .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء قال حدثنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبى عبدالله الماليني ، قال أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمن بن طلحة الداودى ، عن أبو محمد عبد الله الحموى السرخسى ، عن أبو عمران عيسى بن عمر السمرقندى . قال أخبرنا عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن محمد بن أحمد بن أبى خلف

قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد عن محمد بن إسحق قال : حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن رجل من العرب قال زحمت رسول الله ﷺ يوم حنين وفى رجلى نعل كثيفة ، فوطئت بهـا على رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفحنى نفحة بسوط فى يده وقال « بسم الله أوجعتنى » قال : فبت لنفسى لائمـا أقول : أوجعت رسـول الله ، قال : فبت بليلة كما يعلم الله ، فلما أصبحنا إذا رجل يقول : أين فلان ؟ قلت : هذا والله الذى كان منى بالأمس . قال . فالطلقت وأنا متخوف ، فقـال لى : « إنك وطئت بنعلك على رجلى بالأمس فأوجعتنى، فنفحتك نفحة بالسوط فهذه ثمانون نعجة فخذها بها » .

ومن أخلاق الصوفية : الإيثار والمواساة ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعا ، وقوة اليقين شرعا، يؤثرون بالموجود ويصبرون على المفقود .

قال أبو يزيد البسطامى : ماغلبنى أحد ما غلبنى شاب من أهل بلخ ، قدم علينا حاجا فقال لى : يا أبا يزيد ، ماحد الزهد عندكم ؟ قلت : إذا وجدنا أكلنا ، وإذا فقدنا صبرنا . فقال : هكذا عندنا كلاب بلخ ؛ فقلت له . وماحد الزهد عندكم ؟ قال : إذا فقدنا شكرنا ، وإذا وجدنا آثرنا .

وقال ذوالنون : من علامة الزاهد المشروح صدره ثلاث : تفريق المجموع ، وترك طلب المفقود ، والإيثار بالقوت .

روى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ يوم النضير الأنصار « إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم شيئا من الغنيمة » فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها . فأنزل الله تعالى ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقد أصابه جهد فقال : يارسول الله ، إنى جائع فأطعمنى ، فبعث النبى ﷺ إلى أزواجه « هل عندكن شىء ؟ » فكلهن قلن : والذى بعثك بالحق نبيا ماعندنا إلا الماء . قال رسول الله ﷺ « ماعندنا مانطعمك هذه الليلة » ثم قال « من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله ؟ » فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يارسول الله ؛ فأتى به منزله فقال لأهله : هذا ضيف رسول الله ﷺ فأكرميه ولا تدخرى عنه شيئا . فقلت ماعندنا إلا قوت الصبية : فقال : فقومى عللهم عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعمون شيئا ثم اسرجى ، فإذا أخذ الضيف ليأكل قومى كأنك تصلحين السراج فاطفئيه وتعالى نمضغ ألسنتنا لضيف النبى حتى يشبع ضيف النبى ، فقامت إلى الصبية فعللتهم حتى ناموا عن قوتهم ولم يطعموا شيئا ، ثم قامت فأثردت وأسرجت . فلما أخذ الضيف ليأكل قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته، فجعلا يمضغان ألسنتهما لضيف النبى ، وظن الضيف أنهما يأكلان معه حتى شبع الضيف وباتا طاويين : فلما أصبحوا غدوا إلى رسول الله ﷺ . فلما نظر إليهما تبسم رسول الله ﷺ ثم قال « لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة » وأنزل الله تعالى ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

قال أنس رضى الله عنه : أهدى لبعض أصحابه رأس شاة مشوى ـ وكان مجهودا ـ فوجه به إلى جاره ، فتداوله سبعة أنفس ثم عاد إلى الأول . فانزلت الآية لذلك .

وروى أن أبا الحسن الأنطاكى اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية بقرى الرى وله أرغفة معدودة لم تشبع خمسة منهم ، فكسروا الرغفان وأطفوا السراج وجلسوا للطعام ، فلما رفعوا الطعام فإذا هو بحاله لم يأكل أحد منهم إيثاراً منه على نفسه .

وحكى من حذيفة العدوى قال انطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لى ومعى شىء من ماء وأنا أقول . إن كان به رمق سقيته ومسحت وجهه ، فإذا أنا به ، فقلت : أسقيك ، فأشار إلى أن نعم، فإذا رجل يقول : آه ، فقال ابن عمى . انطلق به إليه ، فجئت إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ، فسمع هشام آخر يقول : آه ، فقال، انطلق

به إليه فجئت إليه فإذا هو قد مات ، ثم رجعت إلى هشام ، فإذا هو أيضا قد مات ، ثم رجعت إلى ابن عمى ، فإذا هو أيضا قدمات .

وسئل أبو الحسين البوشنجي عن الفتوة ؟ فقال : الفتوة عندى ما وصف الله تعالى به الأنصار فى قوله ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان ﴾ قال ابن عطاء : ﴿ يؤثرون على أنفسهم ﴾ جودا وكرما ﴿ ولو كان بهم خصاصة ﴾ . يعنى جوعا وفقرا .

قال أبو حفص : الايثار هو أن يقدم حظوظ الإخوان على حظوظه فى أمر الدنيا والآخرة .

وقال بعضهم : الإيثار لايكون عن اختيار ، إنما الايثار أن تقدم حقوق الخلق أجمع على حقك ، ولا تميز فى ذلك بين أخ وصاحب وذى معرفة .

وقال يوسف بن الحسين : من رأى لنفسه ملكا لا يصح منها الايثار ، لأنه يرى نفسه أحق بالشىء برؤية ملكه ، إنما الايثار ممن يرى الأشياء كلها للحق ، فمن وصل إليه فهو أحق به ، فإذا وصل شىء من ذلك إليه يرى نفسه ويده فيه يد أمانة يوصلها إلى صاحبها أو يؤديها إليه .

وقال بعضهم : حقيقة الإيثار أن تؤثر بحظ آخرتك على أخوانك ، فإن الدنيا أقل خطرا من أن يكون للإيثار محل أو ذكر . ومن هذا المعنى ما نقل أن بعضهم رأى أخاه فلم يظهر البشر الكثير فى وجهه ، فأنكر أخوه ذلك منه ، فقال : ياأخى سمعت أن رسول الله ﷺ قال « إذا التقى المسلمان ينزل عليهما مائة رحمة تسعون لأكثرهما بشرا ، وعشرة لأقلهما بشرا » فاردت أن أكون أقل بشرا منك ليكون لك الأكثر .

أخبرنا الشيخ ضياء الدين أبو النجم إجازة ، عن أبو حفص عمر بن الصفار النيسابورى عن أبو بكر بن خلف الشيرازى ، قال عن الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : سمعت أبا القاسم الرازى يقول : سمعت أبا بكر بن أبى سعدان يقول : من صحب الصوفية فليصحبهم بلا نفس ولا قلب ولا ملك ، فمن نظر إلى شىء من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده .

وقال سهل بن عبد الله : الصوفى من يرى دمه هدرا وملكه مباحا .

وقال رويم : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالذل والإيثار وترك التعرض والاختيار .

قيل : لما سعى بالصوفية وتميز الجنيد بالفقه وقبض على الشحام والرقام النورى وبسط النطع لضرب رقابهم، تقدم النورى فقيل له : إلى ماذا تبادر؟ فقال ؛ أوثر اخوانى بفضل حياة ساعة .

وقيل : دخل الروذبارى دار بعض أصحابه فوجده غائبا وباب بيته مغلق ، فقال: صوفى وله باب مغلق ، اكسروا الباب فكسروه وأمر بجميع ماوجدوا فى البيت أن يباع ، فأنفذوه الى السوق واتخذوا رفقا من الثمن وقعدوا فى الدار ، فدخل صاحب المنزل ولم يقل شيئا ، ودخلت امرأته وعليها كساء ، فدخلت بيتا فرمت بالكساء وقالت : هذا أيضا من بقية المتاع فبيعوه ، فقال الزوج لها : لم تكلفت هذا باختيارك ؟ قالت اسكت مثل الشيخ يباسطنا ويحكم علينا ويبقى لناشىء ندخره عنه .

وقيل : مرض قيس بن سعد فاستبطأ اخوانه فى عيادته ، فسأل عنهم فقالوا : انهم يستحيون بمالك عليهم من الدين ، فقال . أخرى الله مالا يمنع الإخوان عن الزيارة ، ثم أمر مناديا ينادى : من كان لقيس غليه مال فهو منه فى حل فكسرت عتبة داره بالعشى لكثرة عواده .

وقيل : أتى رجل صديقا له ودق عليه الباب ، فلما خرج قال . لماذا جئتنى ؟ قال . لأربعمائة درهم دين على ، فدخل الدار ووزن أربعمائة درهم وأخرجها اليه ودخل الدار باكيا . فقالت امرأته : هلا تعللت حين شق عليك الاجابة ؟ فقال : انما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج أن يفاتحنى .

وأخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى، عن محمد بن محمد امام جامع أصفهان . عن أبو عبد الله الجرجانى عن أبو طاهر محمد بن الحسن المحمداباذى ، عن أبو البحترى ، عن أبو أسامة عن زيد بن ابى بردة عن ابى موسى قال : قال رسول الله ﷺ «ان الأشعريين اذا أرملوا فى الغزو وقل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموا فى اناء واحد بالسوية فهم منى وانا منهم» .

وحدث جابر عن رسول الله ﷺ : انه إذا اراد ان يغزو قال «يامعشر المهاجرين والأنصار ، إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولاعدة ؛ فليضم احدكم إليه الرجل والرجلين والثلاثة . فما لأحدكم من ظهر جمله إلا عقبة كعقبة احدهم» قال : فضممت الى اثنين او ثلاثة مالى الاعقبة كعقبة أحدهم من جمله .

وروى أنس قال : لما قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة آخى النبى عليه السلام بينه وبين سعد بن الربيع فقال له : أقاسمك مالى نصفين ، ولى امرأتان فأطلق احداهما فإذا انقضت عدتها فتزوجها ؛ فقال له عبد الرحمن بارك الله لك فى اهلك ومالك .

فما حمل الصوفى على الإيثار إلا طهارة نفسه وشرف غريزته . وما جمله الله تعالى صوفيا الابعد ان سوى غريزته لك وكل من كانت غريزته السخاء والسخى يوشك أن يصير صوفيا ؛ لأن السخاء صفة الغريزة . وفى مقابلته الشح. والشح من لوازم صفة النفس . قال الله تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ حكم بالفلاح لمن يوقى الشح . وحكم بالفلاح لمن أنفق وبذل فقال ﴿ ومما رزقناهم ينفقون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ والفلاح : أجمع اسم لسعادة الدارين ، والنبى عليه السلام نبه بقوله « ثلاث مهلكات ... وثلاث منجيات » فجعل إحدى المهلكات شحا مطاعا ، ولم يقل مجرد الشح يكون مهلكا بل يكون مهلكا إذا كان مطاعا ، فأما كونه موجودا فى النفس غير مطالع فإنه لاينكر ذلك ، لأنه من لوازم النفس مستمدا من أصل جبلتها التراب ، وفى التراب قبض وإمساك ، وليس ذلك بالعجب من الآدمى وهو جبلى فيه . وإنما العجب وجود السخاء فى الغريزة ، وهو لنفوس الصوفية الداعى لهم إلى البذل والإيثار والسخاء أتم وأكمل من الوجود فى مقابلة الجود البخل ، وفى مقابلة السخاء الشح . والجود والبخل يتطرق إليهما الاكتساب بطريق العادة . بخلاف الشح والسخاء إذا كان من ضرورة الغريزة ، وكل سخى جواد ، وليس كل جواد سخيا ، والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء ، لأن السخاء من نتيجة الغرائز والله تعالى منزه عن الغريزة ، والجود يتطرق إليه الرياء ويأتى به الإنسان متطلعا إلى عوض من الخلق أو الحق بمقابل ما من الثناء وغيره من الخلق والثواب من الله تعالى . والسخاء لايتطرق إليه الرياء لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة عن الأعواض دنيا وآخرة، لأن طلب العوض مشعر بالبخل لكونه معلولا بطلب العوض ، فما تمحض سخاء ، فالسخاء لأهل الصفاء . والإيثار لأهل الأنوار ويجوز أن يكون قوله تعالى ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ أنه نفى فى الآية الإطعام لطلب الأعواض حيث قال «لانريد» بعد قوله « لوجه الله » فما كان لله لا يشعر بطلب العوض ، بل الغريزة لطهارتها تنجذب إلى مراد الحق لا العوض ، وذلك أكمل السخاء من أطهر الغرائز .

روت أسماء بنت أبى بكر قالت : قلت يارسول الله، ليس لى من شىء إلا ما أدخل على الزبير فأعطى ؟ قال « نعم ، لاتوكى فيوكى عليك » .

ومن أخلاق الصوفية : التجاوز والعفو ومقابلة السيئة الحسنة . قال سفيان : الاحسان أن تحسن إلى من أساء إليك فإن الاحسان إلى المحسن متاجرة كنقد السوق خذ شيئا وهات شيئا . وقال الحسن : الاحسان أن تعم ولا تخص كالشمس والريح والغيث .

وروى أنس قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت : ياجبريل لمن هذه ؟ قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » .

روى أبو هريرة رضى الله عنه أن أبا بكر رضى الله عنه كان مع النبى ﷺ فى مجلس فجاء رجل فوقع فى أبى بكر وهو ساكت والنبى ﷺ يتبسم ، ثم رد أبو بكر عليه بعض الذى قال ، فغضب النبى ﷺ وقام ، فلحقه أبو بكر فقال يارسول الله شتمنى وأنت تبتسم ثم رددت عليه بعض ما قال فغضبت وقمت . فقال «إنك حيث كنت ساكتا كان معك ملك يرد عليه ، فلما تكلمت وقع الشيطان فلم أكن لأقعد فى مقعد فيه الشيطان ، يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حق : ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفوا عنها إلا أعز الله نصره ، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثر إلا زاده الله قلة ، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة يبتغى بها وجه الله إلا زاده الله بها كثرة » .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على عن الكرخى عن الترياقى عن الجراحى عن المحبوبى عن أبوعيسى الترمذى عن أبو هشام الرفاعى عن محمد بن فضل عن الوليد ابن عبد بن جميع عن أبى الطفيل عن حذيفة قال : قال النبى ﷺ « لاتكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » .

وقال بعض الصحابة : يارسول الله الرجل أمر به فلا يقرينى ولا يضيفنى ، فيمر بى أفأجازيه قال « لا بل أقره »

وقال الفضيل الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان . وقال رسول الله ﷺ « ليس الواصل المكافىء ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها » وروى عن رسول الله ﷺ « من مكارم الأخلاق أن تعفوا عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك » .

ومن أخلاق الصوفية : البشر وطلاقة الوجه ، الصوفى بكاؤه فى خلوته وبشره وطلاقة وجهه مع الناس ، فالبشر على وجهه من آثار أنوار قلبه ، وقد تناول الصوفى منازلات إلهية ومواهب قدسية يرتوى منها القلب ويمتلىء فرحا وسرورا ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ والسرور إذا تمكن من القلب فاض على الوجه آثاره ، قال الله تعالى ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ﴾ أى مضيئة مشرقة ﴿ ضاحكة مستبشرة ﴾ أى فرحة . قيل أشرقت من طول ما أغبرت فى سبيل الله ، ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على الزجاج والمشكاة فالوجه مشكاة والقلب زجاج والروح مصباح ، فإذا تنعم القلب بلذيذ المسامرة ظهر البشر على الوجه . قال الله تعالى ﴿ تعرف وجوههم نضرة النعيم ﴾ أى نضارته وبريقه ، يقال أنضر النبات إذا أظهر ونور ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ فلما نظرت نضرت ، فأرباب المشاهدة من الصوفية تنورت بصائرهم بنور المشاهدة وانصقلت مرآة قلوبهم وانعكس فيها نور الجمال الأزلى ، وإذا أشرقت الشمس على المرآة المصقولة استنارت الجدران ، قال الله تعالى ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ وإذا تأثر الوجه بسجود الظلال وهى القوالب فى قوله تعالى ﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ كيف لا يتأثر بشهود الجمال .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على عن الكرخى عن الترياقى عن الجراحى عن المحبوبى عن أبو عيسى الترمذى عن قتيبة ، عن المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال : قال النبى ﷺ « كل معروف صدقة ، وان من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك » .

وقال سعد بن عبد الرحمن الزبيدى : يعجبنى من القراء كل سهل طلق مضحاك ، فأما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كأنه يمن عليك ، فلا أكثر الله فى القراء مثله .

ومن أخلاق الصوفية : السهولة ولين الجانب والنزول مع الناس الى أخلاقهم وطباعهم وترك التعسف والتكلف وقد روى فى ذلك عن النبى ﷺ أخبار وأخلاق الصوفية تحاكى أخلاق النبى ﷺ وكان يقول ﷺ « أما انى أمزح ولا أقول الا حقا » روى أن رجلا يقال زاهر بن حرام ، وكان بدويا ، وكان لا يأتى الى النبى ﷺ إلا جاء

بطرفة يهديها إلى رسول الله ﷺ لجاء يوما من الأيام فوجده رسول الله ﷺ فى سوق المدينة يبيع سلعة له ولم يكن أتاه ذلك اليوم فاحتضنه النبى ﷺ من ورائه بكفيه ، فالتفت فأبصر النبى ﷺ فقبل كفيه ، فقال النبى ﷺ «من يشترى العبد ؟ » فقال : إن تجدنى كاسدا يا يارسول الله ، فقال «ولكن عند الله ربيح» ثم قال ﷺ «لكل أهل حضر بادية وبادية آل محمد زاهر بن حرام» .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ المقدسى عن أبيه عن المطهر بن محمد الفقيه عن أبو الحسن عن أبو عمرو ابن الحكيم عن أبو أمية عن عبيد بن إسحاق العطار عن سنان بن هرون عن حميد عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، احملنى على جمل ، فقال « أحملك على ابن الناقة » قال : أقول لك احملنى على جمل وتقول أحملك على ابن الناقة ؟ فقال ﷺ « فالجمل ابن الناقة » .

وروى صهيب فقال : أتينا رسول الله ﷺ وبين يديه تمر يأكل فقال «أصب من هذا الطعام» فجعلت آكل من التمر ، فقال « أتأكل وأنت رمد ؟ » فقلت إذن أمضغ من الجانب الآخر ، فضحك رسول الله ﷺ .

وروى أنس : أن رسول الله ﷺ قال له ذات يوم « ياذا الأذنين » .

وسئلت عائشة رضى الله عنها : كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا فى البيت ؟ قالت : كان ألين الناس بساما ضحاكا . وروت أيضا : أن رسول الله ﷺ سابقها فسبقته ، ثم سابقها بعد ذلك فسبقها ، « هذه بتلك » .

وأخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على عن أبو الفتح الهروى عن أبو نصر الترياقى ، عن أبو محمد الجراحى عن أبو عيسى الحافظ الترمذى عن عبد الله بن الوضاح الكوفى عن عبد الله بن إدريس عن شعبة عن أبى التياح عن أنس رضى الله عنه قال إن كان رسول الله ﷺ ليخاطبنا حتى إنه كان يقول لأخ لى صغير « ياأبا عمير ما فعل النغير » والنغير : عصفور صغير .

وروى أن عمر سابق زبيرا رضى الله عنهما فسبقه الزبير ، فقال : سبقتك ورب الكعبة ، ثم سابقه مرة أخرى فسبقه عمر ، فقال عمر سبقتك ورب الكعبة . وروى عبد الله بن عباس قال : قال لى عمر تعالى أنافسك فى الماء أينا أطول نفسا . ونحن محرمون

وروى بكر بن عبد الله قال : كان أصحاب النبى ﷺ يتمازحون حتى يتبادحون بالبطيخ فإذا كانوا هم الرجال يقال بدح يبدح : إذا رمى أى يترامون بالبطيخ .

وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه عن الحسن بن أحمد الكرجى عن أبو طالب محمد بن إبراهيم ، عن أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله ، عن إسحق الحربى عن أبو سلمة عن حماد بن خالد عن محمد بن عمرو بن علقمة عن ابو الحسن بن محصن الليثى عن يحيى بن عبد الرحمن ابن حاطب بن أبى بلتعة قال : إن عائشة رضى الله عنها قالت أتيت النبى ﷺ بحريرة طبختها له وقلت لسودة والنبى ﷺ بينى وبينها : كلى ، فأبت ، فقلت لها كلى فأبت ، فقلت لتأكلن أو لألطخن بها وجهك ، فأبت ، فوضعت يدى فى الحريرة فلطخت بها وجهها ، فضحك رسول الله ﷺ ، فوضع فخذه وقال لسودة الطخى وجهها . فلطخت بها وجهى ، فضحك رسول الله ﷺ فمر عمر رضى الله عنه على الباب فنادى ياعبد الله ياعبدالله فظن النبى ﷺ أنه سيدخل فقال: قوما فاغسلا وجهيكما ، فقالت عائشة رضى الله عنها :فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ إياه.

ووصف بعضهن ابن طاوس فقال : كان مع الصبي صبيا ومع الكهل كهلا وكان فيه مزاحة إذا خلا .
وروى معاوية بن عبد الكريم قال : كنا نتذاكر الشعر عند محمد بن سيرين ، وكان يقول ونمزح عنده ويمازحنا وكنا نخرج من عنده ونحن نضحك . وكنا إذا دخلنا على الحسن نخرج من عنده ونحن نكاد نبكي ، فهذه الأخبار والآثار دالة على حسن لين الجانب وصحة حال الصوفية وحسن أخلاقهم فيما يعتمدونه من المداعبة فى الربط وينزلون مع الناس على حسب طباعهم لنظرهم إلى سعة رحمة الله ، فإذا خلوا وقفوا موقف الرجال واكتسوا ملابس الأعمال والأحوال ، ولا يقف فى هذا المعنى على حد الاعتدال إلا صوفى قاهر للنفس عالم بأخلاقها وطباعها سائس لها بوقور العلم ، حتى يقف فى ذلك على صراط الاعتدال بين الإفراط والتفريط ، ولا يصلح الإكثار من ذلك للمريدين المبتدئين لقلة علمهم ومعرفتهم بالنفس وتعديهم حد الاعتدال ، فللنفس فى هذه المواطن نهضات ووثبات بجر إلى الفساد وتجنح إلى العناد . فالنزول إلى طباع الناس يحسن بمن صعد عنهم ورقى لعلو حاله ومقامه ، فينزل إليهم وإلى طباعهم حين ينزل بالعلم ، فأما يصعد بصفاء حاله عنهم وفيه بقية مزج من طباعهم ونفوسهم الجامحة الأمارة بالسوء ، إذا دخلت فى هذه المداخل أخذت النفس حظها واغتنمت مآربها واستروحت إلى الرخصة ، والنزول إلى الرخصة يحسن لمن ركب العزيمة غالب أوقاته . وليس ذلك شأن المبدىء ، فالصوفية العلماء فيما ذكرناه ترويح يعلمون حاجة القلب إلى ذلك . والشيء إذا وضع للحاجة يتقدر بقدر الحاجة ، ومعيار مقدار الحاجة فى ذلك علم غامض لا يسلم لكل أحد .

قال سعيد بن العاص لابنه : اقتصد فى مزاحك فالافراط فيه يذهب بالبهاء ويجرىء عليك السفهاء ، وتركه يغيظ المؤانسين ويوحش المخالطين . قال بعضهم : المزاح مسلبة للبهاء مقطعة للإخاء . وكما يصعب معرفة الاعتدال فى ذلك يصعب معرفة الاعتدال فى الضحك ، والضحك من خصائص الانسان وبميزه عن جنس الحيوان ، ولا يكون الضحك إلا عن سابقة تعجب ، والتعجب يستدعى الفكر ، والفكر شرف الانسان وخاصيته ، ومعرفة الاعتدال فيه أيضا شأن من ترسخ قدمه فى العلم ، ولهذا قيل : إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ، وقيل : كثرة الضحك من الرعونة : وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال « إن الله تعالى يبغض الضحاك من غير عجب ، المشاء فى غير أرب » وذكر فرق بين المداعبة والمزاح ، فقيل : المداعبة مالا يغضب جده . والمزاح ما يغضب جده . وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله القهقهة فى مسلاة من الذنب ، وحكم ببطلان الوضوء بها ، وقال : يقوم الإثم مقام خروج الخارج ، فالاعتدال فى المزاح والضحك لا يتأتى إلا إذا خلص وخرج من مضيق الخوف والقبض والهيبة ، فإذا يتقوم بكل مضيق من هذه المضايق بعض التقويم فيعتدل الحال فيه ويستقيم ، فالبسط والرجاء ينشئان المزاح والضحك والخوف والقبض يحكمان فيه بالعدل .

ومن أخلاق الصوفية : ترك التكلف . وذلك أن التكلف تصنع وتعمل وتمايل على النفس لأجل الناس ، وذلك يباين حال الصوفية ، وفى بعضه خفى منازعة للأقدار ، وعدم الرضا بما قسم الجبار . ويقال : التصوف ترك التكلف ويقال : التكلف تخلف وهو تخلف عن شأو الصادقين . روى أنس بن مالك قال : شهدت وليمة لرسول الله مافيها خبز ولا لحم . وروى عن جابر : أنه أتاه ناس من أصحابه فأتاهم بخبز وخل وقال : كلوا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « نعم الإدام الخل » ، وعن سفيان بن سلمة قال دخلت على سلمان الفارسى فأخرج إلى خبزا وملحا وقال : كل ، لو أن رسول الله ﷺ نهانا أن يتكلف أحد لأحد لتكلفت لكم . والتكلف مذموم فى جميع الأشياء كالتكلف بالملبوس من غير نية فيه ، والتكلف فى الكلام وزيادة التملق الذى صار دأب أهل الزمان ، فما يكاد يسلم من ذلك إلا آحاد وأفراد . وكم من متملق لا يعرف أنه تملق ولا يفطن له ، فقد يتعلق الشخص إلى حد يخرجه إلى صريح النفاق وهو مباين لحال الصوفى .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أخبرنا أبو الفتح الهروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى . قال عن أحمد بن منيع قال حدثنا يزيد بن هرون عن محمد بن مطرف عن حسان بن عطيــة عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال

«الحياء والعى شعبتان من الايمان ، والبذل والبيان شعبتان من النفاق» البذاء : الفحش ، وأراد بالبيان ههنا ، كثرة الكلام والتكلف للناس بزيادة تملق وثناء عليهم وإظهار التفصح وذلك ليس من شأن أهل الصدق .

وحكى عن أبى وائل قال : مضيت مع صاحب لى نزور سلمان ، فقدم إلينا خبز شعير وملحا جريشا ، فقال صاحبى لو كان فى هذا الملح سعتر كان أطيب . فخرج سلمان ورهن مطهرته وأخذ سعترا ، فلما أكلنا قال صاحبى الحمد لله الذى قنعنا بما رزقنا . فقال سلمان : لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرتى مرهونة . وفى هذا من سلمان ترك التكلف قولا وفعلا

وفى حديث يونس النبى عليه السلام : أنه زاره إخوانه فقدم إليهم كسرا من خبز شعير وجزء لهم بقلا كان يزرعه ثم قال : لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم .

قال بعضهم : إذا قصدت الزيارة فقدم ما حضر ، وإذا استزرت فلا تبق ولا تذر .

وروى الزبير بن العوام قال : نادى منادى رسول الله ﷺ يوما « اللهم اغفر للذين يدعون لأموات أمتى ولا يتكلفون ، ألا إنى برىء من التكلف وصالحو أمتى » .

وروى أن عمر رضى الله عنه قرأ قوله تعالى ﴿ فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا ﴾ ثم قال : هذا كله قد عرفناه فما الأب ؟ قال : وبيد عمر عصاه فضرب بها الأرض ثم قال : هذا لعمر الله هو التكلف فخذوا أيها الناس ما بين لكم منه ، فما عرفتم اعملوا به ومن لم تعرفوا فكلوا علمه إلى الله .

ومن أخلاق الصوفية : الانفاق من غير إقتار ، وترك الادخار ، وذلك أن الصوفى يرى خزائن فضل الحق فهو بمثابة من هو مقيم على شاطىء بحر ، والمقيم على شاطىء البحر لا يدخر الماء فى قربته وروايته : روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « ما من يوم إلا له ملكان يناديان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » وروى أنس قال رسول الله ﷺ لا يدخر شيئا لغد ، وروى أنه أهدى لرسول الله ﷺ ثلاث طوائر ، فأطعم خادمه طيرا ، فلما كان الغد أتاه به فقال رسول الله « ألم أنهك أن تخبأ شيئا لغد ، فإن الله تعالى يأتى برزق كل غد » ، وروى أبو هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ دخل على بلال وعنده صرة من تمر ، فقال « ما هذا يا بلال ؟ » فقال : أدخر يارسول الله قال « أما تخشى ، أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا »

وروى أن عيسى بن مريم ﷺ كان يأكل الشجر ، ويلبس الشعر ، ويبيت حيث أمسى ، ولم يكن له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يخبأ شيئا لغد

فالصوفى فى كل خباياه فى خزائن الله لصدق توكله وثقته بربه ، فالدنيا للصوفى كدار الغربة ليس فيها ادخار ولا له منها استكثار ، قال عليه السلام « لو توكلتم على حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب قال عن أبو عبد الرحمن بن أبى عبد الله الماليني ، قال عن أبو الحسن عبد الرحمن الداردى ، قال عن أبو محمد عبد الله السرخسى قال عن أبو عمران السمرقندى ، قال عن عبد الله بن عبد الرحمن الدرامى ، قال عن محمد بن يوسف عن سفيان عن ابن المنكدر عن جابر قال : ماسئل النبى ﷺ شيئا قط فقال لا قال بن عيينة : إذا لم يكن عنده وعد

وبالاسناد عن الدارمى قال عن يعقوب بن حميد ، قال عن عبد العزيز بن محمد عن ابن أخى الزهرى ، قال : إن جبريل عليه السلام قال : مافى الأرض أهل عشيرة من أبيات إلا قلبتهم ، فما وجدت أحداً أشد إنفاقا لهذا المال من رسول الله ﷺ

ومن أخلاق الصوفية . القناعة باليسير من الدنيا : قال ذو النون المصرى : من قنع استراح من أهل زمانه واستطال على أقرانه ، وقال بشر بن الحرث : لو لم يكن فى القناعة إلا التمتع بالعز لكفى صاحبه . وقال بنان الحمال :

الحر عبد ما طمع * والعبد حر ما قنع

وقال بعضهم : انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص .
وقال أبو بكر المراغى : العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ،ودبر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل.
وقال يحيى بن معاذ : من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه .
وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه : القناعة سيف لاينبو.
أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبى الفضل قال أخبرنا ابو القاسم عبد الله بن الحسن الخلال ببغداد عن أبو حفص عمر ابن إبراهيم ،عن أبو القاسم البغوى، عن محمد بن عباد، عن أبو سعيد عن صدقه بن الربيع عن عمارة بن عزية عن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على الأعواد يقول« ماقل وكفى خير مما كثر وألهى» وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «قد افلح من أسلم وكان رزقه كفافا ثم صبر عليه » .
وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ دعا وقال «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا »
وروى جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « القناعة مال لاينفد » .
وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : كونوا أوعية الكتاب وينابيع الحكمة ، وعدوا أنفسكم فى الموتى ، واسألوا الله تعالى يوما بيوم ، ولا يضركم أن لايكثر لكم.
وأخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبى الفضل والده، قال حدثنا أبو القاسم إسمعيل بن عبد الله الشاوى عن أحمد بن على الحافظ عن أبو عمرو بن حمدان عن الحسن عن سفيان ، عن عمرو بن مالك البصرى، عن مروان بن معاويه ، عن عبد الرحمن بن أبى سلمة الأنصارى ، قال أخبرنى سلمة بن عبد الله بن محصن عن أبيه قال : قال النبى ﷺ « من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا » وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ هى القناعة .

فالصوفى قوام على نفسه بالقسط ، عالم بطبائع النفس وجدوى القناعة والتوصل إلى استخراج ذلك من النفس لعلمه بدائها ودوائها .

وقال أبو سليمان الدارانى : القناعة من الرضا كما أن الورع من الزهد .
ومن أخلاق الصوفية : ترك المراء والمجادلة والغضب إلا بحق واعتماد الرفق والحلم ، وذلك أن النفوس تثب وتظهر فى المارين.والصوفى كلما رأى نفس صاحبه ظاهرة قابلها بالقلب ،وإذا قوبلت النفس بالقلب ذهبت الوحشة وانطفأت الفتنة .قال الله تعالى تعليما لعباده ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ ولاينزع المراء إلا نفوس زكية انتزع منها الغل ،ووجود الغل فى النفوس مراء الباطن،وإذا انتزع المراء من الباطن ذهب من الظاهر أيضا ، وقد يكون الغل فى النفس مع من يشاكله ويماثله لوجود المنافسة ،ومن استعصى فى تدريب النفس بنار الزهادة فى الدنيا ينمحى الغل من باطنه ،ولا نبقى عنده منافسة دنيوية فى حظوظ عاجلة من جاه ومال:قال الله فى وصف أهل الجنة المتقين ﴿ ونزعنا مافى صدورهم من غل ﴾ قال أبو حفص : كيف يبقى الغل فى قلوب ائتلفت بالله واتفقت على محبته واجتمعت على مودته وأنست بذكره ،فإن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع، بل كحلت بنور التوفيق فصارت إخوانا ؛ فهكذا قلوب أهل التصوف والمجتمعين على الكلمة الواحدة، ومن التزم بشروط الطريق والانكباب على الظفر بالتحقيق.

والناس رجلان : رجل طالب ماعند الله ويدعو إلى ماعند الله نفسه وغيره ، فما للمحقق الصوفى مع هذا منافسة ومراء وغل ، فإن هذا معه فى طريق واحد ووجهة واحدة ، وأخوه ومعينه، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا. ورجل مفتتن بشيء من محبة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق،فما للصوفى مع هذا من منافسة لأنه زهد فيما فيه رغب فمن شأن الصوفى أن ينظر إلى مثل هذا نظر رحمة وشفقة حيث يراه محجوبا مفتتنا فلا ينطوى له على غل ولا يماريه

فى الظاهر على شىء ، لعلمه بظهور نفسه الأمارة بالسوء فى المراء والمجادلة .

عن الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على عن أبو الفتح الهروى ، عن أبو نصر الترياقى عن أبو محمد الجراحى ، عن أبو العباس المحبوبى عن أبو عيسى الترمذى ، عن زياد بن أيوب عن المحاربى عن ليث عن عبدالملك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « لاتمار أخاك ولا تعده موعدا فتخلفه » .

وفى الخبر « من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بنى له فى وسطها ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها » .

وعن شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب ، عن أبو عبد الرحمن السهروردى محمد بن أبى عبد الله الماليني ، عن أبو الحسن عبد الرحمن الداودى ، عن أبو محمد عبد الله بن أحمد الحموى ، عن أبو عمران عيسى السمرقندى ، عن أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن يحيى بن بسطام عن يحيى بن حمزة عن النعمان بن مكحول عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « من طلب العلم ليباهى به العلماء أو يمارى به السفهاء أو يريد أن يقبل بوجوه الناس إليه ، أدخله الله تعالى جهنم » انظر كيف جعل رسول الله ﷺ المماراة مع السفهاء سببا لدخول النار وذلك بظهور نفوسهم فى طلب القهر والغلبة من صفات الشيطنة فى الآدمى .

قال بعضهم : المجادل المارى يضع فى نفسه عند الخوض فى الجدال أن لا يقنع بشىء ، ومن لا يقنع إلا أن لا يقنع فما إلى إقناعه سبيل فنفس الصوفى تبدلت صفاتها وذهب عنه صفة الشيطنة والسبعية ، وتبدل باللين والرفق والسهولة والطمأنينة

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » انظر كيف جعل النبى ﷺ من شرط الإسلام سلامة القلب واللسان .

وروى عنه عليه السلام أنه مر بقوم وهم يحدون حجرا . قال ، « ماهذا ؟ » . قالوا ، هذا حجر الأشداء . قال ، « ألا أخبركم بأشد من هذا ؟ رجلا كان بينه وبين أخيه غضب فأتاه فغلب شيطانه وشيطان أخيه فكلمه » .

وروى أنه جاء غلام لأبى ذر وقد كسر رجل شاة فقال أبو ذر : من كسر رجل هذه الشاة ؟ فقال : أنا . قال ولم فعلت ذلك ؟ قال : عمدا فعلت ، قال ، ولم ؟ قال : أغيظك فتضربنى فتأثم ، فقال أبو ذر : لأغيظن من حضك على غيظى ، فأعتقه .

وروى الأصمعى عن أعرابى قال : إذا أشكل عليك أمران لا تدرى أيهما أرشد فخالف أقربهما إلى هواك فإن أكثر مايكون الخطأ مع متابعة الهوى .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبى الفضل عن أبو بكر محمد بن أحمد بن على خورشيد ، قال حدثنا إبراهيم بن عبدالله عن محمد بن سليم عن الزبير بن بكار عن سعيد بن سعد عن أخيه عن جده عن أبى هريرة رضى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات : فخشية الله فى السر والعلانية ، والحكم بالحق عند الغضب والرضا ، والاقتصاد عند الفقر والغنى . وأما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » فالحكم بالحق عند الغضب والرضا لا يصح إلا من عالم ربانى أمير على نفسه يصرفها بعقل حاضر وقلب يقظان ونظر إلى الله بحسن الاحتساب .

نقل أنهم كانوا يتوضأون عن إيذاء المسلم ، يقول بعضهم : لان أتوضأ من كلمة خبيثة أحب إلى من أن أتوضأ من طعام طيب .

وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : الحدث حدثان : حدث من فرجك ، وحدث من فيك ، فلا يحل حبوة الوقار والحلم إلا الغضب ويخرج عن حد العدل إلى العدوان بتجاوز الحد ، فبالغضب يثور دم القلب ، فإن كان الغضب

على من فوقه مما يعجز عن إنفاذ الغضب فيه ذهب الدم من ظاهر الجلد واجتمع فى القلب ويصير منه الهم والحزن والانكاد ، ولا ينطوى الصوفى على مثل هذا ، لأنه يرى الحوادث والأغراض من الله تعالى فلا ينكمد ولا يغتم . والصوفى صاحب الرضا صاحب الروح والراحة ، والنبى عليه السلام أخبر أن الهم والحزن فى الشك والسخط .

سئل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن الغم والغضب ؟ قال : مخرجهما واحد واللفظ يختلف ، فمن نازع من يقوى عليه اظهره غضبا ، ومن نازع من لا يقوى عليه كتمه حزنا . والحرد غضب أيضا ولكن يستعمل إذا قصد المغضوب عليه ، وإن كان الغضب على ما يشا كله ويماثله ممن يتردد فى الانتقام منه يتردد القلب بين الانقباض والانبساط فيتولد منه الغل والحقد ولا يأوى مثل هذا إلى قلب الصوفى . قال الله تعالى ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ وسلامة قلب الصوفى وحاله يقذف زبد الغل والحقد كما يقذف البحر الزبد ، لما فيه من تلاطم أمواج الأنس والهيبة ، وإن كان الغضب على من دونه ممن يقدر على الانتقام منه ثار دم القلب ، والقلب إذ ثار دمه يحمر ويقسو ويتصلب وتذهب عنه الرقة والبياض ، ومنه تحمر الوجنتان ، لأن الدم فى قلب ثار وطلب الاستعلاء وانتفخت منه العروق ، فظهر عكسه وأثره على الخد ، فيتعدى الحدود حينئذ بالضرب والشتم ، ولا يكون هذا فى الصوفى إلا عند هتك الحرمات والغضب لله تعالى ، فأما فى غير ذلك فينظر الصوفى عند الغضب إلى الله تعالى ، ثم تقواه تحمله على أن يزن حركته وقوله بميزان الشرع والعدل ، ويتهم النفس بعدم الرضا بالقضاء .

قيل لبعضهم : من أقهر الناس لنفسه . قال : أرضاهم بالمقدور . وقال بعضهم : أصبحت ومالى سرور إلا مواقع القضاء . وإذا اتهم الصوفى النفس عند الغضب تداركه العلم ، وإذا لاح علم العلم قوى القلب وسكنت النفس وعاد دم القلب الى موضعه ومقره واعتدل الحال وغاضت حمرة الخد وبانت فضيلة العلم . قال عليه السلام « السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة » .

وروى حارثة بن قدامة قال : قلت يارسول الله أوصنى وأقلل لعلى أعيه . قال « لاتغضب » فأعاد عليه ، كل ذلك يقول « لاتغضب » قال عليه السلام « إن الغضب جمرة من النار ، ألم تنظروا حمرة عينيه وانتفاخ اوداجه ، من وجد ذلك منكم فان كان قائما فليجلس ، وإن كان جالسا فليضطجع » .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أخبرنا أبو الفتح الهروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ، عن الجراحى ، عن المحبوبى ، عن أبو عيسى الترمذى ، عن محمد بن عبد الله ، عن بشر بن المفضل عن قرة بن خالد عن أبى حمزة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأشج عبد القيس : « إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى : الحلم والأناة »

ومن أخلاق الصوفية : التودد والتآلف ، والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة . قال الله تعالى فى وصف أصحاب رسول الله ﷺ ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال الله تعالى ﴿ لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ والتودد والتآلف من ائتلاف الارواح على ماورد فى الخبر الذى أوردناه « فما تعارف منها ائتلف » قال الله تعالى ﴿ فأصبحتم بنعمه إخوانا ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ وقال عليه السلام « المؤمن آلف مألوف ، لاخير فيمن لا يألف ولا يؤلف » .

وقال عليه السلام « مثل المؤمنين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الاخرى ، وماالتقى مؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيرا » وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ : إنى أحبك فى الله ، فقال : أبشر ثم أبشر ، فانى سمعت ﷺ يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفزع الناس وهم لا يفزعون ، ويخاف الناس وهم لايخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » قيل : من هؤلاء يارسول الله ؟ قال « المتحابون فى الله » .

وقيل : لو تحاب الناس وتعاطوا أسباب المحبة لاستغنوا بها عن العدالة .

وقيل : العدالة خليفة المحبة تستعمل حيث لا توجد المحبة . وقيل : طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة ، فإن طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج . ولهذا المعنى كانت صحبة الصوفية مؤثرة من البعض فى البعض ، لأنهم لما تحابوا فى الله تواصوا بمحاسن الأخلاق ووقع القبول بينهم لوجود المحبة ، فانتفع لذلك المريد بالشيخ ، والأخ بالأخ ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس فى كل يوم خمس مرات فى المساجد أهل كل درب وكل محله ، وفى الجامع فى الأسبوع مرة أهل كل بلد ، وانضمام أهل السواد إلى البلدان فى الأعياد فى جميع السنة مرتين ، وأهل الأقطار من البلدان المتفرقة فى العمر مرة للحج : كل ذلك لحكم بالغة ، منها تأكيد الألفة والمودة بين المؤمنين . وقال عليه السلام « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

أخبرنا أبو زرعة عن والده أبو الفضل عن أبو نصر محمد بن سلمان العدل عن أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى ، فقال أخبرنا أبو العباس عبد الله بن يعقوب الكرمانى ، عن يحي الكرمانى عن حماد بن زيد عن مجالد بن سعد عن الشعبى عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ألا إن مثل المؤمنين فى توادهم وتحابهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالسهر والحمى » .

والتآلف والتودد يؤكدان أسباب الصحبة ، والصحبة مع الاخبار مؤثرة جداً . وقد قيل : لقاء الإخوان لقاح . ولا شك أن البواطن تتلقح ويتقوى البعض بالبعض ، بل مجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحا ، والنظر فى الصور يؤثر أخلاقا مناسبة لخلق المنظور إليه ، كدوام النظر إلى المحزون يحزن ، ودوام النظر إلى المسرور يسر . وقد قيل: من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه ، والجمل الشرود يصير ذلولا بمقارنة الجمل الذلول، فالمقارنة لها تأثير فى الحيوان والنبات والجماد ، والماء والهواء يفسدان بمقارنة الجيف ، والزروع تنقى عن أنواع العروق فى الأرض والنبات لموضع الإفساد بالمقارنة ، وإذا كانت المقارنة مؤثرة فى هذه الأشياء ، ففى النفوس الشريفة البشرية أكثر تأثيرا . وسمى الإنسان إنسانا لأنه يأنس بما يراه من خير وشر ، والتآلف والتودد مستجلب للمزيد، وإنما العزلة والوحدة تحمد بالنسبة إلى أراذل الناس وأهل الشر ، فأما أهل العلم والصفاء والوفاء والأخلاق الحميدة فيغتنم مقارنتهم ، والاستئناس بهم استئناس بالله تعالى ، كما أن محبتهم محبة لله ، والجامع معهم رابطة الحق ومع غيرهم رابطة الطبع ، فالصوفى مع غير الجنس كائن بائن ، ومع الجنس كائن مغاين ، والمؤمن مرآة المؤمن ، إذا نظر إلى أخيه يستشف من وراء أقواله وأعماله وأحواله تجليات إلهية ، وتعريفات وتلويحات من الله الكريم خفيه ، غابت عن الأغيار ، وأدركها أهل الأنوار .

ومن أخلاق الصوفية : شكر المحسن على الإحسان والدعاء له ، وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم وصفاء توحيدهم وقطعهم النظر إلى الاغيار ورؤيتهم النعم من المنعم الجبار ، ولكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله ﷺ، على ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال « ما من الناس أحد أمن علينا فى صحبته وذات يده من ابن أبى قحافة ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » وقال « ما نفعنى مال كمال أبى بكر » فالخلق حجبوا عن الله بالخلق فى المنع والعطاء .

فالصوفى فى الابتداء يفنى عن الخلق ، ويرى الاشياء من الله حيث طالع ناصيته التوحيد وخرق الحجاب الذى منع الخلق عن صرف التوحيد ، فلا يثبت للخلق منعا ولا عطاء ، ويحجبه الحق عن الخلق ، فإذا ارتقى إلى ذروة التوحيد يشكر الخلق بعد شكر الحق ، ويثبت لهم وجودا فى المنع والعطاء ، بعد أن يرى المسبب أولا ، ولذلك لسعة علمه وقوة معرفته يثبت الوسائط ، فلا يحجبه الخلق كعامة المسلمين ، ولا يحجبه الحق عن الخلق كأرباب الإرادة والمبتدئين ، فيكون شكره للحق لانه المنعم والمعطى والمسبب ، ويشكر الخلق لانهم واسطة وسبب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول ما يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله تعالى فى السراء والضراء » وقال عليه السلام « من عطس أو تجشأ فقال الحمد لله على كل حال دفع الله تعالى بها عنه سبعين داء أهونها الجذام » .

وروى جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد ينعم عليه بنعمة فيحمد الله إلا كان

الحمد أفضل منها » فقوله عليه السلام « كان الحمد أفضل منها » يحتمل أن يرضى الحق بها شكرا ، ويحتمل أن الحمد أفضل منها نعمة فتكون نعمة الحمد أفضل من النعمة التى حمد عليها ، فإذا شكروا المنعم الأول يشكرون الواسطة المنعم من الناس ويدعون له .

روى أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أفطر عند قوم قال «أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار ونزلت عليكم السكينة » .

عن أبو زرعة عن أبيه عن عن أحمد بن محمد بن أحمد البزار ، وعن أبو حفص عمر بن إبراهيم ،عن عبد الله ابن محمد البغوى ، عن عمرو بن زرارة ، قال عن عيينة بن ا يونس عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال لأخيه جزاك الله خيرا فقد أبلغ فى الثناء » .

ومن أخلاق الصوفية : بذل الجاه للاخوان والمسلمين كافة ، فإذا كان الرجل وافر العلم بصيرا بعيوب النفس وآفاتها وشهواتها فليتوصل إلى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجاه والمعاونة فى إصلاح ذات البين وفى هذا المعنى يحتاج إلى مزيد علم لأنها أمور تتعلق بالخلق ومخالطتهم ومعاشرتهم ولا يصلح ذلك إلا لصوفى تام الحال عالم ربانى .

روى عن زيد بن أسلم أنه قال : كان نبى من الأنبياء يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس .

وقال عطاء لأن يرائى الرجل سنين فيكتسب جاها يعيش فيه مؤمن أتم له من أن يخلص العمل لنجاة نفسه وهذا باب غامض لا يؤمن أن يفتتن به خلق من الجهال المدعين ولا يصلح هذا لعبد اطلع الله على باطنه فعلم منه أن لا رغبة له فى شىء من الجاه والمال ، ولو أن ملوك الأرض وقفوا فى خدمته ماطغى ولا استطال ، ولو دخل إلى أتون يوقد ماظهرت نفسه بصريح الإنكار لهذا الحال ، وهذا لا يصلح إلا لآحاد من الخلق وأفراد من الصادقين ينسلخون عن إرادتهم واختيارهم ويكاشفهم الله تعالى بمراده منهم ، فيدخلون فى الأشياء بمراد الله تعالى فإذا علموا أن الحق يريد منهم المخالطة وبذل الجاه يدخلون فى ذلك بغيبة صفات النفس وهذا لأقوام ماتوا ثم حشروا وأحكموا مقام الفناء ثم رقوا إلى مقام البقاء فيكون لهم فى كل مدخل مخرج برهان وبيان وإذن من الله تعالى ، فهم على بصيرة من ربهم وهذا ليس فيهم ارتياب لصاحب قلب مكاشف بصريح المراد فى خفى الخطاب فيأخذ وقته أبدا من الأشياء ولم تأخذ الأشياء من وقته ، ولا يكون فى قطر من الأقطار إلا واحد متحقق بهذا الحال .

قال أبو عثمان الحيرى لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه فى أربعة أشياء المنع والعطاء والعز والذل ، ولمثل هذا الرجل يصلح بذل الجاه والدخول فيما ذكرناه .

قال سهل بن عبد الله لا يستحق الإنسان الرياسة حتى تجتمع فيه ثلاث خصال : يصرف جهله عن الناس ويحتمل جهل الناس ، ويترك مافى أيديهم ، ويبذل مافى يده لهم وهذه الرياسة ليست عين الرياسة التى زهد فيها وتعين الزهد فيها لضرورة صدقه وسلوكه ، وإنما هذه رياسة أقامها الحق لصلاح خلقه ، فهو فيها بالله يقوم بواجب حقها وشكر نعمتها لله تعالى .

الباب الحادى والثلاثون : فى ذكر الأدب ومكانه من التصوف

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » فالأدب : تهذيب الظاهر والباطن فاذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيا أديبا وإنما سميت المأدبة مأدبة لاجتماعها على أشياء ولا يتكامل الأدب فى العبد إلا بتكامل مكارم الأخلاق ، ومكارم الأخلاق مجموعها من تحسين الخلق فالخلق صورة الإنسان والخلق معناه فقال بعضهم . الخلق لا سبيل إلى تغييره كالخلق وقد ورد « فرغ ربكم من الخلق والخلق والرزق والأجل » وقد قال تعالى ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ والأصح أن تبديل الأخلاق ممكن مقدور عليه ، بخلاف الخلق وقد روى

عن رسول الله ﷺ أنه قال « حسنوا أخلاقكم ، وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان وهيأه لقبول الصلاح والفساد وجعله أهلا للأدب ومكارم الأخلاق ، ووجود الأهلية فيه كوجود النار فى الزناد ووجود النخل فى النوى ثم إن الله تعالى بقدرته ألهم الإنسان ومكنه من إصلاحه بالتربية إلى أن يصير النوى نخلا ، والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نار ، وكما جعل فى نفس الإنسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الإصلاح والإفساد فقال سبحانه وتعالى ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ فتسويتها صلاحيتها للشيئين جميعا ، ثم قال عز وجل ﴿ وقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ فإذا تزكت النفس تدبرت بالعقل واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنية وتهذبت الأخلاق وتكونت الآداب فالأدب : استخراج ما فى القوة إلى الفعل . وهذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه ، والسجية فعل الحق لاقدرة للبشر على تكوينها . كتكون النار فى الزناد إذ هو فعل الله المحض واستخراجه بكسب الآدمى ، فهكذا الآداب منبعها السجايا الصالحة والمنح الإلهية ، ولما هيأ الله تعالى بواطن الصوفية بتكميل السجايا فيها تواصلوا بحسن الممارسة والرياضة إلى استخراج مافى النفوس وهو مركوز بخلق الله تعالى إلى الفعل ، فصاروا مؤدبين مهذبين ، والآداب تقع فى حق بعض الأشخاص من غير زيادة ممارسة ، ورياضة القوة ما أودع الله تعالى فى غرائزهم كما قال رسول الله ﷺ « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وفى بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة لنقصان قوى أصولها فى الغريزة ، فلهذا احتاج المريدون إلى صحبة المشايخ لتكون الصحبة والتعلم عونا على استخراج ما فى الطبيعة إلى الفعل . قال الله تعالى ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : فقهوهم وأدبوهم وفى لفظ آخر قال رسول الله ﷺ « أدبنى ربى فأحسن تأديبى ثم أمرنى بمكارم الأخلاق فقال ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ » قال يوسف بن الحسين : بالأدب يفهم العلم ، وبالعلم يصح العمل ، وبالعمل تنال الحكمة ، وبالحكمة يقام الزهد ، وبالزهد تترك الدنيا ، وبترك الدنيا يرغب فى الآخرة ، وبالرغبة فى الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى .

قيل : لما ورد أبو حفص العراق جاء إليه الجنيد فرأى أصحاب أبى حفص وقوفا على رأسه يأتمرون لأمره لا يخطىء أحد منهم ، فقال : يا أبا حفص أدبت أصحابك أدب الملوك ، فقال : لا يا أبا القاسم ، ولكن حسن الأدب فى الظاهر عنوان الأدب فى الباطن .

قال أبو الحسين النورى : ليس لله فى عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط معها آداب الشريعة وآدب الشريعة حلية الظاهر ، والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلى بمحاسن الآداب .

قال عبد الله بن المبارك : أدب الخدمة أعز من الخدمة .

حكى عن أبى عبيد القاسم بن سلام قال : دخلت مكة فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة وربما كنت أستلق وأمد رجلى ، فجاءتنى عائشة المكية فقالت لى : يا أبا عبيد يقال إنك من أهل العلم ، اقبل منى كلمة لا تجالسه إلا بأدب وإلا فيمحى اسمك من ديوان القرب ، قال أبو عبيد : وكانت من العارفات .

وقال ابن عطاء : النفس مجبولة على سوء الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب والنفس تجرى بطباعها فى ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده إلى حسن المطالبة فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية ومهما أعانها فهو شريكها .

وقال الجنيد : من أعان نفسه على هواها فقد أشرك فى قتل نفسه لأن العبودية ملازمة الأدب والطغيان سوء الأدب

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على ، عن أبو الفتح الهروى ، عن أبو النصر الترياقى عن أبو محمد الجراحى ، عن أبو العباس المحبوبى ، عن أبو عيسى الترمذى ، عن قتيبة عن يحيى بن يعلى عن ناصح عن سماك عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ « لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع » .

وروى أيضاً أنه قال ﷺ « مانحل والد ولدا من نحلة أفضل من أدب حسن » . وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال « حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه .

وقال أبو على الدقاق : العبد يصل بطاعته إلى الجنة، وبأدبه فى طاعته إلى الله تعالى. قال أبو القاسم القشيرى رحمه الله وكان الأستاذ أبو على لا يستند إلى شىء ، فكان يوما فى مجمع ، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره لأنى رأيته غير مستند ، فتنحى عن الوسادة قليلا ، فتوهمت أنه توقى الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجادة ، فقال : لا أريد الاستناد ، فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند إلى شىء أبدا .

وقال الجلال البصرى : التوحيد يوجب الإيمان ، فمن لا إيمان له لا توحيد له ، والإيمان يوجب الشريعة ، فمن لاشريعة له لا إيمان له ولا توحيد له ، والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له لاشريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له.

وقال بعضهم : الزم الأدب ظاهرا وباطنا ، فما أساء أحد الأدب ظاهرا إلا عوقب ظاهراً ، وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا .

قال بعضهم - هو غلام الدقاق - نظرت إلى غلام امرد فنظر إلى الدقاق وأنا انظر اليه ، فقال: لتجدن غبها ولو بعد سنين ، قال ، فوجدت غبها بعد عشرين سنة ان أنسيت القرآن .

وقال سرى: صليت وردى ليلة من الليالى ومددت رجلى فى المحراب ، فنوديت : ياسرى هكذا تجالس الملوك ؟ فضممت رجلى ثم قلت وعزتك لامددت رجلى أبدا . وقال الجنيد: فبقى ستين سنة مامد رجله ليلا ولا نهارا .

وقال عبدالله المبارك : من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة .

وسئل السرى عن مسئلة فى الصبر فجعل يتكلم فيها، فدب على رجله عقرب فجعلت تضربه بإبرتها ، فقيل له : الا تدفعها عن نفسك ؟ قال : استحى من الله ان اتكلم فى حال ثم اخالف ما اعلم فيه .

وقيل: من أدب الرسول ﷺ انه قال «زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها» ولم يقل رأيت .

وقال انس بن مالك : الأدب فى العمل علامة قبول العمل.

وقال ابن عطاء : الأدب الوقوف مع المستحسنات . قيل : ما معناه؟ قال ان تعامل الله سرا وعلنا بالأدب ، فإذا كنت كذلك كنت اديبا وإن كنت اعجميا . ثم أنشد :

إذا نطقت جاءت بكل مليحة ... وإن سكتت جاءت بكل مليح

وقال الحريرى : منذ عشرين سنة مامددت رجلى فى الخلوة ، فإن حسن الأدب مع الله احسن واولى .

وقال ابوعلى : ترك الأدب موجب للطرد ، فمن اساء الأدب على البساط رد إلى الباب ، ومن اساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب .

الباب الثانى والثلاثون : في آداب الحضرة الإلهيـــة لأهل القرب

كل الآداب تتلقى من رسول الله ﷺ ، فإنه عليه السلام مجمع الآداب ظاهرا وباطنا ، واخبر الله تعالى عن حسن ادبه فى الحضرة بقوله تعالى﴿ مازاغ البصر وما طغى ﴾ وهذه غامضة من غوامض الآداب اختص بها رسول الله ﷺ اخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس فى الإعراض والإقبال ، اعرض عما سوى الله وتوجه إلى الله ، وترك وراء ظهره الأرضين والدار العاجلة بحظوظها ، فما التفت إلى ما اعرض عنه ولا لحقه الأسف على الغائب فى إعراضه قال الله تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على مافاتكم ﴾ فهذا الخطاب للعموم ﴿ مازاغ البصر ﴾ إخبار عن حال النبى ﷺ بوصف خاص من معنى ماخاطب به العموم ، فكان ﴿ مازاغ البصر ﴾ حاله فى طرف الإعراض وفى طرف الإقبال

تلقى ما ورد عليه فى مقام قلب قوسين بالروح والقلب . ثم فر من الله تعالى حياء منه وهيبة وإجلالا . وطوى نفسه بفراره فى مطاوى انكساره وافتقاره لكيلا تنبسط النفس فتطغى ؛ فإن الطغيان عند الاستغناء وصف النفس. قال الله تعالى ﴿ كلا إن الانسان ليطغى * أن رآه استغنى ﴾ والنفس عند المواهب الواردة على الروح والقلب تسترق السمع ، ومتى نالت قسطا من المنح وطئت ، والطغيان يظهر منه فرط البسط ، والاقرار فى البسط بسد باب المزيد وطغيان النفس لضيق وعائها عن المواهب . فموسى عليه السلام صح له فى الحضرة أحد طرفى ﴿ مازاغ البصر ﴾ وما التفت إلى مافاته ﴿ وماطغى ﴾ متاسفا لحسن أدبه . ولكن امتلأ من المنح ، واسترقت النفس السمع وتطلعت إلى السقط والحظ ، فلما حظيت النفس استغنت وطفح عليها ماوصل إليها ، وضاق نطقها فتجاوز الحد من فرط البسط وقال ﴿ أرنى أنظر إليك ﴾ فمنع ولم يطلق فى فضاء المزيد ، وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام ، وهذه دقيقة لأرباب القرب والأحوال السنية . فكل قبض يوجب عقوبة لأن كل قبض سد فى وجه باب الفتوح ، والعقوبة بالقبض أوجبت الإفراط فى البسط ، ولو حصل الاعتدال فى البسط ماوجبت العقوبة بالقبض ، والاعتدال فى البسط بإيقاف النازل من المنح على الروح والقلب بما ذكرناه من حال النبى عليه السلام من تغييب النفس فى مطاوى الانكسار فذلك الفرار من الله إلى وهو غاية الأدب حظى به رسول الله عليه الصلاة والسلام فما قوبل بالقبض فدام مريده وكان قاب سوقين أو أدنى ويشاكل الشرح الذى شرحناه قول أبى العباس بن عطاء فى قوله تعالى ﴿ مازاغ البصر وماطغى ﴾ قال لم يره بطغيان يميل . بل رآه على شرط اعتدال القوى .

وقال سهل بن عبد الله التسترى : لم يرجع رسول الله ﷺ إلى شاهد نفسه ولا إلى مشاهدتها . وإنما كان مشاهدا بكليته لربه يشاهد مايظهر عليه من الصفات التى أوجبت الثبوت فى ذلك المحل . وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه برمز فى ذلك عن سهل بن عبد الله . ويؤيد ذلك أيضا ما اخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة . عن الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن محمد بن منصور الصفار النيسابورى . قال عن أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى . عن الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : سمعت أبا نصر بن عبد الله ابن على السراج ، عن أبو الطيب العكى عن أبى محمد الحريرى . قال : التسرع إلى استدراك علم الانقطاع وسيلة والوقوف على حد الانجاز نجاة ، واللباد بالهرب من علم الدنو وصلة واستقباح ترك الجواب ذخيرة والاعتصام من قبول دواعى استماع الخطاب تكلف . وخوف قوت علم ما انطوى من فصاحة الفهم فى حيز الاقبال مساءة . والإصغاء إلى ماتلقى ماينفصل عن معدنه بعد . والاستسلام عند التوقى جراءة . والانبساط فى محل الأنس غرة وهذه الكلمات كلها من آداب الحضرة لأربابها . وفى قوله تعالى ﴿ مازاغ البصر وما طغى ﴾ وجه آخر ألطف مما سبق ﴿ مازاغ البصر ﴾ حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر ﴿ وما طغى ﴾ لم يسبق البصر البصيرة فيتجاوز حده ويتعدى مقامه . بل استقام البصر مع البصيرة . والظاهر مع الباطن ، والقلب مع القالب . والنظر مع القدم . ففى تقدم النظر على القدم طغيان . والمعنى بالنظر علم . وبالقدم حال القالب . فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغيانا . ولم يتخلف القدم عن النظر فيكون تقصيرا ؛ فلما اعتدلت الاحوال وصار قلبه كقالبه وقالبه كقلبه . وظاهره كباطنه وباطنه كظاهره . وبصره كبصيرته وبصيرته كبصره . فحيث انتهى نظره وعلمه قارنه قدمه وحاله . ولهذا المعنى انعكس حكم معناه ونوره على ظاهره . وأتى البراق بنتهى خطوه حيث ينتهى نظره . لايتخلف قدم البراق عن موضع نظره كما جاء فى حديث المعراج . فكان البراق بقالبه مشاكلا لمعناه . ومتصفا لقوة حاله ومعناه . وأشار فى حديث المعراج إلى مقامات الأنبياء ورأى فى كل سماء بعض الأنبياء إشارة إلى تعويقهم وتخلفهم عن شأوه ودرجته . ورأى موسى فى بعض السموات فمن هو فى بعض السموات يكون قوله « أرنى أنظر إليك » تجاوزاً للنظر عن حد القدم وتخلفا للقدم عن النظر . وهذا هو الاخلال بأحد الوصفين من قوله تعالى ﴿ مازاغ البصر وماطغى ﴾ فرسول الله حط مقترنا قدمه

ونظره فى حجال الحياء والتواضع ، ناظرا إلى قدمه ، قادما على نظره ، ولو خرج عن حجال الحياء والتواضع وتطاول بالنظر متعديا حد القدم ، تعوق فى بعض السموات كتعوق غيره من الأنبياء ، فلم يزل ﷺ متجلس حجاله فى خفارة أرب حاله ، حتى خرق حجب السموات ، فانصبت اليه أقسام القرب انصبابا ، وانقشعت عنه سحائب الحجب حجابا حجابا ، حتى استقام على صراط ﴿ مازاغ البصر وما طغى ﴾ فمر كالبرق الخاطف إلى مخدع الوصل واللطائف . وهذا غاية فى الأدب ونهاية فى الأرب .

قال أبو محمد بن رويم حين سئل عن أدب المسافر فقال : لا يجاوز همه قدمه ، فحيث وقف قلبه يكون مقره .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة عن عمر بن أحمد . قال عن أبو بكر بن خلف عن أبو عبد الرحمن السلمى ، قال حدثنا القاضى أبو محمد يحى بن منصور ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن على الترمذى قال حدثنا محمد بن رزام الأبلى ، قال حدثنا محمد بن عطاء الهجيمى ، قال حدثنا محمد بن تصير عن بن أبى رباح عن ابن عباس قال « تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ رب أرنى أنظر إليك ﴾ قال : قال ياموسى إنه لا يرانى حى إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده ولا رطب إلا تفرق إنما يرانى أهل الجنة الذين لاتموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم »

ومن آداب الحضرة ماقال الشبلى : الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب وهذا يختص ببعض الأحوال والأشياء دون البعض ليس هو على الإطلاق . لأن الله تعالى أمر بالدعاء . وإنما الإمساك عن القول كما أمسك موسى عن الانبساط فى طلب المآرب والحاجات الدنيوية حتى رفعه الحق مقاما فى القرب وأذن له فى الانبساط . وقال : اطلب منى ولو ملحا لعجينتك . فلما بسط انبسط . وقال ﴿ رب إنى لما أنزلت من خير فقير ﴾ لأنه كان يسأل حوائج الآخرة ويستعظم الحضرة أن يسأل حوائج الدنيا لحقارتها وهو فى حجاب الحشمة عن سؤال المحقرات ولهذا مثال فى الشاهد فإن الملك المعظم يسأل المعظمات ويحتشم فى طلب المحقرات ، فلما رفع ببساط حجاب الحشمة صار فى مقام خاص من القرب يسأل الحقير كما يسأل الخطير .

قال ذو النون المصرى : أدب المعارف فوق كل أدب ، لأن معروفه مؤذب قلبه .

وقال بعضهم : يقول الحق سبحانه وتعالى : من ألزمته القيام مع أسمائى ألزمته الأدب . ومن كشف له عن حقيقة ذاتى ألزمته العطب . فاختر أيهما شئت . الأدب أو العطب ، وقول القائل هذا : يشير إلى أن الأسماء والصفات تستقبل بوجب محتاج إلى الأدب لبقاء رسوم البشرية وحظوظ النفس مع لمعان نور عظمة الذات تتلاشى الآثار بالأنوار ، ويكون معنى المطب : التحقق بالفناء . وفى ذلك العطب نهاية الأدب .

وقال أبو على الدقاق فى قوله تعالى ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ لم يقل ارحمنى لأنه حفظ أدب الخطاب . وقال عيسى عليه السلام ﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾ ولم يقل : لم أقل رعاية لأدب الحضرة

وقال أبو نصر السراج : أدب أهل الخصوصية من أهل الدين فى طهارة القلوب . ومراعاة الأسرار . والوفاء بالعهود . وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر والعوارض والبوادى والعوائق واستواء السر والعلانية ، وحسن الأدب فى مواقف الطلب ومقامات القرب وأوقات الحضور . والأدب أدبان : أدب قول ، وأدب فعل . فمن تقرب إلى الله تعالى بأدب فعل منحه محبة القلوب

قال ابن المبارك : عن نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم وقال أيضا الأدب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنف

وقال النورى : من لم يتأدب للوقت فوقته مقت .

وقال ذو النون : إذا خرج المريد عن حد استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء

وقال ابن المبارك أيضا : قد أكثر الناس فى الأدب ونحن نقول : هو معرفة النفس . وهذه إشارة منه إلى أن

النفس هى منبع الجهالات . وترك الأدب من مخامرة الجهل ، فإذا عرف النفس صادف نور العرفان ، على ماورد « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ولهذا النور لا تظهر النفس بجهالة إلا ويقمعها بصريح العلم وحينئذ يتأدب،ومن قام بآداب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر .

الباب الثالث والثلاثون : فى آداب الطهارة ومقدماتها

قال الله تعالى فى وصف أصحاب الصفة ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ قيل فى التفسير : يحبون أن يتطهروا من الأحداث والجنابات والنجاسات بالماء . قال الكلبى : هو غسل الأدبار بالماء . وقال عطاء : كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة . روى أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء لما نزلت هذه الآية «إن الله تعالى قد أثنى عليكم فى الطهور فما هو ؟» قال : إنا نستنجى بالماء ، وكان قبل ذلك قال ذلك قال لهم رسول الله « إذا أتى أحدكم الخلاء فليستنج بثلاثة أحجار » وهكذا كان الاستنجاء فى الابتداء حتى نزلت الآية فى أهل قباء .

قيل لسلمان : قد علمكم نبيكم كل شىء حتى الخراءة؟ فقال سلمان : أجل نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول أو نستنجى باليمين ، أو يستنجى أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار ، أو نستنجى برجيع أو عظم.

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء عن أبو منصور الحريمى عن أبو بكر الخطيب عن أبو عمرو الهاشمى عن أبو على اللؤلؤى عن أبو داود عن عبد الله بن محمد عن بن المبارك عن ابن عجلان عن القعقاع أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال ﷺ «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبلها ولا يستدبرها ولا يستطيب بيمينه » وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرمة والفرض فى الاستنجاء شيئان : إزالة الخبث وطهارة المزيل : وهو أن لا يكون رجيعا وهو الروث ، ولا مستعملا مرة أخرى ، ولا رمة وهى عظم الميتة ووتر الاستنجاء سنة فإما ثلاثة أحجار أو خمس أو سبع ، واستعمال الماء بعد الحجر سنة ، وقد قيل فى الآية ﴿ يحبون أن يتطهروا ﴾ ولما سئلوا عن ذلك قالوا : كنا نتبع الماء الحجر ، والاستنجاء بالشمال سنة . ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنة . وهكذا يكون فى الصحراء إذا كانت أرضا طاهرا . وكيفية الاستنجاء أن يأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم المخرج قبل ملاقاة النجاسة ويمره بالمسح ويدير الحجر فى مرة حتى لا ينقل النجاسة من موضع إلى موضع ، يفعل ذلك إلى أن ينتهى إلى مؤخر المخرج ، ويأخذ الثانى ويضعه على المؤخر كذلك ، ويمسح إلى المقدمة ، ويأخذ الثالث ويديره حول المسربة ، وإن استجمر بحجر ذى ثلاث شعب جاز . وأما الاستبراء إذا انقطع البول فيمد ذكره من أصله ثلاثا إلى الحشفة بالرفق لئلا يندفق بقية البول ، ثم ينثره ثلاثا ، ويحتاط فى الأمر الاستبراء بالاستنقاء ، ان يتنحنح ثلاثا لأن العروق ممتدة من الحلق إلى الذكر . وبالتنحنح تتحرك وتقذف مافى مجرى البول ؛ فإن مشى خطوات وزاد فى التنحنح فلا بأس به ، ولكن يراعى حد العلم ولا يجعل للشيطان عليه سبيلا بالوسوسة فيضيع الوقت ، ثم يمسح الذكر ثلاث مسحات او اكثر إلى ان لا يرى الرطوبة وشبه بعضهم الذكر بالضرع وقال لا تظهر منه الرطوبة مادام يمد فيراعى الحد فى ذلك، ويراعى الوتر فى ذلك أيضا، والمسحات تكون على الأرض الطاهرة أو حجر طاهر . وإن احتاج إلى اخذ الحجر لصغره فليأخذ الحجر باليمين والذكر باليسار ويمسح على الحجر ، وتكون الحركة باليسار لا باليمين لئلا يكون مستنجيا باليمين ، وإذا اراد استعمال الماء انتقل إلى موضع آخر ويقنع الحجر مالم ينتشر البول على الحشفة ، وفى ترك الاستنقاء فى الاستبراء وعيد ورد فيما رواه عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما قال مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، اما هذا فكان لا يستبرىء او لا يستنزه من البول ، وأما هذا فكان يمشى بالنميمة » ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا وقال «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا» والعسيب : الجريد ، وإذا كان فى الصحراء يبعد عن العيون .

روى جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا أراد البراز انطلق حتى لايراه أحد . وروى المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال كنت مع النبى ﷺ فى سفر فأتى النبى ﷺ حاجته فأبعد فى المذهب . وروى : أن النبى ﷺ كان يتبوأ لحاجته كما يتبوأ الرجل المنزل وكان يستتر بحائط أو نشز من الأرض أو كوم من الحجارة .

ويجوز أن يستتر الرجل براحلته فى الصحراء أو بذيله إذا حفظ العون من الرشاش ويستحب البول فى أرض دمثة أو على تراب مهيل . قال أبو موسى : كنت مع رسول الله ﷺ ، فأراد أن يبول ، فأتى دمثا فى أصل جدار فبال ثم قال « إذا أراد أحدكم أن يبول فليرتد لبوله » .

وينبغى أن لايستقبل القبلة ولا يستدبرها ، ولا يستقبل الشمس والقمر ، ولا يكره استقبال القبلة فى البنيان والأولى اجتنابه لذهاب بعض الفقهاء إلى كراهية ذلك فى البنيان أيضا ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض ويتجنب مهاب الريح احترازا من الرشاش : قال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه : لاأحسبك تحسن الخراءة؛ فقال : بلى وأبيك إنى بها لحاذق :قال:فصفها لى ؛ فقال: أبعد البشر وأعد المدر ، وأستقبل الشيح وأستدبر الريح، وأقعى إقعاء الظبى وأجفل إجفال النعام . يعنى أستقبل أصوات النبات من الشيح وغيره وأستدبر الريح احترازا من الرشاش . والإقعاء ههنا : أن يستوفز على صدور قدميه . والإجفاء : أن يرفع عجزه .

ويقول عند الفراغ من الاستنجاء : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، وطهر قلبى من الرياء،وحصن فرجى من الفواحش .

ويكره أن يبول الرجل فى المغتسل : روى عبد الله بن مغفل أن النبى ﷺ . نهى أن يبول الرجل فى مستحمه وقال « إن عامة الوسواس منه»وقال ابن المبارك : يوسع فى البول المستحم إذا جرى فيه الماء وإذا كان فى البنيان يقدم رجله اليسرى لدخول الخلاء ويقول قبل الدخول: بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث .

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى ، قال أخبرنا أبو منصور المقرى ، قال أخبرنا أبو بكر الخطيب،عن أبو عمرو الهاشمى ، عن أبو على اللؤلؤى ،قال أخبرنا أبو داود ، عن عمر وهو ابن مرزوق البصرى عن شعبة عن قتادة عن النضر بن أنس عن زيد بن أرقم عن النبى ﷺ أنه قال« إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل :أعوذ بالله من الخبث والخبائث » وأراد بالحشوش الكنف : وأصل الحش ،جماعة النخل الكثيف كانوا يقضون حوائجهم إليها قبل أن تتخذ الكنف فى البيوت ،وقوله«محتضرة» أى يحضرها الشياطين.
وفى الجلوس للحاجة يعتمد على الرجل اليسرى ولا يتولع بيده ولا يخط فى الأرض والحائط وقت قعوده ولا يكثر النظر إلى عورته إلا للحاجة إلى ذلك ولا يتكلم ، فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال «لايخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عوراتهما يتحدثان ، فإن الله تعالى يمقت على ذلك .

ويقول عند خروجه : غفرانك،الحمد لله الذى أذهب عنى مايؤذينى وأبقى على ماينفعنى،ولايستصحب معه شيئا عليه اسم الله من ذهب وخاتم وغيره ، ولا يدخل حاسر الرأس : روت عائشة رضى الله عنها عن أبيها أبى بكر رضى الله عنه أنه قال: استحيوا من الله فإنى لأدخل الكنيف فألزق ظهرى وأغطى رأسى استحياء من ربى عز وجل.

الباب الرابع والثلاثون : فى آداب الوضوء وأسراره

إذا أراد الوضوء يبتدىء بالسواك : حدثنا شيخنا أبو النجيب قال حدثنا أبو عبد الله الطائى عن الحافظ الفراء،عن عبد الواحد بن أحمد المليحى عن أبو منصور محمد بن أحمد عن أبو جعفر محمد بن عبد الجبار ،قال حدثنا حميد بن زنجويه ،قال حدثنا يعلى بن عبيد ،قال حدثنا محمد بن إسحق عن محمد ابن إبراهيم عن أبى سلمة عبد الرحمن

عن زيد بن خالد الجهنى قال : رسول الله ﷺ « لولا أن أشق على أمتى لأخرت العشاء إلى ثلث الليل ، ولأمرتهم بالسواك عند كل مكتوبة » . وروت عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » . وعن حذيفة قال « كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك » والشوص : الدلك ويستحب السوك عند كل صلاة وعند كل وضوء ، وكلما تغير الفم من أزم وغيره . وأصل الأزم إمساك الأسنان بعضها على بعض . وقيل للسكوت : أزم، لأن الأسنان تنطبق وبذلك يتغير الفم . ويكره للصائم بعد الزوال ويستحب له قبل الزوال ، وأكثر استحبابه مع غسل الجمعة، وعند القيام من الليل ، ويندى السواك اليابس بالماء ، ويستاك عرضا وطولا ؛ فإن اقتصر فعرضا ؛ فإذا فرغ من السواك يغسله ويجلس للوضوء ، والأولى أن يكون مستقبل القبلة ويبتدىء بيسم الله الرحمن الرحيم ويقول ﴿ رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ ويقول عند غسل اليد: اللهم إنى أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ويقول عند المضمضة : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعنى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك . ويقول عند الاستنشاق : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأوجدنى رائحة الجنة وأنت عنى راض .

ويقول عند الاستنثار اللهم صلى محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك من روائح النار وسوء الدار . ويقول عند غسل الوجه : الله صل على محمد وعلى آل محمد وبيض وجهى يوم تبيض وجوه أوليائك ، ولا تسود وجهى يوم تسود وجوه أعدائك . وعند غسل اليمين : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وآتنى كتابى بيمينى وحاسبنى حسابا يسيرا وعند غسل الشمال : اللهم أعوذ بك أن تؤتينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى، وعند مسح الرأس : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وغشنى برحمتك وأنزل على من بركاتك وأظلنى تحت ظل عرشك يوم لاظل إلا ظل عرشك ويقول عند مسح الأذنين : الله صل على محمد وعلى آل محمد واجعلنى ممن يسمع القول فيتبع أحسنه ، اللهم أسمعنى منادى الجنة مع الأبرار . ويقول فى مسح العنق : اللهم فك رقبتى من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال ويقول عند غسل قدمه اليمنى: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمى على الصراط مع أقدام المؤمنين . ويقول عند اليسرى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك أن تزل قدمى عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين[1] وإذا فرغ من الوضوء يرفع رأسه إلى السماء ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى أستغفرك وأتوب إليك فاغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم ، اللهم صل على محمد وآل محمد واجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين واجعلنى صبورا شكورا ، واجعلنى أذكرك كثيراً وأسبحك بكرة وأصيلا .

وفرائض الوضوء : النية عند غسل الوجه. وغسل الوجه ـ وحد الوجه من مبتدأ تسطح الوجه إلى منتهى الذقن وما ظهر من اللحية وما استرسل منها ، ومن الأذن إلى الأذن عرضا ، ويدخل فى الغسل البياض الذى بين الاذنين واللحية وموضع الصلع وما تحسر عنه الشعر وهما النزعتان من الرأس ، ويستحب غسلهما مع الوجه ويوصل الماء إلى شعر التحذيف وهو القدر الذى يزيله النساء من الوجه ، ويوصل الماء إلى العنفقة والشارب والحاجب والعذار ، وما عدا ذلك لا يجب، ثم اللحية إن كانت خفيفة يجب إيصال الماء إلى البشرة، وحد الخفيف أن ترى البشرى من تحته . وإن كانت كثيفة فلا يجب . ويجتهد فى تنقية مجتمع الكحل من مقدم العين الواجب الثالث . غسل اليدين إلى المرفقين ويجب إدخال المرفقين فى الغسل ويستحب غسلهما إلى أنصاف العضدين.

---

(١) ماذكره المؤلف من الأذكار عند غسل الاعضاء فى اوضوء هو خلاف الثابت عن رسول الله ﷺ إذ لم يرد عن المصطفى ﷺ فى الوضوء إلا التسمية أوله والتشهد فى آخره ، فيكفينا ما كفى النبى ﷺ وأصحابه ، فتدبر والله ولى التوفيق ، اهـ مصححه .

وإن طالت الأظافر حتى خرجت من رءوس الأصابع يجب غسل ماتحتها على الأصح. الواجب الرابع: مسح الرأس، ويكفى ما يطلق عليه اسم المسح ، واستيعاب الرأس بالمسح سنة ؛ وهو أن يلصق رأس أصابع اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدم الرأس ويمدها إلى القفا ثم يردهما إلى الموضع الذى بدأ منه ، وينصف بلل الكفين مستقبلا ومستدبرا. والواجب الخامس : غسل القدمين ، ويجب إدخال الكعبين فى الغسل ، ويستحب غسلهما إلى أنصاف الساقين ويقنع غسل القدمين من الكعبين ، ويجب تخليل الأصابع الملتفة ، فيخلل بخنصره يده اليسرى من باطن القدم ويبدأ بخنصر رجله اليمنى ويختم بخنصر اليسرى ، وإن كان فى الرجل شقوق يجب إيصال الماء إلى باطنها ، وإن ترك فيها عجينا أو شحما يجب إزالة عين ذلك الشيء . الواجب السادس : الترتيب على النسق المذكور فى كلام الله تعالى . الواجب السابع : التتابع فى القول القديم عند الشافعى رحمه الله تعالى ، وحد التفريق الذى يقطع التتابع إنشاف العضو مع اعتدال الهواء .

وسنن الوضوء ثلاثة عشر : التسمية فى أول الطهارة . وغسل اليدين إلى الكوعين . والمضمضة . والاستنشاق ، والمبالغة فيهما ، فيغرغر فى المضمضة حتى يرد الماء إلى الغلصمة ، ويستمد فى الاستنشاق الماء بالنفس إلى الخياشيم ، ويرفق فى ذلك إن كان صائما . وتخليل اللحية الكثة ، وتخليل الأصابع المنفرجة ، والبداءة بالميامن ، وإطالة الغرة ، واستيعاب الرأس بالمسح ، ومسح الأذنين ، والتثليث ، وفى القول الجديد : التتابع ، ويجتنب أن يزيد على الثلاث ولا ينفض اليد ، ولا يتكلم فى أثناء الوضوء ، ولا يلطم وجهه بالماء لطما ، وتجديد الوضوء مستحب بشرط أن يصلى بالوضوء ما تيسر ، وإلا فمكروه .

الباب الخامس والثلاثون : فى آداب أهل الخصوص والصوفية فى الوضوء

آداب الصوفية بعد القيام بمعرفة الأحكام ، أدبهم فى الوضوء حضور القلب فى غسل الأعضاء . سمعت بعض الصالحين يقول ، إذا حضر القلب فى الوضوء يحضر فى الصلاة ، وإذا دخل السهو فيه دخلت الوسوسة فى الصلاة ، ومن آدابهم ، استدامة الوضوء ، والوضوء سلاح المؤمن ، والجوارح إذا كانت فى حماية الوضوء الذى هو أثر شرعى يقل طروق الشيطان عليها . قال عدى بن حاتم ، ما أقيمت صلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء . وقال أنس بن مالك ، قدم النبى عليه الصلاة والسلام المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين ، فقال لى « يا بنى ان استطعت أن لا تزال على الطهارة فافعل ، فإنه من أتاه الموت وهو على الوضوء أعطى الشهادة » فشأن العاقل أن يكون أبدا مستعدا للموت . ومن الاستعداد لزوم الطهارة . وحكى عن الحصرى أنه قال . مهما انتبه من الليل : لا يحملنى النوم إلا بعد ما أقوم وأجدد الوضوء لئلا يعود إلى النوم وأنا على غير طهارة . وسمعت من صحب الشيخ على بن الهيتمى أنه كان يقعد الليل جميعه . فإن غلبه النوم يكون قاعدا كذلك . وكلما انتبه يقول ، لا أكون أسأت الأدب فيقوم ويجدد الوضوء ويصلى ركعتين . وروى أبو هريرة : أن رسول الله ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر « يا بلال . حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام فانى سمعت دف نعليك بين يدى فى الجنة » . قال ، ما عملت عملا فى الإسلام أرجى عندى أنى لم أتطهر طهرا فى ساعة ليل أو نهار إلا صليت لربى عز وجل بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى .

ومن أدبهم فى الطهارة : ترك الإسراف فى الماء والوقوف على حد العلم . أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبدالوهاب ابن على . عن ابو الفتح الهروى . عن ابو نصر الترياقى . عن ابو محمد الجراحى . عن ابو العباس المحبوبى . عن ابو عيسى الترمذى . عن محمد بن بشار . عن ابو داود . عن خارجة بن معصب عن يونس بن عبيد عن الحسن عن يحى بن ضمرة السعدى عن ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وساوس الماء » .

قال ابو عبد الله الروذبارى : ان الشيطان يجتهد ان يأخذ نصيبه من جميع أعمال بنى آدم . فلا يبالى أن يأخذ نصيبه بأن يزدادا فيما امروا به او ينقصوا عنه.

وحكى عن ابن الكرنبى أنه أصابته جنابة ليلة من الليالى ، وكانت عليه مرقعة ثخينة غليظة ، فجاء إلى الدجلة وكان برد شديد ، فحزنت نفسه عن الدخول فى الماء لشدة البرد ، فطرح نفسه فى الماء مع المرقعة ثم خرج من الماء وقال : عقدت أن لا أنزعها من بدنى حتى تجف على فمكثت عليه شهرا لثخانتها وغلظها : أدب بذلك نفسه لما حزنت عن الائتمار لأمر الله تعالى ، وقيل : إن سهل بن عبد الله كان يحث أصحابه على كثرة شرب الماء وقلة صبه على الارض وكان يرى أن فى الإكثار من شرب الماء ضعف النفس وإماتة الشهوات وكسر القوة .

ومن أفعال الصوفية الاحتياط فى استبقاء الماء للوضوء . قيل : كان ابراهيم الخواص إذا دخل البادية لا يحمل معه إلا ركوة من الماء وربما كان لا يشرب منها إلا القليل : يحفظ الماء للوضوء ، وقيل إنه كان يخرج من مكة إلى الكوفة ولا يحتاج إلى التيمم يحفظ الماء للوضوء ويقنع بالقليل للشرب ، وقيل : اذا رأيت الصوفى ليس معه ركوة أو كوز فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبى .

وحكى عن بعضهم أنه أدب نفسه فى الطهارة إلى حد أنه قام بين ظهرانى جماعة من النساك وهم مجتمعون فى دار فما رآه أحد منهم أنه دخل الخلاء لانه كان يقضى حاجته إذا خلا الموضع فى وقت يريد تاديب نفسه

وقيل : مات الخواص فى جامع الرى فى وسط الماء ، وذاك أنه كان به علة البطن وكلما قام دخل الماء وغسل نفسه فدخلة مرة ومات فيه . كل ذلك لحفظه على الوضوء والطهارة ، وقيل : كان ابراهيم بن أدهم به قيام ، فقام فى ليلة واحدة نيفا وسبعين مرة ، كل مرة يجدد الوضوء ويصلى ركعتين

وقيل : إن بعضهم أدب نفسة حتى لا يخرج منه الريح إلا فى وقت البراز يراعى الادب فى الخلوات

واتخاذ المنديل بعد الوضوء كرهه قوم وقالوا : إن الوضوء يوزن ، وأجازه بعضهم . ودليلهم ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين بن عبد الوهاب بن على قال أخبرنا أبو الفتح الهروى . قال أخبرنا أبو نصر عن أبو محمد قال عن أبو العباس عن أبو عيسى الترمذى عن أبو سفيان بن وكيع عن عبد الله بن وهب عن زيد بن حباب عن أبى معاذ عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت كان لرسول الله ﷺ خرقة ينشف بها أعضائه بعد الوضوء وروى معاذ بن جبل : قال : رأيت رسول الله ﷺ إذا توضأ مسح وجهه بطرف ثوبه

واستقصاء الصوفية فى تطهير البواطن من بين الصفات الرديئة والأخلاق المذمومة ، لا الاستقصاء فى طهارة الظاهر إلى حد يخرج عن حد العلم ، وتوضأ رضى الله عنه من جرة نصرانية مع كون النصارى لا يحترزون عن الخمر وأجرى الأمر على الظاهر وأصل الطهارة .

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يصلون على الأرض من غير سجادة ، ويمشون حفاة فى الطرق ، وقد كانوا لا يجعلون وقت النوم بينهم وبين التراب حائلا ، وقد كانوا يقتصرون على الحجر فى الاستنجاء فى بعض الأوقات ، وكان أمرهم فى الطهارة الظاهرة على التساهل ، واستقصاؤهم فى الطهارة الباطنة ، وهكذا شغل الصوفية ، وقد يكون فى بعض الاشخاص تشدد فى الطهارة ويكون مستند ذلك رعونة النفس ، فلو اتسخ ثوبه تحرج ، ولايبالى بما فى باطنه من الغل والحقد والكبر والعجب والرياء والنفاق ، ولعله ينكر على الشخص لو داس على الارض حافيا مع وجود رخصة الشرع ، ولا ينكر عليه أن يتكلم بكلمة غيبة يخرب بها دينه ، وكل ذلك من قلة العلم وترك التأدب بصحبة الصادقين من العلماء الراسخين ، وكانوا يكرهون كثرة الدلك فى الاستبراء ، لأنه ربما يسترخى العرق ولا يمسك البول ويتولد منه القطر المفرد .

ومن حكايات المتصوفة فى الوضوء والطهارات : إن أبا عمرو الزجاجى جاور بمكة ثلاثين سنة وكان لا يتغوط فى الحرم ويخرج إلى الحل ، وأقل ذلك فرسخ .

وقيل : كان بعضهم على وجهه قرح لم يندمل اثنتى عشرة سنة لان الماء كان يضره ، وكان مع ذلك لا يدع تجديد الوضوء عند كل فريضة .

وبعضهم نزل فى عينه الماء فحملوا إليه المداوى وبذلوا له مالا كثيرا ليداويه فقال المداوى : يحتاج إلى ترك الوضوء أياما ويكون مستلقيا على قفاه فلم يفعل ذلك ، واختار ذهاب بصره على ترك الوضوء .

الباب السادس والثلاثون : فى فضيلة الصلاة وكبر شأنها

روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ «لما خلق الله تعالى جنة عدن وخلق فيها مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال لها : تكلمى فقالت ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ ثلاثا » .

وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين ، وقال رسول الله ﷺ «أتانى جبرائيل لدلوك الشمس حين زالت وصلى بى الظهر » .

واشتقاق الصلاة قيل من الصلى وهو النار ، والخشبة المعوجة إذا أرادوا تقويمها تعرض على النار ثم تقوم ، وفى العبد اعوجاج لوجود نفسه الأمارة بالسوء ، وسبحات وجه الله الكريم التى لو كشف حجابها لأحرقت من أدركته : يصيب بها المصلى من وهج السطوة الإلهية والعظمة الربانية مايزول به اعوجاجه ، بل يتحقق به معراجه ، فالمصلى كالمصطلى بالنار ، ومن اصطلى بنار الصلاة وزال بها اعوجاجه لايعرض على نار جهنم إلا تحلة القسم .

عن الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن إسمعيل القزوينى إجازة ، عن أبو سعيد محمد بن أبى العباس بن محمد بن أبى العباس الخايلى ، عن أبو سعيد الفرخزاذى ، عن أبو إسحق أحمد بن محمد ، عن أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن ، عن أبو زكريا يحيى بن محمد العنبرى ، عن جعفر بن أحمد بن الحافظ عن أحمد بن نصير ، عن آدم بن أبى اياس عن بن سمعان عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال «يقول الله عز وجل : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فإذا قال العبد : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الله عز وجل : مجدنى عبدى ، فإذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى : حمدنى عبدى فإذا قال الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى أثنى على عبدى ، فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : فوض إلى عبدى فإذا قال : إياك نستعين ، قال : هذا بينى وبين عبدى ، فإذا قال . اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال الله تعالى : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل » .

فالصلاة صلة بين الرب والعبد وما كان صلة بينه وبين الله فحق العبد أن يكون خاشعا لصور الربوبية على العبودية . قد ورد أن الله تعالى إذا تجلى لشىء خضع له ومن يتحقق بالصلة فى الصلاة تلمع له طوالع التجلى فيخشع ، والفلاح للذين هم فى صلاتهم خاشعون ، وبانتفاء الخشوع ينتفى الفلاح . وقال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ وإذا كانت الصلاة للذكر كيف يقع فيها النسيان . قال الله تعالى ﴿ لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ﴾ فمن قال ولا يعلم مايقول كيف يصلى وقد نهاه الله عن ذلك ، فالسكران يقول الشىء لا بحضور عقل ، والغافل يصلى لابحضور عقل ، فهو كالسكران وقيل فى غرائب التفسير فى قوله تعالى ﴿ فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾ قيل : نعليك همك بامرأتك وغنمك ، فالاهتمام بغير الله تعالى سكر فى الصلاة .

وقيل : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء وينظرون يمينا وشمالا فلما نزلت ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ جعلوا وجوههم حيث يسجدون ، ومارؤى بعد ذلك أحد منهم ينظر إلا إلى الأرض وروى أبو هريرة رضى الله عنه رسول الله ﷺ قال «إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين يدى الرحمن فإذا التفت قال له الرب إلى من تلتفت ؟ إلى من هو خير لك منى ؟ ابن آدم ، أقبل إلى فأنا خير لك ممن تلتفت إليه » .

وأبصر رسول الله ﷺ رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه» . وقد قال رسول الله ﷺ «إذا صليت فصل صلاة مودع» .

فالمصلى سائر إلى الله تعالى بقلبه يودع هواه ودنياه وكل شىء سواه . والصلاة فى اللغة هى الدعاء . فكأن المصلى يدعو الله تعالى بجميع جوارحه . فصارت أعضاؤه كلها ألسنة يدعو بها ظاهرا وباطنا ويشارك الظاهر الباطن بالتضرع والتقلب والهيئات فى تملقات متضرع سائل محتاج . فإذا دعا بكليته أجابه مولاه لأنه وعده فقال ﴿ادعونى أستجب لكم﴾ وكان خالد الربعى يقول : عجبت لهذه الآية ﴿ادعونى أستجب لكم﴾ أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاجابة ليس بينهما شرط » والاستجابة والاجابة : هى نفوذ دعاء العبد ؛ فإن الداعى الصادق العالم بمن يدعوه بنور يقينه . فتخرج الحجب وتقف الدعوة بين يدى الله تعالى متقاضية للحاجة . وخص الله تعالى هذه الأمة بإنزال فاتحة الكتاب وفيها تقديم الثناء على الدعاء ، ليكون أسرع إلى الاجابة ، وهى تعليم الله تعالى عباده كيفية الدعاء وفاتحة الكتاب هى السبع المثانى والقرآن العظيم ، قيل : سميت مثانى لانها نزلت على رسول الله ﷺ مرتين : مرة بمكة ومرة بالمدينة ، وكان لرسول الله ﷺ بكل مرة تنزلت منها فهم آخر . بل كان لرسول الله ﷺ بكل مرة يقرؤها على الترداد مع طول الزمان فهم آخر ، وهكذا المصلون المحققون من أمته ينكشف لهم عجائب أسرارها ، وتقذف لهم كل مرة درر بحارها وقيل : سميت مثانى لأنها استثنيت من الرسل وهى سبع آيات .

وروت أم رومان قالت : رآنى أبو بكر وأنا أتميل فى الصلاة ، فزجرنى زجرا كدت أن أنصرف عن صلاتى ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميل تميل اليهود فإن سكون الأطراف من تمـــام الصلاة »

وقال رسول الله ﷺ « تعوذوا بالله من خشوع النفاق » قيل : وما خشوع النفاق ؟ قال « خشوع البـدن و نفاق القلب » .

أما تميل اليهود ، قيل : كان موسى يعامل بنى إسرائيل على ظاهر الأمور لقلة ما فى باطنهم ، فكان يهىء الأمور ويعظمها ، ولهذا المعنى أوحى الله تعالى اليه أن يحلى التوراة بالذهب، ووقع لى والله أعلم أن موسى كان يرد عليه الوارد فى صلاته ومحال مناجاته فيموج به باطنه كبحر ساكن تهب عليه الريح فتتلاطم الأمواج ، فكان تمايل موسى عليه السلام تلاطم أمواج بحر القلب إذا هب عليه نسمات الفضل ، وربما كانت الروح تتطلع إلى الحضرة الإلهية ، فتهم بالاستعلاء. وللقلب بها تشبك وامتزاج ، فيضطرب القالب ويتمايل، فرأى اليهود ظاهره فتمايلوا من غير حظ لبواطنهم من ذلك ، ولهذا المعنى قال رسول الله ﷺ إنكارا على أهل الوسوسة « هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بنى إسرائيل حتى شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم ، لا يقبل الله صلاة امرىء لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه ، وإن الرجل على صلاته دائم ولا يكتب له عشرها إذا كان قلبه ساهيا لاهيا » .

واعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس ، وقد قال رسول الله ﷺ « الصلاة عماد الدين ، فمن ترك الصلاة فقد كفر » فبالصلاة تحقيق العبودية وأداء حق الربوبية ، وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سر الصلاة .

قال سهل بن عبد الله : يحتاج العبد إلى السنن الرواتب لتكمل الفرائض، ويحتاج إلى النوافل لتكمل السنن، ويحتاج إلى الآداب لتكميل النوافل .

ومن الأدب : ترك الدنيا والذى ذكره سهل هو معنى ما قال عمر على المنبر : إن الرجل ليشيب عارضاه فى الاسلام وما أكمل لله صلاة . قيل : وكيف ذاك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله فيها . وقد ورد فى الأخبار إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه الكريم ،وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه ، وإن المصلى لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ، ويناديه مناد : لو علم المصلى من يناجى ما التفت » أوما انفتل

وقد جمع الله تعالى للمصلين فى كل ركعة ما فرق على أهل السموات، فلله ملائكة فى الركوع منذ خلقهم الله لا يرفعون من الركوع إلى يوم القيامة ، وهكذا فى السجود والقيام والقعود ، والعبد المتيقظ يتصف فى ركوعه بصفة الراكعين منهم ، وفى السجود بصفة الساجدين ، وفى كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم . وفى غير الفريضة ينبغى للمصلى أن يمكث فى ركوعه متلذذا بالركوع غير مهتم بالرفع منه ، فإن طرقته سآمة بحكم الجبلة استغفر منها ويستديم تلك الهيئة ويتطلع أن يذوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة ليصير قلبه بلون الهيئة ، وربما يتراءى للراكع المحق أنه إن سبق همه فى حال الركوع أو السجود إلى الرفع منه ما وفى الهيئة حقها ، فيكون همه الهيئة مستغرقا فيها مشغولا بها عن غيرها من الهيئآت فبذلك يتوفر حظه من بركة كل هيئة فإن السرعة التى يتقاضى بها الطبع تسد باب الفتوح ويقف فى مهاب النفحات الإلهية حتى يتكامل حظ العبد فتنمى آثاره بحسن الاسترسال ويستقر فى مقعد الوصال.

وقيل : فى الصلاة أربع هيآت وستة أذكار فالهيئات الأربع : القيام . والقعود ، والركوع ، والسجود والأذكار الستة : التلاوة والتسبيح والحمد والاستغفار والدعاء والصلاة على النبى ﷺ فصارت عشرة كاملة تفرق هذه العشرة على عشرة صفوف من الملائكة : كل صف عشرة آلاف فيجمع فى الركعتين ما يفرق على مائة ألف من الملائكة.

الباب السابع والثلاثون : فى وصف صلاة أهل القرب

ونذكر فى هذا الوصف كيفية الصلاة بهيآتها وشروطها وآدابها الظاهرة والباطنة على الكمال بأقصى ما انتهى إليه فهمنا وعلمنا على الوجه . مع الإعراض عن نقل الأقوال فى كل شيء من ذلك إذ فى ذلك كثرة ويخرج عن حد الاختصار والإيجاز المقصود وبالله التوفيق :

ينبغى للعبد أن يستعد للصلاة قبل دخول وقتها بالوضوء ولا يوقع الوضوء فى وقت الصلاة فذلك من المحافظة عليها ويحتاج فى معرفة الوقت إلى معرفة الزوال وتفاوت الاقدام لطول النهار وقصره ويعتبر الزوال بأن الظل ما دام فى الانتقاص فهو النصف الاول من النهار فإذا أخذ الظل فى الازدياد فهو النصف الآخر وقد زالت الشمس . وإذا عرف الزوال وأن الشمس على قدم نزول ؟ يعرف أول الوقت وآخره ووقت العصر ويحتاج إلى معرفة المنازل ليعلم طلوع الفجر ويعلم أوقات الليل . وشرح ذلك يطول ويحتاج أن يفرد له باب . فإذا دخل وقت الصلاة يقدم السنة الراتبة ففى ذلك سر وحكمة وذلك والله أعلم . أن العبد تشعث باطنه وتفرق همه لما بلى به من المخالطة من الناس وقيامه بمهام المعاش أو سهو جرى بوقع الجبلة أوصرفهم إلى أكل أو نوم بمقتضى العادة ، فإذا قدم السنة ينجذب باطنه إلى الصلاة ويتهيأ للمناجاة ويذهب بالسنة الراتبة أثر الغفلة والكدورة من الباطن فيتصلح الباطن ويصير مستعدا للفريضة . فالسنة مقدمة صالحة يستنزل بها البركات وتطرق النفحات. ثم يجدد التوبة مع الله تعالى عند الفريضة عن كل ذنب عمله . ومن الذنوب عامة وخاصة فالعامة الكبائر والصغائر مما أومأ إليه الشرع ونطق به الكتاب والسنة والخاصة : ذنوب خال الشخص ، فكل عبد على قدر صفاء حاله له ذنوب تلائم حاله ويعرفها صاحبها وقيل : حسنات الابرار سيئات المقربين ، ثم لا يصلى إلا جماعة . قال رسول الله ﷺ « تفضل صلاة الجماعة صلاة الفذ بسبع وعشرون درجة » ثم يستقبل القبلة بظاهره والحضرة الإلهية بباطنه ويقرأ ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ويقرأ فى نفسه آية التوجه وهذا التوجه قبل الصلاة والاستفتاح قبل الصلاة لوجه الظاهر بانصرافه إلى القبلة وتخصيص جهته بالتوجه دون جهة الصلاة . ثم يرفع يديه حذو منكبيه بحيث تكون كفاه حذر منكبيه وإبهاماه عند شحمة أذنيه ورءوس الأصابع مع الاذنين ويضم الاصابع وإن نشرها جاز ، والضم أولى . فإنه قيل : النشر نشر الكف لا نشر الاصابع ، ويكبر ، ولا يدخل بين باء « أكبر » وراءه ألفا ، ويجزم « أكبر » ويجعل المد فى « الله » ولا يبالغ فى

ضم الهاء من « الله » ولا يبتدىء بالتكبير إلا إذا استقرت اليدان حذو المنكبين ، ويرسلهما مع التكبير من غير نقص ، فالوقار إذا سكن القلب تشكلت به الجوارح وتأيدت بالأولى والأصوب، ويجمع بين نية الصلاة والتكبير بحيث لا يغيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصلى الصلاة بعينها .

وحكى عن الجنيد أنه قال : لكل شيء صفوة ، وصفوة الصلاة التكبيرة الأولى . وإنما كانت التكبيرة صفوة لأنها موضع النية وأول الصلاة .

قال أبو نصر السراج : سمعت ابن سالم يقول : النية بالله لله ومن الله ، والآفات التى تدخل فى صلاة العبد بعد النية من العدو ، ونصيب العدو وإن كثر لا يوازن بالنية التى هى لله بالله وإن قل .

وسئل أبو سعيد الخراز : كيف الدخول فى الصلاة ؟ فقال : هو أن تقبل على الله تعالى إقبالك عليه يوم القيامة ووقوفك بين يدى الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تناجيه وتعلم بين يدى من أنت وقف فإنه الملك العظيم .

وقيل لبعض العارفين : كيف تكبر التكبيرة الأولى ؟ فقال ، ينبغى إذا قلت الله أكبر أن يكون مصحوبك فى الله ، التعظيم مع الألف ، والهيبة مع اللام ، والمراقبة والقرب مع الهاء . واعلم أن من الناس من إذا قال « الله أكبر » غاب فى مطالعة العظمة والكبرياء ، وامتلأ باطنه نورا ، وصار الكون بأسره فى فضاء شرح صدره كخردلة بأرض فلاة ، ثم تلقى الخردلة ، فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس ! ومايتخايل فى الباطن من الكون الذى صار بمثابة الخردلة فألقيت ! فكيف تزاحم الوسوسة وحديث النفس مثل هذا العبد ؟ وقد تزاحم مطالعة العظمة والعيبوبة فى ذلك كون النية ، غير أنه لغاية لطف الحال يختص الروح بمطالعة العظمة والقلب يتميز بالنية ، فتكون بالنية موجودة بألطف صفاتها مندرجة فى نور العظمة اندراج الكواكب فى ضوء الشمس ، ثم يقبض بيد اليمنى بيده اليسرى ويجعلهما بين السرة والصدر ، واليمنى لكرامتها تجعل فوق اليسرى ، ويمد المسبحة والوسطى على الساعد، ويقبض بالثلاثة البواقى اليسرى من الطرفين ، وقد فسر أمير المؤمنين على رضى الله عنه قوله تعالى ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قال : أنه وضع اليمنى على الشمال تحت الصدر ، وذلك أن تحت الصدر عرقا يقال له الناحر . أى ضع يدك على الناحر . وقال بعضهم ﴿ وانحر ﴾ أى استقبل القبلة بنحرك ، وفى ذلك سر خفى يكاشف به من وراء أستار الغيب ، وذلك أن الله تعالى بلطيف حكمته خلق الآدمى وشرفه وكرمه وجعله محل نظره ومورد وحيه ونخبة مافى أرضه وسمائه روحانيا وجسمانيا أرضيا وسماويا ، منتصب القامة مرتفع الهيئة ، فنصفه الأعلى من حد الفؤاد مستودع أسرار السموات ، ونصفه الأسفل مستودع أسرار الأرض . فمحل نفسه ومركزها النصف الأسفل ، ومحل روحه الروحانى والقلب النصف الأعلى ، فجواذب الروح مع جواذب النفس يتطاردان ويتحاربان ، وباعتبار تطاردهما وتغالبهما تكون لمة الملك ولمة الشيطان، ووقت الصلاة يكثر التطارد. لوجود التجاذب بين الإيمان والطبع، فيكاشف المصلى الذى صار قلبه سماويا مترددا بين الفناء والبقاء لجواذب النفس متصاعدة من مركزها .

وللجوارح وتصرفها وحركتها مع معانى الباطن ارتباط وموازنة، فبوضع اليمنى على الشمال حصر النفس ومنع من صعود جواذبها ، وأثر ذلك يظهر بدفع الوسوسة وزوال حديث النفس فى الصلاة ، ثم إذا استولت جواذب الروح وتملكت من العرق إلى القدم - عند كمال الأنس وتحقق قوة العين واستيلاء سلطان المشاهدة - تصير النفس مقهورة ذليلة ، ويستنير مركزها بنور الروح ، وتنقطع حينئذ جواذب النفس ، وعلى قدر استنارة مركز النفس يزول كل العبادة ، ويستغنى حينئذ عن مقاومة النفس ومنع جواذبها بوضع اليمين على الشمال فيسبل حينئذ ، ولعل لذلك - والله أعلم - ما نقل عن رسول الله ﷺ أنه صلى مسبلا ، وهو مذهب مالك رحمه الله ، ثم يقرأ ﴿ وجهت وجهى ﴾ الآية ، وهذا التوجه إنقاء لوجه قلبه ؟ والذى قبل الصلاة لوجه قالبه ، ثم يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك أنت ربى وأنا عبدك،

ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لى ذنوبى جميعا إنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لايهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عن سيئها فإنه لايصرف عن سيئها إلا أنت لبيك وسعديك فالخير كله بيديك ، تباركت وتعاليت ، استغفرك وأتوب إليك ، ويطرق رأسه فى قيامه ويكون نظره إلى موضع السجود ، ويكمل القيام بانتصاب القامة ونزع يسير الانطواء عن الركبتين والخواصر ومعاطف البدن ، ويقف كأنه ناظر إلى بجميع جسده إلى الأرض فهذا من خشوع سائر الأجزاء ويتكون الجسد بتكون القلب من الخشوع ، ويراوح بين القدمين بمقدار أربع أصابع فان ضم الكعبين هو الصفد المنهى عنه ، ولا يرفع إحدى الرجلين فانه الصفن المنهى عنه ، نهى رسول الله ﷺ عن الصفن والصفد ، وإذا كان الصفن منهيا عنه ففى زيادة الاعتماد على إحدى الرجلين دون الأخرى معنى الصفن ، فالأولى رعاية الاعتدال فى الاعتماد الرجلين جميعا . ويكره اشتمال الصماء : وهو أن يخرج يده من قبل صدره ويجتنب السدل وهو أن يرخى أطراف الثوب إلى الأرض ، ففيه معنى الخيلاء . وقيل . هو الذى يلتف بالثوب ، ويجعل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك . وفى معناه ماإذا جعل يديه داخل القميص ويجتنب الكف : وهو أن يرفع ثيابه بيديه عند السجود ويكره الاختصار : وهو أن يجعل يده على الخصرة ويكره الصلب : وهو وضع اليدين جميعا على الخصرين وتجافى العضدين ، فاذا وقف فى الصلاة على الهيئة التى ذكرناها مجتنبا المكاره فقد تمم القيام وكمله ، فيقرأ آية التوجه والدعاء كما ذكرنا ، ثم يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويقولها فى كل ركعة أمام القراءة ، ويقرأ الفاتحة وما بعدها بحضور قلب وجمع ومواطأة بين القلب واللسان بحفظ وافر من الوصلة والدنو والهيبة والخشوع والخشية والتعظيم والوقار والمشاهدة والنجاة ، وإن قرأ بين الفاتحة وما يقرأ بعدها إذا كان إماما فى السكتة الثانية « اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، ونقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد » فحسن وإن قالها فى السكتة الأولى فحسن . وروى عن النبى ﷺ أنه قال ذلك وإن كان منفردا يقولها قبل القراءة ، ويعلم العبد أن تلاوته نطق اللسان ومعناها نطق القلب ، وكل مخاطب لشخص يتكلم بلسانه ؛ ولسانه يعبر عما فى قلبه ، ولو أمكن المتكلم إفهام من يكلمه من غير لسان فعل ، ولكن حيث تعذر الإفهام إلا بالكلام جعل اللسان ترجمانا ، فاذا قال باللسان من غير مواطأة القلب فما اللسان ترجمانا ولا القارىء متكلما قاصدا إسماع الله حاجته ولا مستمعا إلى الله فاهما عنه سبحانه ما يخاطبه ، وما عنده غير حركة اللسان بقلب غالب عن قصد ما يقول ؛ فينبغى أن يكون متكلما مناجيا أو مستمعا راعيا فأقل مراتب أهل الخصوص فى الصلاة الجمع بين القلب واللسان فى التلاوة ، ووراء ذلك أحوال للخواص يطول شرحها .

وقال بعضهم : مادخلت فى صلاة قط فأهمنى فيها غير ما أقول . وقيل لعامر بن عبد الله : هل تجد فى الصلاة شيئا من أمور الدنيا ؟ فقال لأن تختلف على الألسنة أحب إلى من أن أجد فى الصلاة ماتجدون .

وقيل لبعضهم : هل تحدث نفسك فى الصلاة بشىء من أمور الدنيا ؟ فقال : لافى الصلاة ولا فى غيرها .

ومن الناس من إذا أقبل على الله فى صلاته يتحقق بمعنى الإنابة لأن الله تعالى قدم الإنابة وقال ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ﴾ فينيب إلى الله تعالى ويتقى الله تعالى بالتبرى عما سواه ، ويقيم الصلاة بصدر منشرح بالإسلام وقلب منفتح بنور الإنعام ؛ فتخرج الكلمة من القرآن من لسانه ويسمعها بقلبه . فتقع الكلمة فى فضاء قلب ليس فيه غيرها . فيتملكها القلب بحسن الفهم ولذيذ نعمة الإصغاء ، ويتشربها بحلاوة الاجتماع وكمال الوعى ، ويدرك لطيف معناها وشريف فحواها معانى تلطف عن تفصيل الذكر وتتشكل بخفى الفكر وبصير الظاهر من معانى القرآن قوت النفس ؛ فالنفس المطمئنة متعوضة بمعانى القرآن عن حديثها لكونها معانى ظاهرة متوجهة إلى عالم الحكمة والشهادة ، تقرب مناسبتها من النفس المكونة لإقامة رسم الحكمة ومعانى القرآن الباطنة التى يكاشف بها من الملكوت قوت القلب . ويخلص الروح المقدس إلى أوائل سرادقات الجبروت بمطالعة عظمة المتكلم ، وبمثل هذه المطالعة يكون

كال الاستغراق فى لجج الأشواق ، كما نقل عن مسلم بن يسار أنه صلى ذات يوم فى مسجد البصرة ، فوقعت أسطوانة تسامع بسقوطها أهل السوق وهو واقف فى الصلاة لم يعلم بذلك .

ثم إذا أراد الركوع يفصل بين القراءة والركوع ، ثم يركع منطوى القامة والنصف الأسفل بحاله فى القيام من غير انطواء الركبتين ، ويجافى مرفقيه عن جنبيه ، ويمد عنقه مع ظهره ، ويضع راحتيه على ركبتيه منشورة الأصابع روى مصعب بن سعد قال صليت إلى جنب سعد بن مالك ، فجعلت يدى بين ركبتى وبين فخذى وطبقتهما ، فضرب بيدى وقال : اضرب بكفيك على ركبتيك وقال يا بنى إنا كنا نفعل ذلك فأمرنا أن نضرب بالأكف على الركب ، ويقول « سبحان ربى العظيم » ثلاثا وهو أدنى الكمال ، والكمال أن يقول إحدى عشرة ،وما يأتى به من العدد يكون بعد التمكن من الركوع ، ومن غير أن يمزج آخر ذلك بالرفع ، ويرفع يديه للركوع والرفع من الركوع، ويكون فى ركوعه ناظرا نحو قدميه فهو أقرب إلى الخشوع من النظر إلى موضع السجود ، وإنما ينظر إلى موضع سجوده فى قيامه ويقول بعد التسبيح «اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعى وبصرى وعظمى ومخى وعصبى » ويكون قلبه فى الركوع متصفا بمعنى الركوع من التواضع والإخبات ، ثم رفع رأسه قائلا : سمع الله لمن حمده عالما بقلبه مايقول فإذا استوى قائما يحمد ويقول « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شىء بعد » ثم يقول « أهل الثناء والمجد أحق ماقال العبد وكلنا لك عبد لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولاينفع ذا الجد منك الجد » فإن أطال فى النافلة القيام بعد الرفع من الركوع فليقل « لربى الحمد» مكررا ذلك مهما شاء . فأما الفرض فلا يطول تطويلا يزيد على الحد زيادة بينة ، ويقنع فى الرفع من الركوع بتمام الاعتدال بإقامة الصلب : ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال « لاينظر الله إلى من لايقيم صلبه بين الركوع والسجود » .

ثم يهوى ساجدا ويكون فى هويه مكبرا مستيقظا حاضرا خاشعا عالما بما يهوى فيه وإليه وله فمن الساجدين من يكاشف أنه يهوى إلى تخوم الأرضين متغيبا فى أجزاء الملك لامتلاء قلبه من الحياء واستشعار روحه عظم الكبرياء كما ورد أن جبرائيل عليه السلام تستر بخافية من جناحه حياء من الله تعالى ، ومن الساجدين من يكاشف أنه يطوى بسجوده بساط الكون والمكان ويسرح قلبه فى فضاء الكشف والعيان ، فتهوى هوية أطباق السموات وتنمحى لقوة شهوده تماثيل الكائنات ويسجد على طرف رداء العظمة وذلك أقصى ماينتهى إليه طائر الهمة البشرة وقفى بالوصول إليه القوى الإنسانية ،ويتفاوت الأنبياء والأولياء فى مراتب العظمة واستشعار كنهها فكل منهم على قدره حظ من ذلك ، وفوق كل ذى علم عليم . ومن الساجدين من يتبع وعاؤه ، وينشر ضياؤه ، ويحظى بالصنفين ويبسط الجناحين ، فيتواضع بقلبه اجلالا ، ويرفع بروحه اكراما وإفضالا ، فيجتمع له الأنس والهيبة ، والحضور والغيبة والفرار والقرار . والإسرار والجهار . فيكون فى سجوده سابحا فى بحر شهوده ،لم يتخلف منه عن السجود شعرة كما قال سيد البشر فى سجوده « سجد لك سوادى وخيالى » ﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها ﴾ الطوع للروح والقلب لما فيها من الأهلية والكره من النفس لما فيها من الأجنبية .

ويقول فى سجوده : « سبحان ربى الأعلى » ثلاثا إلى العشر الذى هو الكمال ويكون فى السجود مفتوح العينين لأنهما يسجدان . وفى الهوى يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأنفه . ويكون ناظرا نحو أرنبة أنفه فى السجود . فهو أبلغ فى الخشوع للساجد . ويباشر بكفيه المصلى . ولا يلفهما فى الثوب . ويكون رأسه بين كفيه . ويداه حذو منكبيه غير متيامن ومتياسر بهما ويقول «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت . سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين » وروى أمير المؤمنين على رضى الله عنه : ان رسول الله ﷺ كان يقول فى سجوده ذلك . « وإن قال سبوح قدوس رب الملائكة والروح » فحسن . وروى عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان يقول فى سجوده ذلك . وتجافى مرفقيه عن جبينه

ويوجه أصابعه فى السجود نحو القبلة ويضم أصابع كفيه مع الإبهام ، ولا يفرش ذراعيه على الأرض . ثم يرفع رأسه مكبرا ، ويجلس على رجله اليسرى وينصب اليمنى موجها بالأصابع إلى القبلة ، ويضع اليدين على الفخذين من غير تكلف ضمهما وتفريجهما ، ويقول : « رب اغفر لى وارحمنى واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عنى » ولا يطيل هذه الجلسة فى الفريضة ، أما فى النافلة فلا بأس مهما أطال ، قائلا : « رب اغفر وارحم » مكررا ذلك ، ثم يسجد السجدة الثانية مكبرا ، ويكره الإقعاء فى القعود ، وهو ههنا : يضع أليتيه على عقبيه .

ثم إذا أراد النهوض إلى الركعة الثانية يجلس جلسة خفيفة للاستراحة ، ويفعل فى بقية الركعات هكذا ، ثم يتشهد وفى الصلاة سر المعراج : وهو معراج القلوب ، والتشهد مقر الوصول بعد قطع مسافات الهيئات على تدريج طبقات السموات . والتحيات سلام على رب البريات ، فليذعن لما يقول : ويتأدب مع من يقول ، ويدر كيف يقول ، ويسلم على النبى ﷺ ، ويمثله بين عينى قلبه ، ويسلم على عباد الله الصالحين ؛ فلا يبقى عبد فى السماء ولا فى الأرض من عباد الله إلا ويسلم عليه بالنسبة الروحية والخاصية الفطرية ، ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى مقبوضة الأصابع إلا المسبحة ويرفع المسبحة فى الشهادة فى « إلا الله » لا فى كلمة النفى ، ولا يرفعها منتصبة بل مائلة برأسها إلى الفخذ منطوية فهذه هيئة خشوع المسبحة ودليل سراية خشوع القلب إليها .

ويدعو فى آخر صلاته لنفسه وللمؤمنين . وإن كان إماما ينبغى أن لا ينفرد بالدعاء ، بل يدعو لنفسه ولمن وراءه فإن الإمام المتيقظ فى الصلاة كحاجب دخل على سلطان ووراءه أصحاب الحوائج : يسأل لهم ويعرض حاجتهم ، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وبهذا وصفهم الله تعالى فى كلامه بقوله سبحانه ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ .

وفى وصف هذه الأمة فى الكتب السالفة : صفهم فى صلاتهم كصفهم فى قتالهم .

حدثنا بذلك شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء قال أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن عيسى بن شعيب الماليني ، عن أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد المظفر الواعظ ، عن أبو محمد عبدالله بن أحمد السرخسى ، عن أبو عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندى ، عن أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن مجاهد بن موسى ، قال حدثنا معن هو ابن عيسى : أنه سأل كعب الأخبار . كيف تجد نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ؟ قال: نجده : « محمد بن عبد الله ، يولد بمكة ويهاجر لطيبة ، ويكون ملكه بالشام ، وليس بفحاش ولاصخاب فى الأسواق ولا يكافىء بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، أمته الحمادون : يحمدون الله فى كل سراء ، ويكبرون الله على كل نجد يوضئون أطرافهم ويأتزرون فى أوساطهم ، يصفون فى صلاتهم كما يصفون فى قتالهم ، دوابهم فى مساجدهم كدوى النحل يسمع مناديهم فى جو السماء » .

فالإمام فى الصلاة مقدمة الصف فى محاربة الشيطان ، فهو أولى المصلين بالخشوع والإتيان بوظائف الأدب ظاهرا وباطنا ، والمصلون المتيقظون كلما اجتمعت ظواهرهم تجتمع بواطنهم وتتناصر وتتعاضد ، وتسرى من البعض إلى البعض أنوار وبركات ، بل جميع المسلمين المصلين فى أقطار الأرض بينهم تعاضد وتناصر بحسب القلوب ونسب الإسلام ورابطة الإيمان ، بل يمدهم الله تعالى بالملائكة الكرام كما أمد رسول الله ﷺ بالملائكة المسومين ، فحاجاتهم إلى محاربة الشيطان أمس من حاجاتهم إلى محاربة الكفار ، ولهذا كان يقول رسول الله ﷺ « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » فتتداركهم الأملاك ، بل بأنفاسهم الصادقة تتماسك الأفلاك .

فإذا أراد الخروج من الصلاة يسلم على يمينه ، وينوى مع التسليم الخروج من الصلاة والسلام على الملائكة والحاضرين من المؤمنين ومؤمنى الجن ، ويجعل خده مبينا لمن على يمينه بإلواء عنقه ، ويفصل بين هذا السلام والسلام عن يساره ، فقد ورد النهى عن المواصلة ، والمواصلة ، خمس : اثنتان تختص بالإمام ؛ هو أن لا يوصل القراءة بالتكبير ، والركوع بالقراءة . واثنتان على المأموم : وهو أن لا يوصل تكبيرة الإحرام بتكبيرة الإمام ، ولا تسليمه بتسليمه . وواحدة على الإمام والمأمومين : وهو أن لا يوصل تسليم الفرض بتسليم النفل . ويجزم التسليم ولا يمده مدا ، ثم يدعو بعد التسليم بما

يشاء من أمر دينه ودنياه ، يدعو قبل التسليم أيضا فى صلب الصلاة فإنه يستجاب . ومن أقام الصلوات الخمس فى جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة . وكل المقامات والأحوال زبدتها الصلوات الخمس فى جماعة ، وهى سر الدين، وكفارة المؤمن وتمحيص للخطايا : على ما أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله إجازة ، قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون عن أبو الحسن بن على الجوهرى إجازة ، عن أبو عمر محمد بن العباس ابن زكريا ، قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد ، عن الحسين المروزى ، عن عبد الله بن المبارك عن يحيى بن عبد الله ، قال سمعت أبى يقول : سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ « الصلوات الخمس كفارات للخطايا ، واقرءوا إن شئتم ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ » .

الباب الثامن والثلاثون: فى آداب الصلاة وأسرارها

أحسن آداب المصلى : أن لا يكون مشغول القلب بشىء قل أو كثر ، لأن الأكياس لم يرفضوا الدنيا إلا ليقيموا الصلاة كما أمروا ، لأن الدنيا وأشغالها لما كانت شاغلة للقلب رفضوها غيرة على محل المناجاة ، ورغبة فى أوطان القربات وإذعانا بالباطن لرب البريات ، لأن حضور الظاهر إذعان الظاهر . وفراغ القلب فى الصلاة عما سوى الله تعالى إذعان الباطن : فلم يروا حضور الظاهر وتخلف الباطن حتى لا يختل إذعانهم فتنخرم عبوديتهم ، فيجتنب أن يكون باطنه مرتهنا بشىء ويدخل الصلاة .

وقيل : من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة ، ولهذا ورد « إذا حضر العشاء والعشاء فقدموا العشاء على العشاء » ولا يصلى وهو حاقن يطالبه البول ، ولا حازق يطالبه الغائط . والحزق أيضا : ضيق الخف ، ولا يصلى أيضا وخفه ضيق يشغل قلبه ، فقد قيل : لا رأى لحازق ، قيل : الذى يكون معه ضيق . وفى الجملة ليس من الادب أن يصلى وعنده ما تغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الاشياء التى ذكرناها والاهتمام المفرط ، والغضب . وفى الخبر « لا يدخل أحدكم فى الصلاة وهو مقطب . ولا يصلين أحدكم وهو غضبان » فلا ينبغى للعبد أن يتلبس بالصلاة إلا وهو على أتم الهيات .

وأحسن لبسة المصلى سكون الاطراف وعدم الالتفات والإطراق ووضع اليمين على الشمال، فأحسنها من هيئة عبد ذليل واقف بين يدى ملك عزيز . وفى رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز ، وأرباب العزيمة يتركون الحركة فى الصلاة جملة . وقد حركت يدى فى السلام وعندى شخص من الصالحين فلما انصرفت من الصلاة أنكر على وقال : عندنا أن العبد إذا وقف فى الصلاة ينبغى أن يبقى جمادا مجمدا لا يتحرك منه شىء . وقد جاء فى الخبر « سبعة أشياء فى الصلاة من الشيطان : الرعاف ، والنعاس ، والوسوسة ، والتثاؤب ، والحكاك ، والالتفات» والعبث بالشىء من الشيطان أيضا . وقيل : السهو والشك .

وقد روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن الخشوع فى الصلاة : أن لا يعرف المصلى من على يمينه وشماله .

ونقل عن سفيان أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته . وروى عن معاذ بن جبل أشد من ذلك قال : من عرف من عن يمينه وشماله فى الصلاة متعمدا فلا صلاة له .

وقال بعض العلماء : من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساط فى صلاته فصلاته باطلة، قال بعضهم: لان ذلك عدوه عملا .

وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ والذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ قيل : هو سكون الاطراف والطمأنينة .

قال بعضهم : إذا كبرت التكبيرة الاولى فاعلم أن الله ناظر إلى شخصك عالم بما فى ضميرك ، ومثل فى صلاتك الجنة عن يمينك والنار عن شمالك ، وإنما ذكرنا أن تمثل الجنة والنار لان القلب إذا شغل بذكر الآخرة ينقطع عنه الوسواس فيكون هذا التمثيل تداويا للقلب لدفع الوسوسة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى عن عمر بن أحمد الصفار عن أبو بكر بن خلف عن أبو عبد الرحمن عن أبا الحسين الفارسى عن محمد بن الحسين قال : قال سهل ، من خلا قلبه من ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان ، فأما من باشر باطنه صفو اليقين و نور المعرفة فيستغنى بشاهده عن تمثيل مشاهدة . قال أبو سعيد الخراز : إذا ركع فالأدب فى ركوعه أن ينتصب ويدنو ويتدلى فى ركوعه ، حتى لا يبقى منه مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش العظيم ، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون فى قلبه شىء أعظم من الله ، ويصغر فى نفسه حتى يكون أقل من الهباء وإذا رفع رأسه وحمد الله تعالى يعلم أنه سبحانه و تعالى يسمع ذلك ، وقال أيضاً : ويكون معه من الخشية ما يكاد يذوب به .

قال السراج : إذا أخذ العبد فى التلاوة فالادب فى ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى ، أو كأنه يقرأ على الله تعالى . وقال أيضاً : من أدبهم قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض ونفى كل شىء غير الله تعالى ، فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة ، فيكون مع النفس والعقل الذين دخلوا فى الصلاة بهما ، فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب ، فهم أبداً فى الصلاة ، فهذا هو أدب الصلاة .

وقيل : كان بعضهم لا يتهيأ له حفظ العدد من كمال استغراقه ، وكان يجلس واحد من أصحابه يعد عليه كم ركعة صلى . وقيل . للصلاة أربع شعب : القالب فى المحراب ، وشهود العقل عند الملك الوهاب ، وخشوع القلب بلا الارتياب ، وخضوع الأركان بلا ارتقاب ، لأن عند حضور القلب رفع الحجاب ، وعند شهود العقل رفع العتاب ، وعند حضور النفس فتح الأبواب ، وعند خضوع الأركان حصول الثواب . فمن أتى الصلاة بلا حضور قلب فهو مصل لاه ، ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مصل ساه ، ومن أتاها بلا خضوع النفس فهو مصل خاطىء ، ومن أتاها بلا خشوع الأركان فهو مصل جاف ، ومن أتاها كما وصف فهو مصل واف .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ « إذا قام العبد إلى الصلاة المكتوبة مقبلا على الله بقلبه وسمعه وبصره انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإن الله ليغفر بغسل الوجه خطيئة أصابها ، وبغسل رجليه خطيئة أصابها ، حتى يدخل فى صلاته وليس عليه وزر » .

وذكرت السرقة عند رسول الله ﷺ فقال « أى السرقة أقبح ؟ » فقالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال « إن أقبح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته » قالوا : كيف يسرق الرجل من صلاته ؟ قال « لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها ولا القراءة فيها » . وروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قدم للامامة فقال لا أصلح ، فلما ألحوا عليه كبر فغشى عليه فقدموا إماما آخر ، فلما أفاق سئل فقال : لما قلت استووا هتف بى هاتف : هل استويت أنت مع الله قط .

وقال عليه السلام « إن العبد إذا أحسن الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت : حفظك الله كما حفظتنى ثم صعدت ولها نور حتى تنتهى إلى السماء حتى تنتهى إلى الله فتشفع لصاحبها ، وإذا أضاعها قالت : ضيعك الله كما ضيعتنى ، ثم صعدت ولها ظلمة حتى تنتهى إلى أبواب السماء فتغلق دونها ، ثم تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها » .

وقال أبو سليمان الدارانى : إذا وقف العبد فى الصلاة يقول الله تعالى : ارفعوا الحجب فيما بينى وبين عبدى ، فإذا التفت يقول الله : أرخوها فيما بينى وبينه ، وخلوا عبدى ، وما اختار لنفسه .

وقال أبو بكر الوراق : ربما أصلى ركعتين فأنصرف منهما وأنا أستحى من الله حياء رجل انصرف من الزنا قوله هذا لعظيم الأدب عنده ، ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حظه من القرب .

وقيل لموسى بن جعفر : إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بمرهم بين يديك، قال : إن الذى أصلى له أقرب إلى من الذى يمشى بين يدى . وقيل . كان زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لا يعرف من تغير لونه ، فيقال له فى ذلك فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقف ؟

وروى عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما يعقل ، وقد ورد فى لفظ آخر « منكم من يصلى الصلاة كاملة ، ومنكم من يصلى النصف والربع والخمس حتى يبلغ العشر » .

قال الخواص : ينبغى للرجل أن ينوى نوافله لنقصان فرائضه ، فإن لم ينوها لم يحسب له منها شىء ، بلغنا أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة . يقول الله سبحانه : مثلكم كمثل العبد السوء بدأ بالهدية قبل قضاء الدين. وقال أيضاً : انقطع الخلق عن الله تعالى بخصلتين ، إحداهما أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض ، والثانية أنهم عملوا أعمالا بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها ، وأبى الله تعالى أن يقبل من عامل عملا إلا بالصدق وإصابة الحق ، وفتح العين فى الصلاة أولى من تغميضها إلا أن يتشتت همه بتفريق النظر فيغمض العين للاستعانة على الخشوع ، وإن تثاءب فى الصلاة يضم شفتيه بقدر الإمكان ولا يلزق ذقنه بصدره ، ولا يزاحم فى الصلاة غيره ، قيل : ذهب المزحوم بصلاة المزاحم ، وقيل : من يترك الصف الأول مخافة أن يضيق على أهله فقام فى الثانى أعطاه الله مثل ثواب الصف الأول من غير أن ينقص من أجورهم شىء .

وقيل : إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل .

وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يسمع من صدره أزيز مثل أزيز المرجل حتى كان يسمع فى بعض سكك المدينة .

وسئل الجنيد : ما فريضة الصلاة ؟ قال : قطع العلائق ، وجمع الهم ، والحضور بين يدى الله وقال الحسن : ماذا يعز عليك من أمر دينك إذا هانت عليك صلاتك ؟

وقيل : أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء فقال : إذا دخلت الصلاة فهب لى من قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع ، فإنى قريب .

وقال أبو الخير الأقطع : رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقلت : يارسول الله أوصنى ، فقال « يا أبا الخير عليك بالصلاة فإنى استوصيت ربى، فأوصانى بالصلاة وقال لى: إنى أقرب ما أكون منك وأنت تصلى » وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ركعتان فى تفكر خير من قيام ليلة . وقيل : إن محمد بن يوسف الفرغانى رأى حاتما الأصم واقفا يعظ الناس فقال له : ياحاتم ، أراك تعظ الناس ، أفتحسن أن تصلى ؟ قال : نعم . قال : كيف تصلى؟ قال: أقوم بالأمر وأمشى بالخشية ، وأدخل بالهيبة ، وأكبر بالعظمة ، واقرأ بالترتيل ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع وأقعد للتشهد بالتمام ، وأسلم على السنة ، وأسلمها إلى ربى ، وأحفظها أيام حياتى ، وأرجع باللوم على نفسى ، وأخاف أن لا تقبل منى ، وأرجو أن تقبل منى وأنا بين الخوف والرجاء ، وأشكر من علمنى ، وأعلمها من سألنى ، وأحمد ربى إذا هدانى ، فقال محمد بن يوسف : مثلك يصلح أن يكون واعظا ، وقوله تعالى ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ قيل : من حب الدنيا ، وقيل : من الاهتمام ، وقال عليه السلام « من صلى ركعتين ولم يحدث نفسه بشىء من الدنيا غفر الله له ما تقدم من ذنبه » وقال أيضا « إن الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتنادم وترفع يديك وتقول : اللهم اللهم فمن لا يفعل ذلك فهى خداج » أى ناقصة .

وقد ورد أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعد عنه الشيطان فى أقطار الأرض خوفا منه لأنه تأهب للدخول على الملك فإذا كبر حجب عنه إبليس ، قيل : يضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه ، وواجهه الجبار بوجهه ، فإذا قال « الله أكبر » اطلع الملك فى قلبه فإذا لم يكن فى قلبه أكبر من الله تعالى يقول : صدقت ، الله فى قلبك كما تقول ، وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش ، ويكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض ، ويكتب له حشو ذلك

النور حسنات ، إن الجاهل الغافل إذا قام إلى الصلاة احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب على نقطة العسل ؛ فإذا كبر اطلع الله على قلبه ، فإذا كان شيء فى قلبه أكبر من الله تعالى عنده يقول له : كذبت ، ليس الله تعالى أكبر فى قلبك كما تقول ، فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء ، فيكون حجابا لقلبه عن الملكوت ، فيزداد ذلك الحجاب صلابة ، ويلتقم الشيطان قلبه ، فلايزال ينفخ فيه وينفث ويوسوس إليه ويزين حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه .

وفى الخبر « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » والقلوب الصافية التى كمل أدبها لكمال أدب قوالبها تصير سماوية تدخل بالتكبير فى السماء كما تدخل فى الصلاة ،والله تعالى حرس السماء من تصرف الشياطين ،فالقلب السماوى لاسبيل للشيطان إليه ،فتبقى هواجس نفسانية عند ذلك لاتنقطع بالتحصن بالسماء كانقطاع تصرف الشيطان والقلوب المرادة بالقرب تدرج بالتقريب ، وتعرج فى طبقات السموات ،وفى كل طبقة من أطباق السماء يتخلف شيء من ظلمة النفس ، وبقدر ذلك يقل الهاجس إلى أن يتجاوز السموات ويقف أمام العرش فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش ، وتندرج ظلمات النفس فى نور القلب اندراج الليل فى النهار،وتتأدى حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب .

وما ذكرناه من أدب الصلاة يسير من كثير وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكمل من ذكرنا ،وقدغلط أقوام وظنوا أن المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى ،وإذا حصل الذكر فأى حاجة إلى الصلاة ،وسلكوا طرقا من الضلال، وركنوا إلى أباطيل الخيال ،ومحوا الرسوم والأحكام،ورفضوا الحلال والحرام.وقوم آخرون سلكوا فى ذلك طريقا أدبهم إلى نقصان الحال ،حيث سلموا من الضلال،لأنهم اعترفوا بالفرائض وأنكروا فضل النوافل، واغتروا بيسير رواج الحال ، وأهملوا فضل الأعمال ، ولم يعلموا أن لله فى كل هيئة من الهيئات وكل حركة من الحركات أسرارا وحكما لاتوجد فى شيء من الأذكار ، فالأحوال والأعمال روح وجسمان ، وما دام العبد فى دار الدنيا إعراضه عن الأعمال عين الطغيان فالأعمال تزكو بالأحوال ،والأحوال تنموا بالأعمال .

الباب التاسع والثلاثون : فى فضل الصوم وحسن أثره

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « الصبر نصف الإيمان والصوم نصف الصبر » وقيل : مافى عمل ابن آدم شيء إلا ويذهب برد المظالم إلا الصوم فإنه لايدخله قصاص. ويقول الله تعالى يوم القيامة: هذا لى فلا ينقص أحدمنه شيئا .وفى الخبر: «الصوم لى وأنا أجزى به» قيل :أضافه إلى نفسه،لأن فيه خلقا من أخلاق الصمدية، وأيضا لأنه من أعمال الشر من قبيل التروك لا يطلع عليه أحد إلا الله . وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ السائحون ﴾ الصائمون ، لأنهم ساحوا إلى الله تعالى بجوعهم وعطشهم ،وقيل فى قوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ هم الصائمون، لأن الصبر اسم من أسماء الصوم ويفرغ للصائم إفراغا ويجازف له مجازفة ،وقيل:أحد الوجوه فى قوله تعالى﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ كان عملهم الصوم .

وقال يحيى بن معاذ:إذا ابتلى المرء بكثرة الأكل بكت عليه الملائكة رحمة له ،ومن ابتلى بحرص الأكل فقد أحرق بنار الشهوة،وفى نفس بن آدم ألف عضو من الشر كلها فى كف الشيطان متعلق بها ،فاذا جوع بطنه وأخذ حلقه وراض نفسه يبس كل عضو واحترق بنار الجوع وفر الشيطان من ظله ، وإذا أشبع بطنه وترك حلقه فى لذائذ الشهوات فقد رطب أعضاءه وأمكن الشيطان،والشبع نهر فى النفس ترده الشياطين ،والجوع نهر فى الروح ترده الملائكة وينهزم الشيطان من جائع نائم، فكيف إذا كان قائما ، ويعانق الشيطان شبعانا قائما فكيف إذا كان نائما ، فقلب المريد الصادق يصرخ إلى الله تعالى من طلب النفس الطعام والشراب .

دخل رجل إلى الطيالسى وهو يأكل خبزا يابسا قد بله بالماء مع ملح جريش، فقال له: كيف تشتهى هذا ؟ قال:

أدعه حتى أشتهيه ، وقيل : من أسرف فى مطعمه ومشربه يعجل الصغار والذل إليه فى دنياه قبل آخرته، وقال بعضهم الباب العظيم الذى يدخل منه إلى الله تعالى قطع الغذاء ، وقال : بشر إن الجوع يصفى الفؤاد ويميت الهوى ويورث العلم الدقيق ، وقال ذوالنون : ما أكلت حتى شبعت ، ولا شربت حتى رويت إلاعصيت الله أوهممت بمعصية، وروى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان يأتى علينا الشهر ونصف شهر ما تدخل بيتنا نار لا لمصباح ولا لغيره، قال : قلت سبحان الله ؛ فبأى شيء كنتم تعيشون ؟ قالت: بالتمر والماء ، وكان لنا جيران من الأنصار جزاهم الله خيرا كانت لهم منائح ، فربما واسونا بشيء ، وروى أن حفصة بنت عمر رضى الله عنهما قالت لأبيها : إن الله قد أوسع الرزق فلو أكلت طعاما أكثر من طعامك ولبست ثيابا ألين من ثيابك ؟ فقال : إنى أخاصمك إلى نفسك ؛ ألم يكن من أمر رسول الله ﷺ كذا ؟ يقول مرارا ، فبكت ، فقال ؛ قد أخبرتك والله لأشاركنه فى عيشه الشديد لعلى أصيب عيشه الرخاء .

وقال بعضهم : ما نخلت لعمر دقيقا إلا وأنا له عاص .

وقالت عائشة رضى الله عنها : ماشبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام من خبز بر حتى مضى لسبيله .

وقالت عائشة رضى الله عنها : أديموا قرع باب الملكوت يفتح لكم ، قالوا : كيف نديم ؟ قالت: بالجوع والعطش والظمأ

وقيل : ظهر إبليس ليحيى بن زكريا عليهما السلام وعليه معاليق ، فقال : ما هذه ؟ قال : الشهوات التى أصيب بها ابن آدم ، قال : هل تجد لى فيها شهوة ؟ قال : لا ، غير أنك شبعت ليلة فثقلناك عن الصلاة والذكر ، فقال: لاجرم إنى لا أشبع أبدا ، قال إبليس : لاجرم إنى لا أنصح أحدا أبدا .

وقال شقيق : العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلاتها الجوع .

وقال لقمان لابنه : إذا ملئت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقال الحسن : لاتجمعوا بين الأدمين فإنه من طعام المنافقين . وقال بعضهم : أعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته ألوان الأغذية .

فيكره للمريد أن يوالى فى الإفطار أكثر من أربعة أيام فان النفس عند ذلك تركن إلى العادة وتتسع بالشهوة .

وقيل : الدنيا بطنك وزهدك فى بطنك زهدك فى الدنيا .

وقال عليه السلام « ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان لامحالة فثلث الطعام وثلث لشرابه وثلث لنفسه » .

وقال فتح الموصلى : صحبت ثلاثين شيخا كل يوصينى عند مفارقتى إياه بترك عشرة الأحداث وقلة الأكل .

الباب الأربعون : فى اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار

جمع من المشايخ الصوفية كانوا يديمون الصوم فى السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى .

وكان عبد الله بن جابار قد صام نيفا وخمسين سنة لا يفطر فى السفر والحضر ، فجهد به أصحابه يوما فأفطر ، فاعتل من ذلك أياما . فاذا رأى المريد صلاح قلبه فى دوام الصوم فليصم دائما ويدع الافطار جانبا، فهو عون حسن له على ما يريد .

روى أبو موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « من صام الدهر ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين » أى لم يكن له فيها موضع .

وكره قوم صوم الدهر، وقد ورد فى ذلك مارواه أبو قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ. كيف بمن صام الدهر؟ قال « لا صام ولا أفطر » وأول قوم أن صوم الدهر ، هو أن لا يفطر العيدين وأيام التشريق فهو الذى يكره ، وإذا أفطر هذه الأيام فليس هو الصوم الذى كرهه رسول الله ﷺ .

ومنهم من كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وقد ورد « أفضل الصيام صوم أخي داود عليه السلام كان يصوم يوما ويفطر يوما » واستحسن ذلك قوم من الصالحين ليكون بين حال الصبر وحال الشكر .

ومنهم من كان يصوم يوما ويفطر يوما أو يصوم يوما ويفطر يومين .

ومنهم من كان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة . وقيل : كان سهل بن عبد الله يأكل فى كل خمسة عشر يوما مرة وفى رمضان يأكل أكلة واحدة ، وكان يفطر بالماء القراح للسنة .

وحكى عن الجنيد أنه كان يصوم على الدوام ، فإذا دخل عليه إخوانه أفطر معهم ويقول : ليس فضل المساعدة مع الإخوان بأقل من فضل الصوم ، غير أن هذا الإفطار يحتاج إلى علم ، فقد يكون الداعى إلى ذلك شره النفس لا نية الموافقة ، وتخليص النية لمحض الموافقة مع وجود شره النفس صعب . وسمعت شيخنا يقول : لى سنين ما أكلت شيئا بشهوة نفس ابتداء واستدعاء ، بل يقدم إلى الشيء فأراه من فضل الله ونعمته وفعله فأوافق الحق فى فعله . وذكر أنه فى ذات يوم اشتهى الطعام ولم يحضر من عادته تقديم الطعام إليه ، قال : ففتحت باب البيت الذى فيه الطعام وأخذت رمانة لآكلها ، فدخلت السنور وأخذت دجاجة كانت هناك ، فقلت : هذا عقوبة لى على تصرفى فى أخذ الرمانة .

ورأيت الشيخ أبا السعود رحمه الله يتناول الطعام فى اليوم مرات ، أى وقت أحضر الطعام أكل منه . ويرى أن تناوله للطعام موافقة الحق . لأن حاله مع الله كان ترك الاختيار فى مأكوله وملبوسه وجميع تصاريفه ، وكان حاله ولا يتصرف مع فعل الحق ، وقد كان له فى ذلك بداية يعز مثلها ، حتى نقل أنه كان يبقى أياما لا يأكل ولا يعلم أحد بحاله ولا يتصرف هو لنفسه ولا يتسبب إلى تناول شيء وينتظر فعل الحق لسياقه الرزق إليه ، ولم يشعر أحد بحاله مدة من الزمان . ثم إن الله تعالى أظهر حاله وأقام له الأصحاب والتلامذة ، وكانوا يتكلفون الأطعمة ويأتون بها إليه وهو يرى فى ذلك فضل الحق والموافقة . سمعته يقول : أصبح كل يوم وأحب ما إلى الصوم ، وينقض الحق على محبتى الصوم بفعله ، فأوافق الحق فى فعله .

وحكى عن بعض الصادقين من أهل واسط أنه صام سنين كثيرة ، وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس إلا فى رمضان.
وقال أبو نصر السراج : أنكر قوم هذه المخالفة وإن كان الصوم تطوعا ، واستحسنه آخرون لأن صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالجوع وأن لا يتمتع برؤية الصوم ، ووقع لى أن هذا إن قصد أن لا يتمتع برؤية الصوم ، فقد تمتع برؤية عدم التمتع برؤية الصوم ، وهذا يتسلسل ، والأليق بموافقة العلم إمضاء الصوم . قال الله تعالى ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ ولكن أهل الصدق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون . والصدق محمود لعينه كيف كان ، والصادق فى خفارة صدقه كيف تقلب . وقال بعضهم . إذا رأيت الصوفى يصوم صوم التطوع فاتهمه فإنه قد اجتمع معه شيء من الدنيا .

وقيل : إذا كان جماعة متوافقين أشكالا وفيهم مريد يحثونه على الصيام فإن لم يساعدوه يهتموا لافطاره ويتكلفوا له رفقا به ولا يحملوا حاله على حالهم ، وإن كانوا جماعة مع شيخ يصومون لصومه ويفطرون لافطاره إلا من يأمره الشيخ بغير ذلك .

وقيل : إن بعضهم صام سنين بسبب شاب كان يصحبه حتى ينظر الشاب إليه فيتأدب به ويصوم بصيامه .

وحكى عن أبى الحسن المكى أنه كان يصوم الدهر وكان مقيما بالبصرة ، وكان لا يأكل الخبز إلا ليلة الجمعة ، وكان قوته فى كل شهر أربع دوانيق يعمل بيده حبال الليف ويبيعها . وكان الشيخ أبو الحسن بن سالم يقول : لا أسلم عليه إلا أن يفطر ويأكل . وكان ابن سالم اتهمه بشهوة خفية له فى ذلك لأنه كان مشهورا بين الناس .

وقال بعضهم : ما أخلص لله عبد قط إلا أحب أن يكون فى جب لا يعرف . ومن أكل فضلا من الطعام أخرج فضلا من الكلام ، وقيل : أقام أبو الحسن التنيسى بالحرم مع أصحابه سبعة أيام لم يأكلوا ، فخرج بعض أصحابه ليتطهر فرأى قشر بطيخ ، فأخذه وأكله ، فرآه إنسان فاتبع أثره وجاء برفق فوضعه بين يدى القوم ، فقال الشيخ : من جنى منكم هذه الجناية ؟ فقال الرجل : أنا وجدت قشر بطيخ فأكلته فقال كن أنت مع جنايتك ورفقك ، فقال أنا تائب من جنايتى .

فقال : لا كلام بعد التوبة ، وكانوا يستحبون صيام أيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر روى أن آدم عليه السلام لما أهبط الى الأرض اسود جسده من أثر المعصية ، فلما تاب الله عليه أمره أن يصوم أيام البيض ، فابيض ثلث جسده بكل يوم صامه حتى أبيض جميع جسده بصيام أيام أيام البيض .

ويستحبون صوم النصف الأول من شعبان وافطار نصفه الأخير ، وان واصل بين شعبان ورمضان فلا باس به ، ولكن ان لم يكن صام فلا يستقبل رمضان بيوم أو بيومين .

وكان كره بعضهم أن يصام رجب جميعه كراهة المضاهاة برمضان ويستحب صوم العشر من ذى الحجة والعشر من المحرم ، ويستحب الخميس والجمعة والسبت أن يصام من الأشهر الحرم ورد فى الخبر « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام : الخميس ، والجمعة ، والسبت بعد من النار سبعمائة عام » .

الباب الحادى والأربعون : فى آداب الصوم ومهامه

آداب الصوفية فى الصوم : ضبط الظاهر والباطن وكف الجوارح عن الآثام ، كمنع النفس عن الطعام ، ثم كف النفس عن الاهتمام بالأقسام .

سمعت أن بعض الصالحين بالعراق كان طريقه وطريق أصحابه أنهم كانوا يصومون ، وكلما فتح عليهم قبل وقت الافطار يخرجونه ، ولا يفطرون الا على مافتح وقت الافطار .

وليس من الأدب أن يمسك المريد عن المباح ويفطر بحرام الآثام .

قال أبو الدرداء : ياحبذا نوم الأكياس وفطرهم ، كيف يعيبون قيام الحمقى وصيامهم ! ولذرة من ذى يقين وتقوى أفضل من أمثال الجبال من أعمال المغترين .

ومن فضيلة الصوم وأدبه : أن يقلل الطعام عن الحد الذى يأكله وهو مفطر ، والا فإذا جمع الأكلات بأكلة واحدة فقد أدرك بها ما فوت ، ومقصود القوم من الصوم قهر النفس ومنعها عن الاتساع ، وأخذهم من الطعام قدر الضرورة لعلمهم أن الاقتصار على الضرورة يجذب النفس من سائر الأفعال والأقوال إلى الضرورة ، والنفس من طبعها، أنها إذا قهرت لله تعالى فى شىء واحد على الضرورة تأدى ذلك إلى سائر أحوالها ، فيصير بالأكل النوم ضرورة ، والقول والفعل ضرورة ، وهذا باب كبير من أبواب الخير لأهل الله تعالى رعايته وافتقاده ولا يخص بعلم الضرورة وفائدتها وطلبها ، الا عبدا يريد الله تعالى أن يقربه ويدنيه ويصطفيه ويربيه ، ويمتنع فى صومه من ملاعبة الأهل والملامسة فإن ذلك أنزه للصوم .

ويتسحر استعمالا للسنة ، وهو أدعى الى امضاء الصوم لمعنيين ، أحدهما : عود بركة السنة عليه والثانى : التقوية بالطعام على الصيام : وروى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال « تسحروا فان فى السحور بركة »

ويعجل الفطر عملا بالسنة فان لم يرد تناول الطعام الا بعد العشاء ويريد احياء ما بين العشاءين يفطر بالماء أو على أعداد من الزبيب أو التمر ويأكل لقيمات ان كانت النفس تنازع . ليصفو له الوقت بين العشاءين ؛ فاحياء ذلك له فضل كثير ؛ والا فيقتصر على الماء لأجل السنة !

عن الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على ، وأبو الفتح الهروى ، عن أبو نصر التريافى ، عن أبو محمد الجراحى عن أبو العباس المحبوبى ، عن أبو عيسى الترمذى ، عن إسحق بن موسى الأنصارى قال حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعى عن قرة عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ حكاية عن ربه « قال الله عزوجل ، أحب عبادى إلى أعجلهم فطرا » وقال عليه السلام « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » والإفطار قبل الصلاة سنة ، كان رسول الله ﷺ يفطر على جرعة من ماء أو مذقة من لبن أو تمرات وفى الخبر « كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش » قيل :

هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على الحرام ، وقيل هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالغيبة ، وقال سفيان من اغتاب فسد صومه ، وعن مجاهد : خصلتان تفسدان الصوم : الغيبة والكذب . قال الشيخ أبوطالب المكى : قرن الله الاستماع إلى الباطل . والقول بالإثم بأكل الحرام فقال ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾

وورد فى الخبر « أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تهلكا ، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ تستأذنانه فى الإفطار ، فأرسل إليهما قدحا وقال : « قولوا لهما قيئا فيه ما أكلتما » فقاءت إحداهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا ، وقاءت الاخرى مثل ذلك حتى ملأتاه ، فعجب الناس من ذلك ، فقال رسول ﷺ « هاتان صامتا عن ما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما » وقال عليه الصلاة والسلام « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه فليقل إنى صائم» وفى الخبر « إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته » والصوفى الذى لا يرجع إلى معلوم ولا يدرى متى يساق إليه الرزق ، فإذا ساق الله إليه الرزق تناوله بالأدب وهو دائم المراقبة لوقته ، وهو فى إفطاره أفضل من الذى له معلوم معد ، فإن كان مع ذلك يصوم فقد أكمل الفضل».

حكى عن رويم قال اجتزت فى الهاجرة ببعض سكك بغداد ، فعطشت فتقدمت إلى باب دار فاستسقيت ، فإذا جارية قد خرجت ومعها كوز جديد ملآن من الماء المبرد . فلما أردت أن أتناول من يدها قالت : صوفى ، ويشرب بالنهار ، وضربت بالكوز على الارض وانصرفت ، قال رويم : فاستحييت من ذلك ونذرت أن لا أفطر أبدا .

والجماعة الذين كرهوا دوام الصوم كرهوه لمكان أن النفس إذا ألفت الصوم وتعودته اشتد عليها الإفطار ، وهكذا بتعودها الإفطار تكره الصوم ، فيرون الفضل فى أن لا تركن النفس إلى عادة . ورأوا أن إفطار يوم وصوم يوم أشد على النفس

ومن أدب الفقراء : أن الواحد إذا كان بين جمع وفى صحبة جماعة لا يصوم إلا باذنهم ، وإنما كان ذلك لأن قلوب الجمع متعلقه بفطوره وهم على غير معلوم فان صام بإذن الجمع وفتح عليهم بشيء لا يلزمهم ادخار للصائم مع العلم بأن الجمع المفطرين يحتاجون إلى ذلك ، فان الله تعالى يأتى للصائم برزقه إلا أن يكون الصائم يحتاج إلى الرفق لضعف حاله أو ضعف بنيته لشيخوخة أو غير ذلك ، وهكذا الصائم لايليق أن يأخذ نصيبه فيدخره ، لأن ذلك من ضعف الحال فان كان ضعيفا يعترف بحاله وضعفه فيدخره والذى ذكرناه لأقوام هم على غير معلوم ، فأما الصوفية المقيمون فى رباط على معلوم فالأليق بحالهم الصيام ، ولا يلزمهم موافقة الجمع فى الافطار وهذا يظهر فى جمع منهم لهم معلوم يقدم لهم بالنهار فاما إذا كانوا على غير معلوم فقد قيل : مساعدة الصوام للمفطرين أحسن من استدعاء الموافقة من المفطرين للصوام وأمر القوم مبناه على الصدق ومن الصدق افتقاد النية وأحوال النفس ؛ فكل ما صحت النية فيه من الصوم والافطار والموافقة وترك الموافقة فهو الافضل . فاما من حيث السنة فمن يوافق له وجه وإذا كان صائما وافطر للموافقة وإن صام ولم يوافق فله وجه فأما وجه من يفطر ويوافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن أبيه أبى الفضل الحافظ المقدسى قال أخبرنا ابو الفضل محمد بن عبد الله عن السيد ابو الحسن محمد بن الحسين العلوى . عن ابو بكر محمد بن حمدويه عن عبد الله بن حماد عن عبد الله بن صالح عن عطاء بن خالد عن حماد بن حميد عن محمد بن المنكدر عن أبى سعيد الخدرى قال : اصطنعت لرسول الله ﷺ وأصحابه طعاما فلما قدم إليهم قال رجل من القوم : إنى صائم فقال رسول الله ﷺ « دعاكم أخوكم وتكلف لكم ثم تقول إنى صائم . أفطر واقض يوما مكانه » وأما وجه من لا يوافق فقد ورد ان رسول الله ﷺ واصحابه أكلوا وبلال صائم فقال رسول الله : « نأكل رزقنا ورزق بلال فى الجنة » فاذا علم ان هنالك قلبا يتأذى أو فضلا يرجى من موافقته من يغتنم موافقته يفطر بحسن النية لا بحكم الطبع وتقاضيه فان لم يجد هذا المعنى لا ينبغى ان يتلبس عليه الشره وداعية النفس بالنية فليتم صومه ، وقد تكون الإجابة لداعية النفس لا لقضاء حق أخيه.

ومن أحسن آداب الفقير الطالب : أنه إذا أفطر وتناول الطعام ربما يجد باطنه متغيرا عن هيئته ونفسه متثبطة عن أداء وظائف العبادة ، فيعالج مزاج القلب المتغير بإذهاب التغير عنه ويذيب الطعام بركعات يصليها أو بآيات يتلوها أو بأذكار واستغفار يأتى به ، فقد ورد فى الخبر « أذيبوا طعامكم بالذكر » ومن مهام آداب الصوم كتمانه مهما أمكن إلا أن يكون متمكنا من الإخلاص فلا يبالى ظهر أم بطن .

الباب الثانى والأربعون : فى ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة

الصوفى بحسن نيته وصحة مقصده ووفور علمه وإتيانه بآدابه تصير عادته عبادة . والصوفى موهوب وقته لله وحياته لله ، كما قال الله تعالى لنبيه آمرا له ﴿ قال إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾ فتدخل على الصوفى أمور العادة لموضع حاجته وضرورة بشريته ، ويخف بعادته نور يقظته وحسن نيته ، فتتنور العادات وتتشكل بالعبادات . ولهذا ورد « نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح » هذا مع كون النوم عين الغفلة ولكن كل ما يستعان به على العبادة يكون عبادة . فتناول الطعام أصل كبير يحتاج إلى علوم كثيرة لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية وتعلق أثره بالقلب والقالب ، وبه قوام البدن بإجراء سنة الله تعالى بذلك والقالب مركب القلب وبهما عمارة الدنيا والآخرة وقد ورد « أرض الجنة قيعان نباتها التسبيح والتقديس . والقالب بمفرده على طبيعة الحيوانات يستعان به على عمارة الدنيا والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة ، وباجتماعهما صلحا لعمارة الدارين والله تعالى ركب الآدمى بلطيف حكمته من أخص جواهر الجسمانيات والروحانيات وجعله مستودع خلاصة الأرضين والسموات جعل عالم الشهادة وما فيها من النبات والحيوان لقوام بدن الآدمى ، قال تعالى ﴿ خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ فكون الطبائع وهى الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة وكون بواسطتها النبات وجعل النبات قواما للحيوانات وجعل الحيوانات مسخرة للآدمى يستعين بها على أمر معاشه لقوام بدنه فالطعام يصل إلى المعدة وفى المعدة طباع أربع وفى الطعام طباع أربع فإذا أراد الله اعتدال مزاج البدن أخذ كل طبع من طباع المعدة ضده من الطعام فتأخذ الحرارة للبرودة والرطوبة لليبوسة ، فيعتدل المزاج ويأمن الاعوجاج وإذا أراد الله تعالى إفناء قالب وتخريب بنية . أخذت كل طبيعة جنسها من المأكول فتميل الطبائع ويضطرب المزاج ويسقم البدن ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ روى عن وهب بن منبه قال : وجدت فى التوراة صفة آدم عليه السلام « إنى خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء من رطب ويابس وبارد وسخن . وذلك لأنى خلقته من التراب وهو يابس ورطوبته من الماء وحرارته من قبل النفس وبرودته من قبل الروح وخلقت فى الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق هن ملاك الجسم بإذنى وبهن قوامه فلا يقوم الجسم إلا بهن ولا تقوم منهن واحدة إلا بأخرى منهن المرة السوداء والمرة الصفراء والدم والبلغم ثم أسكنت بعض هذا الخلق فى بعض ، فجعلت مسكن اليبوسة فى المرة السوداء ومسكن الرطوبة فى المرة الصفراء . ومسكن الحرارة فى الدم ومسكن البرودة فى البلغم . فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الاربع التى جعلتها ملاكه وقوامه فكانت كل واحدة منهن ربعا لا يزيد ولا ينقص : كملت صحته واعتدلت بنيته فإن زادت منهن واحدة عليهن هزمتهن ومالت بهن ودخل عليه السقم من ناحيته بقدر غلبتها حتى يضعف عن طاقتهن ويعجز عن مقدارهن »

فأهم الأمور فى الطعام أن يكون حلالا وكل مالا يذمه الشرع حلال رخصة من الله لعباده ولولا رخصة الشرع كبر الأمر وأتعب طلب الحلال

ومن أدب الصوفية : رؤية المنعم على النعمة . وأن يبتدىء بغسل اليد قبل الطعام : قال رسول الله ﷺ « والوضوء قبل الطعام ينفى الفقر » وإنما كان موجبا لنفى الفقر لأن غسل اليد قبل الطعام استقبال النعمة بالأدب

وذلك من شكر النعمة ،والشكر يستوجب المزيد ،فصار غسل اليد مستجلبا للنعمة مذهبا للفقر.

وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «من أحب أن يكثر خير بيته فليتوضأ إذاحضر غذاؤه ثم يسمى الله تعالى» ﴿ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ تفسيره بسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان.

واختلف الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله فى وجوب ذلك . وفهم الصوفى من ذلك بعد القيام بظاهر التفسير: أن لايأكل الطعام إلا مقرونا بالذكر ،فقرنه فريضة وقته وأدبه،ويرى أن تناول الطعام والماء ينتج من إقامة النفس ومتابعة هواها ، ويرى ذكر الله تعالى دواءه وترياقه .

روت عائشة رضى الله عنها قالت :كان رسول الله ﷺ يأكل الطعام فى ستة نفر من أصحابه ،فجاء أعرابى فأكله بلقمتين ، فقال رسول الله ﷺ «أما إنه لو كان يسمى الله لكفاكم،فإذا أكل أحدكم طعاما فليقل بسم الله، فان نسى أن يقول بسم الله فليقل بسم الله أوله وآخره » .

ويستحب أن يقول فى أول لقمة «بسم الله» وفى الثانية « بسم الله الرحمن » وفى الثالثة يتم ، ويشرب الماء بثلاثة أنفاس ،يقول فى أول نفس : «الحمد لله» إذا شرب ،وفى الثانية«الحمد لله رب العالمين» وفى الثالثة «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم» وكما أن المعدة طباعا تتقدر كما ذكرناه بموافقة طباع الطعام ،فللقلب أيضا مزاج وطباع لأرباب التفقد والرعايا واليقظة ، يعرف انحراف مزاج القلب من اللقمة المتناولة :تارة تحدث من اللقمة حرارة الطيش بالنهوض إلى الفضول،وتارة تحدث فى القلب برودة الكسل بالتقاعد عن وظيفة الوقت ، وتارة تحدث رطوبة السهو والغفلة وتارة يبوسة الهم والحزن بسبب الحظوظ العاجلة ، فهذه كلها عوارض يتفطن لها المتيقظ ،ويرى بتغير القالب بهذه العوارض تغير مزاج القلب عن الاعتدال ، والاعتدال كما هو مهم طلبه للقالب فللقلب أهم وأولى . وتطرق الانحراف إلى القلب أسرع منه إلى القالب.ومن الانحراف ما يسقم به القلب فيموت لموت القالب،واسم الله تعالى دواء نافع مجرب يبقى الأسواء ويذهب الداء ويجلب الشفاء .

حكى أن الشيخ أبا محمد محمداً الغزالى لما رجع إلى طوس وصف له فى بعض القرى عبد صالح،فقصده زائرا،فصادفه وهو فى صحراء له يبذر الحنطة فى الارض ،فلما رأى الشيخ محمدا جاء إليه وأقبل عليه،فجاء رجل من أصحابه وطلب منه البذر لينوب عن الشيخ فى ذلك وقت اشتغاله بالغزالى،فامتنع ولم يعطه البذر،فسأله الغزالى عن سبب امتناعه .فقال: لانى أبذر هذا البذر بقلب حاضر ولسان ذاكر، أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئا ،فلا أحب أن اسلمه إلى هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب غير حاضر.

وكان بعض الفقراء عند الأكل يسرع فى تلاوة سورة من القرآن ، يحصر الوقت بذلك حتى تنغمر أجزاء الطعام بأنوار الذكر ولا يعقب الطعام مكروه ويتغير مزاج القلب .

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى يقول : أنا آكل وانا اصلى ،يشير إلى حضور القلب فى الطعام ، وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت اكله ، لئلا يتفرق همه وقت الأكل ،ويرى للذكر وحضور القلب فى الاكل اثرا كبيرا لا يسعه الإهمال .

ومن الذكر عند الأكل الفكر فيما هيأ الله تعالى من الأسنان المعينة على الاكل فمنها الكاسرة ومنها القاطعة ومنها الطاحنة ، وما جعل الله من الماء الحلو فى الفم حتى لايتغير الذوق ، كما جعل ماء العين مالحا لما كان شحما حتى لايفسد، وكيف جعل النداوة تنبع من ارجاء اللسان والفم ليعين ذلك على المضغ والسوغ ،وكيف جعل القوة الهاضمة مسلطة على الطعام تفصله وتجزئه متعلقا مددها بالكبد،والكبد بمثابة النار ،والمعدة بمثابة القدر وعلى قدر فساد الكبد تختل الهاضمة ويفسد الطعام ولا ينفصل ولايصل الى كل عضو نصيبه ،وهكذا تأثير الأعضاء كلها من الكبد والطحال والكليتين ويطول شرح ذلك ، فمن أراد الاعتبار فليطالع تشريح الأعضاء،ليرى العجب من قدرة

الله تعالى : من تعاضد الأعضاء وتعاونها ، وتعلق بعضها بالبعض فى إصلاح الغذاء ، واستجذاب القوة منه للاعضاء، وانقسامه إلى الدم والثفل واللبن لتغذية المولود من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، فالفكر فى ذلك وقت الطعام وتعرف لطيف الحكم والقدر فيه من الذكر .

ومما يذهب أدواء الطعام المغير لمزاج القلب : أن يدعو فى أول الطعام ويسأل الله تعالى أن يجعله عونا على الطاعة ، ويكون من دعائه : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . وما رزقتنا مما نحب اجعله عونا لنا على ماتحب ، وما زويت عنا مما نحب اجعله فراغا لنا فيما تحب .

الباب الثالث والأربعون فى آداب الأكل

فمن ذلك أن يبتدى بالملح ويختم به : روى عن رسول الله ﷺ أنه قال لعلى رضى الله عنه « يا على ، ابدأ طعامك بالملح واختم بالملح ، فإن الملح شفاء من سبعين داء ، منها : الجنون ، والجذام ، والبرص ، ووجع البطن ، ووجع الأضراس » .

وروت عائشة رضى الله عنها قالت لدغ رسول الله ﷺ فى إبهامه من رجله اليسرى لدغة ، فقال : « على بذلك الأبيض الذى يكون فى العجين » فجئنا بملح فوضعه فى كفه ثم لعق منه ثلاث لعقات ، ثم وضع بقيته على اللدغة فسكنت عنه .

ويستحب الاجتماع على الطعام ، وهو سنة الصوفية فى الربط وغيرها : روى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال «من أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه الأيدى» وروى أنه قيل : يارسول الله . إنا نأكل ولا نشبع قال: « لعلكم تفترقون على طعامكم ، اجتمعوا واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه » .

ومن عادة الصوفية : الأكل على السفر ، وهو سنة رسول الله ﷺ : عن الشيخ أبو زرعة عن المقومى بإسناده إلى ابن ماجه الحافظ القزوينى ، عن محمد بن المثنى ، عن معاذ بن هشام ، عن أبى عن يونس بن الفرات عن قتادة عن أنس بن مالك قال : ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا فى سكرجة . قال : فعلام كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر .

ويصغر اللقمة ويجود الأكل بالمضغ ، وينظر بين يديه ولا يطالع وجوه الآكلين ، ويقعد على رجله اليسرى وينصب اليمنى ، ويجلس جلسة التواضع غير متكىء ولا متعزز : نهى رسول الله ﷺ أن يأكل الرجل متكئا . وروى أنه أهدى لرسول الله ﷺ شاة ، فجثا رسول الله ﷺ على ركبتيه يأكل فقال أعرابى : ما هذه الجلسة يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « إن الله خلقنى عبدا ولم يجعلنى جبارا عنيدا » .

ولا يبتدىء بالطعام حتى يبدأ المقدم أو الشيخ : روى حذيفة قال : كنا إذا حضرنا مع رسول ﷺ طعاما لم يضع أحدنا يده حتى يبدأ رسول الله ﷺ ويأكل باليمين .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « ليأكل بيمينه ، وليشرب بيمينه ، وليأخذ بيمنه ، وليعط بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويأخذ بشماله ويعطى بشماله » .

وإن كان المأكول تمراً أو ماله عجم لايجمع من ذلك مايرمى ولا يؤكل على الطبق ولا فى كفه ، بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرميه .

ولا يأكل من ذروة الثريد : روى عبد الله بن عباس عن النبى ﷺ أنه قال « إذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وذروا وسطه فإن البركة تنزل فى وسطه» .

ولا يعيب الطعام : روى أبو هريرة رضى الله عنه قال ما عاب رسول الله ﷺ طعاما قط ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه .

وإذا سقطت اللقمة يأكلها فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان » .

ويلعق أصابعه ، فقد روى جابر عن النبي ﷺ قال « إذا أكل أحدكم الطعام فليمتص أصابعه : فإنه لا يدرى فى أى طعامه تكون البركة » .

وهكذا أمر عليه السلام بإسلات القصعة : وهو مسحها من الطعام . قال أنس رضى الله عنه : أمر رسول الله ﷺ بإسلات القصعة .

ولا ينفخ فى الطعام : فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال « النفخ فى الطعام يذهب بالبركة » وروى عبد الله بن عباس أنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ ينفخ فى طعام ولا فى شراب ولا يتنفس فى الإناء فليس من الأدب ذلك .

والخل والبقل على السفرة من السنة . قيل : إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل . روت أم سعد رضى الله عنها قالت : دخل رسول الله ﷺ على عائشة رضى الله عنها وأنا عندها فقال : هل من غداء ؟ فقالت . عندنا خبز وتمر وخل ، فقال عليه السلام « نعم الإدام الخل ، اللهم بارك فى الخل فانه كان إدام الأنبياء قبلى . ولم يقفر بيت فيه خل » .

ولا يصمت على الطعام فهو من سيرة الأعاجم ، ولا يقطع اللحم والخبز بالسكين ففيه نهى ، ولا يكف يده عن الطعام حتى يفرغ الجمع ، فقد ورد عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال « إذا وضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع المائدة ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفرغ القوم ، وليتعلل ، فان الرجل يخجل جليسه فيقبض يده ، وعسى أن يكون له فى الطعام حاجة » .

وإذا وضع الخبز لا ينتظر غيره ، فقد روى أبو موسى الأشعرى قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكرموا الخبز . فان الله تعالى سخر لكم بركات السماء والأرض والحديد والبقر وابن آدم »

ومن أحسن الأدب وأهمه أن لا يأكل إلا بعد الجوع ويمسك عن الطعام قبل الشبع ، فقد روى عن رسول الله ﷺ « ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه »

ومن عادة الصوفية ، أن يلقم الخادم إذا لم يجلس مع القوم وهو سنة ، روى أبو هريرة رضى الله عنه قال ، قال أبو القاسم ﷺ « إذا جاء أحدكم خادمه بطعام فان لم يجلسه معه فليناوله أكلة أو أكلتين ، فانه ولى حره ودخانه »

وإذا فرغ من الطعام يحمد الله تعالى ، روى أبو سعيد قال ، كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعاما قال « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال « من أكل طعاما فقال ، الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه » .

ويتخلل ، فقد روى عن رسول الله ﷺ « تخللوا فانه نظافة والنظافة تدعو إلى الإيمان والإيمان مع صاحبه فى الجنة » .

ويغسل يديه ، فقد روى أبو هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ « من بات وفى يده غمر لم يغسل فأصابه شىء فلا يلومن إلا نفسه »

ومن السنة غسل الأيدى فى طست واحد ، وروى عن بن عمر رضى الله عنهما أنه قال ، قال رسول الله ﷺ « أترعوا الطسوس وخالفوا المجوس »

ويستحب مسح العين ببال اليد ، وروى أبو هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا توضأتم فأشربوا أعينكم الماء ولا تنفضوا أيديكم فانها مراوح الشيطان » ، قيل لأبى هريرة فى الوضوء وغيره ؟ قال ، نعم فى الوضوء

وغيره ، وفى غسل اليد يأخذ الأسنان باليمين ، وفى الخلال لا يزدرد ما يخرج بالخلال من الأسنان . وأما ما يلوكه باللسان فلا بأس به ، ويجتنب التصنع فى أكل الطعام ، ويكون أكله بين الجمع كأكله منفردا ، فإن الرياء يدخل على العبد فى كل شىء .

وصف لبعض العلماء بعض العباد فلم يثن عليه ، قيل له ، تعلم به بأسا ؟ قال : نعم ، رأيته يتصنع فى الأكل ، ومن تصنع فى الأكل لا يؤمن عليه التصنع فى العمل ،

وإن كان الطعام حلال فليقل : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، اللهم أطعمنا طيبا واستعملنا صالحا ، وإن كان شبهة يقول : الحمد لله على كل حال ، اللهم صل على محمد ولا تجعله عونا على معصيتك ، وليكثر الاستغفار والحزن ، ويبكى على أكل الشبهة ولا يضحك ؛ فليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك ، ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ، ولإيلاف قريش .

ويجتنب الدخول على قوم فى وقت أكلهم ، فقد ورد «من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما» وسمعنا لفظا آخر « دخل سارقا وخرج مغيرا » إلا أن يتفق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقته .

ويستحب أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار ، ولا يخرج الضيف بغير إذن صاحب الدار ، ويجتنب المضيف التكلف إلا أن يكون له نية فيه من كثرة الإنفاق ، ولا يفعل ذلك حياء وتكلفا .

وإذا أكل عند قوم طعاما فليقل عند فراغه إن كان بعد المغرب « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة » وروى أيضاً : « عليكم صلاة قوم أبرار ليسوا بآثمين ولا فجار يصلون بالليل ويصومون بالنهار » كان بعض الصحابة يقول ذلك .

ومن الأدب : أن لا يستحقر ما يقدم له من طعام ، وكان بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقول : ما ندرى أيهم أعظم وزرا ، الذى يحتقر ما يقدم إليه ، أو الذى يحتقر ما عنده أن يقدمه .

ويكره أكل طعام المباهاة وما تكلف للأعراس والتعازى ، فما عمل للنوائح لا يؤكل ، وما عمل لأهل العزاء لا بأس به وما يجرى مجراه .

وإذا علم الرجل من حال أخيه أنه يفرح بالانبساط إليه فى التصرف فى شىء من طعامه فلا حرج أن يأكل من طعامه بغير إذنه ، قال الله تعالى ﴿ أو صديقكم ﴾ قيل : دخل قوم على سفيان الثورى فلم يجدوه ، ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وأكلوا ، فدخل سفيان ففرح وقال : ذكرتمونى أخلاق السلف هكذا كانوا .

ومن دعى إلى طعام فالإجابة من السنة ، وأوكد ذلك الوليمة ، وقد يتخلف بعض الناس عن الدعوة تكبرا وذلك خطأ ، وإن عمل ذلك تصنعا ورياء فهو أقل من التكبر . روى أن الحسن بن على مر بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطرق وقد نثروا كسرا على الأرض وهو على بغلته . فلما مر بهم سلم عليهم فردوا عليه السلام وقالوا : هلم الغداء يا ابن رسول الله ، فقال : نعم إن الله لا يحب المتكبرين ، ثم ثنى وركه فنزل عن دابته وقعد معهم على الأرض وأقبل يأكل . ثم سلم عليهم وركب .

وكان يقال : الأكل مع الإخوان أفضل من الأكل مع العيال .

روى أن هرون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير وأمر أن يقدم له طعام . فلما أكل صب الرشيد على يده فى الطشت فلما فرغ قال : يا أبا معاوية ، تدرى من صب على يدك ؟ قال لا . قال أمير المؤمنين . قال : يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجللته فأجلك الله تعالى وأكرمك كما أكرمت العلم .

الباب الرابع والأربعون : فى ذكر أدبهم فى اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه

اللباس من حاجات النفس وضرورتها لدفع الحر والبرد ، كما أن الطعام من حاجات النفس لدفع الجوع . وكما أن

النفس غير قانعة بقدر الحاجة من الطعام بل تطلب الزيادات والشهوات فهكذا فى اللباس تتفنن فيه ، ولها فيه أهوية متنوعة ومآرب مختلفة . فالصوفى يرد النفس إلى متابعة صريح العلم . قيل لبعض الصوفية : ثوبك ممزق . قال : ولكنه من وجه حلال ، وقيل له وهو وسخ ، قال : ولكنه طاهر ؛ فنظر الصادق فى ثوبه أن يكون من وجه حلال . لأنه ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفى ثمنه درهم من حرام لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » أى لا فريضة ولا نافلة . ثم بعد ذلك نظره فيه أن يكون طاهرا لأن طهارة الثوب شرط فى صحة الصلاة ، وما عدا هذين النظرين فنظره فى كونه يدفع الحر والبرد لأن ذلك مصلحة النفس ، وبعد ذلك ما تدعو النفس إليه فكله فضول وزيادة ونظر إلى الخلق والصادق لا ينبغى أن يلبس الثوب إلا لله : وهو ستر العورة أو لنفسه لدفع الحر والبرد .

وحكى أن سفيان الثورى رضى الله عنه خرج ذات يوم وعليه ثوب قد لبسه مقلوبا ؛ فقيل له ـــ ولم يعلم بذلك ـــ فهم أن يخلعه ويغيره ثم تركه وقال : حيث لبسته نويت أنى ألبسه لله والآن فما أغيره إلا لنظر الخلق فلا أنقض النية الأولى بهذه .

والصوفية خصوا بطهارة الأخلاق . وما رزقوا طهارة الأخلاق إلا بالصلاحية والأهلية والاستعداد الذى هيأه الله تعالى لنفوسهم . وفى طهارة الأخلاق وتعاضدها تناسب واقع لوجود تناسب هيئة النفس وتناسب هيئة النفس هو المشار إليه بقوله تعالى ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ﴾ فالتناسب هو التسوية ؛ فمن المناسب أن يكون لباسهم مشاكلا لطعامهم وطعامهم مشاكلا لكلامهم مشاكلا لمنامهم ؛ لأن التناسب الواقع فى النفس مقيد بالعلم ، والتشابه والتماثل فى الأحوال يحكم به العلم ومتصوفة الزمان ملتزمون بشىء من التناسب مع مزج الهوى وما عندهم من التطلع الى التناسب رشح حال سلفهم فى وجود التناسب .

قال أبو سليمان الدارانى : يلبس أحدهم عباءة بثلاثة دراهم وشهوته فى بطنه بخمسة دراهم ؛ أنكر ذلك لعدم التناسب . فمن خشن ثوبه ينبغى أن يكون مأكوله من جنسه ، وإذا اختلف الثوب والمأكول دل على وجود انحراف لوجود هوى كامن فى أحد الطرفين ، إما فى طرف الثوب لموضع نظر الخلق ، وإما فى طرف المأكول لفرط الشره ، وكلا الوصفين مرض يحتاج إلى المداواة ليعود إلى حد الاعتدال .

لبس أبو سليمان الدارانى ثوبا غسيلا ، فقال له أحمد : لو لبست ثوبا أجود من هذا ؟ فقال : ليت قلبى فى القلوب مثل قميصى فى الثياب فكان الفقراء يلبسون المرقع . وربما كانوا يأخذون الخرق من المزابل ويرقعون بها ثوبهم ، وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح . وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون إليه ، فكما كانت رقاعهم من المزابل ، كانت لقمهم من الأبواب .

وكان أبو عبد الله الرفاعى مثابرا على الفقر والتوكل ثلاثين سنة ، وكان إذا حضر للفقراء طعام لا يأكل معهم ، فيقال له فى ذلك . فيقول : أنتم تأكلون بحق التوكل وأنا آكل بحق المسكنة ثم يخرج بين العشاءين يطلب الكسر من الأبواب ، وهذا شأن من لا يرجع إلى معلوم ولا يدخل تحت منة .

حكى أن جماعة من أصحاب المرقعات دخلوا على بشر بن الحرث فقال لهم : ياقوم اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزى فإنكم تعرفون به وتكرمون له ، فسكتوا كلهم ، فقال له غلام منهم : الحمد لله الذى جعلنا ممن يعرف به ويكرم له ، والله ليظهرن هذا الزى حتى يكون الدين كله لله . فقال له بشر : أحسنت ياغلام ، مثلك من يلبس المرقعة ، فكان أحدهم يبقى زمانه لا يطوى له ثوب ولا يملك غير ثوبه الذى عليه .

وروى أن أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه لبس قميصا اشتراه بثلاثة دراهم ثم قطع كمه من رءوس أصابعه ، وروى عنه أنه قال لعمر بن الخطاب : إن أردت أن تلقى صاحبك فرقع قميصك واخصف نعلك وقصر أملك وكل دون الشبع وحكى عن الحريرى قال : كان فى جامع بغداد رجل لا تكاد تجده إلا فى ثوب واحد فى الشتاء والصيف ، فسئل

عن ذلك ؟ فقال : قد كنت ولعت بكثرة لبس الثياب ؛ فرأيت ليلة فيما يرى النائم كأنى دخلت الجنة ، فرأيت جماعة من أصحابنا من الفقراء على مائدة فرأيت أن أجلس معهم فإذا بجماعة من الملائكة أخذوا بيدى وأقامونى وقالوا لى : هؤلاء أصحاب ثوب واحد وأنت لك قميصان فلا تجلس معهم . فانتبهت ونذرت أن لا ألبس إلا ثوبا واحدا إلى أن ألقى الله تعالى .

وقيل : مات أبو يزيد ولم يترك إلا قميصه الذى كان عليه وكان عارية ، فردوه إلى صاحبه .

وحكى لنا عن الشيخ حماد شيخ شيخنا : أنه يبقى زمانا لا يلبس الثوب إلا مستأجرا ، حتى إنه لم يلبس على ملك نفسه شيئا .

وقال أبو حفص الحداد : إذا رأيت وضاءة الفقير فى ثوبه فلا ترجو خيره .

وقيل : مات ابن الكرنبى وكان أستاذ الجنيد وعليه مرقعته. قيل: كان وزن فردكم له وتخاريصه ثلاثة عشر رطلا.

فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزى والتخشن ، وقد يكون جمع من الصالحين يتكلفون لبس غير المرقع وزى الفقراء ويكون نيتهم فى ذلك ستر الحال أو خوف عدم النهوض بواجب حق المرقعة .

وقيل : كان أبو حفص الحداد يلبس الناعم وله بيت فرش فيه الرمل لعله كان ينام عليه بلاوطاء . وقد كان قوم من أصحاب الصفة يكرهون أن يجعلوا بينهم وبين التراب حائلا . ويكون لبس أبى حفص الناعم بعلم ونية يلقى الله تعالى بصحتها ، وهكذا الصادقون إن لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم فى ذلك فلا يعترض عليهم ، غير أن لبس الخشن والمرقع يصلح لسائر الفقراء بنية التقلل من الدنيا وزهرتها وبهجتها . وقد ورد « من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه ألبسه الله تعالى من حلل الجنة » .

وأما لبس الناعم فلا يصلح إلا لعالم بحاله بصير بصفات نفسه متفقد خفى شهوات النفس يلقى الله تعالى بحسن النية فى ذلك ، فلحسن النية فى ذلك وجوه متعددة يطول شرحها ، ومن الناس من لا يقصد لبس ثوب بعينه لا لخشونته ولا لنعومته ، بل يلبس ما يدخله الحق عليه فيكون بحكم الوقت وهذا حسن . وأحسن من ذلك أنه يتفقد نفسه فيه فإن رأى للنفس شرها وشهوة خفية أو جلية فى الثوب الذى أدخله الله عليه يخرجه إلا أن يكون حالا مع الله ترك الاختيار فعند ذلك لا يسعه إلا أن يلبس الثوب الذى ساقه الله إليه . وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى رحمه الله لا يتقيد بهيئة من الملبوس ، بل كان يلبس ما يتفق من غير تعمد تكلف واختيار ، وقد كان يلبس العمامة بعشرة دنانير ويلبس العمامة بدانق ، وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يلبس هيئة مخصوصة ويتطيلس ، وكان الشيخ على بن الهيتى يلبس لبس فقراء السواد وكان أبو بكر الفراء بزنجان يلبس فروا خشنا كآحاد العوام ولكل فى لبسه وهيئته نية صالحة . وشرح تفاوت الأقدام فى ذلك يطول .

وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله حاله مع الله ترك الاختيار وقد يساق إليه الثوب الناعم فيلبسه ، وكان يقال له : ربما يسبق إلى بواطن بعض الناس الإنكار عليك فى لبسك هذا الثوب ؛ فيقول : لا نلقى إلا أحد رجلين : رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع ، فنقول له :هل ترى أن ثوبنا يكرهه الشرع أو يحرمه؟ فيقول : لا ورجل يطالبنا بحقائق القوم من ارباب العزيمة فنقول له : هل ترى لنا فيما لبسنا اختيارا أو ترى عندنا فيه شهوة ؟ فيقول لا .

وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الخشن . ولكن يجب أن يختار الله له هيئة مخصوصة فيكثر اللجأ إلى الله والافتقار إليه ويسأله أن يريه أحب الزى إلى الله تعالى وأصلحه لدينه ودنياه لكونه غير صاحب غرض وهوى فى زى بعينه فالله تعالى يفتح عليه ويعرفه زيا مخصوصا فيلتزم بذلك الزى فيكون لبسه بالله ويكون هذا أتم وأكمل ممن يكون لبسه لله .

ومن الناس من يتوفر حظه من العلم وينبسط بما بسطه الله فيلبس الثوب عن علم وإتقان ولا يبالى بما لبسه ناعما لبس أو خشنا وربما لبس ناعما ولنفسه فيه اختيار وحظ وذلك الحظ فيه يكون مكفرا له مردودا عليه موهوبا له

يوافقه الله تعالى فى إرادة نفسه ،ويكون الشخص تام التزكية تام الطهارة محبوبا مرادا يسارع الله تعالى إلى مراده ومحا به غير أن ههنا مزلة قدم لكثير من المدعين .

حكى عن يحيى بن معاذ الرازى أنه كان يلبس الصوف والخلقان فى ابتداء أمره،ثم صار فى آخر عمره يلبس الناعم ، فقيل لأبى يزيد ذلك ، فقال : مسكين يحيى لم يصبر على الدون فكيف يصبر على التحف .

ومن الناس من يسبق إليه علم ماسوف يدخل عليه من الملبوس فيلبسه محمودا فيه . وكل أحوال الصادقين على اختلاف تنوعها مستحسنة ﴿ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ .

ولبس الخشن من الثياب هو الأحب والأولى والأسلم للعبد والأبعد من الآفات . قال مسلمة بن عبد الملك: دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده فى مرضه، فرأيت قميصه وسخا فقلت لامرأته فاطمة:اغسلوا ثياب أمير المؤمنين؛ فقالت: نفعل إن شاء الله،قال: ثم عدته فإذا القميص على حاله، فقلت: يافاطمة، ألم آمركم أن تغسلوه؟قالت والله ماله قميص غيره.

وقال سالم:كان عمر بن عبدالعزيز من ألين الناس لباسا من قبل أن يسلم عليه بالخلافة؛فلما سلم عليه بالخلافة ضرب رأسه بين ركبتيه وبكى ثم دعا بأطمار له رثة فلبسها .

وقيل:لما مات أبو الدرداء وجد فى ثوبه أربعون رقعة وكان عطاؤه أربعة آلاف .

وقال زيد بن وهب: لبس على بن أبى طالب قميصا رازيا، وكان إذا مدكمه بلغ أطراف أصابعه ، فعابه الخوارج بذلك، فقال:أتعيبونى على لباس هو أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدى بى المسلم .

وقيل :كان عمر رضى الله عنه إذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالدرة وقال:دعوا هذه البراقات للنساء .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال « نوروا قلوبكم بلباس الصوف فإنه مذلة فى الدنيا ونور فى الآخرة،وإياكم أن تفسدوا دينكم بحمد الناس وثنائهم » وروى أن رسول الله ﷺ احتذى نعلين، فلما نظر إليهما أعجبه حسنهما فسجد لله تعالى، فقيل له فى ذلك فقال «خشيت أن يعرض عنى ربى فتواضعت له،لاجرم لا يبيتان فى منزلى لما تخوفت المقت من الله تعالى من أجلهما » فأخرجهما فدفعهما إلى أول مسكين لقيه ثم أمر فاشترى له نعلان مخصوفتان ، وروى أن رسول الله ﷺ لبس الصوف واحتذى المخصوف وأكل مع العبيد .

وإذا كانت النفس محل الآفات فالوقوف على دسائسها وخفى شهواتها وكامن هواها عسر جدا ؛فالأليق والأجدر والأولى الأخذ بالأحوط وترك مايريب إلى ما لا يريب ، ولا يجوز للعبد الدخول فى السعة إلا بعد إتقان علم السعة وتزكية النفس،وذلك إذا غابت النفس بغيبة هواها المتبع وتخلصت النية وتسدد التصرف بعلم صريح واضح،وللعزيمة أقوام يركبونها ويراعونها لا يرون النزول إلى الرخص خوفا من فوت فضيلة الزهد فى الدنيا واللباس الناعم من الدنيا . وقد قيل: من رق ثوبه رق دينه .وقد يرخص فى ذلك لمن لا يلتزم بالزهد ويقف على رخصة الشرع،وروى علقمة عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من الكبر » فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا وفعله حسنا،فقال النبى ﷺ « إن الله جميل يحب الجمال » فتكون هذه الرخصة فى حق من يلبسه لا يهوى نفسه فى ذلك غير مفتخر به ومختال ، فأما من لبس الثوب للتفاخر بالدنيا والتكاثر بها فقد ورد فيه وعيد :روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال« أزرة المؤمن إلى نصف الساق لاحرج عليه فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من الكعبين فهو فى النار من جر إزاره بطرا لم ينظر الله إليه يوم القيامة فبينما رجل ممن كان قبلكم يتبختر فى ردائه إذ أعجبه رداؤه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» والأحوال تختلف، ومن صح حاله بصحة علمه صحت نيته فى مأكوله وملبوسه وسائر تصاريفه ، وفى كل الأحوال يستقيم ويتسدد باستقامة الباطن مع الله تعالى،وبقدر ذلك تستقيم تصاريف العبد كلها بحسن توفيق الله تعالى.

الباب الخامس والأربعون : فى فضل قيام الليل

قال الله تعالى ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ نزلت هذه الآية فى المسلمين يوم بدر حيث نزلوا على كثيب من الرمل تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر العظمى وغلبوهم عليها ، وأصبح المسلمون بين محدث وجنب وأصابهم الظمأ ، فوسوس لهم أنكم تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبى الله وقد غلب المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون الظفر عليهم ،فأنزل الله تعالى مطرا من السماء سال منه الوادى فشرب المسلمون منه واغتسلوا وتوضأوا وسقوا الدواب وملأوا الأسقية وليد الارض حتى ثبت به الأقدام ،قال تعالى ﴿ ويثبت به الأقدام ، إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ﴾ أمدهم الله تعالى بالملائكة حتى غلبوا المشركين ،ولكل آية من القرآن ظهر وبطن وحد ومطلع ، والله تعالى كما جعل النعاس رحمة وأمنة للصحابة خاصة فى تلك الواقعة والحادثة فهو رحمة تعم المؤمنين، والنعاس قسم صالح من الأقسام العاجلة للمريدين ، وهو أمنة لقلوبهم عن منازعات النفس ، لأن النفس بالنوم تستريح ولا تشكو الكلال والتعب ، إذ فى شكايتها وتعبها تكدير القلب ، وباستراحتها بالنوم بشرط العلم والاعتدال راحة القلب لما بين القلب والنفس من المواطأة عند طمأنينتها للمريدين السالكين ، فقد قيل : ينبغى أن يكون ثلث الليل والنهار نوما حتى لا يضطرب الجسد فيكون ثمان ساعات:للنوم ساعتين من ذلك يجعلهما المريد بالنهار،وست ساعات بالليل، ويزيد فى أحدهما وينقص من الآخر على قدر طول الليل وقصره فى الشتاء والصيف . وقد يكون بحسن الإرادة وصدق الطلب ينقص النوم عن قدر الثلث ،ولا يضر ذلك إذا صار بالتدريج عادة ،وقد يحمل ثقل السهر وقلة النوم وجود الروح والأنس ،فإن النوم طبعه بارد رطب ينفع الجسد والدماغ ويسكن من الحرارة واليبس الحادث فى المزاج، فإن نقص عن الثلث يضر الدماغ ويخشى منه اضطراب الجسم، فإذا ناب عن النوم روح القلب وأنسه لا يضر نقصانه لأن طبيعة الروح والأنس باردة رطبة كطبيعة النوم . وقد تقصر مدة طول الليل بوجود الروح ، فتصير بالروح أوقات الليل الطويلة كالقصيرة ، كما يقال: سنة الوصل سنة ،وسنة الهجر سنة، فيقصر الليل لاهل الروح .

نقل عن على بن بكار أنه قال: منذ أربعين سنة ماأحزننى إلا طلوع الفجر .

وقيل لبعضهم : كيف أنت والليل ؟ قال : ماراعيته قط يرينى وجهه ثم ينصرف وما تأملته .

وقال أبو سليمان الدارانى : أهل الليل فى ليلهم أشد لذة من أهل اللهو فى لهوهم .

وقال بعضهم ليس فى الدنيا شىء يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوه المناجاة فحلاوة المناجاة ثواب عاجل لاهل الليل

وقال بعض العارفين : إن الله تعالى يطلع على قلوب المستيقظين فى الاسحار فيملؤها نوراً ، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ، ثم تنتشر من قلوبهم الفوائد إلى قلوب الغافلين .

وقد ورد أن الله تعالى أوحى فى بعض ماأوحى إلى بعض أنبيائه : أن لى عبادا يحبونى وأحبهم ، ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ، ويذكرونى وأذكرهم وينظرون إلى وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عن ذلك مقتك. قال : يارب وماعلامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم وافترشوا لى وجوههم وناجونى بكلامى وتملقوا إلى بانعامى ، فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى مايشكون من حبى ، أول ماأعطيهم أن أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم ،والثانى : لو كانت السموات السبع والارضون وما فيهما فى موازينهم لاستقللتها لهم. والثالث : أقبل

بوجهى عليهم أفترى من أقبلت بوجهى عليه أيعلم أحد ماأريد أن أعطيه؟ فالصادق المريد إذاخلا فى ليله بمناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على جميع أجزاء نهاره ويصير نهاره فى حماية ليله ، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار ، فتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل ، ويصير قالبه فى قبة من قباب الحق مسددا حركاته موفرة سكناته .

وقد ورد « من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار » ويجوز أن يكون لمعنيين. أحدهما أن المشكاة تستدير بالمصباح فإذا صار سراج اليقين فى القلب تزهر بكثرة زيت العمل بالليل ، فيزداد المصباح إشراقا وتكتسب مشكاة القالب نورا وضياء .

كان يقول سهل بن عبد الله : اليقين نار ، والإقرار فتيلة ، والعمل زيت. وقد قال الله تعالى ﴿سيماهم فى وجوههم من أثر السجود﴾ وقال تعالى ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ فنور اليقين من نور الله فى زجاجة القلب يزداد ضياء بزيت العمل ، فتبقى زجاجة القلب كالكوكب الدرى وتنعكس أنوار الزجاجة على مشكاة القالب وأيضا يلين القلب بنار النور ، ويسرى لينه إلى القالب فيلين القالب للين القلب ؛ فيتشابهان لوجود اللين الذى عمهما ، قال الله تعالى ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ وصف الجلود باللين كما وصف القلوب باللين ، فإذا امتلأ القلب بالنور ، ولان القالب بما يسرى فيه من الأنس والسرور يندرج الزمان والمكان فى نور القلب سماء القلب ، ويندرج فيه الكلم والآيات والسور وتشرق الأرض أرض القالب بنور ربها ، إذ يصير القلب سماء والقالب أرضا ، ولذة تلاوة كلام الله فى محل المناجاة تستركون الكائنات والكلام المجيد بكونه ينوب عن سائر الوجود فى مزاحمة صفو الشهود فلا يبقى حينئذ للنفس حديث ، ولا يسمع للهاجس حسيس ، وفى مثل هذه الحالة يتصور تلاوة القرآن من فاتحته إلى إلى خاتمته من غير وسوسة وحديث نفس ، وذلك الفضل العظيم . والوجه الثانى : لقوله ﷺ « من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار » معناه : أن وجوه أموره التى يتوجه إليها تحسن وتداركه المعونة من الله الكريم فى تصاريفه ويكون معانى فى مصدره ومورده ؛ فيحسن وجه مقاصده وأفعاله . وينتظم فى سلك السداد مسددا أقواله ، لأن الأقوال تستقيم باستقامة القلب .

الباب السادس والأربعون : فى ذكر الأسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم

فمن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند غروب الشمس بتجديد الوضوء ، ويقعد مستقبل القبلة منتظرا مجىء الليل وصلاة المغرب ، مقيما فى ذلك على أنواع الأذكار ومن أولاها التسبيح والاستغفار . قال تعالى لنبيه ﴿واستغفر لذنبك﴾ ﴿وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار﴾ ومن ذلك أن يواصل بين العشاءين بالصلاة أو بالتلاوة أو بالذكر وأفضل ذلك الصلاة ، فإنه إذا واصل بين العشاءين ينغسل عن باطنه آثار الكدورة الحادثة فى أوقات النهار من رؤية الخلق ومخالطتهم وسماع كلامهم ، فإن ذلك كله له أثر وخدش فى القلوب ، حتى النظر إليهم يعقب كدرا فى القلب يدركه من يرزق صفاء القلب ، فيكون أثر النظر إلى الخلق للبصيرة كالقذى فى العين للبصر ، وبالمواصلة بين العشاءين يرجى ذهاب ذلك الأثر . ومن ذلك ترك الحديث بعد العشاء الآخرة ، فإن الحديث فى ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث فى القلب من مواصلة العشاءين ويقيد عن قيام الليل ، سيما إذا كان عريا عن يقظة القلب ، ثم تجديد الوضوء بعد العشاء الآخرة أيضا معين على قيام الليل.

حكى لى بعض الفقراء عن شيخ له بخراسان أنه كان يغتسل فى الليل ثلاث مرات : مرة بعد العشاء الآخرة ، ومرة فى أثناء الليل بعد الانتباه من النوم ، ومرة قبل الصبح ، فللوضوء والغسل بعد العشاء الآخرة أثر ظاهر فى تيسير قيام الليل . ومن ذلك التعود على الذكر أو القيام بالصلاة حتى يغلب النوم ، فإن التعود على ذلك يعين على سرعة الانتباه ، إلا أن يكون واثقا من نفسه وعادته فيتعمل للنوم ويستجلبه ليقوم فى وقته المعهود ، وإلا فالنوم عن الغلبة هو الذى يصلح للمريدين والطالبين ، وبهذا وصف المحبون . قيل: نومهم نوم الغرق ، وأكلهم أكل المرضى

وكلامهم ضرورة . فمن نام عن غلبة بهم مجتمع متعلق بقيام الليل يوفق لقيام الليل ، وإنما النفس إذا طمعت ووطنت على النوم استرسلت فيه . وإذا أزعجت بصدق العزيمة لاتسترسل فى الاستقرار . وهذا الانزعاج فى النفس بصدق العزيمة هو فى التجافى الذى قال الله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ لأن الهم بقيام الليل وصدق العزيمة يجعل بين الجنب والمضجع نبوا وتجافيا . وقد قيل : للنفس نظران إلى تحت لاستيفاء الأقسام البدنية ونظر إلى فوق لاستيفاء الأقسام العلوية الروحانية . فأرباب العزيمة تجافت جنوبهم عن المضاجع لنظارهم إلى فوق إلى الأقسام العلوية الروحانية فأعطوا النفوس حقها من النوم ومنعوها حظها . فالنفس بما فيها مركوز من الترابية والجمادية ترسب وتستجلس وتستلذ النوم . قال الله تعالى ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ﴾ والآدمى بكل أصل من أصول خلقته طبيعة لازمة له . والرسوب صفة التراب والكسل والتقاعد والتناوم بسبب ذلك طبيعة فى الإنسان فأرباب الهمة أهل العلم الذين حكم الله تعالى لهم بالعلم فى قوله تعالى ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾ حتى قال ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ حكم لهؤلاء الذين قاموا بالليل بالعلم فهم لموضع علمهم أزعجوا النفوس عن مقار طبيعتها ووقوها بالنظر إلى اللذات الروحانية إلى ذرى حقيقتها فتجافت جنوبهم عن المضاجع وخرجوا من صفة الغافل الهاكع

ومن ذلك أن يغير العادة فإن كان ذا وسادة يترك الوسادة وإن كان ذا وطاء يترك الوطاء . وقد كان بعضهم يقول لأن أرى فى بيتى شيطانا أحب إلى من أن أرى وسادة فإنها تدعو إلى النوم ولتغيير العادة فى الوسادة والغطاء والوطاء تأثير فى ذلك ومن ترك شيئا من ذلك والله عالم بنيته وعزيمته يثيبه على ذلك بتيسير مارام ومن ذلك خفة المعدة من الطعام . ثم تناول ما يأكل من الطعام إذا اقترن بذكر الله ويقظة الباطن أعان على قيام الليل لأن بالذكر يذهب داؤه فإن وجد للطعام ثقلا على المعدة ينبغى أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر فلا ينام حتى يذيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار قال بعضهم : لأن أنقص من عشائى لقمة أحب إلى من أن أقوم ليلة .

والأحوط أن يوتر قبل النوم فإنه لايدرى ماذا يحدث ويعد طهوره وسواكه عنده ولا يدخل النوم إلا وهو على الطهارة قال رسول الله ﷺ « إذا نام العبد وهو على الطهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة . وإن لم ينم على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ فتكون المنامات أضغاث أحلام لاتصدق » والمريد المتأهل إذا نام فى الفراش مع الزوجه ينتقض وضوءه باللمس ولا يفوته بذلك فائدة النوم على الطهارة مالم يسترسل فى التلذاذ النفس باللمس ولا يعدم يقظة القلب فأما إذا استرسل فى الالتذاذ وغفل فتحجب الروح أيضا لمكان صلافته .

ومن الطهارة التى تثمر صدق الرؤيا : طهارة الباطن عن خدش الهوى وكدورة محبة الدنيا والتنزه عن أنجاس الغل والحقد والحسد وقد ورد « من أوى إلى فراشه لاينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم » وإذا طهرت النفس عن الرزائل : انجلت مرآة القلب وقابل اللوح المحفوظ فى النوم . وانتقشت فيه عجائب الغيب وغرائب الأنباء ففى الصديقين من يكون له فى منامه مكالمة ومحادثة فيأمره الله تعالى وينهاه ويفهمه فى المنام ويعرفه ويكون موضع ما يفتح له فى نومه من الأمر والنهى الظاهر يعصى الله تعالى إن أخل بهما . بل تكون هذه الأوامر آكد وأعظم وقعا لأن المخالفات الظاهرة تمحوها التوبة والتائب من الذنب كمن لاذنب له وهذه أوامر خاصه تتعلق بحاله فيما بينه وبين الله تعالى . فاذا أخل بها يخشى أن ينقطع عليه طريق الإرادة ويكون فى ذلك الرجوع عن الله واستيجاب مقام المقت فإن ابتلى العبد فى بعض الأحايين بكسل وفتور عزيمة يمنع من تجديد الطهارة عند النوم بعد الحدث : يمسح أعضاءه بالماء مسحا حتى يخرج بهذا القدر عن زمرة الغافلين حيث تقاعد فعل المتيقظين وهكذا إذا كسل عن القيا عقيب الانتباه يجتهد أن يستاك ويمسح أعضاءه بالماء مسحا حتى يخرج فى تقلباته وانتباهاته عن زمرة الغافلين ففى ذلك فضل كثير لمن كثر نومه وقل قيامه : روى أن النبى ﷺ كان يستاك فى كل ليلة مراراً عند كل نوم وعند الانتباه منه .

ويستقبل القبلة فى نومه وهو على نوعين : فإما على جنبه الأيمن كالملحود ، وإما على ظهره مستقبلا للقبلة كالميت المسجى ، ويقول : باسمك اللهم وضعت جنبي وبك أرفعه ، اللهم إن أمسكت نفسى فاغفر لها وارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ، اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رهبة منك ورغبة إليك ، لاملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت ، اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك ، الحمد لله الذى حكم فقهر ، الحمد لله الذى بطن فخبر ، الحمد لله الذى ملك فقدر ، الحمد لله الذى هو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ، اللهم إنى أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك وشر عبادك وشر الشيطان وشركه . ويقرأ خمس آيات من البقرة : الأربع من الأول والآية الخامسة ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ وآية الكرسى و ﴿ آمن الرسول ﴾ و ﴿ إن ربكم الله ﴾ و ﴿ قل ادعو الله ﴾ وأول سورة الحديد ، وآخر سورة الحشر ، وقل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، والمعوذتين ، وينفث بهن فى يديه ويمسح بهما وجهه وجسده ، وإن أضاف إلى ما قرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من آخرها فحسن . ويقول : اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك ، واستعملنى بأحب الأعمال إليك التى تقربنى إليك زلفى وتبعدنى من سخطك بعداً ، أسألك فتعطينى ، وأستغفرك فتغفر لى ، وأدعوك فتستجيب لى ، اللهم لا تؤمنى مكرك ، ولا تولنى غيرك ، ولا ترفع عنى سترك ، ولا تنسنى ذكرك ، ولا تجعلنى من الغافلين ، ورد أن من قال هذه الكلمات بعث الله تعالى إليه ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة فإن صلى ودعا أمنوا على دعائه ، وإن لم يقم تعبدت الأملاك فى الهواء وكتب له ثواب عبادتهم ، ويسبح ويحمد ويكبر كل واحد ثلاثا وثلاثين ، ويتمم المائة بلا إله إلا الله والله أكبر ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الباب السابع والأربعون : فى أدب الانتباه من النوم والعمل بالليل

إذا فرغ المؤذن من أذان المغرب يصلى ركعتين خفيفتين بين الأذان والإقامة ، وكان العلماء يصلونها تين الركعتين فى البيت يعجلون بهما قبل الخروج إلى الجماعة كيلا يظن الناس أنهما سنة مرتبة فيقتدى بهم ، ظنا منهم أنهما سنة مؤكدة وإذا صلى المغرب يصلى ركعتى السنة بعد المغرب يعجل بهما(١) فإنهما يرفعان مع الفريضة ، يقرأ فيهما بقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ثم يسلم على ملائكة الليل والكرام الكاتبين . فيقول : مرحبا بملائكة الليل ، مرحبا بالملكين الكريمين الكاتبين ، اكتبا فى صحيفتى أنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، وأشهد أن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، والصراط والميزان حق ، وأشهد أن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ، اللهم أودعك هذه الشهادة ليوم حاجتى إليها . اللهم احطط بها وزرى واغفر بها ذنبي ، وثقل بها ميزانى وأوجب لى بها أمانى ، وتجاوز عنى يا أرحم الراحمين فإن واصل بين العشاءين فى مسجد جماعته : يكون جامعا بين الاعتكاف ومواصلة العشاءين ، وإن رأى انصرافه إلى منزله وأن المواصلة بين العشاءين فى بيته أسلم لدينه وأقرب إلى الإخلاص وأجمع للهم فليفعل : وسئل رسول الله عليه السلام عن قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ فقال « هى الصلاة بين العشاءين » وقال عليه السلام « عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغاة النهار وتهذب آخره » ويجعل من الصلاة بين العشاءين ركعتين بسورة البروج والطارق ، ثم ركعتين بعد ركعتين : يقرأ فى الأولى عشر آيات من أول سورة البقرة والآيتين ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ إلى آخر الآيتين ، وخمس عشرة مرة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وفى الثانية آية الكرسى و ﴿ آمن الرسول ﴾ وخمس عشرة مرة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ويقرأ فى الركعتين الأخيرتين من سورة الزمر والواقعة ، ويصلى بعد ذلك ما شاء ، فإن أراد أن يقرأ شيئا من حزبه فى هذا الوقت فى الصلاة أو غيرها ، وإن شاء صلى عشرين ركعة خفيفة بسورة الإخلاص

(١) أى بعد ختم الصلاة مباشرة فتنبه .

والفاتحة ، ولو واصل بين العشاءين بركعتين يطيلهما فحسن ، وفى هاتين الركعتين يطيل القيام تاليا للقرآن حزبه أو مكررا آية فيها الدعاء والتلاوة ، مثل أن يقرأ مكررا ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ أو آية أخرى فى معناها فيكون جامعا بين التلاوة والصلاة والدعاء .

فنى ذلك جمع للهم وظفر بالفضل ثم يصلى قبل العشاء أربعا وبعدها ركعتين ثم ينصرف إلى منزله أو موضع خلوته فيصلى أربعا أخرى . وقد كان رسول الله ﷺ يصلى فى بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس أربعا ويقرأ فى هذه الأربع سورة لقمان ويس وحم الدخان وتبارك الملك وإن أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسى وآمن الرسول وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر ويصلى بعد الأربع إحدى عشرة ركعة يقرأ فيها ثلثمائة آية من القرآن من ﴿ السماء والطارق ﴾ إلى آخر القرآن ثلثمائة آية هكذا ذكر الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله وإن أراد قرأ هذا القدر فى أقل من هذا العدد من الركعات وإن قرأ من سورة الملك إلى آخر القرآن وهو ألف آية فهو خير عظيم وإن لم يحفظ القرآن يقرأ فى كل ركعة خمس مرات ﴿ قل هو الله أحد ﴾ إلى عشر مرات إلى أكثر ولا يؤخر الوتر إلى آخر التهجد إلا أن يكون واثقا من نفسه فى عادتها بالانتباه للتهجد فيكون تأخير الوتر إلى آخر التهجد حينئذ أفضل وقد كان بعض العلماء إذا أوتر قبل النوم ثم قام يتهجد يصلى ركعة يشفع بها وتره ، ثم يتنفل ماشاء ويوتر فى آخر ذلك وإذا كان الوتر من أول الليل يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا يقرأ فيهما بإذا زلزلت والهاكم وقيل فعل الركعتين قاعدا بمنزلة الركعة قائما يشفع له الوتر حتى إذا أراد التهجد يأتى به ويوتر فى آخر تهجده ونية هاتين الركعتين نية النفل لاغير ذلك وكثيرا ما رأيت الناس يتفاوضون كبقية نيتهما وإن قرأ فى كل ليلة المسبحات وأضاف إليها سورة الأعلى فتصير سبعا فقد كان العلماء يقرءون هذه السور ويترقبون بركتها .

فإذا استيقظ من النوم فمن أحسن الأدب عند الانتباه أن يذهب بباطنه إلى الله ويصرف فكره إلى أمر الله قبل أن يجول الفكر فى شىء سوى الله ويشتغل اللسان بالذكر فالصادق كالطفل الكلف بالشىء إذا نام ينام على محبة الشىء وإذا انتبه يطلب ذلك الشىء الذى كان كلفا به ، وعلى حسب هذا الكلف والشغل يكون الموت والقيام إلى الحشر ، فلينظر وليعتبر عند انتباهه من النوم : ماهمه ؟ فإنه هكذا يكون عند القيام من القبر : إن كان همه الله فهو هو وإلا فهمه غير الله والعبد إذا انتبه من النوم فباطنه عائد إلى طهارة الفطرة فلايدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى حتى لايذهب عنه نور الفطرة الذى انتبه عليه ، ويكون فارا إلى ربه بباطنه خوفا من ذكر الأغيار ومهما وفى الباطن بهذا المعيار فقد انتقى طريق الأنوار وطرق النفحات الإلهية فجدير أن تنصب إليه أقسام الليل انصبابا ويصير جناب القرب له موئلا ومآبا ، ويقول باللسان : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور . ويقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران ثم يقصد الماء الطهور قال الله تعالى ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ وقال عز وجل ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ قال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما الماء القرآن والأودية : القلوب فسالت بقدرها واحتملت ماوسعت والماء مطهر والقرآن مطهر . والقرآن بالتطهير أجدر فالماء يقوم غيره مقامه ، والقرآن والعلم لايقوم غيرهما مقامهما ولا يسد مسدهما فالماء الطهور يطهر الظاهر والعلم والقرآن يطهران الباطن ويذهبان رجز الشيطان فالنوم غفلة وهو من آثار الطبع . وجدير أن يكون من رجز الشيطان لما فيه من الغفلة عن الله تعالى وذلك أن الله تعالى أمر بقبض القبضة من التراب من وجه الأرض فكانت القبضة جلدة الأرض والجلدة ظاهرها بشرة وباطنها أدمة قال الله تعالى ﴿ إنى خالق بشرا من طين ﴾ فالبشرة والبشر عبارة عن ظاهره وصورته والأدمة عبارة عن باطنه وآدميته والآدمية بجمع الأخلاق الحميدة . وكان التراب موطىء أقدام إبليس . ومن ذلك اكتسب ظلمة وصارت تلك الظلمة معجونة فى طينة الآدمى ومنها الصفات المذمومة والأخلاق الرديئة ومنها الغفلة والسهو فاذا استعمل الماء وقرأ القرآن أتى بالمطهرين جميعا ويذهب عنه رجز الشيطان وأثر وطأته ويحكم له بالعلم والخروج من حيز الجهل . فاستعمال الطهور أمر شرعى له تأثير فى تنوير القلب بإزاء النوم الذى هو الحكم الطبيعى

الذى له تأثير فى تكدير القلب ، فيذهب نور هذا بظلمة ذلك ، ولهذا رأى بعض العلماء الوضوء مما مست النار، وحكم أبو حنيفة رحمه الله بالوضوء من القهقهة فى الصلاة حيث رآها حكما طبيعيا جالبا للإثم ، والإثم رجز من الشيطان . والماء يذهب رجز الشيطان ، حتى كان بعضهم يتوضأ من الغيبة والكذب وعند الغضب لظهور النفس و تصرف الشيطان فى هذه المواطن . ولو أن المتحفظ المراعى المراقب المحاسب كلما انطلقت الشمس فى مباح من كلام أو مساكنة إلى مخالطة الناس أو غير ذلك مما هو بعرضة تحليل عقد العزيمة كالخوض فيما لا يعنى قولا وفعلا عقب ذلك بتجديد الوضوء لثبت القلب على طهارته ونزاهته ، ولكان الوضوء لصفاء البصيرة بمثابة الجفن الذى لا يزال بخفة حركته يجلو البصر ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ فتفكر فيما نبهتك عليه تجد بركته وأثره .

ولو اغتسل عند هذه المتجددات والعوارض والانتباه من النوم ، لكان أزيد فى تنوير قلبه ، ولكان الأجدر أن العبد يغتسل لكل فريضة باذلا مجهوده فى الاستعداد لمناجاة الله ، ويجدد غسل الباطن بصدق الإنابة وقد قال الله تعالى ﴿منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ﴾ قدم الإنابة للدخول فى الصلاة ، ولكن من رحمة الله تعالى وحكم الحنيفية السهلة السمحة أن رفع الحرج وعوض بالوضوء عن الغسل ، وجوز أداء مفترضات بوضوء واحد دفعا للحرج عن عامة الأمة ، وللخواص وأهل العزيمة مطالبات من بواطنهم تحكم عليهم بالأولى وتلجئهم إلى سلوك طريق الأعلى: فإذا قام إلى الصلاة وأراد استفتاح التهجد يقول : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ، ويقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله عشر مرات ويقول : الله أكبر ذو الملك والملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة ، اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ، أنت الحق ومنك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق والنار حق ، والنبيون حق ومحمد عليه السلام حق: اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وبك خاصمت واليك حاكمت ، فاغفر لى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ، اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت أسألك مسئلة البائس المسكين ، وأدعوك دعاء الفقير الذليل ، فلا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رءوفا رحيما ياخير المسئولين ويا أكرم المعطين .

ثم يصلى ركعتين تحية الطهارة : يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ﴾ الآية ، وفى الثانية ﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾ ويستغفر بعد الركعتين مرات ، ثم يستفتح الصلاة بركعتين خفيفتين إن أراد ، يقرأ فيهما بآية الكرسى وآمن الرسول وإن أراد غير ذلك ، ثم يصلى ركعتين طويلتين : هكذا روى عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد هكذا . ثم يصلى ركعتين طويلتين أقصر من الأوليين ، يتدرج إلى أن يصلى اثنى عشرة ركعة أو ثمان ركعات ، أو يزيد على ذلك ، فإن فى ذلك فضلا كثيرا . والله أعلم .

الباب الثامن والأربعون : فى تقسيم قيام الليل

قال عز وجل ﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) كان عملهم قيام الليل .

وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ . استعينوا بصلاة الليل على مجاهدة النفس ومصابرة العدو.

وفى الخبر « عليكم بقيام الليل فانه مرضاة لربكم وهو دأب الصالحين قبلكم ومنهاة عن الإثم وملغاة للوزر ومذهب كيد الشيطان ومطردة للداء عن الجسد » .

وقد كان جمع من الصالحين يقومون الليل كله ، حتى نقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون الغداة

بوضوء العشاء منهم سعيد بن المسيب وفضيل بن عياض ووهيب بن الفرات وأبو سليمان الدارانى وعلى بن بكار وحبيب العجمى وكهمس بن المنهال وأبو حازم ومحمد بن المنكدر وأبو حنيفة رحمه الله تعالى وغيرهم عدهم وسماهم بأنسابهم الشيخ أبو طالب المكى فى كتابه قوت القلوب فمن عجز عن ذلك يستحب له قيام ثلثيه أو ثلثه وأقل الاستحباب سدس الليل فإما أن ينام ثلث الليل الأول ويقوم نصفه وينام سدسه الآخر أو ينام النصف الأول ويقوم ثلثه . أو ينام السدس .

روى أن داود عليه السلام قال : يارب إنى احب أن أتعبد لك فأى وقت اقوم؟ فأوحى الله تعالى إليه : ياداود لاتقم اول الليل ولا آخره فانه من قام اوله نام آخره . ومن قام آخره نام اوله ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بى وأخلو بك وأرفع إلى حوائجك .

ويكون القيام بين نومتين وإلا فيغالب النفس من اول الليل ويتنفل فاذا غلبه النوم ينام فاذا انتبه يتوضأ فيكون له قومتان و نومتان ويكون ذلك من أفضل مايفعله ولا يصلى وعنده نوم يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يعقل ما يقول وقد ورد « لاتكابدوا الليل » .

وقيل لرسول الله ﷺ : إن فلانة تصلى من الليل فاذا غلبها النوم تعلقت بحبل ، فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك وقال « ليصل احدكم من قليل ما تيسر فاذا غلبه النوم فلينم » وقال عليه السلام : « لاتشادوا هذا الدين فانه متين فمن يشاده يغلبه » ولا تبغضن الى نفسك عبادة الله .

ولا يليق بالطالب ولا ينبغى له أن يطلع الفجر وهو نائم إلا ان يكون قد سبق له فى الليل قيام طويل فيعذر فى ذلك على انه إذا استيقظ قبل الفجر بساعة مع قيام الليل سبق فى الليل يكون افضل من قيام طويل ثم النوم إلى بعد طلوع الفجر فاذا استيقظ قبل الفجر يكثر الاستغفار والتسبيح ويختم تلك الساعة وكلما يصلى بالليل يجلس قليلا بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ويصلى على رسول الله ﷺ فانه يجد بذلك ترويحا وقوة على القيام وقد كان بعض الصالحين يقول : هى أول نومة فان انتبهت ثم عدت إلى نومة اخرى فلا أنام الله عينى .

وحكى لى بعض الفقراء عن شيخ له انه كان يأمر الأصحاب بنومة واحدة بالليل وأكلة واحدة لليوم والليلة .

وقد جاء فى الخبر « قم من الليل ولو قدر حلب شاة » وقيل يكون ذلك قدر اربع ركعات وقدر ركعتين .

وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ هو قيام الليل ومن حرم قيام الليل كسلا وفتورا فى العزيمة او تهاونا به لقلة الاعتداد بذلك او اغترار بحاله فليبك عليه فقد قطع عليه طريق كبير من الخير وقد يكون من ارباب الأحوال من يكون له إيواء إلى القرب ويجد من دعة القرب مايفتر عليه داعية الشوق ويرى ان القيام وقوف فى مقام الشوق وهذا يغلط فيه ويهلك به خلق من المدعين والذى له ذلك ينبغى ان يعلم ان استمرار هذه الحالة متعذر . والإنسان متعرض للقصور والتخلف والشبهة . ولا حالة اجـــل من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما استغنى عن قيام الليل . قام حتى تورمت قدماه . وقد يقول بعض من يحاج فى ذلك : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك تشريعا . فنقول : ما بالنا لانتبع تشريعه . وهذه دقيقة . فتعلم ان رؤية الفضيلة فى ترك القيام وادعاء الإيواء إلى جناب القرب واستواء النوم واليقظة : امتلاء وابتلاء حالى وهو تقييد بالحال وتحكيم للحال وتحكم من الحال فى العبد والأقوياء لايتحكم فيهم الحال ويصرفون الحال فى صور الأعمال فهم متصرفون فى الحال لا الحال متصرف فيهم . فليعلم ذلك فإنا راينا من الاصحاب من كان فى ذلك ثم انكشف لنا بتأييد الله تعالى ان ذلك وقوف وقشور .

قيل للحسن : يا ابا سعيد انى ابيت معافى واحب قيام الليل واعد طهورى . فما بالى لااقوم ؟ قال : ذنوبك قيدتك . فليحذر العبد فى نهاره ذنوبا تقيده فى ليله .

وقال الثورى رحمه الله : حرمت قيام الليل سبعة اشهر بذنب اذنبته . فقيل له : ماكان الذنب ؟ قال : رايت

رجلا بكاء ، فقلت فى نفسى : هذا مراء .

وقال بعضهم : دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكى ، فقلت : ما بالك أتاك نعى بعض أهلك ؟ فقال : أشد . فقلت: وجع يؤلمك ؟ قال : أشد . فقلت : وماذاك ، قال : بابى مغلق وسترى مسبل ولم أقرأ حزبى البارحة وما ذاك إلا بذنب أحدثته .

وقال بعضهم : الاحتلام عقوبة وهذا الصحيح لأن المراعى المتحفظ بحسن تحفظه وعلمه بحاله : يقدر ويتمكن من سد باب الاحتلام ، ولا يتطرق الاحتلام إلا على جاهل بحاله أو مهمل حكم وقته وأدب حاله . ومن كل تحفظه ورعايته وقيامه بأدب حاله قد يكون من ذنبه الموجب للاحتلام : وضع الرأس على الوسادة إذا كان ذا عزيمة فى ترك الوسادة وقد يتمهد للنوم . ووضع الرأس على الوسادة بحسن النية من لا يكون ذلك ذنبه وله فيه نية للعون على القيام . وقد يكون ذلك ذنبا بالنسبة إلى بعض الناس فإذا كان هذا القدر يصلح أن يكون ذنبا جالبا للاحتلام فقس على هذا ذنوب الأحوال فإنها تختص بأربابها ويعرفها أصحابها وقد يرتفق بأنواع الرفق من الفراش الوطىء والوسادة ولا يعاقب بالاحتلام وغيره على فعله إذا كان عالما ذا نية يعرف مداخل الأمور ومخارجها . وكم من نائم يسبق القائم لوفور علمه وحسن نيته . وفى الخبر «إذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد . فإن قعد وذكر الله تعالى انحلت عقدة . وإن توضأ انحلت عقدة أخرى . وإن صلى ركعتين انحلت العقد كلها فأصبح نشيطا طيب النفس . وإلا أصبح كسلان خبيث النفس » .

وفى خبر آخر « إن من نام حتى يصبح بال الشيطان فى أذنه » والذى يخل بقيام الليل : كثرة الاهتمام بأمور الدنيا . وكثرة أشغال الدنيا . وإتعاب الجوارح والامتلاء من الطعام . وكثرة الحديث . واللغو واللغط وإهمال القيلولة . والموفق من يغتنم وقته ويعرف داءه ودواءه ولا يهمل فيهمل .

الباب التاسع والأربعون : فى استقبال النهار والأدب فيه والعمل

قال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار ﴾ أجمع المفسرون على أن أحد الطرفين أراد به الفجر وأمر بصلاة الفجر . واختلفوا فى الطرف الآخر . قال قوم : أراد به المغرب ، وقال آخرون : صلاة العشاء . وقال قوم : صلاة الفجر والظهر طرف . وصلاة العصر والمغرب طرف . وزلفا من الليل : صلاة العشاء . ثم إن الله تعالى أخبر عن عظيم بركة الصلاة وشرف فائدتها وثمرتها وقال ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ أى الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات وروى أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصارى كان يبيع التمر ، فأتت امرأة تبتاع تمرا ، فقال لها : إن هذا التمر ليس بجيد . وفى البيت أجود منه ، فهل لك فيه رغبة ؟ قالت : نعم ! فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها ، فقالت له اتق الله فتركها وندم ، ثم أتى النبى عليه السلام وقال : يارسول الله ما تقول فى رجل راود امرأة عن نفسها ولم يبق شىء مما يفعل الرجال بالنساء إلا ركبه غير أنه لم يجامعها ؟ قال عمر بن الخطاب : لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك ؟ ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه شيئا وقال : أنتظر أمر ربى وحضرت صلاة العصر وصلى النبى عليه الصلاة والسلام العصر فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية فقال النبى عليه الصلاة والسلام « أين أبو اليسر؟ » فقال ها أنذا يارسول الله ! قال « شهدت معنا هذه الصلاة؟ » قال نعم . قال «اذهب فإنها كفارة لما عملت » فقال عمر ! يارسول الله هذا له خاصة أو لنا عامة؟ فقال« بل للناس عامة» فيستعد العبد لصلاة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع الفجر ، ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرناه فى أول الليل ثم يؤذن إن لم يكن أجاب المؤذن ثم يصلى ركعتى الفجر يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفى الثانية ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وإن أراد قرأ فى الأولى ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل الآية ﴾ فى سورة البقرة وفى الأخرى ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ﴾ ثم يستغفر الله ويسبح الله تعالى بما يتيسر له من العدد وإن اقتصر على كلمة استغفر الله لذنبى سبحان الله بحمد ربى أتى بالمقصود من التسبيح والاستغفار ثم

يقول اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى وترد بها الفتن عنى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى وتزكى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلقنى بها رشدى وتعصمنى بها من كل سوء . اللهم اعطنى إيمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر ورحمة انال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة اللهم انى اسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الاعداء ومرافقة الأنبياء اللهم إنى انزل بك حاجتى وإن قصر رأيى وضعف عملى وافتقرت إلى رحمتك واسألك ياقاضى الامور وياشافى الصدور كما تجير بين البحور — ان تجيرنى من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور اللهم ماقصر عنه رأيى وضعف فيه عملى ولم تبلغه نيتى وامنيتى — من خير وعدته احدا من عبادك اوخير انت معطيه احدا من خلقك — فأنا راغب إليك فيه واسالك إياه يارب العالمين اللهم اجعلنا هادين مهديين غير ضالين ولامضلين . حربا لاعدائك وسلما لأوليائك ، نحب بحبك الناس ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك . اللهم هذا الدعاء منى ومنك الإجابة ، وهذا الجهد وعليك التكلان إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد ، أسألك الامن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود والموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود وأنت تفعل ماتريد ، سبحان من تعطف بالعز وقال به سبحان من لبس المجد وتكرم به ، سبحان الذى لاينبغى التسبيح إلا له سبحان ذى الفضل والنعم سبحان ذى الجود والكرم سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ونورا فى قبرى ونورا فى سمعى ونورا فى بصرى ونورا فى شعرى ونورا فى بشرى ونورا فى لحمى ونورا فى دمى ونورا فى عظامى ونورا من بين يدى ونورا من خلفى ونورا عن يمينى ونورا عن شمالى ونورا من فوقى ونورا من تحتى اللهم زدنى نورا واعطنى نورا واجعل لى نورا .

ولهذا الدعاء أثر كبير . ومارأيت أحدا حافظ عليه إلا وعنده خير ظاهر وبركة وهو من وصية الصادقين بعضهم بعضا بحفظه والمحافظة عليه . منقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرؤه بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر ، ثم يقصد المسجد للصلاة فى الجماعة ويقول عند خروجه من منزله ﴿ وقل رب ادخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ ويقول فى الطريق : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا إليك لم أخرج أشرا ولا بطرا ولارياء ولاسمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك ان تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى إنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، وروى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قال ذلك إذا خرج إلى الصلاة وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله تعالى عليه بوجهه الكريم حتى يقضى صلاته

وإذا دخل المسجد أو أدخل سجادته للصلاة يقول : بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك ويقدم رجله اليمنى فى الدخول واليسرى فى الخروج من المسجد أو السجادة ؛ فسجادة الصوفى بمنزلة البيت والمسجد ثم يصلى صلاة الصبح فى جماعة فإذا سلم يقول : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ؛ له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير لا إله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الاحزاب وحده ، لا اله إلا الله اهل النعمة والفضل والثناء الحسن لا اله إلا الله ولا نعبد الا اياه مخلصين له الدين ولوكره الكافرون ويقرأ : هو الله الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم التسعة والتسعين اسما إلى آخرها فإذا فرغ منها يقول : اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الامى وعلى آل محمد صلاة تكون له رضاء ولحقه آداء وأعطه الوسيلة والمقام المحمود الذى وعدته واجزه عنا ما هو اهله واجزه عنا أفضل ما جازيت نبيا عن أمته وصل على جميع إخوانه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين اللهم صل على محمد فى الاولين وصل على محمد فى الآخرين وصل على محمد الى يوم الدين اللهم صل على روح محمد فى الارواح وصل على جسد محمد فى الاجساد واجعل شرائف صلواتك ونوامى بركاتك ورأفتك

ورحمتك وتحننك ورضوانك على محمد عبدك ونبيك ورسولك ، اللهم أنت السلام ومنك السلام واليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام . اللهم إنى أصبحت لاأستطيع دفع ماأكره ولا أملك نفع ماأرجو وأصبح الأمر بيد غيرى وأصبحت مرتهنا بعملى ، فلا فقير أفقر منى ، اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسىء بى صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى ، ولا تسلط على من لا يرحمنى ، اللهم هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك واختمه لى بمغفرتك ورضوانك وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكها وضعفها ، وما عملت فيه من سيئة فاغفر لى إنك غفور رحيم ودود ، رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ، اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم وخير مافيه واعوذ بك من شره وشر ما فيه ، وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ومن بغتات الأمور وفجاءة الأقدار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقا يطرق منك بخير يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وأعوذ بك أن أزل أو أزل أو أضل أو أضل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على ، عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماؤك وعظمت نعماؤك ، أعوذ بك من شر ما يلج فى الأرض ومايخرج منها ومايننزل من السماء وما يعرج فيها ، أعوذ بك من حدة الحرص وشدة الطمع وسورة الغضب وسنة الغفلة وتعاطى الكلفة ، اللهم إنى أعوذ بك من مباهاة المكثرين ، والإزراء على المقلين ، وأن أنصر ظالما أو أخذل مظلوما ، وأن أقول فى العلم بغير علم ، أو أعمل فى الدين بغير يقين ، أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم ، أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وابن عبديك وانا على عهدك ووعدك مااستطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، ابوء لك بنعمتك على وابوء بذنبى ، فاغفر لى إنه لايغفر الذنوب إلا انت ، اللهم اجعل اول يومنا هذا صلاحا وآخره نجاحا واوسطه فلاحا . اللهم اجعل اوله رحمة واوسطه نعمة وآخره تكرمة . اصبحنا واصبح الملك لله والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان لله والليل والنهار وما سكن فيهما لله الواحد القهار . اصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص على دين نبينا محمد ﷺ وملة ابينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين . اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا انت الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام . انت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد . ياحى ياقيوم . ياحى حين لا حى فى ديمومة ملكه وبقائه . ياحى محيى الموتى . ياحى مميت الأحياء ووارث الارض والسماء : اللهم إنى اسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الله لا إله إلا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم : للهم إنى اسألك باسمك الأعظم الاجل الأعز الأكرم الذى إذا دعيت به اجبت وإذا سئلت به اعطيت . يانور النور يامدبر الأمور ياعالم مافى الصدور : ياسميع ياقريب يامجيب الدعاء يالطيفا لما يشاء : ياروف يارحيم ياكبير ياعظيم ياالله يارحمن ياذا الجلال والإكرام : الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم وعنت الوجوه للحى القيوم : ياإلهى وإله كل شىء إلها واحدا لا إله إلا انت اللهم إنى اسألك باسمك ياالله ياالله ياالله الله الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم : فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم انت الأول والآخر والظاهر والباطن وسعت كل شىء رحمة وعلما : كهيعص حم عسق الرحم ن ياواحد ياقهار ياعزيز ياجبار : ياأحد ياصمد ياودو ياغفور ، وهو الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم : لا إله إلا انت سبحانك إنى كنت من الظالمين . اللهم إنى اعوذ باسمك المكنون المخزون المنزل السلام المطهر الطاهر القدوس المقدس . يادهر ياديهور ياديهار يا أبد ياازل يامن لم يزل ولا يزول هو ياهو لا إله إلا هو . يامن لا هو الا هو . يامن لايعلم ماهو الا هو : ياكان ياكينان ياروح يا كائن قبل كل كون . يا كائن بعد كل كون . يامكونا لكل كون : أهيا شراهيا ادوناى اسبؤت . يامجلى عظائم الأمور ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم انك حميد مجيد . اللهم انى اعوذ بك من

علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ، اللهم إنى أعوذ بك من فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات، اللهم إنى أعوذ بك من شر ما علمت وشر ما لم أعلم ، وأعوذ بك من شر سمعى وبصرى ولسانى وقلبى ، اللهم إنى أعوذ بك من القسوة والغفلة والذل والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الاخلاق وضيق الارزاق والسمعة والرياء، وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسائر الاسقام ، اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحويل عافيتك ومن فجأة نقمتك ومن جميع سخطك ، اللهم إنى أسألك الصلاة على محمد وعلى آل محمد وأسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل وأسألك ما سألك عبدك ونبيك محمد ﷺ ، وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد ﷺ ، وأسألك ما قضيت لى أمر أن تجعل عاقبته رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله يا نور السموات والارض يا جمال السموات والارض يا ذا الجلال والإكرام ، يا صريخ المستصرخين يا غوث المستغيثين ، يا منتهى رغبة الراغبين والمفرج عن المكروبين والمروح عن المغمومين ومجيب دعوة المضطرين وكاشف السوء وأرحم الراحمين وإله العالمين، منزول بك كل حاجة يا أرحم الراحمين ، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى وأقلنى عثراتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بك أن أغتال من تحتى اللهم إنى ضعيف فقو فى رضاك ضعفى وخذ إلى الخير بناصيتى واجعل الإسلام منتهى رضاى اللهم إنى ضعيف فقونى اللهم إنى ذليل فأعزنى اللهم إنى فقير فأغننى برحمتك يا أرحم الراحمين اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت لى والرضا بما قسمت يا ذا الجلال والإكرام .

اللهم يا هادى المضلين ويا راحم المذنبين ومقيل عثرة العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الاحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. آمين يارب العالمين اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا إله إلا أنت الوكيل وإليك المصير يامن لا يشغله شأن عن شأن ولا يشغله سمع عن سمع ولا تشتبه عليه الاصوات ويامن لا تغلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات ويامن لا يتبرم بإلحاح الملحين أذقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك اللهم إنى أسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وعملا متقبلا أسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما نعلم وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . اللهم إنى أسألك إيمانا لا يرتد ونعيما لا ينفد وقرة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد وأسألك حبك وحب من أحبك . وحب عمل يقرب إلى حبك اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على خلقك أحينى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفنى ما كانت الوفاة خيرا لى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة. وكلمة العدل فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة . اللهم اقسم لى من من خشيتك ما تحول به بينى وبين معصيتك ومن طاعتك ما يدخلنى جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا اللهم ارزقنا حزن خوف الوعيد وسرور رجاء الموعود حتى نجد لذة ما نطلب وخوف ما منه نهرب . اللهم ألبس وجوهنا منك الحياء واملأ قلوبنا بك فرحا وأسكن فى نفوسنا من عظمتك مهابة ، وذلك جوارحنا لخدمتك ، واجعلك أحب إلينا مما سواك، واجعلنا أخشى لك ممن سواك ، نسألك النعمة بتمام التوبة ، ودوام العافية بدوام العصمة ، وأداء الشكر بحسن العبادة ، اللهم إنى أسألك بركة الحياة وخير الحياة ، وأعوذ بك من شر الحياة وشر الوفاة ، وأسألك خير ما بينهما ، أحينى حياء السعداء حياة من تحب بقاءه وتوفنى وفاة الشهداء : وفاة من تحب لقاءه ، يا خير الرازقين واحسن التوابين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين

ورب العالمين اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وارحم ماخلقت واغفر ماقدرت وطيب مارزقت وتمم ما أنعمت وتقبل ما استعملت واحفظ ما استحفظت ولا تهتك ماسترت فإنه لا إله إلا أنت، أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك ومن كل راحة بغير خدمتك ومن كل سرور بغير قربك ، ومن كل فرح بغير مجالستك ومن كل شغل بغير معاملتك اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه ، اللهم إنى أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به ، اللهم إنى أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على ، فتقويت بها على معصيتك ، اللهم إنى أستغفرك من كل عمل عملته لك فخالطه ما ليس لك ، اللهم إنى أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد وأسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه ، وأعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه . اللهم احفظنا فيما أمرتنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظ لنا ما أعطيتنا ياحافظ الحافظين ، وياذاكر الذاكرين وياشاكر الشاكرين بذكرك ذكروا وبفضلك شكروا ياغياث يامغيث يامستغاث ياغياث المستغيثين لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأهلك ، ولا إلى أحد من خلقك فأضيع ، اكلأنى كلاءة الوليد ولا تخل عنى وتولنى بما تتولى به عبادك الصالحين أنا عبدك وابن عبدك ناصيتى بيدك جار فى حكمك عدل فى قضاؤك نافذ فى مشيئتك ، إن تعذب فأهل ذلك أنا وإن ترحم فأهل ذلك أنت فافعل اللهم يا مولاى يا الله يا رب ما انت له أهل ولا تفعل اللهم يارب يا الله ما أنا له أهل إنك أهل التقوى وأهل المغفرة ، يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لى ما لا يضرك وأعطنى مالا ينقصك يا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وارزقنا العون على الطاعة ، والعصمة من المعصية وإفراغ الصبر فى الخدمة ، وإيذاع الشكر فى النعمة ، وأسألك حسن الخاتمة ، وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك ، وأسألك الرضا وحسن الثقة بك وأسألك حسن المنقلب إليك ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد فرجا عاجلا ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ، اللهم اغفر لى ولوالدى ولمن ولدا وارحمهما كما ربيانى صغيرا ، واغفر لأعمامنا وعماتنا ، وأخوالنا وخالاتنا وأزواجنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات يا أرحم الراحمين ، يا خير الغافرين .

ولما كان الدعاء مخ العبادة أحببنا أن نستوفى من ذلك قسما صالحا نرجو بركته وهذه الأدعية استخرجها الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله فى كتابه قوت القلوب وعلى نقله كل الاعتماد وفيه البركة فليدع بهذه الدعوات منفردا أو فى الجماعة إماما أو مأموما ويختصر منها ما يشاء .

الباب الخمسون : فى ذكر العمل فى جميع النهار وتوزيع الأوقات

فمن ذلك أن يلازم موضعه الذى صلى هو فيه مستقبل القبلة إلا أن يرى انتقاله إلى رواتبه أسلم لدينه لئلا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شىء فإن السكون فى هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين يجده أهل المعاملة وأرباب القلوب ، وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، ثم يقرأ الفاتحة وأول سورة البقرة إلى المفلحون ، والآيتين : وإلهكم إله واحد ، وآية الكرسى والآيتين بعدها ، وآمن الرسول والآية قبلها ، وشهد الله ، وقل اللهم مالك الملك ، وإن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض ـ إلى ـ المحسنين ، ولقد جاءكم رسول إلى الآخر ، وقل ادعوا الله الآيتين ، وآخر الكهف من : إن الذين آمنوا ..الخ وذا النون إذ ذهب مغاضبا ـ إلى ـ خير الوارثين فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وسبحان ربك إلى آخر السورة ، ولقد صدق الله ، وأول سورة الحديد ـ إلى ـ بذات الصدور ، وآخر سورة الحشر من لو أنزلنا ، ثم يسبح ثلاثا وثلاثين . وهكذا يحمد مثله . ويكبر مثله ويتمها

مائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ فإذا فرغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظا أو من المصحف أو يشتغل بأنواع الأذكار ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس . فإن النوم فى هذا الوقت مكروه جداً . فإن غلبه النوم فليقم فى مصلاه قائما مستقبل القبلة . فإن لم يذهب النوم بالقيام يخط خطوات نحو القبلة ويتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القبلة فنى إدامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر فى هذا الوقت : أثر كبير وبركة غير قليلة . وجدنا ذلك بحمد الله ونوصى به الطالبين . وأثر ذلك فى حق من يجمع فى الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر . وهذا الوقت اول النهار ـ والنهار مظنة الآفات ـ فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد احكم بنيانه وتبتنى اوقات النهار جميعا على هذا البناء . فاذا قارب طلوع الشمس يبتدىء بقراءة المسبعات العشر وهى من تعليم الخضر عليه السلام علمها ابراهيم التيمى وذكر انه تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وينال بالمداومة علها جميع المتفرق فى الأذكار والدعوات . وهى عشرة اشياء : سبعة سبعة : الفاتحة والمعوذتان وقل هو الله احد . وقل يا ايها الكافرون وآية الكرسى . وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر ، والصلاة على النبى وآله ، ويستغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات ، ويقول سبعاً : اللهم افعل بى وبهم عاجلا وآجلا فى الدين والدنيا والآخرة ما انت له اهل ، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له اهل إنك غفور حليم جواد كريم رءوف رحيم .

وروى ان إبراهيم التيمى لما قرأ هـذه بعد ان تعلمها من الخضر رأى فى المنام انه دخل الجنة ورأى الملائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة . وقيل : إنه مكث أربعة اشهر لم يطعم . وقيل : لعله كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة ؛ فاذا فرغ من المسبعات أقبل على التسبيح والاستغفار والتلاوة الى ان تطلع الشمس قدر رمح .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لأن اقعد فى مجلس اذكر الله فيه من صلاة الغداة الى طلوع الشمس احب الى من ان اعتق اربع رقاب » ثم يصلى ركعتين قبل ان ينصرف من مجلسه ، فقد نقل عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلى الركعتين ، وبهاتين الركعتين تتبين فائدة رعاية هذا الوقت ، وإذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد فى باطنه أثرا ونورا وروحا وأنسا إذا كان صادقا ، والذى يجده من البركة ثواب معجل له على عمله هـذا ، فى الأولى آية الكرسى وفى الأخرى آمن الرسول والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية وتكون نيته فيهما الشكر لله على نعمه فى يومه وليلته ، ثم يصلى ركعتين أخريين يقرأ المعوذتين فيهما فى كل ركعة سورة ، وتكون صلاته هذه ليستعيذ بالله تعالى من شر يومه وليلته ويذكر بعـد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول : أعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر السامة والهامة ، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر عذابك وشر عبادك ، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر مايجرى به الليل والنهار إن ربى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ويقول بعد الركعتين الأوليين : اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبحت مرتهنا بعملى وأصبح أمرى بيد غيرى فلا فقير افقر منى . اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسىء بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا مبلغ علمى ولا تسلط على من لا يرحمنى اللهم إنى أعوذ بك من الذنوب التى تزيل النعم وأعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم ثم يصلى ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل يعمله فى يومه وليلته وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق . وإلا فالاستخارة التى وردت بها الأخبار هى التى يصليها أمام كل أمر يريده ويقرأ فى هاتين الركعتين ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ . و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره فى غير هذا الباب ويقول فيه : كل قول وعمل أريده فى هذا اليوم اجعل فيه الخيرة ثم يصلى ركعتين أخريين يقرأ فى الأولى سورة الواقعة وفى الأخرى سورة الأعلى ويقول بعدها : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعل حبك احب الأشياء إلى وخشيتك اخوف الاشياء عندى واقطع عنى حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك وإذا أقررت عين اهل الدنيا بدنياهم فأقرر عينى بعبادتك واجعل طاعتك فى كل شىء يا ارحم الراحمين

ثم يصلى بعد ذلك ركعتين يقرأ فيهما شيئاً من حزبه من القرآن ثم بعد ذلك إن كان متفرغا ليس له شغل فى الدنيا يتنقل فى أنواع العمل من الصلاة والتلاوة وذكر إلى وقت الضحى، وإن كان ممن له فى الدنيا شغل إما لنفسه أو لعياله فليمض لحاجته ومهامه بعد أن يصلى ركعتين لخروجه من المنزل ، وهكذا ينبغى أن يفعل أبدا لايخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلى ركعتين ليقيه الله سوء المخرج ولا يدخل البيت إلا ويصلى ركعتين ليقيه الله سوء المدخل بعد أن يسلم على من فى المنزل من الزوجة وغيرها ، وإن لم يكن فى البيت أحد يسلم أيضا ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين . وإن كان متفرغا فأحسن أشغاله فى هذا الوقت إلى صلاة الضحى الصلاة ، فإن كان عليه قضاء صلى صلاة يوم أو أكثر ، وإلا فليصل ركعات يطولها ويقرأ فيها القرآن فقد كان من الصالحين من يختم القرآن فى الصلاة بين اليوم والليلة ، وإلا فليصل أعدادا من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وبالآيات التى فى القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ وأمثال هذه الآية يقرأ فى فى كل ركعة آية منها إما مرة أو يكررها مهما شاء ، ويقدر الطالب أن يصلى بين الصلاة التى ذكرناها بعد طلوع الشمس وبين صلاة الضحى مائة ركعة خفيفة ،وقد كان فى الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة إلى ألف ركعة ، ومن ليس له فى الدنيا شغل وقد ترك الدنيا إلى أهلها فما باله يبطل ولا يتنعم بخدمة الله تعالى . قال سهل بن عبد الله التسترى : لايكمل شغل قلب عبد بالله الكريم وله فى الدنيا حاجة .

فإذا ارتفعت الشمس وتنصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما ينتصف العصر بين الظهر والمغرب يصلى الضحى ، فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى . قال رسول الله ﷺ « صلاة الضحى إذا رمضت الفصال » وهو أن ينام الفصيل فى ظل أمه عند حر الشمس . وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بحر الشمس ، وأقل صلاة الضحى ركعتان ، وأكثرها اثنتا عشر ركعة ، ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ، ويسبح ويستغفر ، ثم بعد ذلك إن كان هناك حق يقضى مما ندب إليه من زيارة أو عيادة يمضى فيه ، وإلا فيديم العمل لله تعالى من غير فتور إما ظاهرا وإما باطنا وقلبا وقالبا ، وإلا فباطنا ، وترتيب ذلك : أنه يصلى مادام منشرحا ونفسه مجيبة ، فإن سئم ينزل من الصلاة إلى التلاوة ، فإن مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة ، فإن سئم التلاوة أيضا بذكر الله بالقلب واللسان فهو أخف من القراءة ، فإن سئم الذكر يدع ذكر اللسان ويلازم بقلبه المراقبة ، والمراقبة علم القلب بنظر الله تعالى إليه فمادام هذا العلم ملازما لقلبه فهو مراقب والمراقبة عين الذكر وأفضله فإن عجز عن ذلك أيضا وتملكته الوساوس وتزاحم فى باطنه حديث النفس فلينم ففى النوم حديث النفس تفسى القلب ككثرة الكلام لأنه كلام من غير لسان فيحترز عن ذلك قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصى حديث النفس والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره . فإنه بحديث النفس وما يتخايل له من ذكر ما مضى ورأى وسمع كشخص آخر فى باطنه ، فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر ، ويمكن للطالب المجد أن يصلى من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى وأقل من ذلك عشرين ركعة يصليها خفيفة ، أو يقرأ فى كل ركعتين جزءا من القرآن أو أقل أو أكثر .

والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد أخر من الركعات حسن. قال سفيان: كان يعجبهم إذا فرغوا أن يناموا طلبا للسلامة ، وهذا النوم فيه فوائد منها أنه يعين على قيام الليل ، ومنها أن النفس تستريح ويصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه ، والنفس إذا استراحت عادت جديدة ، فبعد الانتباه من نوم النهار تجد فى الباطن نشاطا آخر وشغفا آخر كما كان فى أول النهار ، فيكون للصادق فى النهار نهاران يغتنمهما : بخدمة الله تعالى والدؤب فى العمل . وينبغى أن يكون انتباهه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء بحيث يكون وقت الاستواء مستقبل القبلة ذاكرا أو مسبحا أو تاليا . قال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار ﴾ وقال ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ قيل : قبل طلوع الشمس : صلاة الصبح وقبل غروبها صلاة العصر ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ أراد العشاء الأخيرة ﴿ وأطراف النهار ﴾ أراد الظهر والمغرب ، لأن الظهر

صلاة فى آخر الطرف الأول من النهار، وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاه المغرب فصار الظهر آخر الطرف الأول والمغرب آخر الطرف الآخر ، فيستقبل الطرف الآخر بالذكر كما استقبل الطرف الأول ، وقدعاد بنوم النهار جديدا كما كان بنوم الليل ، ويصلى فى أول الزوال قبل السنة والفرض أربع ركعات بتسليمة واحدة كان يصليها رسول الله ﷺ ، وهذه صلاة الزوال قبل الظهر فى أول أوقاتها ، ويحتاج أن يراعى لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يفطن للوقت قبل المؤذنين حين يذهب وقت الكراهية بالاستواء ، فيشرع فى صلاة الزوال ويسمع الأذان وقد توسط هذه الصلاة ، ثم يستعد لصلاة الظهر . فإن وجد باطنه كدرا من مخالطة أو مجالسة اتفقت يستغفر الله تعالى ويتضرع إليه ، ولا يشرع فى صلاة الظهر إلا بعد أن يجد الباطن عائدا إلى حاله من الصفاء والذائقون حلاوة المناجاة لابد أن يجدوا صفو الأنس فى الصلاة، ويتكدرون بيسير من الاسترسال فى المباح ، ويصير على بواطنهم من ذلك عقد وكدر، وقد يكون ذلك بمجرد المخالطة والمجالسة مع الأهل والولد مع كون ذلك عبادة ولكن حسنات الأبرار سيآت المقربين ، فلا يدخل الصلاة إلا بعد حل العقد وإذهاب الكدر ، وحل العقد بصدق الإنابة والاستغفار والتضرع إلى الله تعالى ودواء مايحدث من الكدر بمجالسة الأهل والولد : أن يكون فى مجالسته غير راكن إليهم كل الركون ، بل يسترق القلب فى ذلك نظرات إلى الله تعالى فتكون تلك النظرات كفاره لتلك المجالسة إلا أن يكون قوى الحال لايحجبه الخلق عن الحق فلا ينعقد على باطنه عقدة فهو كما يدخل فى الصلاة لايجدها ويجد باطنه وقلبه. لأنه حيث استروحت نفس هذه إلى المجالسة كان استرواح نفسه منخمراً بروح قلبه ، لأنه يجالس ويخالط وعين ظاهرة ناظرة إلى الخلق وعين قلبه مطالعة للحضرة الإلهية فلا ينعقد على باطنه عقدة ، وصلاة الزوال التى ذكرناها تحل العقد وتهيء الباطن لصلاة الظهر ، فيقرأ فى صلاة الزوال بمقدار سورة البقرة فى النهار الطويل ، وفى القصير مايتيسر من ذلك قال الله تعالى ﴿ وعشيا وحين تظهرون ﴾ وهذا هو الإظهار . فان انتظر بعد السنة حضور الجماعه للفرد وقرأ الدعاء الذى بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر فحسن ، وكذلك ماورد أن النبى ﷺ دعا به إلى صلاة الفجر ، ثم إذا فرغ من صلاة الظهر يقرأ الفاتحة وآية الكرسى ويسبح ويحمد ويكبر ثلاثا وثلاثين كما وصفنا ولو قدر على الآيات كلها التى ذكرناها بعد صلاة الصبح وعلى الأدعية أيضا كان ذلك خيرا كثيرا وفضلا عظيما .

ومن له همة ناهضة وعزيمة صادقة لايستكثر شيئا لله تعالى ، ثم يحيى بين الظهر والعصر كما يحيى بين العشاءين على الترتيب الذى ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والمرقبة ، ومن دام سهره ينام نومة خفيفة فى النهار الطويل بين الظهر والعصر، ولو أحيا بين الظهر والعصر بركعتين يقرأ فيهما ربع القرآن او يقرأ ذلك فى أربع ركعات فهو خير كثير ، وإن أراد ان يحيى هذا الوقت بمائة ركعة فى النهار الطويل أمكن ذلك ، او بعشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة فى كل ركعة خمسين ، ويستاك قبل الزوال إن كان صائما ، وإن لم يكن صائما فأى وقت تغير فيه الفم ، وفى الحديث « السواك مطهرة للفم مرضاة الرب » وعند القيام إلى الفرائض يستحب قيل : إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا ، وقل هو خير ، وإن اراد ان يقرأ بين الصلاتين فى صلاته فى عشرين ركعة فى كل ركعة آية او بعض آية يقرأ فى الركعة الأولى ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ ثم فى الثانية ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ثم ﴿ ربنا لاتؤخذنا ... ﴾ إلى آخر السورة ثم ﴿ ربنا لاتزغ قلوبنا ... الآية ﴾ ثم ﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان ... الآية ﴾ ثم ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ... ﴾ ثم ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا ﴾ ثم ﴿ فاطر السموات والأرض أنت ولى ﴾ ثم ﴿ ربنا إنك تعلم مانخفى وما نعلن ... الآية ﴾ ﴿ وقل رب زدنى علما ﴾ ثم ﴿ لا اله الا انت سبحانك ﴾ ثم ﴿ رب لاتذرنى فردا ﴾ ثم ﴿ وقل ربى اغفر وارحم وانت خير الراحمين ﴾ ثم ﴿ ربنا هب لنا من ازواجنا ﴾ ثم ﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾

ثم ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ ثم ﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على الآية ﴾ من سورة الأحقاف ، ثم ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان الآية ﴾ ثم ﴿ ربنا عليك توكلنا ﴾ ثم ﴿ رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾ مهما يصل فليقرأ بهذه الآيات ، وبالمحافظة على هذه الآيات فى الصلاة مواطئا للقلب واللسان يوشك أن يرقى إلى مقام الإحسان ، ولو ردد فرد آية من هذه فى ركعتين من الظهر أو العصر كان فى جميع الوقت مناجيا لمولاه و داعيا و تاليا ومصليا ، والدؤوب فى العمل واستيعاب أجزاء النهار بلذاذة وحلاوة من غير سآمة لا يصح إلا لعبد تزكت نفسه بكمال التقوى والاستقصاء فى العمل ، بل ينشط وقتا ويسأم وقتا ، ويتناوب النشاط والكسل فيه لبقاء متابعته شىء من الهوى بنقصان تقوى أو محبة دنيا وإذا صح فى الزهد والتقوى ، فإن ترك العمل بالجوارح لا يفتر عن العمل بالقلب ، فمن رام دوام الروح واستحلاء الدؤوب فى العمل فعليه بحسم مادة الهوى والهوى روح النفس لا يزول ولكن تزول متابعة ، والنبى عليه السلام ما ما استعاذ من وجود الهوى ولكن استعاذ من متابعته فقال « أعوذ بك من هوى متبع » ولم يستعذ من وجود الشح فإنه طبيعة النفس ، ولكن استعاذ من طاعته فقال « وشح مطاع » ودقائق متابعة الهوى تتبين على قدر صفاء القلب وعلو الحال ، فقد يكون متبعا للهوى باستحلاء مجالسة الخلق ومكالمتهم أو النظر إليهم . وقد يتبع الهوى بتجاوز الاعتدال فى النوم والأكل وغير ذلك من أقسام الهوى المتبع ، وهذا شغل من ليس له شغل إلا فى الدنيا ، ثم يصلى العبد قبل العصر أربع ركعات ، فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم ، ولو غتسل كان أفضل ، فكل ذلك له أثر ظاهر فى تنوير الباطن وتكميل الصلاة ، ويقرأ فى الأربع قبل العصر : إذا زلزلت ، والعاديات والقارعة والهاكم ويصلى العصر ويحفل من قراءته فى بعض الأيام : والسماء ذات البروج . وسمعت أن قراءة سورة البروج فى صلاة العصر أمان من الدماميل ، ويقرأ بعد العصر ما ذكرناه من الآيات والدعاء وما يتيسر له من ذلك ، فإذا صلى العصر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبقى وقت الأذكار والتلاوة ، وأفضل من ذلك مجالسة من يزهده فى الدنيا ويسدد كلامه عرى التقوى من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يقوى عزائم المؤيدين ، فإذا صحت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد والمداومة على الأذكار وإن عدمت هذه المجالسة وتعذرت فليتروح بالتنقل فى أنواع الأذكار . وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه فى هذا الوقت يكون أفضل واولى من خروجه فى أول النهار ، ولا يخرج من المنزل إلا وهو على الوضوء ، وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر ، وأجازه المشايخ والصالحون ، ويقول كلما خرج من منزله : بسم الله ماشاء الله ، حسبى الله لا قوة إلا بالله ، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتنى وليقرأ الفاتحة والمعوذتين ولا يدع أن يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو تمرة أو لقمة فإن القليل بحسن النية كثير . وروى أن عائشة رضى الله عنها أعطت السائل عنبة واحدة وقالت : إن فيها لمثاقيل ذر كثير . وجاء فى الخبر « كل امرىء يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويكون من ذكره من العصر إلى المغرب مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ ان من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك ، ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، فقد ورد أن من قال فى يومه مائة مرة لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . ومائة مرة : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده أستغفر الله ومائة مرة : لا إله إلا الله الملك الحق المبين ومائة مرة : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . ومائة مرة : استغفر الله العظيم الذى لا اله الا هو الحى القيوم وأسأله التوبة ومائة مرة : ماشاء الله لا قوة الا بالله . ورأيت بعض الفقراء من المغرب بمكة وله سبحة فيها ألف حبة فى كيس له . ورده أن يديرها كل يوم اثنى عشر مرة بأنواع الذكر .

ونقل عن بعض الصحابة ان ذلك كان ورده بين اليوم والليلة . ونقل عن بعض التابعين . كان ورده من التسبيح

ثلاثين ألفا بين اليوم والليلة ، وليقل مائة مرة بين اليوم والليلة هذا التسبيح : سبحان الله العلى الديان سبحان الله شديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار سبحان من لايشغله شان ، سبحان الله الحنان المنان سبحان الله المسبح فى كل مكان .

روى أن بعض الأبدال بات على شاطىء البحر ، فسمع فى هذه الليل هذا التسبيح ، فقال : من الذى أسمع صوته ولا أرى شخصه ؟ فقال : أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر ، أسبح الله تعالى بهـذا التسبيح منذ خلقت فقلت : ما اسمك ؟ فقال : مهلهيائيل فقلت : ما ثواب هذا التسبيح ؟ قال : من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعدى من الجنة أو يرى له .

وروى أن عثمان رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ فقال : سألتنى عن شىء عظيم ماسألنى عنه غيرك ، هو : لاإله إلاالله والله أكبر ، وسبحان الله والحمد لله ولاحول ولا قوة إلا بالله عز وجل ، وأستغفر الله الأول الآخر الظاهر الباطن له الملك وله الحمد ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

من قالها عشرا حين يصبح وحين يمسى أعطى ست خصال : فأول خصلة : أن يحرس من إبليس وجنوده . الثانية : أن يعطى قنطارا من الأجر . الثالثة : يرفع له درجة فى الجنة . الرابعة : يزوجه الله من الحور العين . الخامسة : اثناعشر ملكا يستغفرون له . السادسة : يكون له من الأجر كمن حج واعتمر ، ويقول أيضا فى هـذا الوقت وفى أول النهار : اللهم أنت خلقتنى وأنت هديتنى وأنت تطعمنى وأنت تسقينى وأنت تحيينى ، وأنت ربى لارب سواك ولا إله إلا أنت وحدك لاشريك لك ، ويقول : ماشاء الله لاقوة إلا بالله ، ماشاء الله كل نعمة من الله . ماشاء الله الخير كله بيد الله . ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله ويقول : حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ثم يستعد لاستقبال الليل بالوضوء والطهارة . ويقرأ المسبعات قبل الغروب . ويديم التسبيح والاستغفار ، بحيث تغيب الشمس وهو فى التسبيح والاستغفار ويقرأ عند الغروب أيضا : والشمس والليل والمعوذتين ويستقبل الليل كما استقبل النهار قال الله تعالى ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ فكما أن الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل : ينبغى أن يكون العبد بين الذكر والشكر يعقب أحدهما الآخر ولا يتخللهما شىء كما لا يتخلل بين الليل والنهار شىء والذكر جميعه أعمال القلب والشكر أعمـال الجوارح قال الله تعالى ﴿ اعملوا آل داود شكرا ﴾ والله الموفق المعين .

الباب الحادي والخمسون : فى آداب المريد مع الشيخ

أدب المريد مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الآداب ، وللقوم فى ذلك اقتداء برسول الله ﷺ أصحابه وقد قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ .

روى عن عبد الله بن الزبير قال : قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى تميم . فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد . وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافى ؟ قال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل الله تعالى ﴿ يا ايها الذين آمنوا ... الآية ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ لاتقدموا ﴾ لاتتكلموا بين يدى كلامه وقال جابر : كان ناس يضحون قبل رسول الله فنهوا عن تقديم الأضحية على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل كان قوم يقولون لو انزل فى كذا كذا فكره الله ذلك . وقالت عائشة رضى الله عنها : اى لاتصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وقال الكلبى لا تسبقوا رسول الله بقول ولا فعل حتى يكون

هو الذى يأمركم به ، وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار لايتصرف فى نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره . وقد استوفينا هذا المعنى فى باب المشيخة . وقيل ﴿ لاتقدموا ﴾ لاتمشوا بين يدى رسول الله ﷺ

وروى أبو الدرداء قال : كنت أمشى أمام أبى بكر ، فقال لى رسول الله ﷺ : « تمشى أمام من هو خير منك فى الدنيا والآخرة » . وقيل : نزلت فى أقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ ، فإذا سئل الرسول عليه السلام عن شىء خاضوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى ، فنهوا عن ذلك ، وهكذا أدب المريد فى مجلس الشيخ ينبغى أن يلزم السكوت ولا يقول شيئا بحضرته من كلام حسن إلا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة فى ذلك وشأن المريد فى حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه ، فتطلعه إلى الاستماع ومايرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله . وتطلعه إلى القول يرده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شىء لنفسه وذلك جناية المريد .

وينبغى أن يكون تطلعه إلى مهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ : على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان فى حضرة الشيخ بل يبادئه بما يريد ، لأن الشيخ يكون مستنطقاً نطقه بالحق ، وهو عند حضور الصادقين يرفع قلبه إلى الله ويستمطر ويستسقى لهم ، فيكون لسانه وقلبه فى القول والنطق مأخوذين إلى مهم الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين إلى ما يفتح به عليه ، لأن الشيخ يعلم تطلع الطالب إلى قوله واعتداده بقوله ، والقول كالبذر يقع فى الأرض ، فإذا كان البذر فاسدا لا ينبت ، وفساد الكلمة بدخول الهوى فيها ، فالشيخ ينقى بذر الكلام عن شوب الهوى ، ويسلمه إلى الله ، ويسأل الله المعونة والسداد . ثم يقول ، فيكون كلامه بالحق من الحق للحق ، فالشيخ للمريدين أمين الإلهام ، كما أن جبريل أمين الوحى ، فكما لايخون جبريل فى الوحى لايخون الشيخ فى الإلهام وكما أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى فالشيخ مقتد برسول الله ﷺ ظاهرا وباطنا ، لايتكلم بهوى النفس . وهوى النفس فى القول بشيئين : أحدهما طلب استجلاب القلوب وصرف الوجوه إليه ، وما هذا من شأن الشيوخ . والثانى : ظهور النفس باستجلاء الكلام والعجب ، وذلك خيانة عند المحققين والشيخ فيما يجرى على لسانه راقد النفس تشغله مطالعة نعم الحق فى ذلك فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستجلاء والعجب ، فيكون الشيخ لما يجريه الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعا كأحد المستمعين، وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الأصحاب بما يلقى إليه ، وكان يقول : أنا فى هذا الكلام مستمع كأحدكم ، فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال : إذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كمستمع لا يعلم حتى يسمع منه ؟ فرجع إلى منزله فرأى ليلته فى المنام كأن قائلا يقول له : أليس الغواص يغوص فى البحر لطلب الدر . ويجمع الصدف فى مخلاته ، والدر قد حصل معه ولكن لايراه إلا إذا خرج من البحر ، ويشاركه فى رؤية الدر من هو على الساحل . ففهم بالمنام إشارة الشيخ فى ذلك .

فأحسن أدب المريد مع الشيخ السكوت والخمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بما له فيه من الصلاح قولا وفعلا . وقال أيضا فى قوله تعالى ﴿ لاتقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾ : لاتطلبوا منزلة وراء منزلته ، وهذا من محاسن الآداب وأعزها .

وينبغى للمريد أن لايحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ ، بل يحب للشيخ كل منزلة عالية ، ويتمنى للشيخ عزيز المنح وغرائب المواهب ، وبهذا يظهر جوهر المريد فى حسن الإرادة ، وهذا يعز فى المريدين ؛ فإرادته للشيخ تعطيه فوق ما يتمنى لنفسه ويكون قائما بأدب الإرادة . قال السرى رحمه الله : حسن الأدب ترجمان العقل ، وقال ابو عبد الله بن خفيف : قال لى رويم: يا بنى اجعل عملك ملحا وأدبك دقيقا ، وقيل : التصوف كله أدب ؛ لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب ، فمن يلزم الأدب يبلغ مبلغ الرجال ، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث

يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول . ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله ﷺ قوله تعالى ﴿ لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ كان ثابت بن قيس بن شماس فى أذنه وقر وكان جهورى الصوت . فكان إذا كلم إنسانا جهر بصوته . وربما كان يتكلم النبي ﷺ فيتأذى بصوته . فأنزل الله تعالى الآية تأديباً له ولغيره .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على ، عن أبو الفتح الهروى . عن أبو نصر الترياقى عن أبو محمد الجراحى . عن أبو العباس المحبوبى ، عن أبو عيسى الترمذى حدثنا محمد بن المثنى ، عن مؤمل ابن إسمعيل . عن نافع بن عمر بن جميل الجمحى . عن حابس بن أبى مليكة عن عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبى ﷺ فقال أبو بكر : استعمله على قومه ، فقال عمر : لاتستعمله يارسول الله فتكلما عن النبى ﷺ حتى علت أصواتهما ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافى ، وقال عمر . ما أردت خلافك ، فأنزل الله تعالى الآية ، فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبى ﷺ لايسمع كلامه حتى يستفهم .

وقيل : لما نزلت الآية آلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبى ﷺ إلا كأخ السرار . فهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ . لاينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك وكثرة الكلام إلا إذا بسطه الشيخ ، فرفع الصوت تنحية جلباب الوقار . والوقار إذا سكن القلب عقل اللسان ما يقول ، وقد ينازل باطن بعض المريدين من الحرمة والوقارمن الشيخ مالا يستطيع المريدأن يشبع النظر الى الشيخ . وقد كنت أحم فيدخل على عمى وشيخى أبو النجيب السهرودى رحمه الله فيترشح جسدى عرقا — وكنت أتمنى العرق لتخف الحمى — فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ على ويكون فى قدومه بركة وشفاء . وكنت ذات يوم فى البيت خاليا وهناك منديل وهبه لى الشيخ وكان يتعمم به ، فوقع قدمى على المنديل اتفاقا فتألم باطنى من ذلك وهالنى الوطء بالقدم على منديل الشيخ ، وانبعث من باطنى من الاحترام ما أرجو بركته .

قال ابن عطاء فى قوله تعالى ﴿ لا ترفعوا أصواتكم ﴾ زجر عن الأدنى لئلا يتخطى أحد إلى مافوقه من ترك الحرمة

وقال سهل فى ذلك . لا تخاطبوه إلامستفهمين . وقال أبوبكر بن طاهر : لاتبدؤه بالخطاب ولاتجيبوه إلاعلى حدود الحرمة ﴿ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ﴾ أى لاتغلظوا له فى الخطاب ولاتنادوه باسمه . يامحمد ياأحمد كماينادى بعضكم بعضا . ولكن فخموه واحترموه وقولوا له : يانبى الله يارسول الله

ومن هذا القبيل يكون خطاب المريد مع الشيخ وإذا سكن الوقار القلب علم اللسان كيفية الخطاب

ولما كانت النفوس بمحبة الأولاد والأزواج وتمكنت أهوية النفس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة وهى تحت وقتها صاغها كلف النفس وهواها ، فإذا امتلأ القلب حرمة ووقارا تعلم اللسان العبارة

وروى : لما نزلت هذه الآية قعد ثابت بن قيس فى الطريق يبكى فمر به عاصم بن عدى فقال : مايبكيك ياثابت؟ قال : هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فى ﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون ﴾ وأنا رفيع الصوت على النبى ﷺ أخاف ان يحبط عملى واكون من اهل النار ، فمضى عاصم إلى رسول الله ﷺ وغلب ثابتاً البكاء فاتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن ابى بن سلول فقال لها : إذا دخلت بيت فرسى فسدى على الضبة بمسمار فضربته بمسمار حتى يتوفانى الله أو يرضى عنى رسول الله ﷺ فلما اتى عاصم النبى واخبره بخبره قال « اذهب فادعه » فجاء عاصم إلى المكان الذى فيه رآه فلم يجده ، فجاء الى اهله فوجده فى بيت الفرس فقال له ان رسول الله يدعوك ، فقال : اكسر الضبة ، فأتينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « ما يبكيك يا ثابت ؟ » فقال : اناصيت واخاف ان تكون هذه الآية نزلت فى فقال له رسول ﷺ « واما ترضى ان تعيش سعيداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة » فقال : قد رضيت

ببشرى الله تعالى ورسوله ولا أرفع صوتى أبدا على رسول الله ، فأنزل الله تعالى ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ... ﴾ قال أنس : كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشى بين أيدينا : فلما كان يوم اليمامة فى حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهزمت طائفة منهم ، فقال : أف لهؤلاء وما يصنعون . ثم قال ثابت لسالم ابن حذيفة : ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل هذا ، ثم ثبتا ولم يزالا يقاتلان حتى قتلا واستشهد ثابت كما وعده رسول الله ﷺ وعليه درع : فرآه رجل من الصحابة بعد موته فى المنام فقال له : اعلم أن فلانا رجل من المسلمين نزع درعى فذهب بها وهو فى ناحية من العسكر وعنده فرس يستن فى طيله وقد وضع على درعى برمة ، فائت خالد بن الوليد فأخبره حتى يسترد درعى ، وأت أبا بكر خليفة رسول الله عليه السلام فقل له : إن على دينا حتى يقضى عنى ، وفلان من عبيدى عتيق ، فأخبر الرجل خالداً فوجد الدرع والفرس على ما وصفه ، فاسترد الدرع ، وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته . قال مالك بن أنس رضى الله عنهما : لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه كرامة ظهرت لثابت بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله ﷺ .

فليعتبر المريد الصادق ويعلم أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله ، وأن الذى يعتمده مع الشيخ عوض ما لو كان فى زمن رسول الله ﷺ واعتمده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام القوم بواجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم فقال ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ أى اختبر قلوبهم وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصة ، وكما أن اللسان ترجمان القلب وتهذب اللفظ لتأدب القلب ، وهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ

قال أبو عثمان : الأدب عند الأكابر وفى مجالسة السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلا والخير فى الأولى والعقبى ، ألا ترى إلى قول الله تعالى ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ﴾ ومما علمهم الله تعالى قوله الله تعالى ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ وكان هذا الحال من وفد بنى تميم جاءوا إلى رسول الله ﷺ فنادوا : يا محمد ، اخرج إلينا فإن مدحنا زين وذمنا شين . قال : فسمع رسول الله ﷺ فخرج إليهم وهو يقول « إنما ذلكم الله الذى ذمه شين ومدحه زين » فى قصة طويلة ، وكانوا أتوا بشاعرهم وخطيبهم ، فغلبهم حسان بن ثابت وشبان المهاجرين والأنصار بالخطبة .

وفى هذا تأدب للمريد فى الدخول على الشيخ والإقدام عليه وترك الاستعجال وصبره إلى أن يخرج الشيخ من موضع خلوته .

سمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله كان إذا جاء إليه فقير زائر يخبر بالفقير فيخرج ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس معه ويرجع إلى خلوته ، وإذا جاء أحد ممن ليس من زمرة الفقراء يخرج ويجلس معه ، فخطر لبعض الفقراء نوع إنكار لترك الخروج إلى الفقير وخروجه لغير الفقير ، فانتهى ما خطر للفقير إلى الشيخ ، فقال الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية وهو أهل وليس عنده أجنبية فنكتفى معه بموافقة القلوب ونقنع بها عن ملاقاة الظاهر بهذا القدر ، وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر ، فمتى لم يوف حقه من الظاهر استوحش ، فحق المريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ .

قيل لأبى منصور المغربى : كم صحبت أبا عثمان ؟ قال خدمته لا صحبته ، فالصحبة مع الإخوان والأقران ، ومع المشايخ الخدمة .

وينبغى للمريد أنه كلما أشكل عليه شىء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى ، وإذا أخبره الخضر بسرها يرجع موسى عن إنكاره ، فما ينكره المريد لقلة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ فللشيخ فى كل شىء عذر بلسان العلم والحكمة .

سأل بعض أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد ، فأجابه الجنيد ، فعارضه فى ذلك ؛ فقال الجنيد : فإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون . فقال بعض المشايخ : من لم يعظم حرمة من تأدب به حرم بركة ذلك الأدب .

وقيل : من قال لأستاذه : لا ، لا يفلح أبدا .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على ، عن أبو الفتح الهروى ، عن أبو نصر الترياقى ، عن أبو محمد الجراحى ، عن أبو العباس المحبوبى . عن أبو عيسى الترمذى ، عن هناد عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « اتركونى ما تركتكم ، وإذا حدثتكم فخذوا عنى ، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » .

قال الجنيد رحمه الله : رأيت مع أبى حفص النيسابورى إنسانا كثير الصمت لا يتكلم ، فقلت لأصحابه : من هذا فقيل لى : هذا إنسان يصحب أبا حفص ويخدمنا ، وقد أنفق عليه مائة ألف درهم كانت له واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه ما يسوغ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة .

وقال أبو يزيد البسطامى : صحبت أبا على السندى فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه ، وكان يعلمنى التوحيد والحقائق صرفا

وقال أبو عثمان : صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث ، فطردنى وقال : لا تجلس عندى ، فلم أجعل مكافأتى له على كلامه أن أولى ظهرى إليه ، فانصرفت أمشى إلى خلف ووجهى مقابل له حتى غبت عنه واعتقدت أن أحفر لنفسى بئرا على بابه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا باذنه ؛ فلما رأى ذلك منى قربنى وقبلنى وصيرنى من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله .

ومن آدابهم الظاهرة : أن المريد لا يبسط سجادته مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة ، فان المريد من شأنه التبتيل للخدمة ، وفى السجادة إيماء إلى الاستراحة والتعزز ، ولا يتحرك فى السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التمييز وهيبة الشيخ تملك المريد عن الاسترسال فى السماع وتقيده . واستغراقه فى الشيخ بالنظر إليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الإصغاء إلى السماع .

ومن الأدب : أن لا يكتم على الشيخ شيئاً من حاله ومواهب الحق عنده وما يظهر له من كرامة وإجابة ، ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه ، وما يستحى من كشفه يذكره إيماء وتعريضا ، فان المريد متى انطوى ضميره على شىء لا يكشفه للشيخ تصريحاً أو تعريضاً يصير على باطنه منه عقدة فى الطريق ، وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول .

ومن الادب : أن لا يدخل فى صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه . وأنه أقوم بالتأديب من غيره ؛ ومتى كان عند المريد تطلع الى شيخ آخر لا تصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه ،فان المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته ، والمحبة والتألف هو الواسطة بين المريد والشيخ ، وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال ، لان المحبة علامة التعارف . والتعارف علامة الجنسية والجنسية جالبة للمريد حال الشيخ أو بعض حاله .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان . عن أبو الفضل حميد . عن الحافظ أبو نعيم . عن سليمان بن أحمد عن أنس بن أسلم . عن عتبة بن رزين عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من علم عبد آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغى له أن لا يخذله ولا يستأثر عليه . فمن فعل ذلك فقد فصم عروة من عرى الإسلام .

ومن الادب : ان يراعى خطرات الشيخ فى جزئيات الامور وكلياتها ، ويستحقر كراهة الشيخ ليسير حركاته معتمداً على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراته .

قال ابراهيم بن شيبان : كنا نصحب ابا عبد الله المغربى ونحن شبان ويسافر بنا فى البرارى والفلوات . وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صحبه سبعين سنه : فكان اذا جرى من احدنا خطأ وتغير عليه الشح نتشفع اليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا الا ما كان

ومن أدب المريد مع الشيخ : 'ن لا يستقل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ : فان الشيخ علمه اوسع وبابه

المفتوح إلى الله أكبر فإن كان واقعة المريد من الله تعالى يوافقه الشيخ ويمضيها له ، وما كان من عند الله لا يختلف . وإن كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ ، ويكتسب المريد علما بصحة الوقائع والكشوف ، فالمريد لعله فى واقعته يخامره كون إرادة فى النفس فتشبك كون الإرادة بالواقعة مناما كان ذلك أو يقظة ولهذا سر عجيب ولا يقوم المريد باستئصال شأفة الكامن فى النفس وإذا ذكره الشيخ فما فى المريد من كون إرادة النفس مفقود فى حق الشيخ فإن كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ وإن كان ينزع واقعته إلى كون هوى النفس تزول وتبرأ ساحة المريد ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله وصحة إيوائه إلى جناب الحق وكمال معرفته .

ومن الأدب مع الشيخ : أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ فى شىء من أمر دينه أو أمر دنياه لا يستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولسماع كلامه وقوله متفرغ وكما أن للدعاء أوقاتا وآدابا وشروطا لأنه مخاطبة الله تعالى فللقول مع الشيخ أيضا آداب وشروط لأنه ، من معاملة الله تعالى ، ويسأل الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما تحب من الأدب ، وقد نبه الحق سبحانه وتعالى على ذلك فيما أمر به أصحاب رسول الله ﷺ فى مخاطبته فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ﴾ يعنى أمام مناجاتكم قال عبد الله بن عباس : سأل الناس رسول الله ﷺ فأكثروا حتى شقوا عليه وأحفوه بالمسئلة فأدبهم الله تعالى وفطمهم عن ذلك وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدموا صدقة وقيل كان الأغنياء يأتون النبي عليه السلام ويغلبون الفقراء على المجلس حتى كره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلأنهم لم يجدوا شيئا وأما أهل اليسرة فبخلوا ومنعوا فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ونزلت الرخصة وقال تعالى ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ﴾ وقيل : لما أمر الله تعالى بالصدقة لم يناج رسول الله ﷺ إلا على بن أبى طالب فقدم دينارا فتصدق به وقال على : فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى وروى أن رسول الله ﷺ لما نزلت الآية دعا عليا وقال « ماترى فى الصدقة كم تكون دينار ؟ » قال على لا يطيقونه قال « كم ؟ » قال على : تكون حبة أو شعيرة فقال رسول الله ﷺ « إنك لزهيد » ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية وما نبه الحق عليه بالأمر بالصدقة وما فيه من حسن الأدب وتقييد اللفظ والاحترام ما نسخ ، والفائدة باقية .

عن الشيخ الثقه أبو الفتح محمد بن سلمان عن أبو الفضل أحمد عن الحافظ أبو نعيم عن سليمان بن أحمد عن مطلب بن شعيب عن عبد الله بن صالح عن ابن لهيعة عن أبى قبيل عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » فاحترام العلماء توفيق وهداية ، وإهمال ذلك خذلان وعقوق .

الباب الثانى والخمسون : فى آداب الشيخ وما يعتمده مع الأصحاب والتلامذة

أهم الآداب : أن لا يتعرض الصادق للتقدم على قوم ، ولا يتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام محبة للاستتباع فإذا رأى أن الله تعالى يبعث إليه المريدين والمسترشدين بحسن الظن وصدق الإرادة، يحذر أن يكون ذلك ابتلاء وامتحانا من الله تعالى والنفوس مجبولة على محبة إقبال الخلق والشهرة ، وفى الخمول السلامة ؛ فإذا بلغ الكتاب أجله وتمكن العبد من حاله وعلم بتعريف الله إياه أنه مراد بالإرشاد والتعليم للمريدين فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المشفق والوالد لولده بما ينفعه فى دينه ودنياه وكل مريد ومسترشد ساقه الله تعالى إليه يراجع الله تعالى فى معناه ويكثر اللجأ إليه أن يتولاه فيه وفى القول معه ، ولا يتكلم مع المريد بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به فى الهداية للصواب من القول .

سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردى رحمه الله يوصى بعض أصحابه ويقول : لاتكلم أحداً من الفقراء إلا فى أصفى أوقاتك وهذه وصية نافعة لأن الكلمة تقع فى سمع المريد كالحبة تقع فى الأرض وقد ذكرنا أن الحبة الفاسدة تهلك وتضيع وفساد حبة الكلام بالهوى وقطرة من الهوى تكدر بحرا من العلم فعند الكلام مع أهل الصدق والإرادة ينبغى ان يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند العبد فيكون ناظرا إلى الله مصغيا إليه متلقيا مايرد عليه مؤديا للأمانة فيه ثم ينبغى للشيخ أن يعتبر حال المريد ويتفرس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة مايتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار ومن المريدين من يكون مستعدا صالحا للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية ولكل من الأبرار والمقربين مباد ونهايات فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح له والعجب ان الصحراوى يعلم الأراضى والغروس ويعلم كل غرس وأرضه وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها حتى المرأة تعلم قطنها وما يتأتى منه من الغزل ودقته وغلظه ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له .

وكان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم ويأمر كل شخص بما يصلح له فمنهم من كان يأمر بالإنفاق ومنهم من أمره بالإمساك ومنهم من أمره بالكسب ومنهم من قرره على ترك الكسب كأصحاب الصفة فكان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس ومايصلح لكل واحد فأما فى رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة لأنه مبعوث لإثبات الحجة وإيضاح المحجة يدعو على الإطلاق ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره .

ومن أدب الشيخ أن يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لايسعه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ولا تدعى نفسه قوة ظنا منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لايضره ولا يأخذ منه وأنه غير محتاج إلى الخلوة فإن رسول الله ﷺ مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصليها ويدوم عليها وأوقات يخلو فيها فطبع البشر لايستغنى عن السياسة قل ذلك أو كثر لطف ذلك أو كثف وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب اتخذ ذلك رأس غله واغتر بطيبة قلبه واسترسل فى الممازجة والمخالطة وجعل نفسه مناخا للبطالين بلقمة تؤكل عنده ورفق يوجد منه فيقصده من لبس قصده الدين ولا بغيته سلوك طريق المتقين فافتتن وأفتن وبقى فى خطة القصور ووقع فى دائرة الفتور فما يستغنى الشيخ عن الاستمداد من الله تعالى والتضرع بين يدى الله بقلبه إن لم يكن بقالبه وقلبه فيكون له فى كل كلمة إلى الله رجوع وفى كل حركة بين يدى الله خضوع وإنما دخلت الفتنة على المغرورين المدعين للقوة والاسترسال فى الكلام والمخالطة لقلة معرفتهم صفات النفس واغترارهم بيسير من الموهبة وقلة تأدبهم بالشيوخ .

كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه : لوعلمت أن صلاة ركعتين لى أفضل من جلوسى معكم ماجلست عندكم فاذا رأى الفضل فى الخلوة يخلو وإذا رأى الفضل فى الجلوة يجلس مع الأصحاب فتكون جلوته فى حماية خلوته ، وجلوته مزيدا لخلوته وفى هذا سر وذلك أن الآدمى ذو تركيب مختلف فيه تضاد وتغاير على ما أسلفنا من كونه مترددا بين السفلى والعلوى ، ولما فيه من التغاير له حظ من الفتور عن الصبر على صرف الحق ، ولهذا كان لكل عامل فترة والفترة قد تكون تارة فى صورة العمل وتارة فى عدم الروح فى العمل وإن لم تكن فى صورة العمل ، ففى وقت الفترة للمريدين والسالكين تضييع واسترواح للنفس وركون إلى البطالة فمن بلغ رتبة المشيخة انصرف قسم فترته إلى الخلق فأفلح الخلق بقسم فترته وما ضاع قسم فترته كضياعه فى حق المريدين فالمريد يعود من الفترة بقوة الشدة وحدة الطلب إلى الإقبال على الله والشيخ يكتسب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته ويعود إلى أوطان خلوته وخاص حاله بنفس مشرئبة أكثر من عود الفقير بحدة إرادته من فترته فيعود من الخلق إلى الخلوة منتزع الفتور بقلب متعطش وافر النور وروح متخاصة عن مضيق مطالعة الأغيار قادمة بحدة شغفها إلى دار القرار .

ومن وظيفة الشيخ : حسن خلقه مع أهل الإرادة والطلب ، والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم للمشايخ واستعماله التواضع .

حكى الرقى قال : كنت بمصر وكنا فى المسجد جماعة من الفقراء جلوسا فدخل الزقاق فقام عند اسطوانة يركع ، فقلنا يفرغ الشيخ من صلاته ونقوم نسلم عليه فلما فرغ جاء إلينا وسلم علينا فقلنا : نحن كنا أولى بهذا من الشيخ فقال : ماعذب الله قلبي بهذا قط ، يعنى ماتقيدت بأن أحترم وأقصد .

ومن آداب الشيوخ : النزول إلى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم قال بعضهم : إذا رأيت الفقير فالقه بالرفق ولا تلقه بالعلم فان الرفق يؤنسه والعلم يوحشه ، فاذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدرج المريد ببركة ذلك إلى الانتفاع بالعلم فيعامل حينئذ بصريح العلم .

ومن آداب الشيوخ : التعطف على الأصحاب وقضاء حقوقهم فى الصحة والمرض ، ولا يترك حقوقهم اعتمادا على إرادتهم وصدقهم . قال بعضهم : لاتضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة .

وحكى عن الجريرى قال : وافيت من الحج فابتدأت بالجنيد وسلمت عليه وقلت حتى لايتعنى ثم أتيت منزلى فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجنيد خلفى فقلت : ياسيدى إنما ابتدأت بالسلام عليك لىكيلا تتعنى إلى هونا ، فقال لى: يا أبا محمد ، هذا حقك وذاك فضلك .

ومن آداب الشيوخ : أنهم إذا علموا من بعض المسترشدين ضعفا فى مراغمة النفس وقهرها واعتماد صدق العزيمة: أن يرفقوا به ويوقفوه على حد الرخصة ففى ذلك خير كثير ، وما دام العبد لايتخطى حريم الرخصة فهو حر ثم إذا ثبت وخالط الفقراء وتدرب فى لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان العزيمة .

قال أبو سعيد بن الأعرابي كان شاب يعرف بابراهيم الصائغ وكان لأبيه نعمة فانقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القلانسى فربما كان يقع بيد أبي أحمد شيء من الدراهم فكان يشترى له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول هذا خرج من الدنيا وقد تعود النعمة فيجب أن نرفق به ونؤثره على غيره .

ومن آداب الشيوخ : التنزه عن مال المريد وخدمته والارتفاق من جانبه بوجه من الوجوه ، لأنه جاء الله تعالى فيجعل نفعه وإرشاده خالصا لوجه الله تعالى فايسدى الشيخ للمريد من أفضل الصدقات وقد ورد «ما تصدق متصدق بصدقة أفضل من علم يبثه فى الناس» وقد قال الله تعالى تنبيها على خلوص ماله وحراسته من الشوائب ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا﴾ فلا ينبغى للشيخ أن يطلب على صدقته جزاء إلا أن يظهر له فى شيء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى فى قبول الرفق منه أو صلاح يتراءى للشيخ فى حق المريد بذلك فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد مأمونة الغائلة من جانب الشيخ : قال الله تعالى ﴿يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾ معنى يحفكم أى يجهدكم ويلح عليكم .

قال قتادة : علم الله تعالى أن فى خروج المال إخراج الأضغان وهذا تأديب من الله الكريم والأدب أدب الله

قال جعفر الخلدى : جاء رجل إلى الجنيد وأراد أن يخرج عن ماله كله ويجلس معهم على الفقر فقال له الجنيد لاتخرج من مالك كله احبس منه مقدار مايكفيك وأخرج الفضل وتقوت بما حبست واجتهد فى طلب الحلال لاتخرج كل ماعندك فلست آمن عليك أن تطالبك نفسك .

وكان النبى عليه السلام إذا أراد أن يعمل عملا تثبت وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد أنه إذا خرج من الشيء يكسبه من الحال مالا يتطلع به إلى المال ، فحينئذ يجوز له أن يفسح للمريد فى الخروج من المال كما فسح رسول الله ﷺ لأبى بكر وقبل منه جميع ماله .

ومن آداب الشيخ إذا رأى من بعض المريدين مكروها أو علم من حاله اعوجاجا أو أحس منه بدعوى أو رأى أنه داخله عجب : أن لايصرح له بالمكروه بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذى يعلم ويكشف عن وجه المذمة مجملا فتحصل بذلك الفائدة للكل فهذا أقرب إلى المداراة وأكثر أثرا لتألف القلوب ، وإذا رأى

من المريد تقصيرا فى خدمة ندبه إليها . يحمل تقصيره ويعفو عنه ويحرضه على الخدمة بالرفق واللين، وإلى ذلك ندب رسول الله ﷺ فيما أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال.أخبرنا أبو الفتح الكروخى قراءة عليه ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى عن أبومحمد الجراحى عن أبو العباس المحبوبى عن أبو عيسى الترمذى عن قتيبة عن رشدين ابن سعد عن أبى هلال الخولانى عن بن عباس بن جليد الحجرى عن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال :يارسول الله ، كم أعفو عن الخادم ؟قال«كل يوم سبعين مرة ».

وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله ﷺ ، وهم أحق الناس بإحياء سنته فى كل ما أمر وندب وأنكر وأوجب .

ومن جملة مهام الآداب : حفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون به ويمنحون من أنواع المنح ؛ فسر المريد لايتعدى ربه وشيخه ، ثم لايحقر الشيخ فى نفس المريد مايجده فى خلوته من كشف أو سماع خطاب أو شىء من خوارق العادات ويعرفه أن الوقوف مع شىء من هذا يشغل عن الله ويسد باب المزيد ، بل يعرفه أن هذه نعمة تشكر ومن ورائها نعم لاتحصى ،ويعرفه أن شأن المريد طلب المنعم لاالنعمة حتى يبقى سره محفوظا عند نفسه وعند شيخه ، ولا يذيع سره ؛فإذاعة الأسرار من ضيق الصدر ،وضيق الصدر الموجب لإذاعة السر يوصف به النسوان وضعفاء العقول من الرجال ،وسبب إذاعة السر أن للإنسان قوتين آخذة ومعطيه ، وكلتاهما تتشوف إلى الفعل المختص بها، ولولا أن الله تعالى وكل المعطية باظهار ما عندها ماظهرت الأسرار ، فكامل العقل كلما طلبت القوة الفعل قيدها ووزنها بالعقل حتى يضعها فى مواضعها فيجل حال الشيوخ عن إذاعة الأسرار لرزانة عقولهم .

وينبغى للمريد أن يحفظ سره من بثه ، ففى ذلك صحته وسلامته وتأييد الله سبحانه وتعالى له بتدارك المريدين الصادقين فى موردهم ومصدرهم .

الباب الثالث والخمسون : فى حقيقة الصحبة وما فيها من الخير والشر

المقتضى للصحبة وجود الجنسية ، وقد يدعو إليها أعم الأوصاف،وقد يدعو اليها أخص الأوصاف ،فالدعاء بأعم الأوصاف :كميل جنس البشر بعضهم إلى بعض ،والدعاء بأخص الأوصاف :كميل أهل كل ملة بعضهم إلى بعض ثم أخص من ذلك :كميل أهل الطاعة بعضهم إلى بعض ، وكميل أهل المعصية بعضهم إلى بعض ، فاذا علم هذا الأصل وأن الجاذب إلى الصحبة وجود الجنسية بالأعم تارة و بالأخص أخرى ،فليتفقد الإنسان نفسه عند الميل إلى صحبة شخص ،وينظر : ماالذى يميل به إلى صحبته ؟ ويزن أحوال من يميل إليه بميزان الشرع فان رأى أحواله مسددة فليبشر نفسه بحسن الحال فقد جعل الله تعالى مرآته مجلوة يلوح له فى مرآة أخيه جمال حسن الحال ،وإن رأى أفعاله غير مسددة فيرجع إلى نفسه باللائمة والاتهام فقد لاح له فى مرآة أخيه سوء حاله ،فبالجدير أن يفر منه كفراره من الأسد ،فانهما إذا اصطحبا ازدادا ظلمة واعوجاجا ، ثم إذا علم من صاحبه الذى مال إليه حسن الحال وحكم لنفسه بحسن الحال طالع ذلك فى مرآة أخيه ، فيعلم أن الميل بالوصف الأعم مركوزا فى جبلته والميل بطريقه واقع ، وله بحسبه أحكام وللنفس بسببه سكون وركون ،فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف الأخص ويصير بين المتصاحبين استرواحات طبيعية وتلذذات جبلية لايفرق بينها و بين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون وقد ينفسد المريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما ينفسد بأهل الفساد ،ووجه ذلك : أن اهل الفساد علم فساد طريقهم فأخذ حذره ،وأهل الصلاح غره صلاحهم فمال إليهم بجنسية الصلاحية ،ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين حقيقة الصحبة لله فاكتسب من طريقهم الفتور فى الطلب والتخلف عن بلوغ الأرب فليتنبه الصادق لهذه الدقيقة ويأخذ من الصحبة أصفى الأقسام ويذر منها مايسد فى وجهه المرام .قال بعضهم: هل رأيت شرا قط إلا من

تعرف ؛ ولهذا المعنى أنكر طائفة من السلف الصحبة ورأوا الفضيلة فى العزلة والوحدة كابراهيم بن أدهم وداود الطائى وفضيل بن عياض وسليمان الخواص ، وحكى عنه أنه قيل له : جاء ابراهيم بن أدهم أما تلقاه ؟ قال ؛ لأن ألقى سبعا ضاريا أحب إلى من أن ألقى إبراهيم بن أدهم ، قال : لأنى إذا رأيته أحسن له كلامى وأظهر نفسى باظهار أحسن أحوالها ، وفى ذلك الفتنة ، وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقها ، وهذا واقع بين المتصاحبين إلا من عصمة الله تعالى .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى إجازة ، عن الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد ، عن أبو القاسم إسمعيل ابن مسعدة ، عن أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد ، عن أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابى عن محمد بن بكر بن عبد الرزاق ، قال حدثنا سليمان بن الأشعث ، عن عبدالله بن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن أبى صعصعة عن أبيه أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن » قال الله تعالى إخبارا عن خليله إبراهيم ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ﴾ استظهر بالعزلة على قومه . قيل : العزلة نوعان : فريضة وفضيلة ، فالفريضة العزلة عن الشر وأهله ، والفضيلة عزلة الفضول وأهله . ويجوز أن يقال : الخلوة غير العزلة فالخلوة من الأغيار ، والعزلة من النفس وما تدعو إليه وما يشغل عن الله ، فالخلوة كثيرة الوجود ، والعزلة قليلة الوجود .

قال أبو بكر الوراق : ماظهرت الفتنة إلا بالخلطة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا ، وما سلم إلا من جانب الخلطة . وقيل : السلامة عشرة أجزاء ، تسعة فى الصمت ، وواحد فى العزلة . وقيل : الخلوة أصل ، والخلطة عارض فليلزم الأصل ولا يخالط إلا بقدر الحاجة وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة وإذا خالط يلازم الصمت ، فإنه أصل والكلام عارض ، ولا يتكلم إلا بحجة ، فخطر الصحبة كثير يحتاج العبد فيه إلى مزيد علم ، والأخبار والآثار فى التحذير عن الخلطة والصحبة كثيرة ، والكتب بها مشحونة وأجمع الأخبار فى ذلك : ما أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح بإسناده السابق إلى أبى سليمان ، قال حدثنا أحمد بن سليمان النجاد ، عن محمد بن يونس الكريمى ، عن محمد بن منصور الجشمى عن مسلم بن سالم عن السرى بن يحيى عن الحسن عن أبى الأحوص عن عبدالله ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « ليأتين على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذى يروغ » قالوا : ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال : « إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصى الله ، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة » قالوا : وكيف ذلك يارسول الله وقد أمرنا التزوج ؟ قال « إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه ، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده ، فان لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته » قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال « يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف مالا يطيق حتى يوردوه موارد الهلكة » .

وقد رغب جمع من السلف فى الصحبة والأخوة فى الله ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا ، فقال سبحانه وتعالى ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ وقال تعالى ﴿ هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ وقد اختار الصحبة والأخوة فى الله تعالى سعيد بن المسيب وعبد الله بن المبارك وغيرهما .

وفائدة الصحبة : أنها تفتح مسام الباطن ، ويكتسب الإنسان بها علم الحوادث والعوارض . قيل : أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات ، ويتصلب الباطن برزين العلم ويتمكن الصدق بطروق هبوب الآفات ثم التخلص منها بالإيمان ، ويقع بطريق الصحبة والأخوة التعاضد والتعاون ، وتقوى جنود القلب ، وتستروح الأرواح بالتشام ، وتتفق فى التوجه إلى الرفيق الأعلى ، ويصير مثالها فى الشاهد كالأصوات إذا اجتمعت خرقت الأجرام ، وإذا تفردت قصرت عن بلوغ المرام

ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ « المؤمن كثير بأخيه » .

وقال الله تعالى مخبراً عمن لاصديق له ﴿ فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم ﴾ والحميم فى الأصل الهميم ، إلاأنه أبدلت الهاء بالحاء لقرب مخرجهما ، إذ هما من حروف الحلق . والهميم : مأخوذ من الاهتمام : أى يهتم بأمر أخيه، فالاهتمام بمهم الصديق حقيقة الصداقة .

وقال عمر : إذا رأى أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك . وقد قال القائل :

وإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد وأين ذاك الواحد

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال : ياداود ، مالى أراك منتبذاً وحدك ؟ قال : إلهى، قليت الخلق من أجلك . فأوحى الله إليه : ياداود ، كن يقظانا مرتادا لنفسك إخوانا وكل خدن لا يوافق على مسرتى فلاتصحبه فإنه عدو يقسى قلبك ويباعدك منى .

وقد ورد فى الخبر « إن أحبكم إلى الله الذين يلفون ويؤلفون فالمؤمن آلف مألوف » وفى هذا دقيقة : وهى أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف فلا يكون آلفا مألوفا ، فإن هذه الإشارة من رسول الله ﷺ إلى الخلق الجبلى ، وهذا الخلق يكمل فى كل من كان أتم معرفة ويقيناوأوزن عقلا وأتم أهلية واستعداداً ، وكان أوفر الناس حظا من هذا الوصف : الأنبياء ثم الأولياء ، وأتم الجميع فى هذا : نبينا صلوات الله عليه ، وكل من كان من الأنبياء أتم ألفة كان أكثر تبعا ، ونبينا ﷺ كان أكثرهم ألفة وأكثرهم تبعا ، وقال« تنا كحوا تكثروا فانى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » وقد نبه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله ﷺ فقال ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ وإنما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف ، ومن كان هذاالوصف فيه أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر فى الابتداء ، ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله ﷺ الخلوة فى أول أمره ، وكان يخلو فى غار حراء ويتحنث الليالى ذوات العدد ، وطلب العزلةلا يسلب وصف كونه آلفا مألوفا ، وقد غلط فى هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلبا لهذه الفضيلة . وهذا خطأ وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ما أسلفنا فى أول الباب : إن فى الإنسان ميلا إلى الجنس بالوصف الاعم ،فلما علم الحذاق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الميل بالوصف الاعم لترتقى الهمم العالية عن ميل الطباع إلى تألف الارواح ، فاذاوفوا التصفية حقها اشرأبت الارواح إلى جنسها بالتألف الاصلى الاولى، وأعادها الله تعالى إلى الخلق ومخالطتهم مصفاة ، واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الارواح ، وظهرت صفة الجبلة من الالفة المكملة آلفة مألوفة ، فصارت العزلة من أهم الامور عند من يألف فيؤلف . ومن أدل الدليل على أن الذى اعتزل آلف مالوف حتى يذهب الغلط فى ذلك وذم العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة ، فصارت العزلة مرغوبا فيها فى وقتها ، والصحبة مرغوبا فيها فى وقتها . قال : محمد بن الحنفية رحمه الله : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لايجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا .

وكان بشر بن الحرث يقول : اذا قصر العبد فى طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه ! فالانيس بهيئة الله للصادقين رفقا من الله تعالى وثوابا للعبد معجلا ، والانيس قد يكون مفيداً كالمشايخ وقد يكون مستفيدا كالمريدين : فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس ، فان كان قاصرا يؤنسه الله بمن يتمم حاله به . وان كان غير قاصر يقيض الله تعالى له من يؤنسه من المريدين . وهذا الانس ليس فيه ميل بالوصف الاعم بل هو بالله ومن الله وفى الله .

وروى عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال « المتحابون فى الله على عمود من ياقوتة حمراء ، فى رأس العمود سبعون الف غرفة مشرفون على اهل الجنة يضىء حسنهم لاهل الجنة كما تضىء الشمس لاهل الدنيا . فيقول اهل الجنة انطلقوا بنا ننظر الى المتحابين فى الله عز وجل . فاذا اشرفوا عليهم اضاء حسنهم لاهل الجنة كما تضىء الشمس لاهل الدنيا . عليهم ثياب سندس خضر . مكتوب على جباهم: هؤلاء المتحابون فى الله عز وجل» وقال ابو ادريس الخولانى لمعاذ : انى احبك فى الله . فقال له : ابشر ثم ابشر : فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة ،وجوههم كالقمر ليلة البدر : يفزع الناس ولا يفزعون ، ويخاف الناس ولا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقيل : من هؤلاء يارسول الله ؟ قال : المتحابون فى الله عز وجل »

وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل: حقت محبتى للمتحابين فى والمتزاورين فى والمتباذلين فى والمتصادقين فى » .

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقى إجازة، قال أخبرنا أحمد بن الحسين بن خيرون قال أخبرنا أبو عبدالله أحمد بن عبد الله المحاملى عن أبو القاسم عمر بن جعفر بن محمد بن سلام عن أبو إسحق إبراهيم بن إسحق الحربى ، عن حماد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال « ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة ؟ » قالوا : وما هو ؟قال « إصلاح ذات البين ،وإياكم والبغضة فإنها هى الحالقة » وبإسناد إبراهيم الحربى عن عبيد الله بن عمر عن أبى أسامة عن عبد الله بن الوليد عن عمران بن رباح قال : سمعت أبا مسلم يقول : سمعت أبا هريرة يقول الخبر ،وفى الخبر تحذير عن البغضة .وهو أن يحفو المختلى الناس مقتاً لهم وسوء ظن بهم،وهذاخطأ وإنما يريد أن يخلو مقتاً لنفسه وعلماً بما فى نفسه من الآفات ،وحذرا على نفسه من نفسه ، وعلى الخلق أن يعود عليهم من شره ، فمن كانت خلوته بهذا الوصف لايدخل تحت هذا الوعيد ،والإشارة بالحالقة ،يعنى أن البغضة حالقة للدين لأنه نظر إلى المؤمنين والمسلمين بعين المقت .

وأخبرنا الشيخ أبو الفتح باسناده إلى ابراهيم الحربى قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم عن أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان قال : إن لله تعالى ملكا نصفه من نار و نصفه من ثلج، وإن من دعائه اللهم فكما ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفىء النار ولا النار تذيب الثلج ،ألف بين قلوب عبادك الصالحين .

وكيف لاتتألف قلوب الصالحين وقد وجدهم رسول الله ﷺ فى وقته العزيز بقاب قوسين فى وقت لايسعه فيه شىءلطف حال الصالحين وجدهم فى ذلك المقام العزيز وقال:السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين،فهم مجتمعون وإن كانوا متفرقين وصحبتهم لازمة،وعزيمتهم فى التواصل فى الدنيا والآخرة جازمة.

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لوأن رجلا صام النهار وقام الليل وتصدق وجاهد ولم يحب فى الله ولم يبغض فيه ما نفعه ذلك .

أخبرنا رضى الدين أحمد بن إسماعيل بن يوسف إجازة إن لم يكن سماعا ،قال أخبرنا أبو المظفر عن والده أبى القاسم القشيرى قال : سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت عبد الله بن المعلم يقول : سمعت أبا بكر التلسانى يقول : اصحبوا مع الله ، فان لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله ، لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله .

وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة،قال أخبرنا عمر بن أحمد الصفار النيسابورى إجازة عن أبو بكر أحمد ابن خلف عن أبو عبد الرحمن السلمى عن أبا نصر الأصفهانى عن أبا جعفر الحداد عن على بن سهل يقول: الأنس بالله تعالى أن تستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله فان الأنس بأهل ولاية الله، هو الأنس بالله.

وقد نبه القائل نظما على حقيقة جامعة لمعانى الصحبة والخلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله :

وحدة الإنسان خير من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير من قعود المرء وحده

الباب الرابع والخمسون : فى أداء حقوق الصحبة والأخوة فى الله تعالى

قال الله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) وقال تعالى (وتواصوا بالحق وتواصوا بالمرحمة) وقال فى وصف أصحاب

رسول الله ﷺ ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة ، فمن اختار صحبة أو أخوة فأدبه فى أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسألة والدعاء والتضرع ويسأل البركة فى الصحبة ، فانه يفتح على نفسه بذلك إما باباً من أبواب الجنة وإما باباً من أبواب النار ، فان كان الله يفتح بينهما خيرا فهو باب من أبواب الجنة، قال الله تعالى ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ وقيل: إن أحد الأخوين فى الله يقال له: ادخل الجنة ، فيسأل عن منزل أخيه، فان كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزلته، فان قيل له: لم يكن يعمل مثل عملك، فيقول: إنى كنت أعمل لى وله ، فيعطى جميع ما يسأل لأخيه، ويرفع أخوه إلى درجته. وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحبة شرا ، فهو باب من أبواب النار ، قال الله تعالى ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ﴾ وإن كانت الآية وردت فى قصة مشهورة، ولكن الله تعالى نبه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله واختيار الصحبة والأخوة اتفاقا من غير نية فى ذلك ، وتثبت فى أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار .

وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى كلام له: وهل يفسد الناس إلا الناس ، فالفساد بالصحبة متوقع ، والصلاح متوقع ، وما هذا سبيله كيف لا يحذر فى أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله وصدق الاختيار وسؤال البركة والخيرة فى ذلك وتقديم صلاة الاستخارة .

ثم إن اختيار الصحبة والأخوة عمل ، وكل عمل يحتاج إلى النية وإلى حسن الخاتمة ، وقد قال ﷺ فى الخبر الطويل « سبعة يظلهم الله تعالى : فمنهم اثنان تحابا فى الله فعاشا على ذلك وماتا عليه » إشارة إلى أن الأخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة حتى يكتب لهما ثواب المؤاخاة، ومتى أفسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل الاول .

قيل : ماحسد الشيطان متعاونين على بر حسده متآخيين فى الله متحابين فيه ، فانه يجهد نفسه ويحث قبيله على إفساد ما بينهما.

وكان الفضيل يقول : إذا وقعت الغيبة ارتفعت الاخوة ، والاخوة فى الله تعالى مواجهة، قال الله تعالى ﴿ إخوانا على سرر متقابلين ﴾ ومتى أضمر أحدهما للآخر سوءا أو كره منه شيئا ولم ينهه عليه حتى يزيله أو يتسبب إلى إزالته منه فما واجهه ، بل استدبره .

قال الجنيد رحمه الله : ماتواخى اثنان فى الله واستوحش أحدهما من صاحبه إلا لعلة فى أحدهما.

فالمؤاخاة فى الله أصفى من الماء الزلال ، وما كان لله فالله مطالب بالصفاء فيه وكل ماصفا دام ، والاصل فى دوام صفائه عدم المخالفة : قال رسول الله ﷺ « لاتمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه » .

قال أبو سعيد الخراز : صحبت الصوفية خمسين سنة ماوقع بينى وبينهم خلاف . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لأنى كنت معهم على نفسى .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى إجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد الصفار عن ابو بكر احمد بن خلف عن ابو عبد الرحمن السلمى عن عبدالله الدارانى عن أبا عمرو الدمشقى الرازى عن أبا عبد الله بن الجلاء يقول وقد سأله رجل: على أى شرط أصحب الخلق ؟ فقال: إن لم تبرهم فلا تؤذهم، وإن لم تسرهم فلا تسؤهم.

وبهذا الإسناد قال أبو عبد الله : لاتضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة والصداقة ، فان الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقا لم يضيعها إلا من لم يراع حقوق الله عليه .

ومن حقوق الصحبة : أنه إذا وقع بينهما فرقة ومباينة لايذكر أخاه إلا بخير .

قيل : كان لبعضهم زوجة وكان يعلم منها مايكره ، فكان يقال له استخبارا عن حالها فيقول: لاينبغى للرجل أن

يقول فى أهله إلا خيرا ، ففارقها ، فاستخبر عن ذلك فقال : امرأة بعدت عنى وليست منى فى شىء كيف أذكرها ؟ وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى أنه سبحانه يظهر الجميل ويستر القبيح .

وإذا وجد من أحدهما ما يوجب القاطع فهل يبغضه أولا ؟ اختلف القول فى ذلك كان أبو ذر يقول : إذا انقلب عما كان عليه أبغضه من حيث أحببته . وقال غيره : لا يبغض الأخ بعد الصحبة ولكن يبغض عمله ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ « فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » ولم يقل إنى برىء منكم وقيل : كان شاب يلازم مجالس أبى الدرداء وكان أبو الدرداء يميزه على غيره ، فابتلى الشاب بكبيرة من الكبائر وانتهى إلى أبى الدرداء ما كان منه فقيل له : لو أبعدته وهجرته ؟ فقال : سبحان الله لا يترك الصاحب بشىء كان منه .

قيل : الصداقة لحمة كلحمة النسب . وقيل لحكيم مرة : أيما أحب إليك ، أخوك أو صديقك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديقى ، وهذا الخلاف فى المفارقة ظاهراً وباطناً . وأما الملازمة باطنا إذا وقعت المباينة ظاهراً فتختلف باختلاف الاشخاص ، ولا يطلق القول فيه إطلاقا من غير تفصيل ، فمن الناس من كان تغيره رجوعا عن الله وظهور حكم سوء السابقة فيجب بغضه وموافقة الحق فيه . ومن الناس من كان تغيره عثرة حدثت وفترة وقعت يرجى عوده ، فلا ينبغى أن يبغض ولكن يبغض عمله فى الحالة الحاضرة ، ويلحظ بعين الود منتظرا له الفرج والعود إلى أوطان الصلح ، فقد ورد : ان النبى عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجال الذى أتى بفاحشة قال « مه » وزجرهم بقوله « ولا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم » .

وقال إبراهيم النخعى : لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه ، فإنه يركبه اليوم ويتركه غداً .

وفى الخبر « اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته » .

وروى أن عمر رضى الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه فخرج إلى الشام ، فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال : ما فعل اخى ؟ فقال له ذاك أخو الشيطان . قال له : مه ، قال له : إنه قارف الكبائر حتى وقع فى الخمر ، فقال . إذا أردت الخروج فاذنى ، قال فكتب إليه « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » ثم عاتبه تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر فتاب ورجع .

وروى ان رسول الله ﷺ رأى ابن عمر يلتفت يمينا وشمالا فسأله فقال : يارسول الله آخيت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه فقال يا عبد الله ، إذا آخيت أحدا فاسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله ، فإن كان مريضا عدته ، وإن كان مشغولا أعنته » ،

وكان يقول ابن عباس رضى الله عنهما : ما اختلف رجل الى مجلسى ثلاثا من غير حاجة تكون له فعلمت ما مكافأته فى الدنيا .

وكان يقول سعيد بن العاص : لجليسى على ثلاث : اذا دنا رحبت به ، واذا حدث أقبلت عليه واذا جلس أوسعت له

وعلامة خلوص المحبة لله تعالى أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو احسان ، فإن ما كان معلولا يزول بزوال علته ، ومن لا يستند فى خلته الى علة يحكم بدوام خلته .

ومن شرط الحب فى الله ايثار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا قال الله تعالى ﴿يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ فقوله تعالى ﴿لا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أى لا يحسدون إخوانهم على مالهم ، وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة ، احدهما انتزاع الحسد على شىء من أمر الدين والدنيا . والثانى الإيثار بالمقدور وفى الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام « المرء على دين خليله ولا خير لك فى صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه » .

وكان يقول أبو معاوية الأسود اخوانى كلهم خير منى قيل وكيف ذلك ؟ قال كلهم يرى لى الفضل عليه ، ومن فضلنى على نفسه فهو خير منى .

ولبعضهم نظما : تذلل لمن إن تذللت له يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لم يزل على الأصدقاء يرى الفضل له

الباب الخامس والخمسون : فى آداب الصحبة والأخوة

سئل أبو حفص عن أدب الفقراء فى الصحبة . فقال : حفظ حرمات المشايخ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والنصيحة للأصاغر ، وترك صحبة من ليس فى طبقتهم ، وملازمة الإيثار ، ومجانبة الادخار ، والمعاونة فى أمر الدين والدنيا .

فمن أدبهم : التغافل عن زلل الإخوان ، والنصح فيما يجب فيه النصيحة ، وكتم عيب صاحبه ، وإطلاعه على عيب يعلم منه .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى . وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص ممن ينبهه على عيوبه . قال جعفر بن برقان : قال لى ميمون بن مهران : قل لى فى وجهى ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره ، فإن الصادق يحب من يصدقه ، والكاذب لا يحب الناصح ، قال الله تعالى : ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ والنصيحة ما كانت فى السر .

ومن آداب الصوفية : القيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم فبذلك يظهر جوهر الفقير . وروى أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان فى دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والمروة ، فقال له العباس : قلعت ما كان رسول الله ﷺ وضعه بيده ، فقال : إذن لا يرده إلى مكانه غير يدك ، ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر ، فأقامه على عاتقه ورده إلى موضعه .

ومن أدبهم : أن لا يرون لنفسهم ملكا يختصون به ، قال إبراهيم بن شيبان : كنا لا نصحب من يقول نعلى .

أخبرنا بذلك رضى الدين عن أبى المظفر عن والده أبى القاسم القشيرى قال : سمعت أبا حاتم الصوفى قال : سمعت أبا السراج يقول ذلك . وقال أحمد بن القلانسى : دخلت على قوم من الفقراء يوما بالبصرة فأكرمونى وبجلونى فقلت يوما لبعضهم : أين إزارى ؟ فسقطت من أعينهم .

وكان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه انسان شارطه على ثلاثة أشياء : أن تكون الخدمة والأذان له ، وأن تكون يده فى جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده فقال رجل من أصحابه : أنا لا أقدر على هذا . فقال : أعجبنى صدقك

وكان إبراهيم بن أدهم ينظر البساتين ويعمل فى الحصاد وينفق على أصحابه .

وكان من أخلاق السلف : أن كل من احتاج إلى شىء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة . قال الله تعالى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ أى مشاع هم فيه سواء .

ومن أدبهم أنهم إذا استثقلوا صاحبا يتهمون أنفهم ويتسببون فى إزالة ذلك من بواطنهم ، لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للصاحب وليجة فى الصحبة .

قال أبو بكر الكتانى : صحبنى رجل وكان على قلبى ثقيلا فوهبت له شيئا بنية أن يزول ثقله من قلبى ، فلم يزل ، فخلوت به يوما وقلت له : ضع رجلك على خدى ، فأبى ، فقلت له : لابد من ذلك ، ففعل ذلك فزال ما كنت أجده فى باطنى .

قال الرقى : قصدت من الشام إلى الحجاز حتى سألت الكتانى عن هذه الحكاية .

ومن أدبهم تقديم من يعرفون فضله والتوسعة له فى المجلس والإيثار بالموضع : روى أن رسول الله ﷺ كان جالسا فى صفة ضيقة فجاءه قوم من البدريين ، فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه فأقام رسول الله ﷺ من لم يكن من أهل بدر فجلسوا مكانهم فاشتد ذلك عليهم فأنزل الله تعالى ﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ... الآية ﴾ .

وحكى أن على بن بندار الصوفى ورد على أبى عبد الله بن خفيف زائرا ، فتماشيا ، فقال له أبو عبد الله : تقدم فقال : بأى عذر ؟ فقال : بأنك لقيت الجنيد وما لقيته .

ومن أدبهم : ترك صحبة من همه شيء من فضول الدنيا : قال الله تعالى ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ .

ومن أدبهم : بذل الإنصاف للإخوان وترك مطالبة الإنصاف . قال أبو عثمان الحيرى : حق الصحبة أن توسع على أخيك من مالك ولا تطمع فى ماله ، وتنصفه من نفسك ولا تطلب منه الإنصاف ، وتكون تبعا له ولا تطمع أن يكون تبعا لك وتستكثر ما يصل إليك منه وتستقل ما يصل إليه منك .

ومن أدبهم فى الصحبة : لين الجانب وترك طهور النفس بالصولة ، قال أبو على الروذبارى : الصولة على من فوقك قحة ، وعلى من مثلك سوء أدب ، وعلى من دونك عجز .

ومن أدبهم : أن لا يجرى فى كلامهم : لو كان كذا لم يكن كذا وليت كان كذا وعسى ان يكون كذا ، فإنهم يرون هذه التقديرات عليه اعتراضا .

ومن أدبهم فى الصحبة : حذر المفارقة والحرص على الملازمة ، قيل : صحب رجل رجلا ثم أراد المفارقة ، فاستأذن صاحبه فقال : بشرط أن لاتصحب أحدا إلا إذا كان فوقنا ، وإن كان فوقنا أيضا فلا تصحبه لأنك صحبتنا أولا ، فقال الرجل : زال عن قلبى نية المفارقة .

ومن أدبهم : التعطف على الأصاغر . قيل كان إبراهيم بن أدهم يعمل فى الحصاد ويطعم الأصحاب . وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام وربما كان يتأخر فى بعض الأيام فى العمل ، فقالوا ليلة : تعالوا نأكل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع ، فأفطروا وناموا ، فرجع إبراهيم فوجدهم نياما . فقال : مساكين لعلهم لم يكن لهم طعام ، فعمد إلى شيء من الدقيق فعجنه ، فانتبهوا وهو ينفخ فى النار واضعاً محاسنه على التراب ، فقالوا له فى ذلك فقال : قلت لعلكم لم تجدوا فطورا فنمتم ، فقالوا : نظروا بأى شيء يعاملنا

ومن أدبهم : أن لا يقولوا عند الدعاء إلى أين ؟ ولم ؟ وبأى سبب ؟ قال بعض العلماء : إذا قال الرجل الصاحب قم بناء ، فقال : إلى أين ؟ فلا تصحبه : وقال آخر : من قال لأخيه أعطنى من مالك فقال : كم تريد ؟ ما قام بحق الإخاء . وقد قال الشاعر :

لايسألون أخاهم حين يندبهم   للنائبات على ما قال برهانا

ومن أدبهم : أن لايتكلفوا للإخوان : قيل لما ورد ابو حفص العراق تكلف له الجنيد أنوعا من الأطعمة فأنكر ذلك ابو حفص وقال : صير أصحابى مثل المخانيث يقدم لهم الألوان

والفتوة عندنا ترك التكلف وإحضار ما حضر ، فإن بالتكلف ربما يؤثر مفارقة الضيف ، وبترك التكلف يستوى مقامه وذهابه .

ومن أدبهم فى الصحبة : المداراة وترك المداهنة . وتشبه المداراة والمداهنة والفرق بينهما : ان المداراة ما اردت به صلاح أخيك فداريته لرجاء صلاحه واحتملت منه ، تكره . والمداهنة : ماقصدت به شيئا من الهوى من طلب حظ أو إقامة جاه .

ومن أدبهم فى الصحبة : رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط : نقل عن الشافعى رحمه الله أنه قال : الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم . والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط

ومن أدبهم : ستر عورات الإخوان . قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم اخاكم نائما فكشف الريح عنه ثوبه ؟ قالوا : نستره ونغطيه ، فقال : بل تكشفون عورته . قالوا : سبحان الله من يفعل هذا ؟ قال : احدكم يسمع فى أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها

ومن أدبهم : الاستغفار للإخوان بظهر الغيب والاهتمام لهم مع الله تعالى فى دفع المكاره عنهم

حكى أن اخوان ابتلى احدهما بهوى فأظهر عليه أخاه فقال : إنى ابتليت بهوى فإن شئت ان لا تعقد على محبتى لله فافعل ، فقال : ما كنت لأجل عقد إخائك لأجل خطيئتك ، وعقد بينه وبين الله عقدا أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى من هواه ، وطوى أربعين يوما كلما يسأله عن هواه ، ويقول : مازال ، فبعد الأربعين أخبره أن الهوى قد زال ، فأكل وشرب

ومن أدبهم : أن لا يحوجوا صاحبهم إلى المدارة ولا يلجئوه إلى الاعتذار ولا يتكلفوا للصاحب ما يشق عليه ، بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد الصاحب على مراد أنفسهم . قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : شر الأصدقاء من أحوجك إلى مدارة أو ألجأك إلى اعتذار أو تكلفت له

وقال جعفر الصادق : أثقل إخوانى على من يتكلف لى وأتحفظ منه وأخفهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى ، فآداب الصحبة وحقوق الأخوة كثيرة . والحكايات فى ذلك يطول نقلها . وقد رأيت فى كتاب الشيخ أبى طالب المكى رحمه الله من الحكايات فى هذا المعنى شيئا كثيرا ، فقد أودع كتابه كل شىء حسن من ذلك . وحاصل الجميع : أن العبد ينبغى له أن يكون لمولاه ويريد كل ما يريد لمولاه لا لنفسه ، وإذا صاحب شخصا تكون صحبته إياه لله تعالى ، وإذا صحبه لله تعالى يجتهد له فى كل شىء يزيده عند الله زلفى ، وكل من قام بحقوق الله تعالى يرزقه الله تعالى علما بمعرفة النفس وعيوبها ، ويعرفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب ، ويوفقه من أداء الحقوق على بصيرة ويفقهه فى ذلك كله ، ولا يفوته شىء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق ، وفيما يرجع إلى حقوق الخلق ، فكل تقصير يوجد من خبث النفس وعدم تزكيها وبقاء صفاتها عليه . فإن صحبت ظلمت بالإفراط تارة وبالتفريط أخرى وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق ، والحكايات والمواعظ والآداب وسماعها لا يعمل فى النفس زيادة تأثير ويكون كبئر يقلب فيه الماء من فوق فلا يمكث فيه ولا ينتفع به ، وإذا أخذت بالقوى والزهد فى الدنيا نبع منها ماء الحياء وتفقهت وعلت وأدت الحقوق وقامت بواجب الآداب بتوفيق الله سبحانه وتعالى .

الباب السادس والخمسون : فى معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

حدثنا شيخنا ابو النجيب السهروردى ، قال اخبرنا الشريف نور الهدى ابو طالب الزينبى ، قال عن كريمة المروزية قالت عن ابو الهيثم الكشميهنى عن أبو عبد الله الفربرى عن عبد الله البخارى . قال حدثنا عمر بن حفص : قال عن أبى ، قال عن الأعمش ، قال عن زيد بن وهب عن عبد الله عن رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله تعالى إليه ملكا بأربع كلمات ، فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقى أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار »

وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾ أى حريز لاستقرارها فيه إلى بلوغ أمدها . ثم قال بعد ذكر تقلباته ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ قيل هذا الإنشاء نفخ الروح فيه

واعلم أن الكلام فى الروح صعب المرام والامساك عن ذلك سبيل ذوى الأحلام وقد عظم الله تعالى شأن الروح وأسجل على الخلق بقلة العلم حيث قال ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ وقد أخبرنا الله تعالى فى كلامه عن إكرامه بنى آدم فقال ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ وروى : أنه لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة : يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون . فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة . فقال : وعزتى وجلالى لا أجعل ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان . فمع هذه الكرامة واختياره سبحانه وتعالى إياهم على الملائكة لما اخبر عن الروح اخبر عنهم بقلة

العلم ، قال ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ...الآية﴾ قال ابن عباس : قالت اليهود للنبى عليه السلام أخبرنا ماالروح ؟ وكيف تعذب الروح التى فى الجسد ؟ وإنما الروح من أمر الله ولم يكن نزل اليه فيه شىء، فلم يجبهم فأتاه جبرائيل بهذه الآية ، وحيث أمسك رسول الله ﷺ عن الإخبار عن الروح وماهيته باذن الله تعالى ووحيه وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة : فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة اليه لاجرم لما تقاضت الأنفس الإنسانية المتطلعة إلى الفضول المتشوفة إلى المعقول المتحركة بوضعها إلى كل ماأمره بالسكون فيه ، والمتسورة بحرصها إلى كل تحقيق وكل تموبه ، وأطلقت عنان النظر فى مسارح الفكر ، وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت فى التيه وتنوعت آراؤها فيه ، ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل فى شىء كالاختلاف فى ماهية الروح . ولو لزمت النفوس حدها معترفة بعجزها كان ذلك أجدر بها وأولى : فأما أقاويل من ليس متمسكا بالشرائع فتنزه الكتاب عن ذكرها ، لأنها أقوال أبرزتها العقول التى ضلت عن الرشاد وطبعت على الفساد ، ولم يصبها نور الاهتداء ببركة متابعة الأنبياء ، فهم كما قال الله تعالى ﴿ كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾. ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ فلما حجبوا عن الأنبياء لم يسمعوا وحيث لم يسمعوا لم يهتدوا فأصروا على الجهالات وحجبوا بالمعقول عن المأمول . والعقل حجة الله تعالى يهتدى به قوما ويضل به قوما آخرين : فلم تنقل أقوالهم فى الروح واختلافهم فيه .

وأما المستمسكون بالشرائع الذين تكلموا فى الروح : فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر وقوم منهم بلسان الذوق والوجد لا باستعمال الفكر . حتى تكلم فى ذلك مشايخ الصوفية أيضاً . وكان الأولى الامساك عن ذلك والتأدب بأدب النبى عليه الصلاة والسلام .

وقد قال الجنيد : الروح شىء استأثر الله بعلمه ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود ولكن نجعل للصادقين محملا لأقوالهم وأفعالهم .

ويجوز أن يكون كلامهم فى ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المنزلة، حيث حرم تفسيره وجوز تأويله، إذ لا يسع القول فى التفسير إلا نقل . وأما التأويل فتمتد العقول اليه بالباع الطويل ، وهو ذكر ماتحتمل الآية من المعنى من غير القطع بذلك ، وإذا كان الأمر كذلك فللقول فيه وجه ومحمل.

قال أبو عبد الله النباجى : الروح جسم يلطف عن الحس ويكبر عن اللمس ولا يعبر عنه بأكثر من موجود، وهو وإن منع عن العبارة فقد حكم بأنه جسم : فكأنه عبر عنه .

وقال ابن عطاء الله : خلق الله الأرواح قبل الأجساد، لقوله تعالى ﴿ ولقد خلقناكم ﴾ يعنى الأرواح ﴿ ثم صورناكم ﴾ يعنى الأجساد .

وقال بعضهم :الروح لطيف قائم فى كثيف ، كالبصر جوهر لطيف قائم فى كثيف . وفى هذا القول نظر : وقال بعضهم: الروح عبارة والقائم بالأشياء هو الحق ، وهذا فيه نظر أيضا إلا أن يحمل على معنى الاحياء: فقد قال بعضهم: الاحياء صفة المحيى ، كالتخليق صفة الخالق وقال ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ وأمره كلامه ، وكلامه ليس بمخلوق، أى صار الحى حيا بقوله ، كن حيا ، وعلى هذا لا يكون الروح معنى فى الجسد ، فمن الأقوال مايدل على أن قائله يعتقد قدم الروح، ومن الأقوال مايدل على أنه يعتقد حدوثه

ثم إن الناس مختلفون فى الروح الذى سئل رسول الله ﷺ عنه ، فقال قوم ، هو جبرائيل . ونقل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه . ولكل وجه منه سبعون ألف لسان . ولكل لسان منه سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها . ويخلق من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

وروى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : أن الروح خلق من خلق الله صورهم على صورة بنى آدم وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح

وقال أبو صالح: الروح كهيئة الإنسان وليسوا بناس.

وقال مجاهد: الروح على صورة بنى آدم لهم أيد وأرجل ورءوس يأكلون الطعام وليسوا بملائكة وقال سعيد ابن جبير: لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش، ولو شاء أن يبلع السموات والأرض السبع فى لقمه لفعل صورة خلقه على صورة الملائكة، وصورة وجهه على صورة الآدميين، يقوم يوم القيامة عن يمين العرش والملائكة معه فى صف واحد، وهو ممن يشفع لأهل التوحيد، ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لحرق أهل السموات من نوره فهذه الأقاويل لاتكون إلا نقلا وسماعا بلغهم عن رسول الله ﷺ ذلك، وإن كان الروح المسئول عنه شيئا من هذا المنقول فهو غير الروح الذى فى الجسد فعلى هذا يسوغ القول فى الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعا.

وقال بعضهم الروح لطيفة تسرى من الله إلى أماكن معروفة لا يعبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره.

وقال بعضهم: الروح لم يخرج من «كن» لأنه لو خرج من «كن» كان عليه الذل قيل: فمن أى شىء خرج؟ قال: من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة خصها بسلامه وحياها بكلامه، فهى معتقة من ذل «كن»

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح: أمخلوقة هى؟ قال نعم، ولولا ذلك ماأقرت بالربوبية حيث قالت «بلى» والروح هى التى قام بها البدن واستحق بها اسم الحياة، وبالروح ثبت العقل، وبالروح قامت الحجة، ولو لم يكن الروح هى التى قام بها البدن واستحق بها اسم الحياة وبالروح ثبت العقل، وبالروح قامت الحجة، ولو لم يكن الروح كان العقل معطلا لاحجة عليه ولا له وقيل: إنها جوهر مخلوق ولكنها ألطف المخلوقات وأصفى الجواهر وأنورها وبها تتراءى المغيبات وبها يكون الكشف لأهل الحقائق، وإذا حجبت الروح عن مراعاة السير أساءت الجوارح الأدب، ولذلك صارت الروح بين تجل واستتار وقابض ونازع. وقيل: الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء وقيل الأرواح أقسام: أرواح تجول فى البرزخ وتبصر أحوال الدنيا والملائكة وتسمع ما تتحدث به فى السماء من أحوال الآدميين، وأرواح تحت العرش وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاءت على أقدارها من السعى إلى الله أيام الحياة.

وروى سعيد بن المسيب عن سلمان قال: أرواح المؤمنين تذهب فى برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض حتى يردها إلى جسدها.

وقيل: إذا وردا على الأرواح ميت من الأحياء التقوا وتحدثوا وتساءلوا ووكل الله بهم ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء فى الدنيا من أجل الذنوب قالوا: نعتذر إلى الله ظاهرا عنه فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى وقد ورد فى الخبر عن النبى ﷺ «تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله، وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضا وإشراقا» فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم.

وفى خبر آخر «إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى فان كان حسنا استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»

وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان فى الجسد وليست بمعان أعراض

سئل الواسطى لأى علة كان رسول الله ﷺ احلم الخلق؟ قال: لأنه خلق روحه اولا فوقع له صحبه التمكين والاستقرار ألا تراه يقول «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد» اى لم يكن روحا ولا جسدا وقال بعضهم: الروح خلق من نور العزة وإبليس من نار العزة ولهذا قال ﴿خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾ ولم يدر أن النور خير من النار: فقال بعضهم: قرن الله تعالى العلم بالروح فهى للطافتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء وهذا فى علم الله لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك

والمختار عند أكثر متكلمى الإسلام : أن الإنسانية والحيوانية عرضان خلقا فى الإنسان والموت يعدمهما وأن الروح هى الحياة بعينها صار البدن بوجودها حيا : وبالإعادة إليه فى القيامة يصير حيا وذهب بعض متكلمى الإسلام إلى أنه جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر وهو اختيار أبى المعالى الجوينى وكثير منهم مال إلى أنه عرض إلا أنه ردهم عن ذلك الأخبار الدالة على أنه جسم ، لما ورد فيه من العروج والهبوط والتردد فى البرزخ فحيث وصف بأوصاف دل على أنه جسم . لأن العرض لا يوصف بأوصاف إذ الوصف معنى والمعنى لا يقوم بالمعنى واختار بعضهم أنه عرض .

سئل ابن عباس رضى الله عنهما قيل أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان فقال : أين يذهب ضوء المصباح عند فناء الأدهان قيل له فأين تذهب الجسوم إذا بليت . قال : فأين يذهب لحمها إذا مرضت .

وقال بعض من يتهم بالعلوم المردودة المذمومة وينسب إلى الإسلام : الروح تنفصل من البدن فى جسم لطيف

وقال بعضهم : إنها إذا فارقت البدن تحل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية ، فتكون حينئذ مطالعة للمعانى والمحسوسات لأن تجردها من هيآت البدن عند المفارقة غير ممكن وهى عند الموت شاعرة بالموت وبعد الموت متخيلة بنفسها مقبورة وتتصور جميع ما كانت تعتقده حال الحياة ، وتحس بالثواب والعقاب فى القبر وقال بعضهم : أسلم المقالات أن يقال الروح شىء مخلوق أجرى الله تعالى العادة أن يحى البدن مادام متصلا به ، وأنه أشرف من الجسد يذوق الموت بمفارقة الجسد كما أن الجسد بمفارقته يذوق الموت فإن الكيفية والماهية يتعاشى العقل فيهما كما يتعاشى البصر فى شعاع الشمس ولما رأى المتكلمون أنه يقال لهم : الموجودات محصورة : قديم وجسم وجوهر وعرض فالروح من أى هؤلاء ؟ فاختار قوم منهم أنه عرض وقوم منهم أنه جسم لطيف كما ذكرنا واختار قوم أنه قديم لأنه أمر والأمر كلام والكلام قديم فما أحسن الإمساك عن القول فيما هذا سبيله وكلام الشيخ أبى طالب المكى فى كتابه يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان فى الجسد وهكذا النفوس لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير ومن حركتها يظهر نور فى القلب يراه الملك فيلهم الخير عند ذلك . وتتحرك للشر ومن حركتها تظهر ظلمة فى القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالإغواء .

وحيث وجدت أقوال المشايخ تشير إلى الروح أقول ما عندى فى ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به إذ ميلى فى ذلك إلى السكوت والإمساك فأقول والله أعلم الروح الإنسانى العلوى السماوى من عالم الأمر ، والروح الحيوانى البشرى من عالم الخلق والروح الحيوانى البشرى محل الروح العلوى ومورده . والروح الحيوانى جسمانى لطيف حامل لقوة الحس والحركة ، ينبعث من القلب — أعنى بالقلب ههنا المضغة اللحمية المعرفة الشكل ، المودعة فى الجانب الأيسر من الجسد وينتشر فى تجاويف العروق الضوارب وهذه الروح لسائر الحيوانات ، ومنه تفيض قوى الحواس وهو الذى قوامه باجراء سنة الله بالغذاء غالبا ويتصرف تعلم الطب فيه باعتدال مزاج الأخلاط ولورود الروح الإنسانى العلوى على هذا الروح تجنس الروح الحيوانى وباين أرواح الحيوانات واكتسب صفة أخرى فصار نفسا محلا للنطق والإلهام قال الله تعالى ﴿ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ فتسويتها بورود الروح الإنسانى عليها وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوى وصار تكون النفس التى هى الروح الحيوانى من الآدمى من الروح العلوى فى عالم الأمر ، كتكون حواء من آدم فى عالم الخلق وصار بينهما من التألف والتعاشق كما بين آدم وحواء وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه . قال الله تعالى ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ فسكن آدم إلى حواء وسكن الروح الإنسانى العلوى إلى الروح الحيوانى وصيره نفسا وتكون من سكون الروح إلى النفس القلب وأعنى بهذا القلب اللطيفة التى محلها المضغة اللحمية فالمضغة اللحمية من عالم الخلق وهذه اللطيفة من عالم الأمر وكان تكون القلب من الروح والنفس فى عالم الأمر كتكون الذرية من آدم وحواء فى عالم الخلق ولولا المساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ما تكون القلب فمن القلوب قلب

متطلع إلى الأب الذى هو الروح العلوى ميال إليه وهو القلب المؤيدالذى ذكره رسول الله ﷺ فيما رواهحذيفة رضى الله عنه قال « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس فذلكقلب الكافر وقلب مربوط على علاقة فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأى المادتين غلبت عليهحكم له بهاوالقلب المنكوس ميال إلى الام التى هى النفس الأمارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد فى ميله إليها وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة ، والعقل جوهر الروح العلوى ولسانه والدال عليه ، وتدبيره للقلب المؤيد والنفس الزكية المطمئنة تدبير الوالد للولد البار ، والزوج للزوجة السيئة ؛ فمنكوس منوجه ومنجذب إلى تدبيرهما منوجه إذ لا بد له منهما .

وقول القائلين واختلافهم فى محل العقل فمن قائل إن محله الدماغ ومن قائل إن محله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك واختلافهم فى ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد وانجذابه إلى البار تارة وإلى العاق أخرى وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاق فاذا رؤى فى تدبير العاق قيل مسكنه الدماغ وإذا رؤى فى تدبير البار قيل مسكنه القلب فالروح العلوى يهم بالارتفاع إلى مولاة شوقا وحنوا وتنزها عن الأكوان ، ومن الأكوان القلب والنفس فاذا ارتقى الروح يحنوا القلب إليه حنو الولد الحنين البار إلى الوالد وتحن النفس إلى القلب الذى هو الولد حنين الوالدة الحنينةإلى ولدها وإذا حنتالنفس ارتفعت منالأرض وانزوت عروقهاالضاربةفىالعالمالسفلىوانطوى هواها وانحسمت مادته وزهدت فى الدنيا وتجافت عن دار الغرور وأنابت إلى دار الخلود وقد تخلد النفس التى هى الأم إلى الأرض بوضعها الجبلى لسكونها من الروح الحيوانى المجلس ومستندها فى ركونها إلى الطبائع التىهى أركان العالم السفلى قال الله تعالى ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾ فاذا سكنتالنفسالتىهى الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب المنكوس انجذاب الولد الميال إلى الوالدة المعوجة الناقصة دون الوالد الكامل المستقيم وتنجذب الروح إلى الولد الذى هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه وفى هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ .

وقد ورد فى أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان : أين موضع العقل منك ؟ قال : القلب ؛ لأنه قالب الروح ، والروح قالب الحياة .

وقال أبو سعيد القرشى : الروح روحان روح الحياة وروح الممات فاذا اجتمعا عقل الجسم . وروحالممات هى التى إذا خرجت من الجسد يصير الحى ميتا وروح الحياة مابه مجارى الأنفاس وقوة الأكل والشرب وغيرهما .

وقال بعضهم : الروح نسيم طيب يكون به الحياة والنفس ريح حارة تكون منها الحركات المذمومة والشهوات ويقال فلان حار الرأس وفى الفصل الذى ذكرناه يقع التنبيه بماهية النفس وإشارة المشايخ بماهية النفس إلى مايظهر من آثارها من الأفعال المذمومة والأخلاق المذمومة وهى التى تعالج بحسن الرياضة إزالتها وتبديلها والأفعالالرديئة تزال والأخلاق الرديئة تبدل .

عن الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن اسمعيل القزوينى ، عن أبو سعيد محمد بن أبى العباس الخليلى ،عن القاضى محمد بن سعيد الفرخزادى ، عن أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم عن الحسين بن محمدبن عبد الله السفيانى عن محمد بن الحسن اليقطينى عن أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلى عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن خالدبن يزيد عن سعيد بنأبى هلال أن رسول الله ﷺ كان إذ قرأ هذه الآية ﴿قد أفلح منزكاها﴾ وقف ثم قال « اللهم آت نفسى تقواها أنت وليها ومولاها وزكها أنت خير من زكاها » .

وقيل : النفس لطيفة مودعة فى القالب ، منها الأخلاق والصفات المذمومة ، كما أن الروح لطيفة مودعة فى القلب، منها الأخلاق والصفات المحمودة ، كما أن العين محل الرؤية ، والأذن محل السمع ، والأنف محل الشم ، والفم محل الذوق وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة والروح محل الأوصاف المحمودة ، وجميع أخلاق النفس وصفاتهم من أصلين أحدهما الطيش ، والثانى : الشره ، وطيشها من جهلها ، وشرهها من حرصها ، وشبهت النفس فى طيشها بكرة مستديرة على مكان أملس مصوب ، لا تزال متحركة بجبلتها ووضعها ، وشبهت فى حرصها بالفراش الذى يلقى نفسه على ضوء المصباح ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذى فيه هلاكه ، فمن الطيش توجد العجلة وقلة الصبر ، والصبر جوهر العقل ، والطيش صفة النفس ، وهواها وروحها لا يغلبه إلا الصبر ، إذ العقل يقمع الهوى ، ومن الشره يظهر الطمع والحرص ، وهما اللذان ظهرا فى آدم حيث طمع فى الخلود ، فحرص على أكل الشجرة .

وصفات النفس لها أصول من أصل تكونها ، لأنها مخلوقة من تراب ، ولها بحسبه وصف ، وقيل وصف الضعف فى الآدمى من التراب ، ووصف البخل فيه الطين ، ووصف الشهوة فيه من الحمأ المسنون ، ووصف الجهل فيه من الصلصال . وقيل قوله ﴿ كالفخار ﴾ فهذا الوصف فيه شىء من الشيطنة لدخول النار ؛ فمن ذلك الخداع والحيل والحسد فمن عرف أصول النفس وجبلاتها عرف أن لا قــدرة له عليها إلا بالاستعانة ببارئها وفاطرها ، فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بعد أن يدبر دواعى الحيوانية فيه بالعلم والعدل ، وهو رعاية طرفى الإفراط والتفريط ، ثم بذلك تتقوى إنسانيته ومعناه ويدرك صفات الشيطنة فيه والأخلاق المذمومة وكمال إنسانيته ، ويتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك ، ثم تتكشف له الأخلاق التى تنازع بها الربوبية من الكبر والعز ورؤية النفس والعجب وغير ذلك ، فيرى أن صرف العبودية فى ترك المنازعة للربوبية ، والله تعالى ذكر النفس فى كلامه القديم بثلاثة أوصاف . بالطمأنينة ، قال ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ وسماها لوامة ، قال ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ وسماها أمارة فقال ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ وهى نفس واحدة ولها صفات متغايرة فإذا امتلأ القلب سكينة خلع على النفس خلع الطمأنينة ، لأن السكينة مزيد الإيمان ، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح للمنح من حظ اليقين ، وعند توجه القلب إلى محل الروح تتوجه النفس إلى محل القلب . وفى ذلك طمأنينتها ، وإذا انزعجت من مقار جبلاتها ودواعى طبيعتها متطلعة إلى مقار الطمأنينة فهى لوامة ، لأنها تعود باللائمة على نفسها لنظرها وعلمها بمحل الطمأنينة ثم انجذابها إلى محلها التى كانت فيه أمارة بالسوء ، وإذا أقامت فى محلها لا يغشاها نور العلم والمعرفة ، فهى على ظلمتها أمارة بالسوء فالنفس والروح يتطاردان ، فتارة يملك القلب دواعى الروح . وتارة يملكه دواعى النفس .

وأما السر فقد أشار القوم إليه . ووجدت فى كلام القوم أن منهم من جعله بعد القلب وقبل الروح ومنهم من جعله بعد الروح وأعلى منها وألطف . وقالوا : السر محل المشاهدة ، والروح محل المحبة ، والقلب محل المعرفة ، والسر الذى وقعت إشارة القوم إليه غير مذكور فى كتاب الله ، وإنما المذكور فى كلام الله الروح والنفس ، وتنوع صفاتها والقلب والفؤاد والعقل ، وحيث لم نجد فى كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار إليه ، ورأينا الاختلاف فى القول فيه ، وأشار قوم إلى أنه دون الروح ، وقوم إلى أنه ألطف من الروح ، فنقول ــ والله أعلم: الذى سموه سرا ليس هو بشىء مستقل بنفسه له وجود وذات كالروح والنفس ، وإنما لما صفت النفس وزكت انطلق الروح من وثاق ظلمة النفس ، فأخذ فى العروج إلى أوطان القرب ، وانتزح القلب عنـــد ذلك عن مستقره متطلعا إلى الروح . فاكتسب وصفاً زائدا على وصفه . فانبجم على الواجدين ذلك الوصف حيث رأوه أصفى من القلب فسموه سرا . ولما صار القلب وصف زائد على وصفه بتطلعه إلى الروح اكتسب الروح وصفا زائدا فى عروجه وانبجم على الواجدين فسموه سرا . والذى زعموا أنه ألطف من الروح : روح متصفة بوصف أخص مما عهدوه . والذى سموه قبل الروح سرا : هو قلب اتصف بوصف زائد غير ما عهدوه . وفى مثل هــذا الترقى من الروح والقلب تترقى النفس إلى محل القلب . وتنخدع من وصفها فتصير نفسا مطمئنة تريد كثيرا من مرادات القلب من قبل إذ صار القلب يريد ما يريد

مولاه متبرئا عن الحول والقوة والإرادة والاختيار . وعندها ذاق طعم صرف العبودية حيث صار حرا عن إرادته واختياراته .

وأما العقل فهو لسان الروح وترجمان البصيرة . والبصيرة للروح بمثابة القلب والعقل بمثابة اللسان . وقد ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال « أول ما خلق الله العقل . فقال له اقبل فأقبل . ثم قال له أدبر فأدبر . ثم قال له أقعد فقعد ، ثم قال له انطق فنطق . ثم قال له أصمت فصمت . فقال : وعزتى وجلالى وعظمتى وكبريائى وسلطانى وجبروتى ما خلقت خلقا أحب إلى منك ولا أكرم على منك . بك أعرف وبك أحمد . وبك أطاع وبك آخذ وبك أعطى ، وإياك أعاتب ، ولك الثواب وعليك العقاب . وما أكرمتك بشىء أفضل من الصبر » وقال عليه السلام « لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقله عقله » . وسألت عائشة رضى الله عنها النبى ﷺ قالت : قلت يارسول الله بأى شىء يتفاضل الناس ؟ قال : « بالعقل فى الدنيا والآخرة » قالت: قلت أليس يجزى الناس بأعمالهم ؟ قال « ياعائشة وهل يعمل بطاعة الله إلا من قد عقل فبقدر عقولهم يعملون وعلى قدر ما تعملون يجزون » وقال عليه السلام « إن الرجل لينطلق إلى المسجد فيصلى وصلاته لاتعدل جناح بعوضة . وإن الرجل ليأتى المسجد فيصلى وصلاته تعدل جبل أحد إذا كان أحسنهما عقلا » قيل : وكيف يكون أحسنهما عقلا ، قال « أورعهما عن محارم الله وأحرصهما على أسباب الخير وإن كان دونه فى العمل والتطوع » .

وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله تعالى قسم العقل بين عباده أشتاتا . فإن الرجلين يستوى علمهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان فى العقل كالذرة فى جبل أحد » .

وروى عن وهب بن منبه أنه قال : إنى أجد فى سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل فى جنب عقل رسول الله ﷺ كهيئة رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا .

واختلف الناس فى ماهية العقل . والكلام فى ذلك يكثر . ولا نؤثر نقل الأقاويل . وليس ذلك من غرضنا . فقال قوم : العقل من العلوم فإن الخالى من جميع العلوم لايوصف بالعقل . وليس العقل جميع العلوم . فإن الخالى عن معظم العلوم يوصف بالعقل . وقالوا : ليس من العلوم النظرية . فإن من شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل . فهو إذن من العلوم الضرورية وليس هو جميعها . فان صاحب الحواس المختلة عاقل وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية .

وقال بعضهم : العقل ليس من أقسام العلوم : لأنه لو كان منها لوجب الحكم بأن الذاهل عن ذكر الاستحالة والجواز لايتصف بكونه عاقلا ونحن نرى العاقل فى كثير من أوقاته ذاهلا . وقالوا : هذا العقل صفة يتهيأ بها درك العلوم .

ونقل عن الحرث بن أسد المحاسبى وهو من أجل المشايخ أنه قال : العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم . وعلى هذا يتقرر ما ذكرناه فى أول ذكر العقل : أنه لسان الروح . لأن الروح من أمر الله . وهى المتحمله للأمانة التى أبت السموات والأرضون أن يحملنها . ومنها يفيض نور العقل وفى نور العقل تتشكل العلوم . فالعقل للعلوم بمثابة اللوح المكتوب . وهو بصفته منكوس متطلع إلى النفس تارة ومنتصب مستقيم تارة فمن كان العقل فيه منكرسا إلى النفس فرقه فى أجزاء الكون وعدم حسن الاعتدال بذلك وأخطأ طريق الاهتداء . ومن انتصب العقل فيه واستقام : تأيد العقل بالبصيرة التى هى للروح بمثابة القلب . واهتدى الى المكون ، ثم عرف الكون بالمكون . مستوفيا أقسام المعرفة بالمكون والكون، فيكون هذا العقل عقل الهداية : فكما أحب الله إقباله فى أمر دله على اقباله عليه . وما كرهه الله فى أمر دله على الإدبار عنه . فلا يزال يتتبع محاب الله تعالى ويجتنب مساخطه . وكلما استقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالته على الرشد ونهيه عن الغى .

قال بعضهم : العقل على ضربين : ضرب يبصر به أمر دنياه . وضرب يبصر به أمر آخرته . وذكر أن العقل الأول من نور الروح . والعقل الثانى من نور الهداية . فالعقل الأول موجود فى عامة ولد آدم . والعقل الثانى

موجود فى الموحدين مفقود من المشركين .

وقيل : إنما سمى العقل عقلا لأن الجهل ظلمة ، فإذا غلب النور بصره فى تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فصار عقالا للجهل .

وقيل : عقل الإيمان مسكنه فى القلب ومتعمله فى الصدر بين عينى الفؤاد ، والذى ذكرناه من كون العقل لسان الروح ـ وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ، ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الأشياء فى مواضعها ، وهذا العقل هو العقل المستضىء بنور الشرع ، لأن انتصابه واعتداله هداه إلى الاستضاءة بنور الشرع لكون الشرع ورد على لسان النبى المرسل ، وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية ومكاشفة بصيرته التى هى للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأييد البصيرة ؛ فالبصيرة تحيط بالعلوم التى يستوعبها العقل والتى يضيق عنها نطاق العقل ، لأنها تستمد من كلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها . والعقل ترجمان تؤدى البصيرة إليه من ذلك شطرا ، كما يؤدى القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر ببعد دون اللسان وهذا المعنى من جمد على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظى بعلوم الكائنات التى هى الملك ، والملك ظاهر الكائنات . ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت ، والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفة أرباب البصائر والعقول دون الجامدين على مجرد العقول وقد قال بعضهم : إن العقل عقلان ، عقل للهداية مسكنه فى القلب وذلك للمؤمنين الموقنين ومتعمله الصدر بين عينى الفؤاد ، والعقل الآخر مسكنه فى الدماغ ومتعمله فى الصدر بين عينى الفؤاد فبالأول يدبر أمر الآخرة ، وبالثانى يدبر أمر الدنيا ، والذى ذكرناه أنه عقل واحد إذا تأيد بالبصيرة دبر الأمرين وإذا تفرد دبر أمر واحد وهو أوضح وأبين وقد ذكرنا فى أول الباب من تدبيره النفس المطمئنة والأمارة ما يتنبه الإنسان به على كونه عقلا واحدا مؤيدا بالبصيرة تارة ومنفردا بوصفه تارة . والله الملهم للصواب .

الباب السابع والخمسون : فى معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييز

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى عن أبو الفتح الهروى عن أبو نصر الترياقى عن أبو محمد الجراحى عن أبو العباس المحبوبى عن أبو عيسى الترمذى عن هناد عن أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمدانى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ؛ فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ، ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾» وإنما يتطلع إلى المعرفة اللمتين وتمييز الخواطر طالب مريد يتشوف إلى ذلك تشوف العطشان إلى الماء لما يعلم من وقع ذلك وخطره وفلاحه وصلاحه وفساده ، ويكون ذلك عبدا مرادا بالحظوة بصفو اليقين ومنح الموقنين وأكثر التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به فى طريقهم . ومن أخذ فى طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعد التشوف ، لأن التشوف إليه يكون على قدر الطلب والإرادة والحظ من الله الكريم ، ومن هو فى مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطلع إلى معرفة اللمتين ولا يهتم بتمييز الخواطر ، ومن الخواطر ما هى رسل الله تعالى إلى العبد ، كما قال بعضهم : لى قلب إن عصيته عصيت الله ، وهذا حال عبد استقام قلبه ، وإستقامة القلب لطمأنينة النفس وفى طمأنينة النفس يأس الشيطان ، لأن النفس كلما تحركت كدرت صفو القلب ، وإذا تكدر طمع الشيطان وقرب منه ، لأن صفاء القلب بالتذكر والرعاية وللذكر نور يتقيد الشيطان كاتقاء أحدنا النار ، وقد ورد فى الخبر «ان الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فاذا ذكر الله تعالى تولى وخنس ، واذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه وقال الله تعالى ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن يقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ وقال الله تعالى ﴿ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون﴾ فبالتقوى وجود خالص الذكر ، وبها ينفتح

بابه ، ولا يزال العبد يتقى حتى يحمى الجوارح من المكاره ثم يحميها من الفضول ومالا يعنيه ، فتصير أقواله وأفعاله ضرورة ، ثم تنتقل تقواه إلى باطنه ويطهر الباطن ويقيده عن المكاره ثم من الفضول ، حتى يتقى حديث النفس .
قال سهل بن عبد الله : أسوأ المعاصى حديث النفس ، ويرى الإصغاء إلى ما تحدث به النفس ذنبا فيتقيه ، ويتقد القلب عند هذا الاتقاء بالذكر اتقاد الكواكب فى كبد السماء ، ويصير القلب سماء محفوظا بزينة كواكب الذكر ، فإذا صار كذلك بعد الشيطان ، ومثل هذا العبد يندر فى حقه الخواطر الشيطانية وللماته ، ويكون له خواطر النفس ويحتاج الى أن يتقيها ويميزها بالعلم ، لأن منها خواطر لا يضر إمضاؤها ، كمطالبات النفس بحاجاتها . وحاجاتها تنقسم الى الحقوق والحظوظ ، ويتعين التمييز عند ذلك واتهام النفس بمطالبات الحظوظ . قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ أى فتثبتوا ، وسبب نزول الآية الوليد بحيث بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بنى المصطلق فكذب عليهم ونسبهم الى الكفر والعصيان حتى هم رسول الله ﷺ بقتالهم ، ثم بعث خالدا إليهم فسمع أذان المغرب والعشاء ، ورأى ما يدل على كذب الوليد بن عقبة ، فأنزل الله تعالى الآية فى ذلك ، فظاهر الآية وسبب نزولها ظاهر ، وصار ذلك تنبيها من الله عباده على التثبت فى الأمور . قال سهل فى هذه الآية : الفاسق الكذاب . والكذب صفة النفس لأنها تملى أشياء وتسول أشياء على غير حقائقها ، فتعين التثبت عند خاطرها وإلقائها فيجعل العبد خاطر النفس نبأ يوجب التثبت ولا يستفزه الطبع ولا يستعجله الهوى ، فقد قال بعضهم : أدنى الأدب أن تقف عند الجهل وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة .

ومن الأدب عند الاشتباه : انزال الخاطر بمحرك النفس وخالقها وبارئها وفاطرها ، واظهار الفقر والفاقة اليه والاعتراف بالجهل وطلب المعرفة والمعونة منه ، فإنه اذا أتى الأدب يغاث ويعان ، ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ أو طلب حق ؟ فإن كان للحق أمضاه ، وإن كان للحظ نفاه ، وهذا التوقف اذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم ، لأن الافتقار الى باطن العلم عند فقد الدليل فى ظاهر العلم ثم من الناس من لا يسعه فى صحته الا الوقوف على الحق دون الحظ وان أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب .
ومن الناس من يدخل فى تناول الحظ ويمضى خاطره بمزيد علم لديه من الله ، وهو علم السعة لعبد مأذون له فى السعة عالم بالإذن ، فيمضى خاطر الحد ، والمراد بذلك على بصيرة من أمره بحسن به ذلك ويليق به عالم بزيادته ونقصانه عالم بحاله محكم لعلم الحال وعلم القيام لا يقاس على حاله ولا يدخل فيه بالتقليد لأنه أمر خاص لعبد خاص واذا كان شأن العبد تمييز خواطر النفس فى مقام تخلصه من لمات الشيطان تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك وتصير الخواطر الأربعة فى حقه ثلاثا ويسقط خاطر الشيطان الا نادراً لضيق مكانه من النفس ، لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس ، واتساع النفس باتباع الهوى والاخلاد الى الأرض ومن ضاق بالنفس التمييز بين الحق والحظ ضاقت نفسه وسقط محل الشيطان الا نادر الدخول الابتلاء عليه ثم من المرادين المتعلقين بمقام المقربين من اذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر يصير قلبه سماويا ويترقى ويعرج بباطنه ومعناه وحقيقته فى طبقات السموات ، وكلما ترقى تضاءل النفس المطمئنة وتبعد عنه خواطرها حتى يجاوز السموات بعروج باطنه كما كان ذلك لرسول الله ﷺ بظاهره وقالبه ، فإذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس ليستره بأنوار القرب وبعد عنها النفس وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضا لأن الخاطر رسول والرسالة الى من بعد وهذا قريب وهذا الذى وصفناه نازل ينزل به ولا يدوم ، بل يعود فى هبوطه الى منازل مطالبات النفس وخواطره فتعود اليه خواطر الحق وخواطر الملك وذلك أن الخواطر تستدعى وجودا .
وما أشرنا اليه حال الفناء ولا خاطر فيه وخاطر انتفى لمكان القرب وخاطر النفس بعد عنه لبعد النفس وخاطر الملك تخلف عنه كتخلف جبريل فى ليلة المعراج عن رسول الله ﷺ حيث قال لو دنوت أنملة لاحترقت .
قال محمد بن على الترمذى المحدث والمكلم اذا تحققا فى درجتهما لم يخافا من حديث النفس فكما أن النبوة محفوظة من القاء الشيطان كذلك محل المكالمة والمحادثة محفوظ من القاء النفس وفتنتها ومحروس بالحق والسكينة لأن السكينة حجاب المتكلم والمحدث مع نفسه .

وسمعت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري بالبصرة يقول : الخواطر أربعة :خاطر من النفس،وخاطر من الحق وخاطر من الشيطان ،وخاطر من الملك . فأما الذي من النفس : فيحس به من أرض القلب، والذي من الحق : من فوق القلب ، والذي من الملك : عن يمين القلب ، والذي من الشيطان : عن يسار القلب . والذي ذكره إنما يصح لعبد أذاب نفسه بالتقوى والزهد ، وتصفى وجوده ، واستقام ظاهره وباطنه ، فيكون قلبه كالمرآة المجلوة . لا يأتيه الشيطان من ناحية إلا ويبصره ، فإذا أسود القلب وعلاه الرين لايبصر الشيطان .

روى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ «إن العبد اذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء ، فان هو نزع واستغفر وتاب صقل وان عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه . قال الله تعالى﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾

سمعت بعض العارفين يقول كلاما دقيقا كوشف به فقال : الحديث في باطن الإنسان .والخيال الذي يراءى لباطنه وتخيل بين القلب وصفاء الذكر : هو من القلب وليس هو من النفس ،وهذا بخلاف ما تقرر ،فسألته عن ذلك، فذكر أن بين القلب والنفس مناغاه ومحادثات وتآلفا وتوددا ،وكلما انطلقت النفس في شيء بهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكدر ، فاذا عاد العبد من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره ومحل مناجاته وخدمته لله تعالى، أقبل القلب بالمعاتبة للنفس، وذكر النفس شيئا من فعلها وقولها كاللائم للنفس والمعاتب لها على ذلك فاذا كان الخاطر أول الفعل ومفتتحه فمعرفته من أهم شأن العبد ،لأن الافعال من الخواطر تنشأ، حتى ذهب بعض العلماء الى أن العلم المفترض طلبه بقول رسول الله ﷺ « طلب العلم فريضة على كل مسلم » هو علم الخواطر. قال : لانها أول الفعل ، وبفسادها فساد الفعل وهذا لعمرى لايتوجه . لان رسول الله ﷺ أوجب ذلك على كل مسلم وليس كل المسلمين عندهم من القريحة والمعرفة مايعرفون به ذلك .ولكن يعلم الطالب أن الخواطر بمثابة البذر .فمنها ماهو بذر السعادة . ومنها ما هو بذر الشقاوة .

وسبب اشتباه الخواطر أحد أربعة لاخامس لها : إما ضعف اليقين .أو قلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها، أو متابعة الهوى بخرم قواعد التقوى أو محبة الدنيا جاهها ومالها وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس . فمن عصم عن هذه الاربعة .يفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان . ومن ابتلى بها : لايعلمها ولا يطلبها . وانكشاف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الاربعة دون البعض وأقوم الناس بتمييز الخواطر وأقومهم بمعرفة النفس ومعرفتها صعبة المنال لاتكاد تتيسر الا بعد الاستقصاء في الزهد والتقوى

واتفق المشايخ على أن من كان أكله من الحرام لايفرق بين الإلهام والوسوسة.

وقال أبو على الدقاق : من كان قوته معلوما لا يفرق بين الإلهام والوسوسة . وهذا لايصح على الإطلاق إلا بقيد وذلك أن من المعلوم ما يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعبد بإذن يسبق إليه في الأخذ منه والتقوت به ، ومثل هذا المعلوم لايحجب عن تميز الخواطر إنما يقال في حق من دخل في معلوم باختيار منه وإيثار ، لأنه يتحجب لموضع اختياره ، والذي أشرنا إليه منسلخ من إرادته فلا يحجبه المعلوم

وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان ، وقالوا : إن النفس تطالب وتلح ، فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها ، والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى : إذ لاغرض له في تخصيص ، بل مراده الأغواء كيفما أمكنه . وتكلم الشيوخ في الخاطرين إذا كانا من الحق أيهما يتبع ، قال الجنيد : الخاطر الأول لأنه إذا بقى رجع صاحبه إلى التأمل ، وهذا شرط العلم . وقال ابن عطاء الثاني أقوى لأنه ازداد قوة بالأول . وقال أبو عبدالله ابن خفيف : هما سواء لأنهما من الحق فلا مزية لأحدهما على الآخر

قالوا : الواردات أعم من الخواطر ، لان الخواطر تختص بنوع خطاب أو مطالبة ، والواردات تكون تارة خواطر وتارة تكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط .

وقيل بنور التوحيد يقبل الخاطر من الله تعالى وبنور المعرفة يقبل الملك ، وبنور الإيمان ينهى النفس ، وبنور الإسلام يرد على العدو ومن قصر عن درك حقائق الزهد وتطلع إلى تمييز الخواطر يزن الخاطر أولا بميزان الشرع فما كان من ذلك نفلا أو فرضا يمضيه وما كان من ذلك محرما أو مكروها ينفيه فان استوى الخاطران فى نظر العلم ينفذ أقربهما إلى مخالفة هوى النفس قد يكون لها هوى كامن فى أحدهما ، والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون إلى الدون وقد يلم الخاطر بنشاط النفس والعبد يظن أنه بنهوض القلب ، وقد يكون من القلب نفاق بسكونه إلى النفس ، يقول بعضهم : منذ عشرين سنة ما سكن قلبى إلى نفسى ساعة فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطر تستبه بخواطر الحق على من يكون ضعيف العلم ، فلا يدرك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه إلا العلماء الراسخون وأكثر ما تدخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القبيل ، وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب ونقاء نصيب الهوى فيم .

وينبغى أن يعلم العبد قطعا أنه مهما بقى عليه أثر من الهوى وإن دق وقال يبقى عليه بحسبه بقية من اشتباه الخواطر . ثم قد يغلط فى تميز الخواطر من هو قليل العلم ، ولا يؤاخذ بذلك ما لم يكن عليه من الشرع مطالبة ، وقد لا يسامح بذلك بعض الغالطين لما كوشفوا به من دقيق الخفاء فى التميز ، ثم استعجالهم مع علمهم وقلة التثبت .

وذكر بعض العلماء أن لمة الملك ولمة الشيطان وجدتا لحركة النفس والروح ، وأن النفس إذا تحركت انقدح من جوهرها ظلمة تشكت فى القلب همة سوء . فينظر الشيطان إلى القلب فيقبل بالإغواء والوسوسة ، وذكر أن حركة النفس تسكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس ، أو أمنية وهى عن الجهل الغريزى ، أو دعوى حركة أو سكون وهى آفة العقل ومحبه القلب ، ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة : بجهل ، أو غفلة ، أو طلب فضول ، ثم يكون هذه الثلاثة مايجب نفيه ، فإنها ترد بخلاف مأمور أو على وفق منهى ، ومنها ما يكون نفيها فضيلة إذا وردت بمباحات

وذكر أن الروح إذا تحركت انقدح من جوهرها نور ساطع يظهر من ذلك النور فى القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة : إما بفرض أمر به ، أو بفضل ندب إليه ، وإما بمباح يعود صلاحه إليه ، وهذا الكلام يدل على أن حركتى الروح والنفس هما الموجبتان للمتين . وعندى والله أعلم أن اللمتين يتقدمان على حركة الروح والنفس ، فحركة الروح من لمة الملك . والهمة العالية من حركة الروح ، وهذه الحركة من الروح ببركة لمة الملك . وحركة النفس من لمة الشيطان ومن حركة النفس الهمة الدنيئة وهى من شؤم لمة الشيطان ، فإذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان وظهر سر العطاء والابتلاء من معط كريم ومبل حكيم . وقد تسكون هاتان اللمتان متداركين ينمحى أثر إحداهما بالأخرى . والمتفطن المتيقظ . ينفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار فى ذاته باب أنس ، ويبقى أبدا متفقد حاله مطالعا آثار اللمتين .

وذكر خاطر خامس : وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة ، يكون مع النفس والعدو لوجود التمييز وإثبات الحجة على العبد . ليدخل العبد فى الشىء بوجود عقل . إذ لو فقد العقد سقط العقاب والعتاب . وقد يكون الملك والروح ليوقع الفعل مختارا ويستوجب به الثواب .

وذكر خاطر سادس . وهو خاطر اليقين . وهو روح الإيمان ومزيد العلم ولا يبعد أن يقال : الخاطر السادس وهو خاطر اليقين حاصله راجع إلى مايرد من خاطر الحق وخاطر العقل أصله تارة من خاطر الملك . وتارة من خاطر النفس وليس من العقل خاطر على الاستقلال : لأن العقل كما ذكرنا غريزة يتهيأ بها ادراك العلوم ويتهيأ الانجذاب الى دواعى النفس تارة والى دواعى الملك تارة . والى دواعى الروح تارة والى دواعى الشيطان تارة فعلى هذا لا تزيد الخواطر على أربعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذكر غير اللمتين ، وهاتان اللمتان هما الأصل . والخاطران الآخران فرع عليهما : لأن لمة الملك اذا حركت الروح واهتزت الروح بالهمة الصالحة قربت أن تهتز بالهمة الصالحة الى حظائر القرب . فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق . واذا تحقق بالقرب يتحقق بالفناء . فتثبت الخواطر الربانية عند ذلك . كما ذكرنا قبل لموضع قربه . فيكون أصل خواطر الحق لمة الملك ولمة الشيطان اذا حركت النفس هوت بجبلتها الى

مركزها من الغريزة والطمع ، فظهر منها لحركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهواها ، فصارت خواطر النفس نتيجة لمة الشيطان ، فأصلها لمتان وينتجان أخريين ، وخاطر اليقين والعقل مندرج فيها والله أعلم .

الباب الثامن والخمسون : فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما

قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام . واختلفت إشارات الشيوخ فى ذلك ووجود الاشتباه لمكان تشابههما فى نفسهما ، فتراءى للبعض الشىء حالا وتراءى للبعض مقاما ، وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ، ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما ، على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق ؛ فالحال سمى حالا لتحوله ، والمقام مقاما لثبوته واستقراره ، وقد يكون الشىء بعينه حالا ثم يصير مقاما ، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ، ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول، فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ، ثم يحول الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ويغلب حال المحاسبة وتنقهر النفس وتنضبط وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه . فيصير فى مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة ، ثم ينازله حال المراقبة فمن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال ثم يحول المراقبة لتناوب السهو والغفلة فى باطن العبد إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتدارك الله عبده بالمعونة ، فيصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا ، ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا ينازل حال المراقبة ، ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا وينازل حال المشاهدة ، فإذا منح العبد ينازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ، ونازل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول الاستتار ويظهر بالتجلى ، ثم يصير مقاما وتتخلص شمسه عن كسوف الاستتار ، ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه كالتحقق بالفناء والتخلص إلى البقاء ، والترقى من عين اليقين إلى حق اليقين ، وحق اليقين نازل يخرق شغاف القلب وذلك أعلى فروع المشاهدة . وقد قال رسول الله ﷺ « اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى » .

قال سهل بن عبد الله : للقلب تجويفان، أحدهما باطنى وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسويداؤه والتجويف الثانى ظاهر القلب وفيه العقل ومثل العقل فى القلب مثل النظر فى العين ، وهو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذى فى سواد العين ، ومنه تنبعث الأشعة المحيطة بالمرئيات ، فكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات ، وهذه الحالة التى خرقت شغاف القلب ووصلت إلى سويدائه وهى حق اليقين : هى أسنى العطايا وأعز الأحوال وأشرفها ، ونسبة هذه الحال من المشاهدة كنسبة الآجر من التراب ، إذ يكون ترابا ثم طينا ثم لبنا ثم آجرا ؛ فالمشاهدة هى الأول والأصل يكون منها الفناء كالطين ثم البقاء كاللبن ثم هذه الحالة وهى آخر الفروع .

ولما كان الأصل فى الأحوال هذه الحالة وهى أشرف الأحوال وهى محض موهبة لا تكتسب سميت كل المواهب من مكاسب النوازل بالعبد أحوالا ، لأنها غير مقدورة للعبد بكسبه ، فأطلقوا القول وتداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب ، والأحوال مواهب ، وعلى الترتيب الذى درجنا عليه كلها مواهب إذ المكاسب محفوفة بالمواهب والمواهب محفوفة بالمكاسب ، فالأحوال مواجيد والمقامات طرق المواجيد ولكن فى المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب وفى الأحوال بطن الكسب وظهرت المواهب فالأحوال مواهب علوية سماوية والمقامات طرقها . وقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه . سلونى عن طرق السموات فإنى أعرف بها من طرق الأرض : إشارة إلى المقامات والأحوال فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات فان السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا وهى طرق السموات ومتنزل البركات وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سماوى . قال بعضهم : الحال هو الذكر الخفى وهذا إشارة إلى شىء مما ذكرناه وسمعت المشايخ بالعراق يقولون : الحال ما من الله فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون : هذا ما من العبد فاذا لاح للمريد شىء من المواهب والمواجيد . قالوا : هذا ما من الله وسموه حال إشارة منهم إلى أن الحال موهبة .

وقال بعض مشايخ خراسان : الأحوال مواريث الأعمال .

وقال بعضهم : الأحوال كالبروق ، فان بقي فحديث النفس ، وهـــذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق وإنما يكون ذلك فى بعض الأحوال فانها تسطرق ثم تستلها النفس ، فأما على الإطلاق فلا ، والأحوال لاتمتزج بالنفس كالدهن لايمتزج بالماء .

وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون إلا إذا دامت فأما إذا لم تدم فهى لوائح وطوالع و بوادر وهى مقدمات الأحوال وليست بأحوال .

واختلف المشايخ فى ان العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذى هو فيه قبل إحكام حكم مقامه . قال بعضهم لا ينبغى أن ينتقل عن الذى هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه .

قال بعضهم : لا يكمل المقام الذى هو فيه إلا بعد ترقية إلى مقام فوقه فينظر من مقامه العالى إلى مادونه من المقام فيحكم أمر مقامه والأولى أن يقال ـ والله أعلم ـ : الشخص فى مقامه يعطى حالا من مقامه الأعلى الذى سوف يرتقى إليه فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذى هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ، ولا يضاف الشىء إلى العبد أنه يرتقى أو لا يرتقى فان العبد بالأحوال يرتقى إلى المقامات ، والأحوال مواهب ترقى إلى المقامات التى يمتزج فيها الكسب بالموهبة ، ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقية إليه فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزائد الأحوال فعلى ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والأحوال حتى التوبة ، ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام ، وفى الزهد حال ومقام وفى التوكل حال ومقام .

قال أبو عثمان الحيرى : منذ أربعين سنة ماأقامنى الله فى حال فكرته ، أشار إلى الرضا ويكون منه حالا ثم يصير مقاما ، والمحبة حال ومقام ، لا يزال العبد يتنوب بطروق حال التوبة حتى يتوب ، وطروق حال التوبة بالانزجار أولا قال بعضهم الزجر هيجان فى القلب لايسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيرده إلى اليقظة ، فاذا تيقظ أبصر الصواب من الخطأ . وقال بعضهم الزجر ضياء فى القلب يبصر به خطأ قصده . والزجر فى مقدمه التوبة على ثلاثة أوجه : زجر من طريق العلم ، وزجر من طريق العقل ، وزجر من طريق الإيمان ، فينازل التائب حال الزجر وهى موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة ، ولا يزال بالعبد طهور هو النفس يمحوه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما وهكذا فى الزهد لا يزال يتزهد بنازلة حال تريد لذة ترك الاشتغال بالدنيا وتقبح له الإقبال عنها فتمحو أثر حاله بدلالة شره النفس وحرصها على الدنيا ورؤية العاجلة حتى تتداركه المعونة من الله الكريم فيزيد و يستقر زهده و يصير الزهد مقامه ولا تزال نازلة حال التوكل تقرع باب قلبه حتى يتوكل وهذا حال الرضا حتى يطمئن على الرضا ، ويصير ذلك مقامه وههنا لطيفة : وذلك أن مقام الرضا والتوكل يثبت ويحكم ببقائه مع وجود داعية الطبع ، ولا يحكم ببقاء حال الرضا مع وجود داعية الطبع ، وذلك مثل كراهة يجدها الراضى بحكم الطبع ، ولـكن علمه بمقام الرضا يغمر حكم الطبع وظهور حكم الطبع فى وجود الـكراهية المغمورة بالعلم لايخرجه عن مقام الرضا ولـكن يفقد حال الرضا لأن الحال لما تجردت موهبة أحرقت داعية الطبع ، فيقال كيف يكون صاحب مقام الرضا ولا يكون صاحب حال فيه والحال مقدمة المقام والمقام أثبت ، نقول لأن المقام لما كان مشوبا بكسب العبد احتمل وجود الطبع فيه والحال لما كانت موهبة من الله نزهت عن مزج الطبع ، فحال الرضا أصلف ، ومقام الرضا أمكن ، ولا بد للمقامات من زائد الأحوال ، فلا مقام إلا بعد سابقة حال ولا تفرد للمقامات دون سابقة الأحوال .

وأما الأحوال فمنها مايصير مقاما ومنها لا يصير مقاما ، والسر فيه ماذكرناه : أن الـكسب فى المقام ظهر والموهبة بطنت ، وفى الحال ظهرت الموهبة والـكسب بطن فلما كان فى الأحوال الموهبة غالبة لم تتقيد وصار الأحوال إلى ما لانهاية ، ولطف سنى الأحوال أن يصير مقاما ، ومقدورات الحق غير متناهية ومواهبه غير متناهية ، ولهذا قال بعضهم : لو أعطيت روحانية عيسى ومكالمة موسى وخلة ابراهيم عليه السلام لطلبت ماوراء ذلك . لأن مواهب الله

لاتنحصر ، وهذه أحوال الأنبياء ولاتعطى الأولياء ، ولكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد وتطلبه وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى ؛ لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه نبه على عدم القناعة وقرع باب الطلب واستنزال بركة المزيد بقوله عليه السلام «كل يوم لم أزد فيه علما فلا بورك لى فى صبيحة ذلك اليوم». فى دعائه ﷺ «اللهم ما قصر عنه رأيى وضعف فيه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحداً من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فأنا أرغب إليك وأسألك إياه».

فاعلم أن مواهب الحق لاتنحصر ، والأحوال مواهب وهى متصلة بكلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها وتنفد أعداد الرمال دون أعدادها . والله المنعم المعطى

الباب التاسع والخمسون : فى الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله ، قال أخبرنا أبو منصور بن خيرون إجازة عن أبو محمد الحسن بن على بن محمد الجوهرى عن ابو عمرو محمد بن العباس بن محمد عن أبو محمد يحيى بن صاعد عن الحسين ابن الحسن المروزى عن عبدالله بن المبارك عن الهيثم بن جميل عن كثير بن سليم المدائنى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: أتى النبى ﷺ رجل فقال : يارسول الله، إنى رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلى فقال له رسول الله ﷺ «أين أنت من الاستغفار ؟ فإنى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة» وروى أبو هريرة رضى الله عنه فى حديث آخر «فإنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى كل يوم مائة مرة» وروى أبو بردة قال :قال رسول الله ﷺ «إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم مائة مرة».

وقال الله تعالى ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ وقال الله عز وجل ﴿إن الله يحب التوابين﴾ وقال تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾ التوبة أصل كل مقام، وقوام كل مقام، ومفتاح كل حال، وهى أول المقامات ، وهى بمثابة الأرض للبناء فمن لا أرض له لا بناء له، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له وإنى بمبلغ علمى وقدر وسعى وجهدى اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه ، فصارت مع الإيمان أربعة ثم رأيتها فى إفادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة الطبائع الأربع التى جعلها الله بإجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية ومن تحقق بحقائق هذه الأربع ولج ملكوت السموات ويكاشف بالقدر والآيات، ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزلات ويحظى بجميع الأحوال والمقامات فكلها من هذه الأربع ظهرت وبها تهيأت وتأكدت ، فأحد الثلاث بعد الإيمان : التوبة النصوح . والثانى : الزهد فى الدنيا . والثالث : تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقالبية من غير فتور وقصور ، ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها، وهى : قلة الكلام ، وقلة الطعام وقلة المنام والاعتزال عن الناس . واتفق العلماء الزاهدون والمشايخ على أن هذه الأربع بها تستقر المقامات وتستقيم الأحوال ، وبها صار الأبدال بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه . ونبين بالبيان الواضح أن سائر تندرج فى صحة هذه ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها، أولها بعد الإيمان : التوبة وهى فى مبدإ صحتها تفتقر الى أحوال وإذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال ، ولابد فى ابتدائها من وجود زاجر ووجدان الزاجر حال لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الاحوال مواهب . وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها .

قال رجل لبشر الحافى : مالى أراك مهموما ؟ قال : لأنى ضال ومطلوب ضلت الطريق والمقصد وأنا مطلوب به ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطلبت ولكن سنة الغفلة أدركتنى وليس لى منها خلاص إلا أن أزجر فأنزجر

وقال الأصمعى : رأيت أعرابيا بالبصرة يشتكى عينيه وهما يسيل منهما الماء فقلت له : ألا تمسح عينيك ؟ فقال لا لأن الطبيب زجرنى ولا خير فيمن لا ينزجر

فالزاجر فى الباطن حال يهبها الله تعالى ، ولا بد من وجودها للتائب ، ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه ، قال بعضهم : من لزم مطالعة الطوارق انتبه . وقال أبوزيد : علامة الانتباه خمس : إذا ذكر نفسه افتقر وإذا ذكر ذنبه استغفر ، وإذا ذكر الدنيا اعتبر ، وإذا ذكر الآخرة استبشر ، وإذا ذكر المولى اقشعر

وقال بعضهم : الانتباه أوائل دلالات الخير ، إذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه إلى التيقظ . فإذا تيقظ ألزمه تيقظه الطلب لطريق الرشد فيطلب ، وإذا طلب عرف أنه على غير سبيل الحق فيطلب والحق يرجع إلى باب توبته ثم يعطى بانتباهه حال التيقظ.

قال فارس : أوفى الأحوال التيقظ والاعتبار ، وقيل : التيقظ تبيان خط المسلك بعد مشاهدة النجاة .

وقيل : إذا صحت اليقظة كان صاحبها فى أوائل طريق التوبة

وقيل : اليقظة خردة من جهة المولى لقلوب الخائفين تدلهم على طالب التوبة ، فاذا تمت يقظته نقل بذلك إلى مقام التوبة . فهذه أحوال ثلاثة تتقدم التوبة . ثم التوبة فى استقامتها تحتاج إلى المحاسبة ، ولا تستقيم التوبة إلا بالمحاسبة

نقل عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر على الله ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ فالمحاسبة بحفظ الأنفاس وضبط الحواس ورعاية الأوقات وإيثار المهمات ، ويعلم العبد أن الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس فى اليوم والليلة رحمة منه لعلمه سبحانه بعبده واستيلاء الغفلة عليه . كى لا يستبعده الهوى وتسترقه الدنيا ، فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية ، ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسن من كل صلاة إلى صلاة أخرى ويسد مداخل الشيطان بحسن المحاسن والرعاية ، ولا يدخل فى الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تشكت فى القلب نكتة سوداء وتعقد عليه عقدة . والمتفقد المحاسب يهيء الباطن يضبط الجوارح ويحقق مقام المحاسبة ، فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقته إلى الصلاة الأخرى فلا تزال صلاته منورة تامة بنور وقته ، ووقته منورا معمورا بنور صلاته

وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات فى قرطاس ويدع بين كل صلاتين بياضا ، وكلما ارتكب خطيئة من كلمة غيبة أو أمر آخر خط خطا ، وكلما تكلم أو تحرك فيما لا يعنيه نقط نقطة ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما لا يعنيه لتضييق المحاسبه مجارى الشيطان والنفس الأمارة بالسوء لموضع صدقة فى حسن الافتقاد وحرصه على تحقيق مقام العباد وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة

قال الجنيد : من حسنت رعايته دامت ولايته . وسئل الوسطى : أى الأعمال أفضل ؟ قال . مراعاة السر ، والمحاسبة فى الظاهر ، والمراقبة فى الباطن ، ويكمل أحدهما بالآخر ، وبهما تستقيم التوبه ، والمراقبة والرعاية حالان شريفان ويصيران مقامين شريفين يصححان بصحة مقام التوبة ، وتستقيم التوبة على الكمال بهما ؛ فصارت المحاسبة والمراقبه والرعايه من ضرورة مقام التوبة

أخبرنا أبوزرعة إجازة عن ابن خلف أبى بكر الشيرازى قال : سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت الحسن الفارسى يقول سمعت الحريرى يقول : أمرنا هذا مبنى على فصلين : وهو أن تلزم نفسك المراقبه لله تعالى ويكون العلم على ظاهرك قائما

وقال المرتعش : المراقبه مراعاة السر لملاحظة الحق فى كل لحظه ولفظه ، قال الله تعالى ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ وهذا هو علم القيام ، وبذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والنقصان : وهو أن يعلم معيار حاله فيما بينه وبين الله ، وعلى هذا ملازم لصحة التوبة وصحة التوبة ملازم لها لأن الخواطر مقدمات العزائم ، والعزائم مقدمات الأعمال ، لأن الخواطر تحقق إرادة القلب . والقلب أمير الجوارح . ولا يتحرك الجوارح إلا بتحرك القلب بالإرادة والمراقبة حسم مواد الخواطر الرديئه . فصار من تمام المراقبة تمـام التوبة . لان من حصر الخواطر كفى مؤونة الجوارح . لأن بالمراقبه اصطلام عروق إرادة المكاره من القلب . وبالمحاسبة استدراك ما انفلت من المراقبة

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن السلمى قال : سمعت أبا عثمان المغربى يقول : أفضل مايلزم الإنسان فى هذا الطريق المحاسبة والمراقبة وسياسة العمل بالعلم ، وإذا صحت التوبة صحت الإنابة .

قال إبراهيم بن أدهم إذا صدق العبد فى توبته صار منيبا . لأن الانابة ثانى درجة التوبة .

وقال أبو سعيد القرشى : المنيب الراجع عن كل شىء يشغله عن الله إلى الله .

وقال بعضهم : الإنابة الرجوع منه إليه لا من شىء غيره ، فمن رجع من غيره إليه ضيع أحد طرفى الإنابة ، والمنيب على الحقيقة : من لم يكن له مرجع سواه ، فيرجع إليه من رجوعه ثم يرجع من رجوع رجوعه فيبقى شبحا لاوصف له قائما بين يدى الحق مستغرقا فى عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال . والمجاهدة تتحقق بتحقيق الرعاية والمراقبة .

قال أبو سليمان : ما استحسنت من نفسى عملا فأحتسبه . وقال أبو عبد الله السجزى : من استحسن شيئا من أحواله فى حال إرادته فسدت عليه إرادته ، إلا أن يرجع إلى ابتدائه فيروض نفسه ثانيا . ومن لم يزن نفسه بميزان الصدق فيما له وعليه لايبلغ مبلغ الرجال . ورؤية عيوب الأفعال من ضرورة صحة الإنابة وهو فى تحقيق مقام التوبة. ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة . ولا يصدق العبد فى المجاهدة إلا بوجود الصبر .

وروى فضالة بن عبيد قال . سمعت رسول الله ﷺ يقول « المجاهد من جاهد نفسه » ولايتم ذلك إلا بالصبر وأفضل الصبر الصبر على الله بعكوف الهم عليه ، وصدق المراقبة له بالقلب ، وحسم مواد الخواطر . والصبر ينقسم إلى فرض وفضل ، فالفضل كالصبر على أداء المفترضات، والصبر عن المحرمات.

ومن الصبر الذى هو فضل : الصبر على الفقر ، والصبر عند الصدمة الأولى ، وكتمان المصائب والأوجاع وترك الشكوى والصبر على على إخفاء الفقر . والصبر على كتم المنح والكرامات ورؤية العبر والآيات .

ووجوه الصبر فرضا وفضلا كثيرة . وكثير من الناس من يقوم بهذه الأقسام من الصبر . ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفى الخواطر ، فإذاً حقيقة الصبر كائنة فى التوبة كينونة المراقبة فى التوبة ، والصبر من أعز مقامات الموقنين ، وهو داخل فى حقيقة التوبة .

قال بعض العلماء : أى شىء أفضل من الصبر — وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسعين موضعا ! وماذكر شيئا بهذا العدد وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه.

ومن الصبر : الصبر على النعمة : وهو أن لايصرفها فى معصية الله تعالى ، وهذا أيضا داخل فى صحة التوبة

وكان سهل بن عبد الله يقول : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ،

وروى عن بعض الصحابة : بلينا بالضراء فصبرنا ، وبلينا بالسراء فلم نصبر

ومن الصبر : رعاية الاقتصاد فى الرضا والغضب ، والصبر عن محمدة الناس ، والصبر على الخمول والتواضع والذل : داخل فى الزهد وإن لم يكن داخلا فى التوبة ، وكل ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد فى الزهد وهو ثالث الأربعة التى ذكرنا

وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس ، وطمأنينتها من تزكيتها ، وتزكيتها بالتوبه، فالنفس إذا تزكت بالتوبة النصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية ، وقلة الصبر من وجود الشراسة للنفس وإبائها واستعصائها . والتوبة النصوح تلين النفس وتخرجها من طبيعتها وشراستها إلى اللين ، لأن النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطفىء نيرانها المتأججة بمتابعة الهوى ، وتبلغ نطمأنينتها محل الرضا ومقامه ، وتطمئن فى مجارى الأقدار

قال أبو عبد الله النباحى : لله عباد يستحبون الصبر ويتلقفون مواضع أقداره بالرضا تلقفا

وكان عمر بن عبد العزيز يقول : أصبحت ومالى سرور إلا مواقع القضاء : قال رسول الله ﷺ لابن عباس حين وصاه « اعمل لله باليقين فى الرضا ، فإن لم يكن فان فى الصبر خيرا كثيرا » وفى الخبر عن رسول الله ﷺ « من خير ما أعطى الرجل : الرضا بما قسم الله تعالى له »

فالأخبار والآثار والحكايات فى فضيلة الرضا وشرفه أكثر من أن تحصى . والرضا ثمرة التوبه النصوح ، وما تخلف عبد عن الرضا إلا بتخلفه عن التوبةالنصوح ، فإذا تجمع التوبه النصوححال الصبر ومقامالصبر . وحال الرضا ومقام الرضا ، والخوفوالرجاء مقامان شريفانمن مقامات أهلاليقين ، وهما كائنان فىصلب التوبه النصوح لأن خوفه حمله على التوبه ، ولولا خوفه ماتاب ، ولولا رجاؤه ماخاف ، فالرجاء والخوف يتلازمان فى قلب المؤمن ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم فى التوبه : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى سياق الموت فقال : « كيف تجدك ؟ » قال أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى فقال « ما اجتمعا فى قلب عبد فى هـذا الموطن إلا أعطاه الله مارجا وآمنه مما يخاف» .

وجاء فى تفسير قوله تعـالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ هو العبد يذنب الكبائر ثم يقول : قد هلكت لاينفعنى عمل ، فالتائب خاف فتاب ورجا المغفرة ، ولا يكون التائب تائبا إلاوهو راجخائف ، ثم إن التائبحيث قيد الجوارح عن المكاره واستعان بنعم الله على طاعة الله . فقد شكر النعم ، لأن كل جارحة من الجوارح نعمة . وشكرها قيدها عن المعصية واستعمالها فى الطاعه ، وأى شاكر للنعمه أكبر من التائب المستقيم ، فإذا جمع مقام التوبة هذه المقامات كلها ، فقد جمع مقام التوبه : حال الزجر ، وحال الانتباه وحال التيقظ ومخالفة النفسوالتقوى والمجاهدة ، ورؤية عيوب الأفعال ، والإنابة ، والصبر ، والرضا ، والمحاسبة ، والمراقبة ، والرعاية ، والشكر . والخوف. والرجاء

وإذا صحت التوبه النصوح وتزكت النفس انجلت مرآة القلب وبان قبح الدنيا فيها . فيحصل الزهد ، والزهد يتحقق فيه التوكل لأنه لا يزهد فى الموجود إلا لاعتماده على الموعود ، والسكون إلى وعد الله تعالى هو عين التوكل وكلما بقى على العبد بقية فى تحقق المقامات كلها بعد توبته يستدركه : بزهده فى الدنيا وهو ثالث الأربعة

أخبرنا شيخنا قال عن أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون ، قال عن أبو الحسن بن على الجوهرى إجازة عن ابو عمرو محمد بن العباس . عن ابو محمد يحى بن ساعدة ، عن الحسين بنالحسن المروزى عن عبد الله بن المبارك عن الهيثم بن جميلى عن محمد بنسليمان عن عبد الله بن بريدة قال : قدم رسول الله ﷺ من سفر ، فبدأ بفاطمهرضى الله عنها فرآها قد أحدثت فى القيبت سترا وزوائد فى يديها ، فلما رأى ذلك رجع ولم يدخل . ثم جلس فجعل ينكت فى الأرض ويقول : مالى والدنيا ، مالى وللدنيا ، فرأت فاطمه أنه إنما رجع من أجلذلك الستر والزوائدوأرسلت بهما مع بلال وقالت له : اذهب إلى النبى ﷺ فقل له : قد تصدقت به ، فضعه حيث شئت . فأتى بلالإلى النبى ﷺ فقال : قالت فاطمه قد تصدقت به فضعـه حيث شئت . فقال النبى ﷺ : « بأبى وأمى قد فعلت ، بأبى وأمى قد فعلت ! اذهب فبعه »

وقيل فى قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ قيل : الزهد فى الدنيا سئل أميرالمؤمنين على بن أبى طالب رضىالله عنه عنالزهد ؟ فقال : هوأن لاتبالى بمن أكل الدنيامؤمنأوكافر وسئل الشبلى عن الزهد فقال : ويلكم أى مقدار لجناح بعوضة أو يزهد فيها ؟!

وقال ابوبكرالواسطى : إلىمتى تصول بترك كنيف. والىمتى تصول بإعراضك عمالاتزنعند اللهجناح بعوضه ؟!

فإذا صح زهد العبد صح توكله أيضا . لان توكله مكنه من زهده فى الموجود . فمن استقام فى التوبة وزهد فى الدنيا وحقق هذين المقامين استوفى سائر المقامات وتكون فيها وتحقق بها

وترتيب التوبه مع المراقبه وارتباط إحدهما بالأخرى . ان يتوب العبد ، ثم يستقيم فى التوبه حتىلايكتبعليه صاحب الشمال شيئا ، ثم يرتقى من تطهير الجوارح عن المعاصى الى تطهير الجوارح عما لايعنى فلا يسمح بكلمة فضول

ولا حركة فضول ثم ينتقل للرعاية والمحاسبة من الظاهر إلى الباطن وتستولى المراقبة على الباطن : وهو التحقق بعلم القيام بمحو خواطر المعصية عن باطنه ثم خواطر الفضول فإذا تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح وتستقيم توبته . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك » أمره الله تعالى بالاستقامة فى التوبة أمراً له ولأتباعه وأمته . وقيل : لا يكون المريد مريداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً عشرين سنة ، ولا يلزم من هذا وجود العصمة ، ولكن الصادق التائب فى النادر إذا ابتلى بذنب ينمحى أثر الذنب من باطنه فى ألطف ساعة لوجود الندم فى باطنه على ذلك والندم توبة فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً فإذا تاب توبة نصوحاً ثم زهد فى الدنيا حتى لا يهتم فى غدائه لعشائه ولا عشائه لغدائه ولا يرى الادخار ، ولا يكون له تعلق هم بغد ، فقد جمع فى هذا الزهد ، والفقر ، والزهد أفضل من الفقر ، وهو فقر وزيادة ، لأن الفقير عادم للشىء اضطراراً ، والزاهد تارك للشىء اختياراً ، زهده يحقق توكله ، وتوكله يحقق رضاه ، ورضاه يحقق الصبر ، وصبره يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة وحبس النفس لله يحقق خوفه وخوفه يحقق رجاءه ويجمع بالتوبة والزهد كل المقامات . والزهد والتوبة إذا اجتمعا مع صحة الإيمان وعقوده وشرطه يعوز هذه الثلاثة الرابع به تمامها وهو دوام العمل ، لأن الأحوال السنية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة ، وتيسير بعضها متوقف على وجود الرابع وهو دوام العمل . وكثير من الزهاد المتحققين بالزهد المستقيمين فى التوبة تخلفوا عن كثير من سنى الأحوال لتخلفهم عن هذا الرابع ، ولا يراد الزهد فى الدنيا إلا لكمال الفراغ المستعان به على إدامة العمل لله تعالى : والعمل لله : أن يكون العبد لا يزال ذاكراً أو تالياً أو مصلياً أو مراقباً ، لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعى أو مهم لابد منه طبيعى فإذا استولى العمل القلبى على القلب مع وجود الشغل الذى أداه إليه حكم لا يفتر باطنه عن العمل فإذا كان مع الزهد والتقوى متمسكاً بدوام العمل فقد أكمل الفضل ومآل الفضل وما آلى جهداً فى العبودية .

قال أبو بكر الوراق : من خروج من قالب العبودية صنع به ما يصنع بالآبق .

وسئل سهل بن عبد الله التسترى أى منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية قال : إذا ترك التدبير والاختيار .

فإذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتى ويصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار ثم يصل إلى أن يملك الاختيار ، فيكون اختياره من اختيار الله تعالى لزوال هواه ووفور علمه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه .

وقال يحيى بن معاذ الرازى : مادام العبد يتعرف يقال له لا تختر ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف فإذا عرف وصار عارفاً يقال له إن شئت اختر وإن شئت لا تختر لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار ، فإنك بنا فى الاختيار وفى ترك الاختيار . والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالى والحال العزيز — الذى هو الغاية والنهاية وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار — إلا بإحكامه هذه الأربعة التى ذكرناها ، ترك التدبير فناء وتمليك التدبير والاختيار من الله تعالى لعبده ورده إلى الاختيار تصرف بالحق ، وهو مقام البقاء : وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق ، وهذا العبد ما بقى عليه من الاعوجاج ذرة ، واستقام ظاهره وباطنه فى العبودية ، وعمر العلم والعمل ظاهره وباطنه ، وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدى الله عز وجل متمسكاً بالاستكانة والافتقار متحققة بقول رسول الله ﷺ « لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأهلك ولا إلى أحد من خلقك فأضيع كلأنى كلاءة الوليد ولا تخل عنى » .

الباب الستون : فى ذكر إشارات المشايخ فى المقامات على الترتيب

قولهم فى التوبة

قال رويم معنى التوبة أن يتوب من التوبة قيل : معناه قول رابعة : أستغفر الله العظيم من قلة صدقى فى قولى أستغفر الله

وسئل الحسن المغازلى عن التوبة ؟ فقال : تسألنى عن توبة الإنابة أو عن توبة الاستجابة ؟ فقال السائل : ما توبة الإنابة ؟ فقال : أن تخاف من الله عز وجل من أجل قدرته عليك . قال : فما توبة الاستجابة ؟ قال : أن تستحى من الله لقربه منك ، وهذا الذى ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب فى صلاته من كل خاطر يلم به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه ، وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب ، كما قيل :

* وجودك ذنب لايقاس به ذنب *

قال ذو النون : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم .

سئل أبو محمد سهل عن الرجل يتوب من الشىء ويتركه ثم يخطر ذلك الشىء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته فقال : الحلاوة طبع البشرية ولابد من الطبع ، وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى ، وينكره بقلبه ويلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه ، ويدعو الله أن ينسيه ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته . قال : وإن غفل عن الإنكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة فى قلبه ، ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الإنكار ويحزن ، فإنه لا يضره . وهذا الذى قاله سهل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته . والعارف القوى الحال يتمكن من إزالة الحلاوة عن باطنه ويسهل عليه ذلك . وأسباب سهولة ذلك متنوعة للعارف ومن تمكن من قلبه حلاوة حب الله الخاص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين فأى حلاوة تبقى فى قلبه ، وإنما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله .

وسئل السوسى عن التوبة ؟ فقال التوبة من كل شىء ذمه العلم إلى ما مدحه العلم ، وهــــذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم لأنه لا بقاء للجهل مع العلم ، كما لا بقاء لليل مع طلوع الشمس ، وهــــذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام ، وهــذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخص أوصاف التوبة وأعم أوصافها .

وقال أبو الحسن النورى : أن تتوب عن كل شىء سوى الله تعالى .

قولهم فى الورع

قال رسول الله ﷺ « ملاك دينكم الورع » عن أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف عن أبى عبد الرحمن السلمى إجازة ، عن أبو سعيد الخلال قال حدثنا عمر بن قتيبة قال حدثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقية عن أبى بكر بن مريم عن حبيب بن عبيد عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ توضأ على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله فى النهر وقال : يبلغه الله عز وجل قوما ينفعهم .

قال عمر بن الخطاب : لا ينبغى لمن أخذ بالتقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا . قال معروف الكرخى : احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم .

نقل عن الحرث بن أسد المحاسبى أنه كان على طرف أصبعه الوسطى عرق إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق .

سئل الشبلى عن الورع ؟ فقال : الورع أن تتورع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين .

وقال أبو سليمان الدارانى : الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف من الرضا .

وقال يحيى بن معاذ : الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل .

سئل الخواص عن لورع ؟ فقال : أن لا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضى وأن يكون اهتمامه بمـا يرضى الله تعالى .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلمى قال سمعت الحسن بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت محمد بن داود الدينورى يقول : سمعت ابن الجلاء يقول : أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاه بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئا .

وقال الخواص : الورع دليل الخوف ، والخوف دليل المعرفة ، والمعرفة دليل القربة .

قولهم فى الزهـــد

قال الجنيد : الزهد خلو الأيدى من الأملاك والقلوب من التتبع .

وسئل الشبلى عن الزهد ؟ فقال : لازهد فى الحقيقة ، لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد ، أو يزهد فيما هوله فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده،فليس إلا ظلف النفس وبذل مواساة : يشير إلى الأقسام التى سبقت بها الأقلام ، وهذا لو اطرد هدم قاعدة الاجتهاد والكسب ، ولكن مقصود الشبلى : أن يقلل الزهد فى عين المعتد بالزهد لئلا يغتر به .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا رأيتم الرجل قد أوتى زهدا فى الدنيا ومنطقا.فاقربوا منه فانه يلقى الحكمة» .

وقد سمى الله عز وجل الزاهدين علماء فى قصة قارون فقال تعالى ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير ﴾ قيل هم الزاهدون .

وقال سهل بن عبد الله : للعقل الف اسم ، ولكل اسم منه ألف اسم ، وأول كل اسم منه ترك الدنيا

وقيل فى قوله تعالى ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ قيل : عن الدنيا .

وفى الخبر « العلماء أمناء الرسل مالم يدخلوا فى الدنيا فاحذروهم على دينكم » .

وجاء فى الأثر : لاتزال « لا إله إلا الله » تدفع عن العباد سخط الله مالم يبالوا ما نقص من دنياهم،فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين .

وقال سهل : أعمال البر كلها فى موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم

وقيل : من سمى باسم الزهد فى الدنيا فقد سمى بألف اسم محمود : ومن سمى باسم الرغبة فى الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم .

وقال السرى : الزهد ترك حظوظ النفس من جميع مافى الدنيا ويجمع هذا :الحظوظ المالية ، والجاهية ،وحب المنزلة عند الناس ، وحب المحمدة والثناء .

وسئل الشبلى عن الزهد فقال : الزهد غفلة : لأن الدنيا لا شىء ، والزهد فى لاشىء غفلة .

وقال بعضهم : لما رأوا حقاره الدنيا زهدوا فى زهدهم فى الدنيا لهوانها عندهم ، وعندى أن الزهد فى الزهد غير هذا ، وإنما الزهد فى الزهد بالخروج من الاختيار فى الزهد ، لأن الزاهد اختار الزهد وأراده، وإرادته تستند إلى علمه ، وعلمه قاصر ، فإذا أقيم فى مقام ترك الإرادة وانسلخ من اختياره كاشفه الله تعالى بمراده، فيترك الدنيا بمراد الحق لا بمراد نفسه ، فيكون زهده بالله تعالى حينئذ . أو يعلم أن مراد الله منه التلبس بشىء من الدنيا، فما يدخل بالله فى شىء من الدنيا لاينقص عليه زهده ، فيكون دخوله فى الشىء من الدنيا بالله وبإذن منه زهدا فى الزهد ، والزاهد فى الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها ، ان تركها تركها بالله ، وان أخذها أخذها بالله ، وهذا هو الزهد فى الزهد : وقد رأينا من العارفين من أقيم فى هذا المقام . وفوق هذا مقام آخر فى الزهد : وهو لمن يرد الحق الله اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه فى مقام البقاء ، فيزهد زهداً ثالثا ويترك الدنيا بعد أن مكن من ناصيتها وأعيدت عليه موهوبة ، ويكون تركه الدنيا فى هذا المقام باختياره،واختياره من اختيار الحق ، فقد يختار تركها حينا تأسيا بالأنبياء والصالحين ، ويرى أن أخذها فى مقام الزهد فى الزهد رفق أدخل عليه لموضع ضعفه عن درك شأن الأقوياء من الأنبياء

والصديقين ، فيترك الرفق من الحق بالحق للحق ، وقد يتناوله باختياره رفقا بالنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم : وهذا مقام التصرف لأقوياء العارفين ، زهدوا ثالثاً بالله . كما رغبوا ثانياً بالله ، كما زهدوا أولا لله .

قولهم فى الصبر

قال سهل : الصبر انتظار الفرج من الله وهو أفضل الخدمة وأعلاها .

وقال بعضهم : الصبر أن تصبر : أى لا يطالع فيه الفرج : قال الله تعالى ﴿ والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾.

وقيل : لكل شىء جوهر ، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر ، فالصبر: عرك النفس، وبالعرك تلين، والصبر جار فى الصابر مجرى الأنفاس ، لأنه يحتاج إلى الصبر عن كل منهى ومكروه ومذموم ظاهر أو باطنا، والعلم يدل والصبر يقبل، ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر . ومن كان العلم سائسه فى الظاهر والباطن لا يتم ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنة . والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر، ومصدرهما الغريزة العقلية ، وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما ، وبالصبر يتحامل على النفس، وبالعلم يترقى الروح ، وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما فى مستقره ، وفى ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال ، وبانفصال أحدهما عن الآخر أعنى العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر أعنى النفس والروح، وبيان ذلك يدق . وناهيك بشرف الصبر قوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ كل أجير أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب. قال الله تعالى لنبيه : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به .

قيل : وقف رجل على الشطبلى فقال ، أى صبر أشد على الصابرين؟ فقال ، الصبر فى الله؟ فقال، لا. فقال الصبر الله، فقال : لا ، فقال : الصبر مع الله ؟ فقال : لا . فغضب الشبلى وقال : ويحك ، أى شىء هو . فقال الرجل الصبر عن الله . قال : فصرخ البشلى صرخة كاد أن تتلف روحه . وعندى فى معنى الصبر عن الله وجه ، لكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه وذلك أن الصبر عن الله يكون فى أخص مقامات المشاهدة يرجع العبد عن الله استحياء وإجلالا ، وتنطق بصيرته خجلا وذوبانا ، ويتغيب فى مفارز استكانته وتخفيه لإحساسه بعظيم أمر المتجلى، وهذا من أشد الصبر لأنه يود استدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال ، والروح تود أن تكتحل بصيرتها باستلماع نور الجمال ، وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر . فالروح فى هذا الصبر منازعة . فاشتد الصبر عن الله تعالى لذلك .

وقال أبو الحسن بن سالم : هم ثلاثة : متصبر . وصابر . وصبار : فالمتصبر : من صبر فى الله : فمرة يصبر ومرة يجزع . والصابر . من يصبر فى الله ولله يجزع . ولكن تتوقع منه الشكوى وقد يمكن منه الجزع وأما الصبار : فذاك الذى صبره فى الله ولله وبالله فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة لا من جهة الرسم والخلقة ، وإشارته فى هذا ظهور حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة

وكان الشبلى يتمثل بهذين البيتين:

ان صوت المحب من ألم الشوق ... وخوف الفراق يورث ضرا

صابر الصبر فاستغاث به الصبر ... فصاح المحب للصبر صبرا

قال جعفر الصادق رحمه الله أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر وجعل الحظ الأعلى للرسول ﷺ حيث جعل صبره بالله لا بنفسه فقال ﴿وما صبرك إلا بالله﴾

وسئل السرى عن الصبر فتكلم فيه . فدب على رجله عقرب . فجعل يضربه بابرته . فقيل له : لم لا تدفعه ؟ قال : أستحى من الله تعالى أن أتكلم فى حال ثم أخالف ما أتكلم فيه

أخبرنا أبو زرعة اجازة عن أبى بكر بن خلف اجازة عن أبى عبد الرحمن قال سمعت محمد بن خالد يقول سمعت الفرغانى يقول سمعت الجنيد رحمه الله يقول : ان الله تعالى أكرم المؤمنين بالايمان وأكرم الايمان بالعقل

وأكرم العقل بالصبر ، فالإيمان زين المؤمن ،والعقل زين الإيمان ، والصبر زين العقل .
وأنشد عن إبراهيم الخواص رحمه الله :

صبرت على بعض الأذى خوف كله ودافعت عن نفسى لنفسى فعزت
وجر عنها المكروه حتى تدربت ولو لم أجرعها إذن لاشمأزت
ألا رب ذل ساق للنفس عزة ويارب نفس بالتذلل عزت
إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى إلى غير من قال اسألونى فشلت
سأصبر جهدى إن فى الصبر عزة وأرضى بدنياى وإن هى قلت

قال عمر بن عبد العزيز رحمة الله . ما أنعم الله على عبد من نعمة ثم انتزعها فعاضه مما انتزع منه الصبر، إلا كان ماعاضه خيراً مما انتزعه منه .وأنشد لسمنون :

تجرعت من حاليه نعمى وأبؤسا زمانا إذا أجرى عزاليه احتسى
فكم غمرة قد جرعتنى كؤوسها فجرعتها من بحر صبرى أكؤسا
تدرعت صبرى ، والتحفت صروفه وقلت لنفسى الصبر أو فاهلكى أسى
خطوب لو أن الشم زاحمن خطبها لساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

قولهم فى الفقر

قال ابن الجلاء : الفقر أن لايكون لك ، فإذا كان لك لايكون لك حتى تؤثر .

وقال الكتانى : إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى ، لأنهما حالان لايتم أحدهما إلا بالآخر .

وقال النورى : نعت الفقراء السكون عند العدم ،والبذل عند الوجود. وقال غيره : والاضطراب عند الموجود.

وقال الدراج : فتشت كنف أستاذى أريد مكحلة ، فوجدت فيها قطعة فتحيرت ، فلما جاء قلت : إنى وجدت فى كنفك هذه القطعة . قال: رأيتها ردها ، ثم قال:خذها واشتر بها شيئاً ،فقلت:ما كان أمر هذه القطعة بحق معبودك؟ فقال:مارزقنى الله تعالى من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها،فأردت أن أوصى أن تشد فى كفنى فأردها إلى الله .

وقال ابراهيم الخواص:الفقر رداء الشرف ولباس المرسلين وجلباب الصالحين.

وسئل سهل بن عبد الله عن الفقير الصادق؟فقال:لا يسأل ولا يرد ولا يحبس.

وقال أبو على الروذبارى رحمه الله :سألنى الزقاق فقال: ياأبا على ، لم ترك الفقراء أخذ البلغة فى وقت الحاجة ؟ قال : قلت لأنهم مستغنون بالمعطى عن العطايا.قال نعم ،ولكن وقع لى شىء آخر . فقلت . هات أفدنى ماوقع لك ؟ قال:لأنهم قوم لاينفعهم الوجود،إذ لله فاقتهم،ولا تضرهم الفاقة ،إذ لله وجودهم .قال بعضهم : الفقر وقوف الحاجة على القلب ومحوها عما سوى الرب .

وقال المسوحى : الفقير ، الذى لاتغنيه النعم ولاتفقره المحن .

وقال يحيى بن معاذ : حقيقة الفقر أن لايستغنى إلا بالله ، ورسمه عدم الأسباب كلها .

وقال أبو بكر الطوسى : بقيت مدة أسأل عن معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الأشياء ؟ فلم يجبنى أحد بجواب يقنعنى ، حتى سألت نصر بن الحمامى فقال لى لأنه أول منزل من منازل التوحيد ، فقنعت بذلك .

وسئل ابن الجلاء عن الفقر ، فسكت حتى صلى ، ثم ذهب ورجع ثم قال إنى لم أسكت إلا لدرهم كان عندى فذهبت فاخرجته ،واستحييت من الله تعالى أن أتكلم فى الفقر وعندى ذلك ، ثم جلس وتكلم .

قال أبوبكر بن طاهر عن حكم الفقير أن لايكون له رغبة ،فإن كان ولابد لاتجاوز رغبته كفايته :

قال فارس قلت لبعض الفقراء مرة — وعليه أثر الجوع والضر لم لاتسأل فيطعموك ؟ فقال ، إنى أخاف أن

أسألهم فيمنعونى فلا يفلحون .

وأنشد لبعضهم :

قالوا غداً عيد ماذا أنت لابســـه	فقلت خلعة ساق عبـده الجرعا
فقر وصبر ، هما ثوبان تحتهما	قلب يرى ربه الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به	يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا
الدهر لى مأتم إن غبت يا أملى	والعيد ما دمت لى مرأى ومستمعا

قولهم في الشكر

قال بعضهم : الشكر هو الغيبة عن النعمة برؤية المنعم .

وقال يحى بن معاذ الرازى : لست بشاكر ما دمت تشكر وغاية الشكر التحير ، وذلك أن الشكر نعمه من الله يجب الشكر عليها .

وفى أخبار داود عليه السلام : إلهى كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ فأوحى الله إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتنى .

ومعنى الشكر فى اللغة هو الكشف والإظهار ، يقال : شكر وكشر إذا كشف عن ثغره وأظهره ، فنشر النعم وذكرها وتعدادها باللسان من الشكر ، وباطن الشكر أن تستعين بالنعم على الطاعة ولا يستعين بها على المعصية فهو شكر النعمة .

وسمعت شيخنا رحمه الله ينشد لبعضهم :

أوليتنى نعما أبوح بشكرها	وكفيتنى كل الأمور بأسرها
فلأشكرنك ما حييت وإن أمت	فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

قال رسول الله ﷺ « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء » .

وقال رسول الله ﷺ « من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وظلم فغفر ، وظلم فاستغفر» قيل : فما باله ؟ قال « أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

قال الجنيد : فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان .

وفى الحديث « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » .

وقال بعضهم فى قوله تعالى ﴿ وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ قال : الظاهرة العوافى والغنى ، والباطنة : البلاوى والفقر ، فإن هذه نعم أخروية لما يستوجب بها من الجزاء .

وحقيقة الشكر : أن يرى جميع المقضى له به نعما غير ما يضره فى دينه ، لأن الله تعالى لايقضى للعبدالمؤمن شيئا إلا وهو نعمة فى حقه ، فإما عاجلة يعرفها ويفهمها ، وإما بما يقضى له من المكاره ، فإما أن تكون درجة له أو تمحيصا أو تكفيراً ، فإذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه وأعلم بمصالحه وأن كل ما منه نعم ، فقد شكر .

قولهم فى الخوف

قال رسول الله ﷺ « رأس الحكمة مخافة الله » وروى عنه ﷺ أنه قال « كان داود النبى عليـه السـلام يعوده الناس يظنون به مرضا وما به مرض إلا خوف الله تعالى » .

قال أبو عمر الدمشقى : الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف الشيطان .

وقال بعضهم : ليس الخائف من يخاف ويمسح عينيه ، ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يعذب فيه .

وقيل : الخائف الذى لايخاف غير الله ، قيل : أى لايخاف لنفسه وإنما اجلالا له ، والخوف للنفس خوف العقوبة قال سهل الخوف ذكر والرجاء أنثى ومنهما تتولد حقائق الإيمان ، قال تعالى ﴿ لقد وصينا الذين أوتوا

الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ . قيل : هذه الاية قطب القرآن ، لأن مدار الأمر كله على هذا .

وقيل : إن الله تعالى جمع للخائفين ما فرقه على المؤمنين ، وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان ، فقال تعالى ﴿ هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ وقال ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلمـــاء ﴾ وقال ﴿ رضى الله عنهم ورضو عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ .

وقال سهل : كمال الإيمان بالعلم ، وكمال العلم بالخوف ، وقال أيضاً : العلم كسب الإيمان والخوف كسب المعرفة.

وقال ذو النون : لايسقى المحب كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه .

وقال فضيل بن عياض : إذا قيل لك تخاف الله ؟ اسكت ، فإنك إن قلت لا ، كفرت ، وإن قلت نعم كذبت فليس وصفك وصف من يخاف .

قولهم فى الرجاء

قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ثم يقول وعزتى وجلالى من آمن بى من ساعة من ليل أو نهار كمن لايؤمن بى » .

قيل : دخل أعرابى على رسول الله ﷺ فقال : من يلى حساب الخلق ؟ قال « الله تبارك وتعالى » قال : هو بنفسه ؟ قال « نعم » فتبسم الأعرابى ، فقال النبى ﷺ « مم ضحكت يا أعرابى ؟ » فقال : إن الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سامح .

وقال شاه الكرمانى : علامة الرجاء حسن الطاعة ، وقيل : الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال ، وقيل:قرب القلب من ملاطفة الرب .

قال أبو على الروذبارى : الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم فى طيرانه .

قال عبد الله بن خفيف : الرجاء ارتيـاح القلوب لرؤية كرم المرجو ، قال مطرف : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا .

والخوف والرجاء للايمان كالجناحين ، ولايكون خائفا إلا وهو راج ، ولا راجيا إلاوهو خائف،لأن موجب الخوف الإيمان ، والإيمان رجاء ، وموجب الرجاء الإيمان، ومن الإيمان خوف.ولهذا المعنى روى عن لقمان أنه قال لابنه : خف الله تعالى خوفا لاتأمن فيه مكره ، وارجه أشد من خوفك ، قال : فكيف أستطيع ذلك وإنما لى قلب واحد ؟ قال : أما علمت أن المؤمن ذو قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالاخر ؟ وهذا لأنهما من حكم الإيمان .

قولهم فى التوكل

قال السرى : التوكل الانخلاع من الحول والقوة . وقال الجنيد : التوكل أن تكون لله كما لم تكن ، فيكون الله لك كما لم يزل .

وقال سهل : كل المقامات لها وجه وقفا ، غير التوكل فإنه وجه بلا قفا .

وقال بعضهم : يريد توكل العناية لاتوكل الكفاية ، والله تعالى جعل التوكل مقروناً بالإيمان فقال ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وقال ﴿ وتوكل على الحى الذى لايموت ﴾

وقال ذو النون : التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة .

وقال أبو بكر الرقاق : التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد .

وقال أبو بكر الواسطى: أصل التوكل صدق الفاقة والافتقار وأن لايفارق التوكل فى أمانيه ولايلتفت يسرة إلى توكله لحظة فى عمره .

وقال بعضهم : من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبراً يدفنها فيه وينسى الدنيا وأهلها ، لأن حقيقة التوكل لايقوم لها أحد من الخلق على كماله .

وقال سهل : أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدى الله تعالى كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف أراد ولا يكون له حركة ولا تدبير . وقال حمدون القصار : التوكل هو الاعتصام بالله تعالى . وقال سهل أيضاً : العلم كله باب من التعبد ، والتعبد كله باب من الورع ، والورع كله باب من الزهد ، والزهد كله باب من التوكل . وقال التقوى واليقين مثل كفتى الميزان ، والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان .

ويقع لى أن التوكل على قدر العلم بالوكيل ، فكل من كان أتم معرفة كان أتم توكلا ، ومن كمل توكله غاب فى رؤية الوكيل عن رؤية توكله ، ثم إن قوة المعرفة تفيد صرف العلم بالعدل فى القسمة ، وإن الأقسام نصبت بإزاء المقسوم لهم عدلا وموازنة ، فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل فى النفس ، وكلما أحس بشىء يقدح فى توكله يراه من منبع نفسه ، فنقصان التوكل يظهر بظهور نفسه ، وكماله يثبت بغيبتها ، وليس للاقوياء اعتداد بتصحيح توكلهم وإنما شغلهم فى تغييب نفوسهم بتقوية مواد قلوبهم . فإذا غابت النفس انحسمت مادة الجهل فصح التوكل والعبد غير ناظر إليه ، وكلما تحرك من نفوسهم بقية يرد على ضميرهم شر قوله تعالى ﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء ﴾ فيغلب وجود الحق الأعيان والأكوان ، ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون فى نفسه ، ويصير التوكل حينئذ اضطراراً ، ولا يقدح فى توكل مثل هذا المتوكل ما يقدح فى توكل الضعفاء فىالتوكل من وجود الأسباب والوسائط ، لأنه يرى الأسباب مواتاً لاحياة لها إلا بالتوكل ، وهذا توكل الخواص .

قولهم فى الرضا

قال الحارث : الرضا سكون القلب تحت جريان الحكم . وقال ذو النون : الرضا سرور القلب بمر القضاء وقال سفيان عند رابعة : اللهم ارض عنا ، فقالت له أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض ، فسألها بعض الحاضرين : متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ فقالت : إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة .

وقال سهل : إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت بالطمأنينة ﴿ فطوبى لهم وحسن مآب ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا » وقال عليه السلام « إن الله تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » .

وقال الجنيد : الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب ، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا ، وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء ، فإنهما حالان لايفارقان العبد فى الدنيا والاخرة لأنه فى الجنه لايستغنى عن الرضا والمحبة .

وقال ابن عطاء الله : الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد ، لأنه اختار له الأفضل فيرضى له وهو ترك السخط . وقال أبو تراب : لن ينال الرضا من الله من للدنيا فى قلبه مقدار .

وقال السرى : خمسة من أخلاق المقربين ، الرضا عن الله فيما تحبه النفس وتكرهه ، والحب له بالتحبب إليه ، والحياء من الله والأنس به ، والوحشة مما سواه .

وقال الفضيل : الراضى من لايتمنى فوق منزلته شيئاً . وقال ابن شمعون : الرضا بالحق والرضاله والرضاعنه فالرضا به مدبراً ومختاراً والرضا عنه قاسما ومعطيا ، والرضا له إلها وربا .

سئل أبو سعيد : هل يجوز أن يكون العبد راضيا ساخطا ؟ قال : نعم ، يجوز أن يكون راضيا عن ربه ساخطا على نفسه وعلى كل قاطع يقطعه عن الله . وقيل للحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما : إن أبا ذر يقول الفقر أحب إلى من الغنى ، والسقم من الصحة ! قال : رحم الله أبا ذر ، أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه فى غير الحالة التى اختار الله له .

وقال على رضى الله عنه : من قعد على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدا ، ومن قعد على بساط السؤال لم يرض عن الله فى كل حال . وقال يحيى : يرجع الأمر كله إلى هذين الأصلين : فعل منه لك ، وفعل لك منه ، فترضى بما عمل وتخلص فيما تعمل .

وقال بعضهم : الراضى من لم يندم على فائت من الدنيا ولم يتأسف عليها .

وقيل ليحيى بن معاذ : متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا . قال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ، يقول : إن أعطيتنى قبلت ، وإن منعتنى رضيت ، وإن تركتنى عبدت ، وإن دعوتنى أجبت .

وقال الشبلى رحمه الله بين يدى الجنيد : لاحول ولاقوة إلا بالله . قال الجنيد : قولك ذا ضيق صدر ، فقال : صدقت قال : فضيق الصدر ترك الرضا بالقضاء ، وهذا إنما قاله الجنيد رحمه الله تنبيها منه على أصل الرضا ، وذلك أن الرضا يحصل لانشراح القلب وانفساحه ، وانشراح القلب من نور اليقين . قال الله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر وانفتحت عين البصيرة وعاين حسن تدبير الله تعالى فينتزع السخط والضجر ، لأن اتساع الصدر يتضمن حلاوة الحب وفعل المحبوب بموقع الرضا عن المحب الصادق؛ لأن المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره ، فيفنى فى لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه ، كما قيل :

* وكل ما يفعل المحبوب محبوب *

الباب الحادى والستون : فى ذكر الأحوال وشرحها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله ، قال أخبرنا أبو طالب الزينبى ، عن كريمة المروزية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم الكشميهنى . عن أبو عبد الله الفربرى ، عن أبو عبد الله البخارى ، عن سليمان ابن حرب ، عن شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان . من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبدا لايحبه إلا الله : ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » .

وأخبرنا شيخنا أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل ، عن أبو بكر بن خلف ، عن أبو عبد الرحمن ، عن أبو عمرو بن حيوة ، عن أبو عبد بن مؤمل عن أبيه ، عن بشر بن محمد ، عن عبد الملك بن وهب عن إبراهيم بن أبى عبلة عن العرباض بن ساريه قال : كان رسول الله ﷺ يدعو « اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى وسمعى وبصرى وأهلى ومالى ومن الماء البارد » فكان رسول الله ﷺ طلب خالص الحب ، وخالص الحب : هو أن يحب الله تعالى بكليته وذلك أن العبد قد يكون فى حال قائما بشروط حاله بحكم العلم ، والجبلة تتقاضاه بضد العلم ، مثل أن يكون راضيا والجبلة قد تكره ، ويكون النظر إلى الانقياد بالعلم لا إلى الاستدعاء بالجبلة ؛ فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الإيمان ، ويحب الأهل والولد بحكم الطبع .

وللمحبة وجوه . وبواعث المحبة فى الإنسان متنوعة : فمنها محبة الروح ، ومحبة القلب ، ومحبة النفس ، ومحبة العقل فقول رسول الله ﷺ وقد ذكر الأهل والمال والماء البارد : معناه استئصال عروق المحبة بمحبة الله تعالى حتى يكون حب الله تعالى غالبا ، فيحب الله تعالى بقلبه وروحه وكليته ، حتى يكون حب الله تعالى أغلب فى الطبع أيضا والجبلة من حب الماء البارد ، وهذا يكون حباً صافيا لخواص تنغمر به ، وبنوره نار الطبع والجبلة ، وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بعكوف الروح وخلوصه إلى مواطن القرب .

قال الواسطى فى قوله تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته ؛ فالهاء راجعه إلى الذات دون النعوت والصفات .

وقال بعضهم : المحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة . فإذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة ، فإذاً الحب حبان : حب عام ، وحب خاص ، فالحب العام مفسر بامتثال الأمر ، وربما كان حبا من معدن العلم بالآلاء والنعماء . وهذا الحب مخرجه من الصفات . وقد ذكر جمع من المشايخ الحب فى المقامات : فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذى يكون لتكسب العبد فيه مدخل .

وأما الحب الخاص الذات عن مطالعة الروح . وهو الحب الذى فيه السكرات . وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه إياه . وهذا الحب يكون من الأحوال : لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل . وهو مفهوم من قول النبي ﷺ « أحب إلى من الماء البارد » لأنه كلام عن وجدان روح تلتذ بحب الذات . وهذا الحب روح والحب الذى يظهر عن مطالعة الصفات ويطلع من مطالع الإيمان قالب هذا الروح . ولما صحت محبتهم هذه أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿ أذلة على المؤمنين ﴾ لأن المحب يذل لمحبوبه ولمحبوب محبوبه . وينشد :

لعين تفدى ألف عين وتتقى   ويكرم ألف للحبيب المكرم

وهذا الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها ، وهو فى الأحوال كالتوبة فى المقامات ، فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل على ماشرحناه أولا : ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك ، والتوبة لهذا الحب أيضا بمثابة الجسمان ، لأنها مشتملة على الحب العام الذى هو لهذا الحب كالجسد ، ومن أخذ فى طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق المحبة يتكمل فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذى تشتمل عليه التوبة النصوح ، وعند ذلك لا يتقلب فى أطوار المقامات لأن التقلب فى أطوار المقامات والترقى من شىء منها إلى شىء طريق المحبين ، ومن أخذ فى طريق المجاهدة من قوله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ ومن قوله تعالى ﴿ ويهدى إليه من ينيب ﴾ أثبت كون الإنابة سببا للهداية فى حق المحب . وفى حق المحبوب صرح بالاجتباء غير معلل بالكسب فقال الله تعالى ﴿ الله يجتبى إليه من يشاء ﴾ فمن أخذ فى طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيه صفوها وخالصها بأتم وصفها ، والمقامات لا تقيده ولا تحبسه وهو يقيدها ويحبسها بترقيه منها وانتزاعه صفوها وخالصها ، لأنه حيث أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها . والمقامات كلها مصفية للنعوت والصفات النفسانية ، فالزهد يصفيه عن الرغبة ، والتوكل يصفيه عن قلة الاعتماد المتولد عن جهل النفس ، والرضا يصفيه عن ضربان عرق المنازعة ، والمنازعة لبقاء جمود فى النفس ما أشرق عليها شموس المحبة الخاصة فبقى ظلها وجمودها ، فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جمودها ، فماذا ينزع الزهد من الرغبة ورغبة الحب أحرقت رغبته ! وماذا يصفى منه التوكل مطالعة الوكيل حشو بصيرته ! وماذا يسكن فيه الرضا من عروق المنازعة والمنازعة ممن لم تسلم كليته

قال الروذبارى مالم تخرج من كليتك لا تدخل فى حد المحبة . وقال أبو يزيد : من قتلته فديته رؤيته ، ومن قتله عشقه فديته مادمته .

أخبرنا بذلك أبو زرعة عن خلف عن أبى عبد الرحمن قال : سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت الحسين ابن علوية يقول : قال أبو يزيد ذلك ، فاذا التقلب فى أطوار المقامات لعوام المحبين ، وطى بساط الأطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون . تخلفت عن هممهم المقامات وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات : وهى مواطن من يتعثر فى أذيال بقاياه .

قال بعض الكبار لإبراهيم الخواص : إلى ماذا أدى بك التصوف : فقال : إلى التوكل . فقال . تسعى فى عمران باطنك ! أين أنت من الفناء فى التوكل برؤية الوكيل !

فالنفس اذا تحركت بصفتها متفلتة من دائرة الزهد يردها الزاهد الى الدائرة بزهده : والتوكل اذا تحركت نفسه يردها بتوكله . والراضى يردها برضاه . وهذه الحركات من النفس بقايا وجودية تفتقر الى سياسة العلم . وفى ذلك تنسم روح القرب من بعيد : وهو أداء حق العبودية مبلغ العلم وبحسبه الاجتهاد والكسب . ومن أخذ فى طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالتستر بأنوار فضل الحق . ومن اكتسى ملابس نور القرب بروح دائمة العكوف محمية عن الطوارق والصروف لا يزعجه طلب ولا يوحشه سلب : فالزهد والتوكل والرضا كائن فيه . وهو غير كائن فيها ، على معنى أنه كيف تقلب كان زاهدا وان رغب ، لأنه بالحق لا بنفسه ، وان رؤى منه الالتفات الى الأسباب

فهو متوكل ، وإن وجد منه الكراهة فهو راض ، لأن كراهته لنفسه ونفسه للحق وكراهته للحق أعيد إليه نفسه بدواعيها وصفاتها مطهرة موهوبة محمولة ملطوف بها ، صار عين الداء دواءه وصار الإعلال شفاؤه ، وناب طلب الله له مناب كل طالب من زهد وتوكل ورضا أو صار مطلوبه من الله ينوب عن كل مطلوب من زهد وتوكل ورضا .

قالت رابعة : محب الله لا يسكن أنينه حتى يسكن مع محبوبه .

وقال أبو عبد الله القرشي : حقيقة المحبة أن تهب لمن أحببت كلك ولا يبقى لك منك شيء .

وقال أبو الحسين الوراق : السرور بالله من شدة المحبة له ، والمحبة في القلب نار تحرق كل دنس .

وقال يحيى بن معاذ : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين ، واعجبا كيف يصبر الإنسان عن حبيبه !

وقال بعضهم : من ادعى محبة الله من غير تورع عن محارمه فهو كذاب ، ومن ادعى محبة الجنة من غير إنفاق ملكه فهو كذاب ، ومن ادعى حب رسول الله ﷺ من غير حب الفقراء فهو كذاب . وكانت رابعة تنشد :

وتعصى الاله وأنت تظهر حبه   هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

وإذا كان الحب للأحوال كالتوبة للمقامات فمن ادعى حالا يعتبر حبه ، ومن ادعى محبة تعتبر توبته فإن التوبة قالب روح الحب ، وهذا الروح قيامه بهذا القالب والأحوال أعراض قوامها بجوهر الروح .

وقال سمنون : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبي ﷺ قال « المرء مع من أحب » فهم مع الله تعالى .

وقال أبو يعقوب السوسي لا تصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ولم يكن هذا بالمحبة فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة .

سئل الجنيد عن المحبة ؟ قال : دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب . قيل : هذا على معنى قوله تعالى « فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا و » ذلك أن المحبة إذا صفت وكملت لا تزال تجذب بوصفها إلى محبوبها فاذا انتهت إلى غاية جهدها وقفت والرابطة متأصلة متأكدة وكمال وصف المحبة أزال الموانع من المحب ، وبكمال وصف المحبة تجذب صفات المحبوب تعطفا على المحب المخلص من موانع قادحة في صدق الحب ، ونظرا إلى قصوره بعد استنفاد جهده ، فيعود المحب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب ، فيقول عند ذلك .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا

فاذا أبصرتني أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

وهذا الذي عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله ﷺ « تخلقوا بأخلاق الله » لأنه بنزاهة النفس وكمال التزكية يستعد للمحبة ، والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية ، ولكن سنة الله جارية أن يزكى نفوس أحبائه بحسن توفيقه وتأييده وإذا منح نزاهة النفس وطهارتها ثم جذب روحه بجاذب المحبة خلع الصفات والأخلاق ، ويكون ذلك عنده رتبة في الوصول ، فتارة ينبعث الشوق من باطنه إلى ما وراء ذلك لكون عطايا الله غير متناهية ، وتارة يتسلى بما منح فيكون ذلك وصوله الذي يسكن نيران شوقه ، وبباعث الشوق تستقر الصفات الموهوبة المحققة رتبة الوصول عند المحب ، ولولا باعث الشوق رجع القهقرى وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه ومن ظن من الوصول غير ما ذكرناه أو تخايل له غير هذا القدر ، فهو متعرض لمذهب النصارى في اللاهوت والناسوت .

وإشارات الشيوخ في الاستغراق والفناء كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب ، وتحقيق حق اليقين بزوال اعوجاج البقايا وأمنت اللوث الوجودي من بقاء صفات النفس وإذا صحت المحبة ترتبت عليها الأحوال وتبعتها .

سئل الشبلي عن المحبة ؟ فقال : كأس لها وهج إذا استقر في الحواس وسكن في النفوس تلاشت .

وقيل : للمحبة ظاهر وباطن : ظاهرها اتباع رضا المحبوب ، وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شيء ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه فن الاحوال السنية في المحبة الشوق ، ولا يكون المحب إلا مشتاقا أبدا لأن أمر الحق تعالى لانهاية له فامن حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن ماوراء ذلك أوفى منها وأتم :

حزني كحسنك لا لذا أمد ينهى إليه ولا لذا أمد

ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس من كسبه ، وإنما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين .

قال أحمد ابن أبي الحوارى : دخلت على أبي سليمان الداراني فرأيته يبكي ، فقلت : مايبكيك رحمك الله ؟ قال : ويحك يا أحمد ، اذا جن هذا الليل افترشت أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم ، وأشرف الجليل جل جلاله عليهم يقول : بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلى مناجاتي ، وإني مطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم ياجبريل ناد فيهم ماهذا البكاء الذي أراه فيكم هل خبركم مخبر أن حبيبا يعذب أحبابه بالنار كيف يجمل بي أن أعذب قوما إذا جن عليهم الليل تملقوا إلى ؟ فبي حلفت إذا وردوا القيامة على أن أسفر لهم عن وجهي وأبيحهم رياض قدسي

وهذه احوال قوم من المحبين أقيموا مقام الشوق . والشوق من المحبة كالزهد من التوبة : إذا استقرت التوبة ظهر الزهد وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق.

قال الواسطي في قوله تعالى ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ قال شوقا واستهانة بمن وراءه ﴿ قال هم أولاء على أثرى ﴾ من شوقه إلى مكالمة الله ورمى بالألواح لما فاته من وقته .

قال أبو عثمان الشوق ثمرة المحبة فمن أحب الله اشتاق الى لقائه . وقال أيضا في قوله تعالى ﴿ فان أجل الله لآت ﴾ تقربة للمشتاقين معناه : أنى أعلم أن شوقكم إلى غالب وأنا أجلت للقائكم أجلا ، وعن قريب يكون وصولكم الى من تشتاقون اليه .

وقال ذو النون : الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات فاذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقا الى ربه ورجاء للقائه والنظر إليه .

وعندي : أن الشوق الكائن في المحبين الى رتب يتوقعونها في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت ، والله تعالى يكاشف أهل وده بعطايا يجدونها علما ويطلبونها ذوقا ؛ فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقا وليس من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت وربما الأصحاء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى ، كما قال الجليل لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾ فمن كانت حياته لله ، منحه الكريم لذة المناجاة والمحبة ، فتمتلىء عينه من النقد ، ثم يكاشفه من المنح والعطايا في الدنيا مايتحقق بمقام الشوق من غير الشوق الى ما بعد الموت .

وأنكر بعضهم مقام الشوق وقال انما يكون الشوق لغائب ، ومتى يغيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاق ؟ ولهذا سئل الأنطاكي عن الشوق؟ فقال : انما يشتاق الى الغائب وماغابت عنه منذ وجدته . وانكار الشوق على الإطلاق لاأرى له وجها لأن رتب العطايا والمنح من أنصبة القرب اذا كانت غير متناهية كيف ينكر الشوق من المحب ؟ فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة الى ماوجد . ولكن يكون مشتاقا الى مالم يجد من أنصبة القرب . فكيف يمنع حال الشوق والأمر هكذا ؟ ووجه آخر : أن الإنسان لابد له من أمور يردها حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته وعدم وقوفه على حد العلم الذي يقتضيه حكم الحال ووجود هذه الامور مثير لنار الشوق . ولا نعنى بالشوق الا مطالبة تنبعث من الباطن الى الاولى والأعلى من أنصبة القرب. وهذه المطالبه كائنة في المحبين فالشوق اذا كائن لاوجه لانكاره .

وقد قال قوم : شوق المشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والغيبوبة ، فيكون فى حال الغيبوبة مشتاقا إلى اللقاء . ويكون فى حال اللقاء والمشاهدة مشتاقا إلى زوائد ومبار من الحبيب وإفضاله ، وهذا هو الذى أراه وأختاره .

وقال فارس : قلوب المشتاقين منورة بنور الله ، فإذا تحركت اشتياقا أضاء النور ما بين المشرق والمغرب ، فيعرضهم الله على الملائكة فيقول : هؤلاء المشتاقون إلا أشهدكم أنى إليهم أشواق .

وقال أبو زيد : لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار .

سئل ابن عطاء الله عن الشوق فقال : هو احتراق الحشا وتلهب القلوب ، وتقطع الأكباد من البعد بعد القرب .

سئل بعضهم : هل الشوق أعلى أم المحبة ؟ فقال : المحبة ، لأن الشوق يتولد منها ، فلا مشتاق إلا من غلبه الحب فالحب أصل والشوق فرع .

وقال النصراباذى : للخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق : ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار .

ومنها الأنس : وقد سئل الجنيد عن الأنس ؟ فقال : ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة .

وسئل ذو النون عن الأنس ؟ فقال : هو انبساط المحب إلى المحبوب . قيل : معناه قول الخليل ﴿ أرنى كيف تحيى الموتى ﴾ وقوله موسى ﴿ أرنى أنظر إليك ﴾ . وأنشد لرويم :

شغلت قلبى بما لديك فلا ينفك طول الحياة عن فكر
آنستنى منك بالوداد فقد أوحشتنى من جميع ذا البشر
ذكرك لى مؤنس يعارضنى يوعدنى عنك منك بالظفر
وحيثما كنت يا مدى هممى فأنت منى بموضع النظر

وروى أن مطرف بن الشخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز : ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه ، فإن لله عبادا استأنسوا بالله وكانوا فى وحدتهم أشد استئناسا من الناس فى كثرتهم ، وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون . وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون :

قال الوسطى : لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها .

وقال أبو الحسين الوراق : لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم ، لأن كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه إلا الله تعالى ، فإنك لا تتزايد به أنسا إلا ازددت منه هيبة وتعظيما .

قالت رابعة : كل مطيع مستأنس ، وأنشدت :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وضيع عمى قلبه وضيع عمره

قيل لبعضهم من معك فى الدار ؟ قال : الله تعالى معى ولا يستوحش من أنس بربه

وقال الخراز : الأنس محادثة الأرواح مع المحبوب فى مجالس القرب

ووصف بعض العارفين صفة أهل المحبة الواصلين فقال : جدد لهم الود فى كل طرفة بدوام الاتصال ، وآواهم فى كنفه بحقائق السكون إليه حتى أنت قلوبهم وحنت أرواحهم شوقا ، وكان الحب والشوق منهم إشارة من الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله ، فذهبت منامهم وانقطعت آمالهم عنده لما بان منه لهم . ولو أن الحق تعالى أمر جميع الأنبياء يسألون لهم ما سألوه بعض ما أعد لهم من قديم وحدانيته ودوام أزليته وسابق علمه ، وكان نصيبهم معرفتهم به وفراغ هممهم عليه واجتماع أهوائهم فيه ، فصار يحسدهم من عبيده العموم : أن رفع عن قلوبهم جميع الهموم وأنشد فى معناه :

كانت لقلبى أهواء مفرقة فاستجمعت إذ رأتك النفس أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

وقد يكون من الأنس . الأنس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه وسائر أبواب القربات . وهذا القدر من الأنس نعمة من الله تعالى ومنحة منه ، ولكن ليس هو حال الأنس الذى يكون للمحبين ، والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن وكنسه بصدق الزهد وكمال التقوى وقطع الأسباب والعلائق ومحو الخواطر والهواجس ، وحقيقته عندى : كنس الوجود بثقل لائح العظمة وانتشار الروح فى ميادين الفتوح ، وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب فيجمعه به عن الهيبة ، وفى الهيبة اجتماع الروح ورسوبه إلى محل النفس ، وهذا الذى وصفناه من أنس الذات وهيبة الذات يكون فى مقام البقاء بعد العبور على ممر الفناء ، وهما غير الأنس والهيبة اللذين يذهبان بوجود الفناء ، لأن الهيبة والأنس قبل الفناء ظهرا من مطالعة الصفات من الجلال والجمال وذلك مقام التلوين ، وماذكرناه بعد الفناء فى مقام التمكين والبقاء من مطالعة الذات .

ومن الأنس : خضوع النفس المطمئنة ، ومن الهيبة : خشوعها ، والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق لطيف يدرك بإيماء الروح .

ومنها : القرب ، قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ واسجد واقترب ﴾ وقد ورد « أقرب ما يكون العبد من ربه فى سجوده » فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون ، ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب . قال بعضهم : إنى لأجد الحضور فأقول : يا ألله ، أو يارب ، فأجد ذلك على أثقل من الجبال . قيل : ولم ؟ قال : لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسا ينادى جليسه ، وإنما هى إشارات وملاحظات ومناغاة وملاطفات ، وهذا الذى وصفه مقام عزيز متحقق فيه القرب ، ولكنه مشعر بمحو ، ومؤذن بسكر ، يكون ذلك لمن غابت نفسه فى نور روحه لغلبة سكره وقوة محوه . فإذا صحا وأفاق تتخلص الروح من النفس والنفس من الروح ، ويعود كل من العبد إلى محله ومقامه ، فيقول : ياالله ويارب ، بلسان النفس المطمئنة العائدة إلى مقام حاجتها ومحل عبوديتها ، والروح تستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الأقوال ، وهذا أتم وأقرب من الأول . لأنه وفى حق القرب باستقلال الروح بالفتوح ، وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس إلى محل الافتقار ، وحظ القرب لايزال يتوفر نصيب الروح بإقامة رسم العبودية من النفس .

وقال الجنيد : إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه ، فانظر ماذا يقرب من قلبك .

وقال أبو يعقوب السوسى : ما دام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبا حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب . وقد قال قائلهم :

قد تحققت فى السر فناجاك لسانى
فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان
إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عيانى
فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى

قال ذو النون : ما ازداد أحد من الله قربه إلا ازداد هيبة . وقال سهل . أدنى مقام من مقامات القرب الحياء . وقال النصراباذى : باتباع السنة تنال المعرفة ، وبأداء الفرائض تنال القربة ، وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة .

ومنها : الحياء ، والحياء على الوصف العام والوصف الخاص ، فأما الوصف العام فما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله « استحيوا من الله حق الحياء » قالوا : إنا نستحيى يارسول الله . قال « ليس ذلك ، ولكن من

استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ،فن فعل ذلك فقد استحي من الله حق الحياء » وهذا الحياء من المقامات .

وأما الحياء الخاص فمن الأحوال وهو ما نقل عن عثمان رضى الله عنه أنه قال : إنى لأغتسل فى البيت المظلم فأنطوى حياء من الله .

أخبرنا أبو زرعه عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن عن أبا العباس البغدادى عن احمد السقطى بن صالح عن محمد بن عبدون عن أبا العباس المؤدب عن سرى يقول: احفظ عنى ما أقول لك إن الحياء والأنس يطوفان بالقلب ، فإذا وجدا فيه الزهد والورع حطا ، وإلا رحلا . والحياء إطراق الروح إجلالا لعظم الجلال والأنس التذاذ الروح بكمال الجمال، فاذا اجتمعا فهو الغاية فى المنى والنهاية فى العطاء .وأنشد شيخ الإسلام :

أشتاقه فإذا بدا أطرقت من إجلاله لا خيفة بل هيبة وصيانة لجماله

الموت فى إدباره والعيش فى إقباله وأصد عنه اذا بدا وأروم طيف خياله

قال بعض الحكماء : من تكلم فى الحياء ولا يستحي من الله فيما يتكلم به فهو مستدرج .

وقال ذو النون : الحياء وجود الهيبة فى القلب مع حشمة ماسبق منك الى ربك .

وقال ابن عطاء الله : العلم الأكبر الهيبة والحياء فإذ ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه .

وقال أبو سليمان : ان العباد عملوا على أربع درجات: على الخوف، والرجاء والتعظيم والحياء وأشرفهم منزلة: من عمل على الحياء ،لما أيقن ان الله تعالى يراه على كل حال استحيا من حسناته أكثر مما استحيا العاصون من سيئاتهم.

وقال بعضهم : الغالب على قلوب المستحيين الإجلال والتعظيم دائما عند نظر الله اليهم .

ومنها : الاتصال: قال النورى : الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار . وقال بعضهم: الاتصال وصول السر الى مقام الذهول . وقال بعضهم : الاتصال أن لايشهد العبد غير خالقه ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه وقال سهل بن عبد الله : حركوا بالبلاء فتحركوا ،ولو سكنوا اتصلوا . وقال يحي بن معاذ الرازى :العمال أربعة : تائب، وزاهد ومشتاق وواصل فالتائب محجوب بتوبته ،والزاهد محجوب بزهده ، والمشتاق محجوب بحاله والواصل لايحجبه عن الحق شيء .

وقال أبو سعيد القرشي : الواصل الذى يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبدا والمتصل الذى بجهده يتصل . وكلما دنا انقطع . وكأن هذا الذى ذكره حال المريد والمراد ، لكون أحدهما مباداً بالمكشوف وكون الآخر مردودا الى الاجتهاد .

وقال أبو يزيد :الواصلون فى ثلاثة احرف : همهم لله ،وشغلهم فى الله ،ورجوعهم الى الله .

وقال السيارى: الوصول مقام جليل، وذلك ان الله تعالى إذا احب عبدا ان يوصله اختصر عليه الطريق وقرب اليه البعيد .

وقال : الجنيد : الواصل هو الحاصل عند ربه وقال رويم: أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم فهم محفوظوا القوى ، ممنوعون من الخلق أبدا .

وقال ذو النون : مارجع من رجع الا من الطريق ، وما وصل اليه احد فرجع عنه

واعلم ان الاتصال والمواصلة اشار اليه الشيوخ ، وكل من وصل الى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال : وهو رتبة فى التجلى فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ويخرج فى هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتة فى الوصول ومنهم من يوقف فى مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجلى طريق الصفات وهو رتبة فى الوصول . ومنهم

من ترقى لمقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة مغيبا فى شهوده عن وجوده ، وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين ، وهذا المقام رتبة فى الوصول ، وفوق هذا حق اليقين، ويكون من ذلك فى الدنيا للخواص لمح : وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه ، وهذا من أعلى رتب الوصول ، فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد فى أول المنزل فأين الوصول؟ هيهات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الأبدى ، فكيف فى العمر القصير الدنيوى ؟

ومنها القبض والبسط : وهما حالان شريفان ، قال الله تعالى : ﴿والله يقبض ويبسط﴾ وقد تكلم فيهما الشيوخ وأشاروا بإشارات هى علامات القبض والبسط، ولم أجد كشفا عن حقيقتهما لأنهما اكتفوا بالإشارة، والإشارة تقنع الأهل ، وأحببت أن أشبع الكلام فيهما لعله يتشوق إلى ذلك طالب ويحب بسط القول فيه والله أعلم .

واعلم أن القبض والبسط لهما موسم معلوم ووقت محتوم لا يكونان قبله ولا يكونان بعده، ووقتهما وموسمهما فى أوائل حال المحبة الخاصة لا فى نهايتها، ولا قبل حال المحبة الخاصة. فمن هو فى مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان لا يكون له قبض ولا بسط ، وإنما يكون له خوف ورجاء ، وقد يجد شبه حال القبض وشبه حال البسط ، ويظن ذلك قبضا وبسطا ، وليس هو ذلك ، وإنما هو هم يعتريه فيظنه قبضا ، واهتزاز نفسانى ونشاط طبيعى يظنه بسطا، والهم والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها ، وما دامت صفة الأمارة فيها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز والنشاط . والهم : وهج ساجور النفس ، والنشاط : ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع، فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال وذا قلب وذا نفس لوامة، ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك ، لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الإيقان وحال المحبة الخاصة، فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى.

قال الواسطى : يقبضك عمالك ويبسطك فيما له . وقال النورى : يقبضك بإياك ، ويبسطك لإياه .

واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها ، وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته، والنفس مادامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبة والقبض والبسط باعتبار ذلك منها . وصاحب القلب تحت حجاب نورانى لوجود قلبه كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلمانى لوجود نفسه . فإذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يقيده الحال ولا يتصرف فيه . فيخرج من تصرف القبض والبسط حينئذ، فلا يقبض ولا يبسط مادام متخلصا من الوجود النورانى الذى هو القلب ومتحققا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب ؛ فإذا عاد إلى الوجود من الفناء والبقاء يعود إلى الوجود النورانى الذى هو القلب ، فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط .

قال فارس : أولا القبض ثم البسط ثم لا قبض ولا بسط، لأن القبض والبسط يقع فى الوجود فأما مع الفناء والبقاء فلا ، ثم إن القبض قد يكون عقوبة الإفراط فى البسط. وذلك أن الوارد من الله تعالى يرد على القلب فيمتلىء القلب منه روحا وفرحا واستبشارا ؛ فتسترق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها ؛ فإذا وصل أثر الوارد إلى النفس طغت بطبعها وأفرطت فى البسط حتى تشا كل البسط نشاطا فتقابل بالقبض عقوبة . وكل القبض إذا فتش لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالعصيان أخرى ما وجد صاحب القلب القبض ومادام روحه وأنسه ورعاية الاعتدال الذى يسد باب القبض متلق من قوله تعالى ﴿لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ فوارد الفرح ما دام موقوفا على الروح والقلب لا يكثف ولا يستوجب صاحبه القبض سيما إذا لطف بالفرح بالوارد بالإيواء إلى الله وإذا لم يلتجىء بالإيواء إلى الله تعالى تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح وهو الفرح بما أوتى المنوع منه . فمن ذلك القبض فى بعض الأحايين وهذا من ألطف الذنوب الموجبة للقبض وفى النفس من حركاتها وصفاتها وثبات متعددة موجبة للقبض ثم الخوف والرجاء لا يعدمها صاحب القبض والبسط ولا صاحب الانس والهيبة لانهما من ضرورة الإيمان فلا ينعدمان وأما القبض والبسط فينعدمان عند صاحب الإيمان لنقصان الحظ من القلب وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب وقد يرد على الباطن قبض وبسط ولا يعرف

سببهما ، ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظ من العلم الذى لم يحكم علم الحال ولا علم المقام ومن أحكم علم الحال والمقام لايخفى عليه سبب القبض والبسط ، وربما يشتبه عليه سبب القبض والبسط كما يشتبه عليه الهم بالقبض والنشاط بالبسط ، وإنما علم ذلك لمن استقام قلبه ، ومن عدم القلب والبسط وارتقى منهما فنفسه مطمئنة لاتنقدح من جوهرها نار توجب القبض ، ولا يتلاطم بحر طبعها من أهوية الهوى حتى يظهر منه البسط وربما صار لمثل هذا القبض والبسط فى نفسه لا من نفسه ، فتكون نفسه المطمئنة بطبع القلب فيجرى القبض والبسط فى نفسه المطمئنة ، وما لقلبه قبض ولا بسط لأن القلب متحصن بشعاع نور الروح مستقر فى دعة القرب فلا قبض ولا بسط ومنها : الفناء والبقاء وقد قيل : الفناء أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له فى شىء حظ ، بل يفنى عن الأشياء كلها شغلا بمن فنى فيه . وقد قال عامر بن عبد الله : لا أبالى امرأة رأيت أم حائطا ، ويكون محفوظا فيما لله عليه مصروفا عن جميع المخالفات والبقاء يعقبه وهو أن يفنى عماله ويبقى بما لله تعالى .

وقيل الباقى أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا ، فيكون كل حركاته فى موافقة الحق دون مخالفته ، فكان فانيا عن المخالفات باقيا فى الموفقات

وعندى أن هذا الذى ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوح ، وليس من الفناء والبقاء فى شىء

ومن الإشارة إلى الفناء ماروى عن عبد الله بن عمر أنه سلم عليه إنسان وهو فى الطواف فلم يرد عليه فشكاه إلى بعض أصحابه ، فقال له كنا نتراءى الله فى ذلك المكان .

وقيل الفناء هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل .

وقال الخراز الفناء هو التلاشى بالحق ، والبقاء هو الحضور مع الحق

وقال الجنيد الفناء استعجام الكل عن أوصافك واشتغال الكل منك بكليته .

وقال إبراهيم بن شيبان : علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية ، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة .

وسئل الخراز ماعلامة الفانى ؟ قال : علامة من ادعى الفناء ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى .

وقال أبو سعيد الخراز . أهل الفناء فى الفناء صحتهم أن يصحبهم علم البقاء وأهل البقاء فى البقاء صحتهم أن يصحبهم علم الفناء .

واعلم أن أقاويل الشيوخ فى الفناء والبقاء كثيرة فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات وهذا تقتضيه التوبة النصوح ، فهو ثابت بوصف التوبة وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والامل وهذا يقتضيه الزهد وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف المذمومة وبقاء الاوصاف المحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس وبعضها إشارة الى حقيقة الفناء المطلق وكل هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء المطلق هو مايستولى من أمر الحق سبحانه وتعالى على كون العبد فيغلب كون الحق سبحانه وتعالى على كون العبد ، وهو ينقسم الى فناء ظاهر وفناء باطن ، فأما الفناء الظاهر : فهو أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الافعال ويسلب عن العبد اختياره وارادته فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا الا بالحق ثم يأخذ فى المعاملة مع الله بحسبة حتى سمعت أن بعض من أقيم فى هذا المقام من كان يبقى أياما لايتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه ويقيض الله له من يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب وهذا لعمرى فناء . لانه فنى عن نفسه وعن الغير نظرا الى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله . والفناء الباطن أن يكاشف تارة بالصفات وتارة لمشاهدة آثار عظمة الذات . فيستولى على باطنه أمر الحق حتى لايبقى له هاجس ولا وسواس وليس من ضرورة الفناء أن يغيب احساسه وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الاشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق .

وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصرى وقلت له : هل يكون بقاء المتخيلات فى السر ووجود الوسواس

من الشرك الخفى ؟ ـ وكان عندى أن ذلك من الشرك الخفى ـ فقال لى : هذا يكون فى مقام الفناء . ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفى أم لا ؟ ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان فى الصلاة فوقعت اسطوانة فى الجامع فانزعج لهدتها أهل السوق ، فدخلوا المسجد فرأوه فى الصلاة ولم يحس بالاسطوانة ووقوعها ، فهذا هو الاستغراق والفناء باطنا ، ثم قد يتسع وعاؤه حتى يكون متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا . ولايغيب عن كل مايجرى عليه من قول وفعل ، ويكون من أقسام الفناء : أن يكون فى كل فعل وقول ومرجعه إلى الله وينتظر الإذن فى كليات أموره ليكون فى الأشياء بالله لا بنفسه ، فتارك الاختيار منتظرا لفعل الحق فان وصاحب الانتظار لإذن الحق فى كليات أموره راجع إلى الله بباطنه فى جزئياتها فان ، ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه فى التصرف يختار كيف شاء وأراد لامنتظرا للفعل ولا منتظرا للاذن هو باق والباقى فى مقام لا يحجبه عن الحق عن الخلق ولا الخلق عن الحق والفانى محجوب بالحق عن الخلق والفناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال والفناء الباطن لمن أطلق عن وثاق الأحوال وصار بالله لا بالأحوال وخرج من القلب فصار مع مقلبه لامع قلبه .

الباب الثانى والستون

فى شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال فى اصطلاح الصوفية

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى بن سليمان إجازة عن أبو الفضل حمد بن أحمد عن الحافظ أبو نعيم الأصفهانى عن محمد بن إبراهيم عن أبو مسلم الكشى عن مسور بن عيسى عن القاسم بن يحيى عن ياسين الزيات عن أبى الزبير عن جابر عن النبى ﷺ قال « إن من معادن التقوى تعلمك إلى ماقد علمت علم ماتعلم ، والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه ، وإنما يزهد الرجل فى علم مالم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم » فمشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى ، وتعلموا العلم لله تعالى وعملوا بما علموا لموضع تقواهم ، فعلمهم الله تعالى مالم يعلموا من الغرائب العلوم دقيق الإشارات واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الأسرار ويرسخ قدمهم فى العلم . قال أبو سعيد الخراز أول الفهم لكلام الله العمل به لأن فيه العلم والفهم والاستنباط . وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة لقوله تعالى ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ وقال أبو بكر الواسطى : الراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب وفى سر السر ، فعرفوهم ، وأراد منهم من مقتضى الآيات مالم يرد من غيرهم وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات فانكشف لهم مدخور الخزائن والمخزون تحت كل حروف وآية من الفهم وعجائب النص فاستخرجوا الدور والجواهر ونطقوا بالحكمة .

وقد ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ فيما رواه سفيان بن عيينة عن أبى جريج عن عطاء عن هريرة أنه قال إن من العلم كهيئة المكنون لايعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به ينكره إلا أهل العزة بالله .

أخبرنا أبو زرعة عن أبو بكر بن خلف عن أبو عبد الرحمن عن النصرباذى عن ابن عائشة عن القرشى يقول: هى أسرار الله تعالى يبديها إلى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة وهى الأسرار التى لم يطلع عليها إلا الخواص .

وقال أبو سعيد الخراز : للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة وأنباء عجيبة يتكلمون فيها بلسان الابدية ويخبرون عنها بعبارة الازلية وهى من العلم المجهول ، فقوله : بلسان الابدية وعبارة الازلية ، اشارة الى أنهم بالله ينطقون وقد تعالى على لسان نبيه ﷺ « بى ينطق » وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فيه فى حق الخضر ﴿ آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴾ فمما تداولته ألسنتهم من الكلمات تفهيما من بعضهم للبعض ، واشارة منهم الى أحوال يجدونها ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم الجمع والتفرقة ، قيل أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ فهذا جمع ثم فرق فقال ﴿ والملائكة وأولو العلم ﴾ وقوله تعالى ﴿ آمنا بالله ﴾ جمع ثم فرق بقوله

﴿ وما أنزل إلينا ﴾ والجمع أصل والتفرقة فرع ، فكل جمع بلا تفرقة زندقة ، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل .

وقال الجنيد : القرب بالوجد جمع ، وغيبته فى البشرية تفرقة . وقيل : جمعهم فى المعرفة وفرقهم فى الأحوال ، والجمع اتصال لايصاهد صاحبه إلا الحق ، فتى شاهد غيره فما جمع ، والتفرقة شهود لمن شاء بالمباينة ، وعباراتهم فى ذلك كثيرة ، والمقصود أنهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد ، وأشاروا بالتفرقة إلى الاكتساب ، فعلى هذا لاجمع إلا بتفرقة ، ويقولون فلان فى عين الجمع ، يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه ، فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة ، فصحة الجمع بالتفرقة ، وصحة التفرقة بالجمع ، فهذا يرجع حاصله إلى أن الجمع من العلم بالله ، والتفرقة من العلم بأمر الله ، ولا بد منهما جميعا .

قال المزين : الجمع بين الفناء بالله ، والتفرقة العبودية متصل بعضها بالبعض ، وقد غلط قوم وادعوا أنهم فى عين الجمع ، وأشاروا إلى صرف التوحيد وعطلوا الاكتساب فتزندقوا ، وإنما الجمع حكم الروح ، والتفرقة حكم القالب وما دام هذا التركيب باقيا فلا بد من الجمع والتفرقة .

وقال الواسطى : إذا نظرت إلى نفسك فرقت وإذا نظرت إلى ربك جمعت ، وإذا كنت قائما بغيرك فأنت فان بلا جمع ولا تفرقة . وقيل : جمعهم بذاته ، وفرقهم فى صفاته ، وقد يريدون بالجمع والتفرقة : أنه اذا أثبت لنفسه كسبا ونظراً إلى أعماله فهو فى التفرقة ، وإذا أثبت الأشياء بالحق فهو فى الجمع ، ومجموع الإشارات ينبىء أن الكون يفرق والمكون يجمع ، فمن أفرد المكون جمع ، ومن نظر إلى الكون فرق ، فالتفرقة عبودية والجمع توحيد ، فإذا أثبت طاعته نظراً إلى كسبه فرق ، وإذا أثبتها بالله جمع ، وإذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع ، ويمكن أن يقال رؤية الأفعال تفرقة ، ورؤية الصفات جمع ، ورؤية الذات جمع الجمع .

سئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام فى وقت الكلام فقال : أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى ، ثم كلم ، فكان المكلم والمكلم هو ، وكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب ورد الجواب لولا بإياه سمع ، ومعنى هذا أن الله تعالى منحه قوة بتلك القوة سمع ، ولولا تلك القوة ما قدر على السمع ، ثم أنشد القائل :

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ... برق تألق موهنا لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه ... صعب الذرى متمنع أركانه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق ... نظراً اليه ورده أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه ... والماء ما سمحت به أجفانه

ومنها قولهم : التجلى والاستتار . قال الجنيد : انما هو تأديب وتهذيب وتذويب ، فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام ، والتهذيب للخواص وهو التجلى ، والتذويب للاولياء وهو المشاهدة .

وحاصل الإشارات فى الاستتار والتجلى راجع الى ظهور صفات النفس .

ومنها الاستتار : وهو اشارة الى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب . ومنها التجلى ، وقد يكون بطريق الأفعال ، أو بطريق الصفات ، أو بطريق الذات ، والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه لهم ولغيرهم ، أما لهم فلانهم به يرجعون الى مصالح النفوس ، وأما لغيرهم فلانه لولا مواضع الاستتار لم ينتفع بهم لاستغراقهم فى جمع الجمع وبروزهم لله الواحد القهار .

قال بعضهم : علامة تجلى الحق للاسرار هو أن لايشهد السر ما يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم ، فمن عبر أو فهم فهو صاحب استدلال لا ناظر اجلال .

وقيل : التجلى : رفع حجبه البشريه لا أن يتلون ذات الحق عز وجل . والاستتار : أن تكون البشريه حائلة بينك وبين شهود الغيب .

ومنها : التجريد والتفريد ، الإشارة منهم فى التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله ، لايأتى

بما يأتى به نظراً الى الأغراض فى الدنيا والآخرة ، بل ما كوشف به من حق العظمه يؤديه حسب جهده عبودية وانقياداً والتفريد . أن لايرى نفسه فيما يأتى به بل يرى منه الله عليه ، فالتجريد بنفى الأغيار ، والتفريد بنفى نفسه واستغراقه فى رؤية نعمه الله عليه وعيبته عن كسبه ، ومنها الوجد والتواجد والوجود ، فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا ويغيره عن هيئته ويتطلع الى الله تعالى ، وهو فرحة يجدها المغلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها لله تعالى . والتواجد استجلاب الوجد بالذكر والتفكر ، والوجود : اتساع فرجة الوجد بالخروج الى فضاء الوجدان، فلاوجد مع الوجدان، ولاخبر مع العيان، فالوجد بعرضية الزوال والوجود ثابت بثبوت الجبال ، وقد قيل

قد كان يطربنى وجدى فأقعدنى عن رؤية الوجد من فى الوجد موجود
والوجد يطرب من فى الوجد راحته والوجد عند حضور الحق مفقود

ومنها : الغلبة؛ الغلبة وجد متلاحق ، فالوجد كالبرق يبدو، الغلبة كتلاحق البرق وتواره يغيب عن التمييز ،فالوجد ينطفىء سريعا،والغلبة تبقى للأسرار حرزا منيعا.

ومنها المسامرة . وهى تفرد الأرواح بخفى مناجاتها ولطيف مناغاتها فى سر السر بلطيف إدراكها للقلب ليفرد الروح بها فتلتذ بها دون القلب .

ومنها السكر والصحو . فالسكر استيلاء سلطان الحال ،والصحو العود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال ، قال محمد بن خفيف: السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب ، وقال الواسطى : مقامات الوجد أربعة الذهول، ثم الحيرة ، ثم السكر ثم الصحو . كمن سمع بالبحر ، ثم دنا منه ، ثم دخل فيه ،ثم أخذته الأمواج ،فعلى هذا : من بقى عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر ، ومن عاد كل شىء منه إلى مستقره فهو صاح ، فالسكر لأرباب القلوب،والصحو للكاشفين بحقائق الغيرب .

ومنها : المحو والإثبات ، المحو : بإزالة أوصاف النفوس ، والإثبات : بما أدير عليهم من آثار الحب كؤوس أو المحو محو رسوم الأعمال بنظر الفناء إلى نفسه ومأمنه ، والإثبات.إثباتها بما أنشأ الحق له من الوجود به ، فهو بالحق لا بنفسه بإثبات الحق إياه مستأنفا بعد أن محاه عن أوصافه .

قال ابن عطاء الله : يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم.

ومنها :علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين،فعلم اليقين ما كان من طريق النظر والاستدلال . وعين اليقين ما كان من طريق الكشوف والنوال.وحق اليقين ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال بورود رائد الوصال قال فارس: علم اليقين لا اضطراب فيه ،وعين اليقين:هو العلم الذى أودعه الله الأسرار والعلم إذا انفرد عن نعت اليقين كان علما يشبهه،فإذا انضم إليه اليقين كان علما بلا شبهة . وحق اليقين: هو حقيقة ما أشار إليه علم اليقين وعين اليقين .

وقال الجنيد :حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك ،وهو أن يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات مشاهدة عيان ، ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق ، كما أخبر الصديق حين قال لما كان رسول الله ﷺ « ماذا أبقيت لعيالك؟» قال الله ورسوله. وقال بعضهم علم اليقين حال التفرقة وعين اليقين حال الجمع وحق اليقين جمع الجمع بلسان التوحيد .

وقيل لليقين اسم ورسم وعلم وعين وحق فالإسم والرسم للعوام ،وعلم اليقين للأولياء،وعين اليقين لخواص الأولياء وحق اليقين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام،وحقيقة وحق اليقين اختص بها نبينا محمد ﷺ

ومنها الوقت ، والمراد بالوقت ماهو غالب على العبد ، وأغلب ما على العبد وقته ، فإنه كالسيف يمضى الوقت بحكمه ويقطع.وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد لا بكسبه ، فتتصرف فيه فيكون بحكمه . يقال فلان بحكم الوقت ، يعنى مأخوذا عما منه بما للحق .

ومنها: الغيبة والشهود ، فالشهود:هو الحضور وقتا بنعت المراقبة ووقتا بوصف المشاهدة ؛ فما دام العبد موصوفا بالشهود والرعاية فهو حاضر فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب وقد يعنون بالغيبة عن الأشياء بالحق،فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا إلى مقام الفناء .

ومنها : الذوق والشرب والرى فالذوق:إيمان والشرب :علم والرى حال فالذوق لأرباب البواده والشرب لأرباب الطوالع واللوائح واللوامع والرى لأرباب الأحوال وذلك أن الأحوال هي التي تستقر فما لم يستقر فليس بحال وإنما هي لوامع وطوالع وقيل الحال لاتستقر لأنها تحول فإذا استقرت تكون مقاما .

ومنها المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة : فالمحاضرة لأرباب التلوين، والمشاهدة لأرباب التمكين والمكاشفة بينهما إلى أن تستقر فالمشاهدة والمحاضرة لاهل العلم والمكاشفة لاهل العين والمشاهدة لاهل الحق أى حق اليقين.

ومنها:الطوارق والبوادى والباده والواقع والقادح والطوالع واللوامع واللوائح : وهذه كلها ألفاظ متقاربة المعنى ويمكن بسط القول فيها ويكون حاصل ذلك راجعا إلى معنى واحد يكثر بالعبارة فلا فائدة فيه ، والمقصود أن هذه الاسماء كلها مبادىء الحال ومقدماته وإذا صح الحال استوعب هذه الاسماء كلها ومعانيها.

ومنها التلوين والتمكين: فالتلوين لارباب القلوب لانهم تحت حجب القلوب،والقلوب تخلص إلى الصفات وللصفات تعدد بتعدد جهاتها ؛ فظهر لارباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات وأما أرباب التمكين فخرجوا عن مشائم الاحوال وخرجوا عن حجب القلوب وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات فارتفع التلوين لعدم التغير فى الذات إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلى الذات ارتفع عنهم التلوين ،فالتلوين حينئذ يكون فى نفوسهم لانها فى محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها والتلوين اواقع فى النفوس لا يخرج صاحبه عن حال التمكين لان جريان التلوين فى النفس لبقاء رسم الإنسانية ، وثبوت القسم فى التمكين كشف حق الحقيقة وليس المعنى بالتمكين أن يكون للعبد تغير فإنه بشر، وإنما المعنى به: أن ما كوشف به من حقيقه لايتوارى عنه أبدا ولا يتناقص بل يزيد وصاحب التلوين قد يتناقص الشىء فى حقه عند ظهور صفات نفسه وتغيب عنه الحقيقة فى بعض الاحوال،ويكون ثبوته على مستقر الإيمان وتلوينه فى زوائد الاحوال .

ومنها النفس : ويقال النفس للمنتهى ، والوقت للمبتدى والحال للمتوسط فكأنه إشارة منهم إلى أن المبتدىء يطرقه من الله تعالى طارق لايستقر والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه والمنتهى صاحب نفس متمكن من الحال لايتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور ، بل تكون المواجيد مقرونة بأنفاسه مقيمة لاتتناوب عليه . وهذه كلها أحوال لاربابها ولهم منها ذوق وشرب والله ينفع ببركتهم . آمين

الباب الثالث والستون : فى ذكر شىء من البدايات والنهايات وصحتها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى عن الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزينبى عن كريمة المروزية عن أبو الهيثم محمد بن مكى الكشميهنى عن أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربرى عن أبو عبدالله محمد محمد بن اسماعيل بن إبراهيم البخارى عن الحميدى عن سفيان بن عيينة عن يحى بن سعيد الانصارى عن محمد بن ابراهيم التيمي عن علقمة بن وقاص عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول على المنبر سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما الاعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو الى امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر اليه » النية أول العمل وأهم ما للمريد فى ابتداء أمره طريق القوم :أن يدخل طريق الصوفية ويتزيا بزيهم ويجالس طائفتهم لله تعالى فإن دخوله فى طريقهم هجرة حاله

ووقته ، وقد ورد « المهاجر من هجر مانهاه الله عنه » وقد قال الله تعالى ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ فالمريد ينبغى أن يخرج إلى طريق القوم لله تعالى ، فإنه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل ، وإن أدركه الموت قبل الوصول الى نهايات القوم فأجره على الله ، وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف عن أبى الرحمن عن أبى العباس البغدادى عن جعفر الخلدى قال : سمعت الجنيد يقول : أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء ، فالمريد فى أول سلوك هـذا الطريق يحتاج إلى إحكام النية ، وإحكام النية : تنزيهها من دواعى الهوى وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل حتى يكون خروجه خالصا لله تعالى .

وكتب سالم بن عبد الله الى عمر بن العزيز : اعلم ياعمر أن عون الله للعبد بقدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله له ، ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك .

وكتب بعض الصالحين الى أخيه : أخلص النية فى أعمالك يكفك قليل من العمل ، ومن لم يهتد الى النية بنفسه يصحب من يعلمه حسن النية .

قال سهل بن عبد الله التسترى أول مايؤمر به المريد المبتدىء : التبرى من الحركات المذمومة ، ثم النقل الى الحركات المحمودة ثم التفرد لأمر الله تعالى ، ثم التوقف فى الرشاد ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ويكون الرضا والتسليم مراده ، والتفويض والتوكل حاله ثم يمن الله تعالى بعد هذه بالمعرفة ، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة وهذا مقام حملة العرش وليس بعده مقام هـــذا من كلام سهل جمع فيه ما فى البداية والنهاية .

ومتى تمسك المريد بالصدق والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ، ولا يحقق صدقه وإخلاصه شىء مثل متابعة أمر الشرع وقطع النظر عن الخلق ، فكل الآفات التى دخلت على أهل البدايات لموضع نظرهم الى الخلق . وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا يكمل ايمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر ثم يرجع الى نفسه فيراها أصغر صاغر » اشارة الى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقيد بعاداتهم .

قال أحمد بن خضرويه : من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فيلزم الصدق ، فإن الله تعالى مع الصادقين ، وقد ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ « الصدق يهدى إلى البر » ولا بد للمريد من الخروج من المال والجاه والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم الى أن يحكم أساسه فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس ، وأنفع شىء للمريد معرفة النفس ، ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له فى الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات أو عليه من الهوى بقية .

قال زيد بن أسلم خصلتان هما كمال أمرك تصبح لا تهم لله بمعصية وتمسى ولا تهم لله بمعصية فاذا أحكم الزهد والتقوى انكشف له النفس وخرجت من حجبها وعلم طريق حركتها وخفى شهواتها ودسائسها وتلبيساتها . ومن تمسك الصدق فقد تمسك بالعروة الوثيق . قال ذو النون : لله تعالى فى أرضه سيف ماوضع على شىء الا قطع وهو الصدق .

ونقل فى معنى الصدق أن عابدا من بنى اسرائيل راودته ملكة عن نفسه ، فقال : اجعلوا لى ماء فى الخلاء أتنظف به ثم ضعد على موضع فى القصر فرمى بنفسه فأوحى الله تعالى الى ملك الهواء أن ألزم عبدى ، فلزمه ووضعه على الأرض وضعا رفيقا ، فقيل لابليس ألا أغويته فقال ليس لى سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى .

وينبغى للمريد أن تكون له فى كل شىء نية لله تعالى حتى فى أكله وشربه وملبوسه ، فلا يلبس الا لله ولا يأكل الا لله ولا يشرب الا لله ولا ينام الا لله ، لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس اذا كانت لله لاتستعصى النفس وتجيب الى ما يراد منها من المعاملة لله والاخلاص ، واذا دخل فى شىء من رفق النفس لا لله بغير نية صالحة صار ذلك وبالا

عليه . وقد ورد فى الخبر « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الأذفر ، ومن تطيب لغير الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة » .

وقيل : كان أنس يقول : طيبوا كفى بمسك ، فإن ثابتا يصافحنى ويقبل يدى . وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة متقربين بذلك إلى الله بنيتهم . فالمريد ينبغى أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأقواله ولا يسامح نفسه أن تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة إلا لله تعالى ، وقد رأينا من أصحاب شيخنا من كان ينوى عند كل لقمة ويقول بلسانه أيضا . آكل هذه اللقمة لله تعالى ، ولا ينفع القول إذا لم تسكن النية فى القلب ، لان النية عمل القلب ، وإنما اللسان ترجمان ، فما لم تشتمل عليه عزيمة القلب لله لا تكون نية .

ونادى رجل امرأته وكان يسرح شعره فقال . هاتى المدرى ، أراد الميل ليفرق شعره ، فقالت له امرأته ، أجيء بالمدرى والمرآة ، فسكت ثم قال . نعم ، فقال له من سمعه ، سكت وتوقفت عن المرآة ثم قلت نعم ، فقال ، إنى قلت لها هات المدرى بنية ، فلما قالت ، والمرآة ، لم يكن لى فى المرآة نية ، فتوقفت حتى هيأ الله تعالى لى نية ، فقلت نعم ، وكل مبتدىء لا يحكم أساس بدايته بمهاجرة الألاف والاصدقاء والمعارف ويتمسك بالوحدة لا تستقر بدايته . وقد قيل ، من قلة الصدق كثرة الخلطاء ، وأنفع ماله لزوم الصمت وأن لا يطرق سمعه كلام الناس ، فإن باطنه يتغير ويتأثر بالأقوال المختلفة ، وكل من يعلم كمال زهده فى الدنيا وتمسكه بحقائق التقوى لا يعرفه أبدا ، فإن عدم معرفته لا يفتح عليه خيرا ، وبواطن أهل الابتداء كالشمع يقبل كل نقش ، وربما استضر المبتدى بمجرد النظر إلى الناس ، ويستضر بفضول النظر أيضا وفضول المشى ، فيقف من الاشياء كلها على الضرورة ، فينظر ضرورة ، حتى لو مشى فى بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذى يسلكه لا يلتفت يمينه ويساره ، ثم يتقى موضع نظر الناس اليه وإحساسهم منه بالرعاية والاحتراز ، فان علم الناس منه بذلك أضر عليه من فعله ، ولا يستحقر فضول المشى ، فان كل شىء من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة جر إلى الفضول ، ثم يجر إلى تضييع الاصول .

قال سفيان : إنما حرموا الوصول بتضييع الاصول ، فكل من لا يتمسك بالضرورة فى القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشرب والنوم ، ومتى تعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه وانحلت شيئا بعد شىء .

قال سهل بن عبد الله : من لم يعبد الله اختيارا يعبد الخلق اضطرارا ، وينفتح على العبد أبواب الرخص والاتساع ويهلك مع الهالكين .

ولا ينبغى للمبتدىء أن يعرف أحدا من أرباب الدنيا ، فان معرفته لهم سم قاتل . وقد ورد « الدنيا مبغوضة الله فمن تمسك بحبل منها قادته إلى النار » وما حبل من حبالها إلا كأبنائها ، والطالبين لها والمحبين ، فمن عرفهم انجذب اليها شاء أو أبى .

ويحترز المبتدىء عن مجالسة الفقراء الذين لا يقولون بقيام الليل وصيام النهار ، فإنه يدخل عليه منهم أشر ما يدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا ، وربما يشيرون إلى أن الاعمال شغل المتعبدين ، وأن أرباب الاحوال ارتقوا عن ذلك ، ينبغى للفقير أن يقتصر على الفرائض وصوم رمضان فحسب ! ولا ينبغى أن يدخل هذا الكلام سمعه رأسا . فإنا اختبرنا ومارسنا الامور كلها وجالسنا الفقراء والصالحين . ورأينا أن الذين يقولون هذا القول ويرون الفرائض دون الزيادات والنوافل تحت القصور مع كونهم أصحاء فى أحوالهم . فعلى العبد التمسك بكل فريضة وفضيلة . فبذلك يثبت قدمه فى بدايته : ويراعى يوم الجمعة ويجعله لله تعالى خالصا لا يمزجه بشىء من أحوال نفسه ومآربها . ويبكر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة . وإن اغتسل قريبا من وقت الصلاة إذا أمكنه ذلك فحسن . قال رسول الله ﷺ « يا أبا هريرة اغتسل للجمعة ولو اشتريت الماء بعشائك . وما من نبى إلا وقد أمره الله تعالى أن يغتسل للجمعة . فإن غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعتين » ويشتغل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع الاذكار من غير فتور إلى أن يصلى الجمعة . ويجلس معتكفا فى الجامع الى أن يصلى فرض العصر وبقية النهار

يشغله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ ، فانه يرى بركة ذلك فى جميع الأسبوع حتى يرى ثمرة ذلك يوم الجمعة .

وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأقواله وأفعاله جميع الأسبوع لأنه يوم المزيد لكل صادق ، ويكون مايجده يوم الجمعة معيارا يعتبر به سائر الأسبوع الذى مضى ، فإنه إذا كان الأسبوع سليما يكون يوم الجمعة فيه مزيد الأنوار والبركات ، ومايجد فى يوم الجمعة من الظلمة وسآمة النفس وقلة الانشراح ، فلما ضيع فى الأسبوع يعرف ذلك ويعتبر

ويتقى جدا أن يلبس للناس : إما المرتفع من الثياب أو ثياب المتقشفين ليرى بعين الزهد، ففى لبس المرتفع للناس هوى ، وفى لبس الخشن رياء ، فلا يلبس إلا لله .

بلغنا أن سفيان لبس القميص مقلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس ، فهم أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال . لبسته بنية لله ، فلا أغيره فألبسه بنية للناس ، فليعلم العبد ذلك وليعتبره .

ولا بد للمبتدىء أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه ، فيحفظ من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن ، ولا يصغى إلى قول من يقول : ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن ، فإنه يجد بتلاوة القرآن فى الصلاة وفى غير الصلاة جميع مايتمنى بتوفيق الله تعالى : وإنما اختار بعض المشايخ أن يديم المريد ذكرا واحدا ليجتمع الهم فيه ، ومن لازم التلاوة فى الخلوة وتمسك بالوحدة تفيده التلاوة والصلاة أوفى ما يفيده الذكر الواحد ، فإذا سئم فى بعض الأحايين يصانع النفس على الذكر مصانعة، وينزل من التلاوة إلى الذكر فانه أخف على النفس .

وينبغى أن يعلم أن الاعتبار بالقلب ، فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتداد ، فانه عمل ناقص .

ولا يحقر الوساوس وحديث النفس فإنه مضر وداء عضال، فيطالب نفسه أن تصير فى تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه ، فكما أن التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر ، هكذا يكون معنى القرآن فى القلب لا يمزجه بحديث النفس ، وإن كان أعجميا لا يعلم معنى القرآن يكون من اقبة حلية باطنه، فيشغل باطنه بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس : فإن بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة .

قال مالك : قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة : فليتمسك المريد بهذه الأصول ، وليستعن بدوام الافتقار إلى الله . فبذلك ثبات قدمه .

قال سهل : على قدر لزوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء : وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره إلى الله : فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير ومفتاح كل علم دقيق فى طريق القوم. وهذا الافتقار مع كل الانفاس لايتشبث بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها . وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تعقب خيرا قطعا. علمنا ذلك وتحققناه .

وقال سهل : من انتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله : وأدنى مايدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لايعنيه وتركه ما يعنيه .

وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم . لمن هذه الدار ؟ ثم رجع الى نفسه وقال . مالى وهذا السؤال ؟ وهل هذه إلا كلمة لا تعنينى ! وهل هذا إلا لاستيلاء نفسى وقلة أدبها ! وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة فبالصدق نالوا ما نالوا وبقوة العزائم ـ عزائم الرجال ـ بلغوا ما بلغوا .

أخبرنا أبو زرعة إجازة . قال أخبرنا أبو بكر بن خلف. قال أخبرنا أبو عبد الرحمن. قال سمعت منصورا يقول سمعت أبا عمرو الانماطى يقول . سمعت الجنيد يقول لو أقبل صادق على الله الف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان

مافاته من الله أكثر مما ناله ، وهذه الجملة يحتاج المبتدىء أن يحكمها ، والمنتهى عالم بحقائقها ، فالمبتدئ صادق والمنتهى صديق .

قال أبو سعيد القرشي : الصادق الذي ظاهره مستقيم وباطنه يميل أحيانا إلى حظ النفس ، وعلامته أن يجد الحلاوة فى بعض الطاعة ولا يجدها فى بعض ، وإذا اشتغل بالذكر نور الروح ، وإذا اشتغل بحظوظ النفس يحجب عن الأذكار . والصديق : الذى استقام ظاهره وباطنه يعبد الله تعالى بتلوين الأحوال ، لا يحجبه عن الله وعن الأذكار أكل ولا نوم ولا شرب ولا طعام ، والصديق يريد نفسه لله . وأقرب الأحوال إلى النبوة الصديقية .

وقال أبو يزيد : آخر نهايات الصديقين أول درجة الأنبياء .

واعلم أن أرباب النهايات استقامت بواطنهم وظواهرهم لله ، وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفوس ووطئت بساط القرب ، ونفوسهم منقادة مطواعة صالحة مع القلوب مجيبة إلى كل تجيب القلوب ، أرواحهم متعلقة بالمقام الأعلى ، انطفأت فيهم نيران الهوى ، وتخمر فى بواطنهم صريح العلم وانكشفت لهم الآخرة ، كما قال رسول الله ﷺ فى حق أبى بكر رضى الله عنه « من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبى بكر » إشارة منه عليه الصلاة والسلام ما كوشف به من صريح العلم الذى لا يصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت حيث يقال « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » فأرباب النهايات ماتت أهويتهم وخلصت أرواحهم .

قال يحيى بن معاذ ـ وقد سئل عن وصف العارف ، فقال : رجل معهم بائن منهم . وقال مرة : عبد كان فبان

فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقتهم معوقين بتوقيت الأجل ، جعلهم الله تعالى من جنوده فى خلقه ، بهم يهدى وبهم يرشد وبهم يجذب أهل الارادة ، كلامهم دواء ونظرهم دواء ظاهرهم محفوظ بالحكم وباطنهم معمور بالعلم .

قال ذو النون : علامة العارف ثلاثة لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ، ولا يحمله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستار محارم الله ، فأرباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية ، وكلما ازدادوا دنيا ازدادوا قربا وكلما ازدادوا جاها ورفعة ازداودا تواضعا وذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت منها شكرا صافيا يتناولون الشهوات تارة رفقا بالنفوس لأنها معهم كالطفل الذى يلطف بالشيء ويهدى له شيء ، لأنه مقهور تحت السياسة مرحوم ملطوف به . وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تأسيا بالأنبياء واختيارهم التقلل من الشهوات الدنيوية .

قال يحيى بن معاذ : الدنيا عروس تطلبها ماشطتها والزهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها والعارف بالله مشتغل بسيده ولا يلتفت إليها .

واعلم أن المنتهى مع كمال حاله لا يستغنى أيضا عن سياسة النفس ومنعها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر ، وقد غلط فى هذا خلق ، وظنوا أن المنتهى استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال فى تناول الملاذ والشهوات وهذا خطأ لا من حيث إنه يحجب العارف عن معرفته ، ولكن يوقف عن مقام المزيد وقوم لما رأوا أن هذه الاشياء لا تؤثر فيهم قسوة ولا تورثهم حجبة ركنوا إليها واسترسلوا فيها وقنعوا بأداء الفرائض واتسعوا فى المآكل والمشرب ، وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الأحوال ، وتقيد بنور الحال ، وعدم التخلص بالكلية إلى نور الحق ، ومن تخلص من نور الحال إلى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر ويوقف نفسه مقام العبيد ، كأحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم وأنواع البر حتى بإماطة الاذى عن الطريق ، ولا يستكبر ولا يستنكف أن يعود فى عوام المؤمنين من إظهار الارادة بكل بر وصلة ، فيتناول الشهوات وقتا رفقا بالنفس المطهرة المزكاة المنقادة المطواعة لانها أسيرته ، ويمنعها الشهوات وقتا لأن فى ذلك صلاحها واعتبر هذا سواء بحال الصبى فانه إن جاوز حد الاعتدال من إعطاء المراد وقتا منعه وقيا نفسد طبعه لان الجبلة لا بد من قمعها بسياسة العلم وما دامت الجبلة باقية لا بد من سياسة العلم ، وهذا باب غامض دخل فى النهايات على المنتهى من ذلك دواخل ووقع الركن وانسد

به باب المزيد ، فالمنتهى ملك ناصية الاختيار فى الأخذ والترك ، ولابد من أخذ وترك فى الأعمال والحظوظ ، ففى الأعمال لابد له من أخذ وترك فتارة يأتى بالأعمال كآحاد الصادقين ، وتارة يترك زيادة الأعمال رفقا بالنفس وتارة يأخذ الحظوظ والشهوات رفقا بالنفس ، وتارة يتركها افتقادا للنفس بحسن السياسة فيكون فى ذلك كله مختارا ، فمن ساكن ترك الحظوظ بالكلية ، فهو زاهد تارك بالكلية ، ومن استرسل فى أخذها فهو راغب بالكلية والمنتهى شمل الطرفين فانه على غاية الاعتدال واقف على الصراط بين الإفراط والتفريط فمن ردت إليه الأقسام فى النهاية فأخذها زاهدا فى الزهد فهو تحت قهر الحال من ترك الاختيار وتارك الاختيار الوقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال ، وكما أن الزاهد مقيد بالترك تارك الاختيار فكذلك الزاهد فى الزهد الآخذ من الدنيا ماسبق إليه لرؤيته فعل الله مقيدا بالأخذ وإذا استقرت النهاية لايتقيد بالأخذ ولا بالترك بل يترك وقتا واختيار من اختيار الله ويأخذ وقتا واختياره من اختيار الله . وهكذا صومه النافلة وصلاته النافلة يأتى بهما وقتا ويسمح للنفس وقتا لانه مختار صحيح فى الاختيار فى الحالين وهذا هو الصحيح ونهاية النهاية وكل حال يستمر ويستقيم يشاكل حال رسول الله ﷺ وهكذا كان رسول الله ﷺ يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله . ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غير رمضان ويتناول الشهوات . ولما قال الرجل إنى عزمت أن لاآكل اللحم. قال فإنى آكل اللحم وأحبه ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لأطعمنى . وذلك يدلك على أن رسول الله ﷺ كان مختارا فى ذلك ، وإن شاء أكل وإن شاء لم يأكل ، وكان يترك الأكل اختيارا ، وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم : إن رسول الله ﷺ فعل كذا يقولون : كان رسول الله ﷺ مشرعا ، وهذا إذا قالوه على معنى أنه لايلزمهم التأسى به جهل محض فان الرخصة الوقوف على حد قوله ، والعزيمة التأسى بفعله . وقول رسول الله ﷺ لأرباب الرخص وفعله لأرباب العزائم ، ثم إن المنتهى يحاكى حالة حال رسول الله عليه الصلاة والسلام فى دعا الخلق إلى الحق ، فكل ما كان يعتمده رسول الله ﷺ ينبغى أن يعتمده . فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيامه الزائد لايخلو : إما انه كان ليقتدى به وإما انه كان لمزيد كان يجده بذلك . فإن كان ليقتدى به فالمنتهى أيضا مقتدى ينبغى أن يأتى بمثل ذلك والصحيح الحق أن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء . بل كان يجد بذلك زيادة . وهوماذكرناه من تهذيب الجبلة : قال لله تعالى خطابا له ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ لانه بذلك ازداد استمداد من الحضرة الالهية وقرع باب الكرم . والنبى عليه الصلاة والسلام مفتقر الى الزيادة من الله تعالى غير مستغن عن ذلك . ثم فى ذلك سر غريب وذلك أن رسول الله ﷺ برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق ولولا رابطة الجنسية ماوصلوا اليه ولا انتفعوا به وبين نفسه الطاهرة ونفوس الاتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ورابطة التأليف أن النفوس ألفت آنفاً . كما أن الارواح ألفت أولا ولكل روح مع نفسه تأليف خاص والسكون والتأليف والامتزاج واقع بين الارواح والنفوس وكان رسول الله ﷺ يديم العمل لتصفية نفسه ونفوس الأتباع . فما احتاج اليه نفسه من ذلك ناله . ومافضل من ذلك وصل إلى نفوس الأمة . وهكذا المنتهى مع الأصحاب والاتباع على هذا المعنى. فلا يتخلف عن الزيادات والنوافل . ولا يسترسل فى الشهوات واللذات إلا بدلالة تخص النفس. ولا يعطى الاعتدال حقه من ذلك إلا بتأييد الله تعالى نور الحكمة وكل من يحتاج إلى صحة الجلوة للغير لابد له من خلوة صحيحة بالحق . حتى تكون جلوته فى حماية خلوته .

ومن يتراءى له أن أوقاته كلها خلوة وأنه لا يحجبه شىء وأن أوقاته بالله ولله ولا يرى نقصانا لأن الله مافطنه لحقيقة المزيد فهو صحيح فى حاله، غير أنه تحت قصور ، لأنه مانبه لسياسة الجبلة . وما عرف سر تمليك الاختيار . وما وقف من البيان على البيضاء النقية . وقد نقلت عن المشايخ كلمات فيها موضع الاشتباه . فقد يسمعها الإنسان ويبنى عليها .والاولى أن يفتقر إلى الله تعالى فى أى كلمة يسمعها حتى يسمعه الله من ذلك الصواب.

نقل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال إذا اجتمعت المتفرقات . واستوت الاحوال والاماكن . وسقطت

رؤية التمييز ومثل هذا القول يوهم أن لايبق تمييز بين الخلوة والخلوة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها.ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصا، يعنى أن حظ المعرفة لايتغير بحال من الاحوال ،وهذا صحيح،لان حظ المعرفة لايتغير ولايفتقر إلى التمييز وتستوى الاحوال فيه،ولكن حظ المريد يتغير ويحتاج إلى التمييز، وليس فى هذا الكلام وأمثاله ماينافى ماذكرناه .

قيل لمحمد بن الفضل حاجة العارفين إلى ماذا ؟ قال حاجتهم إلى الخصلة التى كملت بها المحاسن كلها ألا وهى الاستقامة،وكل من كان أتم معرفة كان أتم استقامة ،فاستقامة أرباب النهاية على التمام ،والعبد فى الابتداء مأخوذ فى الاعمال محجوب بها عن الاحوال وفى التوسط محفوظ بالاحوال فقد يحجب عن الاعمال وفى النهاية لاتحجبه الاعمال عن الاحوال ولا الاحوال عن الاعمال، وذلك هو الفضل العظيم

سئل الجنيد عن النهاية فقال هى الرجوع إلى البداية ، وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال معناه أنه كان فى ابتداء أمره فى جهل ، ثم وصل إلى المعرفة ،ثم رد إلى التحير والجهل ، وهو كالطفولية يكون جهل ثم علم ثم جهل قال الله تعالى ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيئا ﴾

وقال بعضهم أعرف الخلق بالله أشدهم تحيرا فيه ويجوز أن يكون معنى ذلك ماذكرناه أنه يبادىء الأعمال ، ثم يرقى إلى الأحوال ثم يجمع له بين الاعمال والاحوال ، وهذا يكون للمنتهى المراد المأخوذ فى طريق المحبوبين تنجذب روحه إلى الحضرة الإلهية وتستتبع القلب ، والقلب يستتبع القالب فيكون بكليته قائما بالله ساجدا بين يدى الله تعالى ، كما قال رسول الله ﷺ « سجد لك سوادى وخيالى » وقال الله تعالى ﴿ ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ والظلال القوالب تسجد بسجود الارواح وعند ذلك تسرى روح المحبة فى جميع أجزائهم وأبعاضهم ، فيتلذذون بذكر الله وتلاوة كلامه محبة وودا ، فيحبهم الله تعالى ويحببهم إلى خلقه نعمة منه عليهم وفضلا ،على ماأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله عن أبو طالب الزينى عن كريمة المرزوية عن أبو الهيثم الكشميهنى عن أبو عبدالله الفربرى عن أبو عبد الله البخارى عن إسحق عن عبد الصمد عن عبد الرحمن بن دينار عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل إن الله تعالى قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ثم ينادى جبريل فى السماء إن الله قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى الارض » وبالله العون والعصمة والتوفيق

تم بحمد الله المعيد المبدى

كتاب عوارف المعارف للامام السهروردى

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

فهرس

ملحق كتاب إحياء علوم الدين

صحيفة

كتاب عوارف المعارف

صحيفة

صحيفة

صحيفة

تم الفهرس ، وبتمامه تم ملحق الإحياء
والحمد لله أولا وأخيراً

